دائرة معارف في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة شبلي النعماني

أكمله

العلامة السيد سليمان الندوي

الجزء الرابع

قدم له

الأستاذ الدكتور علي جمعة

مفتي الديار المصرية

ترجمه وحققه وعلق عليه

الدكتور/ يوسف عامر

الدكتور/ عبد [illegible] [illegible]

طبع على نفقة

د/ حسن عباس زكي

دائرة معارف في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة شبلي النعماني

أكمله

العلامة / السيد سليمان الندوي

الجزء الرابع

قدم له

الأستاذ الدكتور / علي جمعة

مفتي الديار المصرية

ترجمه وحققه وعلق عليه

الدكتور / يوسف عامر

الدكتور / عبد المجيد الندوي

طبع على نفقة

د / حسن عباس زكي

تقديم (المترجم)

هذه هي ترجمة الجزء الرابع من كتاب " **دائـــرة معـــارف فـــي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم**" وقد سبق أن ذكرنـــا – فـــي تقـــديم ترجمة الجزء الأول – أن مؤلفه مولانا **شبلي النعماني** توفاه الله تعالى قبل أن يتم تأليفه لهذا الكتاب، وأتمه منٓ بعده تلميـــذه **ســـيد ســـليمان الندوى**. والكتاب في سبعة أجزاء. وتفضل السيد الأستاذ الدكتور **علـــى جمعة مفتي الديار المصرية** بكتابة مقدمة وافية عن "**السيرة النبويـــة**" نشرت ضمن ترجمة الجزء الأول.

ورغم أن موضوع الكتاب" **السيرة النبويـــة**"؛ إلاّ أنه يضم بـــين دفتيه أجزاءً لا تتعلق بالمغازى ووقائع وأحداث السيرة النبويـــة فقـــط، والتي يُطلقُ عليها عامة "**السيرة**"؛ وإنما تتعلق برسالة الإسلام، وبمـــن بلغ هذه الرسالة. فالكتاب في مجمل أجزائه يُجيب على سؤالين: الأول: **من نبي الإسلام ؟** والثاني: **ما دعوته ورسالته؟** وتجيب الأجزاء الثلاثة الأولى على السؤال الأول، أما بقية الأجزاء، فتجيـــب علـــى الـــسؤال الثاني.

يتحدث المؤلف في هذا الجزء عن الأعمال النبوية للرسول ﷺ، وكيف أرسى قواعد الإخاء والتسامح بين الناس جميعا، وكيف كان صلي الله عليه وسلم قدوة في عظيم الأخلاق وحسن المعاملة مع الناس جميعًا. بدأ المؤلف هذا الجزء بمقدمة تحدث فيها عن مقام النبوة، وتحت هذا العنوان كتب عن الفرق بين النبي والمصلح والحكيم، وحقيقة النبوة وخصائصها، وعصمة النبي، وأنواع المصلحين، وبعثتي

النبي صلى الله عليه وسلم،وانتخاب أمة للبعثة، والإراءة. ثم كتب بعد ذلك عن **أحوال العالم الدينية والأخلاقية عند بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم**، وعن سمات العرب وأهليتهم لأن يكونوا خير الأمم، والتوحيد وأركانه وأصوله، ووحدة الأديان، وأسماء الله تعالى وصفاته، كما كتب تفصيلا عن العقائد، والدعوة النبوية ومبادئها وأسباب نجاحها، وعن البعث، والبرزخ وغيرها من الموضوعات الهامة التي قلما نجد لها ذكر في كتب السيرة النبوية.

طرح المؤلف مسائل جدلية من بينها مسألة خروج آدم عليه السلام من الجنة، وهل الشجرة التى أكل منها هي شجرة الخلد أم شجرة معرفة الخير من الشر؟ ومسألة تطور خلق الإنسان وغيرها من المسائل. وقد آثرت أن أترك للقارئ البحث في مثل هذه الأمور دون تدخل مني بتعقيب.

كتب المؤلف هذا الجزء بأسلوب فلسفي خالص، لذا كانت ترجمته صعبة للغاية، ولكنها تمت بفضل الله وتوفيقه.

اعتمد المؤلف في كل ما كتب على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، كما يرجع إلى مصادر أوربية وعربية وفارسية وأردية.

ويحرص المؤلف في كل ما كتب على الرجوع إلى ما جاء في القرآن الكريم، والصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة.

ويتسم أسلوبه بالحوار مع الأديان الأخرى مقتبساً من نصوصها وكتبها معلقاً عليها مستدلاً بما جاء في الكتاب والسنة على صحة ما يقول.

كما يُورد المؤلف أحيانا بعض الأشعار الفارسية المتضمنة لمثل عليا وحكم جليلة، وهذا يدل على ثقافته الشرقية والإسلامية الواسعة، وحرصه على تواصله بها.

اقتبس المؤلف آيات قرآنية كثيرة ولكن النسخة التي اعتمدت عليها فى الترجمة كانت توجد بها أخطاء فى تخريج الآيات القرآنية؛ لذا حرصت على تخريج كل آية كريمة استدل بها المؤلف.

رجع المؤلف إلى أحاديث نبوية كثيرة، ولم يكتب نصها العربي، واكتفى بترجمة معانيها إلى اللغة الأردية؛ لذا حرصت على تحقيق هذه الأحاديث، وكتابة نصها العربي من خلال كتب الصحاح. وهناك أحاديث أشار إلى معناها فقط ولم يترجمها، لذا قمت بكتابة نصها كاملا في الحاشية؛ حتى يتعرف القارئ عليها بسهولة. أما بعض الأحاديث التي أوردها المؤلف بنصها العربي في المتن، حرصت على تحقيقها من كتب الصحاح وأدرجتها بتخريجها في الحاشية. وكتبت اسمي (يوسف عامر) فى الحاشية بعد كل تدخل مني، حتى إذا كان هناك أي خطأ يرجع إليّ وليس إلى المؤلف أو الدكتور عبد المجيد الذي شاركني في ترجمة مائة وخمسين صفحة من هذا الجزء.

اقتبس المؤلف كثيراً من الكتب والمصادر العربية وهو ما حرصت على تحقيقه والرجوع إلى نصه الأصلي.

استشهد المؤلف بكثير من فقرات التوراة والأناجيل المختلفة مكتفيا بترجمة معانيها إلى اللغة الأردية دون إدراج نصها العربي؛ لذا حرصت على توثيق هذه الاقتباسات وإدراج نصها العربي كما وردت في التوراة والأناجيل العربية.

استشهد المؤلف بأشعار فارسية وأردية؛ لذا قمت بترجمتها إلى اللغة العربية.

وفي النهاية أتقدم بخالص الشكر لزوجتي وأولادي، الذين هيئوا لي الجو المناسب حتى أتم هذا العمل. كما أتقدم بخالص الشكر لكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل، وهم الأستاذ محمد السيد، والأستاذ رضا راغب، والأستاذ عبد الرحيم، والأستاذ هاني السعيد، والأستاذ إسلام، والأستاذ محمد حامد، والدكتور طارق عبد الجليل، والأستاذ أحمد عبد المنعم. جزاهم الله عني خير الجزاء.

المترجم

يوسف عامر

مقدمة (المؤلف)

مقام النبوة

موضوع الكتاب: أعماله ﷺ النبوية

إن أهم ما يميز كتب السيرة في الحديث عن حياته ﷺ هو الاهتمام البالغ بالغزوات والحروب، غير أن الحقيقة هي أن الغزوات لم تكن مقصودة لذاتها، بل حدثت ضمن الدعوة الإسلامية دون قصد، فالرسول ﷺ عرض على العرب دعوة الإسلام، فرفضوا اعتناق هذا الدين، ليس هذا فحسب، بل سعوا كل السعي لمحوه وإزالته، وآذوا من قَبِلَ هذه الدعوة وآمن بها، وطردوهم من بيوتهم، فاضطروا إلى الهجرة إلى مدينة أخرى؛ حفاظاً على أرواحهم، وهناك ازدهرت الدعوة، وقبل عدد كبير دعوتهم، وصدقوهم.

وحين رأى المعارضون هذا الازدهار هاجموهم من كل جانب، وأرادوا أن يزيلوا هذه الجماعة من على الأرض بقوة السيف، فاتخذت هذه الجماعة تدابير لإنقاذ أرواحها، وسد سيل مؤامرات المعارضين ومساعيهم، التي تشبه الجبال. أثار هذا الصراع سلسلة من الغزوات الدامية، التي امتدت لعشر سنوات، ثم انتهت تدريجيا كل هذه الغزوات بسبب معجزات النبيﷺ، وحسن تدبيره، وكريم خلقه ﷺ، واستقام نظام آمن.

لا ريب في أن هذا الإنجاز لا يقل شأناً(عن بقية أعماله ﷺ)، ويستحق الإشادة، ولكن على القراء ألاّ ينسوا أننا نكتب سيرة شخصية طاهرة.

بالرغم من كل ما حدث، وما تعرضت له الدعوة الإسلامية، فإنه كان أمرا محيراً ومظهراً من مظاهرِ الآيات الربانية، والحقيقة أنه لم تكن الغزوات من أعمال النبي ﷺ الأصلية، فلم تكن مقصودة لذاتها، بل كانت حوادث عارضة، حدثت بسبب مخالفة الأعداء ومعارضتهم لدعوة الإسلام ونشره. أما أعماله ﷺ الأصلية النبوية هي التي كانت تظهر في كل الأحوال حتى وإن لم تحدث هذه الحوادث العارضة بالمرة، وهي وقائع حياته المباركة وترجمتها. أي خلق ثورة

روحانية وأخلاقية خالصة في العرب، وتبليغ العالم أجمع بالشريعة الكاملة والأخيرة، وملأ الدنيا بأسرها بنشيد التوحيد، والسرور والمحبة، وتحويل الدنيا المظلمة إلى سراج منير، لتصبح كل بقاعها منورة ومضيئة، وإرشاد الضالين، وتذكير الناسين وتنبيه الغافلين، ووصل علاقة العباد برب العباد، ومحو الأوهام، وتعليم مكارم الأخلاق، وغسل سجل الآثام والمعاصي، وإخراج الناس من حبائل الشيطان ومكائده، ووضعهم في مصاف الملائكة، وإعطاء الدنيا دروس الرفق والمحبة واللطف والشفقة، والأخوة والمساواة والعدل، وتعليم رموز الحكمة والعقل والنصيحة والموعظة الحسنة والثقافة والحضارة، وإعمار الدنيا الخربة من جديد، وإعمار بيوتات القلوب والأرواح من جديد.

خلاصة القول هو أن العمل الحقيقي لخاتم النبيين والمرسلين هو تأسيس شريعة خالدة، وإصلاح أديان العالم، وتكملة فن مكارم الأخلاق علميا وعمليا، وإظهار القانون الإلهي وتبليغه، والوصول إلى آخر مراحل تهذيب النفوس. واستمر هذا كله في نفس الوقت الذي لم يتوقف فيه سد سهام حملات الأعداء ليل نهار. والمجلد الذي نحن بصدده يشتمل على أحداث سيرته ﷺ المباركة وأعمالها.

النبي والمصلح والحكيم:

يبدو واضحاً أن مثل هذه الأعمال تحدث أيضا من قبل أناس ليسوا أنبياء، وهؤلاء يقدمون لقومهم وبلادهم دعوتهم الإصلاحية، وبسعيهم الدعوب وبجهدهم المتواصل يخلقون فيهم ثورة سياسية واجتماعية وتعليمية واقتصادية، ويخرجونهم من خندق الذل والعار، ويبلغونهم الدرجة الرفيعة من التقدم والنهضة. ويطلق على مثل هؤلاء الناس المصلحون والمقومون.ويوجد هناك أناس آخرون أيضاً تخرج من أفواههم لآلئ الأخلاق والحكمة والنصيحة والموعظة، ويطلق عليهم الحكماء. ففي هذه الحالة كيف يفرق بين الرسول والمصلح والحكيم؟ ونتيجة لهذا الالتباس لا يميز كثير من قصار النظر بين الرسول والمصلح والحكيم، ولهذا نرى أنه من الضروري أن نوضح هذا الفرق أولا.

حقيقة النبوة وخصائصها

لتوضيح هذا الفرق لابد من فهم حقيقة النبوة واستيعابها جيداً، قدم الإمام الغزالي في كتابه"معارج القدس" وشاه ولي الله الدهلوي في كتابه "حجة الله البالغة " شرحاً وافياً لحقيقة فلسفة النبوة وماهيتها. وهذان الشيخان على معرفة وافية بالتصوف والفلسفة والنقليات، ومن ثم فحين يقولان شيئاً لابد من أن يكون فيه جزء من تذوقهما ومشاهدتهما الذاتية.

يقول الإمام (الغزالي): "إن النبوة تفوق الإنسانية في الدرجة، كما أن الإنسانية تفوق الحيوانية، والنبوة عطاء إلهي، وهبة ربانية، ولا يمكن نيلها بالسعي والجهد والكسب."

يقول الله تعالى:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام:١٢٤)

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (الشورى:٥٢)

والآية التالية صريحة في هذا المقام:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الجمعة:٤)

وصحيح أن العبادات والرياضات المشتملة على التدبر والمراقبة والمبرأة من الرياء وطلب السمعة، تخلق في النفس استعداداً لتقبل آثار الوحي، ولكن على الرغم من هذا؛ فمقام النبوة ليس حادثاً عارضاً، يمكن أن يكتسبه أي أحد بالجهد والسعي، بل كما أن جنس الإنسان يصبح إنسانا، وجنس الملائكة يصبح ملاكاً ليس مرهونا بسعي أفرادهم وجهدهم، فكذلك جنس الأنبياء لا يصبح نبيا بسعي أفرادهم وجهدهم. إن طفل كل إنسان لا ينال الدرجة الإنسانية بجهده الذاتي، بل ينالها بمنحة وعطاء من كريم العالم، ولكن الخبرات الإنسانية العادية لابد لنيلها من بذل جهد (أي من يريد اكتسابها يجب عليه أن يبذل قصارى جهده)، كذلك النبوة لجنس الأنبياء ليست شيئاً مكتسباً، لكن طبقا لهدف النبوة فالرياضية والعمل والاستعداد لتلقي الوحي أمران ضروريان، وبناء على هذه الأصول والضوابط تجد أن كثيراً من الرسل قضوا فترة ما في العبادة والمراقبة قبل تلقي الوحي،

قضوا شهراً أو أربعين يوماً، متجردين من زينة الدنيا وزخارفها، ففي التوراة عن موسى عليه السلام أنه ظل على جبل الطور أربعين يوماً وهو صائم، وكذلك في الإنجيل عن عيسى عليه السلام أنه ظل مشتغلاً في العبادة والصوم لمدة أربعين يوماً في غابة خالية، وكذلك رسولناﷺ قضى شهوراً في غار حراء منعزلاً قبل الوحي، والكل يعرف كيف كان الرسولﷺ مشغولاً في التفكير والمراقبة والعبادة والرياضة.

حينما ذهب نبينا ﷺ إلى غار حراء وانشغل بالعبادة، فكانَ لا يَرى رُؤيا إلا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبْح[١]، كما أنه ﷺ كان بعد الوحي يبقى مشغولاً بالعبادة حتى تتورم قدماه[١] وهنا خاطبه القرآن وقال له:

---

[١] – ورد هذا في صحيح البخاري

وهذا نص الحديث كاملا: حدثنا يَحيى بنُ بُكَيْر قال: حدَّثنا اللَّيثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ أنَّها قالتْ: أوَّلُ مابُدِىءَ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْح. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخلو بِغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ — وهو التَّعَبُّدُ — اللياليَ ذواتِ العدَدِ، قَبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلِهِ ويتزوَّدُ لِذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَديجةَ فيَتَزَوَّدُ لمثلِها، حتَّى جاءَهُ الحَق وهوَ في غارِ حِراءٍ، فجاءهُ المَلَكُ فقال: اقْرَأْ. قالَ: ما أنا بِقارىء. قال: فأخَذَني فغَطَّني حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرْسَلَني فقال: اقرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارىءٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثانيةَ حتى بلغ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أَرسَلَني فقال: اقْرَأْ فقلت: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغَطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسلَني فقال: {اقرأ باسْمِ ربِّكَ الذي خَلَق، خلَقَ الإنسانَ منْ علَق. اقْرأْ وربُّكَ الأكرَمُ} فرجعَ بها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدخلَ على خَديجةَ بنتِ خُوَيلدٍ رضيَ اللهُ عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني. فَزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهبَ عنه الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خَشِيتُ على نَفْسي. فقالت خَديجةُ: كَلاّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْري الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقِّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حَتى أتتْ به ورقةَ بنَ نوفَل بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى — ابنَ عَمِّ خديجة — وكانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكتابَ العِبْرانيَّ، فيكتُبُ منَ الإنجيلِ بالعِبْرانيَّةِ ماشاءَ اللهُ أن يَكتُبَ، وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: ياابنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِن ابنِ أخيكَ. فقال لهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا ترَى؟ فأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ مارأى. فقال له ورَقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، ياليْتني فيها جَذَعٌ، لَيْتني

﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (طه:١-٢)

ومع هذه العبادة والرياضة لابد للنبوة أن يكون صاحبها حسن الشكل، معتدل المزاج، حسن التربية، طاهر النسب، كريم الأخلاق، ذا جبلة صالحة، والاستقامة، وأن يكون رحيماً ومتواضعاً مع أحباب الله وأصفيائه، وشديداً مع أعداء الحق، هذا فضلاً عن أن يكون صاحب النبوة صادقاً وأمينا وطاهراً من كل السيئات، ومزيناً بكامل الفضائل والمكارم، ومبرءًا من كل الرذائل، وأن يعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه، وكذلك يحسن إلى ذوى القربى والجيران، وينصر المظلومين، ويغيث المستغيثين، وأن تكون جبلته محبة للخير والصلاح، ومنفرة من السيئات. شأنه كما بينه القرآن الكريم:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (النجم: ٢)

وصفته هذه تكون في الحياة الدنيا بأن يكون طاهراً من الضلالة والغواية.

يقول الله تعالى:﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم: ١٧)

ومن تكون حالته كهذه نحو مناظر هذه الدنيا ومشاهدها، فإن كل قوى العالم تخضع أمام قوته طوعاً وكرها في النهاية. وبجانب كل هذه الصفات لا يكون الرسول مغروراً ولا ظالماً، ولا قاسياً، ولا سيئا، ولا حاد المزاج. فهو يحمل الحمل الثقيل للنبوة والرسالة، ويؤدي حقها كاملاً، وينشر فيض رحمته في العالم كله.

أكونُ حَيّاً إذْ يُخرِجُكَ قَوْمُك. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخرِجِيَّ هُمْ؟ قال: نعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ماجئتَ به إلاَّ عُودِي، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ. (يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه: (١١١٣) حدَّثنا أبو نُعَيمٍ قال حدَّثنا مِسْعَرٌ عن زِيادٍ قال: سمعتُ المغيرةَ رضيَ اللهُ عنه يقولُ: إنْ كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم لَيَقومُ ــ لِيُصلِّي ــ حتى تَرِم قدماه ــ أو ساقاه فيقالُ لــه، فيقول: أفلا أكونُ عبداً شكوراً»؟. (يوسف عامر).

الطريقة الإجمالية لثبوت النبوة والرسالة

هناك طريقتان لثبوت النبوة: طريقة إجمالية، وأخرى تفصيلية. والطريقة الإجمالية هي كما أن الإنسان مفضل على الحيوان بـالنطق- لأن هـذه الـصفة العقلية لا توجد في الحيوان وبسبب هذه الفضيلة يحكم الإنسان الحيوان، بل أصبح مالكاً له، ويستخدمه في أعماله وأشغاله- فهكذا الأنبياء عليهم السلام، فهم بسبب أرواحهم الطاهرة ونفوسهم الذكية متفوقون على الناس جميعاً. فهـؤلاء الأنبيـاء بهذه النفوس الطاهرة والقوة النبوية يهدون الآخرين إلى طريـق الرشـد، وهـم أنفسهم قائمون على الصراط المستقيم، وعقلهم وإدراكهم النبوي متفوقـان دائمـاً على سائر عقول البشر، وهم فائزون بتلك الموهبة والخصوصية الربانية التـي بسببها يؤدون فرض تـدبير جميـع النفـوس البـشرية، ويـسيطرون عليهـا ويشغلونها(يستخدمونها في الأعمال) وكما أن أعمال الإنسان العجيبـة والغريبـة تكون محيرة للحيوانات، كذلك أعمال الرسل والأنبياء العجيبة والغريبة تبدو للناس معجزات.

وإن كان النبي شريكاً في الأمور البشرية كعامة الناس، فإنه من الناحيـة العقلية والمعنوية ينفصل عنهم تماماً، إذ إن فيه صلاحية تلقى الـوحي، التـي لا توجد عند الآخرين. وقد عبر القرآن الكريم عن نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)

فلكونه من البشر قال الله عنه إنه من البشر، ولكن في الوقت نفسه جعل الفرق واضحاً وهو الوحي، فوضع حداً فاصلاً بينه وبين البشر بالوحي.

ثلاث طرق لثبوت النبوة تفصيليًا

الطريقة الأولى:

توجد في الإنسان ثلاث حركات اختيارية، وفكريـة، وقوليـة وعمليـة، والأفعال التي تحدث من خلالها تكون صالحة كما تكون مـسيئة أيـضا، أي أن الفكر- وهو الرأي- يكون صحيحاً وخاطئاً أيضا، والقول يكون صـادقاً، كمـا يكون كاذبا أيضا، كذلك العمل يكون صالحاً، ويكون سيئاً أيضا.

والآن يُطرح هذا السؤال، وهو كيف يمكن التمييز بين الصحيح والخطأ، وبين الصدق والكذب، وبين الصالح والطالح؟ ثم هل كل إنسان يستطيع أن يميز بينهما أم لا يستطيع أحد التمييز بينهما؟ أم أن بعض الناس يستطيعون، والبعض لا يستطيع؟ والاحتمالان الأول والثاني باطلان تماماً، أما الاحتمال الثالث الصحيح فهو أن بعض الناس يستطيع تحديد هذه الحدود والقول بأن الرأي الفلاني صحيح، والرأي الفلاني خطأ، وأن القول الفلاني صادق، والقول الفلاني كاذب، وكذلك أن الفعل الفلاني صالح، والفعل الفلاني سيء، والشخص الذي يمنحه الخالق هذه القوة بفضله ومنّه هو من يكون نبياً وصاحب شريعة.

الطريقة الثانية:

النوع الإنساني يكون دائماً محتاجاً في أعماله وحركاته الاختيارية ومعاملاته المنفعية للمشاركة والتعاون فيما بينه، ولو لم يكن هذا التعاون والاجتماع فلن يبق أي فرد من البشر على قيد الحياة، ولا يمكن حفظ النفس والمال والعرض، ودستور الحفاظ على بقاء هذه النفس والمال والروح والعرض هو الشريعة. والإنسان يحتاج نوعين من العمل. الأول: أن يساهم الكل فيما بينهم في الأعمال الصالحة ويطلق على هذا "التعاون". والنوع الثاني: أن يُمانع الناس فيما بينهم عن الأعمال السيئة ويطلق عليه"الممانعة". وبالتعاون يوفر الإنسان حاجات الأكل والشراب، واللبس ومتاع العيش، وبالتعاون أيضاً تحدث روابط وعلاقات النكاح وحقوق ذوى القربى والأولاد والأعزاء والأحباب والأصدقاء. وبالممانعة يتضح شكل إنقاذ النوع الإنساني والحياة البشرية، وحماية الثروة والممتلكات، وصوت العرض والعزة. ولابد أن تكون أصول هذا التعاون وهذه الممانعة مرتبة ومحددة ومعلومة، وأن توضح هذه الأصول والضوابط بحيث لا ترجح كفة مصالح وفوائد شخص أو أسرة أو قبيلة أو قوم على كفة الآخرين، بل تكون مصالح وفوائد متساوية. وطبيعي أن مثل هذا القانون والدستور لا يمكن وضعه عن طريق البشر، بل يُشرع بالوحي الرباني، والتعليم الإلهي، أن الإنسان أيا كان لابد له أن يكون مرتبطاً بأسرة أو قبيلة أو قوم أو بلد، فلا يمكنه أن يضع قانوناً محايداً، وتكون جميع المخلوقات سواسية أمام هذا القانون، ولا ترجح كفة

على أخرى، ويكون للعالم كله واجب العمل به، وهذا مستحيل. ولهذا من الضروري أن توحي هذه الأصول والضوابط أو القانون من الذي بيده زمام نظام العالم، فهو خبير برموز أحوال النوع البشري كله الظاهرة والباطنة. والشخص الذي توحي إليه هذه الضوابط أو القانون من خالق الكون هو من يكون نبياً ورسولاً.

الطريقة الثالثة:

أما هذه الطريقة فمن لم يعرفها، فلم يعرف حقيقة النبوة وماهيتها، أولاً لابد من معرفة أن الله تعالى له عملان: الخلق(الإيجاد من العدم) والأمر(حسب مرضاته). والكون عبارة عن هذين العملين، فكما أن الملائكة واسطة ووسيلة بين الخالق سبحانه والمخلوق في الخلق والإيجاد والتوليد وتبليغ الرسالة، كذلك الأنبياء واسطة ووسيلة بين الله والعباد في تبليغ أوامره، وكما يجب الإيمان بالله بوصفه خالقًا وآمرًا، كذلك يجب الإيمان بالأنبياء بوصفهم واسطة بين الله وعباده في تبليغ الأوامر.

بعد هذا لابد من التركيز على المقدمات التالية:

١. بما أن وجود الممكن والعدم سواء، لذا من الممكن أن يكون هناك مُرجِّح للإيجاد، وبسببه يكون الوجود مرجحاً على العدم، ويمكن أن يُخلق ذلك الشيء من العدم، وهذا هو علة الأمر المرجح الممكن.

٢. لابد لحركات كل نوع من محرك يجدد الحركة كل حين وآن، ثم إن الحركات قسمان: قسم طبيعي، وأخر إرادي. والقسم الإرادي لابد لمحركه أن توجد فيه الإرادة والاختيار، كذلك الحركة الطبيعية لابد لمحركها أن يكون ذا عقل وتدبير. فالشمس والقمر والمخلوقات(المجرات) السماوية الأخرى إن كانت حركاتها طبيعية فلا بد لمن يحركها أن يكون عاقلاً ومدبراً، وعن هذا قال القرآن الكريم:

﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ (فصلت:١٢)

٣.والآن كما أن الحركات الإنسانية في حاجة إلى إرادة واختيار، أي بدونهما لا يمكن حدوثهما كذلك هذه الحركات في حاجة إلى مرشد يبين الصراط المستقيم

لهذه الأعمال والحركات، ويميز الحق من الباطل والصدق من الكذب، والخير من الشر.

٤.أوامر الله تعالى تنقسم إلى قسمين: قسم تدبيري، وأخر تكليفي. والقسم الأول جارٍ وسارٍ في نظام الكون كله، وبسببه يتجلى في الكون كله تسلسل وتنسيق في التدبير والنظام. جاء في القرآن الكريم:

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (الأعراف:٥٤)

أما القسم التكليفي فهو للإنسان فقط ولهذا جاء في القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ (البقرة :٢١)

ثبت من هذه المقدمات التي سقناها أن جميع حركات الإنسان ممكنة، لذا لابد لها من مُرجِّح، وهي اختيارية، لذا لابد لها من عقل، ثم إن هذه الحركات تحتمل الخير والشر، ولهذا لابد لها من مرشد وقائد، ويطلق على هذا المرشد والقائد النبي والرسول.

أوامر الله تعالى المديدة تنفذ في الكون عن طريق الملائكة، وقياساً على هذا فإن أوامر الله تعالى التي تنفذ في الناس تكون عن طريق هذه النفوس الطاهرة التي تعرف باسم الأنبياء والرسل.

ناقش شاه ولي الله الدهلوي هذا الموضوع في البابين الأول والثاني من المبحث السادس لكتاب "حجة الله البالغة"، والحقيقة أنه ناقشه بكل اقتدار، ونسجل تقرير شاه ولى الله الدهلوي هنا بأسلوبنا.

الحاجة إلى النبي

يوجد داخل الإنسان نوعان من القوة هما: القوة البهيمية، والقوة الملكوتية. الأكل والشرب، والشهوة والبخل والطمع والاستيلاء والجور وغيرها من الأعمال التي تنتج عن القوة البهيمية. أما التدبر والتفكير والعلم والمعرفة ومكارم الأخلاق والصبر والشكر والعبادة والطاعة وغيرها من الأفعال فهي من نتاج الملكوتية. لابد من إتباع قوة الإنسان البهيمية لقوته الملكوتية من نجاحه الروحاني، ومع أن العقل السليم يستطيع معرفة الأسس والطرق التي عن طريقها تتضح فوائد تبعية

القوة البهيمية للقوة الملكوتية وتبرز أضرار الإثم، وباستخدام هذا العلم الذي جاء من نتاج العقل السليم يستطيع الإنسان تقويمه وإصلاحه والاستفادة منه؛ إلا أن هذا احتمال عقلي فالحالة العملية أن على أعين الإنسان توجد غشاوة من الملذات الدنيوية والحرص والطمع والأهواء غير اللائقة والغفلة وهذه الغشاوة التي يوجد بعضها فوق بعض تفسد قوة المادة الأصلية والفطرية للشعور والإحساس، فكما تتغير ذائقة لسان الإنسان في حالة مرضه إذ إن الأكلات الحلوة تبدو له مرة، كذلك عندما يفسد الشعور والحس الداخلي ينسى الإنسان التمييز بين الحق والباطل والخير والشر والصالح والطالح، والطيب والخبيث. ولهذا يحتاج النوع الإنساني إلى مرشدين صالحين ومعلمين روحانيين لكي لا تكون مرآة حسهم وشعورهم ملبدة بالغبار والتراب.

إن كانت الأفراد والجماعات والبلاد تحتاج إلى شخص يُوجد فيما بينها بقوة سياسته الصلح والأمن والأمان فكيف لا تكون الشعوب بل الكون كله في حاجة إلى شخص يقرر له – حسب صلاحية كل جماعة – الحقوق والواجبات. وأمثال هؤلاء الناس الذين يستطيعون القيام بهذه المسئولية قليلون، وهذه القلة مثل أصناف المهن المختلفة العادية. انظر إلى مهنة النجارة والحدادة، رغم أنهما حرفتان عاديتان لكن ممارستهما ليست في وسع كل شخص. وهذه الحرف والمهن لم تأت من فراغ، وإنما وجد لها أناس كانوا متذوقين لها وحاسين بها، وكانوا قد نالوا قدرة فطرية لها، وبهذه الصلاحية والكفاءة أوصلوا هذه الحرف إلى درجة الكمال، ووضعوا لها الضوابط، وقلدهم كل من جاء بعدهم تباعاً، وطوروا فيها. مع أن فن الأخلاق والروحانية ومصالح الأمة ومنافعها العامة بقدر ما هي مهمة وحساسة، ولكن هل هي في استطاعة أي شخص عادي أن يفهمها ويضع لها أسسها وضوابطها؟.

عصمة النبي

ومع هذا فضروري ومهم جداً أن يثبت الشخص الذي يدعى ويطلب منصب هذه القيادة أنه على معرفة تامة بالأسس والقواعد التي سبق بيانها، وأنه معصوم في علمه وتعليمه من الخطأ والضلال، وهذا لا يمكن أن يثبت إن لم

تكن مصادر علمه ومنابعها مبرأة من الخطأ، ويوجد فيه إحساس وشعور بهذا العلم، كما يوجد في الإنسان إحساس وشعور للجوع والعطش، هل يستطيع أحد أن يخطأ في إحساسه وشعوره بالجوع والعطش؟ كذلك تكون أحكامه قطعية بين الحق والباطل والخير والشر، وبين الطيب والخبيث، وهذه الأحكام لا تحتاج إلى دليل عقلي. كما أودع الله سبحانه وتعالى فينا علم إحساس الجوع والعطش ولا يمكن للإنسان أن يتنازل عنه، متأثراً بالأدلة والحجج العقلية، ولا يمكن القول بأن هذا اليقين خطأ، فكذلك أودع الله في داخل هذه النفوس الطاهرة حساً خاصاً، وذوقاً سليما، ودائمًا يكون عملها صحيحا، وحسها صادقًا، وحكمها بالعدل ناطق.

حب النبي لدى كافة الناس

مثل هذا الشخص حينما يأتي أمام الناس، ويتيقن الناس بتجاربهم المتعددة مصداقيته وصدقه واستقامته والتصرفات التي تصدر منه والتي تؤكد أنه مقرب إلى الله، ففي هذه الحالة يجتمع الناس حوله من كل جانب، وفي سبيل حبه يقدمون أنفسهم وأموالهم وأهلهم وأولادهم فداءً له.

يناقش شاه ولي الله الدهلوي موضوع النبوة في فصل آخر بأسلوب جديد ملخصه ما يلي:

المصلحون

للناس درجات متفاوتة وذلك حسب فضلهم وكمالهم وعلمهم وعملهم، وأعلى درجة منهم المصلحون، وهؤلاء هم الذين يتمتعون بقوة ملكية عالية، وتوجد فيهم قدرة، تمكنهم من إقامة نظام خاص بعاطفة صادقة وصحيحة، وتتنزل عليهم علوم وحالات تتجلى فيها الآيات الربانية، وهؤلاء الناس يتصفون باعتدال المزاج، وبالصحة والسلامة في الصورة والسيرة، وبالتوسط في الذكاء والعقل، وليسوا ببلداء، لا يستطيعون الوصول إلى الكليات عن طريق الجزئيات، ولا حادو الذكاء حتى لا ينشغلوا دائماً بالتخيلات والعقليات بغض النظر عن الجزئيات والمحسوسات. وهؤلاء هم من يتسمون بسلامة الفطرة، ومقبولة عاداتهم وأطوارهم، وتتصف علاقاتهم مع الله تعالى بالعبادة والطاعة، ومع العباد بالعدل والإنصاف، وهم في أحكامهم لا يبالون بمآربهم الشخصية أو بالمنافع الفردية،

وإنما ينظرون دائماً إلى المنفعة العامة، وهم لا يؤذون أحداً بقصد، إلا إذا كانت هناك منفعة عامة بضرر ضئيل، ويستفيد منها أعداد كبيرة من الناس، فهم في هذه الحالة يتحملون الضرر الشخصي والفردي، وهؤلاء دائما يتوجهون في كل أمورهم وشئونهم إلى عالم الغيب، وأثره يكون ظاهراً وواضحاً في أقوالهم وأفعالهم ومعاملاتهم، وتؤيدهم نواميس الكون كله وتنصرهم، وبرياضة وبعبادة بسيطة تتفتح لهم أبواب لا تتفتح لغيرهم.

أنواع المصلحين

للمصلحين أنواع مختلفة كل حسب درجته، ولديهم مواهب عديدة، وعليه فلكل منهم اسم إصلاحي فمن ينال علوم تهذيب النفس بكثرة الطاعات والعبادات فهو كامل، ومن يتحلى بالأخلاق الفاضلة، وأصول تدبير شئون المجتمع فهو حكيم، ومن يتحلى بعلوم السياسة والتخطيط، ويوفق في إقامة العدل بين الناس وإبعاد الظلم عنهم فهو خليفة، ومن ينزل عليه الملأ الأعلى ويتلقى منه التعليم ويخاطبه وتصدر منه تصرفات مختلفة الأقسام، يقال له المؤيد بروح القدس، ومن يكون في لسانه وقلبه نور، ويستفيد الناس من صحبته ومواعظه وينتقل هذا النور منه إلى رفاقه المقربين، الذين يصلون هم الآخرون عن طريقه إلى درجة الكمال، يقال له الهادي والمذكي، ومن يكون معظم علمه مطابقاً لأصول الملة وتعاليمها ومدركا لما ينفعها، ويقدر على إقامة أركان الأمة المنهارة وأسسها من جديد، يقال له الإمام، ومن يلقى في قلبه تنبيه الناس إلى مصابهم الخطير الذي كتب عليهم في هذه الدنيا نتيجة لأفعالهم، كما يبين لهم أيضاً أسباب بعدهم عن رحمة الله تعالى، وينذرهم مما سيصيبهم من عذاب شديد في القبر والحشر، يقال له "المنذر".

وحين تقتضي حكمة الله تعالى أن يبعث أحداً من هؤلاء المصلحين لهداية الخلق وإصلاحه فيصبح قدومه سبباً لخروج الخلق من الظلمات إلى النور، والله يفرض على العباد أن يطيعوه مخلصين، ويؤكد الله تعالى أن من يطع هذه الشخصية فثوابه الرضا، ومن يعصه فعقابه الغضب، وهذا هو الشخص الذي يكون نبياً.

بعثتان للنبي ﷺ

إن أعظم الأنبياء درجة هو من ينال بعثة أخرى إضافة إلى بعثة الرسالة، والإرادة الإلهية من هذا هي أن يخرج قومه على يديه من الظلمات إلى النـور، وعلى يدي قومه تخرج الأقوام الأخرى من الظلمات إلى النور أيـضا، فالبعثـة الذاتية لهذا النبي تسمى البعثة الأولى. وترشيح قومه لهداية الأمم الأخـرى هـو البعثة الثانية. وهذه الآية تشير إلى بعثة النبي الأولى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة:٢)

والآية التالية تشير إلى البعثة الثانية للنبي:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَـنِ الْمُنكَـرِ﴾ (آل عمران: ١١٠)

يتبين من هذه الآية أن بعثة النبي محمد ﷺ كما كانت لأمته، كانت بعثـة أمته للأمم الآخرين كذلك، وفي هذا يقول القرآن الكريم:

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج :٧٨)

ولهذا جاء في الأحاديث النبوية أنه ﷺ قال لصحابته رضوان الله عليهم: إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين[1]، والأنبياء الذين بعثوا قبل النبى محمد ﷺ بعثوا لمنصب أو منصبين من المناصب المذكورة، أما النبى محمـد ﷺفقـد تولى كل هذه المناصب في آن واحد، وجُمعت كل هذه العلوم والفنون في ذاتـه الواحدة ﷺ، وأعطي هاتين البعثتين بجدارة واستحقاق.

---

[1] -وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٧٢٣٤) حدَّثنا عبـد الله، حـدَّثني أبي، ثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد، عن أبي هريرة: «دخل أعرابيٌ المـسجد فـصلى ركعتين ثم قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فالتفت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: لقد تحجرت واسعاً. ثم لم يلبث أن بال في المسجد، فأسرع الناس إليه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين، أهريقوا عليه دلـواً مـن ماء، أو سجلاً من ماء».(يوسف عامر).

اصطفاء أمة للبعثة

وواضح أيضا أن حكمة الله تعالى حينما تقتضى بعثة رسول ما، فذلك لأن الخير المضاف للتدبير العمومي والتنظيم والتنسيق ينحصر في بعثة هذا الرسول، وعلم السبب الحقيقي لهذه البعثة لدى الحكيم علام الغيوب وحده، وكل منا يعرف قطعاً أن هناك أسباباً ما توجد للبعثة بالضرورة، وطاعة هذا الرسول تكون مكتوبة على الأمة، لأن الله تعالى يعلم أن هذه الأمة لديها استعداد لطاعة الله وعبادته، ولديها قدرة كافية للاستفادة من رحمة الله، فيبعث الله فيها الرسول، ولأن صلاح الأمة ينحصر في إتباع هذا الرسول، فقد فرض الله طاعته على الجميع.

زمن البعثة

في هذا المقام لابد من ملاحظة بعض الأمور، فحين يكون الوقت مهيئاً لأن تقام حكومة جديدة لمحو وإزالة الحكومات الأخرى التي ملأت الدنيا بالفساد والشر، ففي هذا الوقت يبعث الله تعالى رسولاً، كي يُصلح أولاً أمة هذه السلطنة التي أقيمت من قبل، ويصلح هذا الدين حتى يتسنى إصلاح الأمم الأخرى عن طريق هذه الأمة. وينطبق هذا على بعثة نبينا محمد ﷺ. أو أن الله يريد إبقاء حياة أمة ويجعلها مقربة إليه سبحانه فيبعث فيها شخصاً يُقوّم اعوجاجها ويعلمها كتاب الله ويجعلها جديرة به، وهذا ينطبق على بعثة النبى موسى عليه السلام في قوم بني إسرائيل، أو يقضى الله لأمة أن تنال مزيداً من الحياة، ويستمر دينها وتبقى سلطنتها فيبعث مجددو النبوة، كما حدث في بني إسرائيل في أزمنة مختلفة، فبعث داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء والرسل.

النجاح المؤكد للنبي

في زمن البعثة لكل نبي يقضى الله تعالى بنجاح النبي وأصحابه، ويكون الفشل والسحق لأعدائه المرة تلو الأخرى حتى يستقيم الحق وتستكمل الدعوة، يقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصافات: ١٧١: ١٧٣)

إن كل ما قاله هذان الشيخان (الإمام الغزالي وشاه ولي الله) صحيح تماماً، وكل من تكون لديه نظرة عميقة في أقوال الأنبياء المباركة وسيرهم الطاهرة فلن يشك على الإطلاق في القبول والاعتراف بهذه الأصول، ويمكن الاستدلال عليها من الوقائع والأحداث كما يستدل على النفسيات الاجتماعية أو النفسيات المرشدة بتسلسل الوقائع والأحداث وتواترها، كذلك فإن جميع ما قاله الإمام الغزالي وشاه ولي الله في الصفحات السابقة نستطيع أن نعبر عنه مجازاً بأنه أبواب "النفسيات النبوية".

في العصر الحاضر حدث تغير كبير في إبداء الرأي والفكر وفي طريقة التحدث وأسلوب الكتابة، وطريقة الاستدلال، ولهذا ضروري أن نتحدث مع أهل هذا العصر بلغتهم وبمصطلحاتهم وبأسلوبهم، كما ينبغي أن يستدل على ما نقول بالقرآن الكريم أيضاً، حتى يكون هناك اعتبار لقول القائل ورأيه في مجال العقل والنقل.

وبالتأمل والتدبر يتضح أن كل ذرات الدنيا تفي بنفسها وبدون إرادة ذاتية أو قصد الهدف الذي خلقت من أجله، ولا تستطيع أن تنحرف قيد شعرة عن الأمر والهدف الذي كان قد خلقها الله تعالى من أجله، وكل ما بين السماء والأرض من مخلوقات مشغول بعمله، فالشمس مكلفة لتمد العالم بالحرارة والضوء، وهي مشغولة في هذا العمل كل آن ولحظة، والأرض مكلفة بالخضرة والاخضرار، وهي مشغولة دائماً بأداء هذا الغرض، والسحاب مكلف بالمطر، وهو مشغول بعمله هذا، والأشجار مكلفة بأن تنبت الثمار فهي مشغولة بهذا دائماً، والحيوانات تقوم بكل أعمالها المنوطة بها بسعادة وسرور، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل الإنسان أيضاً جاء في هذه الدنيا مكلفاً بعمل ما أم لا؟ فإن كان قد جاء بتكليف ما فهل يؤديه أم لا؟ تعالوا ننظر في الإنسان بإمعان. في ظاهر الأمر الإنسان يأكل ويشرب ويمشي ويطوف وينهض ويجلس ويعيش ثم يموت، فهل هذا هو الهدف من حياته فقط؟ لو كان هذا هو هدفه فكيف يفرق بينه وبين الحيوان؟ وكيف يفرق بين صاحب الإرادة وبين من لا إرادة له، وما هو الفرق بين العاقل وغير العاقل؟ ولهذا يسأل القرآن الناس سؤالاً موضوعياً:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾(المؤمنون:١١٥)
﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة :٣٦)

اتضح من هذا أن الإنسان أيضا خلق لغرض وهدف ما، ولكن ما هو هذا الغرض وهذا الهدف؟ فلو انتهى وجود الإنسان كله من على الأرض فالشمس تستمر في ضيائها، والبحار في فيضانها، والهواء في عمله، والسحاب في إمطاره، والخضروات تنبت، وتثمر الأشجار بالرغم من هذا، ولكنه إن لم تثمر الأشجار لتعرضت حياة الإنسان للخطر، ولو لم تنبت الخضروات والنباتات فالإنسان يموت جوعاً، ولو لم يمطر السحاب فسيحتضر الإنسان من العطش، ولو لم تهب الرياح فسيموت الإنسان مختنقاً، ولو تزول الأرض، فلن يجد الإنسان مكانا يقف عليه، ولو لم تشع الشمس، لانطفأ في الفور مصباح وجود الإنسان، ولو لم تكن البحار، فلن تمطر السماء، ولو لم تنبت الخضراوات ويكتب للأرض أن تجف بعد أن تمطر السماء لن يتيسر الغذاء الإنساني، خلاصة القول هو أنه لا يوجد أي شيء في هذه الدنيا يحتاج الإنسانَ لوجوده وبقائه، ولكن الإنسان يحتاج إلى كل آلة من آلات مصنع هذا الوجود لوجوده وبقائه. إذن أليست هذه النتيجة صحيحة وهي أن غرض وغاية كل آلة من آلات هذا المصنع لوجود وبقاء الإنسان، ولكن هدف وجود الإنسان وغرضه شيء آخر، وهو أهم من غرض المخلوقات الأخرى وهدفها. يقول الله تعالى عن المخلوقات الأخرى:
﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ (البقرة :٢٩)
وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ ﴾ (الحج:٦٥)
ويقول الله تعالى عن السماء:
﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ (النحل:١٢)

الذات اثنتان فقط: ذات الخالق سبحانه، وذات خلائقه. يبدو من النظر والتدبر في أحوال المخلوقات أن كل شيء صغير يخدم الشيء الذي يكبره، فالجمادات تخدم النباتات والنباتات تخدم الحيوانات، وثلاثتهم الجمادات والنباتات والحيوانات تخدم الإنسان، وعليه فعلى الإنسان أن يخدم من هو أعلى منه، ولا

يوجد أي شيء يفوقه في المخلوقات، فلا شك في أن غرض خلقه كـــان للخـــالق ذاته،

والخلاصة هي أن غرض كل الكائنات وغايتها هو إبقاء حيـــاة الإنـــسان واستمراريتها، وتوفير الراحة له بشكل مباشر أو غير مباشر، ولكن حياة الإنسان نفسه ليست له، بل لله تعالى، كما يقول هو سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات :٥٦)

وفق العقل والفهم والإرادة، فإن المخلوقات على ثلاثة أقسام:-

١. قسم محروم من كل هذه الصفات تماماً، مثل الـــشمس والقمـــر والأرض والطين والحجر والفاكهة والأزهار والأشجار.
٢. القسم الثاني هو الذي يملك فقط الشعور البدائي والعلم والفهم أيضا، ولكن هذا القسم لا يقدر على القياس والاســـتقراء والتمثيـــل، ولا يـــستطيع أن يستخرج علماً جديداً عن طريق قياس الحاضر على الغائـــب، فإرادتـــه واختياره أيضا محدودان أو مقصوران على الأشياء الظاهرة الحسية، مثل الحيوانات.
٣. القسم الثالث هو المخلوق الذي يملك العقل والإدراك، يقيس ويستنبط عن طريق الاستقراء والتمثيل، ويحكم من الكليات على الجزئيات، ويصل من البديهيات إلى النظريات، ويقيس الغائب على الحاضر.

الحركات والآثار التي تحدث من مخلوقات القسم الأول تكون اضطرارية لا إرادية، ولا يكون أي تخلف فيها، ولهـــذا يطلـــق عليهـــا الآثـــار الفطريـــة، والخصائص الطبيعية، وتصدر هذه الآثار من هذه المخلوقات على نمط واحـــد، وكلها تكون لا إرادية. والحركات والآثار التي تظهر دائماً من مخلوقات القـــسم الثاني - وهي وإن كانت تحدث بالإرادة والإحساس والفهم البدائي- فإن كل فرد من هذه المخلوقات تصدر منه نفس الأفعال والحركات والآثار، ويطلـــق عليهـــا الجبلية والفطرية والطبيعية. وفي إصدار هذه الحركـــات والآثـــار. فـــإن هـــذه المخلوقات مجبرة؛ نظراً لفطرتها وطبيعتها مثل أفعال الحيوانات، ولكل أنواعهـــا

المختلفة أعمال منفصلة ومتنوعة، وهي تصدر من الأزل، وستستمر إلى أن تقوم الساعة بدون التفكير في غايتها ومصيرها.

أما القسم الثالث من المخلوقات فبعض أفعاله وإن كانت تصدر حسب الطبيعة والجبلية- وهذه الأفعال تصدر كالمخلوقات الأخرى بدون إرادة- فإن أعماله الأخرى تصدر بإرادة واختيار وبفهم ووعي، وهذه الأفعال وحدها يجرى عليها حكم الخير والشر. وأكبر من هذا أن كل أفعالها العقلية تصدر بحسبان المآل والمصير، وبإرادته، ومن هنا ينبع سؤال المسئولية.

إن كل المخلوقات سوى الجن والإنسان بريئة من تحمل مسئولية الخير والشر، فالجمادات والنباتات تصدر عنها الأفعال والحركات بطريقة جبرية لاإرادية، كما تصدر بدون تفكير في مصيرها، ويمكنك أن تقول إن كل هذه الأفعال تصدر دائماً بموجب الأوامر التي أمرها الله تعالى حين خلقها. والحيوانات أيضاً مرفوعة عنها المسئولية فأفعالها وحركاتها كلها جبلية وفطرية، وهي تعمل بدون إرادة وبدون تفكير في المآل والمصير. ويمكنك القول بأن هذه الحيوانات تعمل دائماً حسب أوامر خالقها، وهي أيضا مجبرة على هذا. كذلك الملائكة مرفوع عنهم هذا التكليف، فهم أيضا مجبرون على الطاعة بسبب خلقهم وجبلتهم، وعلى هذا لا يمكن أن يقعوا في العصيان.

مخلوق واحد فقط -وهو الإنسان- هو الذي يملك في أمور كثيرة الإرادة والاختيار والعلم، وهو غير مجبر قطعياً في الخير والشر بأن يختار جانبا من كلا الجانبين، بل يعمل الإنسان مستخدماً عقله وفهمه، وينظر إلى مآله ومصيره، أو يعمل حسب عواطفه وحسب هواه، ولهذا استحق هو وحده رسالة إلهية للتميز بين الخير والشر، وللتفريق بين الحق والباطل.

الجمادات والنباتات والمخلوقات الأخرى مجبرة على الطاعة على أساس جبلتها وفطرتها، هذا ما بينه القرآن الكريم:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(النحل.٤٩: ٥٠)

هذه الطاعة الفطرية يمكنك أن تطلق عليها اسم الوحي الفطري كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ (النحل :٦٨)

انظر إلى هذه الآية الكريمة التي تدل على أن كل المخلوقات تعبد الله تعالى وتطيعه، ثم بين الله تعالى أن الطاعة الطبيعية صلاة وتسبيح هذه المخلوقات.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (النور:٤١)

ولكن الإنسان لم يخلق مجبراً محضاً مثل المخلوقات الأخرى، بل كما سبق القول بأن الشعور والإرادة اللذين معدومان في الجمادات ومحل بحث في النباتات ومتحركان في الحيوانات وهما يقظان في الإنسان، وعاملان فيه بكل قوة، وكذلك القدرة الإرادية والاختيار المعدومان في الجمادات والمفقودان في النباتات والمحدودان في الحيوانات ولكنهما واسعان في الإنسان إلى حد ما. علاوة على هذا من خاصية الإنسان وحده أن يفكر في كل عمل من أعماله المصيرية وما يترتب عليها، ولهذا فالإنسان وحده استحق التكليف الإرادي، ولم يخلق كي تكون طاعته اضطرارية وإجبارية كالمخلوقات الأخرى اللاإرادية، بل خلق هذا الإنسان لتكون طاعته بالإرادة والاختيار.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾ (الأحزاب:٧٢)

هذه الأمانة هي تمييز الإنسان بين الخير والشر، وتفريق بين الصالح والطالح، ونتيجة لهذا نزلت الشريعة الإلهية، ولكي يؤدى الإنسان أمانته هذه وجب عليه أن يطيع أوامر الله كما يطيع أوامره في الأفعال الإجبارية واللاإرادية، وبأسلوب آخر نستطيع أن نعبر عن هذا المعنى بأننا في الأفعال والحركات اللاإرادية كما نتبع الإلهام والوحي الفطري مجبرين، كذلك يجب علينا أن نقتدي الإلهام والوحي الشرعيين في الأفعال الإرادية والاختيارية.

ولكن لا يمكن لأحد أن يطيع حتى يتعرف على أوامره وأحكامه سبحانه؛ لذا يرسل الله الأنبياء والرسل ويوحي إليهم شريعته وأحكامه وأوامره، وهم الذين يبلغون هذه الشريعة للعباد ذوي الإرادة، ويدعونهم إلى إتباعها والاقتداء بها.

والحكمة أن جميع المخلوقات اللاإرادية غير الإنسان مجبرة ومجبولة على طاعة الله تعالى، أما الإنسان الذي منح هذا الاختيار إلى حد ما فبعض الناس منهم يتمردون على خالقهم مستغلين الاختيار والإرادة المحدودين، وفي القرآن نفسه بيان لهذا الأمر: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ.** ﴾ (الحج:١٨)

انظر هنا إلى إعلان عن الطاعة الكاملة والخضوع التام لله تعالى من قبل المخلوقات اللاإرادية وغير العاقلة، ولكن الإنسان الذي منحه الله الإرادة، وأعطاه العقل والتفكير، قسمه إلى قسمين: مطيع ومتمرد.

إن تطالع صحيفة الكون اطلاعاً عميقاً ستعلم أن من الجمادات والنباتات والحيوانات والإنسان أصنافًا وأنواعًا، وكلما يتقدم صنف منها في الشعور والإرادة والاختيار يرفع معلم الفطرة يده من مسئولياته. وهذا الصنف من الكون يتقبل ويتحمل مسئوليته بنفسه. والجمادات لا تحتاج لنموها ونشأتها إلى غذاء خارجي، والنباتات التي تفتح عيونها فقط يكون غذاؤها تحت أقدامها، وكذلك الجزء الآخر من غذائها يصل إليها طائراً أو يأتي إليها سيرا على الأقدام. أما الحيوانات من هذه الأوصاف (الشعور والإرادة والاختيار) فتجد غذائها جاهزاً في كل خطوة وفي كل آن، ولا تحتاج إلى الحرث والزرع والتنقية والطبخ. ولكن الإنسان الذي تتحكم فيه هذه الأوصاف الثلاثة لا يمكن أن تصل إلى فمه حبة واحدة بدون أن يكد ويجتهد، ويسيل العرق الساخن من جبينه حتى قدميه.

وبقدر ما يقل الإحساس والإرادة والاختيار في أي مخلوق، يزداد فيه سلطة الحكومة الاضطرارية للطبيعة والفطرة والجبلة، ولكن بقدر ما تنموا هذه الأوصاف الثلاثة تضيق حلقة حكومة الطبيعة والجبلة والفطرة، وتقوم في مكانها مملكة الشعور والإرادة والاختيار، فتخرج زمام الحركات والأعمال من أيدي

الفطرة والجبلة والطبيعة القوية وغير المتغيرة، وتنتقل إلى الأيدي الضعيفة للاختيار والإرادة والشعور دائمة التغير والتبدل، فالجمادات تعمل دائماً ما عليها أن تعمله، أما الحيوانات فهي تعمل نفس الأعمال التي كلفت بها، ولكن الإنسان الذي منح قدراً من الاختيار والإرادة فهو ينحرف عن الطريق كثيراً ويتجاوز عن الحدود المعتدلة، وينسى مسئوليته وأمانة اختياره وإرادته، فالأنبياء والرسل يأتون بأمر من الله تعالى ليفهموا ويعرفوا هذا الخلق صاحب الإرادة والاختيار بفرائض هذه المسئولية.

واسم مركز هذا الاختيار والإرادة في لغة الأديان هو "القلب" الذي يسيطر على الإنسان كله من منبت شعره حتى أخمص قدميه، ويتحكم في كل نبضاته وجنباته، وكل حركاته وسكناته، وبأمر منه وحده يحدث ما يحدث في العالم الباطني لجسمه. والأنبياء عليهم السلام يُبعثون ليصلحوا نظام هذا القلب.

والإنسان يحتاج لوجوده وبقائه وتقدمه ولكل مرحلة من مراحل نموه لآلاف من الأشياء، يحتاجها في كل خطوة من خطواته، ولتوفير هذه الأشياء يوجد في كل إنسان استعداد وقوة، وهي تختلف من شخص لآخر، وهذا الاستعداد وهذه القوة تودعان فيه من الرحمن الرحيم منذ ولادته، بل قبل ولادته، أي منذ أن كان في عالم الماء والطين. وهذا هو السبب في أن الإنسان يميل إلى الشيء الذي يوجد فيه استعداده، وبعد ذلك عن طريق الإلهامات الفنية الخاصة التي نُسميها الاختراعات فكل صاحب حرفة يُسمّى بالعمل الذي يختص به، ويُعد لك الأشياء حسب حاجاتك وضرورياتك، وصناع هذه الحاجات المادية لهم مراتب ودرجات مختلفة حسب مؤهلاتهم، فالبعض منهم يكون مقلداً فقط، فهو يصنع ما تعلم صنعه، والآخر يكون ماهراً وذكيا يستطيع أن يصنع أشياءً جديدة جيدة، ولا يحتاج في هذا الصنع إلا إلى النظر في نماذج صنعها صناع مهرة آخرون، والبعض يكون فطناً وذكيا إلى حد يستطيع أن يصنع ويخترع أشياء لم يكن لها وجود من قبل. والناس الذين يأتون من بعدهم يقلدونهم لفترات طويلة. إن أصول وضوابط الزراعة وتدابير معالج الأمراض وطرق طهي الطعام وإعداده، واحتياج المواصلات وأمتعة المعيشة وآلات الحرب كل هذه الأشياء ضرورية للإنسان،

وخالق الفطرة خلق لكل حاجة من هذه الحاجات والضروريات طائفة تؤدى عملها وتقوم بها، وبتوفير هذه الأشياء تكتمل الحياة المادية. بقيت بعد ذلك احتياجات الإنسان الروحانية والأخلاقية التي نسميها أصول التحدث وطريقة ونظام الحياة وقانون العدل والإنصاف والأخلاق الحسنة والدين والتقوى، ولو لم تكن أمام الإنسان هذه الضوابط والتعليمات فجنة بني آدم هذه تتحول إلى جهنم، وجماعة أشرف المخلوقات هذه تصبح قطيعاً من الحيوانات المفترسة.

إن من يزرع لكم الغلال يطلق عليه الفلاح، ومن يصنع الآلات الحربية يطلق عليه الحداد، ومن يصنع الحُلي يطلق عليه الجواهرجي، ومن ينسج لك القماش يطلق عليه النساج، ومن يبنى لك العمارة يطلق عليه المعماري، ومن يدافع عنك يطلق عليه الجندي، ومن يرعاك فهو الحاكم، ومن يقض في منازعاتك يقال له القاضي، ومن يضمن الأمن والأمان لبلدك يقال له الملك، ومن يعالج أمراضك البدنية فهو الطبيب، ومن يصنع لك حاجاتك الضرورية يقال له الصانع، ومن يكشف لك وجه الكون المادي ويرفع الستار عنه ويخبرك بكل شيء يقال له الحكيم،

كذلك الأشخاص المقربون الذين هم يعلمون ويراقبون أحوالك الروحانية والأخلاقية والاجتماعية لهم أيضا جماعات وطوائف، لكن كما أن لصناع حاجاتك المادية درجات حسب استعدادهم ومواهبهم، كذلك الذين يوفرون الحاجات الروحانية لهم مراتب ودرجات، منهم من يقلد المعلمين الروحانيين السابقين، ويطلق عليهم علماء، ومنهم من يرى النماذج الروحانية الجيدة ويقلدها تقليداً حسناً، بل يبينها للناس أيضا وهؤلاء يقال لهم المجددون، والبعض الآخر الذين يضعون أسسا وضوابط جديدة بعدما يلهمون بفيض من الله، ويعرضون هذه الأصول والأسس الجديدة على العالم هؤلاء هم الأنبياء. وأياديهم الطاهرة ليست لتزرع لك الغلال أو تبنى لك البيت أو لتنسج لك القماش أو لتصنع لك أثاثاً بل هذه الأيادي تعمل أكبر وأعظم درجة من هذه الأعمال. وأصابعهم المباركة تلمس أوتاراً تخرج مئات النغمات المختلفة أي على أوتار وأنفاس قلبك. فكر مليا في هذا المركز الرئيسي الذي تنحصر عليه كل أعمالك وأفعالك وحركاتك وسكناتك

وكل جهودك ألا وهو "القلب". فهل هناك غير الأنبياء وأتباعهم تستطيع أي طبقة من طبقات البشر أن تعمل لهذا النمو والرقي والحفظ والتكملة والإصلاح، وهل لم يكن هذا فرض على خالق الفطرة أن يفكر في إصلاح روحك وتنميتها كالإصلاح والرقي المادي، والاعتقاد في أنه لم يخصّ طبقة من البشر تقوم بخدمة إصـــلاح ورقي وتكميل النوع الإنساني أليس هذا سوء ظن في شـــأن ربوبيتـــه ســـبحانه وتعالى؟.

هذه هي الطبقة التي وحدت جميع الطوائف الإنسانية المتفرقة والمختلفـــة وأتت بها على مستوى متمدني إنساني عام، وهي تخلق أخوة روحانية في جميع الناس بعد حثهم على المشاركة والتعاون، وإقناعهم بفعل الخيرات ســـواء الـــذين يخبزون لك الخبز أو ينسجون لك القماش أو يبنون لك المنازل أو يصلحون لـــك الآلات والمعدات، فهؤلاء هم الأنبياء الذين وحدوا أبناء آدم الذي خلق من طـــين بعدما فرقتهم الثروة والفقر والمجتمع والمحليات والحكومات والأقاليم والتوزيـــع الجغرافي والقومي، وبعد إزالة كل هذه الفروق الصناعية جعلوا الأرض كلها بلداً واحداً، وجعلوا شعوب العالم وأقوامه شعباً واحداً من أصل آدم. وكـــل الطبقـــات العليا والدنيا جعلوها طبقة إنسانية واحدة، وخلقوا في عالمهم الأخلاقي والروحاني الصلاح والتقدم والأمن والأمان، وملأوا قلوبهم بالأخوة والمحبة بعدما أخرجـــوا منها البغض والحقد والحسد والكراهية، وعلموهم التدابير التي تمكنهم من إمساك زمام شعورهم وإرادتهم واختيارهم. وبعد ما بينوا لهم حـــد الاعتـــدال منحـــوهم التمييز بين الحق والباطل.

هذه هي الطبقة الإنسانية التي نطلق عليها الأنبياء والرسل. وهؤلاء إن لم يكونوا مختصين مباشرة بالجسم والجسمانيات فإن اختصاصهم ينحـــصر بعـــالم القلوب والروحانيات، ولكن في سبيل إصلاح القلب والـــروح علـــيهم أيـــضا أن يقوموا بإصلاح الجسم والجسمانيات بقدر ما يكون إصلاح القلب والـــروح فـــي حاجة إليه.

شبهة والرد عليها

في هذا المقام تثار شبهة وهي أن الملك أيضا يقوم باستتباب الأمن والأمان ونشر الاطمئنان بين أفراد الشعب، ومعلم الأخلاق يقوم بهذا العمل أيضاء، كما أن الفلسفي وعالم الاجتماع يقومان أيضا بهذا العمل، ولكن الفروق العظيمة والبينة التي توجد بين هذه الأعمال لو وعيناها وفهمناها جيداً لزالت هذه الشبهة. وعليك أن تدرك أنه في الاصطلاح العلمي يلقى خبراء وعلماء في فنون مختلفة النظر على شيء واحد، ولكن لكل وجهته ونظرته الخاصة، وهذا هو السبب في انفصال فنونهم وتنوعها، فمتى يبحث عن الأجزاء المركبة للجسم يقال له علم الكيمياء وحين يبحث في حياة الجسم وأسباب الحياة يقال له علم الأحياء، وحين يحقق في قواه العقلية والدماغية وآثارها فيطلق عليه علم النفس، وحين يبحث في أحاسيسه وأفعاله الشخصية وحدود أعماله وأسبابها وعللها وأغراضها وغاياتها فيطلق على هذا علم الأخلاق، وحين يتم البحث والدراسة عن خصائصه الاجتماعية ومستلزماتها فهذا هو علم الاجتماع، وحين يبحث في أسباب صحة الجسم وأسباب المرض فهذا هو علم إلطب. انظر كيف تم البحث والتحقيق في جسم واحد وما يتعلق به من جهات مختلفة فظهرت منه علوم مختلفة، ولكنها كلها تتعلق بالجسم والجسمانيات، وكل واحد من هذه العلوم والفنون منفصل ومستقل عن الآخر، ولكل فرع من فروع هذه العلوم علماؤه.

كذلك عمل أي نبي أو رسول هو إصلاح الناس مثل الملوك والفلاسفة والحكماء، ولكن لا يتشابه عمل أحدهم بعمل الآخر. فالملك مسئول فقط عن إقامة الأمن والأمان والعدل مستخدماً قوته في الأسواق والأزقة والأحياء والميادين والمجتمعات، والفلسفي مسئول عن البحث والأسباب والعلل لجميع أعمال وأراء الناس، ويخلق بينها تنسيقاً ويصل العلة بالمعلول، ومعلمُ فلسفة الأخلاق يبين لك أسباب أخلاقك وعاداتك وعللها ويشرح ويوضح الأحاسيس والمشاعر للناس وليس له أي عمل بعد ذلك، والحكيم والواعظ يُسمعان فقرات عذبة ومنسقة وممهدة من أجل إصلاح أخلاقك وأعمالك، ولكن لا يوجد واحد منهم يكون مرشداً لقلبك الذي يمنع قدم شعورك وإرادتك واختيارك عن الطريق الخاطئ، فهو لا

يكتفي ببيان الأسباب والعلل لأخلاقك وعاداتك ومشاعرك بل يميز بين الخير والشر في أخلاقك وعاداتك كما يبين التدابير لجلب الخير وللابتعاد عن الشر بل تكون بيده ولسانه قوة قادرة على إحداث انقلاب في قوى القلب، وبتعليمه وبتلقينه وفيض صحبته يغير أخلاقك وعاداتك ومشاعرك، بل يُغيّر هدف وغاية الإحساس والإرادة والاختيار، ويستأصل بذرة الشر من القلب ويُنبتُ شجرة الخير وينُميها، والنبي هو الذي يقوم بهذه الأعمال كلها، ويذكر الناس بمسؤولية شعورهم وإرادتهم واختيارهم التي نَسوها، ويصلح بأمر من الله مركز قواهم، ألا وهو القلب.

والنبي لا يريد أمن وأمان الأسواق والتجمعات والمساكن مثل الملوك فقط، وكذلك لا يبالي بالبحث عن الأسباب والعلل مثل معلمي الأخلاق، بل يستأصل العادات السيئة مهما كانت أسبابها، ويحاول خلق الأخلاق الحسنة داخل البشر مهما كان معلولها، وهو يكسر طلاسم أوهامهم، ويفتح عقد التقاليد الخاطئة، ويحرر الناس من عبودية العباد، ويدخلهم في عبودية الله وحده. قال تعالى:﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ (الأعراف:١٥٧)

﴿ **رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ (النساء:١٦٥)

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ (الحديد: ٢٥)

جميع خدام وأعضاء النوع الإنساني الآخرين عندما يؤدون مسئولياتهم لأغراض فدائرتها لا تتجاوز خير هذه الحياة وشرها، ولكن الأنبياء والرسل يؤدون خدمات النوع الإنساني واضعين نصب أعينهم الأثر الذي يقع على حياته الأخروية والأبدية، فهولاء (الأنبياء والرسل) لا يخدمون الجسم للجسم، بل يخدمونه من أجل الروح، ويقومون بخدمة الخلق ابتغاء وجه الخالق، فهم لا يصلون مخلوقا بمخلوق آخر فقط، بل يصلون المخلوق بالخالق، ولأجل الخالق يصلون الخلق بمخلوق آخر.

وهؤلاء لا يُسمعون أحاديث طيبة وعذبة فقط، بل يعملون بأنفسهم أعمالاً صالحة، ويحثون الناس على العمل الصالح أيضا، هؤلاء لا يكونون مثل الشعراء الذين يهيمون في كل واد، ولا الحكماء الكذابين الذين يقولون مالا يفعلون، فهؤلاء (الحكماء) يملكون العقل ولا يملكون القلب، يملكون الألسنة، ولا يملكون الأيدي.

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُـونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ (الشعراء٢٢٤:٢٢٦)

هؤلاء الأنبياء والرسل يأتون أمام الناس بدعوى أن الخالق الذي وفر لهم أسباب الراحة الجسمانية هو الذي وفر في الوقت نفسه أسباب راحـتهم القلبيـة والروحية، بعثهم ليعلموا الناس استخدام هذه الأسباب، ويسمعونهم رسالة الـرب، ويبينون لهم أن الرب يريد من عباده أن يستخدموا شعورهم وإرادتهم واختيارهم في هذا العالم كي يخرجوا من ظلمات المعاناة والقلق والتوتر، ويدخلوا في نـور الاستقرار والطمأنينة والهدوء والسعادة. **﴿ هُوَ الذي يُنَزِّلُ عَلَى عَبدِهِ آياتٍ بَيِّنَتٍ لِّيُخرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُماتِ إِلىَ ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللهَ بِكُم لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** (الحديد: ٩)

الأنبياء يهتمون أيضا مثل الملوك بأمور المجتمعات، ولكن ليس من أجل الخراج وإسكان الأرض بل لله وحده، وهم أيضا يسنون القوانين للحفـاظ علـى النفس والمال، ويصدرون أحكام العقاب والصواب مثل القضاة، ولكن ليس مـن أجل نيل الجائزة الملكية أو الحصول على مرتب، لأنهم قاموا بإتباع أوامر الملك الدنيوي، بل يعملون كل هذا اتِّباعا لأوامر ملك الجسم والروح وخالق الكون، وهم أيضا يرفعون الستار عن الرموز والأسرار مثل الفلسفي ولكن لـيس بـالتخمين والقياس، بل بفيض من علم عالم الأسرار، وهم أيضا يتكلمـون مثـل الحكـيم والواعظ، كلاماً مؤثراً، ولكنه ليس من عند أنفسهم، بل هو وحي من الله، وهم لا يقولون فقط، بل يفعلون ما يقولون، ويقنعون الناس بعمل كل ما يتلقونه مـن الله تعالى، ويسمعون الناس ما يسمعونه من الله. والخلاصة هي أنهم يقسمون علـى الناس كل ما يتلقونه من السماء [1]

---

[1] – أي أن الرحمة والبركة وغيرها من الصفات الطيبة التى نالوها من الله يوزعونهـا علـى الناس أيضا. (يوسف عامر)

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (النجم ١:١٨)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٣)

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء ١٩٢:١٩٥)

حكمة

من الممكن جداً أن عملاً واحداً يقوم به عدد من الناس لمختلف الأغراض والنيات، فلو فرضنا أنه عمل يتعلق بإصلاح قوم ما، وعدد من الناس قاموا بهذا العمل لمختلف الغايات والنيات بصرف النظر عن كون هذا العمل صالحاً أم غير ذلك. فشخص ما يعتقد بأن القوم يمكن إصلاحه بإصلاح شئونه المالية. وآخر يُقر بأن التعليم هو رأس الإصلاح. والثالث يركز على تقويم التقاليد وإصلاح المجتمع. والرابع يحصر القضية على ظاهرة التمدن. والخامس يرى أن إصلاح القوم يرتكز على القوة. والسادس يعتقد أن إصلاح القوم ينحصر في النجاح السياسي، ولكن كل هذه الأمور ثانوية وغير أساسية عند الأنبياء والرسل، فالأصل والأساس عندهم هو إصلاح القلب، ويفهمون أن هذا هو الشيء الأصيل، ويدركون أن التقدم والإصلاح يرتكزان على تنمية هذا الأصل، والأمور الأخرى ما هي إلا فروع لهذا الأصل. وهذا هو السبب في أن الشعوب تنال السلطنة بنجاح دعوتهم، ويحصلون على الثروة، وينالون العلم ومن ثم تتولد القوة أيضا. وكل مناظر العظمة الدنيوية وجلالها تتقدم لاستقبالهم خاضعة وخادمة، ولكن لابد من إدراك وفهم أن هؤلاء الأنبياء والرسل لا يضعون نصب أعينهم السلطة

والقوة مثل المصلحين السياسيين، بل الشيء الذي يكون أمام أعينهم دائماً هو طاعة الرب فقط وحبه وابتغاء وجهه، وماعدا ذلك فهو شيء ثانوي وفرعي وضمني.

الفارق بين النبي وغير النبي

اتضح لنا مما سبق كم من الفروق العظيمة توجد بين الأنبياء والناس الذين يشبهونهم، وتظهر هذه الفروق من نواح أربع :١- فرق الأصل والمنبع. ٢- فرق الفرض والغاية. ٣-فرق طريق الدعوة. ٤- فرق العلم والعمل. إن أصل – أي شيء – علم النبي ومنبعه ومصدره هو التعليم الرباني، وهو شرح الصدر، وهو الوحي والإلهام، أما منبع علم الحكيم ومصدره فهو التعليم الإنساني الذي يُحصّل من التجارب السابقة، كما يحصّل عن طريق القياس، أي أن الحكيم يعلم عن عقله، أما النبي فيعلم عن علم خالقه، كما يهدف الحكيم من جميع أقواله وجهوده إلى طلب السمعة، وتفوقه في العلم، (ويريد) بإصلاح القوم حبه وانتماءه للقوم والبلاد، ولكن النبي يهدف بإصلاح الخلق إعلان حكم الله تعالى وابتغاء وجهه سبحانه، وهذا هو الفرق في طريق الدعوة، فالحكيم يبنى عمارة دعوته على أعمدة حكمه ومصالحه وعلله وأسبابه، ولكن النبي يقيم دعوته في الأغلب على طاعة الخالق وحبه وابتغاء وجهه. يقول الحكيم ولكن العمل أو العقل ليس ضروريا بالنسبة له، أما النبي فكل ما يقوله يصدقه فعله، فهو لا يتجلى على منبر الظهور فقط، بل يتحلى بالمحاسن والفضائل في الظاهر والباطن، ويبتعد عن كل السيئات في الجمع والخلوة، ففي الدنيا نرى سقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس وغيرهم في جانب، وإبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام في جانب آخر، وتراجمهم وسيرهم وأعمالهم واضحة تماماً لدرجة أنه لا يمكن اللبس والخلط بينهم بالمرة.

الملك يجعل الرعية تلتزم بالقوانين بحد سيفه وبقوة عسكره وجنده؛ لئلاً تثار الفتن والاضطرابات. والفلسفي يريد إثبات إدعاءاته بقوة الاستدلال وخطاب العقل حتى يقتنع الناس بما يقول، ولكن النبي يريد أن يُغير قلوب أتباعه، فيتركوا الشر بأنفسهم ويختاروا الخير، ولو أنهم أحيانا يختارون القانون والحد والتعزير

و بجانب هذا يخاطبون العقل أيضاً فيكون عملهم هذا ضمنيا وثانويا، وليس عملاً أساسياً. وهدف الأنبياء الأول هو أن يصبح إيمان أتباعهم قوياً فيؤمنون بـأن الله تعالى يسمعهم ويراهم، ويقتنعون بأحكامه وتعاليمه ـ بدون تردد ـ التي جاءتهم عن طريق الأنبياء والرسل.

ملوك العالم وغزاته يقلبون طبقات الدنيا بقوة سواعدهم وسيوفهم، وأحيانا حكم هؤلاء العالم بأسره، واستولوا على نفوس الشعوب وأموالهم، كما أخفوا مجرمي المجتمع بقوة سيفهم، وبه أيضا نشروا الأمن والأمان في الأسواق والطرق، ولكن هل استطاعوا أن يقلبوا طبقات القلوب أيضا؟ وهل استطاعوا أن يجعلوا أضعف إنسان خارج دائرة سلطنتهم يأتمر بأوامرهم؟ ثم هل استطاعوا أن يكسبوا قلوب الناس أو أن يحتلوها؟ وهل استطاعوا أن يفنوا أو يبيدوا مجرمي المجتمع الذين اختفوا عن أعينهم خوفاً من سيوفهم؟ هل استطاع هؤلاء الحكام والفاتحون أن يخلقوا الأمن والأمان في مجتمعات القلوب؟ وهل استطاعوا أن ينظموا وينسقوا ممالك الأرواح؟

الحكماء والفلاسفة الذين يدعون أنهم قادرون بعقولهم على فك طلاسم العالم العجيبة وكشف أسرار الكون الخفية، هل استطاع هؤلاء أن يكتشفوا عجائب وأسرار القلب والروح أيضا؟ هل استطاعوا كشف الأسرار والرموز المكنونة وراء المادة؟ وهل استطاعوا بدراساتهم وأبحاثهم توفير أي شيء لإصلاح وهداية الناس؟ وهل توجد أي أسوة ذاتية عملية وراء حكمهم الدقيقة وأرائهم الفلسفية والعقلية؟ أرسى أرسطو أساس فلسفة الأخلاق، وحقق غيره من الحكماء والفلاسفة حدود ونتائج أسباب وعلل الأخلاق، بل حققوا ودرسوا هذه الأمور حرفاً حرفاً، ولكن هل زالت وانمحت بذور السيئات والشر من قلب أي إنسان، ونمت وترعرعت بذور الخير؟ والحقيقة هي أن دائرة رموز وأسرار أخلاقهم الفلسفية وتعاليمهم لم تستطع أن تتجاوز حدود مدارسهم؛ إذ إنّ هؤلاء عندما يخرجون من حجرات دروسهم ويدخلون في المجتمع الإنساني لا ترتفع حياتهم الأخلاقية والنظافة القلبية بوصة واحدة عن عامة أفراد المجتمع، ولا يوجد من هو يفوق سقراط من حكماء وفلاسفة اليونان، ولكن أليس هذا هو سقراط الذي كان

يقيم علاقات مشبوهة مع نساء فاحشات سيئات السمعة في الأسواق؟ بل كان يحاول العمل على تقدم واحدة من بين هذه النساء في مهنتها المذمومة. وكانت هذه الظروف والأحوال نفسها لفلاسفة وحكماء اليونان الآخرين، أما عبادة الواحد الأحد فدرجتها أعلى وأعظم من أن يمسهم(الحكماء) حتى نسميها أو هواءها.

ربما تكون قد قدرت (أيها القارئ الكريم) أن كل واعظ عذب اللسان، وكل خطيب مفوه، وكل محقق، وكل شارع، وكل غازٍ، وكل حكيم فلا يليق لأحد منهم أن ينسب إليه منصب النبوة والرسالة العظيمة والمقدسة، إذ يلزم لها عدد من الشروط والخصائص وهي عناصر أساسية وضرورية لمنصب النبوة:

١. الأمر الأول الضروري لصاحب هذا المنصب هو أن تكون علاقته بعلم الغيب، حيث يسمع أصوات الغيب، ويرى أشياء الغيب، ويتلقى العلم من الغيب، وأن يكون معه تأييد عالم الملكوت، وأن يكون روح القدس سفيره ومؤازره.
٢. أن يكون قد اصطفاه الله من جميع العباد ليتولى هذا المقام العالى.
٣. أن تصدر منه بإذن من الله أعمال خارقة تثبت بأنه مقبول عند الله تعالى.
٤. أن يكون حجره مليئاً بأزهار الأخلاق الفاضلة، وأن يكون طاهراً من كل أشواك المعاصي؛ إذ إن الملابس لا تنظف بأيد قذرة.
٥. وهو يدعو الناس للإيمان بالله وبالغيب، ويعلمهم الخلق والفضيلة، ويذكر العهد والميثاق اللذان نسوهما وهو ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف:١٧٢)[1]
٦. لا يكتفي بالتعليم بل يملك قوة تجعل من الأشرار صالحين، وتجعل الضالين على الصراط المستقيم، والذين يهربون من الله يجعلهم يفرون إليه.
٧. والرسالات التي جاءت قبل بعثته يقدمها ثانية من جديد بعد تطهيرها وتنقيتها من التصرفات والمداخلات الإنسانية.

---

[1] - (يوسف عامر)

٨. لا يكون من أهداف دعوته وجهوده وتعليمه أي عوض مادي أو شهرة أو طلب جاه أو طمع في الثروة، أو إقامة سلطنة وغير ذلك من الغايات، بل يبتغى من ورائها طاعة أوامر الله وهداية خلق الله.

هذه هي صفات النبوة والرسالة وخصائصهما والتي كانت موجودة في جميع الأنبياء. ولو ألقينا نظرة سريعة على صحف أديان العالم وكتبها لاتضحت وانكشفت لنا هذه الحقيقة بوضوح تام، خاصة القرآن الكريم، الذي يُعدّ بحق آخر صحيفة وأكملها، وهو الذي شرح وبيّن حقيقة النبوة والرسالة، وبين شروطها وضوابطها وخصائصها في سورة الأنعام بعد ذكره لأسماء معظم الأنبياء عليهم السلام. وضح هذه الحقائق في الآيات الكريمة:-

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنعام ٨٣:٩٠)

في هذه الآيات الكريمة ذكر الله تعالى أسماء معظم الأنبياء، وعد صفاتهم النبوية، ولو جمعنا كل هذه الصفات لاتضحت لنا الصفات العامة للنبوة والرسالة وخصائصها وضوابطها.

١. قال ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الأنعام:٨٣) عُرف من هذا بأن علمه وهدايته ينبعان من عالم الملكوت

٢. وقال_وهديناهم_ وكان الجميع من الصالحين. ثبت من هذا أن هؤلاء كانوا معصومين من المعاصي والذنوب.

٣. وقال أيضا:﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (الأنعام: ٨٧، ٨٨) والهدف من هذا هو أن هذا المنصب لا يمكن نيله بالسعي والجهد، بل بمرضاة الله واختياره

٤. وقال:﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ (الأنعام :٨٩) عُرف من هذا ما ينالوه أصحاب هذا المنصب من أشياء(الكتاب والحكم والنبوة) [1]

٥. جاء الأمر الإلهي ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠) ليتضح من هذا أن هؤلاء يكونون مكلفين بهداية الناس، والناس بإتباعهم والاقتداء بهم يصبحون صالحين.

٦. وقال: ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠). ثبت من هذا أنه ليس هناك أي هدف سوى ابتغاء وجه الله وإصلاح الخلق.

بيّن القرآن الكريم في أكثر من موضع هذه الحقائق عن الأنبياء جميعاً، وعن الرسول محمد ﷺ بصفة خاصة، ومن بين هذه الحقائق أمور أربعة واضحة:-

١. يكون علمه كاملاً من الله تعالى عن أمور الغيب، والخير، وأسباب الفلاح والسعادة.

٢. أن يكون هو نفسه كاملاً ومهتديا في عمله وفق علمه.

٣. أن يُعلّم الآخرين هذه الأمور.

٤. أن يجعل الناس كاملين، حسب كفاءتهم بتعليمه وهدايته وبفيض صحبته.

وورد هذا في القرآن الكريم في أكثر من موضوع عن النبي محمد ﷺ
(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)(البقرة: ١٦٤، والجمعة: ٢)

ففي هذه الآية الوجيزة ذكرت هذه الأمور الأربعة مرة واحدة، وهي التي سبق ذكرها آنفاً. لابد للنبي أولاً - قبل تعليم الجاهلين بالآيات الإلهية والكتاب والحكمة- أن يكون هو قد تعلم الآيات الإلهية والكتاب والحكمة، وكذلك قبل أن

---

[1] - يوسف عامر

يزكي ويطهر الآخرين عليه أن يكون هو نفسه طـاهراً زكيـاً، لأن الجاهـل لا يستطيع أن يجعل جاهلاً آخر مثله عالماً، وأن من يكون غير طاهر لا يستطيع أن يطهر الآخرين. ففي آية أخرى:

﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَـن يَخْـشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَـا الأَشْقَى**﴾ (الأعلى ٦:١١)

قراءة لا نسيان فيها هي تعليم روحاني للرسول، واهتداؤه إلـى منـزل التيسير رويداً رويداً، وتسهيل هذا المنزل الصعب له، وتوصيل عمله الذاتي إلى درجة الكمال بحيث تصدر كل أمور الخير على يديه بسهولة ويسر، ثم تكليفه بأن يذكر العالم كل هذا يرمز إلى أنه نال منصب تعليم الناس وهدايتهم وتـذكيرهم، وتفسير قول الله تعالى ﴿ **سَـيَذَّكَّرُ مَـن يَخْـشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَـا الأَشْـقَى** ﴾ (الأعلى:١٠-١١) هو أن من مسئولية النبي أن يكمل الناقصين، وأن يبلغ(يوصل) كل ذي استعداد درجة الكمال [١]

ضوابط وخصائص النبوة:

بعد شرح حقيقة النبوة وبيان إجمالي لضوابطها وخصائـصها يقتـضى المقام أن نتحدث تفصيلاً عن أهم خصائص النبوة، كي تزول أغلـب الأخطـاء الناشئة عن الفهم الخاطئ، ولكن قبل ذكر هذه الخصائص لابد لنا أن نفهم نحـن أولاً ما المقصود بـ"الخصوصية".

توجد بعض الصفات الخاصة في كل نوع من أنواع الكائنات في الـدنيا، وفي كل صنف يندرج تحت هذا النوع، كما توجد هذه الصفات الخاصة في كـل نوع وفي كل صنف بالتساوي ونسمى هذه الصفات الضوابط والخصائص، ففـي الفواكه والأزهار والحيوانات والطيور والإنس كل هذه المخلوقات توجـد فيهـا صفات لا توجد في غيرها، وبهذه الميزة يمتاز كل نوع عـن النـوع الآخـر، وينفصل كل صنف عن الصنف الآخر، فالوردة مثلاً لها لون خـاص ورائحـة

---

١ - هذا الشرح وطريقة الاستدلال اختارهما الإمام الرازى في تفـسيره وفـي بعـض كتبـه الكلامية.

خاصة وأوراق خاصة، ولا يمكن أن تكون هناك وردة من الورود خالية من هذه الخصائص والميزات، ولكن الورود لها أيضا أنواع وأقسام، وفي كل هذه الأنواع والأقسام ميزات تختلف عن الأخرى، ولهذا يبدو كل صنف مختلفاً عن الصنف الآخر.

وكذلك هناك خصائص وميزات للإنسانية(البشر)، فللإنسان يدان ورجلان وقامة مستقيمة وقدرة على الكلام، وقوة الفهم والتفكير، وقوة الاكتشاف والاختراع، وقدرة التفكير والتدبير في المصير والمستقبل وغيرها من الأمور، وكما توجد الحلاوة في الشهد، والمرارة في الحنظل، والحرارة في النار، والبرودة في الثلج كميزات وخصائص نوعية، كذلك توجد في الإنسان كل الصفات الإنسانية التي سبق ذكرها، ولكن مع الاشتراك في الأوصاف الإنسانية للنوع الإنساني هناك أصناف مختلفة مثل أصناف الوردة، فعلى سبيل المثال انظر إلى الهندي والصيني والرومي والأسيوي والأوربي. بالرغم من أن هؤلاء مشتركون في الإنسانية فإنه توجد فيما بينهم عشرات من الصفات المميزة في القامة والوجه واللون والشكل والأخلاق والعادات وغيرها من الأمور. وكل هذه الصفات تميز الواحد عن الآخر، وتكون نتيجة للجو والعرق والبيئة.

وهكذا يوجد في كل صنف إنساني أشخاص أودع فيهم خالق الفطرة مواهب متنوعة كقرض الشعر، وعلم اللغة والفلسفة وعلم الرياضيات، والصناعة وعلم البساتين وفن العمارة وفن الرياضة ومئات أخرى من المواهب أعطاها الله تعالى الناس، ويتميز الواحد عن الآخر بمميزات خاصة، وعليه فبين الشاعر الخيالي والعالم الرياضي يوجد فرق شاسع، ويكون الأديب عامة جاهلاً تماماً بعلم الرياضيات والعلوم البحتة، وكذلك عالم الرياضيات والعلوم البحتة يكون أمياً في الأدب والإنشاء، كما يكون الرياضي المصارع مختلفاً عن البستاني، والتضاد نفسه يوجد بين الصانع والفلسفي.

ومع هذا يوجد تناغم ذهني بين الشعراء بعضهم ببعض، كقوة النظم، وعلو الخيال، وقوة المحاكاة، وقوة الألفاظ، وقوة المعاني وغيرها من صفات الشعراء عامة، كذلك يوجد تكيف ذهني خاص بين الفلاسفة جميعاً، مثل الصمت

والتأمل ودقة النظر، واللامبالاة بالدنيا، والانهماك في التصورات واللجوء إلى الخلوة، وجفاء الأخلاق، وخلاصة القول أن هذه الفروق توجد أيضاً بين أولئك الذين يولدون مختلفين بسبب اختلاف البيئة والمناخ. هينال ونابليون وتيمور وجنكيز كل هؤلاء كانوا يستطيعون أن يحولوا العمران إلى خراب، والخراب إلى عمران، ويحولوا الجبل إلى ميدان، والميدان إلى جبل في لحظات، ولكن لم يكن في استطاعتهم أن يجلسوا ويكتبوا بضع صفحات في فلسفة الأخلاق. مثلاً أفلاطون كان يستطيع أن يجلس وحيداً ويعد خطة فلسفية للجمهورية، ولكنه لم يقدر أن يجلس على عرش أثينا ويقوم بواجبات الحكم لحظة واحدة، وكذلك كان الفردوسى شاعر بلاط السلطان محمود قد خاض مئات المعارك الخيالية لسومنات بقوة فطرته وجبلته، ولكنه لم يقدر أن يضرب الفأس على صخرة واحدة، وعلى العكس من هذا عبر السلطان محمود مع جنوده المجندة الجبال والأنهار والصحارى، ووصل من غزنة حتى مشارف الكجرات، وحطم قلعة معبد سومنات الحجرية، وحطم الصنم، ولكنه لم يقدر أن يخوض معركة واحدة من معارك الفردوسي الخيالية، التي توجد في " الشاهنامة ".

يثبت من هذه الأمثلة أنه بالرغم من الاشتراك في النوع الإنساني فإنه توجد آلاف الأصناف والأقسام من النوع الإنساني، ولكل صنف وقسم ميزاته الخاصة وصفاته وضوابطه التي تختلف عن الآخر. ومن بين هذه الأصناف الإنسانية المختلفة صنف الأنبياء والرسل_عليهم السلام_ ولهذا الصنف المقدس من النوع الإنساني عدد من الصفات والميزات والضوابط التي تميز هذا الصنف علانية عن الأصناف الإنسانية الأخرى.

وبعد هذا التمهيد علينا أن نتوجه ناحية هذه المسألة، ألا وهي خصائص وضوابط النبوة والرسالة.

الاستعداد الوهبي

أول هذه الخصائص هو الاستعداد الوهبي، من يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة، وهي أنه توجد استعدادات فطرية مختلفة لدى مختلف الناس، والناس يميلون إلى استعدادهم الفطرى ذاته، وبقدر ما يتطورون يتطور استعدادهم

الفطري وينمو حتى يكتمل تماماً، كما لا تعطى كل شجرة ثمرة المانجو، بل تنبت هذه الثمرة من نفس الشجرة التي جعلها الله شجرة مانجو، ثم إن علامات شـجرة المانجو وخصائصها وطعمها ولونها ورائحتها موجودة فيها منذ أن كانـت هـذه الشجرة بذرة، وهذه البذرة تتحول إلى نبات، وينمو النبـات، ويخـرج البـرعم، وتنبت الأغصان، ثم خلال بضع سنين تعطى هذه الشجرة ثمارها، ولكنها في كل مرحلة من مراحل نموها كانت تحتفظ بهذه الخصائص التي ظهرت في النهايـة، وكانت صفة هذه الثمرة موجودة فيها دائماً بالمقدرة.

وطبقاً لهذا التشبيه علينا أن نعى بأن كل إنسان لا يقدر أن يكون نبيـاً أو رسولا بالسعي والجهد، بل يكون نبياً من جعله الله تعالى نبياً أو رسولا. وآثـار هذه النبوة وعلامات وخصائصها وكيفياتها موجودة فيه(النبي) في شكل وصورة الاستعداد والمقدرة منذ أن كان هذا النبي في عالم الماء والطين، وربما يرمز إلى هذا قول النبيﷺ بأنه كان نبياً إذ كان آدم عليه السلام في عالم الماء والطين [1]

يتضح من التأمل والتدبر في سيرة الأنبياء عليهم السلام أنهم منذ أن تطأ أقدامهم الأرض في هذه الدنيا تبدأ في الظهور آثار وعلامـات الأيـام القادمـة، والمنصب الذي سيتولونه، ويمتازون_ عليهم السلام_ بالحسب والنسب وحـسن السيرة والسلوك والصورة، بالرغم من وجودهم في بيئة الشرك والكفـر، وهـم يُجنبون من نجاسة وخبث الشرك والكفر، ويتحلون بـالأخلاق الحـسنة ويُـسلم بأمانتهم وصدقهم، وتكون هذه الصفات مقدمات حتى يصدق الناس نبوتهم فيمـا بعد، وتميل قلوبهم إليهم، وحين تقرأ أحوال ووقائع إبراهيم وإسماعيل وإسـحاق

---

[1] – جامع الترمذي، مناقب النبي، والمستدرك للحاكم، باب المناقـب المحمديـة ج٢ ص٦٠٠، حيدر آباد، الهند. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن الترمذي: (٣٧٦٠) حَدَّثَنَا أَبُـو هَمَّامٍ الوَلِيدُ بنُ شُجَاعِ بنِ الوَلِيدِ البَغْدَادِيُّ حدثنا الوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ عَن الأَوْزَاعِيِّ عَن يَحْيَـى بنِ أَبِي كَثِيرٍ عَن أَبِي سَلَمَةَ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: «قالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قالَ وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ».

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ لا نَعْرِفُهُ إلاّ مِنْ هَـذَا الوَجْهِ. (يوسف عامر).

ويوسف وموسى وسليمان ويحيى وعيسى ومحمد-عليهم الصلاة والسلام- قبل بعثتهم سترى صدق ما أقوله، فعل سبيل المثال انظر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام كيف كان يبحث عن خالق السموات والأرض، ويفكر في الشمس والقمر والنجوم، وينفر بشدة من عبادة الأصنام قبل بعثته-عليه السلام- فكل هذه الأمور تدل على ماذا؟ وكذلك تربية إسماعيل عليه السلام في وادٍ غير ذي زرع، وظهور بئر زمزم، وتوجه القوافل، وتفضيلها العيش فيه، وحين أصبح يسعى ويمشى فتم الإعداد للسفر المقدس مع الأب المقدس، واستعداده الكامل في هذا السن الصغير إلى تحويل رؤيا أبيه إلى الواقع، وإبداء الصبر والشكر والتسليم والرضا، فكل هذه الأمور تُخبر عن أي مستقبل؟ وولادة إسحاق ﷺ ببشرى الملائكة، ويخاطب قبل الميلاد بغلام عليم، ثم خلافة الأب المقدس وانتخابه لحراسة المسجد الأقصى ورعايته وكل هذا مقدمة لأي شيء وأي هدف؟

والرؤيا الصادقة ليوسف ﷺ في طفولته وصبره وشكره وعفته علام يدل كل هذا؟ وولادة موسى عليه السلام في ظروف خطرة حرجة، وحفظه وتربيته ورعايته وجهاده الفرعونيات وحيداً، كل هذا يُنبئ على أي شيء؟ وسليمان عليه السلام يؤتى العلم والفضل وقوة فصل المنازعات في بداية العمر، فعلام يدل هذا؟، وولادة يحيى عليه السلام بعد الدعاء، وصلاحه وسعادته ورقته وطهارته منذ الصغر تمهيد لأي هدف؟ وولادة عيسى ﷺ وصلاحه واستقامته وعلمه بحقيقة التوراة، فهذا يدل على أي صبح مشرق؟ ورسولنا الكريم محمد ﷺ نفسه نتيجة لدعاء الخليل ونبوءة عيسى المسيح ﷺ، ورؤيا آمنة، وظروف ولادته وتربيته، وتجنبه الشرك، وتخلقه بالأخلاق الحسنة والأمانة وحب الخير، وميله إلى الخلوة قبل النبوة، وبحثه عن الحقيقة وتدبره، فهذا كله دليل على طلوع أي شمس مشرقة؟

وهذا هو حال إسماعيل عليه السلام:

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الصافات ١٠١:١٠٢)

ويخاطب الله تعالى موسى عليه السلام:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ (طه ٣٧:٣٨)

وقال الله تعالى عن يحيى عليه السلام:

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِياً (١٢) وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِياً (١٣) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِياً (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ (مريم ١٢:١٥)

وعن عيسى عليه السلام قال تعالى:

﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ (مريم ٢٩:٣١)

ويقدم "أمين مكة" بلا خوف حياته كلها قبل النبوة في موقع الشهادة:

﴿ قَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:١٦)

العلم الغيبي

والعلم الغيبي سمة كبرى للنبوة، وهو العلم الذي لا يمكن لأي أحد من الناس أن يناله عن طريق العقل والشعور والإحساس، بل يأتي هذا العلم مباشرة من الله تعالى بصوت الغيب، أو بالرؤيا الصادقة أو عن طريق الملائكة، ومن بداية هذا يبدأ ظهور عملي لتلقي النبوة، ولفهم هذه المسألة جيداً نحن في حاجة إلى مزيد من التفصيل.

مصادر العلم الإنساني

ينقسم العلم الإنساني إلى قسمين: قسم مباشر، وآخر غير مباشر. وينقسم القسم المباشر إلى ثلاثة أقسام:-

١- **الوجدان:** يعرف الإنسان وجوده الجسماني وأحواله الداخلية لهذا الوجود عن طريق اليقين فكل شخص متيقن من وجوده وما يحدث في داخله من الجوع والعطش والصحة والمرض والهم والفرح والخوف وغيرها من الانفعالات الداخلية. يعلم الإنسان هذا كله بدون واسطة.

٢- **الفطرة**: لا شك في أن كل مخلوق أُعطي عددًا من الصفات التي لا توجد في الأنواع الأخرى من المخلوقات، ومن هنا تظهر اختلافات وميزات بين المخلوقات. والعلم بمثل هذه الصفات النوعية يحصل عليه كل فرد بدون وسيلة أو وسيط. فالكل يعلم بنفسه، وهذا هو ما يطلق عليه في اصطلاح بعض العلماء "الإلهام الفطري" أو النوعي، وعند الفلاسفة يقال له الجبلة، والحيوانات تعرف عن نفسها كثيراً من الأمور جبلياً، من يعلم صغار الطيور التقاط الحبوب، ومن يعلمها أيضا الطيران، ومن يعلم الحيوانات المائية السباحة، ومن هو المعلم الذي علم شبل الأسد الافتراس، ومن علم وليد الإنسان بمجرد ولادته البكاء والنوم والرضاعة.

٣- **الهداية**: يتعرف الإنسان بنفسه بمجرد بلوغه الرشد والتميز على أمور بدون دليل أو حجة، وبشيء يسير من التأمل يعلم أشياءً لا يجد الشك طريقه إليها أبداً. مثلاً اثنان واثنان يساويان أربعة، والمتساويان متساويان، كما لا يكون هناك شيء واحد ذا لونين -أسود وأبيض في ذات الوقت-، وكل مصنوع له صانع، وما إلى ذلك من المقدمات والكليات الضرورية التي ينحصر عليها استدلال الإنسان، والتي يعلمها عن طريق الهداية.

فهذه هي الأقسام الثلاثة للعلم الذي يحصل عليه الإنسان بدون واسطة، ثم يأتي بعد ذلك العلم الذي يناله الإنسان بواسطة. ويوجد لدى الإنسان وسيلتان تمكنه من الحصول على هذا العلم وهما: ١) **الوجدان** ٢) **العقل**. فعن طريق الوسيلة الأولى (الوجدان) يحصل الإنسان على علم الأشياء المادية التي تحيط به، وعن طريق الوسيلة الثانية (العقل) يحصل على علم الأشياء المادية التي توجد أمامه، أو التي ليس لها وجود بالمرة؛ إذ هي في عالم الغيب أو في الذهن والعقل فقط.

٤- توجد **حواس** خمس في جسم الإنسان: حاسة البصر، وحاسة السمع، وحاسة الشم، وحاسة التذوق، وحاسة اللمس. وعن طريق هذه الآلات الخمس التي يملكها الإنسان يحصل على علم الأشياء المادية الذي يصطدم

بهذه الآلات وهو ما يسمى بالحس. فنحن نشعر باللذة عن طريق التذوق، ونتعرف على الصوت بالسمع، ونتعرف على الصورة بالنظر، وباللمس نتعرف على الخشن والناعم، وبالشم نتعرف على الرائحة، وكل ما نعرفه عن طريق هذه الحواس الخمس يكون على الأغلب يقينيًا ومؤكدًا، ولكنه يكون خاطئًا أيضاً في بعض الأحيان.لأن الإنسان - لعلة ما- ينخدع فيخطأ، وبالدليل والحجة يثبت هذا الخداع وهذا الخطأ، وهذا مثل تغير حالة التذوق أثناء المرض، إذ تقول إن الحلو مرّ، وعند الحركة السريعة تخدعنا حاسة البصر، وعند السفر في القطار يتراءى أو يبدو لنا الشيء الساكن متحركاً، كما تبدو لنا نقطة الشعلة المتحركة في الحركة السريعة المستقيمة خطاً نارياً، وفي الحركة الدائرية تبدو لنا دائرة نارية، كذلك نجوم السماء الكبيرة المتلألئة تبدو صغيرة جداً، فهل هي في الحقيقة صغيرة كما تبدو؟

٥- والقسم الثاني للعلم بالواسطة هو الذي نحصل عليه نحن بالعقل والقياس والتأمل والتدبر والاستدلال، وأساسه في الواقع يكون مبنياً على المعلومات التي سبق أن حصلنا عليها بوجداننا وبالإلهام الفطري أو الجبلي والبداهة الأولية، وعلى هذه الأمور المعلومة تقاس الأمور المجهولة بالتمثيل والاستقراء عن طريق القياس، ونحصل على النتيجة الجديدة بتطبيق حكم خصائص الأمور المعروفة وآثارها على الأمور المجهولة المشابهة والمماثلة، فالأمور المجهولة التي نحكم عليها عن طريق الأمور المعروفة إن كانت مادية فليس هناك أي شك، ماعدا ألاّ يتم استقراء جزيئاتها، أو ألا يتم التمثيل التام، أوقد تكون قد خدعت التجربة والمشاهدة، أو يكون قد حدث هناك خطأ أساسي، فكثير من مسائل الطبيعة والعلوم عرف بهذه الطريقة، ولكن لو كان ذاك الأمر المجهول غير مادي فقياساً على الأمور المادية فكل ما يقال عن ذاك الأمر غير المادي فدرجة هذه النتيجة لا تتعدى الظن والتخمين، ولكن كل هذه النتائج علانية على الفطريات أو البديهيات والمحسوسات، ويتعرف على مسائل

ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية عن طريق الاستدلال هذه، ولهذا فيها سعة كبيرة للاختلافات، وتوجد مراحل وأطوار عديدة بين النتيجة الأخيرة والنهائية وبين المقدمات الابتدائية والأساسية والوجدانية أو البديهية أو الحسية، وكل مرحلة من مراحلها مليئة بالمخاطر، فيمكن أن يكون الخداع بين المتشابه والمتماثل، ويمكن أن يحدث اختلاف وفرق بين خصائص الأشياء العقلية والوجدانية والحسية، والتدبر والتأمل والبحث والدراسة والتحقيق واعداد المقدمات والتي هي أعضاء وأفاعيل القياس العقلي يمكن أن تنخدع في أعمالها، ولذلك فإن هذه العلوم مليئة بالشكوك والشبهات.

أزمنة حصول مصادر العلم ودرجاتها

اتضح لنا مما سبق أن الوجدان والفطرة هما أكبر مصدرين للعلوم اليقينية، وهما أول ما وهبهما الخالق لنا، لأن بقاء وجودنا ينحصر فيهما، فعلى سبيل المثال الشعور بالجوع والعطش، واليقين بهما ضروريان، وإلا لن نستطيع إبقاء وجودنا، فالجوع والعطش اللذان نشعر بهما هل يمكن أن يحدث خطأ في علمهما واليقين بهما؟ وهل لو أن هناك أحدا أراد أن يشككنا في جوعنا وعطشنا فهل يمكن أن نقع في هذا الشك؟ هل حدث يوما أن شك الجائع في جوعه، والعطشان في عطشه؟ ويحصل الإنسان على هذا الحس والعلم بمجرد مجيئه في هذا الوجود، حتى أن الطفل وليد اليوم لديه إدراك وشعور بالجوع والعطش، وإلا فلن يستطيع إبقاء وجوده.

يحصل الإنسان على علم الحواس بعد نيله علم الوجدان والفطرة، فالبصر والسمع والتذوق والشم واللمس هذه هي حواسنا الخمس التي هي آلات علمنا المادي، وبدونها لا يمكن أن ندرك أي علم خارجي، ثم إن هذه الحواس الخمس لاتصل إلى درجة الكمال مرة واحدة، بل تنمو حسب الحاجة، وينالها الإنسان وفق استعداده وأهليته، وبعد الولادة بعدة أشهر تكتمل هذه الحواس، إذ إن بقاء الوجود وتكملة الضروريات تبدأ تعتمد عليها من الآن رويداً رويداً.

وتأتى درجة البديهيات الأولية بعد الحواس، ويكون لدى الإنسان في علمه هذا نفس الإذعان واليقين، فالاثنان والاثنان يساويان أربعة، والعشرة ضعف الخمسة، والشيء الواحد لا يمكن أن يكون في مكانين في وقت واحد، وكذلك لا يمكن أن يكون الشيء الواحد أسودًا وأبيضًا في وقت واحد. وهذه العلوم البديهية يقبلها كل شخص ويسلم بها، ولكن الإنسان لا يحصل على هذا العلم منذ طفولته، بل يأتيه بعد بلوغه الرشد والتمييز، لأنه لا يحتاجه إلا في هذا الوقت، ولو لم يمُنح هذا العلم في هذه السن فلن يستطيع أن ينجز أعماله، ولن يولد فيه استعداد وأهلية لاكتشاف العلوم الأخرى، وهذا ما يطلق عليه الأحمق الفطري، والسفيه الذي لا يتحلى بأي علم من هذه العلوم البديهية.

ثم في النهاية تأتى درجة العلم الذي يحصل عليه الإنسان عن طريق القياس على الوجدان والفطرة والبديهة والحواس، وهو ما يُطلق عليه علم المعقولات، ونتيجة لقوة هذا العلم وضعفه تتفاوت العقول الإنسانية في الدرجات والمراتب، فمن ناحية القلة والضعف في هذا العلم يصل الإنسان إلى درجة الحمق والسفه، ومن ناحية القوة والكمال فيه يصل الإنسان إلى درجة العاقل والعاقل جداً والعاقل الممتاز، ليس هذا فقط بل تأتى درجة من الكمال في العقل بحيث لا يكون له نظير، فمن حبشي جاهل إلى أرسطو وأبو على سينا، فكل هؤلاء نماذج إنسانية مختلفة لهذه الدرجات العقلية، ومع كل هذا يكون واضحاً أن طريقة تحصيل هذا العلم مليئة بالمخاطر، وكثيراً ما يكون الهدف المنشود مشكوكاً فيه.

وبصفة عامة هناك خمس طرق للعلم الإنساني، ولكن هناك طريقة أخرى في الحقيقة، ترتبط تماماً بما وراء المادة، تأمل في أن مصدر علمك الأول هو الوجدان (أو الإدراك) وهو نتيجة حواسك الداخلية، ومصدر العلم الثاني الفطرة التي أودعها فيك خالق الفطرة، ومصدر العلم الثالث أي علم المحسوسات هو نتيجة حواسك الظاهرية، وإن كان هذا العلم ظاهرياً، ولكنه في الحقيقة موجود داخل جسمك، ومصدر علمك الرابع أي البديهيات الأولية وهو أحكام مشتركة لحواسك وذهنك، والمصدر الخامس لعلمك والذي هو قياس عقلك وذهنك عمل داخلي لقوتك العقلية، وبتأمل بسيط سيتضح أن علمك من الوجدان إلى الذهن أو

العقل يتقدم ويتطور ويصل بالتدريج من المادية إلى القرب مما وراء المادة، ولاشك في أن الوجدان كله مادية جسمنا الداخلية، والمحسوسات أيضا نتائج للآلات العلمية المادية لجسمنا، وللبديهيات علاقة مشتركة مع حواسنا المادية ومع عقولنا (أخيلتنا) غير المادية، أي أن البديهيات بين مصدر العلم المادي ومصدر العلم اللامادي، والمعقولات كلها ذهنية وغير مادية، ولكن مركز هذه القوة اللامادية هو جسمنا المادي نفسه، وفي كل الأحوال ترتبط هذه القوة اللامادية بالإرادة.

العلم غير المادي

والآن تأتي درجة ذلك العلم والذي يبدأ حده بعد ذلك، والذي علاقته بالمادة ليست بالحد الأدنى الذي يوجد بين المعقولات والذهنيات، فهو مبرأ تماماً من المادة، وتكون علاقته بالمادة فقط بقدر ما يلقى ظله على مرآة القلب والعقل الماديين قادماً من الأعلى.

ولهذا العلم غير المادي أيضا درجات مختلفة ومرتبة، والتي يطلق عليها الفراسة والحدس والكشف والإلهام والوحي، وكما كانت مصادر العلوم الإنسانية الخمسة المذكورة آنفاً متعلقة بالقوى الجسمانية، فهذه المصادر غير المادية كذلك ترتبط بإنسان القوى الروحانية، وكما رأيتم في مصادر علمنا المادي من الوجدانيات إلى العقليات ارتقت بالترتيب من مادي محض ومادي كامل إلى مادي قليل ومادي رمزي واسمي، كذلك الفراسة والحدس والكشف والإلهام والوحي ارتقت أيضا من مادي وروحاني رمزيين إلى روحاني كامل وروحاني خالص.

١- والفراسة تعني في اللغة " التبصر" وقوة التبصر هذه لا تكون واضحة بارزة في كل شخص، ولكن الشخص الذي تكون بارزة فيه هذه الفراسة يكون موهوبًا، ويحصلها الإنسان عليها بكثرة التجارب والخبرات وإتقان العمل، ومن يتصف بها يستطيع بمجرد رؤية الشيء أو سمعه أو تذوقه أو شمه أو لمسه، وبمعرفة بعض العلامات أن يصل إلى النتيجة الصحيحة بسرعة فائقة بدون أن يلقي النظر على العلامات والمؤشرات الأخرى الضرورية، ويحسبه الناظرون إليه مطلعًا على الغيب، غير أن

علمه هذا يكون مبنياً على العلامات والمؤشرات الظاهرة التي يستطيع رؤيتها أي إنسان، ولكن لم يرها (كرؤية صاحب الفراسة) ومثل هؤلاء الأشخاص الذين يتصفون بالفراسة يبدون للناس جميعاً. ومن تظهر فيه الموهبة في أي فن يتمتع بالفراسة في هذا الفن، فرجال المباحث والمخابرات يصلون إلى درجة الكمال في فراسة فنهم ومهنتهم، فبمجرد أن يلقوا نظرة على الصور يبصرون ما يريدون، كذلك مهرة كل علم وفن يكونون موهوبين في فنونهم ومهنتهم، والأخيار والصالحون أيضاً يحصلون على قوة معرفة أفراد جماعتهم، وهذا هو ما قيل عنه في الحديث الشريف:"اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله ". (الترمذي)[1]

٢- تأتي درجة الحدس بعد الفراسة، والمقدمات الأولى للفراسة تبنى على الحواس، ولكن المقدمات الأولى للحدس تكون ذهنية وعقلية، فبالتأمل والتدبر في هذه المقدمات الذهنية والعقلية، وبالبحث والترتيب تظهر النتيجة، ولكن بالكمال الفطري، وبالفن الناتج عن الخبرة والمهارة يعبر الذهن التأمل والتدبر والبحث والدراسة والمراحل المنطقية لترتيب المقدمات، ويصل إلى النتيجة الأخيرة بسرعة فائقة، بحيث لا يشعر هذا الإنسان نفسه بأنه عمل أي عمل ذهني للوصول إلى هذه النتيجة. ويُمنح الحدس أيضا فطريا للناس كاملي العقل وصائبي الرأي في الغالب، وأمثلة هذا توجد بكثرة في أحداث وأحوال العقلاء والحكماء المشهورين في الدنيا.

---

[1] - وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن الترمذي، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن: (٣٢٣٩) حدثنا مُحمَّدُ بنُ إسماعيلَ، أخبرنا أَحْمَدُ بنُ أَبي الطَّيِّبِ، أخبرنا مُصْعَبُ بنُ سَلاَّمٍ، عن عَمْرِو بن قَيْسٍ، عن عَطِيَّةَ عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: قال: رسولُ الله : «اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ، فإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله، ثُمَّ قَرَأَ: {إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}».
قَالَ أَبو عيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ إنما نَعْرِفُهُ من هذا الْوَجْهِ. وقد رُوِيَ عن بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وتَفْسِيرِ هذه الآيةِ: {إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}، قال: لِلْمُتَفَرِّسِينَ. (يوسف عامر).

٣- الكشف: والمعنى اللغوي للكشف هو الفتح ورفع الستار، ولكن المقصود منه هو إتيان الشيء المادي بعد خرق الستار المادي المظلم في عالم الروحانيات أمام الرؤى، ويأتي أحيانا في شكله الأصلي، وأحيانا أخرى يُرى في شكله الرمزي، وأفضل مثال له يقدم للناس هو" الرؤيا"، ولكن الفرق بينهما هو أن"الرؤيا" أمر عالم الأحلام، أما الكشف فهو متعلق بعالم اليقظة، وهذا كما يرى عامة الناس في المنام حين تعطل الحواس الظاهرية أموراً تثبت أحيانا في الحقيقة أو الواقع، فالخاصة من الناس يرون في اليقظة، حين تعطل الحواس الظاهرية مثل هذه المناظر والأمور، وتمر مثل هذه الأمور العجيبة في تجارب كل شخص.

٤- الإلهام: والمعنى اللغوي للإلهام هو الإلقاء في القلب، ولكن المراد منه هو العلم الذي يأتي في القلب دون اجتهاد وبحث ودراسة وتأمل وترتيب المقدمات، ومن الممكن أن يثبت صحته فيما بعد بالتجارب الحسية والدلائل العقلية، ولكن هذا العلم نفسه لا يأتي في الذهن أولاً نتيجة لتجربة حسية أو دليل عقلي، بل يأتي في القلب بنفسه، لماذا يأتي ومن أين يأتي؟ يمكن أن تكون الإجابات مختلفة، ولكن في حقيقة الأمر أنه يأتي، ولا يستطيع أحد أن ينكره. وأمثلته البدائية والبسيطة هي التخيلات التي تأتى في عقول المحققين والعلماء والشعراء والمخترعين، يأتي من الستار المحجوب أولاً بأول، وهم يعرضونها أمام العالم في شكل الإبداعات والاختراعات.

٥- الوحي: وهو في اللغة إظهار الرغبة القلبية على الآخر بدون تحرك الشفتين، وبخفية وهدوء. ومعناه الاصطلاحي اطلاع الله تعالى مرضاته وإرادته خاصة عباده بوسيلة من وسائل الغيب، وهذا العلم هو آخر حد للوسائل الروحانية للإطلاع.

وكما أن أقسام العلم الجسمانية الثلاثة -أي الوجدان والحواس والبديهيات- وسائل مؤكدة لعامة الناس، كذلك وسائل العلم الروحاني الثلاثة -وهي الكشف والإلهام والوحي- مؤكدة ويقينية للأنبياء عليهم السلام، وكما هو حال الوسائل

المادية للعلم بأن الوسيلة التي تحتل الدرجة الأولى في التأكد واليقين هي الوسيلة المادية المحضة أي الوجدان، ويليه الحس الظاهري، ثم تأتى مرتبة البـديهيات، يوُجد كذلك الترتيب في الوسائل الروحانية للعلم من ناحية الجزم واليقين؛ إذ يأتي الوحي أولاً، ثم الإلهام، ثم الكشف.

إن التقسيم الذي قمنا به لوسائل العلم الروحاني، وهي الـوحي والإلهـام والكشف ليست من مصطلحات القرآن الكريم، ففي الاصـطلاح القرآنـي اسـم الوسيلة الروحانية للعلم هو المكالمة الإلهية (الكلام مع الله)، وبين القرآن ثلاثـة أقسام لها:

١- **الكلام بالوحي** (بالإشارة) أي حدوث معنى في القلب بـدون صـوت أو كلمات فإن كان هذا في حالة اليقظة فهو كشف، وإن كان في المنام فهـو رؤيا.

٢- **كلام الله من وراء حجاب**.أي لا يُرى المتكلم، ولكن الصوت يـأتي مـن الغيب، وتُسمع الكلمات، فسم هذا الإلهام.

٣- **الكلام عن طريق الملك**، أي أن الملك الذي أتى برسالة الله تعالى يُـرى، وتخرج من فمه تلك الكلمات التي يسمعها ويحفظها النبي، ويطلق علـى هذا عموما الوحي. وكان نزول القرآن الكريم على هذه الطريقة الأخيرة، ولكن هذا لا يعنى أن الطريقتين الأولى والثانية ليستا من أقسام الـوحي. وفي سورة الشورى ذكر لأقسام الوحي هذه:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِـلَ رَسُـولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى: ٥١)

وهذه الطرق الثلاث لكلام الله تعالى أي الكلام بالوحي(بالإشارة) والكلام من وراء حجاب، والكلام عن طريق الملك هي أقسام ثلاثـة مختلفـة للـوحي، وتشترك كلها إجمالاً في مسمى الوحي، أي أنها منقسمة أيضا، واسم الواحدة منها الوحي أيضا. انظر في هذه الآية الكريمة سنجد أن الكلام عن طريـق الرسـول والملك قيل له الوحي، كما أطلق هذا المسمى" الوحي" أيضا على هـذه الطـرق

الثلاث المذكورة والتي عن طريقها أُطلع النبيﷺعلى التعليم الغيبي، أي أن الوحي يستخدم كمرادف للكلام الإلهي. يقول تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم:٣، ٤)

والغرض من التمييز بين هذه المصطلحات العلمية الثلاثة -الكشف والإلهام والوحي- هو أن تتميز كل طريقة كلام روحاني عن الأخرى، فالكلام بالإشارة في حالة اليقظة يقال له الكشف، والكلام في عالم الأحلام يقال له الرؤيا، ومجئ الصوت من وراء حجاب يقال له الإلهام، وكلام الملك وجها لوجه يقال له الوحي.(١)

حكمة

ورد في قول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أن البشر لا يقدر على أن يكلمه الله، لذا ذكر الله تعالى طرق كلامه مع البشر. وقال سبحانه في آخر الآية ﴿**إنه على حكيم**﴾ أي كان علوه يقتضى ألا يستحق أحد بشرف كلامه سبحانه، ولكن اقتضت حكمته سبحانه بأن يكلم عباده الخواص لرشد العامة من عباده وهدايتهم بطريقة من هذه الطرق الثلاث غير العادية.

على أية حال الوسيلة الغيبية للإطلاع التي يطلق عليها في الاصطلاح" الوحي" لا تجربة لها من عامة الناس، ولكن الوسائل الغيبية الأخرى للإطلاع، والتي تأتى بعد الوحي لها تجارب من كل شخص قليلة كانت أم كثيرة. في حياة كل شخص تأتى بعض الأسرار الغامضة والحوادث غير المفهومة، وبالتأمل فيها يمكن أن يأتي في الذهن صورة غير واضحة لهذه الوسيلة الرفيعة للعلم، والتي يمكن عن طريقها فهم الوسائل غير الجسمانية وغير الحسية للعلم، ويمكن قبول العلم الذي كان مستبعداً خاصة في هذا العصر الحديث، حيث تكشف الدراسات السيكلوجية (النفسية) كثيراً من القوى المجهولة في النفس، وهناك مساعي لخطاب

---

١ - للمزيد عن هذه المصطلحات لابد من الرجوع إلى كتب أصول الفقه، على الأقل يجب الرجوع إلى كتاب التحرير لابن الهمام ت٨٦١هـ، وشرح التقرير والتحرير لابن أمير الحاج ت ٨٧٩ هـ المجلد ٣ص ٤٩٥- مطبعة بولاق مصر.١٣١٧هجرى.

الأرواح والتحدث معها عن طريق الروحانيات، وبدأ فـن الروحانيـات الجديـد يتشكل على أنه علم مستقل.

والأنبياء عليهم السلام يؤمنون ويتيقنون بكشفهم وإلهامهم ووحيهم كما يتيقن عامة الناس بوجدانهم وحواسهم وفطرتهم وبديهياتهم، وكما أنه لا ينخدع أحد في علمه وشعوره بأنه يحس بالجوع والعطش، أو أنه يشعر بهَمٍّ أو فـرحٍ، فالنبي كذلك لا ينخدع أيضا في وجدانه الروحي، وكما أنك لا تقع في مغالطة حسابية بأن ٢+٢ لا يساويان ٤، وكما لا تشك في حواسك إذا كنت ترى أحداً أمامك أو تسمع صوتا لأحد، فهو أيضا لا ينتابه الشك في حواسه الروحانية. وخلاصة القول هو أن النبي يكون مبرءًا في جميع وسائل غيبه العلمية والروحانية من النقص والشك والخطأ، كما تكون أنت مبرءًا من الخطأ في وجدانك وفطرتك وحواسك وبديهياتك.

علم الغيب

لا يعلم أحد الغيب في عقيدة الإسلام إلا الله تعالى، وأمر الله تعالى في كتابه العزيز محمد ﷺمرات ومرات بأن يعلن هذا للناس:

﴿ **فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلَّهِ. ..**﴾ (يونس:٢٠)

﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ ("النمل: ٦٥)

وجاء على لسان الرسول ﷺ:

﴿ **وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ** ﴾ (الأنعام:٥٠)

ولكن مع هذا قيل في موضعين أن الله تعالى يُطلع رسله الأخيار بالغيب، ففي سورة الجن: ﴿ **فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً** (٢٦) **إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ** ﴾ (الجن:٢٦)

والموضع الأخر جاء في سورة آل عمران:

﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ (آل عمران:١٧٩)

يتضح من هاتين الآيتين أن الله يُطلع رسله الأخيار على الغيب، وثبت من هذا أن الآيات التي تنفي علم الغيب كليا وقطعياً المراد منها العلم الذاتي

والحقيقي، أي لا يعرف هذا العلم أحد إلا الله تعالى، ولكن الأنبياء يطلعون على هذا عن طريق الله تعالى. وقال الله تعالى في آية الكرسي: ﴿ **وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ** ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

يُطلِع الله تعالى رسلَه المختارين بعلومه الغيبية وعلى قدره بما يشاء ويرى فيه المصلحة عن طريق الوحي، ومع هذا ورد في سورة هود وسورة لقمان بعض الأمور التي حكم الله حكماً قطعياً في أنه لا يعلمها إلا هو سبحانه، على سبيل المثال، وقت الساعة، والمطر، والموت، وما في الأرحام، وماذا سيكون غداً، فهذه الأمور كلها لا يعلمها إلا الله، كذلك قال الله للنبيﷺ في بعض الآيات إنه لم يكن لديك علم من هذا، كما حدث في غزوة تبوك، إذ جاء بعض المعتذرين وحلفوا كذباً، وعليه حصلوا على إذن بعدم الاشتراك في الغزوة. قال الله تعالى ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ** ﴾ (التوبة: ٤٣)

﴿ **لَقَدِ ابْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾ (التوبة:٤٨)

ثم قال تعالى:﴿ **مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾ (التوبة: ١٠١)

واضح من هذه الآيات أن الرسل لا يعلمون علماً كليا للغيب، بل كما سبق في الآيتين اللتين ورد فيهما اطلاع الغيب استخدم فيهما كلمة الرسول، وهذه الكلمة تشير إلى حقيقة، وهي أن أمور الغيب التي يعطى الرسل علمها هي ما تتعلق بواجب الرسالة وشريعتها ومصالحها.

حقيقة الغيب

بعد قطع هذا القدر من المراحل في طريق علم الغيب يُطرح هذا السؤال، وهو ما المقصود بالغيب في اصطلاح القرآن الكريم؟ بعد التدبر في جميع ألفاظ الغيب التي استخدمت في القرآن الكريم يتضح المعنى الإجمالي والتفصيلي للغيب، فإجمالاً يطلق هذا اللفظ على الأمور التي لا يستطيع الإنسان أن يحصل عليها بعلمه العام والطبيعي والفطري، وذكر من قبل أن الوسائل الطبيعية لعلم الإنسان هي الوجدان والحواس والعقل والاستدلال وغيرها من الوسائل الأخرى.

فالعلم الذي لا يحصل عليه الإنسان من هذه الوسائل الفطرية التي يملكها كل إنسان يطلق عليه علم الغيب، أي علم شيء أو أشياء تغيب عن حواس الإنسان الظاهرية والباطنية، وعن أعين القوى الذهنية والعقلية. ولفظ الشهادة مضاد لفظ " الغيب"، والشهادة تعنى الحضور، أي الأشياء التي تبدو أمام حواس الإنسان وقواه العقلية، ولهذا قال تعالى عن ذاته سبحانه أكثر من مرة: ﴿ **عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** ﴾ (الأنعام:٧٣، الرعد:١٠٥، الحشر:٢٢، التغابن:١٨) أي كل ما هو حاضر وغائب أمام الوسائل الفطرية لعلم الناس، فالله تعالى عليم وخبير بكل هذا وذاك والخلاصة هي أن علم الغيب إجمالاً هو الطريق الغيبي للعلم الذي لم ينله الإنسان.

أما تفصيلاً فقد أطلق لفظ الغيب في القرآن الكريم على أربعة أشياء:

١. وقائع الزمن الماضي وأحداثه، التي لا يمكن معرفتها بالحواس، لأن بالحواس يُعرف فقط علم ما هو مشهود أو مرئي أمامنا، ولا يمكن معرفتها عن طريق العقل والفكر. وإن كان من الممكن معرفتها عن طريق النص والرواية، ولكن لمن يكون طريق النص والرواية مسدوداً أمامه، فإن كان يستطيع حصول العلم عنها فمن الغيب فقط ولا طريق سواه.

بعد ذكر قصة نوح عليه السلام بإيجاز، يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ** ﴾ (هود :آية ٤٩)

ويقول الله تعالى في ثنايا ذكر قصة مريم عليها السلام:

﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ** ﴾ **(آل عمران ٤٤، ٤٥)**

انظر عندما كانت الطريقة الطبيعية للحصول على علم الحوادث الملموسة البصر والسمع فجاء نفي بأنه ﷺ لم يكن موجوداً آنذاك، بقي أن يكون

السمع بوسيلة إنسانية أخرى فجاء نفي له من أوله أيضا بأن قومك لم يكن يعلمها أحد منهم ولم يعرفوا عن طريق الآخرين، إذاً الطريقة غير الطبيعية التي استخدمت لإخبار الرسول هي وسيلة الوحي، كذلك يقول الله تعالى بعد سرد قصة يوسف عليه السلام كاملة:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (يوسف : ١٠٢)

وفى هذه الآية أيضا ورد نفي لعلم الشهادة، وإثبات لعلم الغيب. وفى كل الأحوال تتضح من الآيات الثلاث أن الطريقة غير الطبيعية لعلم أحداث الماضي وأحواله قيل لها أيضا علم الغيب .

٢. كما أُطلق علم الغيب على أحداث المستقبل وأحواله، ويأتي علمها عن طريق الوسيلة غير الطبيعية، إضافة إلى الوسائل الطبيعية للأدلة والقياس، فيُطلق عليه أيضا علم الغيب. ورد في القرآن الكريم رداً على هؤلاء الكفار الذين كانوا قد طلبوا الآيات والعلامات: **﴿فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرِينَ ﴾** (يونس : ٢٠)

أُطلق لفظ الغيب في هذه الآية الكريمة على الأحداث المنتظرة في المستقبل .كما عُبّر عن يوم القيامة بالغيب أكثر من مرة، ونفي هذا العلم عن غير الله تعالى .

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ (لقمان:٣٤)

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ (الأعراف:١٨٧)

كما نفي علم الأحداث والأحوال الأخرى المتعلقة بالمستقبل عن البشر .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ٣٤)

٣. كما أُطلق لفظ الغيب على تلك الأشياء التي لا تتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وإنما بالحاضر، ولكن الإنسان لا يستطيع إدراكها أو معرفتها عن طريق الحواس الخمسة، وعن طريق قوة العقل المحدودة. ونحن

مُنحنا قوة البصر والسمع، ولكن ألحق بهما بعض القيود والشروط مثل: المسافة وعدم الحجاب وغيرهما، والتي بسببها تكون قوانا معطلة. على سبيل المثال، فنحن لا نستطيع أن نشاهد مناظر ممباي ونحن في دلهي، كما لا نستطيع أن نسمع اليوم أصوات هناك بدون آلات ونحن هنا في دلهي. ولذا فللعلم بالزمن الحاضر لابد من توافر شروط طبيعية وقيود، وأي علم يأتي بدونها هو علم الغيب .

والسيدة الحامل الموجودة أمامنا هل يعلم أحد ما في بطنها من وراء حجب ؟

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ (لقمان :٣٤)

إن ما في السموات والأرض الآن لهو موجود أمامنا في الوقت الحاضر، ولكن علمه خارج عن حواسنا وعقلنا ما لم تكتمل الشروط أو الوسائل الطبيعية التي وضعها الله تعالى لبصرنا وسمعنا وعلمنا ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (هود : ١٢٣)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الحجرات : ١٨)

٤. والشيء الأخير لعالم الغيب هو تلك الأمور التي تكون خارجة تماماً عن حواسنا وعن دائرة عمل عقلنا الضيقة بسبب كونها غير مادية. فنحن لا نرى الملائكة، ولسنا مؤهلين لرؤية الله تعالى، ولا يمكن لأحد منا أن يرى الجنة والنار وهو في عالمنا هذا، فهذه الأمور كلها أيضا أمور غيبية. ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ (الأنبياء : ٤٩)

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البقرة : ٣)

﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (مريم : ٦١)

ويقصد "بالغيب" هنا عدم المعرفة والإدراك أو الرؤيا، وبدون حصول العلم عن طريق الحواس، وبالرغم من هذا لا يمكن مشاهدة هذه الأشياء في هذه الدنيا .

والأمور الغيبية التي يخبرها الله تعالى رسوله تكون من أقسام الغيب الأربعة هذه. أطلع الله تعالى الرسول ﷺ على أحوال بعض الأمم

السابقة والأنبياء، وذلك للعظة والعبرة عن طريق النص أو الرواية، وسبق الاستشهاد على هذا من القرآن الكريم. كما أعطى الرسولﷺ العلم عن فتن الدنيا في المستقبل، وانقلاب الأمة المحمدية ومناظر القيامة وما يجرى فيما بعد من أحداث، وهذا واضح من التنبؤات الدنيوية وأهوال القيامة والحشر التي ذكرت بكل وضوح وصراحة في القرآن الكريم وصحيح الأحاديث، وهكذا فإن علم أحوال ومناظر الزمن الحاضر ثابت، ولكن بسبب توافر الوسائل الطبيعية للشعور والعقل لا يراها عامة الناس رغم أنها ماثلة أمامنا. والكشف عن القبور والإخبار من وراء حجاب ومعرفة أحوال الناس في الوقت الحاضر وغيرها من الأمور الغيبية، يُمنح الرسل من علمها الغيبي أيضا. وفي النهاية تأتى تلك الغيبيات والتي خارج تماماً إحساسها وتصورها عن وسائل علمنا المادية، ولكن هذه الغيبيات أيضا تُرى وتُخبر للرسل، فرؤية ذات الله سبحانه العلية، ومشاهدة الملائكة والجنة والنار وغيرها يعطى الله تعالى علم أي منها رسله بقدر ما يناسب كل واحد، وبقدر ما هو مؤهل له، وذلك عن طريق الأقسام المختلفة للوحي.

الوحي وموهبة النبوة

عبّر فلاسفة الإسلام عن حقيقة الوحي بلفظ "موهبة النبوة"، وشرحه هو أننا لو تأملنا في درجات الكون وترتيبه لعلمنا أن العلم والعقل في هذا الكون تقدم تدريجياً من الانحطاط إلى الرقي، فالجمادات لا حواس لها، وتوجد فوقها النباتات، والتي فيها نوع محدود جداً من الحس، وهي محرومة أيضا من القوى العقلية والذاكرة وقوة التدبير والتأمل، وتعلوها الحيوانات التي تبدو فيها كل هذه القوى، ولكن بطريقة ناقصة، ويعلو هذا كله الإنسان، وفيه كل هذه القوى بدرجة كاملة. وهذه القوى لا تتجمد هنا، بل كما توجد في النبات قوة الحس والتي تحرم منها الجمادات، وفي الحيوانات توجد من قوى الذاكرة والتصور والعقل الأمر الذي لا يوجد في النباتات، أما الإنسان فتوجد فيه القوى الذهنية والعقلية التي لا

توجد في الحيوانات، كذلك توجد في الأنبياء قوة العلم والعقل التي لا يوجد مثيلها في الناس عامة، وهذه هي ما يطلق عليها موهبة النبوة.

تكشف الحواس عن الماديات فقط، والقوى الدماغية تعلو الماديات وتذهب إلى الذهنيات والعقليات وهي أعلى من الماديات، وموهبة النبوة تذهب إلي ما هو أعلى من هذا أيضا. وتكشف هذه الموهبة عن حقائق تعلو الذهنيات والعقليات وهي الغيبيات. وفي وسيلة العلم هذه لا تقتضي الحاجة إلي التدبر والبحث والتأمل المنطقي وترتيب المقدمات بل تتكشف وتتضح الحقائق كما تتكشف وتظهر أمامنا الوجدانيات و الفطريات والبديهيات والمحسوسات. كما تكون يقينية مثلها تماماً. وبما أن وسيلة العلم هذه لا تحصل من المعلومات مثل وسائل العلم الإنسانية العامة، أي الوجدان والفطرة النوعية والبداهة الأولية والحس والتأمل، بل يمنح علام الغيوب الرسول هذا بدون وسائل العلم الإنسانية. ويقال لهذه الوسيلة في اصطلاح الشرع "الوحي" و"الإلهام " وفي مصطلح علم الكلام يطلق عليها "موهبة النبوة " وفي الاصطلاح العام يطلق عليها "العلم الغيبي".

ولكن في اصطلاح أهل النقل ليست هذه هي صورة الوحي، بل حين يطلع الله تعالى الأنبياء من وقت لآخر على الأوامر عن طريق الملائكة مباشرة فهذا عندهم هو الوحي .

وبإمعان النظر يتضح أن سبب الاختلاف بين أهل العقل والنقل هو هل هذا الوحي نتيجة للعلم والفهم الوهبي وغير العادي، أم أنه نتيجة للتعلم الرباني الذي ينزل على الأنبياء مباشرة من حين لآخر؟، وبعبارة أخرى يمكن أن تقول بإنه كما توضع قوة العلم والفهم فطريا في الناس منذ ولادتهم، كذلك توضع في الأنبياء منذ البداية قوة معرفة الإرادة الإلهية، أو إن هؤلاء الأنبياء يملكون نفس طبيعة العلم الإنساني العام، ولكن الله تعالى بعد النبوة يُخبرهم ويُنبئهم في أوقات مختلفة بأوامره وإرادته بطريقة غيبية.

ولكن الواقع هو أن الحقيقة ليست في انفصال العقل عن النقل، ولا في انفصال النقل عن العقل، بل تكمن الحقيقة في اتحادهما، فأولئك الذين يعرفون كلا

من العقل والنقل هم في الحقيقة قد جمعوا بين كليهما. (يقول الشاعر) صديقنا يملك هذا وذاك.

الأنبياء عليهم السلام يوجد فيهم بفضل الله وكرمه الاستعداد الكلي والإدراك منذ الولادة للأمور التي تتعلق بالرسالة والنبوة، والتي يطلق عليها الدين، أما غير الأنبياء فهم محرومون منها، أي لا يتحلون بهذه الصفة. وتظهر هذه القوة المكنونة عمليا حين يبعثون لأممهم. وتسمي هذه القوة موهبة النبوة، والعلم الغيبي الذي يتلقاه النبي من وقت لآخر عن أمور الدين يسمى "الوحي".

إن الاختلاف الذي يوجد الآن بين مدعى العقل وفهم القرآن وبين الملتزمين بالنقل اللفظي ما هو في الحقيقة إلا نتيجة لعدم التمييز بين هاتين القوتين، فالملتزمون بالنقل اللفظي يعتقدون أن كل ما يتلفظ به النبيﷺ هو وحي بنفس المعنى الذي فيه القرآن، لأنه اطلاع غيبي عن الله تعالى مباشرة. ومدعو العقل يعتقدون أن القرآن دون أدنى شك وحي مباشر من عند الله تعالى؛ ولكن ما يقوله الرسول ﷺما عدا ذلك فهو ليس نتيجة للرسالة، بل نتيجة للعلم والإدراك الإنساني أو البشري. ولكن الحقيقة غير هذا وذاك، ولكن الحقيقة ليست هي ما ذهب إليه كلا الفريقين، وإنما هي أنه مثلما أن الوحي القرآني وحي مباشر فكذلك أوامر النبي الأخرى ليست نتاج العلم والإدراك البشري العام، وإنما هي نتاج العلم والفهم لقوة الموهبة النبوية، التي يمكن أن يطلق عليها القسم الآخر من الوحي، لأن غايته هي ترجمة الوحي الرباني وتفسيره عن طريق الموهبة النبوية، ولهذا فأوامر وحي الرسول وأوامر الموهبة النبوية كلتاهما موجبة للإتباع والاقتداء.

الكتاب والسنة

خلاصة هذا الموضوع هو أن العلم الذي يحصل عليه الرسول ﷺ قسمان:أحدهما وحي حقيقي، وهو الوحي الذي ينزله الله تعالى على رسله من وقت لآخر بألفاظه الخاصة والتي تسمى بالكتاب الإلهي والصحيفة الربانية، والتوراة، والإنجيل، والزبور والقرآن. والثاني هو ذلك العلم الذي يأتي نتيجة للموهبة النبوية أو نور النبوة، أوفهم النبوة وإدراكها. فالعلم الأول أصلي والثاني

ضمني، أو قل إن العلم الأول أساسي والثاني فرعي، أي أن العلم الأول يوضح للرسول الأحكام الكلية الأزلية والثابتة للشريعة. والعلم الثاني يشرح الأصول الكلية الثابتة، ويفصل جزئياتها الضرورية، ويبين الأحكام النافعة للأمور المتغيرة والثانوية في أوقات الطوارئ. وهذا القسم الثاني للعلم يوجد في شكل الروايات والأحاديث، ويطلق عليه أهل الأصول السنة. فالكتاب أحكام أصولية، والسنة شرح عملي وبيان لهذه الأحكام الأصولية. والكتاب صادر عن الوحي الإلهي المباشر، والسنة صادرة عن موهبة النبوة والإدراك النبوي، والكتاب وحي باللفظ، والسنة وحي بالمعنى

الوحي المتلو والوحي غير المتلو

أطلق بعض علماء الأصول على كل من الكتاب والسنة مسمى " الوحي "، وميزوا بينهما قائلين إن " الكتاب " هو الوحي الذي يُتلى، والسنة هي الوحي الذي لا يتلى. والهدف الحقيقي من هذا الشرح ليس في الفرق بين التلاوة وعدم التلاوة، بل إن الكتاب أُوحي لفظاً ومعنى، وهذه الألفاظ محفوظة ومصونة، وكل حرف من حروفه، ونقطة من نقاطه شاملة في قول الله تعالى"وإنا له لحافظون"، ولذا محال حذف أي لفظ أو إضافته في ألفاظه، وفي السنة حفظ وصون للمعاني فقط وليس للألفاظ. ولذا دون وحي الكتاب وحفظ، ونزل أمر إلهي بقراءته في الصلاة، وتلاوته مسنونة، أما السنة فوحيها بألفاظها ليس مقصوداً، ولذا لم يعط حفظها اللفظي هذا القدر من الأهمية، ولا تقرأ في الصلاة، ولا تتلى، ولا يطلق عليها مسمى "الكتاب"، ولكن معناها الأصلي حفظه القرآن نفسه في داخله، أما من حيث جزئياتها فبالرغم من عدم وجودها لفظاً، فإنها موجودة عملياً فالرسول نفسه وأتباعه وأتباع أتباعهم حفظوها عن طريق أعمالهم، حتى إن مسلمي اليوم يعملون بها فهي محفوظة ومصونة في صورة التواتر العملي، ليس هذا فحسب بل قام الأئمة بروايتها وتحقيقها جيدا وحفظوها في أوراق كتب الحديث.

فالقول بأن السنة وحا باعتبار أن جزئياتها في الأصل موجودة في الوحي الحقيقي يعني في الكتاب، وفي كلياته تندرج جميع أحكام السنة، وعليه فالسنة

داخلة في الغاية الكلية للوحي، ويمكن أن يقال لها ضمنيا الوحي، ولكن مادامت ألفاظها غير معينة وغير محدودة من عند الله لذا فهي وحي غير متلو.

وسرد هذا الفرق هو أن حيثية الكتاب الأصلية هي أنه قانون كلي، ولحفظ المعنى الأصلي للقانون وتوضيحه لابد من حفظ كل نقطة، بل كل سنة ووقف ووصل وفصل وعطف وقطع وتقديم وتأخير، وهذا هو ما يطلق عليه في اصطلاح اليوم علامات الترقيم أي حفظ كل نقطة وفاصلة بعينها، وإلا فبتغيير أو تبديل بسيط جداً يتغير ويتبدل معنى القانون، وهذه ليست هي الحيثية القانونية الكلية للسنة، بل هي شروح وتفصيلات وجزئيات لذلك القانون الكلي، والتي هي في الحقيقة كانت مدرجة داخل هذا القانون الكلي، وحين لم يتيسر لعامة الناس فهم هذه الحقيقة استفسر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أو أدرك النبي ﷺ نفسه هذه الحاجة فشرحها وفصلها؛ حتى لا يبقى فيما بعد أية شبهة.

وفي هذا المقام توجد حكمة أيضا، وهي أن الأحكام التي وردت في كتاب الله بألفاظ وكلمات لم يستطع فهمها بعض الناس، وأرادوا شرحها وتوضيحها من النبي ﷺ لأنهم ما استطاعوا فهم الحكم بهذا الحدث الخاص، وهذا الحكم مأخوذ ومستنبط من أي أصل من أصول القرآن الكريم، ولهذا استفسروا (عنه) عند النبي ﷺ، فلو أن الرسول ردد نفس النصوص أو الأحكام بعينها دون نقص أو زيادة رداً على استفساراتهم لكان هذا الرد غير عملي وبدون جدوى؛ إذ إن الاستفسار ورد بسبب عدم فهم هذه النصوص أو الأحكام، ولذا كان من الضروري أن يشرح الرسول ﷺ هذه النصوص والأحكام بألفاظ أخرى وبأسلوب آخر، وهذه هي الأحاديث.

الحقيقة هي أن الرسول ﷺ وضح مفهوم وغاية القانون الإلهي والكتاب الرباني في أحاديثه تيسيراً على الذين يريدون فهمه.ولهداية الضالين، فقام ﷺ بتوضيح غاية الله الأصلية توضيحاً كاملاً، وعبر عنها بألفاظ مختلفة وأساليب عديدة في أكثر من موضع لمزيد من التأكد، ولهذا فإن معاني الأحاديث وحي ضمني من حيث المفهوم الأصلي، ولكنها من حيث الألفاظ والجمل والأساليب

ليست وحيا، بل هي نتائج صائبة للفهم والاجتهاد النبوي والموهبة النبوية، ولـذا يقال لها في الاصطلاح "الوحي غير المتلو".

ولتوضيح هذا الفرق بصورة أوضح نقدم هنا مثالاً واحداً وهو أن القرآن الكريم أمر بخدمة الوالدين وطاعتهما، وفضلاً عن هذا هناك إشارة إلى أن رضا الـوالدين سبب[١] لمغفرة الذنوب، وهذه غاية حقيقية للوحي الإلهي، والرسول ﷺ عبر عن هذه الإرادة والغاية الإلهية بهذه الكلمات"الجنة تحت أقدام الأمهات"، كما قال ﷺ "رضا الرب في رضا الأب"، واستفسر صحابي ﷺ: يا رسولَ الله، مَـن أحَقُّ بحُسْنِ صَحابتي؟ قال: أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثم منِ؟ قال: ثمَّ أبوك».[٢] وذات يوم كان الرسول ﷺجالساً وحوله الصحابة الكرام فورد على لسانه المبارك هذه الكلمات:«رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قَالَ «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ». [٣] وفي جلسة أخرى سأل الصحابة: أيُّ العملِ أحبُّ إلـى اللهِ؟ قال: الصلاةُ علَى وقتِها. قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ برُّ الوالدَينِ.[١]

---

[١] -كنت أشك بأنني منفرد في هذا الرأي، ولكن بحمد الله بعد البحث ثبت أن هناك عددا مـن علماء الأصول لهم نفس الرأي، وورد هذا الرأي إجمالاً في كتاب الرسالة للإمام الـشافعي أولا.ص٢-٢٩-٦٢، المطبعة العلمية مصر ١٣١٤هـ. وورد تفصيلاً في كتاب "الموافقات في أصول الأحكام" للإمام الشاطبي الأندلسي-المجلد ١-ص١٧٥-٢٢١ -المطبعة الـسلفية ١٣٢٤هـ، وهناك باب في هذا الموضوع في كتاب "حجة الله البالغة "للإمام شـاه ولـي الله الدهلوي.

[٢] - وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري، باب مـن أحـق النـاس بحـسن الصحبة: (٥٨٣٤) حدثنا قُتَيبةُ بن سعيد حدثنا جرير عن عمارة بن القَعقاع بن شُبرُمَة عـن أبي زُرعةَ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: «جاء رجلٌ إلى رسولِ الله صلى الله عليـه وسلم فقال: يا رسولَ الله، مَن أحقُّ بحُسْنِ صَحابتي؟ قال: أُمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثم من؟ قال: ثمَّ أبوك».

وقال ابنُ شُبرمةُ ويحيىٰ بن أيوبَ: حدَّثنا أبو زُرعة.. مثله. (يوسف عامر).

[٣] ـ وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم، باب رغم من أدرك أبويه أو أحدهما عـن الكبر: (٦٤٦٢) حدثنا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ. حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيـه، عَـنْ أَبِـي

بتدبر وتأمل بسيط في هذه الأحاديث يتضح هذا السر، وهو أن كل هــذه الأحاديث شرح لهذه الآيات القرآنية:

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (البقرة : ٨٣)

﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ (الإسراء : ٢٣)

﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ (الأحقاف:١٦)

و هذا نفسه هو حال توضيح وبيان الأحكام الأخرى للقرآن الكريم:[٢]

الأحاديث بيان للقرآن الكريم

إن كل من يدقق النظر في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة يعلــم بكــل وضوح أن جميع الأحكام الفرعية والثانوية للأحاديث الصحيحة تتــدرج تحــت الأحكام الكلية والعمومية للقرآن (أي التي وردت في القرآن الكريم)، وأن الرسول ﷺ قام بشرحها فقط بألفاظه وبيانه. ولهذه الأحاديث ثلاثة أشكال:الأول: هو مــا بين الرسول ﷺ الحكم بألفاظه وأسلوبه، ثم قرأ آية من القرآن الكريم معه، ومــن يمكن له أن يشك في بيان مثل هذا النوع من الأحاديث؟، والثانية: أن الرسول ﷺ لم يقرأ آية من الآيات القرآنية، ولكنه ألحق بالحكم الذي بينه كلمة أو كلمتين وهما جزء من آية كريمة؛ إذ يكون فيه إشارة إلي أن هذا الحكم جــاء شــرحاً للآيــة الفلانية. وهذا الشكل سهل لأهل العلم التمييز بين الأصل والفرع. أمــا الــشكل الثالث فهو أن الرسول ﷺ اكتفى ببيان الحكم، ولم يقرأ الآية ولم يشر إليها أيضا. والبحث عن مصادر هذا النوع من الأحاديث عمل يحتاج إلي دقة وإمعان نظــر،

هريرة، عَنِ النَّبِيِّ. قَالَ: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّــهِ؟ قَالَ: مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ». (يوسف عامر).

- وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري، باب فضل الصلاة علــى وقتهــا: (٥٢٧) حدثنا أبو الوَليدِ هِشامُ بنُ عبدِ الملكِ قال: حدَّثَنا شُعبةُ قال: الوَليدُ بنُ العَيْزَارِ أخبرَني قال: سمعتُ أبا عمروٍ الشَّيبانيَّ يقولُ: حدَّثَنا صاحبُ هٰذهِ الدارِ ــ وأشارَ إِلَــى دارِ عبــدِ اللهِ قال: سألتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم: أيُّ العملِ أحبُّ إلى اللهِ؟ قال: الصلاةُ عَلَى وَقتِهــا. قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ برُّ الوالِدَينِ. قال: ثمَّ أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيلِ اللهِ. قال: حدَّثَني بهــنَّ ولو استزدتُه لزادَني». (يوسف عامر).

- كتاب الرسالة، الإمام الشافعي ص٨.

ولا يصل إلي هذا سوى الراسخون في العلم، وهم الذين يفهمون جيداً أسلوب النبوة ولغته.

الإلهام والاجتهاد والحكمة

ذكر الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في كتابه"الرسالة" ثلاثة أقسام للأحاديث والسنة: الأول هو ما يوجد في القرآن بعينه. والثاني هو الشرح الإجمالي للحكم في القرآن الكريم. والثالث هو ما لا يوجد (في الظاهر) له ذكر تفصيلي ولا إجمالي في القرآن الكريم. وهذا هو القسم الثالث، الذي يحتاج إلي بحث وتدقيق وتمحيص. وقد ذكر الإمام الشافعي أربع وجهات نظر لأئمة السلف الصالح عن هذا القسم: [1]

١- الله تعالى فرض(على الأمة)[2] الطاعة الكلية للرسولﷺ، وفي علمه سبحانه منذ البداية أن كل ما يفعله أو يقوله الرسول يكون مشمولاً ومصحوباً بتوفيق ورضا الله تعالى، والنتيجة هي أن الرسول منذ البداية قد منح التوفيق والهداية الربانية حتى يكتشف ويتبين رضا الله تعالى.

٢- لم يأمر الرسول ﷺبأمر ليس له أصل في القرآن الكريم.(فالمقصود هو أن كل أوامره صلى الله عليه وسلم مستمدة من القرآن، وإن كان لا يراها قليل البصيرة).

٣- إن الأحاديث النبوية جميعا بمثابة إلقاء في الروع(أي أن الله تعالى ألقى في قلب الرسول ﷺ هذه الأحاديث نتاج الحكم التي ألقيت في قلبه ﷺ.

٤- إن كل أمور هذا القسم، التي وردت في الأحاديث بصورة مستقلة عن كتاب الله، تعرف عليها الرسول ﷺعن طريق الرسالة الربانية المستقلة.

والآراء الثلاثة ماعدا الرأي الرابع جميعها في نظري رأي واحد تقريباً، فمنشأ الرأي الأول هو أن هناك توفيقًا وهداية أزلية تمنح للرسول منذ البداية، إضافة إلي الوحي الصريح الذي ينزل على النبي من وقت لآخر، وعن طريق هذا التوفيق يكتشف رضا الله تعالى، ويحكم في الأمور التي يتعرض لها. وفي

---

[1] -كتاب الرسالة للإمام الشافعي.

[2] - يوسف عامر.

الرأي الثالث عُبِّر عن هذا العلم المهدي بالإلهام والإلقاء في الروع والإلقاء في القلب.

ومنشأ الرأي الثاني هو أن أحكام الرسول ﷺ التي لا توجد ظاهريا في كتاب الله تعالى، وهي في الحقيقة في كتاب الله، ويستنبط الرسول أحكامه من هذا الأصل أي القرآن الكريم، وظاهر أن الاستنباط ليس مبنياً على الفهم والإدراك الإنساني والبشرى العام، وإلا يُشتبه في عصمته من الخطأ، بل يكون نتيجة لفهم القوة النبوية وإدراكها، ومادام الأمر كذلك فعبر عنه بالإلهام أو الإلقاء، أو قل له نتيجة الحكمة النبوية، أو التوفيق الإلهي، فكلاهما واحد.

والرأي الصحيح عندي هو أن جميع الأحكام الربانية للرسول مستنبطة ومستمدة من صحيفته الربانية أيضا، وتندرج جزئياتها تحت كليات الكتاب الإلهي، واستنباط الرسول وأخذه وفهمه نتيجة لقوة علمه النبوي، التي يطلق عليها الحكماء "الموهبة النبوية"، ويطلق عليها أهل الشرح الحكمة والإلهام وانشراح الصدر وغيرها من المسميات، وهي معصومة من الخطأ والزلل تماما.

اجتهاد النبوة

في هذا المقام لابد من شرح مصطلح آخر من مصطلحات علماء الأصول وهو "الاجتهاد النبوي". يقول علماء الأصول:

حين كان الرسول ﷺ يتعرض لحادث جديد، ولم يكن قد نزل عليه الوحي فيه، فالرسول ﷺ كان يجتهد في ضوء الأحكام التي أوحيت إليه من قبل ويصدر الأحكام(هذا تعبير الفقهاء، وإلا كان ينبغي القول بأن الرسول كان يحكم مستعينا بفيض هذه الحكمة الربانية، التي كان قد أودعها الله تعالى في قلبه في ضوء الأحكام التي أوحيت إليه من قبل) وفي كل الأحوال سواء كان الاجتهاد النبوي مستنبطاً من النصوص القرآنية حسب قول الفقهاء، أو حسب قول الإمام شاه ولي الله أنه مستمد من العلم المودع في صدر الرسول ومن جزيئات الأصول الكلية الموحاة إليه ﷺ ففي كل حال هذه النتيجة واجبة العمل على الأمة، وهي معصومة من الخطأ، إذ إن هذه المقدمة ثابتة في مكانها بأن الأنبياء معصومون من الخطأ والضلال والغواية، ومبرءون من الأهواء النفسية، ولذا لا يمكن أن يكون أي رأي

من آرائهم في أمور الرسالة والدين يحتوى على خطأ، لأن هذا الخطـأ يـؤدى بالأمة كلها إلي خطأ، والغرض من بعثة النبي الهداية لا الغواية والضلال، ولهذه الأسباب فإن أدى اجتهاده إلي نتيجة عكسية، حيث لا تطابق المصلحة الإلهيـة، فالله تعالى ينبهه إليها دائما ويخبره عن مرضاته، (وسوف نذكر أمثلة على هـذا فيما بعد)، وخلاصة القول أن الرسول ﷺ لو رأى في بعض الأمور زاوية خاصة للخير، وتغافل عن زاوية تفوقها وذلك بسبب عدم علمه بالغيب، ففي هذه الحالـة من المحتمل أن يأتي اجتهاد النبي خاطئاً، ولكن المستحيل هو استمرار النبي على هذا الخطأ. وفي هذه الصورة فإن كل حكم اجتهادي لم ينبه الوحي الإلهي إليـه فوراً، معناه أن الحكم موافق للحكم الإلهي، ومبرأ من الخطأ والزلـل، ومعنـاه الآخر هو أنه الوحي الخفي أو الوحي الباطني.[1]

وفي رأيي أن هذا المصطلح قريب من المصطلحات السابقة أيـضا، لأن معنى هذا الاجتهاد النبوي ليس منفصلاً عن الإلهام والحكمة والموهبـة النبويـة والفهم والإدراك النبوي وغيرها من المصطلحات سالفة الذكر؛ إذ إنه وحي ثانوي هو الآخر.

إن الرأي الذي ساقه شاه ولي الله في هذا الموضوع في كتابه " حجة الله البالغة " أنقله هنا.

---

[1] – إن كل ما ذكرناه في السطور السابقة في شرح تحرير ابن الهمام المتوفى سنة ٨٦١ هـ، والمسمى بالتقرير والتبحير للعلامة ابـن الأميـر الحـاج المتـوفى ٨٧٩هـ، ج ٣ص، ٢٩٩:٢٩٤، المطبعة الأميرية، مصر، ١٣١٧ هـ، والتلويح فـي كـشف حقـائق التنقـيح والتوضيح في حل غوامض التنقـيح، الجـزء ٢، ص ٤٥٢، مطبعـة المكتـب الـصنائع قسطنطينية، ١٣١٠هـ، بحث الركن الثاني في السنة.

استنباط الشرائع من حديث النبي ﷺ

باب بيان أقسام علوم النبي ﷺ:

اعلم أن ما روي عن النبي ﷺ، ودون في كتب الحديث علـــى قـــسمين: أحدهما ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة، وفيه قوله تعالى:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر:٧) منه علوم المعاد وعجائب الملكوت وهذا كله مستند إلى الوحي[١]، ومنه شرائع وضبط للعبـادات والارتفاقات بوجود الضبط المذكورة فيما سبق، وهذه بعضها مستند إلي الوحي، وبعضها مستند إلي الاجتهاد، واجتهاده ﷺ بمنزلة الوحي، لأن الله تعالى عصمه من يتقرر رأيه على الخطأ، وليس يجـب أن يكـون اجتهـاده اسـتنباطا مـن المنصوص كما يظن؛ بل أكثره أن يكون علمه الله تعالى مقاصد الشرع وقـانون التشريع والتيسير والأحكام فبين المقاصد المتعلقة بالوحي لذلك القانون.

ومنه[٢] حكم مرسلة ومصالح مطلقه لم يوقتها ولم يبين حـدودها كبيـان الأخلاق الصالحة وأضدادها ومستندها غالباً الاجتهاد بمعنى أن الله تعالى علمـه قوانين الارتفاقات فاستنبط منها حكمه وجعل فيها كلية.

ومنه فضائل الأعمال ومناقب العمال، وأرى أن بعـضها مـستند إلـي الوحي، وبعضها إلي الاجتهاد، وقد سبق بيان تلك القوانين. وهذا القسم هو الذي نقصد شرحه وبيان معانيه.

وثانيهما ما ليس من باب تبليغ الرسالة، وفيـه قولـه صـلى الله عليـه وسلم"إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء مـن رأي فإنما أنا بشر" وقوله ﷺفي قصة تأبير النخل:" فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّـا. فَـلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ. وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللّهِ شَيْئاً، فَخُذُوا بِهِ. فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَىٰ

---

١ - أي ليس للاجتهاد فيه دخل.

٢ -أي بما سبيله سبيل تبليغ الرسالة.

اللَّه عَزَّ وَجَلَّ».[1] فمنه الطب، ومنه باب قوله ﷺ:"علـيكم بـالأدهم الأقـرح."[2] ومستنده التجربة. ومنه ما فعله النبي ﷺ على سبيل العادة دون العبـادة وبحـسب الاتفاق دون القصد، ومنه ما ذكره كما كان يذكر قومه لحديث أم زرع[3] وحديث

---

[1] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم، باب فضل نسب النبـي ﷺ، وتـسليم الحجر عليه قبل النبوة: (٦٠٧٩) حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّقَفِيُّ وَ أَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ. وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ. وَهٰذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ مُوسَىٰ بْنِ طَلْحَـةَ عَـنْ أَبِيه،. قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ بِقَوْمٍ عَلَىٰ رُؤُوسِ النَّخْلِ. فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هٰؤُلاَءِ؟» فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ. يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنْثَىٰ فَتَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذٰلِكَ شَيْئاً» قَـالَ: فَأُخْبِرُوا بِذٰلِكَ فَتَرَكُوهُ. فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللّهِ بِذٰلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذٰلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ. فَـإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا. فَلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ. وَلٰكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللّهِ شَيْئاً، فَخُذُوا بِهِ. فَـإِنِّي لَـنْ أَكْذِبَ عَلَىٰ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ».(يوسف عامر).

[2] –الأدهم من الخيل الذي يشتد سواده، والأقرح الذي في جبهته بياض يسير دون الغرة.

[3] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري، باب الترغيب في النكاح: (٥٠٦٨) حدّثنا سليمانُ بن عبدِ الرحمٰن و عليُّ بنُ حجر قالا: أخبرَنا عيسىٰ بنُ يونسَ حدَّثنا هِشامُ بن عُروةَ عن عبد الله بن عروةَ عن عروةَ عن عائشة قالت: «جَلَسَ إحدى عشرةَ امرأةً فتعاهدنَ وتَعاقَدنَ أن لا يكتُمنَ من أخبار أزواجهنَّ شيئاً. قالت الأولىٰ: زوجي لحمُ جَمَلٍ غَـثٌّ علـى رأس جَبَلٍ، لا سهلٍ فيُرتقىٰ، ولا سَمينٍ فيُنتَقل. قالت الثانية: زوجي لا أبثُّ خَبَرَه، إني أخاف أن لا أذَرَه، إن أذكرْهُ أذكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَه. قالت الثالثة: زوجي العَشنَّق، إن أنطق أُطلَّقْ، وإن أسكُت أُعلَّق. قالت الرابعة: زوجي كليلِ تِهامةَ، لا حَرٌّ ولا قُرٌّ ولا مَخافَةَ ولا سآمة. قالـت الخامسة: زوجي إذا دَخَلَ فَهِدَ، وإن خَرَجَ أسِدَ، ولا يَسألُ عما عَهِد. قالت السادسة: زوجـي إن أكلَ لَفَّ، وإن شربَ اشتفَّ، وإن اضطَجَعَ الْتفَّ، ولا يُولجُ الكـفَّ لـيعلم البـثَّ. قالـت السابعَةَ: زوجي غَيَاياءُ ــ أو عَيَاياءُ ــ طَبَاقاء، كلُّ داءٍ لهُ داءٌ، شَجَّكِ أو فلَّكِ أو جَمَعَ كـلاًّ لك. قالت الثامنة: زوجي المسُّ مسُّ أرنبٍ، والرِّيح ريحُ زَرنَب. قالت التاسعة: زوْجي رَفيعُ العماد، طويل النِّجاد، عظيم الرَّماد، قريب البيت من الناد. قالت العاشرة: زوجي مالك ومـا مالك، مالكٌ خيرٌ من ذلك، له إبلٌ كثيراتُ المبارِك، قليلات المسارح، وإذا سَـمعنَ صَـوْتَ المِزْهر، أيقنَّ أنهُنَّ هَوَالك. قالت الحاديةَ عشرةَ: زوجي أبو زَرْع فما أبو زرع، أناسَ مِـن حُليٍّ أذنيَّ، وملأ من شحم عُضُدَيَّ، وبَجَّحَني فَبَجِحَت إليَّ نفسي، وَجَدَني في أهـل غُنَيمـةٍ بشقٍّ، فجعلَني في أهل صَهيل وأطيط، ودائسٍ ومُنَقٍّ، فعندَهُ أقول: فلا أقبَّح وأرقدُ فأتَـصبَّحُ، وأشربُ فأتقنَّح. أمُّ أبي زرع، فما أم أبي زرع، عُكومُها رَدَاحٌ، وبيتُها فَساح. ابن أبـي زرع

خرافة وهو قول زيد بن ثابت حيث دخل عليه نفر فقالوا له حدثنا أحاديث رسول الله ﷺ:

"قال كنت جاره فكان إذا انزل عليه الوحي بعث إليّ فكتبته له، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله ﷺ." (١)

ومنه ما قصد به مصلحة جزئية يومئذ، وليس من الأمور اللازمة لجميع الأمة، وذلك مثلما يأمر به الخليفة من تعبئة الجيوش وتعيين الشعار(٢) وهو قول عمر رضي الله عنه: "ما لنا وللرمل كنا نتراءى (٣) به قوما قد أهلكهم الله."
ثم خشي أن يكون له سبب آخر وقد حمل كثير من الأحكام عليه كقوله ﷺ:"مَن قَتلَ قتيلاً لهُ عليه بيِّنة فلهُ سَلَبُه."(٤) ومنه حكم وقضاء خاص، وإنما كان يتبع فيه

فما ابن أبي زرع، مَضجِعهُ كمسلِّ شَطْبَةٍ، ويُشْبِعُهُ ذِراع الجَفرَةِ. بنت أبي زرعٍ، فما بنت أبي زرع، طوعُ أبيها، وطَوْعُ أُمِّها، وملْءُ كِسائها، وغيظُ جارَتها. جارِيةُ أبي زرعٍ، فما جارية أبي زرع، لا تَبُثُّ حديثَنا تَبثيثاً ولاتُنَقِّثُ ميرتَنا تنقيثاً، ولا تملأ بَيتَنا تَعشيشاً؛ قالت: خَرَج أبو زرعٍ والأوْطابُ تُمْخَضُ، فَلقيَ امرأةً معها ولَدان لها كالفَهْدَين يلعبان من تحت خَصرْها برُمَّانتين، فَطلقني ونكحها، فنكَحْتُ بعدَهُ رَجلاً سَرياً، ركِب شَرِيًّا، وأخَذَ خَطِّياً، وأراح عليَّ نَعماً ثَرياً، وأعطاني من كل رائحةٍ زوجاً، وقال: كلي أمَّ زرع، وميري أهلك، قالت: فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصْغَر آنيةِ أبي زرع. قالت عائشة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنتُ لكِ كأبي زرع لأمِّ زرع. قال سعيد بن سلمة قال هِشام: ولا تُعشِّشُ بيتَنا تَعشيشاً. قال أبو عبد الله: وقال بعضُهُم فأتقمَّحُ بالميم وهذا أصَحُّ.(يوسف عامر).

١ - أي لا أستطيع أن أذكر كل هذه الأمور، فكل هذا بمعنى أ فكل هذا؟ يعنى الاستفهام الإنكاري.

٢ - هو علامة تعين بين الأفواج ليعرف بها الموافق من المخالف.

٣ - أي نظهر ونرى المشركين أنّا أقوياء.

٤ - وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير: (٣٠٧٣) حدثنا عبدُ الله بن مَسلمةَ عن مالكٍ عن يحيى بنِ سعيدٍ عن ابنِ أفلحَ عن أبي محمدٍ مَولى أبي قَتادةَ عن أبي قَتادةَ رضيَ اللهُ عنه قال: «خَرَجنا معَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومَ حُنَينٍ، فلما التَقَيْنا كانت للمسلمينَ جَولةٌ، فرأيتُ رجلاً من المشركينَ عَلا رجُلاً منَ المسلمين، فاستدبرتُ حتى أتيتُه مِن ورائهِ حتَّى ضربتُه بالسيفِ على حَبلِ عاتقِهِ، فأقبلَ عليَّ فضمَّني

البينات والأيمان وهو قوله ﷺ لعلي: "الشاهد يرى ما لا يرى الغائب."[1] انتهى كلامه[2]

وخلاصة نظرية الإمام شاه ولي الله الدهلوي هي أن أحاديث الرسول ﷺ تنقسم إلي قسمين :

الأول: هو ما يتعلق بفرائض النبوة وتبليغ الرسالة، وأمور الدين. وهذه الأمور كلها مأخوذة مباشرة من الوحي والتعليم.

والقسم الثاني: هو ما يتعلق بالأمور الإنسانية العامة، وله صور عديدة، وهي كما يلي :

١. حكم بناء على مصلحة فرعية مؤقتة مثلما أمر الرسول ﷺ المسلمين في الحج بأن يسعوا مهرولين أمام قريش؛ كي لا تظن قريش أن طقس المدينة جعلهم ضعفاء.

ضمةً وجَدتُ منها ريحَ الموت، ثمَّ أدركَهُ الموتُ فأرسلَني، فلحِقتُ عمرَ بنَ الخطابِ فقلتُ: ما بالُ الناس؟ قال: أمرُ الله، ثمَّ إنَّ الناسَ رجعوا، وجَلسَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: مَن قَتلَ قتيلاً لهُ عليه بيِّنة فلهُ سَلَبُه. فقمتُ فقلتُ: مَن يَشهدُ لي؟ ثمَّ جلست. ثمَّ قال: مَن قتلَ قتيلاً له عليه بيّنة فلهُ سَلبُه. فقمت فقلتُ: مَن يَشهَدُ لي؟ ثمَّ جلَست. ثمَّ قال الثالثةَ مثلَه، فقمت، فقال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: ما لَكَ يا أبا قَتادةَ؟ فاقتصَصْتُ عليهِ القصةَ، فقال رجلٌ: صدقَ يا رسولَ الله، وسلبُهُ عندي، فأرضِه عني. فقال أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه: لا ها اللهِ إذاً لا يَعمِدُ إلى أسَدٍ من أسْدِ اللهِ يُقاتلُ عنِ اللهِ ورسولِه صلى الله عليه وسلم يُعطيكَ سَلَبَه. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: صدق. فأعطاهُ، فابتَعْتُ مَخرفاً في بني سلمةَ، فإنه لأوَّلُ مالٍ تأثَّلْتُه في الإسلام».(يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام على بن أبى طالب ﷺ : (٦٢٩) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا يحيى بن سعيد عن سفيان ثنا محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن علي رضي الله عنه قال : « قلت يا رسول الله إذا بعثتني أكون كالسكة المحماة أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب قال : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ». (يوسف عامر).

[2] – حجة الله البالغة، ج١، ص١٢٨-١٢٩، دار التراث، القاهرة. (يوسف عامر) .

٢. الأمور التي تتعلق مباشرة بالدين والرسالة، بل تتغير حسب متطلبات الزمن. مثل أسلوب الحرب، وأنواع الأسلحة، وتشكيل صيغ الحكومة وغيرها.

٣. الأمور التي كان يفعلها الرسول ﷺ حسب عادته الشخصية أو حسب العرف، والتي لا علاقة لها بالدين والرسالة. مثل شكل اللباس، والجلوس على الأرض، واستخدام الغطاء الكامل. وعدم استخدام السفرة والملاعق، وربط العمامة، وارتداء الإزار، وامتطاء الجمل وغيرها من الأمور الأخرى.

٤. الأمور التي كانت ذائعة بين العرب على أنها قصص وحكايات، وحكاها الرسولﷺ أيضا لترويح النفس أو لاستنباط درس أخلاقي. مثل حكاية أم زرع وصديقاتها التسع، وقصة خرافة، وبعض حكايات بني إسرائيل.

٥. بعض التجارب المسلم بها عند العرب، وبعض الأمور المتعلقة بالعلاج والتطبيب.

٦. بعض الآراء الشخصية التي تتعلق بالزراعة وغيرها، من مثل تلقيح النخل في المدينة حسبما كان معروفاً،وحين شاهد الرسول ﷺ هذه الطريقة قال معتقداً بأن هذا ما هو إلا تقليد محض: «**مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئاً**»، فسلّم أهل المدينة بإشارته البسيطة هذه على أنها أمر، وتركوا هذا الأمر(التلقيح) فكانت النتيجة هي قلة الإنتاج، فعرض الناس عليهﷺ هذا الأمر. فقال ﷺ: "**فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا**"(١).، «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**». (١)

فهذه الأمور يمكن أن تتغير وتتبدل.

---

[1] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم، باب فضل نسب النبي، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة : (٦٠٧٩) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّقَفِيُّ وَ أَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ. وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ. وَهٰذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ مُوسَىٰ بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ بِقَوْمٍ عَلَىٰ رُؤُوسِ النَّخْلِ. فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هٰؤُلاَءِ؟» فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ. يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنْثَىٰ فَتَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذٰلِكَ شَيْئاً» قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذٰلِكَ فَتَرَكُوهُ. فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ بِذٰلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذٰلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ. فَإِنِّي

وخلاصة القول أن تلك هي الأمور التي يكون فيها الإرشاد النبوي كأحاديث عامة الناس، ولكن الأمور الأخرى التي ترتبط بالدين والرسالة والنبوة مثل العقائد والعبادات والأخلاق وأخبار المعاد، وبعض الأمور الضرورية للمعاملات فكل هذه الأمور مأخوذة من الوحي والتعليم الرباني، وهي أزلية غير قابلة للتغير أو التبديل.

وهناك شكلان لتعليم هذه الأمور الأزلية وغير المتغيرة

الأول: هو الوحي الإلهي، الذي كان ينزل مباشرة على النبي ﷺمن وقت لآخر لتعليمه وإخباره ﷺ.

والشكل الثاني هو الاجتهاد النبوي.وهو ما سنتحدث عنه هنا، وعنه يقول الإمام الدهلوي أمرين:

١. إن صورة الاجتهاد النبوي وحقيقته ليستا كاجتهاد عامة المجتهدين؛ فاجتهاد المجتهدين هو استنباط من نص خاص، أما اجتهاد الرسل والأنبياء فهو أن الله تعالى أعطاهم علم الأصول والقواعد الكلية للشريعة إجمالاً مع مقام النبوة، وطبقاً لهذا العلم كان الرسول ﷺ يوضح الوحي، ويفسر الأحكام المنصوص عليها، ويشرح المسائل الفرعية لأي كلية بألفاظه وعباراته ﷺ.

٢. إن اجتهاد الأنبياء والرسل ليس كاجتهاد المجتهدين من عامة الناس، بل اجتهادهم-عليهم السلام- يكون منزهاً ومعصوماً من الخطأ والزلل، فهم معصومون من الخطأ، ولذا فاجتهادهم بمثابة الوحي.

إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا. فَلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ. وَلٰكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللّهِ شَيْئاً، فَخُذُوا بِهِ. فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَىٰ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ».(يوسف عامر).

[1] ـ وهذا نص الحديث كاملا كما ورد فى صحيح مسلم، باب فضل نسب النبي، وتسليم الحجر عليه(٦٠٨١) : حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ عَمْرٌو النَّاقِدُ. كِلاَهُمَا عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ عَامِرٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ : حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ. وَعَنْ ثَابِتٍ. عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ. فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ» قَالَ: فَخَرَجَ شِيصاً. فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟» قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ». (يوسف عامر).

إن الشرح الذي ساقه الإمام الدهلوي عن"الاجتهاد النبوي" يسهل الحكم من خلاله على أن ما يقصده الناس من موهبة النبوة والإلهام والإلقاء والحكمة الربانية والإدراك والفهم النبوي ليس فيه فرق عملي بينه وبين الاجتهاد النبوي؛ إذ إن المقصود من الاجتهاد النبوي هو القوة العلمية أو الإلهامية أو النبوية، التي أودعها الله تعالى في صدر النبي، ولهذا لا يوجد بين اجتهاد المجتهدين واجتهاد الأنبياء والرسل تطابق أو تشابه سوى التشابه اللفظي فقط، وليس المعنوي. وسوف نتحدث تفصيلاً عن هذا الموضوع فيما بعد.

وهنا لابد من الإشارة إلي هذا الأمر، وهو أن الأنبياء ماعدا محمد ﷺ، والذين نزلت عليهم كتب لم يكن هناك فرق بين وحي كتبهم ونتائج اجتهادهم النبوي، وعليه فكل هذه الأمور مختلطة في التوراة والإنجيل والزبور كما تبدو لأي شخص بقراءتها، ولكن محمد ﷺ الذي جاء بالكتاب الخاتم وغير المنسوخ حفظ كتابه من كل خلط وتحريف، ولهذا السبب نفسه منع الرسول ﷺ في بداية الإسلام الناس من كتابة أحاديثه واجتهاده ﷺ، حتى لا تختلط بالقرآن الكريم، ثم أذن لهم بعد ذلك-كما يرى الجمهور- حين زال الخطر. ويرى بعض الصحابة والعلماء أن هذا الإذن كان لبعض الخاصة من الناس وليس لعامتهم، وينحصر هذا الخلاف في الكتابة فقط، وليس في الحفظ والرواية والتبليغ، وعليه قام الصحابة-رضوان الله عليهم أجمعين- بهذا العمل، وتبعهم التابعون وأتباعهم والعلماء الصالحون دائماً.

العصمة

والصفة الثالثة للنبي هي عصمته من الخطأ والذنوب. ولما لم يكن عند اليهود أي تخيل صحيح عن النبي غير المتنبئ، لذا نُسب في كتبهم إلى الأنبياء ــ عليهم السلام ــ أمور تتنافى تماماً مع عظمة النبوة وشأنها. ويعتقد المسيحيون أن المسيح ــ عليه السلام ــ هو من اختص وحده بصفة العصمة، ولكن الإسلام يُقر بأن هذه الصفة واجبة لكل المرسلين من الأنبياء والرسل، ففي الإسلام جميع الأنبياء والرسل معصومون من الخطأ، ومن الممكن أن يقع منهم السهو والنسيان بوصفهم بشرًا، ولكن الله تعالى يُصلح نسيانهم هذا بالوحي إليهم. وإن لم يُسلم

بصفة العصمة للنبوة بحيثية عقلية، فلا يمكن التميز بين النبي والحكيم والمصلح العادي، ولا يمكن التسليم بالصدق الكامل للأنبياء والرسل، ولهذا اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بهذه العقيدة، وذكر أحوال وأخبار الأنبياء جميعا واحداً واحداً، ورد تلك الوقائع التي تخالف صفة العصمة، والتي أوردها الناس في سيرتهم -عليهم السلام-.

كان العرب المشركون يعتقدون أن الكاهن الذي يخبر عن الغيب، والشاعر الذي ينظم أشعاراً مؤثرة وحماسية كلاهما يتعلم من الشياطين، ثم يخبر ويعمل بمقتضاه، وقد نسبوا هذه التهمة ذاتها إلى النبي محمدﷺ-والعياذ بالله- وقال القرآن رداً عليهم إن الشجرة تعرف بثمارها، وأن الشيء يعرف بآثاره: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾ (النحل ٩٩:١٠٠)

ويعد هذا نفي لهذا الاعتقاد، فكانت الخاتمة

﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ (النحل ١٢٧:١٢٨)

اتضح من هذه الآية الكريمة أن الأنبياء عليهم السلام أحرار وبعيدون عن خداع الشياطين، ويتصفون بالورع والصلاح والتقوى.وفي سورة الشعراء بعد ذكر أحوال وأنباء الأنبياء جميعاً جاء الرد على هذا الافتراء: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** ﴾ **(الشعراء ٢٢١:٢٢٣)**

وقال الله تعالى رداً على المعارضين والمعاندين في سورة الجاثية:

﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (الجاثية ٧:٨)

اتضح من هذا أن الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن يكونوا أفاكين وآثمين، لأنهم عليهم السلام، لو اتصفوا بهذا لأصبحوا قرناء الشياطين ورفاقهم ـ نعوذ

بالله ــ بدلاً من أن يكونوا قرناء الملائكة، ويشتبه في صدقهم وأمانتهم، وحقيقة النبوة منافية للكذب والإثم.

ويقول الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ (آل عمران: ٧٩)

أي أن هدف دعوة الأنبياء والرسل هي إعلان العبودية لله تعالى، وليست جعل الناس عباداً لهم أنفسهم (أي الأنبياء)، وهذا الإثم والإفك لا يمكن أن يحدث منهم. يقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (آل عمران١٦١:١٦٤)

ورد في هذه الآيات الكريمة نفي الغلول عن الأنبياء جميعاً، وقال الله تعالى إن النبي الذي يبتغى وجه الله لا يمكن أن يكون كمن يكسب سخط الله، والإشارة هنا تخص النبي محمدا ﷺ، إذ يقول الله تعالى لا يليق بشأن النبي أن يحدث منه مثل هذا الجرم، لأن من يبتغي وجه الله تعالى ورضاه لا يمكن أن يصدر منه عمل يكون سببا في سخط الله وغضبه، ومن يتلو على الآخرين أحكام الله تعالى وأوامره لا يمكن أن يعارض هو نفسه هذه الأوامر والأحكام، ومن يكلف بتزكية الآخرين، لا يمكن أن يكون هو نفسه آثماً وغير طاهر.

استخدم القرآن الكريم مصطلح "يصطفى" للأنبياء مرات ومرات، وهو يدل دلالة واضحة على عصمتهم، وعلى أنهم عليهم السلام معصومون من الأخطاء والذنوب.

جاءت هذه الآية الكريمة عن الأنبياء عامة: ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ (الحج: ٧٥)

وورد في شأن بعض الأنبياء ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (آل عمران: ٣٣)

وقال الله عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (البقرة: ١٣٠)

وقال عن موسى عليه السلام ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ (الأعراف :١٤٤)

وفي الآية التالية استخدمت صفة "الخيرية والأفضلية" مع صفة "الاصطفاء":

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ (سورة ص ٤٥:٤٧)

وفي سورة الأنبياء ورد بعد ذكر أكثر الأنبياء قال الله تعالى: ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء ٧٢:٧٣)

هل يمكن أن تكون هناك شهادة أكثر من هذا عن عصمتهم وطهارتهم عليهم السلام من الذنوب والأثام، فهؤلاء الأنبياء جعلوا أئمة وقادة وصالحين وعابدين لله تعالى.

قال الله تعالى في سورة الأنعام بعد ذكر كثير من الأنبياء بأنهم جميعاً كانوا صالحين:

﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الأنعام ٨٥)

ثم قال تعالى:

﴿ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ ﴾ (الأنعام ٨٦)

وقال الله أيضا بعد ذكر أسمائهم:

﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام ٨٧)

فكونهم صالحين ومجتبين وعلى الصراط المستقيم ما هو إلا دلالة واضحة على العصمة والطهارة من الذنوب والآثام.

يوجد فرق بيّن بين سيرة الشقي والسعيد وحياتهما، وبين الصالح والطالح، إذ لا يمكن أن يحدث لأحد التباس وشبهة في سيرة هذين النوعين

وحياتهما من الناس، وألسنة التاريخ والسير الصامتة وألسنة الخلق الناطقة تنادى(تعلن) بصوت عالٍ بهذا الفرق.وبيّن القرآن الكريم هذا الفرق في الآية التالية: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية :٢١)

اتضح من هذه الآية الكريمة أن الحياة والموت لهذين النوعين واضحان. قال الله تعالى في وصف الأنبياء:

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ (الأحزاب :٣٩)

إن العزة والعفة واللتان كانتا من نصيب أهل بيت النبي ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين بسبب هذه النبوة والرسالة. جاء في شأن أمهات المؤمنين المطهرات:

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ (الأحزاب : ٣٢)

ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى آل بيت النبي ﷺ بأن الإرادة الربانية قضت بأن يطهركم من السيئات: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (الأحزاب:٣٣)

واضح كل الوضوح بأن رجس ونجاسة السيئات والذنوب كانت مخلة لشرف أزواج الأنبياء وأولادهم فما بالكم بالأنبياء أنفسهم. وفي آية أخرى قال الله تعالى بعد تبرئة السيدة عائشة أم المؤمنين: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(النور:٢٦)

والطيب والطاهر والنقي هنا إشارة إلى النبيﷺ، ويستدل بهذه الصفات على نقاء أزواج النبي ﷺ وطهارتهن وعفة أخلاقهن.

والحقيقة أنه يُبعث الأنبياء والرسل إلى الدنيا كي يكونوا أئمة وأسوة وقدوة، لذا قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(الأحزاب:٢١) كما تكون طاعتهم واجبة كذلك

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء:٦٤)

وجاء عن النبي محمد ﷺ بصفة خاصة أن من يتبعه ﷺ يستحق حب الله

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:٣١)

هل تصلح حياة أي آثم أو أي عاص للاتباع والاقتداء والتأسي؟، هل طلع النور يوما من الظلام؟، وهل ظهر الطيب من الخبيث؟، وهل انتشر الخير يوما من دعوة المذنبين؟ والمنبع الرئيسي للسيئات والآثام هو الشيطان، أو القوة الشريرة للإنسان نفسه، ولكن عباد الله الخواص بعيدون كل البعد عن مكايد الملعون. يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ (الإسراء :٦٥)

هل يفوق أي عبد من عباد الله الأنبياء والرسل ؟

إن ضلال الناس وعصيانهم ما هو إلا نتيجة لوسوسة الشيطان، سواء كان هذا الشيطان مختبئا داخل القلب (الخناس) أو يتمثل في صورة الإنس أو الجن، فالنبي معصوم وبعيد عن فتن هذا وذاك.

أراد بعض المغرضين أن يضلوا الرسولﷺ ببعض استشاراتهم، إلا أن الله تعالى نجّاهُ، وقال إن رحمتي تحميك، وتحفظك دائماً من الضلال، كما يحفظك الكتاب الإلهي والحكمة اللذان أنعمت عليك بهما: **﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾** (النساء:١١٣)

يقيناً أن المراد من الفضل العظيم في هذه الآية هو العصمة.

إن النفس الإنسانية نفسها تخدع الناس بأمنياتها الكاذبة وأطماعها المفروضة وأرائها البراقة، ولكن الأنبياء عليهم السلام معصومون من هذه الأمنيات الخادعة، ومن الممكن بوصفهم بشرًا أن يتمنوا للمهمة أو الدعوة التي جاءوا بها أن تنجح بسرعة، وأن يؤمن الناس بها سريعاً، ولكن هذه الأمنية لا تكون حسب الإرادة الإلهية، ولهذا يخرج الله مثل هذه الأفكار والأمنيات من

قلوبهم ويجعل حكمه وأمره تعالى مستحكما وقوياً. قال الله تعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾(الحج: ٥٢)

اتضح من هذا أن الأنبياء عليهم السلام يكونون في مأمن حتى من ذنب الآراء والأفكار الخاطئة،فقال الله تعالى عن النبيﷺ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾(النجم:٢)

إن عدم الضلالة وعدم الغواية لا يتعلقان أو يرتبطان بوقت أو زمن خاص، بل نفي الضلال والغواية فى هذه الآية في كل أزمنته السابقة، وتبيّن هذه الآية أن حجره ﷺ ظل دائماً طاهراً ومعصوماً من هذه الأشواك.

إزالة بعض الشبهات

توجد ألفاظ في القرآن الكريم توحي إلى من يقرأها ظاهرياً أن أطراف رداء بعض الأنبياء ملوثة بعدم العصمة، ولكن العلماء المحققين قد ردوا على هذه الشبهات رداً شافياً لكل شبهة من هذه الشبهات، فقد رد العلامة ابن حزم الأندلسي في الجزء الرابع من "الملل والنحل"، والقاضي عياض المالكي في"الشفاء"(القسم الثالث من الباب الأول)، والخفاجي فى شرح الشفاء المجلد الرابع، ومن المحدثين نجد الملا دوست محمد الكابلى في "تحفة الأخلاق في عصمة الأنبياء" وقد رد على هذه الشبهات رداً شافياً، وبهذه الردود الكافية تُرفع غشاوة النظرة العابرة، وتظهر وتبرز الحقيقة. وذكر كل الشكوك والشبهات ثم الرد عليها جميعاً عمل طويل وشاق، ولكن بالإيجاز يمكن القول منطقياً أن التعرض لسوء الفهم في هذه المسألة له سببان، وشرح هذين السببين يكفي لإزالة هذا الفهم الخاطئ.

(١) أولاً: لابد أن يكون هذا الأمر راسخاً في الذهن، وهو أن درجة الأنبياء ــ عليهم السلام ــ في العباد بل في جميع المخلوقات مهما كانت رفيعة، ومهما كانت أطراف ردائهم طاهرة من غبار وتراب. الذنوب والمعاصي، ولكنهم رغم كل هذا أمام ذات الله تعالى بمثابة عباد خاشعين، عاجزين أمام الله تعالى وخاضعين له، فمهما كان العبدُ عابداً ومطيعاً ووفياً، لكن عليه أن يقر بتقصيره ويعترف بخطئه أمام

خالقه سبحانه وتعالى، ويندم على إهماله، وعلى ما اقترف من تقصير، ولهذا نجد إبراهيم ــ عليه السلام ــ الذي ذكر عن تقواه وطهارته كثيرا في القرآن الكريم، يقول في ذكر عظمة الله وجلاله ورحمته سبحانه وعطفه ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ "الشعراء: ٨٢"

هذا الاعتراف والإقرار من نبي وندمه وخجله ليس بسبب نقصه وتقصيره، وإنما هذا كمال عبوديته، ويحق للمولى أن يطلب من عبده، الذي وصل بطاعته وعبادته إلى هذه الدرجة المحيرة والمدهشة أن يزيد في طاعته وعبادته، كي يرتفع كرسي ارتقائه أكثر من هذا، ففي بعض الآيات الكريمة، إن كان قد طلب من نبي أن يستغفر الله، فليس معناه أنه يوجد هناك ذنب أو معصية، بل في كل خطوة هناك تنبيه وهداية لمزيد من الطاعة والعبادة، وألا يقنع بما وصل إليه،كي يزداد تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى، يخاطب الله تعالى سيدنا محمدﷺ : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً** ﴾ "النصر ١:٣"

تأمل فى أن مجيء النصر الإلهي، وفتح مكة واستئصال عبادة الأصنام، واعتناق الناس الإسلام هل كل هذه الأعمال جريمة أو ذنب كي يستغفر أحد منه ؟ وكذلك قال الله تعالى في سورة الفتح ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً** ﴾ "الفتح ١:٣"

تأمل مرة أخرى في فتح مكة كاملة، ما علاقته باستغفار النبيﷺإلا أن الله تعالى يعبر عن سعادته بقبول عمل عبده الجليل هذا. والمراد من هذا الاستغفار(نعوذ بالله) ليس دليلاً على معصية وذنب الرسول والنبي، ولكنه تعبير عن العبودية الخالصة.

وسيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ الذي يدعى المسيحيون أنه ابن الله(نعوذ بالله)، والملائكة الذين قال العرب عنهم بأنهم بنات الله (نعوذ بالله) وكانوا يؤلهونهما، فقال القرآن عنهما: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ**

الملائكة المُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾ "النساء:١٧٢"

والمراد من هذا ليس إهانة عيسى عليه السلام وتحقيره، بل المراد إعلان للعبودية والعبادة الخالصة.

وخلاصة الأمر أن إقرار الأنبياء واعترافهم -عليهم السلام- بتقصيرهم أمام الله تعالى ليس معناه إثبات الآثام والمعاصي، بل هو تعبير عن عبوديتهم الخالصة والمحضة لله سبحانه.

كذلك قول الله تعالى عن أي نبي أو رسول إنه سبحانه قد غفر له وعفا عنه[1]، ليس معناه أنه كان مذنباً أو آثماً، بل إن هذا العفو والصفح بشارة له بأن الله تعالى قد رضي عنه، وتقبل عمله قبولاً حسناً. واقرأ الآيات السابقة من سورة الفتح مرة أخرى، يتضح لك أن تطهير مكة من نجاسة وخباثة عبادة الأصنام والأوثان، وإظهار الحق على الباطل في شبه الجزيرة العربية كان كلاهما موقوفاً على فتح مكة الحاسم، ولهذا حين جاء هذا الفتح نتيجة للجهود المتواصلة للرسول والمسلمين معاً، فأعلن الله تعالى أن اليوم بهذا الفتح ظهر إثبات تأدية الفريضة والأمانة، واكتمل تسلسل الإحسان والمن عليك، ثم إن الله يعدك بأنه تعالى يهديك إلى الصراط المستقيم، وينصرك، بالرغم من أن الرسول ﷺكان قد حصل على كليهما من قبل. ألم يكن الرسول ﷺ على صراط مستقيم، أي على الإسلام قبل فتح مكة؟ أولم يكن الرسول قد نال المؤازرة القوية من قبل؟ نعم كان قد حصل على كل هذا وذاك، ولكن المراد من ذكر هذه الأمور هنا ثانية هو إظهار رضاء الله للرسول ﷺ وإعلان العفو عن كل ما تقدم وما تأخر من الذنب،وبهذا ألبسه الله الخلعة الفاخرة ومنحه مقامات عظيمة.

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله ليغفر لك الله:" (٤٧١٧): حدَّثنا صدَقةُ بن الفَضل، أخبرنا ابنُ عُيَيْنَةَ حدَّثنا زيادٌ هو ابن علاقة أنه سمع المغيرة يقول: «قام النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى تورَّمَت قدماه، فقيل له: غفرَ الله لك ما تقدَّم مِن ذَنْبك وما تأخَّر، قال: أفلا أكونُ عبداً شَكوراً» (يوسف عامر).

وهذا هو سر العبودية الخالصة لله تعالى، والتي تتجلى في جملة من جمل عيسى عليه السلام، والتي فيها يخاطبه رئيس قائلاً: أيها المعلم الصالح. فقال له يسوع: "لماذا تدعوني صالحاً. ليس أحد صالحًا، إلاّ واحد وهو الله " إنجيل لوقا، الإصحاح ١٨، الفقرة: ١٩"

إن حسب أحد بناءً على هذه الجملة أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يكن صالحاً، فكم يكون خاطئاً هذا القول. كذلك قول عيسى عليه السلام فى دعائه الشهير "واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا" (إنجيل متى الإصحاح ٦، الفقرة: ١٢).

فهذا الدعاء ليس دليلاً على أنه-عليه السلام- كان مذنباً، بل هو شهادة على إعلان العبودية الخاصة لله تعالى.

حكمة

يوجد فى اللغة العربية عدد من الألفاظ تدل على المعصية، ومنها على سبيل المثال: الذنب، والإثم، والحنث، والجريمة وغيرها من الألفاظ. وتطلق هذه ألفاظ كلها ماعدا لفظ "الذنب" على المعاصي الحقيقية التي ترتكب عمداً، ولكن لفظ "الذنب" يطلق على كل عمل أو فعل خاطئ سواء حدث عن عمد أو سهو، كما يطلق هذا اللفظ أيضا على الأفعال التي هي ليست معاصي فى حق الأمة عامة، ولكنها فى حق الأنبياء قابلة للمؤاخذة. وقيل فى الأثر عن هذا المعنى "حسنات الأبرار سيئات المقربين" ويقول الشاعر:

إن من تعلو رتبهم يكونون أكثر عرضة للخطأ

عند ذكر استغفار الأنبياء عليهم السلام استخدم دائماً لفظ "الذنب" ولم يستخدم إطلاقا لفظ "الجرم" والإثم أو الحنث، ولفظ الذنب يشتمل على السهو والنسيان والغفلة والعصيان والمعصية[1] ولهذا حين طلب الله تعالى من أي نبي

[1] - لم يلاحظ هذا الفرق علماء اللغة جميعاً، ولكن العلماء الذين ألفوا كتبا فى دلالة الألفاظ بينوا هذا الفرق، وأنا هنا أنقل عبارة اللغوي والأديب النصراني المعروف من بيروت هنرى كوس لامن كتابه" فرائد اللغة فى الفروق" "الإثم الذنب الذى يستحق العقوبة عليه ولا يوصف به إلا المجرم، وبين الاثم والذنب فرق من حيث أن الذنب مطلق الجرم عمداً كان أو سهوا بخلاف الإثم، فإنه ما يستحق فاعله العقاب فيختص بما يكون عمداً والحنث أبلغ من الذنب لأن الذنب

أن يستغفر من ذنبه فليس معناه الذنب الصريح والعصيان، وإنما المراد منه السهو الإنساني والنسيان وما تقدم من ذنب، والله تعالى برحمة منه وكرمه يقوم بإصلاح مثل هذا السهو والنسيان وتنبيهه، ولمثل هذه الأمور يؤمر النبي بالاستغفار.

وفى هذا إشارة إلى أن النسيان والسهو والغفلة بدون إرادة لا يستحقون المؤاخذة في حق الأمة، ولكن بسبب المقام العالي الذي يناله الرسل والأنبياء تكون مثل هذه الأمور مدعاة للمؤاخذة؛ إذ إن أقوالهم-عليهم السلام- وأفعالهم تصبح شريعة(فيما بعد)، ومن أجل الحفاظ على الشريعة لابد من حفظ قوله وفعله، وعليه فحين يحدث منهم-عليهم السلام- مثل هذه الأمور يُنبّهون فوراً، وفى الوقت نفسه يصدر العفو عنهم، ويُبشَّرون، وهكذا يكون حجرهم طاهراً من كل الذنوب والخطايا، سواء صدرت عنهم سهوا أو عمدا. قال تعالى:

﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ **(البقرة:٣٧)**

﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ **(طه: ١٢٢)**

﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ**﴾ **(التوبة:١١٧)**

﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ** ﴾ **(النبياء:٨٨).**

﴿**يَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ **(الفتح:٢) .**

وهذه الدرجة العالية من العفو العام والمغفرة لا ينالها أحد في الحياة إلا الأنبياء والرسل عليهم السلام.

(٢) هناك سبب آخر لسوء الفهم فى مسألة عصمة الأنبياء، وهو أنه لا يلاحظ ذلك الفرق الذي يوجد بين القوة والفعل فى حياة الأنبياء قبل النبوة وبعدها، والعلم والجهل والضلال والهداية من الألفاظ الزائدة، فكل حد من حدود العلم من الدرجة العالية جهل، ولو ننظر إلى درجة الهداية العالية من مقام يعلوها فيمكن أن يقال لها الضلالة. فحياة الأنبياء قبل النبوة وحياتهم بعد النبوة يوجد بينهما فرق القوة والفعل، فكما تكون الأوراق والثمار مختبئة فى الحبة فى الوقت الذي فيه لا تكون هذه الحبة شجرة، ولا تكون فيها السيقان والأغصان

يطلق على الصغيرة والحنث والكبيرة، والجرم لا يطلق إلا على الذنب الغليظ." (ص ٩٦-٩٧، المطبعة الكاثولوكية ١٨٨٩م) .

والأوراق والأزهار والثمار، ولا يوجد لها ظل، ولكن يأتي وقت تصبح فيـه هذه الحبة ذاتها شجرة جديدة وأوراقها تخضر العيـون، وأزهارهـا تعطـر الروح، وثمارها تقطر الشهد فى الفم، وفى ظلها يستريح المـسافر المتعـب، كذلك يوجد فرق عظيم الشأن بين حياة الأنبياء قبل النبوة وبين حياتهم بعـد النبوة، وعليه فحياة النبي قبل النبوة تبدو مظلمة وضالة، وتبدو حياتـه بعـد النبوة نوراً وهداية، وكما تكون حياة عامة الناس قبل الإسلام ضالة، وتصبح مهدية بعد الإسلام، كذلك حياة الأنبياء تكون فى نظرهم قبل النبـوة ضـالة، وبعد النبوة تصبح مهدية ومرشدة. وخلاصة القول أن الوقت الذي مضي قبل نبوتهم كان وقت ضلالتهم، والوقت الذي جاء بعد نبوتهم هو وقت هـدايتهم. ولكن مفهوم الضلالة والهداية مختلف عن المفهوم والمعنى الذي يستخدمه الله تعالى فى حق الأنبياء. ويقول الله تعالى مذكراً نعمه على حضرة النبي ﷺ

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَـائِلاً فَـأَغْنَى﴾ (الضحى٦:٨)

تتضح من هذه الآيات أن المراد من الهداية هنا النبوة، ومعنى الـضلالة هنا هو حياة النبى ﷺقبل النبوة، وهذه الحياة فى مقابلة الحياة التي كانت بعد النبوة ضلالة نسبية.

والضلالة فى اللغة العربية لا تعنى الضلالة الصريحة فقط، وإنما تعنـى النسيان والسهو والغفلة أيضا، ففي موضع شهادة النساء وردت هذه الآية:

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) (البقرة:٢٨٢)

وفى آية أخرى ورد عن الثناء فى العلم الإلهي:

﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ (طه: ٥٢)

فاستخدام لفظ "الضلال" فى هذه الآيات يدل على أن الضال فى العربيـة وأسلوب القرآن لا يعنى الضال فقط، وإنما يعنى النسيان والسهو أيضا. كما يكون الحال حين تبدو الضلالة للضال، ولكن نور الهداية الإلهية لم يتجل أمامه بعـد، فهو يستشعر الخطأ، ولكن لم يبدُ الصحيح فى مكان هذا الخطـأ، بـدت سـيئات الجهل، ولكن لم ينفتح باب العلم بعد، وهكذا يكون الحال قبل النبوة. فسيدنا موسى

عليه السلام كان قد وكز قبطياً مظلوماً قبل النبوة، وفجأة مات هذا القبطي متأثراً بهذه الصدمة، وحين رجع موسى عليه السلام بعد النبوة طعن فيه فرعون، وقال له إنك المتهم الهارب، فرد عليه موسى عليه السلام: **﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (الشعراء: ٢٠)**

والمراد من هذا السهو والضلال فقط هو أنني(موسى) لم أكن في ذلك الوقت قد نلت شرف النبوة، وإلا فالمعروف أن موسى عليه السلام لم يكن قد صدر منه أي ضلال، ولم يكن قد عبد صنما، ولم يكن قد سجد لفرعون، ولم يكن قد أشرك مع الله أحدا، أما أن يموت شخص ضعيف بصفعة ولطمة فما هذا إلا صدفة، وليس إثم الضارب عمداً، والذي يستحق أن نطلق عليه الضلالة.

ويبدو من هذا تماماً أن قول موسى عليه السلام نفسه بأنه كان في ذاك الوقت ضالاً، أي حياته قبل النبوة. وعُبّر عن الحياة قبل النبوة بالضلالة. وفي موضع آخر عُبّر عنها بالغفلة، ففي قصة يوسف عليه السلام يخاطب الله تعالى سيدنا محمدا ﷺ **﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾** (يوسف:٣)

وهناك تفسير لحياة هذه الغفلة في آية أخرى، وضّح الله تعالى فيها الفرق بين حياة النبي قبل النبوة وبعدها**﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢)**

هذه هي الحالة التي كانت موجودة قبل الظفر بنور الكتاب والإيمان وهدايتهما، والتي عبر عنها مرة بالضلالة ومرة أخرى بالغفلة، فالمراد هنا ليس الإثم الحقيقي والمعصية والضلالة الباطنة، بل هي حالة طلب الحق، والبحث عن المعرفة، وانتظار كشف الحقيقة، وهي بالنسبة لهم (الأنبياء) بمثابة الضلالة والغفلة، وفي النهاية يأتي الوقت الذي فيه يُشرق النور، ويفيض ينبوع الاستقرار الروحاني، وبعد الوصول إلى الغاية يمُنح النبي مقام هداية الآخرين وإرشادهم، وهذه هي مرحلة الهداية، فقد عبر الله تعالى عن نيل الأنبياء النبوة بلفظ الهداية: **﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ (الأنعام: ٨٤)**

فإن كان المراد من هذه الهداية هو منح النبوة، فظاهر أن الزمن الذي لا تكون فيه النبوة يطلق عليه الضلالة، ولكن سيكون المقصود منه فقط تلك الحالة التي لم ينل فيها النبوة، وكان ينتظر المقام الرفيع انتظارا.

اتضح من هذا الشرح والبيان أن المراد من هذه الضلالة فى حق الأنبياء ليس الإثم والمعصية والضلالة، وإنما المراد هو العهد أو الوقت الذي مضي قبل النبوة والرسالة، وهذا الوقت فى مقابل هداية النبوة والرسالة ضلال نسبي.

بشرية النبي ﷺ

على الرغم من عصمة النبي واتصافه بصفات مقدسة، فإن الإسلام يُقر بأن النبي مخلوق الله وعبده، وأنه بشر، فهو لا يكون أبداً صورة مجسمة للإله، أو ندا لله، ولا يكون ملاكاً ولا ملكاً،وهذه القضية فى الحقيقة من القضايا التي كانت حقيقتها الأصلية غائبة قبل بعثة محمد ﷺفي ظلام الإفراط والتفريط[1]، ثم اتضحت بفيض من نوره وعلمه ﷺ، وقبل الإسلام كان هناك من هم أصحاب ديانات مثل اليهود، الذين كانوا يعتبرون الأنبياء أناسا عاديين فى كل شئ، غير أنهم متصفون بصفة التنبؤ، فالأنبياء حسب اعتقاد هؤلاء يقترفون كل أنواع المعاصي والذنوب ــ نعوذ بالله ــ ويحدث منهم سوء الأخلاق، بل كانوا يكفرون، ولكنهم رغم هذا كانوا يعدون أنبياءً. وعلى الجانب الآخر كان المسيحيون يعتقدون أن النبي الذي أنقذهم ليس ببشر، بل هو إله أو جزء من الإله، وكانوا يحسبونه مجموعة من اللاهوت،وكان هناك الهندوس الذين كانوا يحسبون مصلحيهم آلهة، أو صوراً مجسمة للآلهة، أو آلهة فى شكل الإنسان وهيئته، ويملكون كل سلطات الإله.

وجاء الإسلام وقدم تعاليمه السمحة، التي لا تتصف بإفراط أو تفريط، بل تتسم بالاعتدال والوسطية[2]، فالإسلام يُقر بأن الأنبياء-عليهم السلام- مخلوقون

---

[1] - يقصد المؤلف هنا بالإفراط هو تأليه النبي، وبالتفريط تنقيصه (يوسف عامر) .

[2] - يقول الله تعالى: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى

من مخلوقات الله، كما أنهم بشر وعباد خاشعون وخاضعون لأوامر الله، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يُقر بأن الأنبياء عباد الله الصالحون والمعصومون، وبقدرة الله هم منبع البركة والسعادة والهداية والخير، وتصدر منهم بإذن من الله تعالى أمور خارقة، وبهذا يرفض الإسلام هذين المعتقدين (الإفراط والتفريط) المبنيين على الخطأ وسوء الفهم. وكان العرب أيضا يعتقدون كالهندوس والإغريق والنصارى أن الإنسان لا يصلح لهداية البشر، بل لابد أن يكون المصلح من هو فوق البشر، وهو جنس الملائكة، وجاء القرآن وكذب هذا الاعتقاد مرات ومرات؛ إذ ذكر أنه لو كان فى الأرض ملائكة قاطنون فسيرسل إليهم الملك، ولو جاء ملك فى الناس لجاء فى هيئة البشر، فمتى كنتم تقرون بأن هذا الملك ملك ؟

والحقيقة أن للرسل وجهين: الأول هو أنهم يكونون فى صورة البشر، فيأكلون كالبشر، ويمشون، ويتجولون، وينامون، ويستيقظون، ويتزوجون، ويتناسلون، ويموتون. أما الوجه الثاني فهو أنهم يكونون أعلى وأرفع من البشر فى روحانيتهم وعصمتهم وعفتهم، كما أنهم يختصون بالنبوة. فمن ينظر إليهم بنظرة اليهود يراهم بشرًا عاديين تماماً، ومن ينظرهم بنظرة النصارى يراهم أعلى وأرفع من البشر، وهم متصفون بالصفات الإلهية، غير أن الحق أنهم فى وسط هذين المعتقدين. فالأنبياء من ناحية الصفات البشرية متصفون بصفات البشر بلا ريب، ولكنهم مع وجود هذه الصفات يتصفون بصفات تفوق البشر. وهذه المغالطة نفسها كانت تقع من الكفار تجاه رسلهم وأنبيائهم، فحين كان يقول لهم نبي إنه جاء إليهم من قبل الله تعالى نبيا ورسولاً، كانوا يقولون له ناظرين إلى صفته البشرية إنك بشر مثلنا، فكيف يمكن أن تكون رسولاً ونبياً من الله، وقد قال الكفار هذا للرسل كثيراً: ﴿ **أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً** ﴾ **(الإسراء: ٩٤).**

فكان الكفار يعتقدون أن البشرية منافية للنبوة، ولهذا قال الرسول ﷺ رداً عليهم: ﴿ **هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً** ﴾ **(الإسراء: ٩٣).**

عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ "(البقرة: ١٤٣) (يوسف عامر) .

فكانوا يشكون في أن الإنسان يستطيع أن يهدى الناس الضالين ويرشدهم ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ (التغابُن:٦)

وهذا هو ذلك الشك نفسه الذي وقع فيه المسيحيون فأنكروا بشرية عيسى عليه السلام، إذ كيف يمكن لبشر أن يخلص الإنسان العاصي بالوراثة فهم لا يعتقدون أن الإنسان العاصي بالوراثة يمكن أن يكون عاصياً، ويمكن كذلك أن يكون غير عاص، وليس من الضروري أن تكون العصمة والبراءة فقط لمن يكون خارج دائرة البشر، ولم يكن الكفار يفهمون هذا الأمر أيضا، فعندما كانوا يرون الأنبياء والرسل بشراً مثلهم جسمانيا وبشرياً كانوا ينكرون نبوتهم ورسالتهم، ومن ثم لم يكونوا فى نظرهم يستحقون مقام النبوة، وكانوا يقولون: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (إبراهيم:١٠). ليس هذا فحسب، بل كانوا يحثون الآخرين على رفض هؤلاء الأنبياء قائلين:

﴿ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الأنبياء:٣)

﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (المؤمنون:٢٤)

وكانوا يقدمون هذا الدليل نفسه أمام الأنبياء:

﴿ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ (الشعراء:١٨٦)

﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ (يس:١٥)

وكان الأنبياء عليهم السلام يردون عليها دوماً نعم نحن بشر مثلكم، ولكن هذا فضل الله علينا، وهذا هو الفرق بيننا وبينكم:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (إبراهيم:١١)

كان هؤلاء الكفار ينظرون إلى الأنبياء من جانب واحد، وهو جانبهم البشري، وقدم الأنبياء فى الرد عليهم الجانب الآخر منهم أيضا، وقالوا نعم نحن بشر مثلكم، ولكن فضل الله ورحمته علينا كثيرة أي أنعم الله علينا بالنبوة، ونمتاز عنكم بهذه الفضيلة. وقال محمد ﷺ -كبقية الأنبياء والرسل السابقين مراراً وتكراراً- بل وأعلن الله تعالى على لسانه ﷺ:

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾(الكهف: ١١٠).[1]، وهذا الإعلان في الحقيقة يدُحض تلك العقيدة الخاطئة التي كانت سائدة بين المسيحيين عن ألوهية الأنبياء، وللأسف الشديد يوجد مثل هذا الاعتقاد الخاطئ في طائفة من نبي هذه الأمة والذي كان قد جاء ﷺ في هذه الدنيا معلناً لوحدانية الله الكاملة، ومن ناحية آخري استنبط فريق من هذا الإعلان – ما أنا إلا بشر – أن الأنبياء والبشر لا يوجد بينهما أي فرق، ولا يوجد في الأنبياء أي فضل أو تفوق على البشر عامة سوى أن الأنبياء ينزل عليهم الوحي، وعامة الناس محرومون من هذا، وكأن النبي والرسول يفضل ويفوق الإنسان فقط في الوقت الذي ينزل فيه الوحي عليه، أما قبل هذا وبعده فهو يكون إنسانا كعامة البشر، وعليه تجرأت طائفة صغيرة وادعت بأن أحكام وأوامر النبي محمدﷺ النبوية هي ما جاءت فقط في شكل الوحي القرآني، أما ماعدا ذلك من أوامر وتعاليمه ﷺ والتي ليس لها ذكر في القرآن فهي أمور وشئون دنيوية وحكومية، وليس من الشريعة اتباعها، وهي ليست جزءاً من الإسلام. ومع هذا يُعَدّ رأي هذه الطائفة أمام رأي الطائفة الأولى المغالية رأيًا متساهلا جداً، ورأي هاتين الطائفتين بعيد عن حدود الاعتدال، والحقيقة في وسطيتهما.

وردت في القرآن الكريم آيات في ثلاثة مواضع، تعلن عن بشرية النبي محمدﷺ بصفة خاصة، ولكن يوجد في كل موضع تصريح بالتوحيد الكامل، وشرح وبيان عبودية الرسل–عليهم السلام– لله تعالى، ونفي وتكذيب للعقيدة

---

[1] – وورد عنه ﷺ في صحيح مسلم: (١٢٣٥) حدَّثنا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَاللَّفْظُ لَهُ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللّهِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: صَلَّى بِنَا عَلْقَمَةُ الظُّهْرَ خَمْساً. فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ الْقَوْمُ: يَا أَبَا شِبْلٍ قَدْ صَلَّيْتَ خَمْساً. قَالَ: كَلاَّ. مَا فَعَلْتُ. قَالُوا: بَلَى. قَالَ وَكُنْتُ فِي نَاحِيَةِ الْقَوْمِ. وَأَنَا غُلاَمٌ. فَقُلْتُ: بَلَى. قَدْ صَلَّيْتَ خَمْسًا. قَالَ لِي: وَأَنْتَ أَيْضاً، يَا أَعْوَرُ تَقُولُ ذاه؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ فَانْفَتَلَ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ. ثُمَّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللّهِ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللّهِ خَمْساً. فَلَمَّا انْفَتَلَ تَوَشْوَشَ الْقَوْمُ بَيْنَهُمْ. فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ هَلْ زِيدَ فِي الصَّلاَةِ؟ قَالَ: «لاَ» قَالُوا: فَإِنَّكَ قَدْ صَلَّيْتَ خَمْساً. فَانْفَتَلَ ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ. ثُمَّ سَلَّمَ. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ. أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ وَزَادَ ابْنُ نُمَيْرٍ فِي حَدِيثِهِ «فَإِذَا نَسِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ». (يوسف عامر).

الباطلة التي تزعم أن الرسل ينبغي أن يكونون قادرين على إجبار الله-نعوذ بالله- على أي شئ بالقوة والجبر، والعفو والصفح عن كل الذنوب، والقرآن الكريم يعلمنا أن كل ما يملكه هؤلاء الرسل ما هو إلا بإذن من الله تعالى وبفضل منه سبحانه.

فى سورة الكهف يوجد ذكر للمشركين الذين يشركون العباد مع الله تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً** ﴾ **(الكهف:١٠٢)**

يُقر القرآن الكريم بأن هذا الاعتقاد كفر، ويوجد فى نفس الحزب من سورة الكهف ذكر لصفات الله تعالى التي لا حصر لها، ثم يقول الله تعالى:

﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ (الكهف: ١١٠) . وفى موضع آخر، وبالتحديد فى سورة فصلت جاء هذا الأمر نفسه. ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ** ﴾ **(فصلت:٦)**

وغاية هذه الآية أيضا أن الرسول أمام الله ما هو إلا عبد كعباد الله الآخرين، وعلى العباد أن يدعوه سبحانه ويستغفروه عن ذنوبهم، وهذه السلطة ليست لأي أحد من عباده تعالى، والمراد من هذا الحكم فى الواقع نفي وتكذيب مسألة كفّارة المسيحيين وعقيدتهم بأن تكفير الذنوب من سلطة واختيار سيدنا عيسى عليه السلام، وتجنب المسلمين مثل هذا الاعتقاد الباطل حيال رسوله ﷺ، ولهذا فى الموضع الثالث حيث يطالب الكفار النبي محمدﷺ قائلين له: إن كنت رسولا من الله فاجعل لنا سقفاً من الذهب، واجر لنا أنهارا حيث لا توجد الأنهار، واجعل الصحراء الجرداء بساتين وحدائق، وتمشى والملائكة حولك، واصعد إلى السماء أمامنا، وتنزل منها أمامنا أيضا، والكتاب بين يديك:﴿**وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ**﴾ **(الإسراء ٩٠:٩٣)**

إن هذه الأمور ليست صعبة ولا مستحيلة، ولكن النبوة لا علاقة لها بهذه الألعاب والعروض الصبيانية، فكان الهدف من وراء هذا أمر كبير، وهو إبطال الاعتقاد الذي يوحي بأن النبي أو الرسول له بعض السلطات والاختيارات الإلهية، ولهذا علم الله تعالى الرسول الرد وهو:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾ (الإسراء ٩٣:٩٥)

صدر من الرسول ﷺ بإذن من الله بعض المعجزات، واعترف الناس بأنها مدهشة ومحيرة، ورغم هذا مازال هذا الاعتقاد قائمًا، وهو كيف يمكن أن يكون الرسول بشرًا.

وقال الكفار بعد مشاهدة المعجزات هذا الكلام نفسه:

﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (الأنبياء٣)

اعترف هؤلاء الكفار بهذه المعجزات الخارقة قائلين أنها سحر، ولكن على الرغم من ذلك أصروا على أن البشرية منافية للنبوة، وقيل لهم إن صفات ومميزات النبوة والرسالة يعرفها ويعلمها أكثر منكم أولئك الذين أعطوا من قبلكم كتب سماوية أي اليهود، فاسألوهم ألا يكون الرسول والنبي دائماً بشراً ؟

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل: ٤٣)

وجاء هذا الجواب نفسه فى سورة يوسف:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ (يوسف:١٠٩)

وورد تفصيل أكثر من هذا فى سورة النحل :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ

الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ (النحل ٤٣: ٤٤)

فأي شخص يلقى النظر على هذه الآية التي تتعلق بالمثلية والبشرية لابد أنه سيدرك بأن المثلية والبشرية اللتين جاء ذكرهما فى هذه الآيات علاقتهما بالجسمانية الظاهرة والقوى البدنية والخِلْقِيةّ، وإلاّ فإن الرسول كونه بشر يكون عاليا وممتازا من الناحية الأخلاقية والروحانية والعقلية والقلبية والعلمية والعملية، وليس معنى أن الوحي فارق بين النبي وغير النبي هو أن النبي متصف بالإلقاء الرباني، وإلا ففي الأمور الأخرى يكون النبي كعامة الناس فى الصفات والفضائل أو العيوب والنقائص. وهذا مثلما يقول شخص إن الفرق بين العالم والجاهل هو العلم فقط، وإلا فالاثنان متساويان فى البشرية، فليس معناه أنهما متساويان فى الصفات العلنية والمميزة والمتضادة، ولا يوجد بينهما أي فرق من ناحية العقل والأخلاق والحضارة والأدب والرأي والحكمة والفهم، فى حين أن القول بأنه يوجد بينهما فرق العلم والجهل فكأن هذا اعتراف وإقرار بأن هناك مئات من صفات العلم والجهل واللوازم والخصائص.

وهكذا بعد الاعتراف والإقرار بفرق الوحي بين النبي وغير النبي لابد من الاعتراف والتسليم أيضا بمئات من اللوازم والخصائص والصفات بين من يوحي إليهم ومن لا يوحى إليهم.

دع الوحي والرسالة جانبا، وخذ على سبيل المثال الاكتشافات والكمالات الإنسانية الأخرى، ففي هذه الحالة لابد من التسليم والاعتراف بأن كل الصفات والكمالات الممكنة للإنسان يمكن الوصول إلى أعلى درجة من الكمال لهذه الصفات، ومن يصل إلى مثل هذه الدرجة فهو رغم أنه إنسان فى الصفات الإنسانية وخصائصها، فإنه أرفع وأعلى فى القوة الأخرى من عامة الناس، فهل يستطيع أحد أن ينكر بأن بطل إيران رستم فى كمال الأجسام لم يكن إنساناً، ومجسم العلم والعقل اليوناني أرسطو لم يكن بشرا ؟ ومخترع عدد من الأشياء المحيرة فى عالمنا المعاصر إديسون ليس بشرا ؟ ولكن بالرغم من كونهم مشتركين فى البشرية فإنهم في دوائرهم أعلى وأكثر إمتيازًا من عامة الناس، ومع

هذا فهم فى صفاتهم وخصائصهم الجسمانية كالمشي والتجول والقيام والجلــوس والأكل والشرب والنوم والاستيقاظ والنظر والمشاهدة والصورة والشكل واليــدين والرجلين -أي في كل شئ - كعامة الناس، وإنسان مخلوق بل إنسان مجبر كأي إنسان آخر ضعيف وجاهل وغبي. والمثال نفسه ينطبق فى معنى مــن المعــاني على الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ لأنهم فى كثير من الــصفات الإنــسانية شركاء مع الناس غير الأنبياء أو الرسل، ولكن الأنبياء والرسل رغم هذه الشراكة فى الإنسانية أعلى وأرفع وأكبر من عامة الناس فى الوحي وصفاته ولوازمه، بل يمتازون فى بعض الصفات الجسمانية أيضا عن عامــة النــاس، فعنــدما رأى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ سيدنا محمد ﷺ يصوم صوم وصال أرادوا أن يقتدوا به ويتبعوه، ويصوموا أياماً وليالي متواصلين، فيمنعهم الرسول ﷺ ويقول عن نفسه " أيكم مِثلي، إني أَبيتُ يُطعمني ربي ويَسقين."[1] هل أنتم أيهــا النــاس تجدون فى أنفسكم هذا الغذاء الروحاني والشبع الروحاني، أما هم (الأنبياء) ففــي الأمور الأخرى سوى الوحي كمثل عامة الناس بشر.

وكذلك ثابت من صحيح الأحاديث أن قلب النبي ووعيه لا يكونان غافلين فى النوم، فقال النبي ﷺ عن نفسه:"تَنامُ عيني ولا يَنام قلبي". وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم[2] هل هذه هي حالة عامة الناس فى النوم ؟ كذلك النبي ﷺ

---

[1] - صحيح البخارى- كتاب الصوم. وهذا نص الحديث كاملا: (٦٦٩٩): حدّثنا يحيى بن بُكير حدثنا الليثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شهابٍ حدثنا أبو سلمةَ أنَّ أبا هريرة رضيَ الله عنــه قــال: «نهى رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنِ الوصال، فقال له رجالٌ من المسلمين: فإنــكَ يــا رسولَ الله تُواصل فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أيكم مِثلي، إني أَبيتُ يُطعمني ربــي ويَسقين. فلما أبوا أن يَنتَهوا عن الوصال واصلَ بهم يوماً ثم يوماً، ثمَّ رأوُا الهلالَ فقال: لــو تأخرَ لزِدتكم. كالمنكِّل بهم حينَ أبوا». تابعه شُعيبٌ ويحيى بن سعيد ويونسُ عنِ الزُّهــريِّ. وقال عبد الرحمنِ بنُ خالدٍ: عن ابن شهابٍ عن سعيدٍ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صــلى الله عليه وسلم. (يوسف عامر).

[2] - صحيح البخارى، باب الإسراء. وهذا نص الحديث كاملا: (٣٤٩٣): حدّثنا عبــدُ الله بــن مَسلمةَ عن مالكٍ عن سعيدٍ المقبُريِّ عن أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرحمٰن أنهُ سألَ عائشة رضيَ الله عنها: كيفَ كانت صلاةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في رمضانَ؟ قالت: «ما كان يَزيــد

حينما كان يؤكد تسوية الصفوف فى الصلاة كان يقول: «إني أراكُمْ مِنْ خلفي وأمامي».[1] هل قوة إبصار عامة الناس تكون كهذه؟ جاء فى القرآن الكريم ﴿ أ **فتمارونه على ما يرى**﴾ ﴿**ولقد رآه بالأفق المبين**﴾ وهل عامة الناس يستطيعون مشاهدة الملائكة؟ وأمهات المؤمنين اللاتي نلن هذا الشرف العظيم بسبب النبي ﷺ خاطبهن الخَق تبارك وتعالى ﴿**يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن**﴾ فإن كانت هذه درجة أمهات المؤمنين إن اتقين، فكم تكون درجة النبي أكبر وأعظم حتى لا يكون كأحد من الرجال، ويكون فى ذاته وصفاته أعلى وأرفع وأعظم من عامة الناس

خلاصة القول أن الفرق الذي يوجد بين النبي وغير النبي وهو الوحي فقط معناه أن بينهما فروق بينة فى جميع صفات وخصائص ولوازم الوحي والرسالة، ولهذا حين يكون أي إنسان صاحب وحي فلا بد من الاعتراف والإقرار بأنه متصف بكل هذه الصفات والخصائص.

الخطأ فى الاجتهاد النبوي

وهناك سبب آخر للشك، وهو أن القرآن الكريم قد نبه النبي ﷺ فى بعض المواضع على بعض من سهوه ﷺ، ويثبت من هذا أن ما كان يصدر من النبي ﷺ من أحكام بعقله وحكمته لم تكن معصومة من الخطأ، ويعترف المسلمون جميعاً بهذا الأمر، وهو أن الأمور التي لم يكن ينزل فيها وحي كان الرسول ﷺ يحكم فيها بعلمه وحكمته وفهمه النبوي، ولكن يجب التمعن فى هذا الأمر، وهو أنه لو لم يكن قد تم التنبيه على أحكام الرسول ﷺ بالمرة؛ لكان يمكن أن يقال إن

في رمضانَ ولا غيره على إحدىَ عشرةَ ركعة: يُصلِّي أربعَ ركعاتٍ فلا تسألْ عن حُسنِهنَّ وطُولِهنّ، ثم أربعاً فلا تسألْ عن حُسنِهنَّ وطولِهن، ثم يُصلِّي ثلاثاً. فقلتُ: يا رسولَ الله تَنامُ قبلَ أن تُوتِرَ؟ قال: تَنامُ عيني ولا يَنام قلبي». (يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن الدارمي: (١٣٢٢): أخبرنا أبو الوليد الطَيالسيُّ، ثنَا زائدةُ ثنَا المختارُ بنُ فلفلٍ، عنْ أنسِ بنِ مالكٍ،، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم حثَهُمْ علَى الصلاةِ، ونهاهُمْ أنْ يَسْبِقُوهُ إذا كانَ يؤمُّهُمْ بالركوعِ والسجودِ، وأنْ ينصرفوا قبلَ انصرافِهِ منَ الصلاةِ، وقالَ: «إني أراكُمْ منْ خلفي وأمامي». (يوسف عامر).

جميع أحكامه ﷺ كانت تصدر حسب مرضاة الله وهي صحيحة جميعاً، وكان من الممكن أن يقول قائل بأن الله تعالى لا يتحمل مسئولية أحكام النبي الصحيحة والخاطئة، ولهذا لم ينبه عليها، والحقيقة ماعداهما. والحقيقة أن الله تعالى نبه على بعض الأحكام، ولم ينبه على البعض الآخر، ويتضح من هذا بديهياً أن إمكانية وقوع الخطأ فى الاجتهاد النبوي أمر ممكن، أما الذي يستحيل وقوعه فهو إقراره ﷺ بهذا الخطأ حتى ولو للحظات. فإن كان قد حدث سهوٌ ما، فقد نبه عليه وحي علاّم الغيوب فى التّو واللحظة وصححه.

والنتيجة الثانية التي تتضح من هذه الواقعة أو الحادثة، هي أن كل الأحكام التي صدرت عن اجتهاد النبيﷺ وعن علمه وحكمته، أو الأعمال التي قام بها، وسكت عنها الوحي الإلهي دليل دامغ على صحتها وصدقها، ومن ثم أصبحت هذه الأحكام والأفعال بمثابة الوحي وبمنزلته.

إن عمر نبوتهﷺ هو٢٣ عاماً، وفى هذه السنوات حدثت آلاف من الأمور والحوادث وأصدر عليها الرسول ﷺ أحكامه بصدر منشرح، بناء على اجتهاده ﷺ، ولكن الوحي الإلهي قد نبه على خمسة أحكام فقط من بين هذه الأحكام التى لا حصر لها، والصادرة عن اجتهاده ﷺ، ومن العجيب أن هذه الأحكام الخمسة ليست فيها حكم يتعلق بالأمور الدينية والشريعة الإسلامية، والعقيدة والعبادة والمعاملة، بل كل هذه الأحكام الخمسة إما أنها شخصية محضة أو أمور حربية. ومن هذا تتضح هذه النتيجة، وهي أن اجتهاداته النبوية فى الدين والشريعة كانت نزيهة ومعصومة من الخطأ.

فى معنى هذا الخطأ

إن الأسباب والعلل التي تؤدى إلى أخطاء فى اجتهاد عامة الناس ترجع إلى المقدمات التي يُبنى عليها اجتهادهم، فهي إما أن تكون باطلة وخاطئة، أو أنهم لا يعلمونها قطعاً، أو بسبب عدم وجود الاستقراء التام أو التمثيل التام، والعلة المشتركة تبدو غير صحيحة، ولكن هذه الصور كلها ليس لها وجود فى الاجتهاد النبوي؛ إذ إن الاجتهاد النبوي لا يُبنى على هذه الطرق، ولا يقوم على أسس علم المنطق وهي التدبر والتأمل، والنظر والاستدلال، والاستقراء والتمثيل، بل يُبنى

هذا الاجتهاد النبوي على نور الرسالة، وفهم النبوة والحكمة الإلهية وانشراح الصدر، وهي الأشياء التي لا توجد فيها تلك المقدمات المنطقية، لذا فلفظ الاجتهاد الذي يستخدم لعامة الناس، يجب عدم استخدامه فى هذا المقام النبوي؛ كي لا يحدث أي التباس.

وهناك أمر آخر وهو أن وقع خطأ فى الاجتهاد النبوي ليس معناه أن الجانب الذي اختاره النبيﷺ كان جانباً سيئاً أوفيه سوء خلق، بل معناه أن النبيﷺ اختار من الجانبين الصحيحين جانباً حسناً وترك الجانب الأحسن، فنبهه الله تعالى على هذا، وأكد له أن يختار الجانب الأحسن بدلاً من الحسن. والحوادث المعدودة التي وقعت من هذا النوع لو ألقينا النظر عليها لاتضحت هذه الحقيقة، وهي أن اختيار الرسول ﷺ للحسن بدلاً من الأحسن كان من باب الرحمة والشفقة على الأمة الإسلامية، فالله سبحانه وتعالى أمره أن يختار الجانب الذي في ظاهره الشدة بدلاً من الجانب الذي يبدو في ظاهره الرحمة والشفقة، وكانت الحكمة الدائمة لعلام الغيوب تقتضي أن يُختار الجانب القوي والشديد.

والآن نتحدث عن تلك الأمور والأحكام الاجتهادية الخمسة التي نبه عليها الوحي الإلهي

الأمور والأحكام الاجتهادية الخمسة التى نبه عليها الوحي الإلهي هي:

١- الواقعة الأولى :

هي أن الرسولﷺ حين كان يدعو الناس ذات يوم إلى الإسلام قبل الهجرة فى مكة المكرمة جاء رؤساء وزعماء من قريش، وجلسوا فى مجلسه ﷺ، وبدأ الرسول يعلمهم ويبين لهم سوء عبادة الأصنام، وقيمة التوحيد وخيره، وكان يريد بإخلاص أن يعتنقوا دعوتهﷺ، وفى نفس اللحظة قدم مسلم كفيف وفقير وهو عبد الله بن أم مكتوم، وجلس فى مجلسه ﷺ، وأراد أن يستفسر منه ﷺ شيئاً، وكان رؤساء قريش وزعمائها مغرورين ومزهوين بأنفسهم، وكانوا لا يحبون الحضور في مجالس النبي ﷺ لأن الفقراء والدونيين (في زعم هؤلاء)[1] يحضرون في

---

[1] - يوسف عامر.

مجالسه ﷺ، وعليه فحين رأى الرسول ﷺ بأن هؤلاء الرؤساء من المحتمل أن تؤثر فيهم دعوته، ساءه ﷺ قدوم عبد الله بن أم مكتوم فى مثل هذا الوقت، إذ إن قدومه أشعل زهو هؤلاء الأشخاص وكبريائهم، وحال بينهم وبين اعتناقهم الدعوة.

وكان استياء الرسول ﷺ من قدوم عبد الله بن أم مكتوم واستفساره يقوم على سلامة النية، لأن الرسول ﷺ يعلم أن عبد الله بن مكتوم مسلم، فلو لم يرد على استفساره فى هذا الوقت، فلا حرج فيه، ولكن استياء هؤلاء السادة من قريش وبعدهم سيؤثر على أهل مكة جميعا، ولكن لو أسلم هؤلاء، فلن يبق أي مانع أو حاجز في طريق نشر الدعوة الإسلامية فى مكة المكرمة، وبناء على هذا الفهم والظن استمر الرسول ﷺ فى تبليغ وموعظة هؤلاء الرؤساء، ولم يلتفت إلى عبد الله بن أم مكتوم، فنبهه الله تعالى على هذا التصرف بهذه الآية الكريمة:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ (عبس ١:١٢)(١)

فى هذه الآيات نُبِّه الرسول ﷺ إلى اجتهاده هذا، وهو أن المزيد من الهداية لمسلم قديم وفقير أفضل من تفهيم وتبليغ سادة قريش، كما نبه سبحانه وتعالى إلى أن من أصول الإسلام وأسسه عدم التفريق بين غني وفقير، أو رئيس ومرؤوس، أو بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا، المبصر والكفيف فى الإسلام

---

(١) - وورد في سنن الترمذي (٣٤٥٨) عن سبب نزول الآية: حدثنا سَعِيدُ بنُ يَحْيَى بنِ سَعِيد الأُمَوِيُّ (قال): حدَّثنِي أبي، قالَ: هَذَا ما عَرَضْنَا عَلَى هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ عَن أَبِيهِ عَن عائِشَةَ قالت: «أُنْزِلَ {عَبَسَ وَتَوَلَّى} في ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَى أَتَى رَسُولَ الله فَجَعَلَ يَقُولُ يا رَسُولَ الله أَرْشِدْنِي. وَعِنْدَ رَسُولِ الله رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ المُشْرِكِينَ فَجَعَلَ رَسُولُ الله يُعْرِضُ عَنْهُ ويُقْبِلُ عَلَى الآخَرِ وَيَقُولُ: أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسَاً؟ فَيَقُولُ لاَ، فَفِي هَذَا أُنْزِلَ».
قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حسن غَرِيبٌ. وَرَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الحَدِيثَ عَن هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ عَن أبيه قال: أُنْزِلَ {عَبَسَ وَتَوَلَّى} في ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَن عَائِشَةَ. (يوسف عامر).

سواء. ولكن الرسول ﷺ كان قد تراءى له في حكمه هذا أن تأليف قلوب هـؤلاء الرؤساء أفضل من تأليف قلب مسلم كفيف، لأن ميل هؤلاء السادة إلى الإسلام فيه خير كثير للدعوة الإسلامية، ولكن الرسول ﷺ لم يلتفت إلى هذه الحكمة وهي أن هذا الأسلوب يؤثر سلباً في تعاليم الإسلام الأساسية، ولهذا نبهه الوحي الإلهي إلى أن رسالة الإسلام هذه للعالمين جميعاً، فمن أراد اعتناق هذا الدين فليعتنـق دون تمييز أو تفريق، هذا فضلاً عن الإشارة إلى أن هؤلاء سادة قريش الذين تـسعى لهم بهذا القدر من الاهتمام هم سيكونون محرومين من الإيمان، لـذا فالاهتمـام الزائد بهم مجرد من الفائدة، والواضح أن الرسول ﷺ لم يكن يعلم من قبـل هـذا الحكم الإلهي الغيبي، ولهذا كان ﷺ يعتقد أن عمله هذا صحيح حسب علمه ﷺ.

الواقعة الثانية:

والواقعة الثانية تتعلق بالغزوة الأولى، التي حصل فيها المسلمون علـى غنائم وقبلوا مال الفدية عن أسرى بدر. ولم يكن نزل تشريع مال الغنيمة والفدية في ذلك الوقت، لأنه لم يكن قد حدث ما يستدعيه، فكان المسلمون قد حصلوا على غنائم في سرية النخلة، وبعدها مباشرة حصلوا على أموال الغنائم هذه في غزوة بدر، وفي نفس الوقت أسروا سبعين أسيرا من قريش، كان أغلبهم من أغنياء مكة وأشرافها، وكانت أراء المسلمين حيال هؤلاء الأسرى مختلفة، فكان البعض يرى إحراقهم في النار، والبعض الآخر يرى إطلاق سراحهم بعد أخذ الفديـة مـنهم، وكان من المتوقع أن يحصل المسلمون في هذه الحالة علـى٤٠ ألـف درهمـا، وعلماء النفس يعرفون جيداً أن القوم الذين عانوا مدة طويلة من مصائب وإيذاء، عندما يخرج من عهد القهر والفقر، ويصبح لأول مرة منتصراً وثريا، ويـتمكن من سلطة الدولة وثرائها تكون هذه اللحظة في حياته من الناحية الأخلاقية حرجة ودقيقة جداً. ففي مثل هذه الظروف صعب على الأمة أن تـسيطر علـى عقلهـا وقلبها رغم نشوة الانتصار والقوة والثروة، ومن الصعب جداً أن يصبح المهزوم منتصراً، والظالم مقهوراً ولا يحدث رد فعل، ولا يطلب ذلك المقهور الذي أصبح منتصراً الانتقام الشديد من ذلك الظالم الذي أصبح الآن مهزوماً، فهذا الأمر ليس أمرا هيناً (وحين نرجع إلى) التاريخ السياسي والديني نجد من تحملوا الأذى لمدة

ثلاثة قرون أصبحوا فجأة منتصرين في عهد قسطنطين، وأصبح الظالمون مقهورين ومهزومين، وبدأت إنجازات المسيحيين تنحسر واحدة تلو الأخرى، ومن كانوا مظلومين انتقموا من اليهود والروم الوثنيين شر انتقام يستحى تاريخ الأخلاق الإنسانية من ذكره.

والفتح الذي جاء في غزوة بدر على غير توقع أوجد للمسلمين المقهورين الفقراء نفس المرحلة التاريخية ذات اللحظات الحرجة، وجاءت فجأة أموال الغنيمة والفدية الطائلة إلى هؤلاء الفقراء المسلمين الذين حرموا من كسب الرزق سنوات وسنوات، وعانوا من عدم توفر الاحتياجات اليومية البسيطة، وأصبحت قريش مهزومة فجأة، ومازالت أبدان المسلمين وصدروهم تحمل آثار الجرح والإصابة حتى الآن، ومات رؤساء قريش الكبار بأيدي هؤلاء المسلمين، وأسر سبعون رأساً منهم، وكانوا أحياء تحت رحمة المسلمين وكرمهم.

وكان المسلمون حتى الآن يقطعون طريقهم بكل اتحاد وتعاون وإخلاص، وهذه الجواهر الأخلاقية تظهر في الجالية الضعيفة والمظلومة في أغلب الأحيان، ولكن بعد مجيء الثروة ظهر فيهم الطمع والحرص والتفرقة والاختلاف والمصالح الشخصية بدلاً من هذه الجواهر الأخلاقية، فقد وضع هذا الفتح المفاجئ أصحاب النبي ﷺفي موضع امتحان حرج، وكان هذا الوقت الحرج وقت إبداء رأي الرشد والهداية من أعظم قائد في الدنيا؛ إذ حدث بين المسلمين المنتصرين خلاف في الرأي حول أموال الغنيمة والفدية ومعاملة الأسرى، فكان لابد للرسول ﷺفي هذا الوقت من القيام بعمل مهم. وهنا ركز الرسول ﷺ في الأمر الأول كي لا يفقد المظلوم المنتصر جوهره بعد قوته، فرفض الرسول ﷺاقتراح عمر بن الخطاب(ﷺ) وهو قتل الأسرى، وقبل اقتراح أبى بكر، الذي يطالب فيه بإطلاق سراح الأسرى، بعد أخذ الفدية منهم. وقال الرسول ﷺ: وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: { من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم }، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: { إن تُعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم }، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: { رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً }، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: { رب أشدد

على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} [1] فاقتدى الرسول ﷺ بإبراهيم عليه السلام في طيبة قلبه، واقتدى بعيسى عليه السلام في عطفه وشفقته، وعفا عن هؤلاء الأسرى، وقبل الفدية بدلاً من قتلهم، وأطلق سراحهم،[2] ومن كان فقيرا من بين هؤلاء الأسرى كلفه بتعليم عدد من أطفال المسلمين كي يطلق سراحه. وطلب من صحابته- رضوان الله عليهم- أن يعاملوا هؤلاء الأسرى معاملة حسنة، وكان هذا حال بعض الصحابة، وهو أن يطعم الأسير الرغيف أو الخبز، ويكتفي هو بالتمر.

---

[1] - المستدرك للحاكم ج٣ ص٢١ كتاب المغازي، حيدر آباد دكن.

[2] - وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٣٦٣٤): حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله، قال: « لما كان يوم بدر قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقولون في هؤلاء الأسرى،؟ قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستان بهم لعل الله أن يتوب عليهم، قال: وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم، قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم ناراً، قال: فقال العباس: قطعت رحمك، قال: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً، قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، قال: فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله ليُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: { من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم }، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: { إن تُعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم }، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: { رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً }، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: { رب أشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم } أنتم عالة فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق، قال عبد الله: فقلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليَّ حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال: إلا سهيل بن بيضاء، قال: فأنزل الله عز وجل { لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم } إلى قوله { ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم } ». (يوسف عامر).

ولكن في نظر الوحي الإلهي كان الجانب الأخطر هو وقوع هؤلاء الفقراء فجأة فريسة للحرص والطمع في المال والثروة، وقد حدث هذا بالفعل، فالذين جاءوا بأموال الغنيمة ادعوا بأننا استولينا عليها في الحرب، ولهذا فالمال مالنا، وادعى الشباب المقاتلون: بأن سيوفنا هي التي حققت هذا الفتح، وعليه فنحن أحق بهذا المال، والذين كانوا يحمون الرسولﷺ كانوا يقولون إن مسئوليتنا كانت أشد خطراً، ولهذا يجب أن نحصل على هذا المال[1] ونشأ الخلاف نفسه فيما يتعلق بنسبة مال الفدية كما هو واضح من الآيات الأولى في سورة الأنفال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال : ١) [2].

سئل سيدنا عبادة بن الصامت_رضي الله عنه- ما سبب نزول سورة الأنفال؟ فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النقل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله الله إلى رسول ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء.

وهذا هو التنبيه الإلهي الذي نزل على حكم النبيﷺ، فنزلت هذه الآية:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا

---

[1] - سيرة ابن هشام، ذكر الفي ببدر والأسرى، ج١، ص ٣٩١، مطبعة محمد على.

[2] - ورد فى سنن الترمذي عن سبب نزول هذه الآية هذا الحديث الشريف: (٣١٨٠) ــــ حدثنا أبو كُرَيْبٍ، أخبرنا أَبُو بَكْرِ بنِ عَيَّاشٍ عن عاصِمِ بنِ بَهْدَلَةَ عن مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ عن أبيه، قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ جِئْتُ بِسَيْفٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إنَّ الله قَدْ شَفَى صَدْرِي مِنَ المُشْرِكِينَ أَوْ نَحْوَ هَذا هَبْ لِي هَذا السَّيْفَ، فقالَ: «هَذَا لَيْسَ لِي وَلاَ لَكَ»، فَقُلْتُ: عَسَى أنْ يُعْطَى هَذَا مَنْ لاَ يُبْلِي بَلاَئِي، فجاءَ الرَّسُولُ فَقَالَ «إنَّكَ سَأَلْتَنِي ولَيْسَ لِي وَإنَّهُ قَدْ صَارَ لِي وَهُوَ لَكَ». قالَ: فَنَزَلَتْ: {يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأنفَالِ}. الآية.

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وقد رَوَاهُ سِماك بن حرب عن مُصعَبِ بنِ سَعدٍ أيضاً. وفي البابِ عن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ. كما نقله السيوطي أيضا فى أسباب النزول. (يوسف عامر).

أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال ٦٧:٦٩)

ليس هذا فحسب، بل واسى الله تعالى فيما بعد هؤلاء الأسرى الذين كانت تؤخذ منهم الفدية، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٠)

اشتبه هذا الأمر على البعض، وهو أن هذا التنبيه جاء لأخذ الفدية من الأسرى وإطلاق سراحهم دون قتلهم، في حين أن الواضح هو أن الأسرى الذين واساهم الله تعالى على أخذ الفدية منهم لو اظهروا النية الصالحة فلهم الوعد بالمغفرة، وهذا المال الدنيوي التافه الذي أُخذ منهم منّا أن يعطيهم أحسن منه، وهل كان من الممكن أن يكون قتلهم أقل عقابا من أخذ الفدية؟ والذين أخذت منهم الفدية لو قتلوا ألم يكن يُؤخذ ويُزجر الذين يتولون قتلهم ويُواسى الذين يُقتلون.

على أي حال نفس الغنيمة ومال الفدية الذي قبله الرسول ﷺ قبل نزول الوحي الواضح والصريح والذي نبهه الله عليه وهو في النهاية تم إقراره من الله تعالى في الوقت المناسب حسب الاجتهاد النبوي بأنه مباح وحلال وطيب، وبهذا لم يبق الخطأ خطئا، وجاء الحكم الإلهي عن أموال الغنيمة في نفس الوقت﴿ **كلوا مما غنمتم**﴾ وأذن بأخذ مال الفدية بعد ذلك في الوقت المناسب بهذه الألفاظ "إما منّا بعد وإما فداءً". وسوء الأخلاق الذي كان متوقعا حدوثه بسبب الحرص والطمع في هذه الأموال أزيل للأبد، حيث جعل تشريعاً أبدياً لتوزيعه، وقرر نصيب كل من يستحق.

الواقعة الثالثة:

والواقعة الثالثة هي أن الرسول ﷺ كان خارجاً في غزوة تبوك، التي كانت تحتاج إلى جمع غفير من المسلمين، لأن المواجهة كانت مع جيوش الروم المدربة، وكانت هذه أول مواجهة للمسلمين مع إمبراطورية منظمة ومدربة، وكان الحر شديد. خرج جيش المسلمين المكون من ثلاثين ألفا، ولكن تخلف عدد من المسلمين المخلصين لعذر، وتخلف كثير من المنافقين عمداً وبدون عذر، وحين

رجع الرسول ﷺ من الغزوة، بدأ المنافقون الآثمون المثول أمام النبي ﷺ يحلفون كذباً ويقدمون أعذارهم، ولم يكذبهم النبي ﷺ، ورحمة بهم عفا عنهم، فجاء التنبيه الإلهي على هذا الفعل:

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة:٤٣)

بيّن أن الرسول ﷺلم يكن عالماً بالغيب، ولم يكن على علم بأحوالهم الحقيقية، ولهذا لم يكن أمامه سوى الاعتماد على أقوالهم، وهو ما فعله النبي ﷺ، ولكن علام الغيوب أخبره الحقيقة، وكشف عن كذبهم، وأفشى سرهم، وعلى أي حال لو عدّ هذا العمل خطأً، فهذا كان من باب الشفقة والرحمة.[1].

الواقعة الرابعة:

كان قد أطلع النبي ﷺ بشأن المنافقين على أن استغفاره في حقهم لن يقبل، فكان قد نزل عليهﷺ قول الله تعالى:

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٨٠)

بعد نزول هذا الحكم توفي عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، ولكن ابنه كان مسلماً مخلصاً، فجاء إلى النبي ﷺ هذا الابن يطلب منه أن يصلي على أبيه، والرسولﷺ لشدة جوده وكرمه لم يستطع أن يرفض هذا الطلب، وسيدنا عمر قال في حضرته ﷺ يا رسول الله قد صدر الأمر عن عدم مغفرته، فقال الرسولﷺ :"إنَّما خيَّرني الله فقال: استغفرْ لهم أو لا تَستغفِرْ لهم، إن تستغفِرْ لهم سبعين مرَّةً، وسأزيدُهُ على السبعين."[2]. على أي حال إذا كان قد قيل في الآية

---

[1] – ورد في أسباب النزول للسيوطي: أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدي قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فأنزل الله "عفا الله عنك لم أذنت لهم" (يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٤٥٥٢): حدَّثَنا عُبيدُ بن إسماعيلَ عن أبي أُسامةَ عن عُبيدِ الله عن نافعٍ عنِ ابن عمرَ رضيَ اللَّهُ عنهما قال: «لما تُوُفِّيَ عبدُ الله

السابقة أن استغفار النبيﷺ للمنافقين وعدم استغفاره سواء في عـــدم الفائـــدة [1]، ولكن ليس المنع هنا منعاً قطعياً للاستغفار للمنافقين، ولهذا قام الرســـولﷺ بهـــذا العمل غير المفيد على سبيل الشفقة، حتى لا يكسر خاطر ابن مـــسلم مخلـــص، وتغافل عن الأمر الإلهي، ولكن الله تعالى نبهه على أنه لو كان في هـــذا جبـــر خاطر مسلم مخلص، ولكن عشرات المنافقين يتخذون هذا ذريعة لإخفاء أنفسهم، ويكونون مصدراً للفتن، ولهذا جاء الأمر الإلهي:-

﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة: ٨٤)

الواقعة الخامسة:

تفصيلها هو أن النبيﷺ حرم على نفسه شيئا مباحاً ابتغاء مرضاة بعض أزواجه، وكان هذا الشئ نفسه محبباً للنبيﷺ جداً، وكان قد قرر أنه لن يـــستعمله

بن أبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فـــسأله أن يُعطيـــهُ قميصَه يُكفِّنُ فيه أباه، فأعطاهُ. ثمَّ سألهُ أن يُصلِّيَ عليه، فقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليُصلِّي عليه، فقامَ عمرُ فأخذَ بثوبِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال: يـــا رســـولَ الله، أتُصلِّي عليه وقد نهاك ربُّك أن تُصلِّي عليه؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليـــه وســـلم: إنَّمـــا خيَّرني الله فقال: استغفرْ لهم أو لا تَستغفِرْ لهم، إن تستغفِرْ لهم سبعين مرَّةً، وسأزيدُهُ علـــى السبعين. قال: إنهُ مُنافق. قال: فصلى عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فـــأنزلَ الله {ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً، ولا تَقُم على قبرِه}» (التوبة: ٨٤).(يوسف عامر).

[1] ــ ورد فى أسباب النزول للسيوطي:روى الشيخان عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بـــن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثـــم ســـأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي عليه، فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه وقال: يا رسول الله أ تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين؟ قال: إنما قد خيرني الله فقال: "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة" وسأزيد على السبعين، فقال: إنه منـــافق! فـــصلى عليه، فأنزل الله " ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره" فترك الصلاة عليهم. ورد ذلك من حديث عمر وأنس وجابر وغيرهم. (يوسف عامر).

أبداً [1]، والظاهر هو أن كل شئ مباح ليس بواجب تناوله على كل شخص، ويحق له أن يقرر عدم تناوله لسعادته وصالحه، أو يقرر عدم أكله لنيل رضاء شخص ما، ولهذا إن قرر الرسولﷺ عدم تناول شئ يحبه من أجل إرضاء بعض أزواجه، فالواضح أن عمله ﷺ هذا ابتغاء مرضاة أزواجه ليس أمرا مشيناً يتهم به، بل من حيث كونه زوجاً كان جبراً لخاطر، وهذا نوع من العدل والإنصاف مع أزواجه، وهناك وجه آخر لهذه المسألة، وهو أنه ﷺ لكونه نبيا ورسولا إن حرم شيئا حلالاً ومباحاً على نفسه وقرر أنه لن يأكله أبداً ففي اتباعه وإقتدائه إن لم يحرمه عامة الناس على أنفسهم، فهم لا يفضلونه، ومثل هذا العمل سيكون مدعاة للتبديل والتحريف في شرع الله، ولهذا جاء الأمر الإلهي بألاّ تبالي في مثل هذه الأمور جبر خاطر أو بحفاوة أحد:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التحريم: ١)

وفى هذا المقام خاطب الله النبي قائلاً: **﴿يأيها النبي﴾** وهذا يوضح أنك كنت تستطيع عمل هذا كونك إنسانا وزوجاً، ولكنك لا تملك هذا الاختيار لكونك نبيا ورسولا.

خلاصة الأمر أن هذه هي تلك الوقائع الخمس التي ثبت فيها خطأ اجتهاد النبي ﷺ ولكنه اتضح تماماً من التفصيل أن إطلاق الخطأ عليها في الواقع أو الحقيقة ما هو إلا أمر مجازي؛ إذ إن مكانة النبي وعصمته لا تسمحان بهذا الخطأ المجازي، وقد نبه الوحي الإلهي نفسه في كل واقعة من هذه الوقائع، وأرشده إلى حكمه الصحيح- والآن هل هناك من يشك أيضا في هذا السهو الخفيف الذي وقع من النبيﷺ ونبهه عليه الوحي الإلهي، وأصلحه في حينه، وهل من الممكن أن يحدث مثل هذا السهو من النبي ﷺ، وتغفل الحكمة الإلهية التنبيه عليه وتصحيحه، وإن وجد مثل هذا الشك عند أي أحد فهو في الحقيقة بعيد تماماً عن معرفة

---

[1] ــ ورد فى أسباب النزول للسيوطي: أخرج الحاكم والنسائي بسند صحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به حفصة حتى جعلها على نفسه حراما، فأنزل الله " يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك" الآية. (يوسف عامر).

الرسالة والنبوة وحقيقة الدين الإلهي والشريعة الربانية، كما يكون من يشك في هذا بعيدا عن طريق الهداية والرشد مسافة أميال وأميال. ومن المعروف أن سبب بعثة الرسل هو إرشاد الضالين من الناس، وإخراجهم من الضلال، وتعليمهم الحق والصواب، وليس الغرض من هذه البعثة- والعياذ بالله- هو المزيد من الضلالة بدلاً من الهداية والرشد، ولهذا مستحيل أن يصدر عن أيدى الرسل وألسنتهم أمر يناقض الحكمة الإلهية، ويتغافل الله تعالى عن تصحيحه، ويترك الناس كي يضلوا عن طريق أنبيائه.

إن الاجتهاد النبوي ما هو إلا كوثر من علم تفيض تياراته من ينبوع القلب، وليس من الدماغ، كما أنه لا يأتي من التجربة والخبرة الإنسانية والرأي الإنساني، وإنما هو مستمد تماما من الإلهام الإلهي، والإلقاء الرباني، والحكمة الإلهية، ومأخوذ من فهم الرسالة بل النبوة. وعن هذا يقول حامى أسرار الشريعة الفاروق عمر رضي الله عنه، وهو على المنبر:

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرَّأْيَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مُصِيباً لأَنَّ الله كَانَ يُرِيهُ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَّا الظَّنُّ وَالتَّكَلُّفُ» (أبو داود كتاب الأقضية)(١)

فالرأي النبوي الذي أقيم بهدي وإراءة الله معلوم بأنه بمثابة وبمنزلة الوحي، واسمه ليس اجتهاداً بشريا أو رأيا إنسانيا، وإنما هو اجتهاد نبوي، ورأي نبوي، وهو في الحقيقة في مرتبة الوحي الإلهي والكلام الرباني. وكل ما قاله سيدنا عمر -رضى الله عنه- في خطبته هذه، هو في الحقيقة مستنبط من كلام الله المنزل، فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ (النساء:١٠٥)

---

١ - وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود، كتاب الأقضية: (٣٥٨٧): حدثنا سُلَيْمَانُ بنُ دَاوُدَ المَهْرِيُّ قالَ أَنْبأَنَا ابنُ وَهْبٍ عن يُونُسَ بنِ يَزِيدَ عن ابنِ شِهَابٍ أَنَّ عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ، قالَ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ: « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرَّأْيَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مُصِيباً لأَنَّ الله كَانَ يُرِيَهُ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَّا الظَّنُّ وَالتَّكَلُّفُ».(يوسف عامر).

اتضح من هذا أن ما كان يُرى للرسول ويُوجه إليه، ويُساقه له الرأي كان كله من قبل الله تعالى، وهذا هو الرأي النبوي، الذي قال عنه الرسول ﷺ نفسه: « **إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِرَأْيِي فِيمَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهِ**». (أبو داود الأقضية)[1] ولو أن هذا الرأي كان خاطئاً، لنبه الوحي الإلهي عليه حين صدوره مباشرة، وهداه إلى الطريق المستقيم كما هو بيّن من الوقائع الخمس السابقة.

استدلال خاطئ

يثبت من هذه الآية الكريمة المذكورة سابقاً أيضا أن في حكم الدعاوى والقضايا كانت تحدث له ﷺ الإراءة الإلهية، أي كان يأتي إلى الرسول ﷺ التوجيه من الله سبحانه وتعالى، والظاهر أن هذه الإراءة كانت تعني أن يحكم حسب الكتاب الإلهي، فلا يمكن أن يكون هذا القضاء والحكم مبنيا على الخطأ، ولكن ورد في سنن أبى داود وغيرها من السنن حديث جاء فيه أن الرسول ﷺ قال لأهل قضية:

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُم أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بشيء فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنَّمَا أَقْطَعَ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ» [2] (كتاب الأقضية)

وبناء على هذا يمكن لمن يسئ الفهم أن يستدل بهذا على أن أحكام الرسول ﷺ ما كانت دائماً معصومة من الخطأ، ولذا فإن الأمة ليست مجبرة على

---

[1] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود، كتاب الأقضية: (٣٥٨٦): حدثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الرَّازِيُّ أَنْبَأَنَا عِيسَى أخبرنا أُسَامَةُ عن عَبْدِ الله بن رَافِعٍ قال سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، بِهَذَا الْحَدِيثِ قال: « يَخْتَصِمَانِ فِي مَوَارِيثَ وَأَشْيَاءَ قَدْ دَرَسَتْ فَقَالَ إِنِّي إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِرَأْيِي فِيمَا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهِ».(يوسف عامر).

[2] – حديث متفق عليه من حديث أم سلمة، ورواه أيضا مالك والترمذي وأبو داود، انظر جامع الأصول ١٠-٥٥٣ رقم ٧٦٥٥ وهذا نص الحديث في سنن أبي داود، كتاب الأقضية: (٣٥٨٤): حدثنا مُحَمَّدُ بنُ كَثِيرٍ أنبأنا سُفْيَانُ عن هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ عن عُرْوَةَ عن زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، قالَتْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُم أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَيْءٍ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنَّمَا أَقْطَعَ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ». (يوسف عامر)

اتباع أحكامه وقضائه، ومثل هذا الرأي مبنى على الخطأ الصريح، فالحقيقة أن في الدعاوى والقضايا يوجد أمران أساسيان: الأول هو السرد الحقيقي للقضية، والذي يُبينه كل من المدعى والمدعى عليه بأسلوبه وطريقته حسب دعواه. والأمر الثاني هو الحكم الصحيح والقضاء العادل اللذان يكونان مبنيين على تصريحات وأقوال المدعى والمدعى عليه، والتي قدمت أمام القاضي مع البينة والشهود.

إن أمر السرد الحقيقي للقضية أو الواقعة، ومن الصادق المدعى أم المدعى عليه يتعلق بالغيب، ولم يدع أي نبي علمه بالغيب، وإن وجدت هذه الدعوى فيسلم بأن العلم الشخصي والذاتي للقاضي لا يمكن أن يكون أساساً للقضاء بين شخصين،ولهذا لابد من البينة والشهادة والأدلة من الفريقين، حتى يستفاد منها ويصدر الحكم بناء عليها. ويتضح من حديث الرسول ﷺأنه لم يمنح علم الغيب فيما يتعلق بالأمر الأول عموماً، ولكن الأمر الثاني أي السرد الذي عدّه الرسول ﷺ صحيحاً، فحكمه ﷺ عن هذا كان أحيانا غير صحيح وعادل، ومثل هذا القول إهانة للرسول والنبي، وخلافاً للإراءة الإلهية، التي كان الرسول ﷺ يشرف بهدايتها في الفصل في القضايا، ولهذا فالخطأ الذي كان يمكن أن يقع منهﷺ في الفصل في القضايا، كان نتيجة للبينة والشهادة والأدلة التي سمعها من كلا الفريقين، ثم أصدر حكمه صحيحاً كان أم خاطئاً في ضوء هذه الأدلة، ولكن ما عدّه الرسولﷺ صحيحاً، وحكم فيه حكماً لم يحدث فيه خطأ قط،ولا يمكن أن يحدث، والأمة تقتدي بهﷺ في هذه الأحكام والقضايا التي وقع فيها الخطأ، وليس في قبول صحة أو خطأ الوقائع والدعاوى السابقة فشتان بينهما.

والحكمة العلمية في إعلان النبي ﷺ هذا هي أنه لعل أحد الفريقين بناء على بيان كاذب أوباطل وقت تقديم قضيته يحصل من محكمته ﷺحكماً لصالحه، فبالرغم من أنه كان يعرف جيداً بأن هذا الشئ ليس من حقه، ولكن الآن بعدما حكمت المحكمة النبوية في حقي ثبتت ملكيته لي، وبهذا برأت من إثم اغتصاب الحق، فهذا الاعتبار لا يكون صحيحاً على الرغم من تنفيذه شرعاً، ولكن من كان عند الله على الحق لا يزال قائماً على الحق، ومن كان على الباطل سيظل باطلاً، ومن كان مالكاً أصلياً، فهو يظل مالكاً، والغاصب يظل غاصباً، وكان من أثر هذا

الإعلان أنه حين أخبر النبي ﷺ الفريقين في قضية ما بهذه الحقيقة بكا الاثنان، واستعد كل منهما للتنازل في حقه للآخر. (أبو داود كتاب الأقضية)[1]

إن الأحكام التي كان يصدرها الرسول ﷺ فيما يعرض عليه من قضايا كانت كلها عادلة وصحيحة، وعدم اتباعها كفر ونفاق، ولهذا قال الحق تبارك وتعالى:

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥)

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً﴾ (الأحزاب :٣٦)

هل من الممكن أن تؤمر الأمة من الله تعالى أمرا مؤكداً بطاعة رسولها طاعة لازمة، وتقبل أحكامه وتنفذ دون تقصير، مع أن هذه الأحكام-والعياذ بالله- مبنية على باطل؟ لايمكن أن يحدث هذا أبدا على الإطلاق، ولهذا جاء في آية أخرى تصريح واضح، وهو أن أي حكم من أحكامه ﷺ لا يمكن أن يكون ظلماً أو خطأ.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِه لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (النور٤٨:٥٠)

العقل البشري

لاشك في أن النبي والرسول يملك نفس العقل البشري كعامة الناس، هذا فضلاً عن اختصاصه بالوحي والموهبة النبوية وخصائص النبوة والرسالة، وبناء

---

[1] -وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في سنن أبي داود، كتاب الأقضية: (٣٥٨٥): حدثنا الربيعُ بنُ نَافِعٍ أَبُو تَوْبَةَ أخبرنا ابنُ المُبَارَكِ عنْ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ عن عَبْدِ الله بن رَافِعٍ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ عن أُمِّ سَلَمَةَ، قالَتْ: «أَتَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم رجُلاَنِ يَخْتَصِمَانِ في مَوَارِيثَ لَهُمَا لَمْ تَكُنْ لَهُمَا بَيِّنَةٌ إلاَّ دَعْوَاهُمَا، فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ مِثْلَهُ. فَبَكَى الرَّجُلاَنِ وَقالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَقِّي لَكَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: أَمَّا إذَا فَعَلْتُمَا مَا فَعَلْتُمَا فَاقْتَسِمَا وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَهِمَا ثُمَّ تَحَالاَّ». (يوسف عامر)

على هذا العقل البشرى يمكن احتمال الخطأ الاجتهادي في أي وقت. ويرى شاه ولي الله الدهلوي أن هذا هو القسم الثاني للاجتهاد، والذي يمكن أن يكون فيه الاجتهاد النبوي خاطئاً، وهذا القسم لا يجب اتباعه على أمته. وخير مثال لهذا واقعة زراعة النخيل، ففي صحيح الإمام مسلم أن النبي ﷺ مر ببعض بساتين المدينة المنورة، فرأى بعض الناس وهم فوق أشجار النخيل يعملون شيئا، فسأل النبيﷺ عمّ يعمل هؤلاء؟ فقال واحد ممن كانوا معهﷺ إن هؤلاء يلقحون النخل، فينشرون أزهار النخل الذكر على الأنثى منه، حتى تثمر بكثرة، فقال الرسولﷺ إنني أرى أن هذا العمل لا يفيد في شئ، وفى رواية أخرى جاء أن الرسولﷺ قال: لو لم يفعلوا هذا لكان أفضل. وذهب هذا الرجل الذي كان معهﷺ إلى أصحاب البستان، وأخبرهم بكلام الرسولﷺ هذا، فعمل أصحابه الذين كانوا يطيعونه في كل صغيرة وكبيرة برأيه، وتركوا عملية التلقيح هذه. فكانت النتيجة أن قل الثمار والإنتاج عن العام الماضي. ومر الرسولﷺ مرة أخرى بهم، فعرضوا عليهﷺ الحال الذي آل إليهم، فقال الرسولﷺ " إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ. فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا. فَلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ.، ثم قال ﷺ «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ. وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» [1] وفى رواية أخرى وردت هذه الجملة «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ». [2] وجاء في رواية ثالثة "فَإِنِّي

---

[1] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٦٠٨٠): حدثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ الرُّومِيِّ الْيَمَامِيُّ وَ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ الْعَنْبَرِيُّ وَ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ الْمَعْقِرِيُّ. قَالُوا: حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ. حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ وَهُوَ ابْنُ عَمَّارٍ. حَدَّثَنَا أَبُو النَّجَاشِيِّ. حَدَّثَنِي رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، قَالَ: قَدِمَ نَبِيُّ اللّهِ الْمَدِينَةَ. وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ. يَقُولُونَ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ. فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْراً» فَتَرَكُوهُ. فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ. قَالَ: فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ. وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ». قَالَ عِكْرِمَةُ: أَوْ نَحْوَ هَذَا. قَالَ الْمَعْقِرِيُّ: فَنَفَضَتْ. وَلَمْ يَشُكَّ.(يوسف عامر)

[2] – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٦٠٨١): حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ عَمْرٌو النَّاقِدُ. كِلاَهُمَا عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ عَامِرٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ. وَعَنْ ثَابِتٍ. عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ مَرَّ

إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا. فَلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ. وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللّهِ شَيْئاً، فَخُذُوا بِهِ. فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَىٰ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ». (١)

في هذه الروايات الثلاث عبر الرسول ﷺ عن كلامه هذا بالظن والرأي والأمر الدنيوي، ويتضح من هذه الكلية، وهي أن ما يتعلق بأمور الدين والشريعة واجب الإتباع والإقتداء، فهي من الله سبحانه وتعالى. ولكن ما يتعلق بالزراعة والعلاج والدواء وغيرها من الأمور الدنيوية المحضة فما قاله الرسول ﷺ بشأنها، يُعد من باب الرأي والمشورة فقط. وهذا هو السبب في أن أصحابه حين كانوا يريدون المشورة عليه ﷺ كانوا يسألونه ﷺ قائلين: يا رسول الله! هل هذا وحي أم رأي؟ فحين كان الرسول ﷺ يقول أنه من رأي فكانوا يقدمون له مشورتهم، وكان ﷺ يقبلها إن رآها سديدة، ففي غزوة بدر أراد الرسول ﷺ أن ينزل بجيشه في مكان ما، فجاء صحابي (٢)، وعرض عليه قائلاً: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول ﷺ بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال الصحابي: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا، فنملأه ماء، ثم نقاتل

بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ. فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ» قَالَ: فَخَرَجَ شِيصاً. فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «مَا لِنَخْلِكُمْ؟» قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ». (يوسف عامر).

١ – وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح مسلم: (٦٠٧٩): حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّقَفِيُّ وَ أَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ. وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ. وَهٰذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ مُوسَىٰ بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ،. قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللّهِ بِقَوْمٍ عَلَىٰ رُؤُوسِ النَّخْلِ. فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هٰؤُلاَءِ؟» فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ. يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنْثَىٰ فَتَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذٰلِكَ شَيْئاً» قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذٰلِكَ فَتَرَكُوهُ. فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللّهِ بِذٰلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذٰلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ. فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا. فَلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ. وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللّهِ شَيْئاً، فَخُذُوا بِهِ. فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَىٰ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ». وردت هذه الروايات الثلاث في صحيح مسلم باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ذكره ﷺ من معائش الدنيا على سبيل الرأي. ج ٢ ص٣٠٥، مصر، و٢٦٤ طبعة كراتشي.

٢ ــ الحباب بن المنذر. (يوسف عامر).

القوم، فنشرب ولا يشربون. أعجب الرسول ﷺ بهذا الرأي، فقبله وعمل به. كما أخذ الرسول ﷺالمشورة من أصحابه في أمور أخرى من أمور الحرب والصلح والحكومة، وعمل بمشورتهم، بل هذا هو ما أمره به الله تعالى﴿ **وشاورهم في الأمر**﴾ (آل عمران: ١٥٩) أي شاور أصحابك في أمور الحكومة والأمور العامة. وبناء على هذا عمل الرسول (ﷺ)برأي سلمان الفارسي في غزوة الخندق أو الأحزاب وهو حفر الخندق، ولكن هناك بعض الأمور المتعلقة بالحرب والسياسة أيضا، والتي كان قد أُمر بها الرسولﷺ عن طريق الوحي أو جاء الحكم عن طريق الفهم والحدس النبوي، فلم يستشر فيها أحداً ولم يقبل مشورة أحد فيها. مثل صلح الحديبية الذي كانت شروطه جميعها وبنوده مبنية على المصلحة الإلهية والحكمة الربانية، وكم حاول عمر والصحابة الآخرون التعديل فيها، ولم يلتفت الرسول ﷺ إليهم، وفى النهاية أثبتت الأيام ـ فيما بعد ـ أن حدس النبي كان صحيحاً تماماً.كما أنه ﷺ لم يأخذ بمشورة عبد الله بن أُبي في غزوة أحد بأن تكون الحرب داخل المدينة المنورة، واحتمل ﷺ رجوع عبد الله بن أبي (رأس المنافقين) مع ثلاث مائة رجل في الوقت الحرج، وأثبت الأيام فيما بعد أن هذا كان مصلحة إلهية.

وبتأمل عقلي بسيط يتبين لنا أن كل صاحب فن يكون له عقلان، عقل يتعلق بهذا الفن، ويودُع فيه استعداد لهذا الفن، ثم يزداد رفعة ومتانة وقوة بكثرة التدريب والتعليم والتربية والعمل، حتى يستطيع هذا العقل أن يحل أصعب مشاكل هذا الفن ودقائقه، وتنقل الرموز والعقد بإشارته، ولكن العقل الثاني الذي يكون خارج هذا الإطار هو عقل عادي مثل عامة الناس، فالشخص الذي يملك عقلاً غير عادي في فن العمارة والهندسة من الممكن جداً أن يكون عقله أقل درجة من الناس العاديين في زراعة النخل، والفلسفي الذي يحدد بثاقب عقله وفكره أخطاء أفلاطون وأرسطو، فى الوقت نفسه يكون هذا الفلسفي أقل من عامل بسيط وعادي في فن العمارة والهندسة، وهذه الأمثلة ماثلة أمام الإنسان في كل وقت، والإنسان الصالح أيضا والذي يملك عقلاً نافذ البصيرة، وهو بعيد النظر في أسرار الروح وحقائق المعرفة الربانية، وفى رموز أخلاقه تزكية النفس وآداب المعاملة وفى

مسائل الحقوق والشريعة، وفى الوقت نفسه ليست لــه درايــة بــأمور العمــارة والزراعة، ولا عجب في هذا.

وكذلك الأنبياء ــ عليهم السلام ــ كل ما يقولونــه فــي أمــور الــدين والشريعة عن طريق الوحي والموهبة النبوية هو المصلحة نفسها والحكمة بعينها، ومعصوم عن الخطأ في الوقت نفسه، ولكن الأمور الأخرى مثل الملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والسلطنة والسياسة والتنظـيم والإدارة والــسلم والحــرب، والصناعة والحرفة، والطب والعلاج وغيرها من الأمور الدنيوية فهــم -علــيهم السلام- يبينون مصالحها ويتجنبون تفاصيل جزيئاتها، ولا يلزمون المسلمين بحكم قطعي بشأنها، فعلى سبيل المثال بينوا ثلاثة أمور عن الملبس: الأول ألاّ يُختــار ملبس ليس فيه ستر العورة، والثاني ألا يختار الرجال ملبساً يشبه ملبس النــساء، وألا تختار النساء ملبساً يشبه ملبس الرجال، والأمر الثالث هو أن الملبس الــذي يبدو فيه الكبر والغرور فهو غير محبب. أما في المأكل والمشرب فلــيس هنــاك سوى عدد محدود جداً من المحرمات. وفى التنظـيم والإرادة، وأنظمــة الحكــم والسلطنة فبينوا عدداً من الأصول الكلية منها ألاّ تكون الحكومة إمبراطورية ولا ظالمة، وأن يكون العدل والمساواة بين الناس هو أساس الحكم، وأن يلتزم بمبــدأ أخذ الشورى في الأمور الهامة من أهل الحل والعقد، وقس على هذا.

خلاصة القول هو أن هذه هي الأمور التي يطرأ فيها التغير والتبديل مع مرور الزمن وتقدم الحضارة، ولهذا فإن تحديدها وتقييدها للأبد ضــد المــصلحة الإلهية.

الدليل الشرعي للموهبة النبوية أو العقل النبوي

اتضح لنا مما سبق أن في النبي ثلاث درجات للعلم والفهم وهي الــوحي والموهبة النبوية والعقل البشري، وليس هناك حاجة إلى أي استدلال على إثبــات الأول والأخر، لأنهما أولاً من الكليات والمسلمات، وثانيا تحــدثنا عنهمــا فــي الصفحات السابقة بشكل مستقل، ولكننا لم نقدم بعد أي دليل شرعي على الدرجــة الثانية وهي الموهبة النبوية، فأول أمر في هذا الموضوع والذي أريد الحديث عنه هو أن العلماء الذين بينوا وأظهروا حقيقتها، فقد أقاموا لها مصطلحات مختلفة كل

على حدة وحسب مزاجه، ولكن هذه المصطلحات كلها واحدة في الحقيقة من ناحية المفهوم والمعنى، عبر بعض السلف الصالح عنها "بإلقاء الروع" و"بالحكمة القلبية للنبي"، و"بالتوفيق الأزلي"، و"بقوة التبيين" ([1]) وعبر عنها الإمام الغزالي، والإمام الرازي وبعض علماء الكلام الآخرين "بملكة النبوة"، وأطلق عليها شاه ولي الله وعلماء الأصول مصطلح "قوة الاجتهاد النبوية"، وفي مصطلح المتصوفين العام يطلق عليها "العلم اللدني"، ولكن هذه المصطلحات كلها تحمل معنى واحداً تقريباً، وهو القوة العقلية النبوية الموجودة داخل النبي، وهذه القوة تتفوق على العقل البشري، وعن طريقها يوضح النبي بلسانه شرح الوحي، ويبين أسرار الشريعة، ودقائق الحكمة.

اقرأ قائمة النعم الربانية للأنبياء الكرام، والتي ذكرها القرآن الكريم في أكثر من موضع، وفى قائمة هذه النعم الشئ الذي نراه بعد نعمة الوحي الخاصة هو علم النبوة، الذي أطلق عليه في موضع ما "الذكر"، وفى موضع آخر "الحكم" وفى موضع ثالث "الحكمة"، وفى موضع رابع "شرح الصدر" وفى موضع خامس "التفهيم"، وفى سادس "التعليم"، وفى موضع سابع "الإزاءة"، وكل هذه المصطلحات المختلفة ليس لها معنى أو مدلول سوى أنها تندرج تحت مسمى الوحي، وفوق العقل البشري، وهذا هو ما يطلق عليه العقل النبوي. ولا يقصد به الوحي؛ لأن ذكره يكون منفصلاً عن الوحي، ولا يُعنى به العقل البشري؛ لأن العقل البشري لا يعد نعمة خاصة للنبي، فهو مقسم بين الناس جميعاً بنسب مختلفة، وعليه فلا يمكن أن يراد به إلا العقل النبوي والحكمة النبوية.

الحكمة

إن من النعم التي أنعم بها الله تعالى على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ نعمة خاصة يأتي ذكرها في القرآن الكريم دائماً وهى الحكمة، والمنة، والفضل، الذي أتاه الله تعالى آل إبراهيم عليه السلام، ويذكره الله تعالى في هذه الآيات الكريمة:

١ – ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء:٥٤)

[1] – وردت هذه المصطلحات جميعها فى كتاب الرسالة للشافعي.

وعن لقمان عليه السلام يقول الله تعالى:

٢-﴿ ولَقد ءَاتَينَا لُقَمانَ ٱلحِكَمةَ﴾ (لقمان:١٢)

وجاء في شأن داود عليه السلام:

٣- ﴿ وَشَددنَا مُلكَهُ وَءاتَيناَهُ ٱلحكمَةَ وَفَصلَ ٱلخطَابِ﴾ (ص: ٢٠)

٤- ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءاتَاهُ ٱلله ٱلمُلـكَ وَٱلحكمـةَ وَعَلَّمـهُ ممَّـا يَـشاَءُ﴾ (البقرة:٢٥١)

ويقول عيسى عليه السلام:

٥- ﴿ قَد جِئتكُم بِالحكُمة وَلأبَينّ لكُم بَعضَ الذي تخَتلفُونَ فيهِ.﴾ (الزخرف:٦٣)

والله تعالى نفسه يمن على عيسى عليه السلام قائلاً:

٦- ﴿ وَإذ عَلَّمتُكَ ٱلكتَبَ وَٱلحكمةَ وَٱلتَّورَاة وَالإنجِيلَ.﴾ (المائدة:١١٠)

وجاء عن الأنبياء بصفة عامة:

٧- ﴿ وَإذ أخَذَ ٱلله ميثَاقَ النبيـين لمَـا ءاتَيـتكُم مّـن كَتـبِ وَحِكمَـةِ.﴾ (آل عمران:٨١)

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا الله تعالى ليبعث النبي محمداًﷺ.

٨- ﴿ رَبنَّا وَٱبعَث فِيهم رَسُولاً مّنهُم يَتلُواْ عَلَيهِم آياتك وَيُعلّمُهُمُ ٱلكتَبَ وَٱلحكمَةَ وَيُزَكّيهِم إنَّكَ أنتَ ٱلعَزيُز ٱلحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٩)

واستجاب الله لدعائه:

٩- ﴿ كمَا أرسَلناَ فِيكُم رَسُولاً مّنكُم يَتلُواْ عَلَيكُم ءايَتنَا وَيزَكّيكُم وَيُعلمُكُمُ ٱلكتَـبَ وَٱلحكمَةَ وَيَعلّمُكُم مَّالمَ تكُونُواْ تَعلمُونَ﴾ (البقرة:١٥١)

مَنّ الله تعالى علينا في سورة آل عمران بأنه تعالى استجاب دعوة إبراهيم بشأن بعثة النبي محمد ﷺ:

١٠- ﴿ لَقَد مَنَّ ٱلله عَلَى ٱلمؤمنينَ إذ بَعَث فَيهم رَسُولاً مّن أنفُسهِم يتَلُواْ عَلَيهم آياته وَيُزَكّيهِم وَيُعَلّمهُم ٱلكتَبَ وَٱلحكمَةَ وَإن كَانُواْ مِن قَبلَ لفي ضَلَلِ مُّبينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤)

ويكرر الله تعالى فضله هذا ثانية في سورة (الجمعة:١١) ﴿ هُوَ الَّذي بَعثَ في ٱلأمِيّن رَسُولاً مّنهُم يتلُواْ عَلَيهم آياته وَيُزَكّيهِم وَيُعَلّمهُمُ ٱلكتبَ وَٱلحكمَةَ وَإن كَانُواْ مِن قَبلُ لفي ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢)

وخاطب الله الرسول محمدا ﷺ نفسه، وأظهر عليه فضله هذا:

١٢- ﴿ وَلَولاَ فَضلُ ٱلله عَليكَ وَرَحمَتُهُ لهمَّت طَّائفَة مّنهُم أن يُضلُوكَ وما يضلون إلا أنفُسهم وَمَا يَضُرونَكَ من شَئٍ وَأنزلَ الله عَلَيكَ ٱلكتَبَ وَٱلحكمَةَ وَعَلَّمكَ مَالم تكُن تَعلم وكَانَ فَضلُ ٱلله عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٣)

ويخاطب الله تعالى الرسول ﷺ قائلاً:

١٣- ﴿ ذَلكَ ممَّا أوحَى إلَيكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلحِكمَةَ.﴾ (الإسراء: ٣٩)

ويخاطب الله تعالى عامة المسلمين:

١٤- ﴿وَٱذكُرواْ نِعمَتَ ٱلله عَلَيكُم وما أنزل عَلَيكُم مّنَ ٱلكتَبِ وَٱلحكمَةِ يَعظُكُم بِه﴾(البقرة:٢٣١)

وخاطب الله أمهات المؤمنين بصفة خاصة:

١٥- ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب:٣٤)

ويعطى الله تعالى هذه النعمة (الحكمة) عامة المسلمين أيضا كل حسب استعداده:

١٦- ﴿ يُؤتِي ٱلحَكمَةَ مَن يشَاءُ وَمَن يُؤتَ ٱلحِكمَةَ فَقَد أوتِى خَيرًا كَثيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩)

ويؤمر المسلم باستخدامها في الدعوة الإسلامية:

١٧- ﴿ ٱدعُ إلى سَبيلِ رَبّكَ بِٱلحكمَة وَٱلموَعظَة ٱلحسَنَة وَجَادلهمُ بالتي هي أحسَنُ﴾ (النحل:١٢٥)

وفى أحد المواضع عُبر عن أحداث القيامة بلفظ الحكمة:

١٨- ﴿ ولَقَد جَاءهُم مّنَ الأنبَاءِ مَا فيهِ مُزدَجَر. حِكمَة بَلغَة فَمَا تُغنِ ٱلنُّذرُ﴾ (القمر٤:٥)

في السطور السابقة كتبت جميع الآيات التي وردت فيها كلمة "الحكمة"، وفيها ورد لفظ "الحكمة" أحيانا بمفرده، وأحيانا أخرى ورد بعد لفظ "الكتاب"،

ولفظ الكتاب يحمل معنيين في القرآن الكريم، الأول" الصحيفة الربانية"، وقد ورد بكثرة. والثاني "المكتوب الإلهي" والعلم الإلهي مثل "لولا كتاب من الله سبق"، فالآيات التي ذكرت آنفا، والتي ورد فيها لفظ الكتاب فلا شك فى أن المراد منه الكتاب السماوي والصحيفة الربانية، ويمكنك أن تقول إن المراد من الوحي الكتاب، مثل التوراة والقرآن وغيرها من الكتب، ولكن ما معنى الحكمة في هذه الآيات؟

المعنى اللغوي للحكمة هو القول العاقل والفعل العاقل، ولكن ما المراد منها هنا؟ ومن أجل هذه الدراسة لابد من الرجوع إلى أهل اللغة الثقاة وإلى من عندهم معرفة دقيقة بعلوم القرآن الكريم، كي ننقل أقوالهم ثم نعلق عليها. وأقدم لغوي هو ابن دريد المتوفي٣٢١هـ، ويكتب في كتابه "جمهرة اللغة" عن مفهوم الحكمة:

" فكل كلمة وعظتك أو زجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة وحكم".

(المجلد،٢ص ١٨٦، حيدر آباد).

ويكتب الجوهري إمام اللغة في كتابه "صحاح اللغة":

" الحكمة من العلم والحكيم العالم وصاحب الحكمة والحكيم المتقن للأمور."(ج٢، ص١٧٦، مصر)

وجاء في لسان العرب المبسوط والمسند للغة العرب:

" والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم." (ج١٥، ص٣، مصر)

ويقول الإمام راغب الأصفهاني الماهر في لغة القرآن في كتابه "مفردات القرآن":

" والحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام من الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات."

(ص١٢٦، مصر)

كانت هذه هي تصريحات أئمة اللغة العربية، والآن ننظر في أقوال أولئك الصالحين، الذين كانوا على معرفة تامة باستدلالات القرآن والشريعة وتعبيراتهما

فضلاً عن علم اللغة. وجمع ابن حبّان الأندلسي معظم أقوالهم في تفسيره "البحر المحيط"[1]:

١) قال مالك وأبو رزين: الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى.

٢) وقال مجاهد: الحكم فهم القرآن.

٣) وقال مقاتل: العلم والعمل به لا يكون الرجل حكيما حتى يجمعها.

٤) وقيل: الحكمة القضاء.

٥) وقيل: مالا يعلم إلا من جهة الرسول.

٦) وقال أبو جعفر محمد بن يعقوب: كل صواب من القول ورث فعلاً صحيحاً فهو حكمة.

٧) وقيل وضع الأشياء مواضعها.

٨) وقيل: كل قول وجب فعله.

وكتب الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره الأقوال الآتية:

١- قال (مالك) المعرفة بالدين والفقه في الدين والإتباع له.

٢- قال ابن زيد: الحكمة الدين الذي لا يعرفونه إلا به ﷺ، يعلمهم إياها، قال والحكمة العقل في الدين، وقرأ "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً" وقال يا عيسى "ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل". وقرأ ابن زيد واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها قال لم ينتفع بالآيات حين لم تكن معها حكمة قال والحكمة شئ يجعله الله في القلب نور له به.

٣- عن قتادة: والحكمة أي السنة.

وفي النهاية يُسمعنا الإمام الطبري رأيه:

٤- قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول عندنا في الحكمة أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ والمعرفة بها وما دل

---

[1] - ج١ ص٣٩٣ مطبعة السعادة، مصر. في آية **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩)** (يوسف عامر).

عليه ذلك من نظائره وهو عندي مأخوذ من الحكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل.

واستحسن الإمام الشافعي في كتابه "كتاب الرسالة" قول قتادة، ويكتب:

٥- سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول:- الحكمة سنة رسـول الله ﷺ.(ص٢٢)

كما ينقل الإمام الشافعي في كتابه أقوال بعض العلماء:- "وسنته الحكمة التي في روعه عن الله عز وجل." (ص٢٨)

حين تمعن النظر في أقوال أئمة اللغة وعلماء القرآن الكريم يتضح لك أن كل هذه التعريفات والأقوال ذوات معنى ومفهوم واحد ولكن بعبـارات مختلفـة، وتفاسير متعددة لحقيقة واحدة، والحكمة اسم لحقيقة كاملة للعقل والفهم، والتـي لا يتم التمييز عن طريقها بين الصواب والخطأ، والحق والباطل، والخيـر والـشر بالتأمل والتفكير، وبالدليل والبرهان، وبالتجربة والاستقراء؛ بـل عـن طريـق الكشف، ويكون عمل صاحب الحكمة مطابقا لهذا.

وعلماء أي فن على قسمين: الأول من يتعلمـون الفـن بـشكل مـنظم وأصولي، ويتدربون عليه، ويصلون فيه إلى درجة الكمـال والمهـارة. والقـسم الثاني: يدخل فيه أولئك الذين يملكون استعداداً فطريا لهذا الفن وغيـره، وبـدون خبرة ودليل يعطون الرأي الصائب والسديد في أي شـيء يتعلـق بهـذا الفـن، ويسدون برأيهم هذا عن طريق موهبتهم الفطرية، ووجدانهم الصحيح، وذوقهـم السليم، ويصدق هذا الرأي حرفاً حرفاً، وهذا هو مـا يطلـق عليـه "الوجـدان الصحيح" و"الذوق السليم". وفي فن قرض الشعر والأدب والفنون الجميلة الأخرى تستطيع أن ترى وتسمع أمثلة كثيرة عن هذا القسم. كما يوجد في أناس الوجـدان الصحيح والذوق السليم للتمييز بين الحق والباطل في مختلف الأمور، والتعـرف على مناحي الخير والشر في مختلف الأفعال، فهؤلاء الـذين منحـوا الوجـدان الصحيح والذوق السليم يسدون برأيهم الصائب في أدق المسائل معتمـدين علـى ذوقهم الرباني، ووجدانهم الوهبي، وعامة الناس لا يمكن لهم أن يسدوا بمثل هذا الرأي، حتى بعد الاطلاع الواسع والتأمل والتفكير، وهذا هو النـور والمعرفـة

الإلهية، التي لا يمكن نيلها بالسعي والجهد، وإنما عن طريق العطاء والهبة، وهذا هو ما يسمى بـــ "الحكمة".

وكما أن الجميع متفاوتون في استعداد التفــوق فـــي اللغـــات الأخـــرى والمواهب الفطرية، فإن نعمة الحكمة أيضا يتفاوت فيها الناس، ويرتقى الواحـــد منهم من الحكمة العادية إلى الحكمة العالية، ويحصل الناس على درجات الحكمة المختلفة، أما الدرجة والمنزلة الرفيعة لهذه الحكمة لا ينالها أحد سوى الأنبيـــاء- عليهم السلام-

وجدير بالذكر هنا أنه كما تطلق الحكمة على هذا العطاء الرباني، والفهم السماوي، والعقل الديني، والقوة النورانية، تطلق هذه الكلمة على آثار هذه القـــوة ونتائجها وتعاليمها أيضا. وبناء على هذا فالآية الثانية التي يوجد فيهـــا تـــصريح بإعطاء لقمان عليه السلام الحكمة ذُكر بعدها مباشرة التعاليم التالية لهذه الحكمة اللقمانية:

تأدية الشكر لله تعالى، والأمر بترك الشرك، وخدمة الوالدين، والاقتـــداء بالصالحين، ومعرفة الله تعالى معرفة كاملة، والأمر بإقامة الـــصلاة والـــصبر، والنهي عن الكبر والغرور، واختيار الوسطية، والتحدث بصوت منخفض، وفـــي الآية الثالثة عشر ذُكرت التعاليم الآتية لتعاليم الحكمة المحمديـــة: النهـــي عـــن الشرك، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، والمعاملة الحسنة مع الأقرباء والمساكين، والبعد عن الإسراف، والتحدث باللين، والاعتدال، والتنديد بقتل الأولاد، وعدم قتل النفس، والأمر بالقصاص، وحسن المعاملة مع اليتيم، وإيفـــاء العهـــد، والكيـــل والميزان جيداً، وعدم اتباع الأمور المجهولة، والنهي عن الكبر والغرور، وبعـــد ذكر هذه الأمور كلها يقول تعالى:

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ (الإسراء: ٣٩)

وبهذا التفصيل في بعض الأمور المتعلقة بالحكمة يتضح مظاهر الحكمـــة ونتائجها. وهي تلك الأمور المعترف بصدقها ونقائها عالمياً، وتسلم بها الفطـــرة الإنسانية والحس الأخلاقي، وهذا هو السبب في إطلاق الحكمة على الزبور فـــي الآية الثالثة والرابعة، وعلى الإنجيل في الآيـــة الخامـــسة والـــسادسة؛ إذ إنهمـــا يحتويان على مثل هذه النصائح والتعاليم التي تمس القلب، ويُعتـــرف بـــصدقها

عالميا. ووصف القرآن الكريم نفسه "بالقرآن الحكيم" ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (لقمان:٢) (يونس:١)، ﴿وَالْقُرآنِ الْحَكِيمِ﴾ (يس:٢)، ﴿والذكر الحكيم﴾ (آل عمران، ٥٨) . ويتضح من هذه الآيات أيضا أن الوحي الإلهي نفسه يضم بداخله أحيانا بعض التعاليم المهمة للحكمة، ويعطرها (بصفة الوحي الإلهي). ويحصل الأنبياء جميعاً على هذه الحكمة مع الكتاب الإلهي. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيينَ لمَا آتَيتكُم مّن كتَابٍ وَحِكمَةٍ﴾ (آل عمران :٨١)

على أية حال كان الأنبياء-عليهم السلام- قد نالوا قوة الحكمة على وجه تام، ونتج عن هذا أن كل أقوالهم كانت مبنية على الكياسة والحكمة، وكل أفعالهم كانت تقوم على الفطانة والنباهة، ولما كانوا -عليهم السلام- يتمتعون بقوة الحكمة فقد ظهرت نتائجها في كل أقوالهم وأفعالهم، وليس أمامنا بد سوى الاعتراف بها والإقرار بها، بل يجب أن نؤمن بها، ونعمل بموجبها. وجاء في الآية الخامسة عشر ﴿وَأذكُرنَ مَا يتُلَى في بُيوتكُنَّ من آيَاتِ الله وَالحكمَةِ﴾ (الأحزاب :٣٤)

فضلاً عن آيات الله تعالى أي حكمة أمرت أمهات المؤمنين بذكرها؟ يقينا هي أحاديث محمد ﷺ نفسها، التي كانت مبنية على العقل والحكمة. وهذه الأحاديث متعلقة بالدين، لذا هناك أمر وإقرار بذكرها دائماً. كما جاء في الآيات الثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشر في وصف النبى محمد ﷺ ﴿وَيُعلّمهُمُ الكتَابَ وَالحكمَةَ﴾ (الجمعة :٢)

أي حكمة كان الرسول محمد ﷺ يعلمها للناس بعد كتاب الله؟ الظاهر أنها حكمته هو ﷺ، فالحكمة التي كان يعلمها الرسول ﷺ كانت نفسها موجودة في داخله ﷺ، لأنه إن لم يكن لديه هذا الشيء فكيف يمنحه للآخرين؟ ولما كانت هذه القوة موجودة لديه فإن آثارها ونتائجها تتضح في صورة الأقوال والأفعال، التي كان يعلمها الرسول ﷺ، وهدفه من تعليم هذه الأمور الحكيمة هو أن يقتدي بها المسلمون ويعملون بها.

وفي الآية الخامسة يقول عيسى عليه السلام: ﴿قَد جِئتكُم بِالحكمَة وَلأبينَ لكُم بعَضَ الذي تخَتلفُونَ فِيهِ﴾ (الزخرف :٦٣)

يتضح من هذه الآية أن من مقتضيات الحكمة التبيين والتوضيح أيضا، أي شرح وتفصيل لمجمل وذى معنيين، ومسألة مختلف فيها، حتى يبعد الإجمال والاختلاف، ويتضح الهدف الرئيسي. وبناء على هذا شرح عيسى عليه السلام بعض أمور التوراة، التي كان يختلف فيها اليهود، وفصلها، وأزال خطأها. وفي الآية الثانية عشر: **﴿وَلَولا فَضلُ ٱللهِ عَليكَ وَرحمتهُ لهَمَّت طائفَةٌ منهُم أن يُضلُّوكَ وَمَا يُضلُّونَ إلا أنفُسهُم وَمَا يَضرُّونكَ من شئٍ وَأنزلَ الله عَليكَ ٱلكتَابَ وَٱلحكمَةَ وَعَلمكَ مَا لم تَكُن تَعلمُ وكَانَ فَضل ٱلله عَليكَ عَظيماً﴾** (النساء :١١٣)

يتضح من هذه الآيات أن طائفة من المنافقين كانت تريد خداع الرسول ﷺ برأي خاطِئ، ولكن الله تعالى- يبُين أن حيلتهم هذه لم تنجح، وهؤلاء لم يستطيعوا أن يخدعوك(يا محمد)، والسبب في هذا هو أن فضل الله ورحمته عليك عظيمان، وهذا الفضل أو الكرم هو أنه سبحانه أنزل عليك الكتاب والحكمة، ووهبك العلم الذي لم يكن لديك.[1]

ويتضح من هذا أن حمايته ﷺ من الضلال، وعصمته من الخطأ، وعطاء العلم كل هذا ناله الرسول ﷺبسبب الكتاب والحكمة. وجملة القول أن هناك دخل كبير لنعمة الحكمة الربانية بجانب كتاب الله في نيل هذه الحماية والوقاية والعصمة.

فهذه هي الحكمة النبوية، التي كان مصدرها صدر النبي ﷺفقط، ولكن هذا الفيض والكرم يحصل عليه الآخرون أيضا حسب استعدادهم لاقتداء النبي واتباعه، وينتج عن هذا أنهم يفهمون الكلام الصادق والصحيح بيسر وسهولة، ويقبلونه، ويعملون به.

هناك ثلاث وسائل لتبليغ الدعوة الإسلامية، الحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن، وتحتل الحكمة المرتبة الأولى، يقول الله تعالى:

[1] ـ يقول الله تعالى: **﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾** (النساء:١١٣) (يوسف عامر).

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)

إن القول الصادق والصحيح يصل إلى القلب، ويظهر أثره بسرعة بالغة. يقول الله تعالى:

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ (القمر:٥)

وهذه الحكمة أصل كل صلاح وخير، وأي ثروة تفوق هذه الحكمة في هذه الدنيا؟. يقول الله تعالى:

﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (البقرة:٢٦٩)

وفي هذا الشأن أعتقد أنه من المناسب هنا أن أذكر حديثين معروفين وصحيحين، حتى تتضح منهما حقيقة الحكمة، أو على الأقل يظهر منهما معنى هذا اللفظ (الحكمة) في القرن الأول الهجري. فنبينا ﷺ استمع إلى خطبة قالها متحدث، وقدم ثم أخبر ﷺ بأن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرا. وفي حديث قيل عن بعض الأشعار الحكمة، وعن بعض الخطب السحر. ومن هذه المقابلة يتضح أن المفهوم العربي للحكمة أسمى وأرفع من المفهوم الأردي لهذه الكلمة، ولكن كما أن السحر يفوق التصور الإنساني فإن الحكمة في المفهوم العربي تفوق التخيل البشري، وبهذا يمكن الوصول إلى أن الحكمة في اللغة العربية ليست هي الكلمات العادية مثل العقل والفهم وغيرهما، بل لها حقيقة أخرى، وهي أرفع من الكلمات العادية، وفي اللغة الأردية يمكن التعبير عن هذه الحقيقة بإضافة كلمة "الإلهام" أي "الهامى حكمت" الحكمة الإلهامية.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنتينِ: رَجلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فسلَّطَ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، ورَجُلٌ آتاهُ اللّهُ الحكمةَ فهُوَ يَقْضي بها ويُعَلِّمُها»." (الجامع الصحيح للبخاري، كتاب العلم)[1]

---

[1]- وهذا نص الحديث كاملا كما ورد فيس صحيح البخارى: (٧٣): حدَّثنا الحُميدي قال: حدَّثنا سُفيان قال: حدَّثني إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ ــ على غير ما حدَّثناهُ الزُهريُّ ــ قال: سَمعتُ قَيسَ بنَ أبي حازمٍ قال: سمعتُ عبدَ اللّهِ بنَ مَسعودٍ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا

وإن كانت هذه هي درجة الشخص العادي الذي ينال من الحكمة ويحكم بها، ويعلمها للآخرين، ويتخلق بخلق المعلم، فماذا عن الأنبياء عليهم السلام؟ فلاشك أنهم كانوا قد نالوا هذه الثروة بوفرة كبيرة، ونالها أيضا محمد ﷺ ولاشك في هذا، لذا كان لابد من ظهور نتائج هذه الحكمة منه ﷺ، وهي أوامره وتعاليمه، وكلها في الواقع ترجمة عملية وشرح وبيان للوحي الرباني.

تعليم الكتاب والحكمة

مع كل الآيات السابقة الثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة جاءت هذه الآية الكريمة:

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢)

وفي هذه الآيات ورد ذكر لثلاثة أعمال للرسول ﷺ:-

١) تلاوة آيات الله تعالى، وإسماعها للآخرين

٢) تطهيرهم من أنجاس الشرك وإنقاذهم من سوء الأخلاق وتزكيتهم

٣) تعليمهم الكتاب والحكمة.

ويتبادر إلى الذهن هنا سؤال وهو هل الآية الأولى والثالثة تحملان معنى واحداً أم معنيين؟ إن كان لهما معنى واحد فما فائدة هذا التكرار غير المفيد؟ ولماذا لم يوُضع في الموضع الآخر نفس اللفظ الأول وهو"يتلو"، وإن كان لهما معنيان كما يراه ذو البصيرة، فبالتأكيد يوجد هناك فرق ما بين هذين المعنيين. إن كانت فريضة الرسول هي إسماع الآخرين الآيات التي سمعها هو على لسان الوحي -وبهذا تنتهي فريضة دعوته- فلماذا يتم إقرار الفريضة الثالثة له، وهي التي تلي التلاوة، أي تعليمهم دروس الكتاب والحكمة. والظاهر جلياً أن مفهوم التعليم ومعناه أوسع بكثير من معنى التلاوة، وخاصة حين جاء لفظ التعليم بعد التلاوة، وبإسماع نص الوحي تنتهي فريضة التلاوة، ولكن فريضة التعليم باقية لا تنتهي، فمعنى تعليم الكتاب ليس إسماع الآخرين نص الكتاب، وتحفيظه فقط كالتلاوة، بل بعد تلاوة النص القرآني كان عمله ﷺ الأول هو حل معانيه الصعبة،

حَسَدَ إلاّ في اثْنتين: رَجلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فسُلِّطَ على هَلَكَتِه في الحقِّ، ورَجُلٌ آتاهُ اللّهُ الحكمةَ فهُوَ يَقْضي بها ويُعَلِّمُها» (يوسف عامر).

وشرح وتفصيل المعاني المجملة بقوله وفعله، وهذا هو ما يسمى بتعليم الكتـاب والحكمة. وهذه هي فريضته الثانية أو الثالثة، وهذا هو التعليم الذي ورد ذكره في الآيات القرآنية أكثر من مرة. والآن بعد ما اتضح أن شرح وتفسير هذه المطالب والمعاني كان داخلاً في فرائضه النبوية، تأخذ هذه الشروح والتفاسير درجة دينية، ويجب على الأمة العمل بها، وهـذه الـشروح والتفاسـير الـشفوية والعمليـة للنبي ﷺ حفظها الصحابة رضوان الله علـيهم. والتـابعون بعـدهم برواياـتهم وأعمالهم، وهي التي تسمى بالأحاديث والسنة.

وبعد هذا التفصيل أمعن النظر ثانية في معاني الحكمة التي ذكرها أئمـة اللغة وعلماء القرآن، ففي هذه الحالة تتيقن تماما أن جميعها أساليب مختلفة لحقيقة واحدة، وتفاسير متعددة لمعنى واحد، وأقوال وأفعال الرسول ﷺ التـي تـسمى اصطلاحيا "الأحاديث والسنن" هي في الواقع شروح عملية وشفوية للكتاب الإلهي. والكتاب الإلهي نتيجة الوحي الرباني، والأحاديث والسنن هي الحكمة الإلهاميـة للصدر النبوي. وفي هذا المقام لابد لنا أن ننظر في قول الإمام الشافعي:

" وسنته الحكمة التي ألقى في روعه عن الله عز وجل" (كتـاب الرسـالة ص٢٧ مصر)

والمعنى نفسه عبر عنه التابعي مجاهد هكذا "الحكمة فهم القرآن"، وبعبارة أخرى يمكن أن تقول شرح معنى ومراد القرآن هو الحكمة، والشرح الذي يؤدى عن طريق قول وفعل الرسول ﷺ هو السنة، وعبر عن هذا المعنى الإمام مالك وأبو رزين وابن زيد وغيرهم من علماء القرآن في القرن الثاني حيث قـالوا إن الحكمة هي معرفة الدين، وفقه الدين، وعلم الدين الـذي بينـه الرسـول ﷺ، والحكمة أيضا هي النور الذي يلقى به الله في قلب أي أحد وينوره بها.

خلاصة القول أن أصل الحكمة النبوية هـو نـور النبـوة، والمعرفـة الإلهامية، التي كان قد أودعها الله تعالى في قلب الرسول محمد ﷺ وصـدره، ولما كانت سننه وأقواله نتائج هذه الحكمة النبوية المودعة فيه، لذا يجوز إطـلاق لفظ الحكمة عليها أيضا. وبهذا التفصيل يثبت أن بعض الأئمة والعلماء ركزوا في

شرح الحكمة على المعنى الأصلي لها، وركز البعض الآخر على المعنى الثانوي للحكمة، وكلاهما على حق.

العلم

العلم في اللغة المعرفة، ولكن نوعية المعرفة في كل فن مختلفة، فحين تستخدم المعرفة للأنبياء فمن الطبيعي أن يكون المراد منها وحدانية الله تعالى ذاته وصفاته، وأحكام الدين والشريعة والتعاليم الأخلاقية. مثلاً يقول سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه مستشهداً بالتوحيد:-

﴿يأَبَتِ إنىّ قَد جَاءَنِى مَن ٱلعلم مَا لَم يَأتِكَ﴾ (مريم: ٤٣)

وعن الخضر عليه السلام يقول الله تعالى:

﴿وَعَلَّمنَاهُ من لَّدُنَّا عِلماً﴾ (الكهف: ٦٥)

إن الله سبحانه وتعالى لديه علم كل شئ، فماذا يعنى تعليمه "من لدنه"؟ إن كل شئ يحصل عليه الإنسان دون جهد وكد منه، ودون استخدام للوسائل العادية يطلق عليه إنه من عند الله تعالى كذلك يعنى حصول العلم من عند الله نيل العلم بدون استخدام الوسائل العادية، وبدون استدلال وبحث ودراسة يحصل على هذا العلم بنفسه، وهذا هو العلم الوهبي من عند الله تعالى. ويطلق على هذا العلم في اصطلاح المتصوفة "العلم اللدني". جاء عن داود وسليمان عليهما السلام:

﴿ولَقد ءَاتَينَا دَاوُدَ وَسُلَيمَانَ عِلماً﴾ (النمل: ١٥)

وعن بداية نبوة يوسف عليه السلام:

﴿وكَذلكَ يجتَبيكَ رَبُّكَ وَيُعلِّمكَ من تَأويلِ ٱلأحَاديثِ وَيتمُّ نِعمتَهُ عَلَيكَ﴾ (يوسف: ٦)

في هذه الآيات لا يوجد أي ذكر للعلم الذي أصله الوحي الموقت؛ إذ إن فيها ذكر لمنح العلم دفعة واحدة كما يبدو من سياق الكلام، وهذا ليس من شأن الوحي الموقت، خاصة أنه ورد في الآية الأخيرة تصريح بمنح علم وتأويل الأحاديث مرة واحدة، ولهذا يقول يوسف عليه السلام بعد تأويل رؤيا: **﴿ذَلِكُمَا ممَّا عَلَّمَنى رَبى﴾** (يوسف: ٣٧)

لم يُذكر في أي موضع أن الوحي كان يأتي يوسف عليه السلام وقت تأويل وتفسير الرؤيا، بل كان الله تعالى قد أودع فيه هذه القوة العلمية للأبد، وهذا هو النوع من العلم الذي لقب به بعض الأنبياء في طفولتهم بلقب "عليم"، قال تعالى :

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الذاريات: ٢٨)

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (الحجر: ٥٣)

أُستخدم لفظ "عليم" هنا، ولم يُستخدم لفظ "عالم" لأن لفظ "عليم" يدل على العلم أكثر بكثير من لفظ "عالم". واتضح من هذه الآيات أن هناك علما آخر يمنحه الله النبي بصفة دائمة إضافة إلى الوحي الموقت أو العارض الذي يأتيه حينا بعد حين.

العلم والحكم

في شأن كثير من الأنبياء ورد ذكر عطاء الحكم مع العلم أيضا. والحكم يعنى في اللغة القضاء والفصل بين الحق والباطل. يكتب الإمام راغب الأصفهاني في كتابه "مفردات القرآن":

والحكم بالشيء أن تقضي بالشيء بأنه كذا أو ليس كذا سواء ألزمت ذلك غيره أولم تلزمه- (١٢٦-مصر)

وجاء في لسان العرب:

الحكم العلم والفقه والقضاء بالعدل (ج١٥-٣)

والأنبياء- عليهم السلام- الذين لم يثبت أنه نزل عليهم كتاب، ثابت في حقهم أنهم منحوا العلم والحكم، واتضح من هذا أن هناك منحة العلم والحكم بجانب الكتاب الموحى. فقد جاء في شأن يوسف عليه السلام:

﴿ولَمَا بَلَغَ أشُدَّه ءَاتيناهُ حُكماً وَعلماً﴾ (يوسف:٢٢)

وعن لوط عليه السلام:

﴿ولُوطاً ءاتينَاهُ حُكماً وَعِلماً﴾ (الأنبياء:٧٤)

وعن داود وسليمان عليهما السلام:

﴿فَفَهمنَها سُلَيمانَ وكُلاً ءَاتينَا حُكماً وَعِلماً﴾ (الأنبياء:٧٩)

وعن يحيى عليه السلام:

﴿يا يحيىَ خُذِ ٱلكتَابَ بِقُوَةٍ وءاتيناهُ الحُكمَ صَبيًا﴾ (مريم: ١٢)

وفي موضع يحصي الله تعالى نعمه على بنى إسرائيل بهذه الألفاظ:

﴿ولَقَد ءَاتينَا بَنِي إسرَائيلَ ٱلكتَابَ وَٱلحُكمَ وَٱلنُّبوَّةَ﴾ (الجاثية: ١٦)

ثبت من هذا أن الكتاب والحكم والنبوة ثلاثة أشياء، ولا مجال لأحد هنا أن يشك في أن المراد من الحكم في هذه الآيات الحكومة والسلطنة؛ إذ إن هذا اللفظ لم يأت على هذا المعنى في العربية الخالصة والقديمة، وإنما هو تعبير أهل العجم. والقرآن الكريم استخدم هذا اللفظ في كل موضع بمعنى القضاء وقوة الفصل. يقول الله تعالى:

﴿فَٱحكُم بَينَنَا بِٱلحَقِّ﴾ (ص: ٢٢)

﴿فَٱحكُمَ بَينَ ٱلنَّاسِ بِٱلحقِّ﴾ (ص: ٢٦)

﴿وَإن حكَمتَ فَٱحكُم بَينهُم بِٱلقِسطِ﴾ (المائدة: ٤٢)

ويفصل داود وسليمان عليهما السلام في إحدى القضايا:

﴿وَدَاوُدَ وَسُليمَانَ إذ يحكُمَانِ في ٱلحَرثِ﴾ (الأنبياء: ٧٨)

﴿وَمَا ٱختَلَفتُم فيهِ مِن شَئٍ فَحُكمُه إلىَ ٱللهِ﴾ (الشورى: ١٠).

ومن العظيم أن ذكرت هذه الأمور الثلاثة مع عد عدد كبير من الأنبياء عليهم السلام وإحصائهم في سورة الأنعام:

﴿أولَئكَ ٱلَّذِينَ ءاتَينَاهُم ٱلكتَابَ وَٱلحُكمَ وَٱلنبُوَّةَ﴾ (الأنعام: ٨٩)

إن الأنبياء الذين أحصيت أسماؤهم وأشير إليهم ب"أولئك الذين" هم: إبراهيم واسحاق ويعقوب ونوح، وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحي وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام. وفي هذه الأسماء السابعة عشرة إن كان الحكم بمعنى الحكومة والسلطنة فقد استحقه اثنان منهم فقط وهما سليمان وداود عليهما السلام، وبشيء من التأويل يمكن أن نضيف إليهما يوسف وموسى عليهما السلام، أما بقية الأربعة عشر اسماً فلم يكن لهم نصيب من الحكم والسلطنة، وعليه لابد من التسليم بأن لفظ "الحكم" استخدم في القرآن الكريم بمعناه العربي الأصيل والصحيح، وما يعنيه الله تعالى بهذا اللفظ قد

حصل عليه هؤلاء الأنبياء جميعاً إضافة إلى الكتب. ولإزالة سوء الفهم هذا دقق النظر في الآية الكريمة التالية:

﴿مَا كَانَ لبشَرٍ أن يُؤتيَه ٱلله ٱلكتَابَ وَٱلحُكمَ وَٱلنّبوَةَ ثُم يقُولَ للنَّاس كُونُواْ عبَاداً لِّي من دُونِ ٱلله وَلَكن كُونُواْ رَبّانّينَ بمَا كُنــتُم تُعلّمُــونَ ٱلكتَــابَ وَبمَــا كُنــتُم تَدرُسُونَ﴾ (آل عمران:٧٩)

والمخاطب في هذه الآية هم أهل الكتاب، والبشر المقدس الذي ذكر فيهــا هو سيدنا عيسى ﷺ، وإلا فهو سيدنا محمد ﷺ. ونزلت هذه الآية حين كانت قوة اليهود واضحة في الحجاز وضواحي المدينة، وكان الإسلام مازال ضعيفاً أمامهم، ففي هذه الحالة يكون الحكم الذي ذكر نيله من جنس الكتاب والنبوة، لأن عيــسى ﷺ لم ينل شيئا من الحكومة والسلطنة، كما أن سيدنا محمد ﷺ وقت نزول هذه الآية لم يكن قد نال هذه المكانة بعد، بل كان بنو إسرائيل موجودين بقوتهم فــي المدينة والحجاز. والمراد من الحكم في آية "**إن الحكم إلا لله**" الحكــم والقــضاء الرباني، وليست الحكومة والسلطنة. ولمزيد من الطمأنينة أمعن النظر في الكلمات التي وردت قبل هذه الآية الكريمة وبعده:

﴿قُل إني عَلَى بيّنَةٍ مّن رَّبي وَكَذَّبتمُ به مَاعِندِى مَا تَستَعجلُونَ به إنِ ٱلحُكمُ إلاَّ لله يَقُصُ ٱلحقَّ وَهُو خَيرُ ٱلفَاصِلينَ﴾ (الإنعام: ٥٧)

ولهذه الأسباب لا يبقى أي شك في أن الأنبياء عليهم السلام ينالون مــع مقام النبوة والكتاب الموحى إليهم سند الحكم، الذي يعنى حسب قرائن كلام العرب ولغتهم والقرآن الكريم العلم والفهم، والقضاء والفصل بين الحق والباطــل، لــذا يجب علينا أن نتبع نتائج وأثار قوة وطاقة الرسول أيضا (العلم والحكم).

شرح الصدر

هناك مقام آخر للعلم والمعرفة الربانية ألا وهو شرح الــصدر، ومعنــى شرح الصدر "فتح الصدر"، وهناك رأي عام وهو أن ضيق الصدر علامة الجهل والغباء، وسعة الصدر تدل على سعة العلم ووفرة المعرفة. ولهذا فــإن المعنــى الاصطلاحي والمجازى لشرح الصدر هو كثرة العلم وسعة الاطــلاع، ويطلــق خاصة على العلم والمعرفة والأخبار، التي ترد وتخطر في القلب فجأة عــن أدق

المسائل وأصعبها، وبهذا الحل يصبح الإنسان مطمئناً ومقتنعاً، وتــزول شــكوكه وشبهاته، ويحصل على الراحة وسرور اليقين. جاء فــي جمهــرة ابــن دريــد: (والشرح من قولهم شرحت لك الأمر أي أوضحته وكشفته وشــرح الله صــدره فانشرح إذ اتسع بقبول الخير.(٢-٣٤)

وجاء في صحاح الجوهري:

(الشرح الكشف تقول شرحت الغامض إذا فسرته.)

وجاء في لسان العرب:

(الشرح الكشف يقال شرح فلان أمري أوضحه وشرح مسألة مشكلة بينهما وشرح الشيء يشرحه شرحاً وشرحه فتحه بينه وكشفه وكل ما فــتح مــن الجواهر فقد شرح أيضا تقول شرحت الغامض إذا فسرته واشــرح الله صــدره بقبول الخير بشرحه شرحاً انشرح وسعه بقبول الحق فاتسع.)

قال ابن الأعرابي (الشرح الحفظ والشرح الفتح والشرح البيان والشرح الفهم.)

وجاء في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام دعا الله وقت تلقى مقام النبوة:

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (طه:٢٥:٢٨)

في الجملة الأولى من الدعاء طلب موسى عليه السلام شرح صدره، وفي آخــر الدعاء دعا لفصاحة لسانه أي دعا أولاً لإلقاء المعنى الصحيح وآخــراً لانتقــاء الصحيح من الكلمات، كي يستطيع المخاطب فهم دعوته، وهــذه الثــروة نالهــا محمد ﷺ بدون طلب:-

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ (الشرح ١:٢)

إن الشرح الذي ورد في الأحاديث الصحيحة عن "شرح الصدر" و"فــتح الصدر" له اصطلاح عام وهو "شق الصدر" في عالم الرؤيا أو في عالم اليقظــة؛ فقد جاءت الملائكة وشقوا صدر الرسول ﷺ المبارك، وغسلوه بمــاء زمــزم، وجئ بطست من الذهب ملئ بالإيمان والحكمة وملئوا بهما الصدر المبارك، ثــم

سووا الشق.[1] ولو أن هذه الواقعة تحمل على حقيقتها الظاهرية فالأمر الواضح كل الوضوح أن صدر الرسول ﷺ المبارك قد شُق وغُسل بماء زمزم، ثم مُلئ هذا الصدر بالإيمان والحكمة. ولو تؤخذ هذه الواقعة مأخذ التمثيل ففي هذه الحالة أيضا لابد من التسليم بأن صدر الرسول ﷺ قد مُلئ بالإيمان والحكمة. وعلى كل حال فإن حقيقة شرح الصدر هي العطاء الرباني من الإيمان والحكمة. وهذا هو المعنى المذكور في شق الصدر، والذي يتضح من واقعة شق الصدر، فإن وُجد شخص غير مقتنع بقبولها ففي هذه الحالة يوجد -ولله الحمد- له رأس مال الطمأنينة في القرآن الكريم، إذ جاء في سورة الزمر:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الزمر:٢٢)

والمراد من شرح الصدر للإسلام هو أن حقيقة الإسلام انشرحت عليه بطريقة مؤثرة؛ إذ تيقن تماماً بصدق الإسلام، واطمأن على إيمانه هذا اطمئنانا مطلقاً، ونتج عن هذا أن شخصًا حصل على نور من الله في كل خطوة من خطواته للوصول إلى غايته المنشودة، وهذه هي حقيقة شرح الصدر. والنقص والزيادة في هذا النور -أي الشرح- تتفاوت حسب الدرجات والمقامات.

وفي هذا الشأن علينا أن نذكر واقعتين يتضح بهما معنى "شرح الصدر".

---

[1] - أنظر صحيح البخاري، وصحيح مسلم والنسائي، أبواب المعراج والإسراء، وفرائض الصلاة ومسند أحمد برواية أنس بن مالك وسنن الترمذي تفسير سورة الشرح. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي، كتاب التفسير، سورة ألم نشرح: (٣٤٧٥) حدثنا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، حدثنا مُحمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ و ابنُ أَبي عَدِيٍّ عَن سَعيدِ بن أَبي عروبة عَن قَتَادَةَ عَن أَنَسِ بنِ مَالكٍ عَن مالك بنِ صَعْصَعَةَ، ــ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ ــ أَنَّ النبيَّ الله قالَ: «بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ البَيْتِ بيْنَ النَّائمِ وَاليَقْظَانِ إِذْ سَمِعْتُ قائِلاً يقُولُ: أَحَدٌ بَيْنَ الثَّلاَثَةِ. فأُتيتُ بِطِسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فيهَا مَاءُ زَمْزَمَ فَشَرِحَ صَدْرِي إلى كَذَا وكَذَا، قال قَتَادَةُ قُلْتُ لأنس بن مالكٍ مَا يَعْنِي؟ قالَ إلى أَسْفَلِ بَطْنِي، قالَ فاستَخرِجَ قَلْبِي فغسلَ قَلْبي بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ أُعيدَ مَكَانَهُ ثُمَّ حُشِي إيمَاناً وَحِكْمَةً» وَفِي الحديثِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ.

قال أبو عيسى: هَذَا حَديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. وقَدْ رَوَاهُ هِشَامٌ الدَّسْتَوَائِيُّ وَهَمَّامٌ عنْ قَتَادَةَ. وفيه عَن أَبيَ ذَرٍّ. (يوسف عامر).

وجدير بالذكر هنا أن الاستشهاد المعنوي ليس مقصوداً هنا، وإنما المقصود هو توضيح لفظ "شرح الصدر" من كلام العرب الأوائل.

١- الواقعة الأولى هي أن بعض قبائل العرب رفضوا إخراج الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ، وفي هذه الحالة أراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه إعلان الحرب عليهم، فقال عمر الفاروق رضي الله عنه يا خليفة رسول الله كيف يمكن إعلان الجهاد ضدهم والرسول ﷺ يقول: من قال لا إله إلا الله عصم منى نفسه وماله، فيرد عليه أبو بكر الصديق قائلاً والله إني سأحارب من يفرق بين أداء الزكاة والصلاة، والصلاة حق الله تعالى أما الزكاة فهي حق العباد، فمن كان يؤدى زكاة وليد شاة في عهد النبيﷺ والآن يرفض أداءه فأنى سأحاربه. ثم قال عمر ﷺ: "فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر فعرفت أنه الحق" (البخاري، كتاب الزكاة)[1]

٢- الواقعة الثانية هي أن كثيراً من حفظة القرآن الكريم كانوا قد استشهدوا في غزوة اليمامة، لذا أشار عمر على أبى بكر رضي الله عنهما بأن ينسخ القرآن مرتبا على القرطاس، فرد عليه أبو بكر كيف أقوم بعمل لم يقم به الرسول ﷺ بنفسه، ولكن عمر أصر على حسن مشورته حتى فطنها أبوبكر رضي الله عنه، وفي هذا يقول أبو بكر:

---

[1] -وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب الزكاة: (١٣٨١) : حدثنا أبو اليَمانِ الحَكَمُ بنُ نافعٍ أخبرَنا شُعيبُ بنُ أبي حمزةَ عن الزّهريّ حدّثَنا عُبيدُ اللّهِ بنُ عبدِ اللّهِ بنِ عُتبةَ بنِ مَسعودٍ أنّ أبا هريرةَ رضيَ اللّهُ عنه قال: لمّا تُوُفّيَ رسولُ اللّهُ صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكرٍ رضيَ اللّهُ عنه، وكفَرَ من كَفَرَ منَ العَرَب، فقال عمرُ رضيَ اللّهُ عنهُ: كيفَ تُقاتِلُ الناسَ؟ وقدْ قال رسول اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أُمِرتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتّى يقولوا لا إله إلاّ اللّهُ، فمن قالها فقد عَصَمَ مني مالَهُ ونَفْسَهُ إلاّ بحقّه، وحِسابهُ على اللّه».
«فقال: واللّهِ لأُقاتِلنّ من فرّقَ بينَ الصلاةِ والزكاةِ، فإنّ الزكاةَ حقّ المالِ. واللّهِ لو مَنَعوني عَناقاً كانوا يُؤدّونَها إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم لقاتلتُهم على مَنعِها. قال عمرُ رضيَ اللّهُ عنه: فوَاللّهِ ما هوَ إلاّ أنْ قد شرَحَ اللّهُ صدرَ أبي بكرٍ رضيَ اللّهُ عنه فعرَفتُ أنه الحقّ».(يوسف عامر).

" فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر) (صحيح البخاري، جمع القرآن)[1]

في هذين الواقعتين يوضح لفظ "شرح الصدر" موضع حقيقته واستخدامه، وهذا هو شرح الصدر الذي سبق ذكره في سورة الزمر، وقال عنه القرآن الكريم إنه النور الرباني، ونور البصيرة.

أما عن سعة شرح الصدر التي وهبت للرسول ﷺفلابد لنا أن نـدرك مسألة بلاغية قبل شرحها وفهمها، حين ينطق لفظ مقيد بمتعلقات الصلة والمفعول به يتم بهذا تحديد المعنى وتخصيصه، ولكن حين يستخدم هذا اللفظ نفسه غيـر مقيد بمتعلقات الصلة والمفعول فإنه يفيد العموم مع توكيد الفعل. على سبيل المثال لفظ العلم يتطلب مفعولاً، والشيء الذي يُعلم نجعله في الجملة مفعـولاً، ويكـون المراد من العلم في هذه الجملة معرفة وعلم الشيء الخاص الذي وقـع مفعـولاً، ولكننا لو حذفنا المفعول، فيصير المراد منه ثبوت علم عام ومطلق.

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب جمع القـرآن: (٤٨٦٦) : حـدّثنا موسىٰ بن إسماعيل عن إبراهيمَ بن سعدٍ حدَّثنا ابنُ شهاب عن عُبيد بن السَّبَّاق «أن زيد بـن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مَقتلَ أهلِ اليَمامة، فـإذا عُمـرُ بـن الْخطابِ عندهُ، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتال قد يـستَحَرَّ يـومَ اليمامة بقُرَّاءِ القرآن، وإنِّي أخْشى إن استَحَرَّ القَتلُ بالقرَّاءِ بالمَواطن فيَذهب كثيرٌ من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمُرَ بجمع القرآن. قلت لِعُمرَ: كيف نفعَلُ شيئاً لم يفعله رسولُ الله صـلى الله عليه وسلم؟ قال عُمر: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يَزلْ عُمرُ يُراجِعُني حتى شرحَ الله صدري لـذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عُمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقِل لا نَتهِمُك، وقد كنتَ تكتُبُ الوحيَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَتَتَبَّعِ القرآن فاجمعْه. فواللّهِ لو كلفُـوني نقْل جَبَل من الجبال ما كان أثقلَ عليَّ ممَّا أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تَفعَلونَ شيئاً لم يَفعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو واللّهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ أبو بكر يُراجعني حتى شَرَحَ الله صَدري للذي شرح له صدرَ أبي بكر وعُمر رضي الله عنهما. فتَتَبَّعـت القـرآنَ أجمعُه منَ العُسُبِ واللِّخاف وصُدور الرِّجال، حتى وجدْتُ آخرَ سُورة التَّوبة مع أبي خُزَيْمة الأنصاريِّ لم أجِدْها معَ أحَدٍ غيره {لقد جاءَكم رسولٌ مِن أنفُسِكم عَزيزٌ عليـه مـا عَنِـتُّم} (التوبة: ١٢٨)، حتَّى خاتمة بَراءةَ، فكانت الصُحفُ عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عُمَرَ حياتَه، ثم عند حَفْصَةَ بنْتِ عُمر رضي الله عنه». (يوسف عامر).

جاء في القرآن الكريم:

﴿يَعلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ ٱلحيَاةِ ٱلدُّنيَا﴾ (الروم:٧)

فهؤلاء يعلمون جانبا ظاهراً فقط من الحياة الدنيا، والظاهر هو أن علامة هذا العلم هى معرفة شيء واحد، أي معرفة ظاهر من الحياة الدنيا، وليس من العلم العام، ولكن في موضع آخر يقول القرآن الكريم " هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" فلم يذكر هنا أنهم يعلمون شيئاً محدداً، وإنما المراد هنا هو العلم العام، فالمراد هنا هو الذين يعلمون كل شئ والذين لا يعلمون شيئا، ولا يمكن أن يستوي كلاهما. وقد ورد شرح وتوضيح لهذا المفهوم في كتب البلاغة من خلال أمثلة هو يأمر ويعطى ويمنح، هو أضحك وأبكى.

بعد هذا التمهيد لشرح الصدر لو تمعن النظر في استخدامه، وأمثلته تعلم أن الأمر الذي يُشَقُّ الصدرُ لفهمه يقرن باللام أو يتضح من القرينة، على سبيل المثال شرح الصدر للإسلام، وشرح الصدر لجمع القرآن، وشرح الصدر لقتال مانع الزكاة، ولكن شرح الصدر الذي ورد ذكره في القرآن الكريم لسيدنا موسى عليه السلام، وكذلك لسيدنا محمد ﷺ لا يوجد فيه أي ذكر لذلك الأمر الذي تم فيه شرح الصدر لهذين النبيين، ويتضح من هذا أنهما عليهما السلام قد أعطيا شرح الصدر في أمور الدين مطلقاً وعموماً، ومن هنا يتضح الفرق في الدرجات بين الأمة عامة والأنبياء عليهم السلام؛ إذ إن عامة أفراد الأمة ينالون شرح الصدر في أمور خاصة فقط، أما الأنبياء عليهم السلام فيحصلون على شرح الصدر كلياً وعمومياً.

وهنا جانب لطيف جدير بالذكر، وهو أن كلا من دعاء موسى عليه السلام والفضل والإحسان على محمد ﷺ مقرون بـ "لي" و"لك". يقول موسى عليه السلام "اشرح لي صدرى". ويقول الله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ (الشرح:١). والسؤال هنا هو ما حاجة إضافة "لي"و"لك"، وما حاجة اللّام هذه؟ حاول الإمام الزمخشرى الرد على هذا السؤال، وكتب أن هذا للتأكيد، في حين أن اللام هذه للام الإفادة، وليست لام تمليك، كما جاء في الآية﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ والمقصود هنا أن ثروة شرح الصدر هذه لنفسك، أي لكشف

علمك أو للتأييد أو للفائدة، وكشف العلم وشرح الصدر لنفسك أنت، كي يظهر لك كاملاً مكملاً.

والأمر الأخير هو أن شرح الصدر المطلق، الذي ناله الرسول ﷺ ظهرت له آثار ونتائج أيضاً،والواقع أن هذه الأحاديث والسنن التي توجد أمامنا هي آثار أقواله وأفعاله ﷺ ونتائجهما.

تبيين الكتاب

إن الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ في هذه الدنيا أبدية وأخيرة، ولمثل هذه الشريعة التي تتصف بالأبدية كان من الواجب لها أن تعطي الأهمية البالغة للأصول والمبادئ الكلية للشريعة، لذا قصر الله تعالى كتابه هذا على الأصول والكليات فقط، أما الجزئيات فوضع لها إشارات في آياته حتى يتعرف القلب بطريقة صحيحة على قدر هذه الجزئيات ومراتبها، ولابد لهذا القلب أن يكون منوراً بالعلم والمعرفة، ومعموراً بالحكم والحكمة، ومغموراً بشرح الصدر والتأييد الرباني، ولذا نال النبي ﷺ هذه الدرجة أولاً، ولأنه معصوم من الخطأ، فإن نتائج هذا المقام وآثاره معصومة من الخطأ أيضا، وبوسيلة الرسول ﷺ ظل يتلقى هذا المقام الخلفاء الراشدون، وكبار الصحابة، وأئمة التابعين، وتابع التابعين، والمجتهدون العظام والعلماء الأعلام.

وهذا هو ما يسمى اصطلاحاً الاجتهاد، الذي يقوم به دائماً في كل عصر حتى تقوم الساعة أولئك الذين أفاض الله عليهم بعلوم النبوة، وحاملو أسرار الشريعة حسب البصيرة التي منحها الله تعالى إياهم. وهذا هو السبب في أن الله تعالى تعهد تفسير القرآن وتوضيحه فقال تعالى:

﴿لاَ تحُرك بِهَ لِسَانَكَ لِتَعجَلَ بِهِ. إنَّ عَلَيناَ جَمعَهُ وَقُرءانَهُ. فَإذَا قَرأنَهُ فَاْتبَّع قُرءانَهُ. ثُمَّ إنَّ عَلَيناَ بيَانَهُ﴾ (القيامة ١٦:١٩)

تمت مسئولية هذا الشرح والبيان عن طريق الوحي أحياناً، وهو موجود في القرآن الكريم، وأحيانا أخرى عن طريق تقرير الرسول ﷺ وعمله، الذي نقل بالتواتر العملي، ومدون في كتب الأحاديث والسنن المسندة والصحيحة.

وقوة هذا البيان والشرح قد أعطاها الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ، وهذا ثابت من الآية التالية:

﴿وَأنزَلنَا إِلَيكَ ٱلذِّكرُ لُتبَينّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِم وَلَعَلَّهُم يَتفكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)

يعنى البيان والتبيين في اللغة الفتح والإيضاح، ويستخدم في معنيين: الأول في معنى الإعلان والإظهار، أي ضد الستر والإخفاء، والثاني في معنى التوضيح والتفسير. وورد لفظ "التبيين" هذا في القرآن الكريم بكلا المعنيين. ويمكن أن يُميز بين المعنيين، وتحديد المعنى المراد في آية يكون عن طريق السياق والمقام. فعلى سبيل المثال جاء في القرآن الكريم:

﴿يَأهلَ ٱلكتَاب قَد جَاءكُم رَسُولُنَا يُبينّ لكُم كَثيراً ممَّا كُنتُم تخفُونَ مِنَ ٱلكتَب وَيَعفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (المائدة: ١٥)

و"التبيين" هنا مضاد للستر والإخفاء صراحة، لذا فالتبيين هنا يعنى بكل تأكيد الإظهار والإعلان، ولكن جاء اللفظ نفسه في موضع آخر في سورة النحل هكذا:

﴿وَمَا أنزَلنَا عَلَيكَ ٱلكتَابَ إلاَّ لُتبَينَ لهُم الذي ٱختَلفُواْ فيه وَهُدىً وَرَحمَةً لّقومٍ يُؤمنُونَ﴾(النحل: ٦٤)

إزاء هذا الاختلاف لابد من التوضيح والشرح، ففى أي أمر يختلف فيه سيتضح بعد هذا التفسير والتوضيح. والآن لابد لنا أن ندقق النظر في الآية الأولى، التي توجد في السورة نفسها في موضع آخر:

﴿وَأنزَلنَا إِلَيكَ ٱلذّكرَ لُتبَينّ لِلنَّاس مَا نُزّلَ إِلَيهِم وَلَعلَّهُم يَتَفكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤)

والسؤال هنا هو هل البيان في هذه الآية يعنى الإظهار والإعلان أم الشرح والتفصيل؟ نرى أن أخذ معنى الشرح والتفصيل صحيحاً بسبب القرينة والتدبير بدلاً من أخذه في معنى الإظهار والإعلان، ويمكن أن يكون إظهار وإعلان الأمر المخفي أو المستور أنسب للاستماع والإقرار، ولكن التفكير والتدبير هنا يحتاج إلى شرح وتفصيل، وليس الإظهار والإعلان.

والآن بعد أن ثبت أن مقام التفصيل والتبيين للرسول ﷺ من جانب الله تعالى، فاتباع واقتداء هذا التفصيل والتبيين سيكون في الواقع إتباعا لأوامر الله، وسيكون هذا التبيين والشرح من الرسول ﷺ فيضاً من نور حكمته، التي تبدو لك إشاراته في الكتاب الإلهي نفسه. *

الإراءة

إن الألفاظ الإنسانية لتعجز عن صوغ قانون منزه عن اختلاف الأفهام، وجامع مانع-في الآن ذاته- لكل الأحداث والوقائع بشتى جزئياتها. إن الفهم الإنساني بما رُكّب فيه من نقص وقصور ليفترض اختلافا في فهم القوانين الوضعية. ورغم إمكانية تقليل هذا الاختلاف؛ إلا أنه ليس من الممكن إزالته تمامًا.

وقد حاول الإسلام باعتباره قانون إلهي تجرى مفرداته في الحديث البشري تقليل ذلك الاختلاف في الفهم من خلال رسوله؛ إذ قام الرسول بشرح وتبيين هذا القانون قولا وفعلا.

كانت هذه هي صورة الفصل والقضاء فى القضايا اليومية، والتي كانت تُعرض فى محكمة الرسول ﷺ وهي أنه ﷺكان يحكم فيها حسب أصول وكليات الكتاب الموحى إليه بنور بصيرته وحكمته، وكان الخلفاء الراشدون يحكمون ويفصلون فى الأحداث والقضايا المستحدثة فى ضوء الكتاب الإلهي أولاً، ثم فى ضوء القضايا والأحكام التي صدرت عن الرسول ﷺ بنور بصيرته وحكمته والإراءة الإلهية. واتبع الفقهاء والمجتهدون هذا المنهج ذاته فيما بعد؛ أما فيما يتعلق بالقضايا المستحدثة فكانوا يفصلون فيها بالقياس على حوادث مماثلة لها فى الكتاب والسنة، أما فى القضايا والأحداث التي لا يوجد لها مشابه فى الكتاب والسنة فكانوا يحكمون فيها خسب أصول العدل والعرف والتقليد والقياس والمصلحة المرسلة والاستحسان وغيرها من الأصول الفقهية، ويطلق على مجموعة الأحكام هذه مسمى الفقه الإسلامي.

إن الوحي الإلهي فى القرآن الكريم، وقضايا وأحكام الرسول ﷺ محفوظة فى الصحيح من روايات الحديث الشريف والسنة النبوية. ولاريب فى صدق

الوحي الإلهي، أما عن اتباع أحكام الرسول ﷺ فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء :١٠٥)

فقد بين الله تعالى الهدف من نزول هذا الكتاب قائلاً: أيها النبي عليك أن تحكم بين الناس بأحكام هذا الكتاب وقوانينه فى ضوء ما علمتك وآريته إياك بالعدل والقسط. ويوجد هذا الفهم وهذه الإراءة ــ التي منحها الله تعالى للنبي ﷺ ــ فى شكل أفعاله وأحكامه ﷺ، وهي المصدر الثاني للقانون الإسلامي بعد الوحي الإلهي.

أما عن عدل وقسط الرسول ﷺ ففيه ثقة كاملة حتى أن المنافقين كانوا يثقون فى عدله ﷺ، فكانوا يأتونه ﷺ مسرعين إذا كان لهم حق على أحد، لأنهم كانوا يثقون ثقة كاملة فى عدله ﷺ، ويثقون فى أنهم سيحصلون على هذا الحق من محكمته ﷺ، أما إذا كان لأحد حق عليهم فكانوا يماطلون، ويطلبون القضاء من طرف آخر، لذا نبهم وحذرهم الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور: ٤٨:٥٢)

اتضح من هذه الآيات أن جميع أحكام وقضايا الرسول ﷺكانت مبنية وقائمة على العدل والقسط، وطاعتها واتباعها طاعة واتباع لأوامر الله تعالى، وهذه الطاعة دليل وعلامة على الإيمان. يقول الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥)

إن هذه الطاعة والخضوع المطلق، وتكفل الله تعالى بأن تكون أحكام الرسول ﷺ كلها قائمة على الحق المطلق والعدل، وهذا كله ليس مكفولا لأي سلطان أو حاكم، بل إن هذه ــ الطاعة والتكفل ــ خاصة فقط بالأنبياء عليهم

السلام. ومن الظاهر أن الله تعالى لم يكن يفصل بنفسه عن طريق الوحي القرآني فى الخصومات الجزئية بين المتخاصمين، بل كان يفصل فيها سبحانه عن طريق نور نبوة الرسول ﷺ وفيض حكمته وشرح صدره وفهمه النبوي وتبيين الحقيقة والإراءة، وأما الفصل فى الكليات فيكون بكل تأكيد حسب الوحي القرآني، ويُفصل فى الجزئيات فى ضوء الكليات والإراءة التي منحها الله تعالى إياه ﷺ.

إن طاعة هذه الأحكام والقضايا واجبة على كل مسلم برضى تام إلى أن تقوم الساعة، وطاعة أحكامه هذه بعد وفاته ﷺ فى أن نقضي ونحكم فى مثل هذه الخصومات والدعاوي بنفس أحكامه ﷺ والتي حكم بها فى حياته. فهي أحكام معصومة من الخطأ بأمر من الله تعالى ومبرأة من الظلم ومنزهة من الجور، ولا ينال هذه العصمة والبراءة أحد فى الدنيا سوى النبي والرسول.

الرسول هداية بذاته

لقد جعل الله تعالى الأنبياء والرسل أئمة ومرشدين وقادة وهداة، أي أن بعد الفوز بالنبوة والوحي تصبح ذات النبي هداية مجسمة ومؤهلة للرشد والإمامة والقيادة، ويبعث الله الأنبياء هداية للناس، ليخرجونهم من الضلال والغواية. والأمة التي يُبعث فيها النبي يكون هو إمامها وهاديها، ويكون لهم بمثابة مصباحين للهداية والقيادة، ويتحد نور الهداية مع نور القيادة ويصبحان نوراً واحداً. ويقول الله للمسلمين وكان اليهود يريدون أن يضلونهم بدسائسهم ومكايدهم: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾** (آل عمران: ١٠٠، ١٠١)

ثبت من الجزء الأخير لهذه الآية أن لدى المسلمين أمرين مستقلين لحفظهم من الكفر والضلال: الأول هو الآيات الإلهية التي كانت تتلى عليهم، والثاني هو ذات الرسولﷺ نفسه، والذي لا يسمح لهم بالضلال بفضل تعاليمه وتوجيهاته وفيض صحبته وأثره، فكان وجود النبي ﷺ ذاته سدا منيعاً للضلال، ولو أن الكتاب الإلهي وحده فقط يستطيع أن يقوم بهذا العمل، لما كانت هناك حاجة للرسول، ليس هذا فحسب؛ بل لم تكن هناك حاجة للبعثة نفسها. وهذا يثبت

أن كتاب الله الصامت(القرآن) بانضمامه إلى كتابه الناطق(الرسول ﷺ) يؤدي فريضته ومسئوليته، ولعل هذا هو معنى الحديث الصحيح الذي ورد فيه عن الرسول ﷺ فى خطبة حجة الوداع قبل وفاته بشهور: «**إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وسنتي**».[1]

واضح أن وجود الرسول ﷺ الظاهري قد اختفى بعد وفاته ﷺ، ولكن حياته العملية، والتي يطلق عليها السنة قائمة وباقية، وهي المصدر والمنبع الثاني بعد القرآن الكريم لهدايتنا.

التزكية

يتصف الأنبياء عليهم السلام عموماً والرسول محمد ﷺ خصوصاً بصفة مميزة أخرى ألا وهي التزكية. والتزكية تعنى الطهارة. وورد هذا الوصف للنبي محمد ﷺ فى تلك الآيات البينات التي وصف فيها الرسول ﷺ بأنه يتلو على الناس آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم. وظاهر أن هذا الوصف الثالث مختلف عن الوصفين السابقين، فهذا الوصف يظهر الحالة العملية للنبي بعد التزكية وتلاوة آيات الله وتعليم الكتاب والحكمة، وهي أن يصبح الأشرار أخيارا بفضل تعليمه ﷺ وتربيته وفيض صحبته وحسن خلقه ومواعظه ونصائحه وتبليغه ودعوته.

---

[1] وهذا نصه كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند أبى سعيد الخدري: (١٠٩٨١) حدثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا ابن نمير، حدثنا عبد الملك ـــ يعني ابنَ أبي سليمان ـــ عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر الآخر، كتاب الله عزَّ وجلَّ حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا إنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض». (يوسف عامر). وورد فى المسند أيضا : (١٠٨٧٤) ـــ حدثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، ـــ يعني إسماعيل بن أبي إسحاق الملائي ـــ عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض». (يوسف عامر).

إن حياة الأنبياء جميعا وتاريخهم يثبت هذه الحقيقة وهي أنهم ـ عليهم السلام ـ بُعثوا في أقوام ضالة ومضلة، لذا تحملوا كثيراً من المشاق والمتاعب، وصبروا على ما عانوه من قبل أممهم، حتى حولوا الظلام إلى النور، والجهل إلى العلم، والكفر إلى التوحيد، واستمر فيض تأثيرهم مدة، ووصفهم بالتزكية فضلاً عن الوحي. والإلهام اسم لأثر كيميائي لقلوبهم وألسنتهم وأرواحهم وأجسادهم، سواء كانت ألسنتهم وقتئذ عذبة بالوحي الإلهي، أم كانت صامتة، ففي كل وقت كانت أشعة شمس الحق الصادر من شروق النبوة تضئ أرض القلوب.

النور

لذا فصدر النبوة يكون مرآة للصدق والصفاء، ووجود النبي نفسه يكون بمثابة مصباح للعالم المظلم، ونور العلم والهداية، وكما تكون صحيفة النبي الإلهامية ووحيه الرباني نوراً، كذلك يكون هو نفسه نوراً كاملاً، وبه يبصر الأعمى، ويهتدي الضال، ويستمد الطالب منه النور.يقول الله تعالى مخاطباً النبي(ﷺ): **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾** (الأحزاب: ٤٦)

وشخصية الرسول(ﷺ) نفسه هي ذلك السراج الذي يُنير كل ما حوله. وهنا يُطرح هذا السؤال وهو إن لم يكن جسمه(ﷺ) وروحه ولسانه وقلبه وخلقه وعمله وعلمه وفهمه نوراً؛ فذاته التي تتكون من هذه الأشياء كيف تكون سراجاً منيرا؟ وحين ثبت أن كل الأشياء الخاصة والمتعلقة بذاته(ﷺ) أنوار إلهية، فالاهتداء إلى جزء من هذه الأنوار الإلهية المباركة هداية، وصرف النظر عن أي منها بمثابة وطأ القدم في ركن من أركان الظلمات.

رؤية الآيات والملكوت

كما أن الأنبياء عليهم السلام يستمعون إلى نداء الغيب وصوت الوحي بقوة سمعهم، كذلك ترى أعينهم أشياء كثيرة لا يراها شخص عادي، فقد جاء في الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:. ٧٥)

لقد منح الأنبياء- عليهم السلام- هذه الرؤية والبصيرة الخارقة لتربية ونمو استعدادهم للنبوة. وما رآه موسى-عليه السلام- على جبل الطور هو قصة الحسن والعشق المشهورة عن التجلى الإلهي، وعبر عن المشاهدات الروحانية لمحمد(ﷺ) فى رحلة المواج بهذه الكلمات: ﴿**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾(الإسراء: ١) وجاء فى موضع آخر: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ (النجم١١:١٣). ويقول الله تعالى فى نفس السورة﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾ (النجم:١٨) وقال الله تعالى فى آية أخرى: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾ (التكوير:٢٣) إن هذه المشاهدات.تظهر ميزة أخرى لحاسة البصر فضلاً عن الوحي والإلهام.

سماع الغيب

كما أن رؤية الآيات والملكوت وصف خاص لحاسة بصر الأنبياء-عليهم السلام- كذلك سماع صوت الغيب والوحي ميزة خاصة لحاسة سمعهم، وصرح القرآن الكريم بأن الأنبياء كانوا يكلمون الله، ويتلقون الوحي ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً**﴾ (النساء:١٦٤)

وأمر الرسول(ﷺ) بقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾ (طه:١١٤)

نادى الله تعالى الأنبياء، وسمعوا نداءه "نادينا" وورد هذا مرارا فى القرآن الكريم عن الأنبياء عليهم السلام.

التبليغ والدعوة

إن أول وأهم فرض على النبي هو التبليغ والدعوة، أي تبليغ وتوصيل الصدق الذي ناله من الله تعالى إلى الآخرين، وتعليم الآخرين العلم الذي مُنح إياه، وتبليغ الآخرين الرسالة التي نزلت عليه من الله تعالى، وإخبار الناس الذين هم من جنسه بالخبر الذي أُبلغ به، وعليه أن ينفق ما أعطاه الله تعالى من مال ونفس ولغة وعقل وخلق وغيرها من القوى المادية والمعنوية فى سبيل هذا. وعليه أن يستفيد بتأثير الصدق فى إفهام وتفهيم الناس وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وعليه أن يعتبر أن كل ما يواجهه من متاعب فى سبيل هذا التبليغ والدعوة ما هو إلا

راحة له، وعليه أن يدحض كل قوة تطاول على صوت الحق، وألاّ يصرفه المال والجاه والأهل والعيال عن تحقيق هذا الهدف، وألاّ يبتغى أي شئ من كل جهوده ومساعيه سوى وجه الله تعالى ومرضاته سبحانه ونصح الخلق وتأدية رسالته ولا شيء غير ذلك.

وهذا هو المراد بتبليغ ودعوة الأنبياء- وجميع الأنبياء الذين أرسلوا إلى هذه الدنيا قد أدوا مسئوليتهم بكل إيثار وفداء وتضحية، ولم يقصروا لحظة واحدة فى أداء واجبهم ومسئوليتهم، وإن ما نجده اليوم فى هذه الدنيا من حب لله تعالى، وحب الأخوة، ومواساة الناس، ومناصرة المساكين، وإعانة الفقراء، وغيرها من الأعمال الصالحة هي فى الواقع بواسطة أو بدون واسطة، بشكل معلوم أو غير معلوم آثار ونتائج دعوة وتبليغ هؤلاء الأنبياء.

إن أعظم المفكرين والشعراء والحكماء يحسبون أن مسئوليتهم تقتصر على أن يفهمونها بأنفسهم، أو على أكثر تقدير هي أنهم يفهموها للآخرين، ولكن الأنبياء عليهم السلام يحاولون بكل ما يستطيعون أن يفهموا الناس هذا الصدق الذي نزل عليهم من الله تعالى، ويبذلون فى سبيل دعوتهم كل قواهم المادية والمعنوية من أجل إقناع الناس بهذا الصدق وبهذه الدعوة ويتكبدون كل الصعاب والمشاق حتى يفهم الذين لا يعلمون الحقيقة، ويرشدون الناس الذين لا يبصرون.

يقول الله تعالى فى الثناء على الأنبياء:

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب:٣٩)

ويصدر الأمر الإلهي لموسى عليه السلام: **﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾** (طه:٢٤)

ويؤمر النبي محمد(ﷺ) بأن يبلغ رسالة الله دون خوف، ولا يخشى الأعداء، لأن الله تعالى متكفل بحمايته **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾** (المائدة:٦٧)

تشتمل دعوة وتبليغ الأنبياء عليهم السلام على التبشير والإنذار معاً، والتبشير هو أن يبشر النبي الناس ما عند الله من نعم. والإنذار هو أن يخوف

الناس من جلال الله تعالى وعذابه سبحانه، وتنبيه الناس من مصيرهم السيء. ويُبعث الأنبياء إلى الناس لكي لا يكون للناس على الله حجة يقول الله تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥)

وقد قام الأنبياء جميعاً بتبليغ رسالات الله تعالى، وأخلصوا فى نصحهم لأممهم. يقول الله تعالى:

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف:٦٨)

ويقول تعالى على لسان الأنبياء:-

﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾(الأعراف: ٧٩)

﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف:٩٣)

وبلغوا أيضا: ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ (هود:٥١)

﴿ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ (هود:٢٩)

رد على شبهة

فى هذا الشأن لابد علينا أن نزيل سوء فهم وقع فيه البعض فيما يتعلق بصفة تبليغ النبي محمد(ﷺ). جاء فى القرآن الكريم آيات عديدة تعنى أن مسئولية الرسول(ﷺ) هي إبلاغ الرسالة فقط، فانخدع عدد من قاصري النظر بأن مسئولية الرسول(ﷺ) هي إبلاغ الوحي الإلهي؛ أي ينحصر عمله في توصيل كلمات القرآن الكريم بعينها إلى الناس، وليس من مسئوليته شرح معانيها ولا توضيح أغراضها وأهدافها، ليس هذا فحسب؛ بل لا يحق له أن يقوم بهذه المهمة. وهؤلاء يرون أن الرسول(ﷺ) ما هو إلاّ رسول وساع يقوم بتوصيل الرسالة، وليس له الحق فى أن يشرح فحوى ومعنى هذه الرسالة، بل ليس له علم أيضا بما فى هذا المظروف المغلق.

ربما حدث لهؤلاء هذا اللبث بسبب لفظ الرسول بجانب هذه الآية أيضا، والذي يعنى المبعوث والرسول(الساعي). والحقيقة هي أن هؤلاء لا يتدبرون فى

أن من قيل له الرسول قيل له أيضا"النبي"، و"البشير"، و"النذير"، و"السراج المنير"، و"صاحب الحكمة"، و"ذو الخلق العظيم"، و"صاحب المقام المحمود"، كما قيل له أيضا المصطفى والمجتبى والمعلم والمزكي والداعي إلى الله والحاكم والمطاع والآمر والناهي. هل هذه الأوصاف والألقاب تبين هذه الحيثية والمكانة أن الرسول رسول وساع فقط جاء لتوصيل رسالة ولا علاقة له بفحواها ومعناها وهدفها؟ إن من يعرف اللغة العربية يعطى لنفسه الحق اليوم فى أن يفسر معنى هذه الرسالة ويشرحها ويبين مرادها، ويدعي كل مدع معرفة حقيقتها الأصلية، ولكن صاحب الرسالة نفسه لم يكن على معرفة بفحواها ومعانيها وقت تكليفه بتوصيلها، ولم يكن له الحق أن يشرحها إن هذا لشيء عجاب. إن ما كتبنا فى الصفحات السابقة يزُيل ويدحض هذا الرأي الخاطئ.

وهناك سبب آخر لشبهتهم هذه وهو أن حق التشريع فى الإسلام لله وحده، فهو الشارع الحقيقي، وإن سُلّم بأن الرسول له حق التشريع أيضا علاوة على الوحي فهذا يعنى أننا نُسلّمُ بشارع آخر مع الله سبحانه وتعالى. والرد الأول على هذه الشبهة هو أننا نعتبر الرسول(ﷺ) شارحاً وليس شارعاً، وعليه فهل القاضي الذي يجلس على كرسي القضاء ويوضح ويشرح قوانين ودستور الحكومة فهل هو أصبح بعمله هذا رئيساً للدولة ومشرعا للقانون أم يكون شارحاً للقانون فقط؟ وهذا هو نفس الاعتبار لقاضي محكمة السماء، والذي نطلق عليه النبي والرسول والمعلم والمبيّن.

والإجابة الثانية على هذا الاعتراض هي أن الله تعالى لا يُطلِع ولا يُخبر رسوله ونبيه برسالته كلها، وحكمه كله بطريقة الوحي الخاصة والتي نزل بها القرآن الكريم فقط، بل الله تعالى يوضح ويبين أغراضه للرسول بطرقه سبحانه الثلاث، ووحي كل طريقة من هذه الطرق الثلاث واجب الاتباع على الأمة كلها، سواء نزل هذا الوحي بألفاظ إلهية أي القرآن الكريم، أو يكون الفَهم والمعنى الرباني بألفاظ الرسول أي الحديث والسنة. أي سواء يكون عن طريق الكتاب الإلهي أو بفيض الحكمة الربانية.

إن ما نزل فى القرآن الكريم من آيات تعنى أن على رسولنا(ﷺ) توصيل الرسالة فقط، ليس غرضها أن الرسول مبلغ فقط، وليس بمبشر ونذير، وليس بمعلم كلمات الرسالة الإلهية بعد تبليغها، وليس بشارح ومبين للآيات الإلهية، وليس بمرشد وهاد، وليس بمن يُطهر الناس ويزكيهم من الدنس. والقول بهذا يعنى رفض القرآن الكريم ومأتم على العقل والإدراك. جاء فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع:-

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ (الرعد:٧، النازعات:٤٥)

وفى موضع آخر جاء: **﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ (سورة ص:٦٥)**

هل تدل هذه الآيات على أن الرسول(ﷺ) منذر فقط، وليس بمبشر؟ والحقيقة هي أن مثل هذه الآيات: **﴿أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ﴾** (المائدة:٩٢)

لا تعنى أنه رسول وساع مكلف بتوصيل الرسالة فقط، وليس بشارح ومفسر، بل تعنى أن عمله ومسئوليته هي تبليغ الرسالة، وليس إجبار الناس على قبول هذه الرسالة، وإدخالهم فى الإسلام بالقوة وإكراههم عليه، كما أن النبي بعد تبليغ الرسالة ليس مسئولاً عمن أمن أو كفر. ففى كل موضع جاءت الآيات فى هذا المعنى كان غرضها وهدفها الوحيد هو تبليغ الرسالة وليس إكراه الناس عليها. وورد هذا فى ثلاثة عشر آية من آيات القرآن الكريم، وفيها كلها قُصد وأريد هذا المعنى وحده.

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أأسلمتم فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَإِن تَوَلَّواْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:٢٠)

والمفهوم واضح وصريح تماماً وهو أنه لا إكراه ولا إجبار على قبول هدي الإسلام، فإن قبل الناس فقد وجدوا طريق الحق، وإن رفضوا فما كان على الرسول إلا البلاغ، وقد أوى رسالته وقام بما مكلف به، والآن الأمر بين الله وعباده: **﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾** (الرعد:٤٠)

وجاء فى سورة الغاشية مزيد من التفصيل عن هذا الأمر: **﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية ٢١:٢٦)**

وورد هذا المعنى نفسه فى سورة الشورى وهو أن عمل الرسول تفهيم الناس وتبليغهم. والرسول لم يُبعث على أنه سلطان أو حاكم كي يكره الناس حتى يؤمنوا بما جاء به. يقول الله تعالى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاغُ﴾ (الشورى:٤٨)

حين كذّب الكفار الرسل، فقالوا لهم ما علينا إلا البلاغ، ولكم الخيار في الإيمان أو عدم الإيمان. **﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ﴾ (يس ١٥:١٧)**

واسى الله تعالى نفسه الرسل بألا يحزنوا بسبب إعراض هؤلاء الكافرين، فقد فعل الكافرون نفس الشيء مع الأنبياء السابقين، فليس على الرسل إلا البلاغ.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ....﴾ (العنكبوت: ٣٥)

﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ﴾ (العنكبوت:١٨)

نعم ما على الرسول إلا البلاغ، والباقي على علم الغيوب يفعل ما يشاء.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة:٩٩)

والآيات الأخرى تؤدى معنى واحداً كالتالي:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ﴾ (المائدة:٩٢)

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ﴾ (النور:٤٥)

﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِينُ﴾ (النحل:٨٢)

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ﴾ (التغابن:١٢)

يقول الله تعالى على لسان النبي: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ (هود: ٥٧)

إن هذه الآيات كلها تخص منكري النبوة. وجدير هنا ذكر هذا الأمر وهو أن علاقة الرسول ﷺ بمن يرفضون النبوة لا تتعدى التبليغ والنصح والوعظ والهداية والتفهيم، أما من نعموا بإقرار النبوة فعلاقتهم بالرسول علاقة اتباع وتقليد وطاعة، ثم أن الرسول بعد ذلك لا يبلغهم فقط بل يأمرهم وينهاهم، فليس لأي حكومة أن تجبر مواطن حكومة أخرى على أن يكون من رعاياها، ولكن لو أصبح أي شخص بنفسه من رعايا هذه الحكومة فلا بد من جبره وإلزامه بالقوة على اتباع دستورها وقوانينها. ومعنى أن يكون من رعاياها أي يقبل ويذعن لدستورها وقانونها.

نتيجة تعليم الأنبياء

إن من بُعِثَ من أنبياء ورسل فى هذه الدنيا جاءوا بدين واحد وعقيدة واحدة ألا وهى التوحيد، فنبوتهم واحدة، وعبادتهم واحدة، وأخلاقهم واحدة، والثواب والعقاب واحد، لذا لا يوجد أي فرق أساسي فى تعليم الأنبياء والرسل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً...﴾ (سورة الشورى: ١٢) أي شرع الله تعالى لكم نفس الدين الذي كان قد شرعه لنوح وغيره من الأنبياء، واسم هذا الدين الإسلام، والتوحيد هو أهم أصول وأسس تعليم الأنبياء والرسل، وهو لحن النبوة الأصلي والنشيد الأزلي.

من الممكن أن يكون قد مر عدد كبير من الصالحين فى هذه الدنيا قبل مجيء الإسلام، وكانت دعوتهم مفيدة، وتنشرح القلوب بدروسهم الأخلاقية، سواء كان هؤلاء من حكماء اليونان أو من مصلحي الهند، وإن كانت دعوتهم خالية من التوحيد، فهم غير كفء لمقام النبوة، فدعوة التوحيد هي علامة التعليم النبوي، وإن لم تكن هذه العلامة فلا وجود للنبوة. قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)

اتضح من هذا أن علامة النبوة هى أن من ادعى النبوة قبل الإسلام ولـم يكن التوحيد أهم جزء فى دعوته فلا يحق له أن يدعي النبوة.

غرض النبوة وغايتها

يمكن الحديث كثيراً عن غرض وغاية بعثة الأنبياء عليهم السلام بأسلوب شعري بليغ وبألفاظ خطابية جياشة، ولكن المقصود هنا هو إحصاء تلك الأغراض التي جاء بيانها على لسان الوحي المبارك للرسول محمد(ﷺ) فالدعوى الحقيقيـة هي ما يدعيه المدعى وليس ما يدعيه الشاهد.

إن الغرض الأول لبعثة الأنبياء هو تذكير عهد وميثـاق العبـادة ليـوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأزلي والذي بات منسياً، يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَـسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّـا كُنَّـا عَـنْ هَـذَا غَـافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٧٢)

ولهذا اقتضى الأمر أن يُذَكّر هذا العهد والميثاق بين الحين والأخر.

وهذا هو السبب فى ذكر غرض وغاية أخرى لبعثة الأنبياء وهو لكي لا يكون على الله للناس حجة، إذ من الممكن أن يقدم ابن آدم عذراً بأنه لم يأتيه أي مُذكّر، ولهذا قال الله تعالى:

﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّـهِ حُجَّـةٌ بَعْـدَ الرُّسُـلِ﴾ (النساء:١٦٥)

والهداية والإرشاد وهي أول فريضة على النبي بعد التذكير، لأنـه فـي الحقيقة مظهر ومورد لصفة الله تعالى الهادي، ولذا جاء فى آية قرآنية لفظ الهادي للنبي والرسول. قال تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد:٧)

وقال سبحانه فى سورة الشورى:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢)

وجاء فى سورة الأنبياء بعد ذكر عدد كبير من الأنبياء والرسل:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء:٧٣)

وكذلك عُبّر أكثر من مرة عن الكتب التي أنزلها الله تعالى على الأنبيـــاء بـــ "هدى"، كما عُبر عنها في مواضع أخرى كثيرة بالضياء والنور.

أما المعني الثاني لهذه الهداية هو أنهم - الأنبياء - يخرجون الناس مـــن ظلمات الباطل إلى نور الحق،فالناس حينما يقعون فـــي ظلمـــات الآراء الفاســـدة والأفكار الدنيئة والمذمومة والأعمال الضارة، ويصبحون من البصيرة الفطريـــة ومن نور المعرفة الروحانية. فالأنبياء عليهم السلام في هذه الحالة يمسكون أيدي هؤلاء الضالين، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، ويمنحونهم اليقين بدلا مـــن الشك، والعلم بدلا من الجهل، والحق بدلا من الباطل، والنور بدلا مـــن الظلمـــة.

يقول الله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْـدِهِ آيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ لِّيُخْـرِجَكُم مِّـنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَـى النُّورِ...﴾(الحديد:٩)

إن النجاة لهذا العالم تكمن فقط في الاعتدال والوسطية، فكما يحدث أحيانا للمزاج الإنساني أي خلل إفراط وتفريط في عناصر تكوينية فيظهر الفساد علـــى ظهر الأرض، وكذلك هو حال الجماعات البشرية والأمم والـــشعوب، فحـــين لا يكون ميزانها على مستوى الوسطية والاعتدال، فـــلا يمكـــن أن تكـــون كفتاهـــا متساويتين. وما بين السموات والأرض من ذرات فهي جميعها تقوم على ميزان الاعتدال والوسطية. ويستطيع عالم الكيمياء وعالم الأفلاك أن يرى هذا الميـــزان بعينيه، ويندهش حين لا يجد أي نقص أو زيادة مقدار ذرة واحدة في أي مكـــان، فكما أنه يوجد هذا التوازن المحيّر في هذا العالم المادي، لابد مـــن وجـــود هـــذا التوازن والاعتدال نفسه في العالم الأخلاقي والروحاني، وهذا هو التوازن الـــذي يسمي بالحق والعدل. قال الله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن:٧-٩)

إن هذا التوازن والكيل العادل اللاإرادي والذي يوجد في كـــل ذرة فـــي العالم، وفي كل حركة من حركاته، وفي كل عمل من أعماله قائم بتقدير خـــالق الفطرة. وهذا التوازن والكيل نفسه يكمن في ميزان الشريعة التي جاءت إلينا عن

طريق الرسل والأنبياء، ولابد من أن يكون هذا الميزان الشرعي ماثلا في كل حركة أو نفس من حركات وأنفاس الناس المكلفين. ويطلق على ميزان العالم اللاإرادي قانون الفطرة، أما ميزان العالم الإرادي فيطلق عليه قانون الشريعة. والعالم اللاإرادي والذي يُعرف أيضًا بنظام العدل الذي يسير حسب ميزان الفطرة الإلهية هذه، ولو زاد أو نقص مثقال ذرة واحدة في هذا النظام لاختل نظام الدنيا بأسرها، وكذلك هو حال نظام سكينة وطمأنينة وأمن واستقرار هذا العالم الإنساني لا يمكن له أن يستقيم إلا بميزان هذه الشريعة وإلا يختل هذا النظام أيضًا. يقول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...**﴾(الحديد: ٢٥)

إن غرض وغاية بعثة الأنبياء هي جعل الناس يقيمون العدل والتوازن طبقًا لميزان الشريعة حتى يستقر الأمن والأمان في هذا العالم بهذا التوازن والعدل، والآن تدوي أصوات اتحاد أوروبا في كل بقعة من بقاع العالم، وبالتالي ظهرت شكوك وشبهات حول أهمية بعثة الأنبياء والرسل، وضرورة إتباع تعاليمهم. وبغض النظر عن المناقشة الواهية قم أنت بتحليل كل عمران الدنيا تحليلا عمليا حتى تجد أن كل نور من الصدق والحقيقة حيثما يلمع ويظهر جاء عبر هذه الشمس المشرقة وأي شخص يستطيع التمييز بين الخير والشر سواء كان متدينا أو ملحدا، سليم العقيدة أو بدون عقيدة، وسواء كان هناك حكيم يونان أو جاهل أفريقيا، وسواء كان متحضر أوروبا أو وحشي الصحارى، وسواء كان روميا أو زنجيا، مسيحيا أو يهوديا، عابد أصنام أو موحدا، مجوسيا أو هندوسيا،مسلما أو غير مسلم، مدنيا أو قرويا، وسواء كان من سكان سفح الهملايا أو من سكان واد عميق، أيًا كان وأينما كان لو كان هو على معرفة بعظمة اسم الله تعالى ويستطيع أن يُميز بين الخير والشر فهو ممنون ومدين بالشكر لرسل الله تعالى وأنبيائه والربانيين. وإن ما يوجد اليوم من عدل أو ميزان في العالم فهو ليس من أثر حكيم يوناني، أو من تأثير تعليم ومؤلفات وخطب فلاسفة أوروبا، بل هو نتيجة مباشرة أو غير مباشرة من تعاليم الأنبياء والرسل. وإن ما نجد اليوم في العالم من مبلغين – مهما كانوا سيئين – يدعون إلى الخير والعدل والإحسان

والمساواة والصلاح وحسن الخلق فكل تعاليمهم هذه مستمدة من تعاليم هؤلاء الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى للناس. وإن ما ناله الملحدون من خير هو من فيض تعاليم الأنبياء والرسل، وعليه إن من لا يؤمن بالأنبياء والرسل عقليا فهو يؤمن ويقر بهم عمليا وذلك من خلال أتباعه لتعاليمهم، ولهذا كان ظهور ووجود الأنبياء والرسل رحمة للعالمين، وإن ما أعلنه القرآن الكريم أكثر من مرة عن أن الكتب السماوية رحمة وهدى يعتبر توضيح وتفسير لغاية وغرض النبوة. ولذا جاء محمد ﷺ رحمة للعالمين. قال الله تعالى:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾(الأنبياء :١٠٧)

التأييد والنصر

يحقق الأنبياء والرسل الغرض والهدف الذي أرسلوا من أجله مهما واجههم من الصعاب والعوائق ومهما لاقوا من أذي ومشقة، ويشهد على هذا سير الأنبياء عليهم السلام وتاريخ دعوتهم. يقول الله تعالى:﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾(الصافات: ١٧١-١٧٣)

ليس في هذه الدنيا فحسب، بل ينال هؤلاء الأنبياء والرسل والذين آمنوا بهم النجاح والفلاح يوم الحشر. يقول الله تعالى:﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾(غافر: ٥١-٥٢)

ويأتي وقت عصيب على الأنبياء حين لا يقبل قومهم الهداية ولا يبدو بصيص من الأمل في هدايتهم فييأسون، وبسبب تأخير العذاب يحسب الكفار والمنكرون بأن العذاب الذي أنذر به الأنبياء ما هو إلا كذب، ولكن باب الأمل ينفتح فجأة، وتظهر أجنحة تأييد ونصرته، وتنشرح قلوب الصالحين للإيمان بدعوتهم، وينزل العذاب على الكافرين والمعاندين بأي طريقة ويستأصلهم. يقول الله تعالى:﴿**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا...**﴾(يوسف: ١١٠)

تفيض قلوب هؤلاء الأنبياء والرسل بيقين تأييد الله ونصره لهم، وحفظه لدعوتهم، لذا يتحملون كل الصعاب من أجل تبليغ رسالتهم وهم يحملون رؤوسهم على أكفتهم، ولا يكفون عن فريضة دعوتهم وتبليغها رغم أخطار جيوش وقوة وخناجر وسيوف معارضيهم، ولا يقبلون المداهنة معهم بأي ثمن، وحين يرى المعارضون عزلتهم وقلة حيلتهم في بداية دعوتهم يظنون أنهم خاسرون لا محالة، ولكن الله تعالى يثبت سوء ظنهم فيقول سبحانه وتعالى:﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ... ﴾(إبراهيم:٤٧)

وقد كتب الله تعالى من الأزل بأن النصر في النهاية يكون حليفا لمن ينادي بالحق والصدق. يقول الله تعالى:﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي... ﴾(المجادلة:٢١)

الخاتمة

كان الغرض من هذا التفصيل والشرح هو أن يرى القراء الكرام تجليا من تجليات الصفات والكمالات الحقيقية للنبوة. يقول مولانا حميد الدين رحمه الله تعالى[١]

اعرف الفلسفة من النبي،

واعرف قارورة الجواهر

ليس بالظن الحصول على القارورة،

إلا أن تجتهد حتى تحصل على الجواهر

وحين تمتلك الجواهر تصبح كمصباح الليل

وصارت القارورة سوداء مثل جناح الغراب

الفلسفة تكمن في قاع بئر النثر، ،

والشمس عالية، فاملك سلم خشبي

ولقد ألقى سلمه الخشبي خلف التراب،

فصارت رأسه مقلوبة

---

[١] – هذه الأشعار من الديوان الفارسي لمولانا حميد الدين المتوفى ١٩ جمادى الثانية ١٣٤٩هـ – ١٩٣٠م، ص٤٧،٤٦، مطبعة شمسي، حيدر آباد، الدكن، الهند.

وذلك النبي ﷺ هو نفسه حبل مرسل

من شرفة السماء إلى البشر

وقد التف بهذا الخيط حبل الروح

ثم لأعلى من بلاط الشمس

ويناديك النبى من السماء

ويمنحك الفلسفة من الأرض

وهذا يرشدك إلى تجاه الروح

الليل حالك الظلام

أحوال العالم الدينية والأخلاقية عند بعثة رسول الله ﷺ

إذا صح القول بأن الأشياء تعرف بأضدادها، حيث نستمتع بصقيع الشتاء عقب لهيب الحر القائظ، ونستشعر روعة النور فى الليالى الحالكة، وإن البرق ليزداد لمعاناً كلما اشتدت ظلمة الليل، فلا شك إذن أن تقييم أية حركة إصلاحية يستلزم أن نضع فى اعتبارنا مدى الضلال الذى كان يعم العالم فى عصرها، وقدر ما كان يعوزه من إصلاح كبير يحتاج بطبيعته إلى قدرة نبوية بل إلى قدرة النبي الذى قال الله سبحانه وتعالى فى شأنه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(الفتح: ١٠)

ويحق لنا أن نزعم أن التعاليم التى أهداها رسول الإسلام (ﷺ) إلى البشرية، كانت دعوة روحية وأخلاقية واجتماعية عظيمة إلى الناس كافة؛ ولذا ينبغي أن نبحث الحالة التى كان عليها العالم عند ظهور الإسلام. ويمكن القول إن العالم آنذاك كان مجرد كرة أرضية لم تكن تشرق عليها الشمس؛ إذ لم تكن هناك عقيدة صحيحة وصادقة فى أي بقعة من بقاع الأرض، وكان العالم بأسره محروماً من نور التوحيد، ففى مصر واليونان وروما انتشرت عبادة الشمس والقمر والنجوم والكواكب، وشُيدت لها المعابد وقُدّمت لها القرابين من البشر الأبرياء والحيوانات، كما كان الناس فى كل البقاع يعبدون شتى أنواع الأصنام والأوثان المصنوعة من الحجارة والفخار والذهب والفضة.

كانت هناك ثلاث مدارس أخلاقية فى ذلك الحين: هي الرواقية، والمسيحية، والبوذية وكان أتباع هذه المدارس ضحايا للعزلة والرهبانية والمسكنة فصاروا عناصر عاطلة أصابت تطور البشرية بالركود والاضمحلال، وفضلاً عن ذلك فقد ربطوا بين التقوى والعبادة وبين بعض الممارسات الرياضية الصارمة التى تقشعر لذكرها الأبدان اليوم أيضًا.

صحيح أن المسيح (عليه السلام) قد لقّن العالم دروساً فى تزكية الأنفس قبل ستة قرون مضت [1]، غير أنها بمرور الزمن صارت في طي النسيان وصحيح أيضاً أنه كان من قبله موسى(عليه السلام) الذي أشعل شمعة للهداية والخلاص، بيد أن عاصفة من الفتن والمفاسد قد أطاحت بهذه الشمعة وأطفأت معها سراج جبل الطور أيضا، وصحيح أيضا إلي هذا وذاك أن "زرداشت" قد أشعل نار الروحانية لفترة طويلة من الزمان، بيد أن هذه النار قد انطفأت بقطرات من دماء البشرية، وصحيح أيضاً أن بوذا سبقه فبحث فى كهوف وجبال الآريين عن مستقر آمن للروح، غير أن طوفانا من الأحداث قد حول هذه الجبال إلي صحراء مهجورة، وتلك الكهوف إلي مأوىٍ للحيوانات المتوحشة. لقد كانت الأمم تتناطح فيما بينها وكانت كل قبيلة تتعطش لدماء الأخرى، فتفشى الهوس وازدادت المطامع وأقبل الناس على سفك الدماء. وانتهكت المشاعر الإنسانية السامية أمام آلهة الغرائز الدنيئة، ومن ثم كان الإنسان قد فقد كل معانى العدل والاستقامة والعفة والورع، واختفي نور التوحيد خلف آفاق عالية من الظلمات التي نشرتها عبادة الأوثان والنجوم وتقديس الأولياء والشهداء.

خلاصة القول أن أحوال العالم بشتى صورها آنذاك، كانت تقضى بضرورة ظهور مصلح أخير لهذا العالم، ومعلم للأخلاق، وداعية إلي الحق، ومخلِّص لبنى البشر أجمعين. ذلك المصلح الذي من شأنه أن يجمع شمل الإنسانية بعد الشتات الذي لحق بها سنوات وسنوات، وأن يبعث الربيع الدائم من جديد في حديقة التوحيد والروحانية التي اعتلاها الخريف، وأن يعيد ظلمات العالم إلي صورتها الأولى كي تصبح مرة أخرى مصادر لإشعاع النور.

كانت هذه هي الصورة الإجمالية لما كان عليه العالم وقت بعثة النبي ﷺ ولمزيد من التفصيل يلزمنا أن نلقى نظرة على تاريخ كل أمة من الأمم ونتعرف على دين كل منها على حدة.

---

[1] أي قبل بعثة النبي ﷺ بستة قرون تقريبا. (يوسف عامر).

كيف كانت حالة العالم الدينية والثقافية عند ظهور الإسلام؟

كانت عظمة المصريين والكلدانيين، والآشوريين، والبابليين قد بلغت أوجها عند بعثة رسول الله (ﷺ)، بينما كانت الحضارات الشهيرة في شبه الجزيرة العربية وتخومها مثل النابتيين، والحميريين، والسبئيين وغيرهم قد شهدت سقوطها قبيل ذلك الحين.

إن ما يعنينا في هذا المقام هو أن نتعرف على الأمم التي كانت قائمة عند مطلع فجر السعادة، ونتعرف علي حالتها الدينية والأخلاقية وأن ندرك إلي أي مدى استطاعت أديان العالم آنذاك أن تفي بالمتطلبات الروحية لذلك العصر. كانت هناك قوتان عظميتان على وجه الأرض آنذاك: هما الفرس التي كانت تدين بالمجوسية ويمتد سلطانها من العراق إلي حدود الهند، والروم التي كانت تدين بالمسيحية وينتشر نفوذها في القارات الثلاث أوروبا، وآسيا،وإفريقيا، ولكن من الناحية الدينية نجد أمامنا أمتين جديرتين بالذكر، لهما جذور موغلة في القدم وهما اليهود والهندوس.

مجوسية الفرس

كانت دولة الفرس أول دولة تجاور شبه الجزيرة العربية، وكان طالع حضارتها قد بلغ ذروة كماله في يوم من الأيام، إلا أنه قبل البعثة بمائة وخمسين عاماً بدت عظمة الدولة الساسانية بكامل جاهها وجلالها ظلالاً توشك على الاندثار، فقد أنهكتها ونالت منها الثورات المتتالية، وإراقة الدماء، والاضطرابات السياسية، وأباد ظلم الملوك وأنانية الأمراء ولهوهم كل معاني الحق، والإخلاص، والأخلاق الكريمة التي تبنى عليها حياة أية أمة من الأمم.

كانت عبادة النجوم منتشرة في إيران بتأثير بابل، ويتجلى أثر ذلك في التوظيف الفني للأفلاك والنجوم في الأدب الفارسي حتى اليوم. أشعل زرداشت ناره في ظل هذا الظلام، واتخذ إلهين هما "يزدان" و"اهرمان"- إلها النور والظلام أو الخير والشر وجعل النار معبودته. وقبل الإسلام بعدة قرون ابتدع مانى ديناً جديداً مزج فيه بين المسيحية والمجوسية وانبثقت عنه معضلة فلسفة النور

والظلمة التي لم تنج [1] منها تلك الأمة حتى وقت قريب. وتدعو تعاليم هذا الدين إلي الانعزال عن العالم وإيقاف تكاثر السلالة البشرية من خلال الإضراب عن الزواج وتدمير وتخريب العالم حتى ينتهي الشر منه [2] وظلت الدوافع الأخلاقية عنده مختلفاً فيها، فلم يكن زواج الأب من ابنته أو الأخ من أخته أمراً مستنكراً [2]. وما أشد دهشتنا حين نعلم أن يزدجرد الثاني الذي كان ملكاً على تلك البلاد في منتصف القرن الخامس الميلادي، قد تزوج من ابنته ثم قتلها. أما المكانة التى أتيحت للمرأة في تلك الأمة وفي ظل تلك الديانة، فتبدو لنا جلية من خلال بعض الأساطير والمقولات التى مازالت حتى الآن رافداً من روافد الأدب الإيراني والتي يمكن لأي إنسان الآن أن يرصدها في صفحات الشاهنامة [3]، لقد كانت خيانة المرأة وسوء خلقها وانعدام الثقة فيها أبرز عناصر الحضارة الإيرانية القديمة.

---

[1] كتاب الفهرست، ابن النديم، ذكر مانى. وكتاب البدء والتاريخ، المقدسى، ذكر فرقة المانوية.

[2] تاريخ عزرا، أخبار الفرس، الثعالبى، طبعة باريس صـ٥٠٢.

[2] تاريخ عزرا، أخبار الفرس، الثعالبى، طبعة باريس صـ٢٧.

ورد في سنن أبى داود أن سيدنا عمر (رضى الله عنه) أمر في عهده بأن يمنع المجوس من القيام بهذا العمل الشنيع (كتاب الخراج والإمارة والفيء)، الجزء الثانى صـ ٢٦. وهذا نص الحديث: حدثنا مسدد بن مسرهد، ثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، سمع بجالة يحدث عمرو بن أوس وأبا الشعثاء قال: كنت كاتبًا لجزء بن معاوية عمّ الأحنف بن قيس إذ جاءنا كتاب عمر قبل قتله بسنة: اقتلوا كل ساحر، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس، وانهوهم عن الزمزمة، فقتلنا في يوم ثلاثة سواحر، وفرّقنا بين كل رجل من المجوس وحريمه في كتاب الله تعالى، وصنع طعامًا كثيرا فدعاهم فعرض السيف على فخذه فأكلوا ولم يزمزموا، وألقوا وقر بغل أو بغلتين من الورق، ولم يكن عمر يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجَرَ.(يوسف عامر).

[3] الشاهنامه ملحمة باللغة الفارسية نظمها شاعر الفارسية الكبير الفردوسي. (يوسف عامر).

كان السلاطين والأمراء - كل حسب مرتبته- آلهة للرعايا الذين كانوا يسجدون لهم[١]، وينشدون المدائح في ألوهيتهم، ولم يكن لأحد أن يجلس في بلاطهم، أو يجرؤ على التفوه بكلمة ضدهم، كما لم تكن تتم معاقبتهم على الجرائم التى كانوا يرتكبونها، ولم يكن بوسع الرعايا أن يعترضوا على المظالم التى تقع عليهم من هؤلاء الحكام.

كان الجزء الأكبر من البلاد يعانى من القلق والاضطرابات الناجمة عن الحروب المتواصلة مع مسيحيى الروم وكان هناك صراع دائم بين الكنائس ومعابد النار، فحين ينتصر الروم تُهدم المعابد وتُشيد الكنائس وحين ينتصر الفُرس تُهدم الكنائس وتُبنى معابد النار ومعابد إله الشمس. أما ألوان الاضطهاد والظلم التى كانت تقع على اليهود فنجد عنها نبذه إجمالية في" قصة البر" التى وردت في التوراة، كما نجد في مواضع متفرقة من صفحات جيبون [٢] استطرادات تتناول صنوف الظلم والجور التى عانى منها المسيحيون المهزومون فيما بعد.

قبل البعثة بسنوات تولى عرش تلك البلاد الملك قباد الأول بن فيروز، الذي تفاقمت في عهده الغزوات الخارجية والاضطرابات الداخلية، مما دفع بالشعب إلي اعتقاله[٣]. لكن سرعان ما لاذ قباد بالفرار من السجن ولجأ إلي التتار الذين ساعدوه على استعادة عرشه. غير أن مصيبة أفدح من ذلك قد حلت بتلك البلاد حيث ولد في ذلك العصر شخص يدعى مزدك ونادى بألا تكون هناك ملكية خاصة للثروة أو للمرأة وأن يكونا مشاعاً لكل فئات الناس، ومن ثم كان من حق زوجة رجل واحد أن تعاشر جميع الرجال وفقاً لما تقره شريعة مزدك هذا، فكان من الطبيعي أن يرتضى ذلك سائر المجانين والمهووسين من الأمراء والرعية

---

(١) مجوعة مؤرخين، تاريخ العالم، جـ٨ صـ٨٤.

(٢) هو (Gibbon) مستشرق إنجليزي مشهور، وصاحب كتاب "The fall of the Roman Empire" أي سقوط الإمبراطورية الرومانية. (يوسف عامر).

(٣) عزرا، أخبار الفرس، الثعالبى، صـ ٥٠٠، باريس.

على السواء[1]. وسرعان ما تألق هذا الدين تحت المظلة الملكية فساهم قباد نفسه مساهمة ملحوظة في سبيل نشره والعمل على استقطاب أتباعه. ولا يخفي على أحد أثر مثل هذه التعاليم على أخلاق الشعوب، ونتج عن ذلك أن صارت البلاد بأسرها غارقة في اللهو والمجون.

في سنة ٥٣١ م خلف قباد على العرش خسرو نوشيروان، المعروف لدى الإيرانيين – حتى يومنا هذا– براعى العدل إلا أنه لم ينل هذا اللقب المبارك إلا بقتل أقاربه وضباطه وآلاف الأبرياء من الناس، حيث أخمد الفتنة المزدكية بحد السيف، وأراد أن يبعث روح الازدهار في جسد الديانة الزرادشتيه، غير أن ابنه نوشزاد كان ينزع إلي التثليث فعوقب بالسجن وفر منه ثم عاد على رأس جيش مسيحي لمحاربة الزرادشتيين حيث لقى مصرعه في هذه المعركة.[2]

توفي نوشيروان في سنة ٥٧٩ م وتولى عرش إيران هرمز الرابع، فازدادت التدخلات الأجنبية والاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية، كما أسرف الملوك في غفلتهم، والأمراء في لهوهم وانتشرت بين أفراد الشعب حالة من الانحطاط الأخلاقي، إلي أن انتهي ذلك كله بانطفاء هذه الشمعة الخافتة لبلاد الفرس أمام عاصفة الفتح الإسلامي العاتية في سنة ٦٣٦م.

ربما نتبين مما سبق ذكره أن أصداء أنشودة التوحيد لم تلق تجاوبا أبداً على أرض إيران، وأن ثمة صفات أخلاقية عديدة لم يتضمنها دستور أهلها، كما أن تعقيدات يزدان واهرمان وفلسفتي النور والظلمة والخير والشر قد أصابت أهل فارس بالحيرة الدائمة، كما أنهم كانوا يعتقدون أن الملوك وذوى السلطات في منزلة الآلهة، فخلال حرب المسلمين مع الفرس ذهب المغيرة بن شعبة كسفير للمسلمين إلي بلاط قائد إيران وأقبل عليه متحرراً من التكلف وجلس قبالته، فاعتبر أمراء إيران ذلك إهانة لنائب سلطانهم وأوقفوا المغيرة أمامه في شئ من

---

[1] دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشر، جـ ٢١ صـ ٢٢٣.

[2] عزرا، أخبار الفرس، الثعالبي، ص ٥٩٨، باريس.

الاستحقار، فقال لهم المغيرة : ليس من عاداتنا نحن العرب أن نتخذ من أحدنا إلهاً ونعبده[1].

إن ذلك الاضمحلال السياسي الذي برزت إرهاصاته الأولى في إيران قبل ميلاد الرسول (ﷺ) بقرن ونصف، كان يتفاقم يوماً تلو الآخر، ومن ثم يتجلى لنا بوضوح أن تلك الآونة قد شهدت خواء نار الفرس الروحية من جذوة واحدة للحياة، ولذلك فحين بزغ نور الإسلام لم يجد ما يحجبه عن الانتشار. وها نحن نورد فيما يلي رأياً حول فتح فارس "لهرجان ملكم" المعروف بتعصبه للمسيحية والذي بلغ من تطاوله على جند المسلمين أن لقبهم بلصوص العرب، يقول:

"تكمن الأهمية التاريخية لعهد يزدجرد الثالث فى أنه العصر الذي قامت فيه جماعة من الحفاة العراة بتقويض عرش الإمبراطورية الفارسية القديمة، مما أثار الفرس على قوتهم وتغطرسهم أن يذكروا تلك الفترة، وما كان فيها من انتصار العرب رغم ضعفهم وبداوتهم. ولم يكن سبب هذا الانتصار العظيم سببا عاديا، إذ يرى مؤرخو الفرس المسلمون استناداً إلي وطنيتهم وبعض استنتاجاتهم المهمة أن هذا الحدث ما هو إلا معجزة كبرى أظهر الله بها صدق محمد (ﷺ)، أما من يتأمل هذا الحدث من الناحية الدنيوية فسيدرك على الفور أن الإمبراطورية الفارسية التي اعتراها الاضمحلال في تلك الفترة نتيجة للهو والعبث وانتشرت في أرجائها الاضطرابات نظراً للخلافات الداخلية، كما أجهدتها الحروب مع القوى الأجنبية وبلغت من العجز والهرم ما أحدب ظهرها نحو قاع السقوط. وكان من العسير عليها في ظل هذا كله أن تقاوم جيوش "لصوص العرب" بما كان يملؤهم من حماس وتحفز[1].

لكن سؤالنا هنا هو لماذا كان ضعف الساسانيين الأشراف واضمحلالهم تمهيداً لتطور "لصوص العرب"؟ هل كان لدى العرب العزل من الأسلحة والعتاد والجند ما يفوق ما كان لدى الإيرانيين والعراقيين خلال معاركهم التي سبقت ذلك

---

(١) تاريخ الطبري، وردت في وقائع سنة ١٤ هـ، صـ ٧٤، ٢٢ طبعة بريل.

(١) تاريخ إيران، ملكم، ج ١ صـ ١٣٣.

مباشرة. واقع الأمر أن نار زرداشت كانت قد فقدت حرارتها كما أهدرت فلسفة النور والظلمة والخير والشر كل الطاقات العملية للفرس، فضلاً عن أن السلطتين الفعليتان لـ"يزدان" و"اهرامان" كانتا قد دمرتا مملكة السلام الروحي هناك. هذا وقد شهدت تلك الفترة ظهور العشرات من النظريات الفلسفية والفرق الدينية المختلفة، كانت أهمها فرقة المانوية التى كانت مزيجاً من المسيحية والمجوسية، وفي نهاية المطاف ظهرت التعاليم البوهيمية للفرقة المزدكية التى دفعت بروح الفرس الأخلاقية إلي شفا حفرة من الموت[1]. أخمد نوشيروان هذه الفتنة بحد السيف فنال بذلك لقب "الملك العادل والعاطى" إلا أنه بعد إراقة كل تلك الدماء ظلت حياة الفرس الروحية عطشى كسابق عهدها، وكانت تنتظر ذلك الينبوع الذي ما إن تفجر في صحراء العرب الجافة حتى تدفق إليها فى انسياب لتنهل منه وترتوي.

مسيحية الروم

بقدر ما كانت إيران تعانى من الانهيار المادي والمعنوي قبيل ظهور الإسلام، كانت حاضرة دولة الروم تتعرض للتآكل والانهيار، مع أنها روما العظمى التى كانت تعتبر أعظم دولة في العالم بعد سقوط الإمبراطورية اليونانية، كما يعد أحد ملوكها، وهو يوليوس سيسوس الملقب بقيصر رمزاً للسلطة والقيادة الملكية على مر العصور.أرسل سيدنا عيسى (عليه السلام) إلي هذه الإمبراطورية وتلا رسالة سلام على هذا العالم ثم رحل عنه، وما إن رفعه الله إليه حتى تفرق تلاميذه وصاروا شيعاً. وفي نهاية المطاف ظهر رجل يهودي حديث عهد بالمسيحية يدعى بال وفرض سيطرته على المسيحيين لدرجة أن بدعة التى اختلقها في هذا الدين قد طمست معالم المسيحية الأصلية إلي الأبد، حيث إنه هو الذى أدخل فيها المعتقد الآثم الذي يقول بأن هناك الأب والابن والروح القدس،

---

(1) لمزيد من التفصيل، أنظر الفهرست، ابن النديم صـ ٤٤٢، مصر.

كما أن التوراة التى لم يكن المسيح (عليه السلام) ليمحى نقطة منها [1]، قد تحولت إلـي لعنة أبدية [2] على أيدي (بال) مدعى تلمذته الروحية. وفي سنة ٣٢٥م انقسمت الروم إلي شطرين شرقي وغربي، واعتنق قسطنطين الأكبر - ملك الجناح الشرقي - المسيحية، ثم ما لبث هذا الدين أن انتشر تدريجياً في سائر أرجاء الروم. غير أن حقيقة الأمر هي أن ملك هذا الجزء الشرقي من الروم لم يُقبل على اعتناق هذا الدين إلا بما أملته عليه مصالح الدولة وسياستها العليا وليس بوازع روحي أو أخلاقي فحسب، فنتج عن ذلك أن تغلغلت عقيدة تأليه الثالوث: الأب، والابن، والروح القدس في أوصال هذا الدين، وبات انتشارها أمراً لا مندوحة عنه في كل البلدان التى يتسنى للروم دخولها، كما أن ارتقاءه المفاجئ على عرش البلاد قد شجع رجال الدين على عقد مجالسهم في ظل البلاط الملكي، وأخذوا يشكلون دين الله على هواهم سعياً إلي وأد الصراعات العقائدية، بيد أن كل محاولة منهم للاتحاد والتوائم كانت مقدمة لتفرقة دينية جديدة ،وهكذا تشعب الدين المسيحي إلي عشرات ومئات الفرق خلال قرن واحد من الزمان.

حين توفي قسطنطين في سنة٣٣٧ م اندلعت نيران الحروب الأهلية بين أهل الروم إلي جانب ما كان بينهم من منازعات وصراعات دينية، وانشق كبار رجال الدولة إلي تكتلات متباينة فاحتدم بينهم النفاق وإشعال الفتن والاضطرابات، وآل ذلك كله إلي تقسيم دولة الروم إلي أقاليم شتى وإسناد السلطة إلي أدعيائها المتعددين[1]، فكان من الطبيعي أن يتسبب ضعف الحكام غير المؤهلين في تعريض البلاد لغزوات بعض الدول الهمجية أمثال "جوث" و"فيندال" وغيرهما من ناحية، وتحفز سكان الأقاليم النائية للقيام بثورات من ناحية أخرى ، فنجم عن ذلك كله انهيار الجناح الغربي لدولة الروم، والذي كان يضم بريطانيا وفرنسا وغيرها، في أواخر القرن الخامس الميلادي، وظلت عاصمة الروم نفسها عرضة

---

[1] إنجيل متى الإصحاح٥، الفقرة ١٧. وهذا نصها "لَا تَظُنُّوا أَنِّيَ جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ* مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ بَلْ لِأُكَمِّلَ".(يوسف عامر).

[2] وردت هذه الفقرات في الإنجيل فى مواضع متفرقة من سفر أعمال الرسل، والرسائل.

[1] تاريخ جيبون، سقوط الإمبراطورية الرومانية، ج ١، ص٤٨٨، ٤٩١.

لغزوات الأعداء [١]. وخلال تلك الفترة أي في منتصف القرن الخامس بدا للناس جلياً أنه قد آن الأوان المفترض أن تتحقق فيه نبوءة كهنة ذلك العصر، التى كانت تقول بأن هذه الدولة ستظل قائمة اثنى عشر قرناً، وذلك كتفسير لرؤيــة جــدهم الأكبر التى رأى فيها اثنى عشر نسراً. ويصوغ لنا المؤرخ جيبون صورة لــذلك العصر في هذه العبارة :

" لم تعتن تلك الأمة أبداً بهذه النبوءة إبّان عصور ازدهارها ورفعتها، غير أنها تعرضت للاضمحلال وتولاها سوء الطالع عند انتهاء الاثنــي عــشر قرنــاً ،فأخذت تتأثر بهذه النبوءة القديمة التى أشاعت مشاعر اليأس والقنوط بين أهــل الروم. بيد أن ذلك العصر قد شهد مؤشرات أخرى لسقوطها أبرز مــن "رؤيــة النسور" هذه، فقد كانت دولة الروم تضعف وتنهار يوماً بعد آخر أمام أعدائها فيما كانت تقوم داخلياً بتصعيد عمليات القمع والقهر التى كانت تفوق احتمال رعاياها، وبينما كانت تغفل الاقتصاد المالي أيما دعت إليه الضرورة كانت تقوم فى الوقت نفسه برفع الضرائب وإثقال كاهل رعاياها بأعباء متزايدة[٢].

بدأ أمراء الروم يلقون عبء نفقاتهم على عامة الشعب الذين حرموا بــذلك من دخلهم الضئيل، وبلغت القيود المقررة لتحصيل الضرائب من الشعب مبلغهــا حتى ولدت لديهم نفوراً وكراهية إزاء حكومتهم، وبلغ الأمر في ذلك إلي أن صار أبناء الروم الذين طالما افتخروا بلقبهم هذا، يستحون من أن ينسبوا أنفسهم إليهــا ويفضلون أن تحكمهم أكثر الدول همجية من أن تحكمهم دولــة الــروم. وكــان الأمراء والوزراء والسلاطين يعادون الرعايا بأفعالهم وإجراءاتهم المشوبة بقصر النظر السياسي، وإذا ما هب الشعب ليتمرد على هذه الأوضاع حــاولوا ردعــه بحملات عسكرية إلا أن محاولاتهم كانت تبوء بالفشل. قصارى القول إن البلاد قد أصيبت بحالة من الاضطرابات الداخلية، عبر عنها جيبون بقوله:

---

(١) تاريخ جيبون، سقوط الإمبراطورية الرومانية، ج٢، باب ٣٦، ٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦١.

"لو لم يكن للروم آنذاك كل ما كان لهم من جحافل الأعداء الأجانب لما حال ذلك دون سقوط وانهيار جناح دولتها الغربي"(١).

بعد أن انتزع من الروم الجناح الغربي في أواخر القرن الخامس ظلت الأقاليم الشرقية الممتدة من نهر الدانوب إلي نهري دجلة والنيل تحت سيطرتهم، غير أن أحوال تلك الأقاليم هي الأخرى كانت تزداد حساسية وخطورة يوماً بعد الآخر. ويقول المؤرخون إن الجيش الرومي الذي بلغ عدده في يوم من الأيام ٦٤٥٠٠٠ جندي قد انخفض في عهد الملك جوستنيان (أي في سنة ٥٢٧ ميلادية) إلي أقل من ربعه فأصبح ١٥٠٠٠٠ جندي فقط ، وكانوا في أسوأ حالات الفرقة والشتات. وبينما كانت جيوب الرعايا خاوية، ارتفعت مرتبات الجند، واستباح الأمراء والأعيان كل ألوان الغش والتزييف والرشوة والسلب والنهب ،وعلى كثرة أسماء الجند التى كانت مدونةً في قائمة الجيش لم يكن يُرى عند خروجهم إلي أرض القتال إلا عدد ضئيل جداً ممن لديهم الاستعداد التام للقتال. وبدلاً من أن يقضي ضباط الجيش أوقاتهم في التدريب على فنون القتال كانوا ينفقونها في تراشق سهام الحقد والضغينة فيما بينهم، وكان الشاغل الأكبر لكل ضابط منهم هو استغلال ما يلحق بعض زملائه الضباط من سوء السمعة والمهانة حتى يحصل هو على أعلى المناصب (٢).

لم يكن هناك ما هو أكثر سوءاً من الاضطرابات الداخلية، غير أن الأعداء الخارجيين كانوا لا يدعون أهل الروم ينعمون بالعيش في سلام ولو لحظة واحدة، فقد كانت هناك سلسلة متتالية من الحروب بين الفرس والروم ثم تلتها الغزوات المتعاقبة للومباروس، وجوثيس، وفيندالس وغيرها، والتي كان من شأنها أن بددت البقية المتبقية من قوة الروم.

خلاصة القول إنه مع نهاية القرن السادس الميلادي أي قبل مولد خاتم النبيين (ﷺ) بسنوات قليلة وصلت الروم –على حد قول جيبون– إلي أدنى

---

(١) تاريخ جيبون، سقوط الإمبراطورية الرومانية، ج٢، ص ٤٦١.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ١١٣.

مراحل سقوطها وانطبق عليها تماماً هذا التشبيه الذي ورد على لسان جيبون من أنها كانت كشجرة عظيمة عاشت جميع أمم العالم في ظلها لفترة من الزمان، غير أن الخريف قد هب عليها فأسقط فروعها وأغصانها فضلاً عن أوراقها وثمارها حتى صارت مجرد جذع يابس، كما كان الخوف من دخول الأعداء حاضرة البلاد قد سيطر على السكان كافة فتعطلت كل الأعمال التجارية تقريباً، أما الأسواق وأماكن اللهو التى كانت تشع بهجة ورونقاً، فصارت وقتئذ موحشة مقفرة، هذا وقد شاع الهوس والمجون لدرجة أن الناس قد أخذوا يفضلون- منذ فترة – حياة العزوبية على الحياة الزوجية حتى يتسنى لهم إشباع غرائزهم الشهوانية بمزيد من الحرية واليسر[1].

وإذا صرفنا النظر عن الحالة السياسية والأخلاقية للبلاد وسلطنا الضوء على الجانب الديني لرأيناه أكثر قبحا وأشد إيلاماً للنفس، فناهيك عن عبدة الأوثان من الرعايا الذين التزموا عادة بعبادة النجوم، والآلهة، والتماثيل، كان معتنقو المسيحية أنفسهم يؤمنون بإلوهية الأب، والابن، والروح القدس، وظهرت فرق شتى تسعى لتحديد مكانة سيدنا عيسى (عليه السلام) والسيدة مريم والروح القدس، فنشبت بينها المنازعات التى تمثلت في صورة مناظرات شفوية ثم تحولت إلى معارك حربية، وبلغ الأمر في سنة ٥١٤م إلى اندلاع معركة دينية كبرى بين فرقتين نصرانيتين. أسفرت عن هجرة ٦٥٠٠٠ ألف مسيحي[2].

وعلاوة على هذه الحرب كان كل فريق متعطشاً لدماء الآخر على الدوام ولطالما سفكت الدماء لأتفه الأسباب، كما كان الأساقفة يتخذون من مناصبهم الدينية مطية للحصول على الجاه والسلطان. ومن ثم انغمسوا في شتى الممارسات غير المشروعة من أجل شغفهم بالجاه فقط، ومن بين كبار هؤلاء الأساقفة كان هناك عضو مجلس الشيوخ سرل الذي قام بعمليات إجرامية شنيعة، تحتاج إلى كتاب كامل لسرد تفاصيلها، ومنها أنه اصطحب مريديه ذات مرة وأغار على

(١) تاريخ جيبون، سقوط الإمبراطورية الرومانية، ج٣، ص ٣٧٢.

(٢) تاريخ جيبون، سقوط الإمبراطورية الرومانية، ج٣، ص ٣٤٤.

مجموعة من اليهود العزل، ونفاهم جميعاً خارج البلاد، كما استولى هو ومريدوه على أموالهم وأمتعتهم وحطم معابدهم. وقد كان الخصم المنافس لسرل أسقفاً يدعى أرستس، وكان يعبر طريقه فى أحد الأيام فإذا بجماعة من خمسمائة راهب قد انقضوا عليه وانهالوا فوقه بوابل من الحجارة حتى أثخنته الجراح وسالت دماؤه[1]، وكانت هناك سيدة صديقة لسرل تدعى بليشيا، كانت عائدة ذات مرة من مدرستها فهاجمتها جماعة كبيرة من الراهبان وأخرجوها من عربتها ثم جردوها من ثيابها وجروها هكذا في شوارع المدن كلها حتى ألقوها في الكنيسة حيث لاقت حتفها بإيعازمن القس بيتر، وبعد أن قتلوها فصلوا لحمها عن عظمها، ومزقوا جثمانها إرباً إرباً ثم ألقوا[2] بها في النار. إن القلم ليرتجف عند سرد مثل هذه الوقائع بيد أنها كانت أبرز الأعمال التى قام بها حملة لواء الدين المسيحى.

كانت هذه هي أحوال البلاد التى انتشرت فيها المسيحية التابعة للروم، أما اليعقوبية، والنسطورية، وسائر الفرق الأخرى التى كانت منفصلة عن الدين المسيحى الرسمي، فقد كانت تبحث عن ملاذ لنفسها في أقاصي البلاد والأقاليم، وبعد مجلس نايس كانت المعارك التى نشبت بين آريوس وخصومه خير دليل على أنه كان من المستحيل أن يفلت دين "أمير السلام" من التداعي والانهيار على أيدي هؤلاء المقاتلين.

يتضمن ما كتبه السيد مارس – الذي زعم أن رسول الإسلام –حاشا لله– "مخادعٌ كبيرٌ " – في موضع من كتابه "تاريخ الهند" ما يلي :

" لقد بدأت تلك المرحلة الحاسمة (أي فترة ظهور الإسلام) في خضم كل هذه البدع الماجنة التى كانت تدنس الكنيسة، وفي خضم هذه السلسلة المتتالية من النزاعات التى أثارت الفتنة داخل الكنيسة، ورغم أن شعاع المسيحية الحقيقة كان يتجلى في الشرق فإنه كان خافتاً جداً، وتحت وطأة الصراعات الداخلية وما صاحبها من غزوات خارجية، تزعزعت قوة قياصرة الروم من جذورها وأخذت

---

(1) المصدر السابق، ص ٣٢٧.

(2) المصدر السابق، ص ٣٢٣. وتاريخ دريبر، الحرب بين العلم والدين، صـ١٥٥

تتداعى بسرعة خاطفة. وكان اليهود يتبعون تلك الشريعة الجديدة إتباعا التى ابتدعها رجل حقير يدعى جاليلي الذي حظى دينه آنذاك بكامل العظمة والأبهة الملكيتين إثر اعتناق الملك قسطنطين المسيحية، كما كانوا على استعداد لدعم أية حركة تسعى للقضاء على هذا الدين المستنكر. وكان الفرس يشاهدون بعيون يملؤها السخط والغضب أولئك الغزاة المسيحيين وهم يمارسون طغيانهم حيث انتهكوا حرمة آلهتهم: الشمس والنار. وهكذا كان عالم الشرك كله ينوح على آلهته المدمرة ومعابده المحطمة، وقد أعد العدة كي يثأر لها.(١)

ومع أن السيد مارس قد صبغ تصويره للأحداث بصبغة مسيحية خالصة، فإنه ربما يكون أكثر منا تسليماً بصحة الوقائع ذاتها.

على أية حال يذكر المؤرخون أن الحالة التى كانت عليها المسيحية طوال الفترة الممتدة من القرن الثالث وحتى القرن السابع الميلادي كانت عاراً على هذا الدين وكانت الشعائر المختلطة قد حلت محل الدين، حيث أثرت معتقدات الروم الوثنية القديمة فى تعاليم الديانة المسيحية. وازداد ضعف الإيمان حتى انتشرت عبادة الأضرحة وبات الناس يتضرعون إلي كبار القساوسة بعد وفاتهم، ومن ذلك التوسلات التى كان يقوم بها الناس في بلاد الشام إلي كبير الأساقفة بعد وفاته هناك، كما كان يُسجد لكبير الأساقفة والبطريرك اللذين كانا في بلاد الشام(٢)، كما تفاقم تجسيد المسيح ومريم، والروح القدس والحواريين وكافة الأساطين المسيحية

---

(١) تاريخ الهند لمارس، ج١، ص ١٨٣.

٢ سنن ابن ماجه، باب حق الزوج على المرأة. وهذا نص الحديث: (١٩٠٧) حدثنا أَزْهَرُ بْنُ مَرْوَانَ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ الْقَاسِمِ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ. قَالَ: «مَا هٰذَا يَا مُعَاذُ؟» قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ. فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذٰلِكَ بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَلاَ تَفْعَلُوا. فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا، وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ، لَمْ تَمْنَعْهُ». (يوسف عامر).

الأخرى في صورة تماثيل، وازداد الإقبال على عبادتها إلي الحد الذي لا نجد له مثيلاً حتى في وثنية الكاثوليكية الرومية فيما بعد.(١)

يكتب السيد سيل في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم ما يلي :

"لقد قام أساقفة الكنيسة بتمزيق الدين ونزعوا منه الخير والسلام والمحبة، ونسوا الدين الحقيقي فنسجوا حوله أخيلة ومعتقدات كانت مثاراً لنزاعاتهم وخصوماتهم. وهكذا ظهرت في ذلك العصر المظلم أغلب الأوهام والمعتقدات الخاطئة التى جلبت العار على الكنيسة الرومية، وبخاصة عبادة الأولياء والتماثيل التى انتشرت آنذاك بصورة فجة. وبعد مجلس كينيس انصرفت الكنيسة الشرقية إلي عقد المناظرات اليومية وتفرقت شيعاً خلال الصراعات التى وقعت بين إيرنيس وسلينس ونسطورينس ويوتنكينس، هذا وكان يتم بيع العدل علانية وممارسة كل أشكال الرشوة. أما في الكنيسة الغربية فقد بلغ التنافس على كرسى البابا الأكبر بين دينس وأرميسينس حد القتال الذي انتهى بانتصار دينس، ويذكر في هذا الصدد أن ١٣٧ رجلا قد عثر عليهم مقتولين في كنيسة سيسى ننيس (sicininus) ولاغرو في ذلك، إذ إن أولئك الناس كانوا يتطلعون بإصرار بالغ إلي هذه المناصب حيث كانت تتيح لصاحبها أن يحصل على أثمن الهدايا، وأن يخرج في مواكب فخمة وأن يكون لموائده من العظمة والجاه أكثر ما لموائد الملوك. وكان الملك في الغالب الأعم هو السبب في هذه المنازعات فقد ازدادت الأحوال سوءاً في عهد جوستنيان - الذى كان يرى أن قتل معارضي عقيدته لا يعد جريمة.

وكانت النتيجة الحتمية لكل المفاسد الأخلاقية والعقائدية التى كانت منتشرة بين الملوك والأساقفة أن انعكس ذلك على عامة الناس فتفشت بينهم الأخلاق المبتذلة وأصبح هدفهم الأول والأخير هو حصد الأموال أياً كان مصدرها وأياً كانت طريقة كسبها ثم تبديدها في شتى مصارف اللهو والترف. وفضلاً عن فساد المعتقدات كان الضعف قد استحوذ على دولتي الروم والفرس، فبعد وفاة الملك

---

١ مقدمة السيد سيل لترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم، ص٢٥، ٢٦.

قسطنطين كان الاضمحلال يدب في جسد الروم يوماً تلو الآخر، حيث اشتهر خلفاؤه عامة بالجبن والهوان وإيقاع الظلم بالناس حيث واصل الجلاثيون انتهاكاتهم الغاشمة للجناح الغربي لدولة الروم حتى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومما أباد قوتهم ترف اليونانيين ولهوهم ومساوئهم الأخلاقية." يقدم دربير الصورة التى اعتنق بها الروم المسيحية بقوله:

" نتج عن الصراع المتبادل بينهما (المسيحية والوثنية) أن امتزجت مبادئها وانبثق عنهما دين جديد تجلت فيه عظمة المسيحية ومكانتها جنباً إلي جنب مع الوثنية [١]، وما لبثت تلك المعتقدات الدينية التى تحدث عنها ترتلين بالتفصيل تتغير وتتبدل بمرور الزمن حتى صارت شائعة، بيد أنها اتخذت صورة الدين الهابط من عرش الأخلاق. وقد كانت الوثنية اليونانية القديمة أحد العناصر التى تغلغلت في تلك المعتقدات، كما تمت صياغة عقيدة التثليث في قالب مصري قديم، ولقبت السيدة مريم العذراء بأم الله." [٢]

ظهرت في تلك الفترة جماعة اسمها ""المريمية" كانت تؤمن بالأقانيم الأربعة بدلاً من الأقانيم الثلاثة، حيث جعلت السيدة مريم شريكة في الألوهية أيضاً، وهذا ما دحضه القرآن الكريم في سورة آل عمران. وإلي جانب ذلك كله نجد الكثير من المعتقدات التى انتقلت من الوثنية الرومية إلي المسيحية، ومن ثم بدأت طقوس عبادة الآلهة الرومية تجد مكانها في أروقة الكنائس المقدسة ولكن بمسميات مختلفة ،هذا وكانت هذه النقاط أيضاً مثار خلافات شديدة بين الفرق المختلفة، حتى أن السلطات كانت تضطر مراراً إلي التدخل لتسوية هذه المنازعات الدينية. وبالتدريج ازداد الإقبال على الرشوة. وبلغ الأمر في ذلك إلى أن حصول الفرد على خدمات دينية جليلة كان موقوفاً على مدى نفوذه وتقربه من ذوى المناصب الدنيوية الكبرى [٣].

---

[١] الحرب بين العلم والدين، دربير، ص٦٢.

[٢] المصدر السابق، ص ٦٥، ٦٦.

[٣] مقدمة ترجمة السيد سيل الإنجليزية للقرآن الكريم، ص ٢٦.

كان هذا هو الحال في الجناح الشرقي للعالم المسيحى، أما نظيره في الجناح الغربي فقد كان أكثر منه سوءاً، إذ كان من المألوف هناك حدوث صراعات وإراقة الدماء من أجل الوصول إلي المناصب الدينية التابعة للإمبراطورية الرومية، حتى أن عدد القتلى في غير مرة كان يبلغ عدد القتلى في أشد الحروب ضراوة، ومن ذلك أن القتال اندلع ذات مرة بين أسقفين للوصول إلي منصب ديني كبير فقتل ١٣٧ رجلاً في غضون يوم واحد فقط [١]. وكان الدافع الوحيد وراء هذا النضال الدموي هو أن المناصب الدينية آنذاك كانت تمثل أهم موارد الكسب بكل أنواعه حيث يتسنى من خلالها اقتناء الذهب وإشباع الغرائز والتمتع بالوجاهة الاجتماعية، ولذا كانت موائد الأساقفة عامرة بما يفوق موائد الملوك في بهائها وفخامتها وثرائها[٢].

كان من الطبيعي أن تنعكس أخلاق السلاطين وحملة الدين على الرعية والمريدين، فنتج عن ذلك أن انتشرت الأخلاق السيئة ومظاهر الإسراف والمجون في جنبات العالم المسيحى. [٣]

حصل الأساقفة وغيرهم من أصحاب المناصب الدينية على اختلاف مراتبهم- على امتيازات ملكية إن لم تكن إلهية، فما يحلونه من الأرض، يحل في السماء، وما يعقدونه هنا، يعقد هناك، وقد أشار القرآن الكريم إلي ذلك في هذه الآية الكريمة،قال تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾(التوبة: ٣١).

كما كانت حياة العزلة والرهبنة هي أهم لوازم التدين، فكانت أرقى مراحل العبادة عندهم هي حرمان الجسد من كل ألوان المتعة والراحة وقضاء العمر كاملاً بين براثن المشقة والعذاب وكل ما يبعث على الألم، فكان هناك من يقسم بألا يغتسل طوال حياته، ومن يمرغ جسده في الوحل، ومن يكبل نفسه بالأغلال الثقيلة، ومن يحرم على نفسه الجلوس في الظل، ومن يسجن نفسه في

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣) وردت هذه الأحداث بالتفصيل في الجزء الثاني من تاريخ أخلاق أوروبا.

حجرة معتمة. وكان الوالدان، والأقارب، والأبناء هم أشـواك طريـق التقـوي والتدين، فكان اجتنابهم بل النفور منهم من كمال التقوى وبواعث الفخر عندهم.

الهند

الهند إحدى دول العالم المتحضرة التى ظهرت على أرضها ديانات ذات شأن وأثر. وقد مرت حضارة الهند بخمس مراحـل : المرحلـة الأولـى هـي الهندوسية القديمة (الخالصة) أي العصر الفيدى الذي امتد من حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م إلي ١٤٠٠ ق.م، والمرحلة الثانية هي المسماة بالحرب حيث اندلعت فيهـا المنازعات بين الجوريين والبانديين وغيرهم وقد امتدت من نحو ١٤٠٠ق.م إلي ١٠٠٠ ق.م،والمرحلة الثالثة هي العقلانية (العقلية) التـى سـاد فيهـا الحكمـاء والفلاسفة العقلانيين وقد امتدت من نحو ١٠٠٠ ق.م إلي ٣٥٠ ق.م، والمرحلـة الرابعة هي البوذية التى بلغ فيها هذا الدين أوج ازدهاره وقد امتدت مـن نحـو ٢٥٠ ق.م إلي أواخر القرن الخامس الميلادي، والمرحلة الخامسة هي البرانـك التى طبقت فيها إرشادات البرانيين بدلاً من تعاليم الفيدا أو "كوتم بوذا" وقد امتـد ذلك العصر منذ أواخر القرن الخامس الميلادي حتى دخول المسلمين الهند.

أجمع المؤرخون على أن المرحلة الأخيرة هي أكثر المراحل التي تموج بالسلبيات والمثالب والظلم في تاريخ الهند القديمة، ويبدأ هذا العصر منـذ سـنة ٥٠٠م على وجه التقريب، وكانت أبرز سماته ما يلي:

١- المغالاة في ظواهر الشرك الذي كان متغلغلاً أصلاً في تركيبـة ونـواة الهند، ومن ذلك ارتفاع عدد الآلهة إلي ٣٣٠ مليون بعد أن كانت ٣٣ فقط في كتاب الفيدا[1].

٢- لم تكن عبادة الأصنام شائعة في العصر الفيدى لكنها شاعت عامة داخل المعابد في ذلك العصر. [1]

---

[1] آرسى دت : الهند القديمة، ج٣، ص ٢٧٦.

(١) المصدر السابق ص ٢٨١.

٣- كان القائمون على المعابد بؤراً للأخلاق السيئة، فكانوا يسلبون وينهبــون الملايين من المتعبدين السذج.[١]

٤- كانت هناك مساواة بين الهندوس جميعاً في العصر الفيدى، غير أن ذلك العصر قد شهد بدء نظام الطبقات الذي كان معول هدم للنظام الاجتماعي.[٢]

٥- كانت مكانة المرأة لا تعلو درجة العبودية والتبعية.[٣]

٦- كانت القوانين توضع بصورة مجحفة وخارقة للمألوف، حيث كان الهدف منها حماية ورعاية بعض الطبقات واضطهاد بعضها الآخــر علانيــة، وعلى سبيل المثال نورد فيما يلي بعض هذه القوانين :

(أ) عدم توقيع عقوبة الإعدام على البرهمي بأي حال مــن الأحــوال مهمــا ارتكب من جرائم بشعة.

(ب) ليس من باب الجريمة أن يزنى رجل ينتمي إلي طبقة عليا بامرأة تنتمي إلى الطبقة الدنيا.

(جـ) كانت عقوبة هتك العرض ولو لراهبة بوذية، لا تتجاوز دفــع بعــض التعويضات المالية.

(د) إذا مس شخص من طبقة دنيا شخصاً من طبقة أعلى فعقوبته الإعدام.

(هـ) إذا قتل شخص من طبقة دنيا شخصاً من طبقة أعلى تبتــر أعــضاؤه، وإذا سبه يقطع لسانه، أما إذا ادعى إرشاده يتم صب الزيت الساخن فــي فمه.[٤]

٧- كان شرب الخمر شائعاً بكثرة في قصور الملوك وكانت الملكات يخلعــن رداء العفة في غمرة السكر والنشوة.[٥]

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق، ص٣٣.

٤ آر سى دت، الهند القديمة، ص ٣٤٢، ٣٤٣.

٥ المرجع السابق، ص ٤٦٩.

٨- كانت الطرقات مرتعاً للمجرمين المستهترين. [١]

٩- كان الناس يبحثون عن الله في الجبال والغابات بدلاً من الأسواق والمدن المعمورة، كما كانت أفضل العبادات لديهم هي تعريض أجسادهم لأشد ألوان الألم والأذى.

١٠- كان دينهم عبارة عن مجموعة من الأوهام والمعتقدات الخاطئة والخزعبلات، وكانوا يألهون كل شئ من السماء إلي الأرض، ودستورهم هو السجود لكل منها، وهكذا كانت أوثانهم، وآلهتهم لا حصر لها- وأغاني قصصهم هي نشيد الحمد عندهم، وقد كتب الرحالة العرب - الذين كانوا يرتادون هذه البلاد بعد ظهور الإسلام - كافة عن هذه الصور الأليمة التى كان عليها الجوجيون (دراوشة الهندوس) وغيرهم، والتي تثير في نفس قارئها كل مشاعر العطف والأسى.[٢] وهكذا أيضاً فإن ما كتبه الرحالة العرب - الذين مروا بمدن وسواحل السند والدكن - عن الصفات الأخلاقية التى كانت تتسم بها الناسكات وخادمات المعابد [٣]، لهو فج وفاضح ومخز إلي حد كبير والأشد منه خزياً أنه كان يتم على ضوء العقيدة الدينية وابتغاء مرضاة الله.

كانت المرأة ضحية تلك المعتقدات، فكان للمرأة الواحدة عدة أزواج[٤]. وكانت بمجرد أن تصير أرملة تحرم بقية حياتها بمقتضى القانون من كل ملذات الحياة، ولذلك كانت بعض النساء تفضلن إلقاء أنفسهن في النار عند وفاة أزواجهن، أما في حالة الخوف من الهزيمة في الحرب فكن يقتلن على أيدى آبائهن أو إخوانهن، وكان من طبيعة بعض الفرق أن تقوم النساء بتعرية الرجال وعبادتهم وأن يقوم الرجال بتعرية النساء وعبادتهن أيضاً [٥]. وكانوا يشربون الخمر في الأعياد

---

١ المرجع السابق، ص ٤٦٩.

٢ انظر رحلة أبو زيد السيراني، ص ١١٥، ١١٨، باريس. وآثار البلاد، القزويني، ص ٨١.

٣ رحلة أبو زيد، ص ١٣٠. وأحسن التقاسيم للمقدسي، ص٤٨٣.

٤ انظر بداية قصة المهابهارتا.

٥ سيتا رث بركاش رقم ١١، ص ٣٧٨، ٣٧٩، مطبعة سيوك استيم، لاهور، ١٩١٢.

الدينية حتى تغشاهم حالة من السكر لا يستطيعون خلالها التفريق بين أمهـاتهم، وأخواتهم، وبناتهم والأجنبيات عنهم وكانوا يعتبرون ذلك من صالح الأعمال. هذا وقد كانت هناك فئة من الناس يطلق عليهم الشودريون، كانوا يعانون بأكملهم من العبودية والانقياد، إذ كان واجبهم في الحياة أن يحرموا من التعليم، والتثقيـف، والتدين، حتى أنه إذا ما تناهت إلي سمعهم كلمات "الفيدا" المقدسة كانت عقوبتهم صهر الرصاص وصبه في آذانهم.

لم يكن هناك عدد معين شرعا لزوجات الملوك، ولم يتم وضع القانون بناءً على المساواة الإنسانية بل وفقاً لنظام الطبقات، هذا وكان يتم بيع النساء.

تبين لنا من خلال هذه النبذة الموجزة أنه قبل ظهور الإسلام بقرن من الزمان كانت هذه البلاد – التى تعد مسقط رأس الآلهة – فريسة لشباك الشياطين التى جمعت بين حبائلها آنذاك بلاد الفرس والروم أيضاً.

اليهود

ربما كانت أكثر الأمم التى يرجى منها أن تحمل في طياتها كافة الإمكانيات اللازمة لإصلاح وتعمير العالم هي هذه الأمة التى كانت الأمينة الأولى على الوحى الإلهي بين أبناء سام بن نوح، ولذلك خاطب القرآن الكريم بنيها، فقال تعالى :

﴿**وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**﴾ (البقرة:٤١) بيد أنهم كانوا ذوى طبائع خشنة وقلوب صلدة. لقد رأوا الحجارة تتشقق فيخرج منها الماء ويشربونه عذباً فراتًـا، غير أن قلوبهم التى في صدورهم ظلت كما هي حجارة صماء، وقد قـدح فـيهم القرآن الكريم في عهد نزوله، فقال تعالى: ﴿**فَهِيَ كَالْحِجَـارَةِ أَوْ أَشَـدُّ قَـسْوَةً**﴾ (البقرة:٧٤) لقد كذبوا أنبياءهم في شتى العصور، وآذووهم وقتلوهم، ولـذا مـا جاءهم رسول منذ سيدنا موسى (عليه السلام) إلا ورثى لقلوبهم القاسـية ودعـا عليهم لفرط عصيانهم، وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم، حيث قال تعالي:﴿**لُعِـنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَـرْيَمَ ذَلِـكَ بِمَـا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَـا كَـانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ (المائدة:٧٨، ٧٩)

ولقد رثا سيدنا داود (عليه السلام) بترانيمه الشجية صلف وعصيان بني إسرائيل في مواضع كثيرة من الزبور، فورد في المزمور ٧٨ الآتي:

"اصغ يا شعبي إلى شريعتي. أميلوا آذانكم إلى كلام فمي* أفتح بمثل فمي أذيع ألغازا منذ القدم* التي سمعناها وعرفناها وآباؤنا أخبرونا* لا نخفي عن بنيهم إلى الجيل الآخر مخبرين بتسابيح الرب وقوته وعجائبه التي صنع* أقام شهادة فى يعقوب ووضع شريعة فى إسرائيل التي أوصى آباءنا أن يعرفوا بها أبناءهم* لكي يعلم الجيل الآخر. بنون يولدون فيقومون ويخبرون أبناءهم* فيجعلون على الله اعتمادهم ولا ينسون أعمال الله بل يحفظون وصاياه* ولا يكونون مثل آباءهم جيلا زائغا وماردا جيلا لم يثبت قلبه ولم تكن روحه أمينة لله".(١)

وورد في المزمور ٨١:

"اسمع يا شعبي فأحذرك. يا اسرائيل إن سمعت لي* لا يكن فيك إله غريب ولا تسجد لإله أجنبي* أنا الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر. أَفْغِرِ فاك فأملأه* فلم يسمع شعبي لصوتي وإسرائيل لم يرضَ بي* فسلمتهم إلى قساوة قلوبهم. ليسلكوا في مؤمرات أنفسهم"(٢).

كانت هناك طائفة كبيرة من بنى إسرائيل قد تمردت على سيدنا داود (عليه السلام) وتأهبت لقتاله، فدعا عليهم سيدنا داود هذا الدعاء :

"لأنك أنت لست إلها يُسَر بالشر. لا يساكنك الشرير* لا يقف المفتخرون قدام عينيك. أبغضت كل فاعلي الإثم* تهلك المتكلمين بالكذب. رجل الدماء والغش يكرهه الرب*أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك. أسجد فى هيكل قدسك بخوفك* يا رب اهدني إلى برك بسبب أعدائي. سهل قدامي طريقك* لأنه ليس فى أفواههم صدق. جوفهم هوة. حلقهم قبر مفتوح. ألسنتهم صقلوها* دنهم يا الله. ليسقطوا من مؤامرتهم بكثرة ذنوبهم طوح بهم لأنهم تمردوا عليك." (٣)

١- العهد القديم، سفر المزامير، المزمور ٧٨، الفقرات من ١: ٨. (يوسف عامر).

٢ – العهد القديم، سفر المزامير، المزمور ٨١، فقرات من ٨: ١٢. (يوسف عامر).

٣ العهد القديم، سفر المزامير، مزمور ٥، فقرات من ٤: ١٠. (يوسف عامر).

كما لعن سيدنا عيسى (عليه السلام) بنى إسرائيل في الإنجيل وقال :

ويل لكم أيُها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبورا مُبْيَضَّة تَظهرُ من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكُلَّ نجاسة* هكذا أنتم أيضًا من خارج تَظهرُون للناس أبرارًا ولكنكم من داخل مشحونون رياءً وإثما* ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تَبْنُون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين* وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء* فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء* فاملأوا أنتم مكيال آبائكم* أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينوية جهنم) (سفر متى، الإصحاح ٢٣، الفقرات٢٧ :٣٣).

وكان هذا هو نفس الاتهام الذي وجهه إليهم القرآن الكريم، فقال تعالى:

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة:٦١)

وقال أيضاً :

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٩١)

وقد ورد في سورة آل عمران أنهم كانوا يشتطون في هذا الأمر ويقتلون أي داعية للحق أو مبلغ للخير، قال تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** (آل عمران:٢١)

ومن خلال ما ورد في سورتي البقرة وآل عمران من فضح تام وصريح لكل نقائص اليهود يمكننا أن نتبين مدى الاضمحلال الذي آل إليه قوام ملتهم. وأفجع حادثة لجمودهم وتعصبهم الديني هي تلك التى وقعت في اليمن قبل ظهور الإسلام بنحو ستين عاماً حيث قام اليهود الحميريون بحفر أخاديد وأشعلوا فيها النيران ثم ألقوا فيها مسيحيي نجران وجلسوا على حواف هذه الأخاديد يشاهدون هذا المشهد الذي يبعث على الحسرة والندم، ولذلك شاء القرآن الكريم أن يذكرهم بهذه القصة الأليمة، فقال تعالى :

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ (سورة البروج : ٤-٨)

ودون التطرق إلي التفاصيل نذكر فيما يلي (إجمالياً) ما كان لهم من مساوئ:-

١- كانوا مصابين بغرور لا حد له في أنهم أبناء الله وأحباؤه ولذا كانوا يعتقدون أنهم لن يحاسبوا يوم القيامة بما فعلوه، قال تعالي :

﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (سورة المائدة : ١٨)

وقال تعالي :

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ (سورة البقرة : ٨٠)

وكانوا يعتقدون أن نعيم الجنة خالصٌ لهم وحدهم، قال تعالي :

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة البقرة : ٩٤)

كما كانوا يعتقدون أن النبوة حكرٌ لهم ولا حق لأحد آخر فيها، فرد عليهم القرآن الكريم في ذلك بقوله تعالي :

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ (سورة الجمعة : ٤)

أما علماؤهم فكانوا يبدلون أحكام الله بتأويلاتهم الباطلة وفقاً لأهوائهم وبغية إرضاء الأثرياء من الناس ثم يخلعون على اجتهاداتهم ومؤلفاتهم صفة كتاب الله، قال تعالي :

﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ (سورة المائدة :٤١)

وقال تعالي : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة:٧٩)

وأما من كانوا بينهم من الجهلاء والأميين فكانوا يؤمنون بكل ما يروى لهم، قال تعالي :

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (البقرة:٧٨)

وكانوا لا يرتضون الأحكام الإلهية إلا فيما يتعلق منها بالسماء وتقتضيه الضرورة لديهم، أما الأحكام الأخرى فكانوا لا يأبهون بها، قال تعالي :

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٠١)

وقال تعالي :

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة:٨٧)

ويروى أنه بعد أن هاجر رسول صلى الله عليه وسلم إلي المدينة ورضى اليهود – في ظل وضعية ما – بحكمه للبلاد، جيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودى ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يهود فقال: «أَنْشُدُكُمْ بالله الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى. مَا تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ؟» قالوا: يُحَمَّمُ وَيُجَبَّهُ وَيُجْلَدُ، وَالتَّجْبِيَةُ أَنْ يُحْمَلَ الزَّانِيَانِ عَلَى حِمَارٍ وَيُقَابَلُ أَقْفِيَتَهُمَا وَيُطَافُ بِهِمَا. فأمر ﷺ بإحضار التوراة، فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها، غير أن عالماً يهودياً كان حديث عهد بالإسلام تلا هذا الحكم وأظهره. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فإِنِّي أَحْكُم بِمَا في التَّوْرَاةِ فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا» (صحيح البخاري ومسلم، كتاب الحدود، وأبو داود، باب رجم اليهوديين)[1]

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود: وهذا نص الحديث كاملا: (٤٤٤٤) حدثنا مُحمَّدُ بنُ يَحْيَى أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أنبأنا مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِيِّ قالَ أخبرنا رَجُلٌ مِنْ مُزَيْنَةَ ح وَأخبرنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا عَنْبَسَةُ أخبرنا يُونسُ قالَ قال مُحمَّدُ بنُ مُسْلِمٍ : سَمِعْتُ رَجُلاً مِنْ مُزَيْنَةَ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الْعِلْمَ وَيَعِيهِ ثُمَّ اتَّفَقَا وَنَحْنُ عِنْدَ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ فَحَدَّثَنَا عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ وَهٰذَا حَدِيثُ مَعْمَرٍ وَهُوَ أَتَمُّ قالَ: «زَنَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ وَامْرَأَةٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اذْهَبُوا بِنَا إِلَى هٰذَا النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فإِنَّهُ نَبيٌّ بُعِثَ بالتَّخْفِيفِ فإِنْ أَفْتَانَا بِفُتْيَا دُونَ الرَّجْمِ قَبِلْنَاهَا وَاحْتَجَجْنَا بِها عِنْدَ الله، قُلْنَا فُتْيَا نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِكَ قالَ فَأَتَوا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ فِي أَصْحَابِهِ فقالُوا يَا أَبَا القَاسِمِ مَا تَرَى في رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ

كان القتل وسفك الدماء مستعراً بينهم. فكانت القبيلة القوية تقوم بتشريد القبيلة الضعيفة وإذا ما أسرت أحد المشردين لا تطلق سراحه إلا بعد أن تتقاضى فديته، قال تعالي :

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...﴾(البقرة:٨٥)

٢- الأمر الثاني هو طمعهم وحرصهم على المال والثراء. ونتج عن ذلك أن ظهرت بينهم كل ألوان الطمع وملامح الضعف الأخلاقي، فكانوا لا

زَنَيَا فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ كَلِمَةً حتى أَتَى بَيْتَ مِدْرَاسِهِمْ فَقَامَ عَلَى الْبَابِ فَقَالَ أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى. مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ؟ قَالُوا يُحَمَّمُ وَيُجَبَّهُ وَيُجْلَدُ، وَالتَّجْبِيَةُ أَنْ يُحْمَلَ الزَّانِيَانِ عَلَى حِمَارٍ وَيُقَابَلُ أَقْفِيَتُهُمَا وَيُطَافُ بِهِمَا. قَالَ وَسَكَتَ شَابٌّ مِنْهُمْ، فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سَكَتَ أَلَظَّ بِهِ النِّشْدَةَ فقال: اللَّهُمَّ إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَمَا أَوَّلُ ما ارْتَخَصْتُمْ أَمْرَ اللهِ؟ قالَ زَنَى ذُو قَرَابَةٍ مِنْ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِنَا فَأُخِّرَ عَنْهُ الرَّجْمُ ثُمَّ زنى رَجُلٌ فِي أُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ فَأَرَادَ رَجْمَهُ فَحَالَ قَوْمُهُ دُونَهُ وَقَالُوا لا يُرْجَمُ صَاحِبُنَا حَتَّى تَجِيءَ بِصَاحِبِكَ فَتَرْجُمَهُ، فَأَصْلَحُوا عَلَى هَذِهِ الْعُقُوبَةِ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَإِنِّي أَحْكُم بِمَا فِي التَّوْرَاةِ فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا». قالَ الزُّهْرِيُّ فَبَلَغَنَا أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُم بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا} كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْهُمْ. (يوسف عامر). وورد في صحيح البخاري، كتاب المحاربين، باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى الإمام: (٦٦٩٠) حدثنا إسماعيلُ بن عبد الله حدثني مالكٌ عن نافع عن عبد الله بن عمرَ رضيَ الله عنهما أنه قال: «إنَّ اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأةً زنَيا، فقال لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما تجِدونَ في التَّوراةِ في شأن الرَّجم؟ فقالوا: نَفضحُهم ويُجلدون. قال عبدُ الله بن سَلام: كذبتم، إن فيها الرَّجمَ، فأتوا بالتَّوراة فنَشَروها، فوضَعَ أحدُهم يدَهُ عَلَى آية الرَّجم فقَرأ ما قبلها وما بعدَها، فقال له عبد الله بن سَلام: ارفع يدك، فرفعَ يدَه، فإذا فيها آية الرَّجم، قالوا: صدَقَ يامحمدُ، فيها آية الرَّجم، فأمرَ بهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرُجما، فرأيتُ الرجلَ يَحني على المرأةِ يَقيها الحجارةَ». (يوسف عامر).

يستطيعون أن يضحّوا براحتهم وأرواحهم من أجل أي شيء مهما بلغت عظمته، قال تعالي :

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (البقرة:٩٦)

كانت تربطهم علاقات ومعاملات تجارية مع العرب، بيد أنهم كانوا لا يؤدون ديونهم إذ كانوا يعتقدون أن كل ما يتبعونه في معاملاتهم مع العرب من تعنت واحتيال ليس محرماً دينياً، فبعد أن أثنى القرآن الكريم على أهل الكتاب من المسيحيين نسب ذلك إلي أهل الكتاب من بني إسرائيل، فقال تعالي:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:٧٥)

وكانوا يفسرون ما ورد في التوراة من السماح بالمعاملات الربوية مع "الأجنبى" دون"القريب"، بأنه لا يجوز لليهود أن يتعاملوا ربوياً مع اليهود أما أهل العرب من غير اليهود، فيجوز أكل الربا منهم أضعافاً مضاعفة، والعجب العجاب أن علماءهم لم ينهوهم عن ذلك، وقد نبههم القرآن الكريم مراراً إلي أكلهم هذا السحت وسكوت علمائهم عنهم، قال تعالي :

﴿وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:٦٢، ٦٣)

وقال تعالي :

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ (المائدة:٤٢)

وقال تعالى

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ (النساء:١٦١)

لذلك كانوا يتناولون آيات التوراة بالتحريف والتأويل حتى يصيغوا منها حيلاً وضوابط فقهية تُخضع سائر الأحكام بما يتماشى مع ميولهم وأهوائهم، قال تعالي :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ (المائدة: ٤٤)

وبعد أن يذكر الحق (سبحانه وتعالي) ضوابط أحكامهم مختصاً القصاص من بينها، يقول تعالي :

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ (المائدة:٤٤)

ظهرت بينهم أيضاً آثار الوثنية، فكانوا يعبدون الجبت والطاغوت، فيخاطبهم القرآن الكريم بقوله تعالي :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٧، ٤٨)

كما قال تعالي :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ (النساء:٥١)

كانوا يؤمنون بالأوهام والخرافات. فكانوا مولعين أشد الولع بالتمائم، والتعاويذ والسحر والأعمال، إذ إنهم كانوا يعتقدون أن ذلك كله من تعاليم سيدنا سليمان (عليه السلام) (سورة البقرة :آية١٠٢) وكان بالمدينة لبيد بن الأعصم وغيره كثيرون ممن كانوا يعقدون هذه الأعمال فيرتلون رقياهم وينفثونها في شعر الرأس والأمشاط.[1]

---

[1] صحيح البخارى، ج٢، كتاب الطب، ص ٢٥٧. وهذا نصه: (٥٦٣٠) حدّثنا إبراهيمُ بن موسى أخبرَنا عيسى بن يونسَ عن هشام عن أبيه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «سَحرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ من بني زُرَيق يقال له لَبِيدُ بن الأعصم، حتى كان رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُخيَّلُ إليه أنهُ كانَ يفعلُ الشيء وما فَعله. حتى إذا كان ذاتَ يوم ــ أو ذاتَ ليلةٍ ــ وهوَ عندي، لكنهُ دَعا ودعا ثمَّ قال: ياعائشة، أشَعَرتِ أنَّ الله أفتاني فيما استفتيتهُ فيه؟ أتاني رجُلان، فقعَدَ أحدهما عند رأسي، والآخرُ عند رجليَّ، فقال احدهما لصاحبهِ: ما وجَعُ الرَّجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طَبَّه؟ قال: لَبيدُ بن الأعصم.

كان اليهود خارج شبه الجزيرة العربية منتشرين ومشتتين في كافة بلدان العالم، في اليونان وأوروبا، وربوع إفريقيا وآسيا، بصورة لم تجعل لهم اعتباراً بين شعوب العالم آنذاك، غير أن اليهود الذين استوطنوا شبه الجزيرة العربية منذ أمد بعيد وكانوا يعملون بالزراعة والتجارة، ويتعاملون بالربويات، أثقلوا كواهل فقراء العرب بالديون والفوائد الربوية المضاعفة حتى تسنى لهم أن يخضعوهم ويضغطوا عليهم اقتصادياً بصورة جعلتهم يبدون أمامهم كالعبيد، ونذكر هنا واقعة واحدة في هذا الصدد تفي عن كافة جوانب هذه المسألة.

كان محمد بن مسلمة الأنصاري (ﷺ) وأصحابه الذين كلفوا بقتل كعب بن الأشراف- زعيم يهود المدينة – قد ذهبوا إليه يستدرجوه بالطعن على محمد، فبعثوا إليه أحدهم يقول : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عنانا وإني قد أتيتك أستسلفك قال وأيضا والله لتملنه قال إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين فقال نعم ارهنوني قالوا أي شيء تريد قال ارهنوني نساءكم [1]قالوا كيف نرهنك نساءنا

قال: في أيِّ شيء؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطة، وجُفِّ طَلْعِ نخلةٍ ذكر. قال: وأينَ هو؟ قال: في بئرِ ذَرْوانَ. فأتاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه. فجاءَ فقال: ياعائشة، كأنَّ ماءَها نُقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين. قلتُ: يارسولَ الله أفلا استخرجتَه؟ قال: قد عافاني الله، فكرهتُ أن أُثيرَ على الناس فيه شرّاً. فأمرَ بها فدُفِنَت» تابعه أبو أُسامةَ وأبو ضَمرةَ وابن أبي الزناد عن هشام. وقال الليثُ وابن عُيَينة عن هشام: «في مُشط ومشاطة». ويقال: المشاطة ما يخرُج منَ الشعرِ إذا مُشطَ، والمشاطة من مُشاطة الكتّان. (يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري، ج٢، قتل كعب بن الأشرف. وهذا نص الحديث: (٣٩٤٩) ـــ حدَّثنا عليُّ بن عبدِ اللّه حدَّثنا سفيانُ قالَ عمرٌو سمعتُ جابرَ بن عبدِ اللّه رضيَ اللّه عنهما يقول: «قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: مَن لكعبِ بن الأشرف؟ فإنه قد آذى اللّهَ ورسولَه. فقام محمدُ بن مَسلمةَ فقال: يا رسولَ اللّه، أتحبُّ أن أقتُلَه؟ قال: نعم. قال: فأْذنْ لي أن أقولَ شيئاً. قال: قل. فأتاهُ محمدُ بن مَسلمةَ فقال: إنَّ هذا الرجلَ قد سألَنا صدَقةً، وإنه قد عنّانا، وإني قد أتيتُكَ أستَسلِفُك. قال: وأيضاً واللّه لتملُنَّه. قال: إنا قد اتبَعْناهُ، فلا نحبُّ أن نَدَعهُ حتىٰ ننظرَ إلى أيِّ شيءٍ يصيرُ شأنه، وقد أردْنا أن تُسلِفَنا وَسقاً أو وَسقَين ـ وحدَّثنا عمرٌو

وأنت أجمل العرب قال فارهنوني أبناءكم قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكنا نرهنك اللأمة [1].

نستنتج من خلال هذا الحوار مدى التدني والابتذال الذي انحدرت إليه أخلاق اليهود وقتئذ، ومن ذلك أيضاً أنه كان يصعب على المرأة الأجنبية أن تسلم بشرفها إذا ما مرت بأسواقهم [2]، كما كانوا يقتلون صغار الأطفال بوحشية وشراسة – كلما سنحت لهم الفرصة– ليسلبوهم أبسط أنواع الحلي [3]. ولم يكن الحال بالنسبة لعلمائهم وأئمتهم أفضل من ذلك فى قليل أو كثير، ولا غرو فى ذلك؛ فقد رثى المسيح (عليه السلام) أحوالهم قبل ذلك الحين بستة قرون مضت، إذ فقدوا

غيرَ مرَّة فلم يذكر «وسقاً أو وَسقين» أو فقلت له: فيه «وسقاً أو وسقين»؟ فقال: أرى فيه «وسقاً أو وسقين» ــ «فقال: نعم؛ ارهَنوني. قالوا: أيَّ شيءٍ تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نَرهنُكَ نساءَنا وأنتَ أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءَكم. قالوا: كيف نرهنُكَ أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم فيقال: رُهنَ بوسقٍ أو وسقَين، هذا عارٌ علينا، ولكنّا نرهَنك اللأمةَ. قال سفيانُ: يعني السلاحَ. فواعَدَه أن يأتيَه. فجاءهُ ليلاً ومعه أبو نائلةَ ــ وهو أخو كعب منَ الرضاعة ــ فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة وقال غير عمرو: قالت أسمعُ صوتاً كأنهُ يقطُرُ منه الدَّم. قال إنما هو أخي محمدُ بن مَسلمةَ ورضيعي أبو نائلة، إنَّ الكريمَ لو دُعِيَ إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب. قال: ويُدخِلُ محمدُ بن مَسلمةَ معهُ رجلَين ــ قيل لسفيانَ: سماهم عمرٌو؟ قال: سَمى بعضهم. قال عمرٌو: جاء معه برجلَين، وقال غيرُ عمرو: أبو عَبسِ بن جَبر والحارثُ بن أوسٍ وعبّادَ بن بشر ــ قال عمرٌو جاء معه برجلَين فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشُمه، فإذا رأيتموني استمكَنْتُ من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرَّةً: ثم أُشِمُّكم. فنزَلَ إليهم متوشحاً وهو ينفَحُ منه ريحُ الطيب فقال: ما رأيتُ كاليوم رِيحاً ــ أي أطيَبَ ــ وقال غيرُ عمرو: قال عندي أعطرُ نساءِ العرب وأكملُ العرب. قال عمرٌو فقال أتأذنُ لي أن أشمَّ رأسَك؟ قال: نعم. فشمَّهُ، ثم أشَمَّ أصحابَه ثم قال: أتأذنُ لي؟ قال: نعم. فلما استمكَنَ منهُ قال: دونَكم. فقتَلوه. ثمَّ أتَوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبروه».

(يوسف عامر)

[1] انظر أسباب غزوة بني النضير فى كتب السيرة.

[2] صحيح البخاري، ج٢.

[3] النسائي.

جوهر الروح والأخلاق ولم يعد لديهم إلا التظاهر بالتدين والتشدق بالألفاظ الجوفاء، وكانوا يرون أن الإسلام الذي كان نداؤه تجاوباً لأنشودة التوحيد التي تلاها إبراهيم الحنيف، وصوت الغيب الذي ارتفع فوق جبل الطور – أكثر سوءاً من جاهلية العرب ووثنيتهم، فكانوا يقولون " إن هؤلاء المشركين أكثر استقامة من أولئك المسلمين"[1]. كما كانوا يرون أيضاً أن هذه الدعوة إلي المصالحة التي نادى بها الإسلام، حين قال تعالي :

﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:٦٤) تنطوي على ومضات من العداوة والبغضاء؛ ولذلك كانوا يرفضون كل محاولات الصلح التي كان يقوم بها المسلمون في المدينة إذا كان يتبدى لهم هلاك عظمتهم التجارية والقومية لقاء العظمة الروحية التي تحملها هذه الدعوة.

وسيراً على نهج النصارى قالوا : إن عزيرا ابن الله، قال تعالي: **﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾** (التوبة:٣٠) كما كانوا يغترون بمالهم وثرواتهم فيقولون : **﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾** (المائدة: ٦٤) وكان ردهم على دعوة القرآن الكريم أن قالوا : ليس لهذه الدعوة أثر علينا فقلوبنا غلف، قال تعالي : **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾** (سورة البقرة :٨٨) ويتضح من هذه العبارات السابقة أنهم قد صاروا وقتئذ غير جديرين بخلافة الله على أرضه.

وقد كان اليهود المشتتون خارج بلاد العرب يعيشون كلاجئين في دول العالم المختلفة، وهكذا انفلتت من أيديهم نفوذهم الدينية، ومضى زمن على فقدانهم لأهميتهم السياسية، وكان عدد شيعهم (فرقهم) الدينية في اطراد مستمر، وقد نشبت فيما بينها خلافات دائمة. وهكذا كان بنو إسرائيل آنذاك يترقبون بلهفة واشتياق كسابق عهدهم منذ ست قرون مضت، ظهور نبي عظيم (سورة البقرة – آية ١١) وحتى في بلاد العرب نفسها كان اليهود وقتئذ يذكرون في مجالسهم

---

[1] سيرة ابن هشام، ذكر بيعة العقبة.

البشارة بقرب ميلاد هذا النبي الذي كانت صحائف التوراة تزخر بنبوءات ظهوره، وقد كان لهم الفضل في معرفة الأوس والخزرج بشأن هذه النبوءة [1].

وبعد أن ألقينا نظرة إجمالية على أحوال أمم العالم المختلفة، يلزمنا أن نلقى نظرة تفصيلية على أحوال هذه الأمة التي كانت توشك أن تنعم ببزوغ فجر النبوة على أرضها.

---

[1] ورد في سيرة ابن هشام، ج١: قال ابن اسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه، قالوا: إن مما دعانا الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بينا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه، حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩) (يوسف عامر).

أحوال العرب الدينية والأخلاقية عند ظهور الإسلام

حين عمّ بلاد اليمن ذلك الفيضان الشهير الذي بلغ ارتفاعه عن سطح الأرض مائةً وعشرين قدماً، تهدمت حاضرة اليمن "مأرب" وكل ما جاورها من أقاليم، وكان ذلك فى القرن الثانى الميلادى [١]، ولقد أطلق القرآن الكريم على هذا الفيضان (سيل العرم)، ونجم عن هذه الطوفان أن هاجرت ثمانى قبائل كبيرة وتفرقت خارج البلاد مما أصاب نظام الدولة بالضعف والاضمحلال. وكان ملك هذه البلاد في القرن السادس الميلادى هو "ذو نواس"، الذي كان يدين باليهودية وثارت عليه الرعية واستعانت عليه بملك الحبشة الذى ما لبث أن أرسل إليهم جيشاً جراراً في سنة ٥٠٩م، وعَزل ذو نواس هذا، فانتهى بذلك حكم قبيلته (بنى حمير). وفى سنة ٦٠٣م استعاد الفارس الحميرى الشجاع سيف بن ذي يزن عرش بلاده بدعم من الفرس بيد أنه سرعان ما قُتل بعد أيام قلائل من اعتلائه العرش، وهكذا صارت اليمن إقليماً تابعاً لإمبراطورية الفرس.

أما القبائل التى خرجت من اليمن، فمنها من أقامت دولة لها فى الحيرة – موضع الكوفة حالياً – إبّان القرن الثانى الميلادي، إلا أن هذه الدولة كانت خاضعة للسيادة الفارسية وغلب عليها التأثر بعقائد المجوس الدينية، أما القبيلة الأخرى فقد هاجرت إلي الشام واستوطنتها وهى ما يطلق عليها آل غسان [٢]، وحيث إن هذه القبيلة كانت خاضعة للروم فقد اعتنقت المسيحية بمرور الأيام، وظلت على نصرانيتها حتى العصر الإسلامى.

---

١ – من الصعب تحديد تاريخ انهيار هذا السد ولذا فهناك عدة نظريات حوله :
الأولى : أن هذا الانهيار قد تم فى نفس القرن الثانى الميلادى، أما الثانية : فتذهب إلى أن أجزاءً مختلفة من هذا السد كانت تنهار فى فترات مختلفة ثم يتم بناؤها إلى أن انهار تماماً فى القرن الخامس الميلادى .(سيد سليمان الندوي) .

٢ – يذهب أغلب العلماء إلى أن هذه القبائل قد وفدت من اليمن، غير أنى اختلفت معهم بالأدلة والأسانيد فى كتاب " أرض القرآن ". (سيد سليمان الندوي).

خلاصة القول إن المؤثرات الخارجية التى تأثرت بها الحضارة العربية الأصلية كانت إما مجوسية أو نصرانية، فضلاً عن المؤثرات الكثيرة للعقائد والأفكار اليهودية التى يرجع السبب فيها إلى أن مساحة شاسعة من بلاد العرب أى وادى القرى وخيبر وفدك كانت كلها مستوطنات يهودية، كما كان اليهود هم أصحاب السلطة والنفوذ فى يثرب نفسها، أما بقية البلاد فكانت تنتشر فيها ديانات جاهلية وتُمارس فيها طقوسٌ وثنيةٌ، فكانوا يعبدون الأصنام، والأحجار، والأشجار، والنجوم، والملائكة، والجن.

الإيمان بالله

لاشك أن العرب ظلوا يؤمنون بإله واحد لفترةٍ طويلةٍ من الزمان، فالنقوش العربية القديمة التى عُثر عليها فى العصر الحديث مكتوبٌ عليها لفظ الجلالة "الله" بمعنى "الإله" غير أن كتابته الإملائية ليست "الله" وإنما "هلّه"، كما كان العرب الذين يعيشون في شمال شبه الجزيرة العربية ويطلق عليهم النبطيون كانوا يضيفون لفظ الجلالة "الله" إلى أسمائهم، فمن ذلك: زيد اللهىّ، عبد اللهىّ [١].
وقد قال الله سبحانه وتعالى حكايةً عن الكفار: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ (لقمان:٢٥)

وقد كان ذلك فى الحقيقة من تعاليم سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بيد أنه بمرور الوقت ظهرت هناك عقيدة الشرك، وهى أن هناك آلهة صغيرة دون الإله الأعظم غير أن أسماءها جميعاً هو الله. وقد ترسخت هذه العقيدة فى قلوبهم حتى أنهم كانوا يكرهون إنكار هذه الآلهة الصغيرة بقدر ما كانوا يكرهون إنكار الله نفسه، بل الأكثر من ذلك أنه لما كان من المفترض أن هذه الآلهة الصغيرة هى المنوطة بالمعاملات التجارية وشئون الحياة اليومية وأن الناس يلجأون إليها فى أغلب احتياجاتهم، صارت فكرة الله نوعاً من الفضول والعبث، فكانوا يعبدون هذه الآلهة، ويقدمون لها القرابين، ويطلبون منها حاجاتهم، إذ إن الله (عندهم) قد خلق السماء والأرض ثم توقف عن العمل، وما كان يقوم به من قبل صارت تقوم به

---

[١] - موسوعة الأديان والأخلاق ج ١، ص ٤٦٤. نقلا عن البروفسير نولديكي .

هذه الآلهة الصغيرة الآن، وهذا هو السبب في أنهم كانوا يشمئزون إذا ذكر اسم الله وحده، قال تعالي:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر:٤٥)

وكانوا يعتقدون أن الله سيسعد بتقربهم إلى هذه الآلهة الصغيرة، وأنها ستشفع لهم وتقربهم منه؛ ولذلك كانوا يقولون :

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر:٣)

تأليه الملائكة

فضلاً عن إشراكهم بالله كانوا يعتقدون أن الله الأعظم له أبناء، فقالوا إن الملائكة بنات الله، قال تعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى﴾ (النجم:٢٧)

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم:٢١،٢٢)

لذلك فمثلما رفع بعض اليهود سيدنا عزيرا (عليه السلام)، وبعض النصارى سيدنا عيسى (عليه السلام) إلي مقام الألوهية، كان العرب يعتقدون أن الملائكة بنات الله ومن ثم يستحقون الألوهية، قال تعالي :

﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾ (آل عمران:٨٠)

وقال تعالى :

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم...﴾ (الزخرف:١٥-٢٠).

قال تعالى : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الصافات: ١٤٩- ١٥٢).

وكانوا يعتقدون أيضاً أن الملائكة ستشفع لعبدتها عند الله، فنفي تعالى ذلك بقوله : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَـاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم:٢٦).

ولسوف تُسأل الملائكة يوم القيامة: أهؤلاء المشركون كانوا يعبـدونكم؟، قال تعالى :

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (سبأ:٤٠)

تأليه الجن

كانوا يعتقدون أن الجن أيضاً مثل الملائكة ذوو قربى عنـد الله، وكـانوا يجعلون بينها وبين الله نسباً، قال تعالي :

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً﴾(الصافات: ١٥٨)

ولذلك جعلوا الجن شركاء الله فى ألوهيته، قال تعالى :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(الأنعـام: ١٠٠)

وما داموا أقارب الله وشركاءه فى الألوهية فمن الواجب عبادتهم، ولـذا كان العرب يعبدون الجن فى الجاهلية[١]، قال تعالي: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُـدُونَ الجِـنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ:٤١) وإذا ما شرع المسافرون فى الإقامة بموضع ما من طريقهم استغاثوا بالجن الموجودين هناك، فقد ورد فى القرآن الكـريم قولـه تعالي: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقـاً﴾ (الجن:٦) ومن ذلك أيضاً أنهم كانوا يقدمون القرابين باسم الجن وبطقوس معينة فى بعض الأماكن المخيفة، ومن أشهرها منطقة "دراهم"، حيث كـانوا يـذبحون الحيوانات ويقدمونها قرباناً باسم الجن الذين كانوا يسكنون هنـاك (أي منطقـة الدراهم) حتى يأمن المتقرب شرها[٢]. هذا وكان بنو مليح – أحد فـروع قبيلـة

---

[١] صحيح مسلم كتاب التفسير.

[٢] – لسان العرب لفظ : " سكن" .

خزاعة – يعبدون الجن على طريقتهم الخاصة، ويروى الكلبى أنهم هم الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة[١]، قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأعراف:١٩٤)

عبادة الأصنام

لقد كانوا يصنعون لكل الآلهة التى يؤمنون بها تماثيل ويُشيّدون لها المعابد، وقد شاع هذا التقليد بينهم حتى أنهم كلما عثروا على حجر جميل التقطوه وأخذوا يعبدونه، فإذا عثروا على أجمل منه قذفوه وعبدوا هذا الحجر الأجمل، أما إذا لم تقع أيديهم على أى نوع من الأحجار كانوا يجمعون كومة من التراب، ويحضرون شاةً فيحلبونها فوق هذه الكومة، ثم يطوفون حولها، فتتحول إلى إله جديد، وقد ورد ذلك كله بالتفصيل فى صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة.[٢]

---

١ – كتاب الأصنام، هشام الكلبى، طبعة مصر، ص ٣٤ .

٢ – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٢٦٩) حدَّثنا الصلتُ بن محمدٍ قال سمعتُ مَهديَّ بن ميمون قال: سمعتُ أبا رجاءٍ العطارديَّ يقول: كنّا نَعبُد الحجرَ، فإذا وَجَدْنا حجراً هوَ خَيْرٌ منه ألقيناهُ وأخَذْنا الآخرَ، فإذا لم نجد حجراً جَمَعْنا جُثْوَةً من تراب، ثم جئنا بالشاةِ فحلَبْناهُ عليه، ثمَّ طُفنا به. فإذا دخلَ شهرُ رجبٍ قلنا: مُنَصِّلُ الأسنَّة، فلا نَدَعُ رمحاً فيه حديدةٌ، ولا سَهماً فيه حديدة إلا نزَعْناه وألقيناهُ شهرَ رجب». (يوسف عامر).

ولقد كانت البدايات الأولى لهذه الوثنية على يد "عمرو بن لُحي"[1] الـذي ينتمي إلي قبيلة خزاعة، إذ إنه حين انتصر على قبيلة جرهم آلـت إليـه ولايـة الكعبة، وسافر ذات مرة إلي البلقاء، فوجد أن الناس هناك يعبدون الأصنام، فمال قلبه إلى الوثنية، وأحضر معه صنماً فنصبه فى الكعبة، ولأنه كان ذا أثر علـى العرب جميعاً، فما كان من العرب إلا أن اعتنقوا الوثنية اتباعا لـه، وصـارت بيوتهم وكأنها معابد للأصنام، وكان أعظم هذه الأصنام عندهم هو "هبل"، ويليـه مناة، واللات، والعزى.

كان مناة على بعد سبعة أميال من المدينة، فكانت تحج إليه قبائل الأنصار أى الأوس والخزرج والقبائل الأخرى المجاورة لتلك المنطقة، كما كانـت هـذه القبائل كلها تبدأ إحرامها من عنده إذا خرجت للحج إلى الكعبة، كما كانوا يوثقون أيمانهم هناك، يقول عبد العزى المزنى[2] :

---

[1] – ورد في صحيح مسلم: (٧١٤١) حدّثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ سُهَيْلٍ عَـنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ بْـنِ قَمَعَـةَ بْـنِ خِنْدِفَ، أَخَا بَنِي كَعْبٍ هَـٰؤُلاَءِ، يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ».(يوسف عامر). كمـا ورد فـي صحيح البخاري: (١١٩٣) حدَّثنا محمدُ بنُ مقاتلٍ أخبرَنا عبدُ اللّهِ أخبرَنا يـونسُ عـن الزُّهريِّ عن عُروةَ قال: قالت عائشةُ رضيَ اللّهُ عنها «خَسَفَتِ الشمسُ، فقامَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقرأ سورةً طويلةً، ثمَّ ركعَ فأطالَ، ثمَّ رَفعَ رأسَهُ، ثـمَّ اسـتفتَحَ بـسُورةٍ أُخرى. ثم ركعَ حتى قَضاها وسجدَ، ثمَّ فعل ذلكَ في الثانيةِ ثمَّ قال: إنهما آيَتانِ من آياتِ اللّهِ، فإذا رأيتم ذلك فصلُّوا حتى يُفْرَجَ عنكم. لقد رأيتُ في مَقامي هذا كلَّ شيءٍ وُعِدْتُهُ، حتى لقد رأيتُني أُريدُ أن آخُذَ قِطفاً منَ الجنَّةِ حينَ رأيتموني جَعلتُ أتقدَّمُ، ولقـد رأيـتُ جهنمَ يَحطِمُ بَعضُها بعضاً حينَ رأيتموني تأخَّرتُ، ورأيتُ فيها عَمرو بن لُحَيٍ وهوَ الذي سَيَّبَ السوائبَ». (يوسف عامر).

[2] – وردت هذه التفصيلات كاملة في معجم البلدان، لفظ : مناة . وهذا نص ما ورد في معجم البلدان: مَنَاةُ: لم أقف على أحدٍ يقول في اشتقاقه، وأنا أقول فيه ما يَسْنَحُ لي فإن وافـق الصواب فهو بتوفيق الله وإلا فالمجتهد مصيب، فلعله يكون من المَنَا وهو القدر، وكأنهم أجروه مجرى ما يعقل؛ قال: ومَنَاهُ أي قدره:

ولا تقولنْ لشيءٍ سوف أفعله   حتى تَبَيَّنَ ما يَمْنِي لك الماني

أي ما يقدّر عليك، فكما نسبوا الفعل إلى القدر نسبوه إليه وكأنهم أجروه مجرى ما يعقل، ويجوز أن يكون من المَنَا وهو الموت كأنه لما نسب الموت إليه سمّي به، ويجوز أن يكون من مناه الله بحبها أي ابتلاه كأنه أراد أنه المبتلي، ويجوز أن يكون من مَنَوْتُ الرجل ومنَيْتُه إذا اختبرته أي أنه الخبير، وألفه يجوز أن تكون منقلبة عن ياء كقولهم مَناه يَمنيه في قدّره يقدّره، وأن تكون منقلبة عن واو كقولهم في تثنيته مَنَوان. وهذا اسم صنم في جهة البحر مما يلي قُدَيداً بالمُشَلَّل على سبعة أميال من المدينة وكانت الأزد وغسان يهلّلون له ويُحجون إليه. وكان أول من نصبه عمرو بن لُحيّ الخزاعي، وقال ابن الكلبي: كانت مناة صخرة لهذيل بقُدَيد، وكأن التأنيث إنما جاء من كونه صخرة، وإليه أُضيف زيد مناة وعبد مناة، وقال أبو المنذر هشام بن محمد: كان عمرو بن لُحَيّ واسم لحيّ ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو أبو خزاعة وهو الذي قاتل جُرْهُم حتى أخرجهم عن حرم مكة واستولى على مكة وأجلى جُرهم عنها وتولى حجابة البيت بعدهم، ثم إنه مرض مرضاً شديداً فقيل له إن بالبلقاء من أرض الشام حَمّة إن أتيتَها برأتَ، فأتاها فاستحمّ بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدوّ، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة، فلما صنع عمرو بن لحيّ ذلك دانت العرب للأصنام وعبدوها واتخذوها فكان أقدمها كلها مناة وقد كانت العرب تسمّي عبد مناة، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة وما قارب ذلك من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له. وكان أولاد مَعدّ على بقية من دين إسماعيل، وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه، ولم يكن أحد أشدّ إعظاماً له من الأوس والخزرج، قال أبو المنذر: وحدث رجل من قريش عن أبي عبيدة عبد الله بن أبي عبيدة بن عَمّار بن ياسر وكان أعلم الناس بالأوس والخزرج قال: كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ مأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا وأتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك؛ فلإعظام الأوس والخزرج يقول عبد العُزّى بن وديعة المزني أو غيره من العرب:

إني حلفتُ يمينَ صدق بَرّةً بمناة عند محلّ آل الخزرج

وكانت العرب جميعاً في الجاهلية يسمون الأوس والخزرج جميعاً الخزرج، فلذلك يقول:

بمناة عند محل آل الخزرج

ومناة هذه التي ذكرها الله تعالى في قوله عزّ وجلّ: {ومناة الثالثة الأخرَى}، وكانت

إنى حلفت يمين صدق برة   بمناة عند محلّ آل الخزرج

كان اللات إله قبيلة ثقيف ماثلاً في منطقة الطائف. وكان أهل الطائف يجعلونه في منزلة الكعبة.

أما العزى فكان اسماً لشجرة يجاورها صنمٌ لقبيلة غطفان، غير أن القرشيين أيضاً كانوا يقدسونه ويذهبون لزيارته. وإذا طافوا بالكعبة يقولون[1] :

لهذيل وخزاعة، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها فلم تزل على ذلك حتى خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من المدينة في سنة ثمان للهجرة وهو عام الفتح، فلما سارَ من المدينة أربع ليال أو خمس ليال بعث علي بن أبي طالب إليها فهدّمها وأخذ ما كان لها وأقبل به إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان من جملة ما أخذه سيفان كان الحارث بن أبي شَمر الغساني أهداهما لها أحدهما يسمّى مِخذَماً والآخر رَسُوباً وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما عَلقمة بن عبدة في شعره فقال:

مظاهر سربالَيْ حديد عليهما   عقيلا سيوف مِخْذَمٌ ورَسُوب

فوهبهما النبيّ، صلى الله عليه وسلم، لعلي، رضي الله عنه، فأحدهما يقال له ذو الفقار سيف الإمام علي، ويقال إنّ علياً وجد هذين السيفين في الفُلْس وهو صنم طيء حيث بعثه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فهدمه، وقد جرى ذكر ذلك في الفلس على وجهه. وقال ابن حبيب: كانت الأنصار وأزد شَنُوءة وغيرهم من الأزد يعبدون مناة وكان بسيفِ البحر سدنته الغطاريف من الأزد؛ قال الحازمي: ومناة أيضاً موضع بالحجاز قريب من وَدّان.(يوسف عامر).

[1] – معجم البلدان، لفظ اللات، كتاب الأصنام الكلبي، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٣، ص ١٩. وهذا نص ما ورد في معجم البلدان عن اللات والعزي: العُزّى: بضم أوله في قوله تعالى: {أفرأيتم اللاّت والعُزّى}؛ اللاّت: صنم كان لثقيف، والعُزّى: سَمُرَةٌ كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إليها فهدم البيت وأحرق السَمُرة. والعُزّى تأنيث الأعزّ مثل الكُبرَى تأنيث الأكبر، والأعزّ بمعنى العزيز والعزى بمعنى العزيزة، وقال ابن حبيب: العزى شجرة كانت بنخلة عندها وَثَنٌ تعبده غطفان وسدنتها من بني صِرْمة بن مُرّة. قال أبو منذر بعد ذكر مناة واللاّت: ثم اتخذوا العزّى وهي أحدث من اللات ومناة، وذلك أني سمعتُ العرب سمّت بها عبد العُزّى فوجدت تميم بن مُرّ سمّى ابنه زيد مناة بن تميم بن مُرّ بن أُدّ بن طابخة وعبد مناة بن أُدّ، وباسم اللاّت سمّى ثعلبة بن عُكابة ابنة تَيم اللات

وتَيم اللات بن رُفَيدة بن ثور وزيد اللات بن رُفيدة بن ثور بن وَبرة بن مرّ بن أُدّ بن طابخة وتيم اللات بن النمر بن قاسط وعبد العُزّى بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم، فهي أحدث من الأولين، وعبد العُزّى بن كعب من أقدم ما سمّت به العربُ، وكان الذي اتخذ العُزّى ظالم بن أسعد، وكانت بوادٍ من نخلة الشامية يقال له حُراض بإزاء الغُمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال، فبنى عليها بُسّاً، يريد بيتاً، وكانوا يسمعون فيه الصوت، وكانت العرب وقريش تسمّي بها عبد العُزّى، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقرّبون عندها بالذبائح؛ قال أبو المنذر: وقد بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها يوماً فقال: «لقد اهتديت للعُزّى شاةً عفراء وأنا على دين قومي، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللاّت والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى فإنهنّ الغرانيق العُلى وإن شفاعتهنّ لتُرتجى، وكانوا يقولون بنات الله، عز وجل، وهُنّ يشفعن إليه»، فلما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه: {أفرأيتم اللاّت والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكَر وله الأنثى تلك إذاً قسمة= = ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان}؛ وكانت قريش قد حَمَتْ لها شعباً من وادي حُراض يقال له سُقام يضاهئون به حرم الكعبة، وقد ذكر سُقام في موضعه من هذا الكتاب؛ وللعُزّى يقول درهم بن زيد الأوسي:

إني وربّ العُزّى السعيدة والله الذي دون بيته سَرِفُ

وكان لها منحرٌ ينحرون فيه هداياهم يقال له الغَبْغَب، وقد ذكر في موضعه أيضاً، وكانت قريش تخصها بالإعظام فلذلك يقول زيد بن عمرو بن نُفَيل، وكان قد تألّه في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام:

تركتُ اللاّت والعُزّى جميعاً، كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبُورُ

فلا العُزّى أدينُ ولا ابنتَيها، ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزُورُ

ولا هُبَلاً أزُورُ وكان ربّاً لنا في الدهر، إذ حِلْمي صغيرُ

وكانت سدنة العُزّى بني شيبان بن جابر بن مُرّة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن عتبة بن سليم بن منصور، وكانوا حلفاء بني الحارث بن عبد المطلبِ بن هاشم بن عبد مناف، وكان آخر من سدنها منهم دُبَيّة بن حَرْمَى السلمي، وله يقول أبو خراش الهُذَلي وكان قدم عليه فحذاه نعلَين جيدتين فقال:

حذاني بعدما خَذمَتْ نِعالي دُبَيّةُ، إنه نعم الخليلُ

مقابلتَين من صَلَوَيْ مِشَبٍ من الثيران وصلُهما جميلُ

فنعم مُعَرَّس الأضياف تَذْ حَى رِحالَهُمُ شآمِيّةٌ بليلُ
يقابل جوعهم بمكلّلات من القُربي يُرَعِّبها الحميلُ

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيّه صلى الله عليه وسلم فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها، ونزل القرآن فيها، فاشتدّ ذلك على قريش. ومرض أبو أُحيْحة سعيد بن العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي فقال له: ما يبكيك يا أبا أحيْحة، أمِنَ الموت تبكي ولا بدّ منه؟ فقال: لا ولكني أخاف ألا تعبدوا العُزّى بعدي، فقال له أبو لهب: ما عُبِدَت في حياتك لأجلك ولا تترك عبادتها بعدك لموتك، فقال أبو أحيحة: الآن علمتُ أن لي خليفة، وأعجبه شدّة نصبه في عبادتها. قال أبو المنذر: وكان سعيد بن العاصي أبو أحيحة يعتمّ بمكة فاذا اعتم لم يعتم أحد بلَون عمامته؛ قال أبو المنذر: حدّثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال: = كانت العزى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نخلة، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له: «ائت بطن نخلة فانك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى»، فأتاها فعضدها، فلما عاد إليه قال: «هل رأيتَ شيئاً؟» قال: لا، قال: «فاعضد الثانية»، فأتاها فعضدها، فلما عاد إليه قال: «هل رأيت شيئاً؟» قال: لا، قال: «فاعضد الثالثة»، فأتاها فاذا هو بخنّاسة نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها وخلفها دُبيّة بن حَرْمى السلمي ثم الشيباني وكان سادنها، فلما نظر إلى خالد قال:

أعُزَّيَّ شُدّي شَدّة لا تكذّبي، على خالد ألقِي الخِمارَ وشمّري
فانك إلا تقتلي اليوم خالداً، فبوئي بذُل عاجل وتَنَصّري

فقال خالد:

يا عَزُّ كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلّق رأسها فاذا هي حُمَمة ثم عضد الشجر وقتل دُبيّة السادن؛ وفيه يقول أبو خراش الهذلي يرثيه:

ما لدُبَيّةَ منذ اليوم لم أرَهُ وسطَ الشروب ولم يُلْمِمْ ولم يطفِ
لو كان حيّاً لغاداهم بمُترَعة من الرواويق من شيزَى بني الهَطِفِ
ضخمُ الرّماد عظيم القدْر جَفْنته حين الشتاء كحَوْض المنهل اللّقِفِ

قال هشام: يطف من الطّوفان أو من طاف يطيف، والهطف: بطن من عمرو بن أسد، واللقف: الحوض المنكسر الذي يغلب أصلَه الماءُ فيتثلم، يقال: قد لقف الحوض؛ ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره قال: «تلك العزى ولا عُزّى بعدها للعرب، أما إنها لن

إنهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجي

وقد كان من شأن عبادة الأصنام أن انبثق عنها تدريجياً الكثير من المثالب والعادات المستنكرة، فكان يتم التقرب إليها بأي شئ كان، بدءاً بأرواح الحيوانات وانتهاءً بأرواح البشر، ومن ذلك أن عبد المطلب جد رسول الله ﷺ كان يريد أن يذبح ابنه عبد الله تقرباً إلي الأصنام، وإتباعا لهذا التقليد العتيق.

كما كان العرب يتقربون إلي الأصنام بإطلاق فحول الإبل البحيرة، والسائبة والحامى، وكانوا يلطخون جدران الكعبة بكل ما ينحرونه أمامها[1]. وكان عند كل صنم قدحان للطيرة مكتوب على إحداهما "نعم" وعلى الآخر "لا"، فإذا أراد أحدهم أن يفعل شيئاً ما لجأ إلي صاحب القداح كي يستفتى له الآلهة عن طريق القداح، فإذا خرج القدح بـ "نعم" فعل هذا الشيء، وإن خرج بـ "لا" امتنع عن فعله .

كانت الأشياء التي تُعبد في الجاهلية متنوعة الأقسام، فهناك الأصنام والأوثان، والأنصاب. أما الأصنام والأوثان، ومفردها: صنم ووثن، فيطلق عليهما "بغيم" إذا كانتا من الخشب، وتسميان "دمية" إذا كانتا مصنوعتان من الألوان والملاط. والأنصاب مفردها: نصب، وهى أحجار مستوية السطح تنصب لتذبح

تُعبد بعد اليوم» قال: ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزّى ثم اللات ثم مناة، فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالهدية والزيارة وذلك فيما أظن لقربها منهم، وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزّى، وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين، وكلهم كان معظماً لها ولم يكونوا يرَون في الخمسة الأصنام التي دفعها عمرو بن لُحَيّ، وهي التي ذكرها الله تعالى في القرآن المجيد حيث قال: {ولا تَذَرُنّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونَسْراً}؛ كرأيهم في هذه ولا قريباً من ذلك، فظننتُ أن ذلك كان لبعدها منهم، وكانت قريش تعظمها وكانت غنيّ وباهلة يعبدونها معهم، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد ابن الوليد فقطع الشجر وهدم البيت وكسر = = الوثن.(يوسف عامر).

[1] – نيل المرام في تفسير آيات الأحكام، ص ١١٠، ١١١ .

عليها القرابين. أما البيوت ومفردها: بيت فكانت هناك مجموعة من البيوت مثل رضا، ورئام، وقليس وغيرها، تُمارس فيها الطقوس الوثنية. أما التماثيل التي كان يطوف حولها الناس فتسمى "دوار" فيما تسمى القرابين التي تقدم إليها "عتيرة"، هذا وكانوا يجمعون كومة من التماثيل ويطوفون حولها، ويطلقون على هذه الكومة "الرجمة" يقول الشاعر الجاهلي :

كما طافَ بالرَّجْمَةِ الـمُرْتَـجِمْ [1] .

لقد كان عدد التماثيل التي تُعبد يفوق الحصر، إذ كان لكل قبيلة صنمها الخاص؛ فكان في البيت الحرام وحوله على وجه الخصوص ثلاثمائة وستون صنماً [2] ،ذكر منهم القرآن الكريم: اللات، والعزى، ومناة، يغوث، ويعوق، ونسر، وود، وسواع، وبعل، بيد أن اللغويين والمؤرخين المتأخرين للجاهلية قد ذكروا الكثير من أسماء تلك الأصنام مستشهدين بأبيات من الشعر الجاهلي وأسماء الذين كانوا يعيشون فى تلك الحقبة، فقد أورد هشام الكلبي في كتابه " الأصنام" الذي يعد الأول في موضوعه وقد تمت طباعته في مصر – أسماء ما يقرب من ثلاثين

---

[1] – ورد في لسان العرب: الرَّجَمُ والرِّجامُ: الحجارة المجموعة على القبور؛ ومنه قول عبداللهبن مُغَفَّل المُزَنِيّ: لا تَرْجُموا قبري أي لا تجعلوا عليه الرَّجَمَ، وأراد بذلك تسوية القبر بالأرض، وأن لا يكون مُسَنَّماً مرتفعاً كما قال الضحاك في وصيته: ارْمُسُوا قبري رَمْساً؛ وقال أبو بكر: معنى وصيته لِبَنِيه لا تَرْجُمُوا قبري معناه لا تَنُوحُوا عند قبري أي تقولوا عنده كلاماً سَيِّئاً قبيحاً، من الرَّجْم السب والشتم؛ قال الجوهري: المحدِّثون يروونه لا تَرْجُمُوا، مخففاً، والصحيح تُرَجِّمُوا، مشدداً، أي لا تجعلوا عليه الرَّجَمَ، وهي الحجارة، والرُّجْماتُ: المَنارُ، وهي الحجارة التي تجمع وكان يُطاف حولها تُشَبَّهُ بالبيت؛ وأنشد:
كما طافَ بالرَّجْمَةِ المُرْتَجِمْ (يوسف عامر).

[2] – صحيح البخاري، باب فتح مكة . وهذا نص الحديث: (٤١٨٧) حدَّثنا صدَقةُ بن الفضلِ أخبرَنا ابنُ عُيَينة عنِ ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن أبي مَعمَر عن عبدِ الله رضي الله عنه قال: «دخلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مكةَ يومَ الفتح وحولَ البيتِ ستونَ وثلاثمائة نُصُب، فجعلَ يَطعنُها بعود في يدهِ ويقول: جاء الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ، جاء الحقُّ وما يُبدِىء الباطلُ وما يُعيد».(يوسف عامر).

صنماً، ثم زاد العلامة زكى باشا على هذا العدد ستة وأربعين اسـماً آخـر فـي الإضافات والحواشي التي ألحقها بكتاب الكلبي حين أعاد طبعه في سـنة ١٣٤٣ هـ/ سنة ١٩٢٤ م، فضلاً عن أن شواهد عصر الجاهلية التي قرأها باحثو الآثار في اليمن والحجاز قد أشارت إلي عدد لا يستهان به من أسماء الأصنام الأخرى مثل: المقة، وعشتار، ونكره، وقينان وغيرها، هذا وقد جمعت كل هذه المعلومات في الجزء الثاني من كتاب "أرض القرآن" الذي طبـع في سنـة ١٣٣٦ هـ / سنة ١٩١٨ م.

وفيما يلي قائمة بأسماء الأصنام التي عرفت حتى يومنا هذا :

اسم الصنم	اسم القبيلة التى كانت تعبده بوجه خاص
اللات	ثقيف
العزى	قريش وبنو شيبان بن جابر
مناة	الأوس والخزرج وعامة العرب
يغوث	بنو مدحج وأهل جرش
يعوق	بنو همذان وأهل خيوان
نسرا	حمير
ودا	بنو كلب
سواع	بنو لحيان
إساف	الصنم الذى كان يُضحى عليه في الحج
نائلة	الصنم الذى كان يُضحى عليه
قيصر	قضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان
باجر	أزد وطئ وقضاعة
ذو الخلصة	بنو أُمامة، وخثعم، وبجالة، وأزد السراة
رُضا، أو رضى	معبد بنى ربيعة
رُمام	معبد حمير
سبحه	
سعد	بنى لمكان بن لنانة

سعير	عنزة
ذو الشرى	بنو الحارث
عائم	أزد السراة
عم أنسٍ (أو) عميانس	خولان
قلس	طىء
ذو الكفين	بنو دوس
مناف	قريش
نهم	مزينة
هبل	قريش
بعل	قبائل بنى عدنان
بعيوب	حديلة (بنو طىء)
أشهل	بنو عبد الأشهل
أوال	بكر وتغلب
بس	معبد غطفان
بغيم	صنم من الخشب
بلج	صنم
جبه	صنم
جُريش أو حُريش	الصنم الذى ينتمى إليه آل عبد جريش
جلسد	اسم لصنم

اسم الصنم	اسم القبيلة التى كانت تعبده بوجه خاص
جهار	إله هوازن
دار	بنو عبد الدار
دوار	اسم لصنم
ذو الرجل	أحد أصنام الحجاز
شارق	اسم الصنم الذى تنتمى إليه آل عبد الشارق

شمس	بنو عبد الشمس
صدا	صنم غاد
صمودا	صنم عاد
ضمار	قبيلة عباس بن مرداس السلمى
ضيزن	منذر الأكبر
عبعب	قضاعة
عوض	بكر بن وائل
عوف	اسم لصنم
فراض	سعد العشيرة
كثرى	جديس وطسم
كسعة	اسم لصنم
محرق	بكر بن وائل
مدان	عبد المدان
مرحب	حضر موت
منهب	اسم لصنم
هبا	عاد
ذات الوداع	اسم لصنم
يا ليل	عبد ياليل
غبغب	كانت تذبح عليه الحيوانات

عبادة الكواكب

كان بين العرب أيضاً جماعة من عبدة الكواكب، فكانت القبائل المختلفة تعبد كواكب مختلفة، من أهمها الشمس والقمر ولذا خاطبهم القرآن الكريم على وجه الخصوص، فقال تعالي :

﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ﴾(فصلت:٣٧)

كان أهل سبأ باليمن يعتقدون أن الشمس هي الإله ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

﴿فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ (النمل:٢٤) فكان ملك اليمن شمرليرعش قد بنى معبد (الإله) الشمس [1]. وكان لكوكب الشعري عندهم المنزلة العظمى بعد الشمس والقمر، فقال تعالي :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ (النجم:٤٩) هذا وقد أورد صاعد الأندلسي (المتوفى سنة ٤٦٢ هـ) في كتابه "طبقات الأمم" أسماء الكواكب مع أسماء القبائل العربية التي كانت تعبدها كالآتي: كانت قبيلة حمير تعبد الشمس، وكنانة تعبد القمر، وتميم تعبد وبرآن، أما لخم وخدا فكانتا تعبدان المشترى، وطئ "سهيل"، وقيس "شعري العبور"، وأسد "عطارد" [2].

الجن والشياطين والغيلان

كانت للعرب معتقدات عجيبة فيما يتعلق بالجن والشياطين، فكانوا يعتقدون أن الجن، والشياطين، والغول (الروح الشريرة) نوع واحد، ولا تختلف أسماؤها إلا باختلاف أشكالها وأعمالها، فالجن التي كانت تسكن في الغابات والصحارى وتخادع عابرى السبيل بتبديل هيئتها أو لباسها، كانت تُسمى "الغول"، وكان منها ما هو "مذكر" وما هو "مؤنث" أيضاً.

يقول عبيد بن أيوب اليغرى :

وغولاً قفرة ذكر وأنثى كان عليهما قطع البجاد

أما المؤنث منها فكان يسمى "السعلاة"

أذل وسعلاة وغول بقفرة إذا لليل توارى الجن فيه ارنّت.

وها هو عمرو بن يربوع الذي كان شخصاً مرموقاً، وتزوج من السعلاة وأنجب منها، يقول هذا الرجز:

يا قاتل الله بنى السعلاة

وكانت بلقيس ملكة اليمن (تزعم) أنها وُلدت من بطن السعلاة.

---

[1] – تاريخ ملوك الأرض، حمزة الأصفهاني، ص ١١ كلكته .

[2] – طبقات الأمم، قاضي صاعد الأندلس، ص ٤٣ بيروت .

وكان يغلب على "السعلاة" أنها كانت تغنى ويطرب العرب لأنغامها،يقول الشاعر:

كم جبت دونك من بهماء مظلمة آتية إذا ما مغنٍ جنه سمر

كما كانت "السعلاة" تشارك هؤلاء البدو قاطني الصحراء مجالسهم، وتستدفئ معهم بالنار إذا أوقدوها في ليالي البرد القارس، بيد أنها كانت تعتذر عن مشاركتهم في الطعام قائلةً: إننا لا نأكل طعام البشر،يقول الشاعر:

أتوا ناري فقلت ممنون لكم فقالوا الجن قلت عموا ظلاماً

دعوت إلي الطعام فقال منهم زعيم نحسد الإنسان الطعاما

وكان أغلبها يعيش في المناطق التالية: بدى، وبقار، وعبقر.

يقول الشاعر: **جن البدى دواسيا أقدامها.**

ويقول أيضاً: **تحت السنور جنة البقار.**

ويقول أيضاً: **عليهن فتيان كجنة عبقر.**

وكانت أنواعها كالتالي :-

منها التى كانت تتعايش مع الناس، وتسمى "العامر" ومنها ما كانت تؤذى الأطفال، وتسمى "الروح".أما النوع الشرير منها فكان يسمى "الشيطان"، والذي يزيد شره عن ذلك فكان يسمى "العفريت".

وكانت غالباً ما توقظ الأطفال والشبان وتأخذهم، فقد أيقظت طالب أخو سيدنا على (ﷺ) وأخذته ثم لم يُعثر عليه، كما أيقظت عمرو بن عدى اللخمى – الذي كان أحد ملوك العرب – وأخذته، ولكن جذيمة الأبرش قد عثر عليه وأعاده إلي بلاده بعد ذلك بسنوات.

وعلى غرار مثل هذه القصص الخرافية كان العائدون منهم بعد أخذهم، يروون حكايات وأموراً عجيبة [1].

---

[1] – شمائل الترمذي، باب السمر .

ومن أشهر الذين كثرت علاقاتهم واتصالاتهم بالجن والـشياطين :تـأبط شراً، وأبو البلاد الطهوى، الذي قتل غولاً، فكُتبت هذه الوقائع في قصيدةٍ، يقول الشاعر :

لقيت الغول تسرى في ظلام

فصدت وانتحيت لها بعضب حسام

غير موتشـب يمـاني فقدت سراتها

والبرد منها فخرت لليدين وللجوان (١)

ولكسر شوكة الجن والشياطين صور القرآن الكريم موقفهم يوم القيامة موضحاً أن أخلاّءهم من الإنس في الدنيا سيتبرأون بصداقتهم في الآخرة، مما نستنتج منه مدى استحواذهم وسطوتهم على العرب فى الجاهلية، قال تعالي : **﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾**(الأنعام: ١٢٨)

الكهانة

كانت الكهانة وباءً نافذاً ومنتشراً في أنحاء البلاد كافة، فكان هناك في كل مكان كاهن أو مجموعة من الكهنة يتنبئون بالأحداث القادمة وينقلـون الأخبـار السماوية. وكان العرب يعتقدون- كما يزعم الكهنة أنفسهم- أن كلاً منهم يلازمه جنى (٢) ويلقنه، وكان الكهنة يتخذون هيئة يعرفون بها، ففي ذات مرة مر رجـل بسيدنا عمر (ﷺ)، فاقتفى أثره فعرف أنه كاهن فاستدعاه وسأله: ما هو أعجب ما أخبرتك به جنيتك، فقال الكاهن: كنت أجوب في السوق ذات يوم فإذا بجنيتي قـد جاءتني مذعورة وقالت :

المتر إلي الجن وإبلاسها وسهامن بعد إنكاسها ولحقوها بالقلاص وأحلاسها

---

١ – اقتبست هذه التفاصيل كلها من كتاب " الحيوان " للجاحظ؛ فقـد وردت هـذه الوقـائع بالتفصيل التام في بعض صفحاته، انظر الكتاب ا لمذكور، من ص ٨٠ إلى ص ١٤٨، الجزء السادس، طبعة مطبعة السعادة، مصر.

٢- كتاب البيان والتبيين، الجاحظ، الجزء الأول، ص ١١٣، طبعة المطبعة العلمية، مصر.

فقال سيدنا عمر (ﷺ): إنه لحق ؛ فقد كنت نائماً عند الأصنام ذات يوم من أيام الجاهلية، فرأيت فيما يرى النائم رجلاً قد أحضر عجلاً ونحره،وبعد ذلك صاح كائن ما بصوت عالٍ :

يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول لا إله إلا أنت

بعد ذلك بأيام قلائل بُعث رسول صلى الله عليه وسلم [1].

ويروى في تفسير سورة الضحى بصحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصابه شيء من المرض ذات مرة، ولم ينهض لصلاته مدة يومين أو ثلاثة فجاءته امرأة (زوجة أبى لهب) وقالت له :

إنِّي لأَرجو أن يكون شيطانُكَ قَد تركَك [2]

---

[1] – صحيح البخاري، ج ١، ص ٥٤٦ . وهذا نص الحديث: (٣٧٧٩) حدَّثنا يحيى بنُ سليمانَ قال: حدَّثني ابنُ وَهبٍ قال: حدَّثني عمرُ أنَّ سالماً حدَّثهُ عن عبدِ الله بن عمرَ قال: «ما سمعتُ عمرَ لشيء قطُّ يقول إني لأظنُّهُ كذا إلا كان كما يَظنّ. بينما عمرُ جالسٌ إذ مرَّ بهِ رجلٌ جميلٌ فقال عمرُ: لقد أخطأ ظني، أو إنَّ هذا على دينهِ في الجاهلية، أو لقد كان كاهنَهم، عليَّ الرَّجُلَ. فدُعي لهُ، فقال لهُ ذلك. فقال: ما رأيتُ كاليوم استُقبِلَ بهِ رجلٌ مسلم. قال: فإني أعزمُ عليكَ إلاّ ما أخبرتَني. قال: كنتُ كاهنَهم في الجاهلية. قال: فما أعجبُ ما جاءتكَ به جنيَّتُك؟ قال: بَينما أنا يوماً في السوقِ، جاءَتني أعرفُ فيها الفَزَع فقالت: ألم ترَ الجنَّ وإبْلاسَها، ويأسَها من بعدِ إنكاسِها، ولحوقَها بالقلاصِ وأحلاسها. قال عمر: صدق، بينما أنا نائمٌ عندَ آلهتِهم، إذ جاء رجلٌ بعجلٍ فذبحَهُ، فصرَخَ به صارخٌ لم أسمَعْ صارخاً قطُّ أشدَّ صوتاً منه يقول: يا جَليحْ، أمرٌ نَجيح، رجُل فَصيح، يقول: لا إلهَ إلاّ أنت. فَوثبَ القومُ. قلتُ: لا أبرَحُ حتى أعلمَ ما وراءَ هذا. ثم نادَى: يا جَليحْ، أمرٌ نَجيح، رجُل فصيح، يقول: لا إلهَ إلاّ الله. فقمتُ، فما نَشِبْنا أن قيل: هذا نبيّ». (يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري (٤٨٣١) حدَّثنا أحمدُ بن يونسَ حدَّثنا زُهيرٌ حدثنا الأسْودُ بن قيس قال: سمعتُ جُندبَ بن سُفيانَ رضي الله عنه قال: «اشتكى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقم لَيْلَتَين أو ثلاثاً، فجاءَتِ امرأةٌ فقالتْ: يا محمدُ إنِّي لأَرجو أن يكون شيطانُكَ قَد تركَك، لم أره قَرِبك مَنذ ليْلَتين أو ثلاثاً، فأنزل اللّهُ عز وجلَّ: {والضُّحَى* والليلِ إذا سَجى* ما ودعك ربك وما قَلَى} (الضحى: ١ ـ ٣).

كان هذا هو الاعتقاد السائد عند المشركين،ولأنهم كانوا يعتبرون رسول الله صلى الله عليه وسلم كاهناً، ظنوا أن له قريناً من الجن، فنفي القرآن الكريم ذلك، فقال تعالي :

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢١ :٢٢٣)

وكان هؤلاء الكهنة أيضاً يفصلون في كل القضايا والمنازعات، ومن ثم ساد تأثيرهم على ربوع البلاد كافة، وكان من أشهرهم حازى، وشق، وسطيح، وعزى، وقد أورد الجاحظ عباراتهم الكهنوتية في كتاب البيان، ومنها :

والأرض والسماء والعقاب والصقعاء واقعة لليقعاء

لقد نفر المجد بنى العشراء للمجد والمناء

كانت الأخبار والمواعظ التي كان يتفوه بها هؤلاء الكهنة مركبة من جمل وعبارات من السجع المقفى المصطنع، ومن ذلك أنه حينما عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قضية قتل جنين، وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدية له، فاعترض أحدهم -وفقاً للأعراف السائدة عند العرب- قائلاً :

أرأيت من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس دمه يُطَل

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ» (صحيح مسلم، دية الجنين[1]، صحيح البخاري، باب الكهانة)[1] وقد كان هؤلاء

(يوسف عامر).

[1] - وهذا نص الحديث: (٤٣٤٥) وحدثني أَبُو الطَّاهِرِ : حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ. ح وَحَدَّثَنَا حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى التُّجِيبِيُّ : أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ : أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ وأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: اقْتَتَلَت امْرَأَتَانِ مِنْ هُذَيْلٍ. فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا، وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللّـهِ، فَقَضَى رَسُولُ اللّهِ أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ: عَبْدٌ أَوْ وَلِيدَةٌ، وَقَضَىٰ بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَىٰ عَاقِلَتِهَا، وَوَرَّثَهَا وَلَدَهَا وَمَنْ مَعَهُمْ، فَقَالَ حَمَلُ بْنُ النَّابِغَةِ الْهُذَلِيُّ: يَا رَسُولَ اللّهِ كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لاَ شَرِبَ وَلاَ أَكَلَ، وَلاَ نَطَقَ وَلاَ اسْتَهَلَّ؟ فَمِثْلُ ذَلِكَ يطَلُّ، فَقَالَ رَسُولُ الله «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ» مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ. (يوسف عامر).

الكهنة يقيمون بالمعابد، ويتعبد كل منهم لصنم معين، وحين يسألهم النـــاس عـــن الغيبيات أو حين يتنبئون بأنفسهم عن المستقبل تعتريهم حالة خاصة. ولـــم تكـــن الكهانة مقصورةً على الرجال بل كان هناك كاهنات من النساء أيـــضاً، وكانـــت تسمى الواحدة منهن "كاهنة"، وكن أيضاً يستخدمن العقاقير والوصـــفات الوثنيـــة لدرء المصائب والبلايا، وكن يتقاضين أجوراً ونذوراً باهظـــة لقـــاء أعمـــالهن الكهنوتية. ومن اعتنق الإسلام من الكهنة (بعد ظهور الإسلام) كان يعترف على الملأ بما ارتكبه من خداع ومكر قبل إسلامه.[2] وكان النذر أو الأجر الذى يتلقاه الكاهن – سواءٌ أكان مبلغاً نقدياً أم هدية – يسمى حُلوان الكاهن، أي الهدية التي تحلى فم الكاهن، وجاء الإسلام فنهى عن ذلك كله [3].

خلاصة القول إن هؤلاء الكهنة كانوا يغالون في خداع عامة الناس، وكان من أثر ذلك أن ظهرت في سائر البلاد مئات الأنواع من الخرافات والأوهام.

وفيما يتعلق بالشعراء كان العرب يعتقدون أيضاً أن لكل شاعر شـــيطاناً يرافقه ويلقنه الأبيات التي ينشدها، ومن ذلك الشاعر مخبل كانت شيطانته بنـــت

---

[1] – وهذ نص الحديث: (٥٦٢٦) حدّثنا سعيدُ بن عُفير حدثنا الليثُ قال: حدثني عبدُ الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن أبي سَلمةَ: عن أبي هريرةَ «أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلمَ قضى في امرأتين من هُذَيل اقتَتَلتا، فرمتْ إحداهما الأخرى بحَجَر، فأصاب بطنَها وهي حامل، فقتَلَت وَلدَها الذي في بَطنها، فاختَصَموا إلى النبي صلى الله عليه وســـلم، فقضى أنَّ ديةَ ما في بطنها غُرَّةٌ عبدٌ أو أمة. فقال وليُّ المرأة التي غَرِمت: كيف أغرَمُ يارسول الله من لا شربَ ولا أكل، ولا نطقَ ولا استهلّ، فمثلُ ذلك يُطلّ. قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكهان». (يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، ج ١، ص ٥٤٢، كتاب الطب، بابُ الكهانة.

[3] – صحيح البخاري، ج ١، ص ٥٤٢، كتاب الطب، بـــاب الكهانـــة . وورد فـــي مختـــار الصحاح، ج١: وفي الحديث نهى عن حلوان الكاهن وهو ما يعطى على الكهانة.(يوسف عامر).

عمرو، وكان شيطان الشاعر العربي الشهير "الأعشى" يدعى مسحلاً، فيقول الأعشى [١] نفسه :

دعوت خليلى مسحلاً ودعوا له   بجهنام يدعى للهجين المذمم

حبانى أخـــى الجني نفسي فداءه   يا قبـح جيـاش العشيات مرجم

ومن كان منهم شاعراً كبيراً كان شيطانه أو قرينه ذكراً، يقول أبو النجم :

إنى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

كان شنقنان وشيصبان هما رؤساء الشياطين الذين كانوا يعلمون الشعر، فكان أحد الشعراء يفتخر بأن معلمه من بنى شيصبان، فيقول :

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطورٌ قولاً وطورٌ هولاً

الإيمان بالخرافات

كان العرب لا يقتلون الثعابين اعتقاداً منهم بأنهم إذا قتلوا ثعباناً أتي زوجه لينتقم له [٢]، كما كانوا يؤمنون بأن الروح تتحول بعد الموت إلي طائر لا يتوقف عن التحليق، يسمونه (الهامة)،وكانوا يعتقدون أيضاً أن هناك كائناً يعيش في البطن ويلدغها عند الجوع، ومن أراد منهم أن يقوم بعمل ما كان يتطير أولاً، فعلى سبيل المثال إذا كان هناك طائر في تلك اللحظة وطار ناحية اليمين، عرف أن هذا العمل مباركٌ، أما إذا طار ناحية اليسار امتنع عن القيام به لشؤمه، وإذا ولدت الشاة ذكراً تقربوا به للأصنام، وإذا ولدت الناقة عشرةِ إبل أطلقوها تهيم فى الصحارى كالفحل.

وإذا امتلك أحدهم ألف ناقة فقأوا عين إحداها حتى لا تُحسد، وإذا أصابهم الجدب عقدوا بعض القش في ذيل نعجة أو خروف وأشعلوا فيها النار اعتقاداً منهم أن المطر سيهطل بذلك، وكانوا إذا خرجوا للسفر عقدوا عقدة من الخيط أو غيره في شجرة ما، وعند عودتهم يذهبون إليها، فإذا وجدوا العقدة قد انحلت

---

[١] - ديوان الأعشى، طبعة ديانا، وقد ورد البيت الأول فقط في ص ٦٥ وشطره الثاني كما يلي : **جهنان جدعنا الهجين المذمم** .

[٢] - ورد هذا فى بلوغ العرب وأطوار العرب وغيرهما من الكتب.

فيء لهم أن زوجاتهم قد ارتكبن الفاحشة في غيابهم، وكانوا إذا ضلوا الطريق في السفر ارتدوا ثيابهم مقلوبةً إيماناً منهم بأن ذلك سوف يهديهم إلى طريقهم الصحيح، كما كانوا يعتقدون أن من يسب اللات والعزى يصاب بالبرص أو الجذام[1]، وكانوا يلبسون في أيديهم خاتماً من النحاس معتقدين أن ذلك يُذهب ضعف أبدانهم[1].

---

[1] - مسند الدارمي، ص ٨٩ . وهذا نص الحديث: (٦٥٧) أخبرنا محمدُ بنُ حميدٍ حدثَنَا سلمةُ، حدثني محمدُ بنُ إسحاقَ، حدثني سلمةُ بنُ كهيلٍ، ومحمدُ بنُ الوليدِ بن نويفعٍ عَنْ كريبٍ مولَىٰ ابنِ عباسٍ، عنْ ابنِ عباسٍ، قالَ: بَعَثَ بنو سعدِ بنِ بكرٍ ضمامَ بنَ ثعلبةَ إلى رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فقدَمَ عليهِ، فأناخَ بعيرَهُ علَى بابِ المسجدِ ثم عقلَه ثُمَّ دَخَلَ المسجدَ، ورسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جالسٌ في أصحابِهِ، وكانَ ضمامٌ رجلاً جلداً أشعر ذا غديرَتَيْنِ حتَّى وَقَفَ علَى رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فقالَ: أيكُمْ ابنُ عبدالمطلب، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أنا ابنُ عبدالمطلب» قالَ: محمدٌ، قالَ: «نَعَم» قالَ: يَا ابنَ عبدِالمطلبِ، إني سائلُكَ ومغلظٌ في المسألةِ فلا تجدنَ في نفسكَ، قالَ «لاَ أجدُ في نفسي فَسَلْ عمّا بدا لَكَ» قالَ: إني أنشدكَ باللَّهِ إلهكَ وإله مَنْ كانَ قبلَكَ وإلهِ مَنْ هُوَ كائنٌ بَعْدَكَ، آلله بعثكَ إلينَا رسولاً، قالَ: «اللهمَّ نَعَم» قالَ: فأنشدكَ باللَّهِ إلهكَ وإلهِ مَنْ كَانَ قبلَكَ وإلهِ مَنْ هُو كائنٌ بعدكَ، آلله أمركَ أنْ نعبدَهُ وحدَهُ لا نشركُ بهِ شيئاً، وأنْ نخلعَ هذهِ الأندادَ التي كانَتْ آباؤنَا تعبدُهَا من دونِه، قالَ: «اللهُّم نَعَم» قالَ: فأنشدكَ باللَّهِ إلهكَ وإلهِ مَنْ كانَ قبلَكَ وإلهِ مَنْ هُوَ كائنٌ بَعْدَكَ، آلله أمركَ أنْ نصليَ هذهِ الصواتِ الخمسَ، قالَ: «اللهمَّ نَعَم» ثمَّ جعلَ يذكُرُ فرائضَ الإسلامِ فريضةً فريضةً الزكاةَ والصيامَ والحجَّ وشرائعَ الإسلامِ كلَّها،ويناشدُهُ عندَ كلِّ فريضةٍ كما ناشَدَهُ في التي قبلَهَا، حتَّى إذا فرغَ قالَ: فإني أشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللَّهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وسأؤدي هذهِ الفريضةَ وأجتنبُ ما نهيتني عنهُ، ثمَّ قالَ: لاَ أزيدُ ولا أنقصُ ثمَّ انصرفَ إلَى بعيرِهِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حينَ ولَّى: «إنْ يصدقْ ذو العقيصتينِ يدخلْ الجنةَ» فأتَى إلى بعيرِهِ فأطلقَ عقالَهُ ثُمَّ خرجَ حتَّى قدمَ علَى قومِهِ فاجتمعوا إليهِ، فكانَ أولُ ما تكلمَ أنْ قالَ بئستِ اللاتِ والعزى، قالوا مهْ يا ضمامُ، اتقِّ البرصَ واتقِّ الجنونَ واتقَّ الجذامَ قال: ويلكم إنهما واللَّهِ لا تضرانِ ولا تنفعانِ، إنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ رسولاً، وأنزلَ عليهِ كتاباً، استنقَذَكُمْ بِهِ ممّا كُنتُمْ فيهِ، وإني أشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللَّهُ، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، وَقَدْ جئتُكُمْ من عندِهِ بمَا أمرَكُمْ بهِ ونهاكُمْ عنهُ، قالَ: فَواللَّهِ مَا أمسَى مِنْ ذلكَ

وكانت تشيع عندهم أنواع لا حصر لها من مثل هذه الخرافات.

ذكرنا فيما سبق معتقداتهم وأحوالهم الدينية أما أحوالهم الأخلاقية فقد كانت على نفس هذه الدرجة من التدني والانحطاط، وكانت أبرز مثالبهم الأخلاقية هي الرغبة في القتال التي جعلتهم على درجةٍ عاليةٍ من الضراوة والقسوة والدمويّة.

القتال

كان قتالهم وتناحرهم على أهون الأسباب من الأمور المألوفة عندهم، فكانت كل قبيلة وكل عشيرة تقاتل الأخرى، ومن ثم نشأ أطفالهم في محيط يدعم بداخلهمَ مشاعر الثأر لآبائهم وذويهم، فإذا بلغوا طور الشباب لزمهم تأدية هذا الواجب المقدس، وهكذا كانت حروبهم تستمر لسنوات طويلة. وقد أطلق المؤرخون والأدباء على مثل هذه الحروب أيام العرب، وقد تجاوز عددها المئات، فبعد أن ذكر ميداني النيسابوري (المتوفى سنة ٥١٨هـ) في :كتاب الأمثال" أسماء ١٣٢ حرباً منها، كتب يقول : **هذا الضن لا يتقصاه الإحصاء فاقتصرت على ما ذكرت. (ج٢، ص:٣٧١)**

هذه هي سلسلة الحروب التي بدأت قبل ظهور الإسلام بما يقارب خمسين عاماً واستمرت حتى ظهوره، ومن أشهرها تلك التى نشبت بين بنى عبس وبنى ذبيان، ومفاد قصتها أنه كانت هناك مسابقة بين فرسين من كلتا القبيلتين هما "داحس" و"الغبراء"، فخالف أحد الفريقين قواعد (اللعبة) ودفع فرس قبيلته إلى الركض فاندلعت الحرب بينهما، ودامت أربعين عاماً كاملة. أما المعركة الأخرى الشهيرة فهى "حرب البسوس" وقصتها أن ناقة اسمها البسوس كانت لامرأة من

اليومِ وفي حاضرهِ رجلٌ وَلاَ امرأةٌ إلاَّ مسلماً، قالَ: يقولُ ابنُ عباسٍ: فَمَا سمعنَا بوافدِ قومٍ كانَ أفضلَ مِنْ ضمامِ ابنِ ثعلبةَ.(يوسف عامر).

[1] – ابن ماجه، ص ٨٨، تعليق التمائم، أبواب الطب. وهذا نص الحديث: (٣٦١٣) حدَّثنا عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْخَصِيبِ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ مُبَارَكٍ عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ، أَنَّ النَّبِيَّ رَأَىٰ رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ. فَقَالَ: «مَا هٰذِهِ الْحَلْقَةُ؟» قَالَ: هٰذِهِ مِنَ الْوَاهِنَةِ. قَالَ: «انْزِعْهَا، فَإِنَّهَا لاَ تَزِيدُكَ إِلاَّ وَهْناً».(يوسف عامر).

إحدى القبائل ذهبت إلي مرعى كليب بن وائل، فأصاب كليب ضرعها بسهمه، فأشعل هذا الأمر نار الحمية فى قبيلة المرأة صاحبة الناقة، وقُتل كليب، فنشبت حربٌ حامية الوطيس بين بنى بكر وبنى وائل. ومن ذلك أيضاً أنه حينما أُثيرت مناقشة عابرة في سوق عكاظ بين بنى سليم وبنى غطفان، تحيّن أحدهم الفرصة بعد أيام قلائل وقتل رجلاً من القبيلة الأخرى، فأُريقت أنهارٌ من الدماء ثأراً لهذا القتيل. كما اشتعلت معركة دامية بين بنى بكر وبنى تميم إثر أمر هين يتعلق بالمرعى. ومن أشهر الحروب الخطيرة التي اندلعت بين قبيلتي الأوس والخزرج بالمدينة حرب "يوم البعاث" التي قُتل فيها أغلب زعماء القبيلتين، وقد انتهت هذه الحرب بمبايعة أنصار المدينة، وهناك أيضاً من حروب قريش الشهيرة " حرب الفجار" وحرب "ذي قار".

خلاصة القول أن بلاد العرب كانت تموج بكل أنواع الصراعات بدءاً من المناوشات العادية وانتهاءً بسفك الدماء، وبالتالي كانت تتولد بينهم مشاعر الثأر كرد فعل طبيعي لعمليات القتل التي كانت تتم ممارستها في كل حين، مما كان يترتب عليه أن تندلع بينهم كثير من الحروب المتتالية[1].

وكان العراك والقتل والموت عندهم من أبرز دواعي الشرف الجاهلي والعظمة القبلية، وصار هذا الميل إلي الدموية من صميم جبلّتهم وكأنه طبيعتهم الأخرى، وقد شهدت حروبهم أبشع ألوان البطش والضراوة والوحشية وسفك الدماء.

شرب الخمر

كانت الخمر -التى هي منبع كل أنواع الفسق والفجور والفواحش- شائعةً بين العرب شيوعاً جعل كل بيت عربي حانةً لشربها. وكان الامتناع عن شربها أمراً خارجاً عن المألوف، حتى أن القلة القليلة التى كانت تتجنب شربها قبل الإسلام ما تزال أعلاماً معروفة حتى الآن، فقد جرت العادة عندهم أنه كلما اجتمع الأصدقاء والأحبة فى بيت أحدهم كانت الخمر على رأس المجلس. وإلى جانب

---

[1] - للمزيد انظر : العقد الفريد لإبن عبد ربه، ج ٣، وأمثال الميداني، لفظ : "يوم ".

ذلك كانوا يلعبون الميسر الذى كان الفوز والخسارة فيه على الإبل، ومن يفوز منهم كان يذبح كل الإبل التى كسبها في نفس الوقت ويُطعمها لهم، وفى بعض الأحيان كان صاحب البيت نفسه ينهض فى حالة من النشوة والثمالة، ويُطيح برؤوس إبله حتى تصير كومة فوق بعضها، ويشرع الناس فى شئ لحومها، وتنضيد كبابها على الأسياخ، ثم يأكلونها مفتخرين بهذا السخاء الذى لا طائل من ورائه، فيما تُداعب أعينهم أجساد المغنيات الفاجرات اللاتى كنّ يغنين ويعزفن الألحان، وفى غمرة نشوتهم كانوا يتفوهون بألفاظ خارجة عن الحياء تحت سطوة السكر والثمالة، يقول الشاعر الجاهلى المعروف طرفة بن العبد:

فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى

وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد

متى تأتنى أصبِّحك كأساً رويـةً

وإن كنت عنها غائباً فأغن وأزود

نَدَاماىَ بيضٌ كالنجومِ وقَينةٌ

تروح علينا بين بُـردٍ ومُجسدِ

رحيبُ قِطاب الجَيب منها رفيقةٌ

بجسّ النّدامى بضّـة المتجرّدِ

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا

على رسلها مطروفةً لم تشدّد

ومازال تشرابى الخمورَ ولذّتى

وبيعى وإنفاقى طريفى ومُتلدى

ولولا ثلاث هن من لذة الفتـى

وجدك لم أحفل متى نام عودى

فمنهن سبق العادلات بشربـة

كميت متى ما تعل بالماء تزبدى

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكته تحت الخبـاء المعمـد

كريم يروى نفسه فى حياتـــه

ستعلم إن متنا غدا أينا الصـــدى

وبرك هجور قد أثارت مخافتى

بواديها أمشى بعضـــب مجـرد

فمرت كهات ذات خيف جلالـــة

عقيلة شيخ كالوبيــــل يلتـــدد

وقال إلا ماذا ترون بشــــارب

شديد علينا بعينــــــه متحمـد

فظل الإماء يمتللن خـــوارهـــا

ويسعى علينا بالسديف المسراهد

وها هو لبيد بن ربيعة الشاعر العربى المعروف وأحد أصحاب المعلقات السبع، يقول:

بل أنت لا تدرين كــــم من ليلة

طلق لذيذ لهوهـــــا وندامهـا

قد بت سامرها وغايـــة تاجـر

وافيت إذ رفعت وعـــزا مدامها

أعلى السبا بكل أدكـــن عاتق

أرجونة قدحت وفـض ختـــامها

وصبوح صافية وجذب كرينـــة

بموتر تاتاله إبهـــــا مهـــا

بادرت حاجتها الدجاج بسحـــرة

لأعل منها حين هــــب نيامهـــا

كانت تغلب إحدى القبائل التى اعتنقت المسيحية، غير أن هذا الدين أيضاً لم يردع العرب عن هذه العادة الذميمة، بل إن أغلب الخمور كانت تُجلـب مـن الشام موطن هؤلاء المسيحيين أنفسهم، يقول أكبر شعراء تغلب فى إحدى قصائد فخره:

ألا هبى بصحنـــــك فأصبحينا

ولا تبقـــــى خمـــور الأندرينـــا

مشعشة كان الحــض فيهــــــا

إذا ما ألماً خالطهـــا سخينــــا

تجور بذى اللبانة عـــن هـــواه

إذا ما ذاقهـــا حتـــى يلينـــا

ترى الحر الشحيـــح إذا مـــرّت

عليه لمالـــــه فيهـــا مهينا

صببت الكأس أم عمـــرو

وكان الكأس مجراها اليمينا

وما شر الثلاثة أم عمرو

بصاحبك الذى لا تصبحينا

كأس قد شربت ببعلبك

وأخرى فى دمشق قاصرينا

يتبين من خلال هذه الأبيات السابقة الحالة التى اتّسم بها شرب الخمر في الجاهلية، فحانات الخمور كانت مفتوحة على الدوام فى موقع استراتيجى بالمناطق المعمورة في بلاد العرب، وتمييزاً لهاعما سواها كانوا يرفعون فوقهـــا رايـــات يسمونها "الغاية" (انظر فيما سبق: البيت الثانى للبيد) وبلغ الأمر في النهاية إلى أن صار لفظ التجارة مرادفاً لــ "شرب الخمر"، يقول الشاعر الجاهلى عمـــرو بـــن قميئة:

إذا سحب الريط والمروط إلى   أدنى تجارى وأنفض اللهم

شهدت غزوة بدر مقتل الأثرياء من أشراف قريش، فرثاهم أحد شعرائهم وهو يتحسر على هلاك مجالس لهوهم وشربهم الخمر، قائلاً فـــى أحـــد أبيـــات مرثيته:

وماذا بالقليب قليب بدر   من القينات والشرب الكرام[1]

كما يمكننا أن نستنتج مدى شيوع الخمر عند العرب من كثرة مسميات الخمر في اللغة العربية حتى أنها لتصل إلي مائتين وخمسين اسماً وقد كتب العلامة مجدي الدين الفيروز آبادى كتاباً خاصاً بأسمائها، وكانت مجالس الخمر تعقد فى كل البيوت، وكان السقاة هم نساء البيت وأطفاله، وقد ذكرنا فيما سبق هذا البيت الذي يقول فيه الشاعر لزوجته:

صببت الكأس أم عمرو   وكان الكأس مجراها اليمينا

يقول سيدنا بن عباس (ﷺ): اعتدت في صباى أن اسمع والدى (العباس) وهو يقول قبل إسلامه:

اسْقِنَا كَأْساً دِهَاقاً[2]

وهناك رواية لسيدنا أنس ﷺ في كتاب الأشربة، بصحيح البخاري، يقول فيها: حين حُرمَت الخمر، كان هناك مجلس منعقد في ذلك الوقت يضم سيدنا أبا

---

[1] - صحيح البخاري، باب الهجرة، ج ١، ص ٥٥٨ . وهذا نص الحديث: (٣٨٣٤) حدَّثنا أصبَغُ حدَّثنا ابنُ وَهبٍ عن يونسَ عنِ ابن شهابٍ عن عروةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ رضي اللهُ عنها: «أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنه تزَوَّجَ امرأةً من كلبٍ يقال لها أُمُّ بكرٍ، فلما هاجرَ أبو بكرٍ طلَّقَها فتزوَّجَها ابنُ عمِّها هذا الشاعرُ الذي قال هذهِ القصيدةَ رثىٰ كُفَّارَ قرَيش:
وماذا بالقَليبِ قَليبِ بَدرٍ منَ الشِّيزَى تُزَيَّنُ بالسَّنام
وماذا بالقَليبِ قليبِ بدرٍ منَ القَيناتِ والشَّرْبِ الكرام
تحيِّينا السلامةَ أمُّ بكر وهل لي بعدَ قَومي من سَلام
يُحدِّثُنا الرسولُ بأنْ سنَحيا وكيفَ حياة أصداءٍ وهام (يوسف عامر).

[2] - المصدر السابق، باب أيام الجاهلية، ج ١، ص ٥٤١. وهذا نص الحديث: ٣٦٢٧ حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي أُسَامَةَ حَدَّثَكُمْ يَحْيَى بْنُ الْمُهَلَّبِ حَدَّثَنَا حُصَيْنٌ عَنْ عِكْرِمَةَ وَكَأْسًا دِهَاقًا قَالَ مَلْأَى مُتَتَابِعَةً قَالَ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ اسْقِنَا كَأْسًا دِهَاقًا. (يوسف عامر).

دجانة، وسيدنا أبا طلحة(رضى الله عنهما)، وسهيل بن البيضاء وكنت أنا أصغرهم سناً فكنت أقوم على سقايتهم الخمر.[١]

إلي أي مدى كانت الخمر تُشرب بلا حرج؟ وما هو المستوى الطبقي للذين كانوا يشربونها؟ وما هى الأفعال التى كانت تُرتكب فى ظل نشوتها؟ يمكننا أن نتبين كل ذلك من خلال رواية وردت فى صحيح البخاري[٢] تتناول وقائع ما قبل تحريم الخمر.

حصل سيدنا على (ﷺ) على ناقة من غنيمة غزوة بدر، كما منحه رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقة أخرى من الخمس، وكان سيدنا على (ﷺ) متزوجاً من السيدة فاطمة (رضى الله عنها)، وبينما كان يُعد وليمة نوى الذهاب إلى البيداء كى يحضر الأذخر (اسم لعشب) ويبيعه للصواغ، فلما خرج بهذه النية وجد أحدهم قد قطع سنمى ناقتيه وشق بطنيهما وأخرج منهما كبديهما، فسأل الناس: من فعل هذا؟ فأجابوه بأن سيدنا حمزة (ﷺ) كان يشرب الخمر مع بعض الأنصار في بيت بجواره، وكان مما شدَت به الجارية هذا الشطر:

ألا يا حمز للشرف النواء

فما كان من سيدنا حمزة إلا أن أشهر سيفه وشق بطنى الناقتين وأخرج كبديهما، فذهب سيدنا على (ﷺ) إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك وروى له ما حدث، فارتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثياباً وذهب إلى سيدنا

---

١ - وهذا نص الحديث: (٤٥٠٢) حدَّثنا أبو النعمانِ حدَّثنا حمادُ بن زيدٍ حدَّثنا ثابتٌ عن أنسٍ رضيَ الله عنه «أنّ الخمرَ التي أُهريقت الفضيخ» وزادني محمدٌ عن أبي النعمان قال: «كنتُ ساقِيَ القومِ في منزلِ أبي طلحةَ، فنزل تحريم الخمر، فأمرَ مُنادياً فنادَى، فقال أبو طلحةَ: اخرُج فانظرْ ما هذا الصوتُ، قال: فخرجتُ فقلتُ: هذا مُنادٍ ينادي: ألا إن الخمرَ قد حُرِّمَت. فقال: لي: اذهَبْ فأهرِقْها. قال: فجَرَتْ في سِكَكِ المدينة. قال: وكانت خمرُهم يومئذٍ الفَضيخَ، فقال بعض القوم: قُتلَ قومٌ وهي في بُطونهم، قال: فأنزلَ اللّهُ {ليسَ على الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِموا.} (المائدة: ٩٣) (يوسف عامر).

٢ - صحيح البخاري، كتاب الغزوات، غزوة بدر، ص ٥٧.

حمزة (ﷺ) مصطحباً معه سيدنا علي وسيدنا زيد (ﷺ)، وكان سيدنا حمزة (ﷺ) ثملاً ورفع بصره فنظر إلى رسول الله ﷺ قائلاً: وَهَلْ أَنْتُمْ إِلاَّ عَبِيدٌ لأَبِي؟ فلما رآه رسول الله ﷺ على هذه الحالة تركه وانصرف[1].

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٢٩٨٨) حدثنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا عَنْبَسَةُ بنُ خَالِدٍ أخبرنا يونُسُ عن ابْنِ شِهَابٍ قالَ أخبرني عَلِيُّ بنُ حُسَيْنٍ أَنَّ حُسَيْنَ بنَ عَلِيٍّ، أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ قالَ «كَانَ لِي شَارِفٌ مِنْ نَصِيبِي مِنَ المَغْنَمِ يَوْمَ بَدْرٍ وكَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَعْطَانِي شَارِفاً مِنَ الخُمُسِ يَوْمَئِذٍ فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَبْنِي بِفَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَاعَدْتُ رَجُلاً صَوَّاغاً مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعُ أَنْ يَرْتَحِلَ مَعِيَ فَنَأْتِي بِإِذْخِرَ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَهُ مِنَ الصَّوَّاغِينِ فَأَسْتَعِينَ بِهِ فِي وَلِيمَةِ عُرْسِي، فَبَيْنَا أَنَا أَجْمَعُ لِشَارِفَيَّ مَتَاعاً مِنَ الأَقْتَابِ وَالْغَرَائِرِ وَالْحِبَالِ وَشَارِفَايَ مُنَاخَانِ إِلَى جَنْبِ حُجْرَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ أَقْبَلْتُ حِينَ جَمَعْتُ مَا جَمَعْتُ، فَإِذَا بِشَارِفَيَّ قَدِ اجْتُبَّتْ أَسْنِمَتُهُمَا وَبُقِرَتْ خَوَاصِرُهُمَا وَأُخِذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا، فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ المَنْظَرَ فَقُلْتُ مَنْ فَعَلَ هٰذَا؟ قَالُوا فَعَلَهُ حَمْزَةُ بن عَبْدِ المُطَّلِبِ وَهُوَ في هذَا الْبَيْتِ فِي شَرْبٍ مِنَ الأَنْصَارِ غَنَّتْهُ قَيْنَةٌ وَأَصْحَابَهُ، فَقَالَتْ في غِنَائِهَا: أَلاَ يَا حَمْزُ لِلشُّرُفِ النِّوَاءُ فَوَثَبَ إِلَى السَّيْفِ فَاجْتَبَّ أَسْنِمَتَهُما وبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا، فَأَخَذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا. قَالَ عَلِيٌّ: فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَعِنْدَهُ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ، فَعَرَفَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم الَّذِي لَقِيتُ، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَا لَكَ؟ قَالَ قُلْتُ يَارَسُولَ الله ما رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، عَدَا حَمْزَةُ عَلَى نَاقَتَيَّ فَاجْتَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا وَهَا هُوَ ذَا في بَيْتٍ مَعَهُ شَرْبٌ، فَدَعَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بِرِدَائِهِ فَارْتَدَاهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي وَاتَّبَعْتُهُ أَنَا وَزَيْدُ بن حَارِثَةَ حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ حَمْزَةُ، فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَإِذَا هُمْ شَرْبٌ، فَطَفِقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَلُومُ حَمْزَةَ فِيمَا فَعَلَ، فَإِذَا حَمْزَةُ ثَمِلٌ مُحْمَرَّةٌ عَيْنَاهُ، فَنَظَرَ حَمْزَةُ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى سُرَّتِهِ، ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ قالَ حَمْزَةُ: وَهَلْ أَنْتُمْ إلاَّ عَبِيدٌ لأَبِي؟ فَعَرَفَ رَسُولُ لله صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ ثَمِلٌ فَنَكَصَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَلَى عَقِبَيْهِ الْقَهْقَرَى فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ». (يوسف عامر). وهذه رواية أخرى وردت في صحيح مسلم: (٥٠٨٥) وحدثني أَبُو بَكْرِ بْنُ إِسْحَاقَ. أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ كَثِيرِ بْنِ عُفَيْرٍ أَبُو عُثْمَانَ الْمِصْرِيُّ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ وَهْبٍ. حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ. أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيّاً، قَالَ: كَانَتْ لِي شَارِفٌ مِنْ نَصِيبِي مِنَ

الْمَغْنَمِ، يَوْمَ بَدْرٍ، وكَانَ رَسُولُ اللّهِ أعْطَانِي شَارِفاً مِنَ الْخُمُسِ يَوْمَئِـذٍ. فَلَمَّـا أَرَدْتُ أَنْ أَبْتَنِيَ بِفَاطِمَةَ، بِنْتِ رَسُولِ اللّهِ، وَاعَدْتُ رَجُلاً صَوَّاغاً مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ يَرْتَحِـلُ مَعِـيَ، فَنَأْتِي بَإِذْخِرٍ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَهُ مِنَ الصَّوَّاغِينَ، فَأَسْتَعِينَ بِهِ فِي وَلِيمَةِ عُرْسِي. فَبَيْنَـا أَنَـا أَجْمَعُ لِشَارِفَيَّ مَتَاعاً مِنَ الأَقْتَابِ وَالْغَرَائِرِ وَالْحِبَالِ. وَشَارِفَايَ مُنَاخَتَانِ، إِلَىٰ جَنْبِ حُجْرَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ. وَجَمَعْتُ حِينَ جَمَعْتُ مَا جَمَعْتُ، فَإِذَا شَارِفَايَ قَدِ اجْتُبَّتْ أَسْنِمَتُهُمَا، وَبُقِرَتْ خَوَاصِرُهُمَا، وَأُخِذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا. فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ الْمَنْظَرَ مِنْهُمَا. قُلْتُ: مَنْ فَعَلَ هَـٰذَا؟ قَالُوا: فَعَلَهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ فِي هَـٰذَا الْبَيْتِ فِي شَرْبٍ مِنَ الأَنْصَارِ، غَنَّتْهُ قَيْنَةٌ وَأَصْحَابَهُ. فَقَالَتْ فِي غِنَائِهَا: أَلاَ يَا حَمْزَ لِلشُّرُفِ النِّوَاءِ، فَقَـامَ حَمْزَةُ بِالسَّيْفِ، فَاجْتَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا، وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا، فَأَخَذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا. قَـالَ عَلِـيٌّ: فَانْطَلَقْتُ حَتَّىٰ أَدْخُلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللّهِ وَعِنْدَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ. قَالَ فَعَرَفَ رَسُولُ اللّهِ فِي وَجْهِيَ الَّذِي لَقِيتُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ «مَا لَكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ وَاللّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ. عَدَا حَمْزَةُ عَلَىٰ نَاقَتَيَّ فَاجْتَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا، وَهَا هُوَ ذَا فِي بَيْتٍ مَعَهُ شَرْبٌ. قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللّهِ بِرِدَائِهِ فَارْتَدَاهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي، وَاتَّبَعْتُهُ أَنَا وَزَيْـدُ بْـنُ حَارِثَةَ، حَتَّىٰ جَاءَ الْبَابَ الَّذِي فِيهِ حَمْزَةُ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنُوا لَهُ، فَإِذَا هُمْ شَـرْبٌ. فَطَفِـقَ رَسُولُ اللّهِ يَلُومُ حَمْزَةَ فِيمَا فَعَلَ، فَإِذَا حَمْزَةُ مُحْمَرَّةٌ عَيْنَاهُ، فَنَظَرَ حَمْزَةُ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ . ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ. ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَىٰ سُرَّتِهِ. ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَـرَ إِلَىٰ وَجْهِهِ. فَقَالَ حَمْزَةُ: وَهَلْ أَنْتُمْ إِلاَّ عَبِيدٌ لأَبِي؟ فَعَرَفَ رَسُولُ اللّهِ أَنَّهُ ثَمِلٌ. فَـنَكَصَ رَسُولُ اللّهِ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ الْقَهْقَرَىٰ. وَخَرَجَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ. (يوسف عامر). وهـذه روايـة أخرى وردت في صحيح البخاري: (٣٩١٦) حدَّثنا عَبدانُ أخبرَنا عبدُ الله أخبرَنا يونسُ ح. وحدّثنا أحمدُ بن صالح حدَّثنا عَنبسَةُ حدَّثَنا يونسُ عنِ الزُّهريِّ أخبرَنا عليُّ بن حسينٍ أن حسينَ بن عليٍّ عليهم السلامُ أخبرَهُ أنَّ علياً قال: «كانت لي شارِفٌ من نَصيبي مِـنَ المغنم يومَ بدرٍ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أعطاني مما أفاءَ اللهُ عليهِ منَ الخمسِ يومَئذ؛ فلما أردت ان أبتني بفاطمةَ عليها السلامُ بنتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم واعدتُ رجلاً صَوّاغاً في بني قَينقاعَ أن يَرتحلَ معي فنـأتي بـإذْخِرٍ فـأردتُ أن أبيعَـهُ مـنَ الصوّاغينَ فنستعينَ به في وَليمةِ عُرسي. فبينا أنا أجمعُ لشارِفي من الأقتابِ والغرائـرِ والحِبالِ، وشارفايَ مُناخانِ إلى جنبِ حُجرةِ رجلٍ منَ الأنصار، حتىٰ جمعتُ ما جمعت، فإذا أنا بشارفيَّ قد أجبَّتْ أسنمَتُهما، وبُقِرَت خَواصِرُهما، وأُخِذَ من أكبادِهما. فلم أملِـكْ عَينيَّ حينَ رأيتُ المنظرَ قلتُ: مَن فَعل هذا؟ قالوا: فعلهُ حمزة بن عبدالمطلبِ وهو في هذا البيتِ في شَرْبٍ منَ الأنصار، وعندَهُ قَينَةٌ وأصحابهُ، فقالت في غَنائها: «ألا يا حمزَ

استُشهد سيدنا حمزة (ﷺ) في السنة الثالثة من الهجرة، ولم تكن الخمر قد حُرمت حتى ذلك الحين.

نستنتج من هذا التدرّج الذى اتخذه المشرّع فى تحريم الخمر أن تعلقهم بها كان متأصلاً فى شغاف قلوبهم، حتى أنه كان يصعب علـــى عقـــولهم أن تتقبـــل تحريمها القاطع دفعةً واحدة، وأنه إذا لم يتدرج التحريم بدءاً بالكنايـــة والإشـــارة بلوغاً إلى التحريم الصريح ما استطاع الناس فهم علة هذا التحريم.

ويُروى فى كتاب الأشربة بسنن أبى داود أنه لما حرمت الخمر قال سيدنا عمر (ﷺ): **اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شفاء** [1]

للشُّرُفِ النواء» فوثبَ حمزةُ إلى السيف فأجَبَّ أسنمتَهما وبقَرَ خَواصِرَهما وأخَـذَ مِـنْ أكبادهما. قال عليٌّ: فانطلقْتُ حتى أدخلَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعندَهُ زيدُ بن حارثةَ، وعرَفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الذي لَقيتُ، فقال: مالَك؟ قلتُ: يا رســولَ الله ما رأيتُ كاليوم، عَدا حمزةُ على ناقتيَّ فأجبَّ أسنِمتَهما وبقر خَواصِرَهما، وهاهو ذا في بيت معهُ شربٌ. فدعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم بردائه فارتدى، ثمَّ انطلقَ يَمشي واتَّبَعتُه أنا وزيدُ بن حارثةَ حتى جاءَ البيتَ الذي فيه حمزةُ، فاستأذَنَ عليه، فأذِنَ له، فطفقَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَلوم حمزةَ فيما فعلَ، فإذا حمزة ثَملٌ محمرَّةٌ عيناهُ، فنظَرَ حمزة إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثمَّ صعَّد النظرَ: فنظرَ إلى رُكبته، ثمَّ صَعّدَ النظر فنظرَ إلـى وجهه، ثم قال حمزة: وهل أنتم إلاّ عَبيدٌ لأبي؟ فعرف النبيُّ صلى الله عليه وســلم أنــه ثمل، فنَكصَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على عَقِبيَه القَهقَرَى، فخرَجَ وَخَرَجْنا معه». (يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد سنن أبي داود: (٣٦٧١) حدثنا عَبَّادُ بنُ مُوسَى الْخُتَّلِيُّ قالَ أخبرنا إسْمَاعِيلُ ــ يَعني ابنَ جَعْفَرٍ ــ عن إسْرَائيلَ عن أبي إسْحَاقَ عن عَمْــرِو عــن عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ، قالَ: «لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الْخَمْرِ بَيَاناً شِفَاءً، فَنَزَلَتْ الآيةُ الَّتي في الْبَقَرَة: {يَسْأَلُونَكَ عن الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فيهِمَا إثْمٌ كَبِيــرٌ}. الآيةُ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْه، قالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الْخَمْرِ بَيَاناً شِفَاءً، فَنَزَلَتْ الآيــةُ الَّتي في النِّسَاءِ {يَأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فكَانَ مُنَادي رَسُــولِ الله صلى الله عليه وسلم إذَا أُقيمَت الصَّلاَةُ يُنَادي: ألاَ لا يَقْرَبَنَّ الصَّلاَةَ سَكْرَانٌ. فَــدُعيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْه، فقالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا في الخَمْرِ بَيَاناً شِفاءً، فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا». (يوسف عامر).

فنزلت هذه الآية الكريمة بسورة البقرة، قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(البقرة:٢١٩)

داوم الناس على شرب الخمر بعد نزول هذه الآية الكريمة أيضاً إلى أن استضاف أحد الأنصار سيدنا علياً وسيدنا عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنهما) وغيرهما، فكانت قداح الخمر تدور بينهم حتى حان موعد صلاة المغرب ؛ فتقدم أحدهم [1] وصلى بهم، غير أنه أخطأ في تلاوة سورة الكافرون في الصلاة لما كان يعتريه من الثمالة، فنزل فيهم قول الله تعالى :

---

[1] - رويت هذه الأطوارالتاريخية في تحريم الخمر عن سيدنا عمر (رضي الله عنه) في الترمذى، تفسير سورة المائدة، وأبى داود، كتاب الأشربة) وعن سيدنا أبى هريرة (رضي الله عنه) فى مسند الأمام أحمد، ج ٢، ص ٢٥١) وعن سيدنا على (رضي الله عنه) في (أبى داود، كتاب الأشربة)، ولكن لم تُبين لنا هذه الروايات بوضوح من هو الصحابي الذى أخطأ فى تلاوة السورة الكريمة تحت تأثير الخمر، فقد ورد فى إحدى الروايات أنه سيدنا على (رضي الله عنه)، وفي أخرى أنه سيدنا عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه)، وفى رواية ثالثة أنه أحد المهاجرين. هذا وقد أثار السيد الأستاذ (شبلى نعمانى) فى الجزء الثانى من" سيرة النبى "باب (تاريخ الأحكام، ذكر تحريم الخمر نقلا عن أبي داود كتاب الأشربة) أن الذى أخطأ في تلاوة السورة هو سيدنا على (رضي الله عنه)، ولكن بمزيد من البحث والتمحيص وجدنا أن هذا الانتساب مشكوك فيه؛ فالراوى الرئيسى لهذه الرواية الخاصة هو عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن، وقد رواها أبو عبد الرحمن السلمى عن سيدنا على (رضي الله عنه)، مما يبين أن هذه الرواية قد تواترت عن طرق مختلفة، اختلف فى كل منها أسماء شاربى الخمر، والإمام الذى صلى بالناس وهو في حالة الثمالة، فلكل رواية منها عبارات خاصة .

وفيما يلي الروايات التي ذُكر فيها اسم على (رضى الله عنه) :

١- عن أبي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ، عن عَطَاءِ بنِ السَّائِبِ عن أبي عَبْدِ الرَّحْمنِ السُّلَمِيِّ، عن عَلَيِّ بنِ أبي طَالِبٍ، قالَ: «صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ طَعَاماً فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ، فَأَخَذَتْ الْخَمْرُ مِنَّا وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَقَدَّمُونِي فقَرَأْتُ: قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ قال: فَأَنْزَلَ الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} . (الترمذي، تفسير سورة النساء) .

٢- عن سُفْيَانَ قَالَ أخبرنا عَطَاءُ بنُ السَّائِبِ عن أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ عن عَلِيِّ بنِ أبي طَالِبٍ : «أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ دَعَاهُ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْفٍ فَسَقَاهُمَا قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الخَمْرُ، فَأَمَّهُمْ عَلِيٌّ في المَغْرِبِ فقَرَأَ {قُلْ يَأَيُّهَا الكَافِرُونَ} فَخَلَطَ فيهَا، فَنَزَلَتْ {لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}». (أبو داود، كتاب الأشربة) .

وأما الروايات التي ذُكر فيها اسم عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) فهى:

٣- **عن سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السُلمىّ عن على(رضى الله عنه) قال: دعانا رجل من الأنصار قبل أن تحرم الخمر، فتقدم عبد الرحمن ابن عوف وصلي بهم المغرب، فقرأ قل يأيها الكافرون، فالتبس عليه، فنزل : لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى (مستدرك الحاكم، كتاب الأشربة).**

٤- **عن سفيان بن عطاء بن السائب عن بن (؟) عبد الرحمن ورجل آخر يشربون الخمر، فصلّى بهم عبد الرحمن بن عوف، فقرأ قل يأيها الكفرون، فخلط فيها فنزلت: لا تقربوا الصلاة (مستدرك الحاكم، كتاب الأشربة) .**

٥- **عن خالد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن أن عبد الرحمن صنع طعاماً فدعا أناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم على بن أبى طالب رضى الله عنه، فقرأ: قل يا أيها الكافرون، ولا أعبد ما تعبدون، ونحن عابدون ما عبدتم، فنزلت لا تقربوا الصلوة ..الآية (مستدرك الحاكم، كتاب الأشربة).**

أما الرواية التى لم يُخصص فيها اسم أحد فهى :

٦- **عن سفيان عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن عن على رضى الله عنه قال: دعانا رجل من الأنصار قبل تحريم الخمر، فحضرت صلاة المغرب، فتقدم رجل فقرأ: قل يا أيها الكافرون، فالتبس عليه فنزلت: لا تقربوا الصلوة..الآية (مستدرك الحاكم، تفسير سورة النساء)**

ويلاحظ أنه توجد عدة اختلافات متباينة فى هذه الروايات الست :

١- كان الداعى فى الروايتين الأولى والخامسة هو عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنه)، بينما كان الداعي فى الروايات الثانية والثالثة والسادسة هو أحد الأنصار، أما الرواية الرابعة فقد ذكر فيها مجلس الخمر بدون دعوة.

٢- كان الإمام الذى أخطأ فى التلاوة تحت تأثير الخمر في الروايتين الأولى والثانية هو سيدنا على (رضى الله عنه)، أما فى الروايات الثالثة والرابعة والخامسة فهو عبد الرحمن

بن عوف (رضى الله عنه) وفى الرواية السادسة التي رويت عن سيدنا على (رضى الله عنه) كان الإمام رجلاً من الأنصار.

٣- ورد فى هذه الروايات أن مجلس هذه الدعوة كان به خمر، غير أن الرواية السادسة لم يُصرّح فيها بذكر الخمر على الإطلاق، كل ما هنالك أنها تنطوى على احتمال أن يكون الإمام قد أخطأ فى التلاوة لشربه الخمر فى موضع ما، علماً بأن شرب الخمر قبل تحريمها لم يكن إثماً شرعياً، ومع ذلك فإن شرب سيدنا على (رضى الله عنه) _ الذى نشأ وترعرع فى معيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم _ أمرٌ مخالف للقياس، خاصة بعد نزول هذه الآية الكريمة : (فيهما إثم كبير) أى الخمر والميسر، وبالتالى فإن نسبة شرب الخمر إلى سيدنا على (رضى الله عنه) تزيد من التشكيك فى تفاصيل هذه الواقعة، ثم إننا إذا نظرنا إلى كل هذه الاختلافات المتباينة فى هذه الرواية، وغير القابلة للتوفيق، لَعَلمنا أن سر هذه الاختلافات إنما ينكشف إذا ألقينا نظرة على رواة هذه الرواية، فالراوي الأول هو أبو عبد الرحمن السُلمىّ الذى كان اسمه عبد الله بن حبيب، وقد كان فى البداية من أشياع سيدنا على (رضى الله عنه)، ثم صار بعد ذلك عثمانياً (أى من أتباع بنى أمية)، ومعادياً لسيدنا على (رضى الله عنه)، ثم ها هو يزعم أنه سمع من سيدنا على (رضى الله عنه)، الأمر الذى لم يتفق عليه المحدثون، فقد سلّم به البخارى، واستنكره ابن أبى حاتم، أما الراوي الثانى لهذه الرواية فهو عطاء بن السائب الذى كانت ذاكرته قد ضعفت، فأغفله الناس، ومع أن سفيان كان قد روى عنه بعض الروايات قبل فساد ذاكرته، فإنه بالنظر إلى الروايات التى ذكرناها فيما سبق فإن روايات سفيان نفسه بها اختلافات لا يمكن التوفيق بينها. يتبين من كل هذه العوامل أن التفاصيل المختلف فيها ليست جديرة بالتسليم، وأن حقائق هذه الواقعة إنما هى التى وردت فى الرواية السادسة من أن ذلك المجلس كان مجرد وليمة شارك فيها سيدنا على (رضى الله عنه) وبعض الصحابة الآخرين وحان وقت الصلاة، فتقدمهم أحدهم وصلى بهم وهو سكران فأخطأ فى تلاوة بعض الآيات الكريمة، وحيث إن راوى هذه الواقعة هو سيدنا على (رضى الله عنه)، وقد كان أحد المشاركين فى تلك الدعوة فإما أن يكون أبو عبد الرحمن السُلمىّ العثمانى _ بوازع تعصّبه _ أو عطاء _ بشىء من نسيانه _ قد حرّف اسم من تنتسب إليه هذه الواقعة.

ومما يؤيد هذه الرواية السادسة (الأخيرة) رواية سيدنا أبى هريرة (رضى الله عنه)؛ حيث إنها ذات سند مختلف ومستقل فى كامل تواتره .

٧- **عن أبى هريرة قال حُرّمت الخمر ثلاث مرات :-**

﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(النساء:٤٣)

بعد ذلك كان كلما حان وقت الصلاة نادى منادٍ ألا ينضم إلى الصلاة سكران.

وحيث إنه لم يكن هناك حكم مطلق للتحريم ظل الناس يشربون الخمر ويتشاربونها فيما دون وقت الصلاة، فتوجه سيدنا عمر إلى الله بالدعاء مرة

«قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما} إلى آخر الآية، فقال الناس: ما حرم علينا إنما قال: «فيهما إثم كبير» وكانوا يشربون الخمر، حتى إذا كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب خلط في قراءته فأنزل الله فيها آية أغلظ منها {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون} وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون} فقالوا: انتهينا ربنا» (مسند الإمام أحمد، ج٢)

لم يرد ذكر سيدنا على رضى الله عنه فى هذه الرواية على الإطلاق، هذا والاعتقاد بأن سيدنا على رضى الله عنه _ مع إجادته فهم القرآن الكريم _ لم يفطن إلى الإشارة بتحريم الخمر فى الآية الأولى أمر غير مقبول على أى حال. ومن بين المحدثين أوضح الحاكم فى المستدرك بعد أن كتب الرواية السادسة أن وضع اسم سيدنا على رضى الله عنه فى هذه الواقعة هو من فعل الخوارج، وهو ما تنفيه الرواية التى رواها سيدنا على رضى الله عنه بنفسه، فيقول الحاكم:

وفي هذا الحديث فائدة كثيرة وهى أن الخوارج تنسب هذا السكر وهذه القراءة إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب دون غيره، وقد برأه الله منها فإنه راوى هذا الحديث. (المستدرك، كتاب التفسير، سورة النساء، ج٢، ص ٣٠٧)

إن سيدنا على رضى الله عنه لم يكن فى حقيقة الأمر إلا راوياً لهذه الواقعة، بيد أن الرواة العثمانيين والخوارج قد جعلوه صاحبها.

(المستدرك، كتاب التفسير، سورة النساء، ج ٢، ص ٣٠٧). والحقيقة هي أن عليا هو راو الواقعة، ولكن العثماني والراوي الخارجي قد نسباها إليه.

أخرى، واتفق أن تزامن دعاؤه مع استضافة بعض الأنصار لسيدنا سعد بن أبـى وقاص ﷺ حيث دارت بينهم قداح الخمر أيضاً، فشرب حتى الثمالة وأخذ يقـول وهو على هذه الحالة: إن المهاجرين أفضل من الأنصار، فتفاقم الأمر وبلغ حـد التشابك بالأيدى بين الحاضرين، فنزل فى تلك الواقعة حكـم قـاطع بـالتحريم (صحيح مسلم، فضائل سعد بن أبى وقاص (ﷺ)، قال تعالي :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠)

بعد ذلك حُرِّمت الخمر بصورة قاطعة، وفى الوقت الذى نزلت فيه هـذه الآية بتحريم الخمر كان سيدنا أبو عبيدة – الذي كان أمين الوحى – وأُبـى بـن كعب – الذي كان سيد القراء (رضى الله عنهما) فـي بيـت أبـى طلحـة (ﷺ) مجتمعين على شرب الخمر، ويقوم على سقايتهم سيدنا أنس (ﷺ) ؛ إذ إن هنـاك رواية شفوية عن سيدنا أنس (ﷺ) نفسه فى كتاب الأشربة بـصحيح البخـاري، يقول فيها: كنت أسقى أبا عبيدة وأبا طلحة وأبى بن كعب فجاءهم آت فقـال: ألا إن الخمرَ قد حُرِّمَت.[1]

وقد كتب الحافظ بن حجر فى شرحه لهذا الحديث–مستنداً إلـى صـحيح مسلم وكافة كتب الحديث الأخرى–يقول: إن ذلك المجلس كان يضم أحد عـشر صحابياً وكان من بينهم سيدنا معاذ بن جبل (ﷺ). والجدير بالذكر فى تلك المسألة هو أنه رغم أن شرب الخمر فى مثل هذه المجالس كان عادة متبعة منـذ القـدم،

---

[1] – وهذا نصه: (٤٥٠٢) حدَّثنا أبو النعمانِ حدَّثنا حمادُ بن زيدٍ حدَّثنا ثابتٌ عن أنسٍ رضيَ الله عنه «أنّ الخمرَ التي أُهريقت الفضيخ» وزادني محمدٌ عن أبي النعمان قال: «كنـتُ ساقِيَ القومِ في منزلِ أبي طلحةَ، فنزل تحريم الخمر، فأمرَ مُنادياً فنـادَى، فقـال أبـو طلحةَ: اخرُج فانظرْ ما هذا الصوتُ، قال: فخرجتُ فقلتُ: هذا مُنادٍ ينادِي: ألا إن الخمرَ قد حُرِّمَت. فقال: لي: اذهَبْ فأهرِقْها. قال: فجرَتْ في سِكَكِ المدينـة. قـال: وكانـت خمرُهم يومئذٍ الفَضيخَ، فقال بعض القومِ: قُتلَ قومٌ وهي في بُطونهم، قال: فأنزلَ اللّـهُ {ليسَ على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طَعِموا.} (المائـدة: ٩٣) (يوسـف عامر).

وفى تلك اللحظة بالذات كانوا مستغرقين جميعاً فى نشوتهم بالخمر [1]، بيد أنه بمجرد أن تناهى إلى سمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرم الخمر، ما كان منهم إلا أن حطّموا القداح والجرار كلها دفعة واحدة دون أن يتحققوا حتى من الأمر، ولم يكن ذلك حال بيت أبى طلحة ﷺ فقط، بل سالت أنهار من الخمر في سائر أزقة ودروب المدينة، فقد ورد فى باب المظالم بصحيح البخارى الآتي:

" فجَرَتْ في سِكَكِ المدينة "

ويتضح مما سبق مدى الإفراط فى شرب الخمر الذى كان يعم بلاد العرب.

الميسر

وبجانب شرب الخمر كان الميسر شائعاً بينهم أيضاً، فلقد كانت أغلب ثروات العرب تنحصر فى عدة قطعان من الماشية والإبل ومن ثم كانوا يتقامرون عليها، فمن ذلك ما قاله الشاعر الجاهلى لخصمه :

أعَيَّرتنا ألبانَها ولحومَها وذلك عارٌ يابْنَ رَيْطَةَ ظاهرُ

نُحابى بها أكفاءَنا ونُهينُها ونشربُ فى أثمانِها ونُقامر

لهذا الغرض كانوا يذبحون الإبل، ويُقسّمون لحومها إلى عشر قطع يضعون عليها قرعة، حيث كانوا يخصصون عشرة سهام أسماؤها كالتالى: قد، وتوام، ورقيب، وملس، وميل، ومعلى، ومنافس، ومينح، وسفيح، ووغد، فيحددون لكل سهم منها جزءًا مختلفًا، وحين يلعبون الميسر يضعونها في جراب يجعلونه في يد شخص عادل، فيخلطها ببعضها بعضًا، ثم يتم إخراجها سهماً سهماً كل منها باسم شخص ما، ومن يخرج سهمٌ باسمه يفوز بالجزء الذى كان مخصصاً لهذا السهم، أما من يخرج باسمه سهمٌ من السهام التي لم يكن قد تحدد بها جزءٌ ما فهو من الخاسرين (في اللعبة)، وهكذا كان عليهم أن يقسّموا قطع اللحم -التى كانت تتجمع- على الفقراء والمساكين والأصدقاء ؛ إذ كان ذلك من مظاهر الجود والسخاء عندهم، ولذا كان عدم المشاركة في مجالس القمار يعدّ

[1] - فتح البارى، ج ١٠ مطبعة مصر، الطبعة الأولى ص ٣١ نقلاً عن رواية أبى عاصم .

فى منظورهم عاراً قومياً، كما كانوا يعتبرون من لا يشارك فيها أكثر الناس بخلاً، ويلقبونه[1] بـ "البَرَم"، ثم إنهم يعتبرون أن الزواج من حاملى هذا اللقب يعد نوعاً من العار والمذلة، فها هو الشاعر الجاهلى يوصى زوجته قائلاً:

وإذا هلكت فلا تريدى عاجزاً نحسا ولا برما ولا معزالاً

ومن أحد أنواع الميسر عندهم ما كان يسمى ب" الرهان" حيث كانوا يقامرون على شرط ما، فإذا لم يتم هذا الشرط أخذوا الشىء الذي تمت المقامرة عليه، فمن ذلك أنه حين اندلعت الحرب بين الفرس والروم - وتنبأ القرآن الكريم أن الروم رغم هزيمتهم سيغلبون الفرس في بضع سنين - تراهن المشركون مع سيدنا أبي بكر (رضى الله عنه)، وحدّدوا مدة ست سنوات على وقوع هذا النصر، فلما انقضت هذه الفترة ولم تنتصر الروم خسر سيدنا أبو بكر (ﷺ) الرهان [2]. وكان الميسر قد شاع بينهم وتمكن من قلوبهم حتى أنهم كانوا يتقامرون على زوجاتهم وأولادهم بعد أن يخسروا ثرواتهم وأموالهم فى مثل هذه

1- وردت كل هذه التفاصيل في التفسير الكبير، ج ٢، ص ٣٣١ .

2- الترمذي، ص ١٦٠ كان الرهان أحد أنواع الميسر ولم يكن محرماً حتى ذلك الحين. وهذا نصه: (٣٣١٢) حدثنا الْحُسَيْنُ بنُ حُرَيْثٍ، حدثنا مُعَاوِيَةُ بنُ عَمْرٍو عَن أَبِـي إِسْـحاقَ الفَزَارِيِّ عَن سُفْيانَ الثوري عَن حَبِيبِ بن أَبِي عَمْرَةَ عَن سَعِيدِ بن جُبَيْرٍ عَن ابنِ عَبَّاسٍ، في قَوْلِه تَعَالَى: {ألم غُلِبَتِ الرُّومُ في أدْنَىٰ الأَرْضِ} قَالَ غلبَتْ وَغَلبَتْ. قَالَ: كَانَ المُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أن يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّوم لأَنَّهمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ وَكَانَ المُسْلِمُونَ يُحِبونَ أنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ لأَنَّهم أَهْلُ الكِتَابِ، فَذَكَرُوهُ لأَبِي بَكْرٍ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ الله فقال: «أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ» فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهمْ فَقَالُوا اجْعَلْ بَيْنَنَا وبَيْنَكَ أَجَلاً فإنْ ظَهرنَا كانَ لَنَا كَذَا وكَذَا وَإنْ ظَهرتُم كَان لَكُمْ كَذَا وكَذَا فَجَعَلَ أَجَلاً خَمْسَ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَروا فَذَكَروا ذَلِكَ لِلنَّبي فَقَالَ «ألاَ جَعَلْتَه إلى دُونِ» قَالَ أُرَاهُ العَشْرَ قَالَ قَالَ سَعِيدٌ وَالبِضْعُ مَا دُونَ العَشْرِ، قَالَ ثُمَّ ظَهَرتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ فَذَلِكَ. قَوْلُهُ تعالى {ألم غُلِبَت الرُّومِ} إلى قَوْلِهِ {وَيَوْمَئذ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ الله يَنْصُرُ من يشاء} . قَالَ سفيانُ سَمِعْتُ أَنَّهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ .

قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ سُفيانَ الثَّوْرِيِّ عَن حَبِيبِ بنِ أبي عَمْرَةَ. (يوسف عامر).

المقامرات[1]. وقد كانت أغلب مجالس الخمر والميسر تنتهى بالمشاجرات والحروب. فقد كانت حرب الأربعين عاماً بين بنى عبس وبني ذبيان نتيجة المقامرة على مسابقات الخيل، ولطالما هلكت عشائر وقبائل بسبب هذه الطريقة الخاطئة فى اكتساب الشهرة وحصد الأموال.

الربا

كان الربا سائداً فى مجتمع العرب بصفةٍ عامة، فكان الأثرياء جميعاً يتعاملون به، وكان سيدنا العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) - الذى كان من أشراف قريش وعم رسول الله صلي الله عليه وسلم - قد بسط نطاق أعماله التجارية إلى أوسع مدى، ومن ثم كان يحظى بشهرة كبيرة فى مجال المعاملات بالربا، ولذلك كانت معاملاته الربوية هي أول ما أبطله رسول الله (ﷺ) حين أعلن تحريم الربا في حجة الوداع، كما كان عثمان بن عفان وخالد بن الوليد (رضي الله عنهما) يُقرضان الناس بالربا، وكان زعيم الطائف المشهور مسعود الثقفى وأخواه عبد يا ليل وحبيب بن ربيعة من ذوى الثراء العريض، وكان بنو المغيرة يتعاملون معهم بالربا، ولذا حين فُتحت الطائف واعتنق هؤلاء الإسلام طالبوا المغيرة بما لهم من الربا عنده، فنزل فيهم قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(البقرة:٢٧٨)

وفضلاً عن ذلك فقد كانت الطائف مدينة خصبة وثرية ؛ فكان عامة سكانها يتاجرون بالربا، ولذا كان من بين الشروط التى صالحهم عليها رسول الله ﷺ هذا الشرط المهم الذى يُلزمهم بألا يرابوا[2]، وقد كان تجار نجران باليمن أيضاً يتعاملون بالربا فاشترط عليهم هذا الشرط نفسه[3].

---

[1]- التفسير الكبير، ج ٢، ص ٥٤١.

[2]- فتوح البلدان، للبلاذري، فتح الطائف.

[3]- أبو داود، كتاب الإمارات. وهذا نص الحديث: (٣٠٤٣) حدثنا مُصَرِّفُ بنُ عَمْرٍو الْيَامِيُّ أخبرنا يُونُسُ يَعْنِيَ ابنَ بُكَيْرٍ أخبرنا أَسْبَاطُ بن نَصْرٍ الْهَمْدَانِيُّ عن إِسْمَاعِيلَ بنِ عَبْدِ

وكان الأسلوب الربوى الأكثر شيوعاً وتداولاً هو منح القروض المالية وفق نسبة محددة سلفاً مع تحديد موعد لسداد رأس المال، فإذا انقضى الموعد المحدد طالبوا به، أما إذا تعسر المدين فى سداده كانوا يرجئون الموعد لقاء رفع قيمة النسبة الربوية المحددة، بيد أنهم تجاوزا هذا الأسلوب البسيط وتبنوا منهجاً ربوياً في غاية الإجحاف، والذى كان أخطر من مضاعفة الربا ؛ إذ كانوا يعطون شخصاً ما مائة درهما على سبيل المثال لفترةٍ محددة، وبانقضاء المدة ومطالبة المدين وتعسره فى السداد يتم إرجاء الموعد، إلا أن الزيادة هنا تكون فى رأس المال وليس فى النسبة المحددة، حتى أن هذه الزيادة كانت تصل إلى الضعفين والأربعة أضعاف، وهكذا كانت الزيادة فى اطّراد مستمر حتى تستوفى كافة ممتلكات المدين. وكان أكثر من يعانون من هذا المنهج الربوى هم الفقراء والمزارعين، ونتج عن ذلك أن صارت طبقة الفقراء والمزارعين كلها رهن يد الأثرياء وخاصة اليهود منهم، فنزلت آية قرآنية كريمة تُحرّم هذا التعامل الربوى، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٠)

وبخلاف الربا كانت هناك عدة أنواع من الجور والعنت متعلقة بالديون، فعلى سبيل المثال: إذا لم يستطع الراهن أن يُخلِّص بماله الشىء المرهون خلال

الرَّحْمَنِ الْقُرَشِيِّ عن ابنَ عَبَّاسٍ، قالَ: « صَالَحَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أهْلَ نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّة. النِّصْفُ في صَفَرٍ وَالبقية في رَجَبٍ يُؤَدُّونَهَا إلَى المُسْلِمِينَ وَعَارِيَةَ ثَلاَثِينَ دِرْعاً وَثَلاَثِينَ فَرَساً وَثَلاَثِينَ بَعِيراً وَثَلاَثِينَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ السِّلاَحِ يَغْزُونَ بِهَا وَالمُسْلِمُونَ ضَامِنُونَ لَهَا حَتَّى يَرُدُّوهَا عَلَيْهِمْ إنْ كَانَ بِالْيَمَنِ كَيْدٌ ذَاتُ غَدْرَةٍ عَلَى أنْ لاَ تُهْدَمَ لَهُمْ بَيْعَةٌ، وَلاَ يُخْرَجَ لَهُمْ قَسٌّ، وَلاَ يُفْتَنُوا عن دِينِهِمْ، مَا لَمْ يُحْدِثُوا حَدَثاً، أوْ يَأْكُلُوا الرِّبَا». قال إسْمَاعِيل: فَقَدْ أكَلُوا الرِّبَا. قَالَ أبُو دَاوُدَ: إذَا أنْقَضُوا بَعْضَ ما اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أحْدَثُوا. (يوسف عامر).

الموعد المحدد تتحول ملكيته إلى المرتهن[1]، وقد كانوا يرهنون كل شئ من الأموال والثروات حتى الأطفال والنساء[2].

---

[1] - موطأ الإمام مالك، ص ٣٠٤ .

[2] - صحيح البخاري، قتل كعب بن الأشرف . وهذا نص الحديث: (٣٩٤٩) حدَّثنا عليُّ بن عبدِ اللّه حدَّثنا سفيانُ قَالَ عمرٌو سمعتُ جابرَ بن عبدِ اللّه رضيَ اللّه عنهما يقول: «قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: مَن لكعبِ بن الأشرف؟ فإنه قد آذى اللّهَ ورسولَه . فقام محمدُ بن مَسلمةَ فقال: يا رسولَ اللّه، أتحِبُّ أن أقتلَه؟ قال: نعم . قال: فأْذَنْ لي أن أقولَ شيئاً. قال: قل. فأتاهُ محمدُ بن مَسلمةَ فقال: إنَّ هذا الرجلَ قد سألَنا صَدَقةً، وإنه قد عَنّانا، وإني قد أتيتُكَ أستَسلِفُك. قال: وأيضاً واللّهِ لتملُّنَّه. قال: إنا قد اتبَعْناهُ، فلا نحبُّ أن ندَعَهُ حتىٰ ننظرَ إلى أيِّ شيءٍ يصيرُ شأنه، وقد أردْنا أن تُسلفَنا وَسْقاً أو وَسْقَين ــ وحدَّثنا عمرٌو غيرَ مرَّة فلم يذكر «وسقاً أو وَسقين» أو فقلت له: فيه «وسقاً أو وسقين»؟ فقال: أرى فيه «وسقاً أو وسقين» ــ «فقال: نعم؛ ارهَنوني. قالوا: أيَّ شيءٍ تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نَرهنُكَ نساءَنا وأنتَ أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءَكم. قالوا: كيف نرهنُكَ أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم فيقال: رُهِنَ بوسق أو وسقَين، هذا عارٌ علينا، ولكنّا نرهَنك اللأمةَ. قال سفيانُ: يعني السلاحَ. فواعَدَه أن يأتيَه. فجاءهُ ليلاً ومعه أبو نائلةَ ــ وهو أخو كعب منَ الرضاعة ــ فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة وقال غير عمرو: قالت أسمعُ صوتاً كأنهُ يقطُرُ منه الدَّم. قال إنما هو أخي محمدُ بن مَسلمةَ ورضيعي أبو نائلة، إنَّ الكريمَ لو دُعِيَ إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب. قال: ويُدخِلُ محمدُ بن مَسلمةَ معهُ رجلَين ــ قيل لسفيانَ: سماهم عمرٌو؟ قال: سَمى بعضهم. قال عمرٌو: جاء معه برجلَين، وقال غيرُ عمرو: أبو عَبسِ بن جَبر والحارثُ بن أوسٍ وعبّادَ بن بشر ــ قال عمرٌو جاء معه برجلَين فقال: إذا ما جاء فإني قائِل بشعره فأشُمه، فإذا رأيتموني استمكَنْتُ من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرَّةً: ثم أُشِمُكم. فنزلَ إليهم متوشِّحاً وهو ينفَحُ منه ريحُ الطِيب فقال: ما رأيتُ كاليوم ريحاً ــ أي أطْيبَ ــ وقال غيرُ عمرو: قال عندي أعطرُ نساءِ العرب وأكملُ العرب. قال عمرٌو فقال أتأذنُ لي أن أشمَّ رأسَك؟ قال: نعم. فشمَّهُ، ثم أشَمَّ أصحابَه ثم قال: أتأذنُ لي؟ قال: نعم. فلما استمكَنَ منهُ قال: دونَكم. فقتَلوه. ثمَّ أتَوُا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبروه». (يوسف عامر).

قطع الطريق

بالرغم من أن عمليات السلب والنهب اليومية التى كانت تعانى منها شبه الجزيرة العربية كانت، قد حولت سائر القبائل إلى مجموعة من قطاع الطرق وهواة النهب والإغارة، فإنه كانت هناك جماعات خاصة فى بعض القبائل تحترف قطع الطريق وتتخذه مورداً لرزقها، وكان يطلق عليهم لقب " قطاع الطريق"، ومن هؤلاء جماعة كانوا السبب فى الشهرة التى حظيت بها قبيلة (طيئ) بين بلاد العرب .

وكانت هذه الفئة من الناس تعيش خارج المدن فى الصحارى والغابات وكهوف الجبال، فتقوم بسلب القوافل أو عابرى السبيل الذين كانوا يمرون عليها. ولم يكن من الممكن استئصال شأفتهم إلا فى ظل نظام حكومى حازم، الأمر الذى كان مفقوداً فى بلاد العرب، لذلك حين أسلم زعيم قبيلة طيئ المسيحى عُدى بن حاتم، وقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتنبأ له بأنه سوف يأتى يوم تسافر فيه المرأة ذات الخدر وحدها من الحيرة إلى حضرموت ولا يعتريها خوف أو خطر - ونظراً لأن عُدى كان أحد سادات قبيلة طئ، وكان على دراية بأوضاع لصوصها - اندهش من نبوءة رسول الله (ﷺ) بأنها إذا تتحققت فماذا سيكون مصير لصوص طيئ؟![1]

---

[1] - وهذا نص الحديث في صحيح البخاري: (٣٥١٧) حدّثني محمدُ بن الحكَم أخبرَنا النَّضرُ أخبرَنا إسرائيلُ أخبرَنا سعدٌ الطائيُّ أخبرَنا مُحلُّ بن خَليفةَ عن عَديٍّ بن حاتمٍ قال: «بَينا أنا عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذا أتاهُ رجُلٌ فشَكا إليهِ الفاقَةَ، ثمَّ أتاهُ آخَرُ فشكا إليه قَطعَ السبيل، فقال: يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ ؟ قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قـــال: فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لترَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحِلُ منَ الحِيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ ــ قلتُ فيما بيني وبينَ نفْسي فأين دُعّارُ طَيِّء الذينَ قد سَعَّروا البلادَ ؟ ــ ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ لتُفتَحنَّ كُنوزُ كِسرَى، قلتُ: كِسرَى بن هُرمُزَ ؟ قال: كِسرَى بنِ هُرمُزَ. ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لَترَينَّ الرجلَ يُخرجُ ملْءَ كفِّهِ من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلـــهُ منهُ فلا يَجِدُ أحداً يَقبلهُ منه. ولَيلقيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينهُ ترجمانٌ يُترجمُ ـهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إليكَ رسولاً فيُبلِّغك ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفْضِلْ

لقد كانت كل قبيلة تقف على أهبة الاستعداد للسطو على كافة ممتلكات القبيلة الأخرى من أموال وثروات وبعير وحتى النساء والأطفال، ولم تكن قوافل التجار تستطيع المرور بسلام على أى طريق من الطرق دون أن تدفع مكافأة مجزية، كما كانت القبيلة تسبى نساء وغلمان القبيلة الأخرى وتبيعهم، وتسوق ماشيتها وتأخذها. ولما كان " الفجر" هو الوقت الذي يخلد فيه المسافر للنوم بعد يوم طويل من السير المضنى، فقد خصّصوه لتنفيذ عمليات السّطو والسرقة، حتى أن " وقت الفجر " كان متداولاً فى اللغة العربية أيام الجاهلية بمعنى السرقة. وقد كان اللصوص المهرة يفتخرون بسرقاتهم فى قصائد منظومة، فيقول شاعر من إحدى القبائل إثر غنيمة لص يدعى الحارث:

يالَهفَ زَيَّابَةَ للحارثِ   الصابِح فالغانِم فالآيبِ

وكانوا يمتنعون عن ممارسة هذه الرذيلة خلال أشهر الحج الثلاثة، غير أنهم كانوا لا يطيقون الصبر أكثر من ذلك. ولما كانت كل قبيلة تسلك هذا السلوك السيئ مع أموال وثروات ودواب القبيلة الأخرى، لذا لم تكن الإغارة نقيصة فى نظرهم، بل كانوا يعدونها مظهراً من مظاهر الشجاعة، وهكذا كانت أساليب السلب والنهب والقتل والإغارة شائعةً ومنتشرةً بين القبائل بصورة مستمرة .

السرقة

وفضلاً عن الإغارة فقد كانت السرقة منتشرة بين الأعراب فى ظل أحوالهم الاقتصادية السيئة. وكان شجعان القبائل المختلفة الذين لم يحظوا بمكانة مرموقة

عليك ؟ فيقول: بلى. فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَرى إلا جهنَّم، وينظرُ عن يَساره فلا يَرى إلا جهنَم. قال عَديٌّ: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: اتَّقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمــرة، فمن لم يَجِدْ شقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبة. قال عديٌّ: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحيرةِ حتــى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا الله، وكنتُ فِيمن افتتحَ كنوزَ= = كسرَى بن هُرمُزَ، ولــئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: يُخرجُ مِلءَ كفه». حدّثني عبدُ الله حدَّثنا أبو عاصمٍ أخبرنا سَعدانُ بن بشرٍ حدَّثنا أبو مجاهدٍ حدَّثنامُحِلُّ بــن خَليفةَ سمعتُ عَدياً: «كنتُ عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم». (يوسف عامر).

فى قبائلهم يمارسون هذه الحرفة على وجه الخصوص، ويخوضون أخطر الاشتباكات والمعارك وهم فرادى في سبيل ممارستها ويفتخرون لذلك، وكان من بين الذين حظوا بشهرة عريضة من هؤلاء: سليك بن السلكة وتأبط شراً، وللأخير منهما قطعة حماسية يفتخر فيها بسرقاته ومغامراته في النصب والاحتيال.

وكانت قريش تزخر بالثروات الناتجة عن التجارة، وكانت الكعبة نفسها خزينة للنذور والقرابين، ومن ثم كانت دواعى سرقتها أكثر من غيرها، فقد أورد الكلبى أسماء بعض أشراف قريش الذين سرقوا منها ظبياً مصنوعاً من الذهب [١]، وقد نُسبت هذه الواقعة إلى أبي لهب تحديدا [٢] .

ويتضح لنا مدى إنتشار هذه العادة السيئة بين سائر الأعراب من البنود التي أبرمها رسول الله ﷺ مع رجال ونساء الأعراب الذين اعتنقوا الإسلام، حيث إنها كانت تتضمن بنداً ينهاهم عن السرقة بعد ذلك[٣]، بل إن الله عز وجل هو الذى أمر رسوله (ﷺ) فى كتابه الكريم بمبايعتهم.

---

[١] - فتح الباري، ج ١٢، ص ٧٧ .

[٢] - كتاب المعارف، لابن قتيبه .

[٣] - صحيح البخاري، كتاب الحدود. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخارى: (٦٧) حدَّثنا مُسَدَّدٌ حدَّثنا بِشرٌ حدَّثنا ابنُ عوْنٍ عنِ ابنِ سيرينَ عن عبدِ الرحمٰن بنِ أبي بكـرةَ عن أبيه ذكَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَعَدَ على بعيرِه وأمْسكَ إنسانٌ بخِطامِه ــ أوبزمامه ــ قال: «أيُّ يومٍ هذا؟ فَسكَتْنا حتى ظَنَنّا أنه سيُسَمِّيه سوى اسْمِه. قال: أليسَ يومَ النَّحر؟ قلنا: بلى. قال: فأيُّ شَهرٍ هذا؟ فسَكَتْنا حتى ظَنَنا أنه سيُسَمِّيه بغيرِ اسمه، فقال: أليسَ بذي الحِجَّة؟ قال: فإنَّ دِماءَكمْ وأموالَكم وأعْراضَكمْ بَينَكم حَرامٌ كَحرمَةِ يومِكم هذا، في شَهرِكمْ هذا، في بَلَدِكمْ هذا. لِيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، فإنَّ الشاهدَ عَسى أن يبَلِّغَ مَن هُو أوْعى لهُ منه». (يوسف عامر).

هذا وكانوا قد ابتدعوا أساليب عجيبة للسرقة، فكان السارق يُثبت قطعة حديد معقوفة (محجناً) في رأس عصاه، ويذهب بها في موسم الحج ليترصد وقت غفلة الحجاج فيشد بها ما استطاع من أمتعتهم [1].

وكما كان لصوص طيئ مشهورين بين العرب بقطع الطريق، كانت هناك أيضاً بعض القبائل المشهورة بالسرقة، فقد كانت لقبائل أسلم وغفار

---

[1]- صحيح مسلم، باب في صلاة الكسوف . وهذا نص الحديث : ٩٠٤ حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن نمير ح وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير وتقاربا في اللفظ قال حدثنا أبي حدثنا عبد الملك عن عطاء عن جابر قال انكسفت الشمس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الناس إنما انكسفت لموت إبراهيم، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس ست ركعات بأربع سجدات، بدأ فكبر، ثم قرأ، فأطال القراءة، ثم ركع نحوا مما قام، ثم رفع رأسه من الركوع فقرأ قراءة دون القراءة الأولى، ثم ركع نحوا مما قام، ثم رفع رأسه من الركوع فقرأ قراءة دون القراءة الثانية، ثم ركع نحوا مما قام، ثم رفع رأسه من الركوع، ثم انحدر بالسجود فسجد سجدتين، ثم قام فركع أيضا ثلاث ركعات ليس فيها ركعة إلا التي قبلها أطول من التي بعدها، وركوعه نحوا من سجوده، ثم تأخر وتأخرت الصفوف خلفه حتى انتهينا، وقال أبو بكر حتى انتهى إلى النساء، ثم تقدم وتقدم الناس معه حتى قام في مقامه فانصرف حين انصرف وقد آضت الشمس، فقال: يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس. وقال أبو بكر لموت بشر، فإذا رأيتم شيئا من ذلك فصلوا حتى تنجلي. ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه، لقد جيء بالنار وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها، وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قصبه في النار كان يسرق الحاج بمحجنه، فإن فطن له قال إنما تعلق بمحجني، وإن غفل عنه ذهب به، وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا، ثم جيء بالجنة وذلكم حين رأيتموني تقدمت حتى قمت في مقامي، ولقد مددت يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه، ثم بدا لي أن لا أفعل فما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه.(يوسف عامر).

ومزينة وجهينة سمعة سيئة بين سائر العرب، لأنهم كانوا مشهورين بسرقة أموال الحجاج وأمتعتهم[1] .

ولأن عمليات السطو والسرقة كانت ناتجة عن تدهور أحوال العرب الاقتصادية ، لذا لم تقتصر ممارستها على الأجانب والغرباء، بل امتدت لتشمل الأقارب والمعارف وأهل العشيرة الواحدة، فيروى أنه كان بالمدينة ثلاثة رجال يلقبون ببنى الأبيرق هم: بشر، وبشير، ومبشر، وكان بشير منافقاً إذ كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم وينسب هجاءه للآخرين، وقد كان هؤلاء الثلاثة يعانون من الفقر المدقع والقحط الشديد، فنقّبوا عِلية رجل يُدعى رفاعة، وسرقوا ما بها من أسلحة وسيوف ودروع وغيرها، فأعادها رسول الله صلي الله عليه وسلم لرفاعة، بيد أنه وقفها فى سبيل الله، وفر بشير واحتمى بالمشركين [٢].

ولم يكن احتراف السرقة قاصراً على الرجال، بل شاركتهم فيه النساء أيضاً، ولذلك حين بايع القرآن الكريم النساء قطع عليهن العهد بألا يسرقن، قال تعـالي: ﴿وَلاَ يَسْرِقْنَ﴾ (الممتحنة :١٢)

وكانوا إذا قبضوا على أشراف القوم متلبسين بهذه التهمة أخلوا سبيلهم، ولذا لم يكن لهذه النقيصة أن تنعدم أو تتوقف، ومن ذلك أنه بعد ظهور الإسلام سرقت امرأة مخزومية، فأَهَمّ قريش أمرها، فقالوا: من يُكلِّم فيها رسول الله

---

[1] – صحيحا مسلم والبخاري، كتاب المناقب، باب أسلم وغفار . وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: ٢٥٢٢ حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا غندر عن شعبة ح وحدثنا محمد بن المثنى وابن بشار قالا حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن محمد بن أبـي يعقوب سمعت عبد الرحمن بن أبي بكرة يحدث عن أبيه أن الأقرع بن حابس جاء إلـى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسب جهينة محمد الذي شك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وأحسب جهينة خيرا من بنى تميم وبنى عامر وأسـد وغطفـان أخـابوا وخسروا فقال نعم، قال فوالذي نفسي بيده إنهم لأخير منهم. وليس في حديث ابن أبـي شيبة محمد الذي شك.(يوسف عامر).

[٢] – الترمذي، ص ٤٨٩٤، كتاب التفسير، سورة نون والقلم.

صلى الله عليه وسلم، ثم قالوا: من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد (ﷺ) حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فكَلَّمَه أسامة، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: « أتشفعُ في حدّ من حدودِ الله؟» ثم قام فخطب فقال: « ياأيها الناس إنما ضلَّ مَن كان قبْلكم أنهم كانوا إذا سَرقَ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ. وايمُ اللهِ لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعَ محمدٌ يدها» (١).

ومما وقع في المدينة من مثل هذه الأحداث أن صفوان بن أُميّة كان نائماً ذات يوم وقد تدثر برداء ثمين، فجاء رجل وسرقه، وحينما قُبض عليه وسُلم إلى رسول الله (ﷺ) وأمر أن تُقطع يده - أشفق صفوان عليه وذهب إلى رسول الله (ﷺ)، فقال: يا رسول الله! أتُقطع يد عربى من أجل رداء؟! فأخبره رسول الله (ﷺ) بأنه كان ينبغي عليه أن يراعى ذلك قبل أن يسوقه إليه ﷺ، إذ لا حق في شفاعة لأحد بعد رفع مسألته إلى الحاكم (٢).

الوحشية والضراوة

كان من الطبعى أن تستوطن قلوبهم كل مظاهر الوحشية والضراوة نظراً لما اعتادوا عليه من عمليات السلب والنهب والإغارة وسفك الدماء، فكانوا يقطعون أسنمة الإبل وسحقات الغنم الأحياء، ويقومون بشيّها على الأسياخ ويتلذذون بأكلها تلذذا.

---

١ - صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٠٠٣، كتاب الحدود . وهذا نص الحديث: (٦٦٤٠) حدّثنا سعيدُ بن سليمان حدَّثنا الليثُ عنِ ابن شهابٍ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ الله عنها «أن قريشاً أهمتهم المرأةُ المخزوميةُ التي سرقت فقالوا: «من يُكلم فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومن يَجترىء عليه إلا أُسامةُ حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتشفعُ في حدّ من حدودِ الله؟ ثم قام فخطبَ فقال: باأيها الناس إنما ضلَّ مَن كان قبْلكم أنهم كانوا إذا سَرقَ الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضَّعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ. وايمُ اللهِ لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعَ محمدٌ يدها». (يوسف عامر).

٢ - الدار قطنى، ص ٣٧٤ كتاب الحدود .

كما كانوا يوثقون رباط الحيوانات الحية بجذوع الأشجار وغيرها ويتدربون عليها في رمى السهام، وكانوا يبقرون بطون النساء الحوامل في الحروب، وتتخذ منها نساؤهم عقوداً للزينة، كما كانوا ينذرون أنهم سيقتلون أعداءهم ويشربون الخمر فى جماجمهم .

وكان من أساليب العقاب عندهم أن تُعقد أطراف المذنب بفروع شجرتين ثم تقويسها بالضغط عليها لأسفل، حتى إذا تركها الضاغط انشق جسد المذنب مع ارتدادها.

وكانوا أحياناً يربطون النساء بذيول الخيل ثم يطلقون لها العنان حتى تتمزق أجسادهن، وقد كان أمراء العرب وأشرافهم غالباً هم الذين يأمرون بمثل تلك العقوبات .

وكانوا أحيانا يحبسون الرجل منهم فى حجرة ضيقة، ويمنعون عنه الطعام والشراب، حتى يتضور جوعاً وعطشاً يفضيان به إلى الموت، وكان اسم هذه النوع من العقاب عندهم هو "القتل صبراً ". وكانوا أيضاً يُعلّقون الإبل عند قبور الموتى ولا يطعمونها حتى تلاقى حتفها في غضون أيام قلائل ؛ إذ كانوا يعتقدون أن هذه الإبل سوف تكون ركوبة للموتى، وكانوا يسمونها " البَلِيّة " .

الزنا والفواحش

لقد كان الزنا والفسق والفجور من الأمور الشائعة عندهم، فكان الشعراء يفتخرون بها فى قصائدهم، ومن ذلك أن امرأ القيس الذى كان أمير شعراء العرب وأحد أشرافهم فى الجاهلية قد افتخر فى لاميته بكل ما دار بينه وبين ابنة عمته عنيزة وغيرها من النساء من أفعال ذميمة وسلوكيات منافية للحياء والعفة، ومع ذلك فقد كانت أبيات هذه القصيدة متداولةً على ألسنة الأطفال فى بلاد العرب .

ويُروى عن ابن عباس (ﷺ) أن أهل الجاهلية كانوا لا يُجيزون الجهر بالزنا لكنهم كانوا يسمحون بممارسته فى الخفاء، وكانوا يقولون: ما استتر فلا

بأس به، وما ظهر فهو لؤم [1]، وكانت بغايا النساء يُعرفن بأصحاب الرايات الحمر؛ حيث إنهن كن ينصبن الرايات على أبوابهن تكون علامةً لهن، فمن أراد دخل عليهن [2]، وكان أولادهن في منزلة الأولاد الشرعيين، وكان بمكة المكرمة نفسها - قبيل الإسلام- مثل هذا النوع من النساء، وقد كانت بينهن (عناق) التي استأذن مرثد الغنوى من رسول الله (ﷺ) أن ينكحها، فنزل قول الله تعالى :

﴿وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾(النور:٣)

وكان كبار سادات العرب يُكرهون جواريهم على التكسب من ممارسة الرذيلة كما كانوا يتهادون بهن، فعلى سبيل المثال كان عبد الله بن أُبيّ زعيماً على المدينة، وبلغت منزلته بين قومه أن الأنصار كانوا قد أعدوا له تاجاً قبل الهجرة كي يتوجوه ملكاً عليهم، ومع ذلك كله فقد ورد في صحيح البخاري أن عبد الله بن أُبى كان يمتلك جاريتين إحداهما تسمى مسيكة والأخرى تسمى أميمة، وكان يُكرههما على البغاء، فنزل قول الله تعالى:[3]

﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ﴾ (النور:٣٣)

---

[1] - تفسير الطبري آية محصنات غير مسا فحات، ج ٥، ص ١٣، مصر .

[2] - صحيح البخاري، كتاب النكاح، ج ٢، ص ٢٦٩ .

[3] - أبو داود، كتاب النكاح، وصحيح مسلم، باب التفسير . وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: ٣٠٢٩ حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب جميعا عن أبي معاوية، واللفظ لأبي كريب، حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجارية له اذهبي فابغينا شيئا، فأنزل الله عز وجل «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم». (يوسف عامر). وورد في صحيح مسلم أيضًا: ٣٠٢٩ وحدثني أبو كامل الجحدري، حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة، فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إلى قوله غفور رحيم».(يوسف عامر).

وبجانب النوع المتعارف عليه فى النكاح فى عصرنا هذا، كانت تشيع عندهم العديد من أنواع النكاح الأخرى الفاسدة التى لم تكن فى حقيقتها إلا صوراً للزنا، فعلى سبيل المثال كان منها: نكاح الاستبضاع، وفيه يقول الرجل لامرأته: ارحلى إلى فلان – رجل مشهور بالشجاعة مثلاً– فاستبضعى منه– أى اطلبى منه الجماع، وذلك رغبة فى أن يحمل الولد صفات ذلك الرجل الآخر على حسب زعمهم .

أما النوع الثانى فهو أن يجتمع رهط من الرجال، ويذهبون جميعاً إلى امرأة ويجامعونها، فإذا حملت المرأة ووضعت، ألحقت ولدها بمن تشاء منهم، ويتوجب عليه حينئذ أن يرضخ لذلك، ويصير المولود ابناً شرعياً له.

وأما النوع الثالث فهو نكاح البغايا: أى الزوانى، وكن ينصبن رايات على أبوابهن تكون علماً، فمن أراد دخل عليهن، فيجتمع كثير من الناس على المرأة، فإذا حملت ووضعت دعوا أصحاب القافة (والقائف من يلحق الولد بالشبه)، فإذا ألحق الولد بأحد ثبت النسب بينهما، وكان ابناً شرعياً له. وقد وردت هذه الأنواع الثلاثة بالتفصيل فى كتاب النكاح بصحيح البخارى.[١]

---

[١] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: ٤٨٣٤ قال يحيى بن سليمان حدثنا ابن وهب عن يونس، وحدثنا أحمد بن صالح، حدثنا عنبسة حدثنا يونس عن ابن شهاب، قال أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها. ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا كن

كان يشيع عندهم أيضاً نوع آخر من النكاح وهو نكاح مؤقت، حيث تُنكح المرأة فترةً محددة فإذا انقضت هذه الفترة أخذت أجرها وانفصل عنها زوجها، وهذا ما كانوا يطلقون عليه نكاح المتعة. وقد اقتضت الضرورة أن يُجيزه الإسلام فى الفترة الأولى من بدء البعثة، ولكنه حرمه بعد ذلك إلى الأبد.[1]

الوقاحة والفجور

لم يكن عندهم أى نوع من الحياء أو الخجل، فبالرغم من أن آلاف الناس كانوا يجتمعون في موسم الحج إلى الكعبة، فإنهم جميعاً ـ عدا أهل قريش ـ كانوا يطوفون بالكعبة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، وكانت النساء إذا طُفن عاريات قلن للناس فليعطنا أحد ثياباً يستر عوراتنا، ثم ينشدن هذا البيت :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فــلا أحــلهْ

وقد وردت في باب التفسير صحيح مسلم هذه الرواية التالية عن سيدنا عبد الله بن عباس حيث قال :

إنهم كانوا لا يستترون عند الغسل، ويغتسلون بلا حجاب فى الأندية العامة(٢).

ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحــداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يــرون فالتــاط بــه ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هــدم نكــاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم (يوسف عامر).

١ - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخارى،كتاب النكاح: (٤٨٢٥) حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا ابن عيينة انه سمع الزهري يقول أخبرني الحسن بن محمد بــن علــي وأخوه عبد الله عن أبيهما أن عليا رضي الله عنه قال لابن عباس إن النبــي صــلى الله عليه وسلم نهى عن المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر.(يوسف عامر).

٢- النسائي، باب الاستتار عند الاغتسال. وهذا نصه كما ورد فى كتــاب الغــسل والتــيمم: (٤٠٣) أَخْبَرَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ قَالَ: حَدَّثَنِي النُّفَيْلِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ قَالَ: حَــدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ يَعْلَى، : أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليــه وســلم رَأَى رَجُــلاً

كما كانوا لا يستترون عند قضاء الحاجة[١]، وكانوا إذا اجتمعوا في مجالسهم ذكروا تفاصيل معاشراتهم لزوجاتهم[٢].

يَغْتَسِلُ بِالبَرَازِ، فَصَعِدَ المِنْبَرَ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنَّ اللهَ عزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الحَيَاءَ والسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ». (يوسف عامر).

١ – أبو داود، كتاب الطهارة . وهذا نصه كما ورد في باب الاستتار في الخلاء: (٣٥) حدثنا إِبْرَاهِيمُ بنُ مُوسَى الرَّازِيُّ أَخْبَرَنَا عِيسَى بنُ يُونُسَ عن ثَوْرٍ عن الْحُصَيْنِ الْحُبْرَانِيِّ عن أبي سَعِيدٍ عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ اكْتَحَلَ فَلْيُوتِرْ، مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَحْسَنَ وَمَنْ لاَ فَلاَ حَرَجَ. وَمَنْ اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ، مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَحْسَنَ وَمَنْ لاَ فَلاَ حَرَجَ. وَمَنْ أَكَلَ فَمَا تَخَلَّلَ فَلْيَلْفِظْ، وَمَا لاَكَ بِلِسانِهِ فَلْيَبْتَلِعْ، مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَحْسَنَ وَمَنْ لاَ فَلاَ حَرَجَ. وَمَنْ أَتَى الْغَائِطَ فَلْيَسْتَتِرْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلاَّ أَنْ يَجْمَعَ كَثِيباً مِنْ رَمْلٍ فَلْيَسْتَدْبِرْهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَلْعَبُ بِمَقَاعِدِ بَنِي آدَمَ، مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَحْسَنَ وَمَنْ لاَ فَلاَ حَرَجَ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَاهُ أَبُو عَاصِمٍ عن ثَوْرٍ. قال حُصَيْنٌ الْحِمْيَرِيُّ: وَرَوَاهُ عَبْدُ المَلِكِ بنُ الصَّبَّاحِ عن ثَوْرٍ فقالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَيْرُ. قال أَبُو دَاوُدَ: أَبُو سَعِيدٍ الخَيْرُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم. (يوسف عامر).

٢ – أبو داود، كتاب النكاح، باب ما يكره عن ذكر الرجل ما يكون من إصابته. وهذا نصه: (٢١٧٨) حدثنا مُسَدَّدٌ، أخبرنا بِشْرٌ حدثنا الْجَرَيْرِيُّ ح وَحدثنا مُؤَمَّلٌ، أخبرنا إِسْمَاعِيلُ ح وَحدثنا مُوسَى، أخبرنا حَمَّادٌ كُلُّهُمْ عن الْجُرَيْرِيِّ عن أبي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ طُفَاوَةَ، قال: «تَثَوَّيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ بالمَدِينَةِ فَلَمْ أَرَ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَشَدَّ تَشْمِيراً وَلا أَقْوَمَ عَلَى ضَيْفٍ مِنْهُ فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ يَوْماً وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ لَهُ وَمَعَهُ كِيسٌ فِيهِ حَصًى أَوْ نَوًى، وَأَسْفَلَ مِنْهُ جَارِيَةٌ لَهُ سَوْدَاءُ وَهُوَ يُسَبِّحُ بِهَا حَتَّى إِذَا نَفِدَ ما في الْكِيسِ أَلْقَاهُ إِلَيْهَا، فَجَمَعَتْهُ فَأَعَادَتْهُ في الْكِيسِ فَرَفَعَتْهُ إِلَيْهِ، فقال: أَلاَ أُحَدِّثُكَ عَنِّي وَعَن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، قال قُلْتُ: بَلَى، قال: بَيْنَا أَنَا أُوعَكُ في المَسْجِدِ إِذْ جَاءَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حَتَّى دَخَلَ المَسْجِدَ فقال: مَنْ أَحَسَّ الْفَتَى الدَّوْسِيَّ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فقال رَجُلٌ: يَارَسُولَ الله هُوَذَا يُوعَكُ في جَانِبِ المَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حتى انْتَهَى إِلَيَّ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيَّ فقال لِي مَعْرُوفاً، فَنَهَضْتُ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي حتى أَتَى مَقَامَهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَمَعَهُ صَفَّانِ مِنْ رِجَالٍ وَصَفٌّ مِنْ نِسَاءٍ، أو صَفَّانِ مِنْ نِسَاءٍ وَصَفٌّ مِنْ رِجَالٍ، فقال: إِنْ أَنسانِي الشَّيْطَانُ شَيْئاً مِنْ صَلاَتِي فَلْيُسَبِّحِ الْقَوْمُ وَلْيُصَفِّقِ النِّسَاءُ. قال: فَصَلَّى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وَلَم يَنْسَ مِنْ صَلاَتِهِ شَيْئاً، فقال: مَجَالِسَكُمْ مَجَالِسَكُمْ. زَادَ مُوسَى هٰهُنَا: ثُمَّ حَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قال: أَمَّا بَعْدُ ـ ثُمَّ

وكانوا أيضاً يتوارثون زوجات آبائهم ويتخذونهن زوجات لهم .

اضطهاد المرأة

كانت أحوال المرأة عندهم بالغة السوء، فلم يكن لها نصيب من الإرث، فكان العرب يقولون: إن الميراث حق لمن يحمل السيف، ومن ثم كان صغار الأطفال يُحرمون من الميراث أيضاً.

وكان رجال القبيلة المنتصرة يعتدون على نساء القبيلة المهزومة في ساحة القتال نفسها، فبعد تمام الصلح وعودة النسوة إلى قبيلتهن، بعد أن انتُهكت أعراضهن جميعاً يداوم رجال القبيلة المنتصرة على أخذهن من بيوتهن، ولم يكن ذلك عندهم نقيصة أو مثلبة. ولقد كان المنتصرون يفتخرون بهذا السلوك ويعبّرون عنه فى أشعارهم، فحين انتصر بنو ضبة على بنى عامر انتهكوا أعراض نسائهن فى ساحة الوغى ذاتها، وقد أشار الفرزدق إلى هذه الواقعة بقوله :

فظلت وظلت يركبون هبيرها وليس لهم إلا عواليها ستر

وعن معركة قبيلتي قيس وبني دارم الشهيرة يقول جرير :

نكحت نساءهم بغير مهور

اتَّفَقُوا ـــ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرِّجَالِ قال هَلْ مِنْكُم الرَّجُلُ إذَا أتَى أهْلَهُ فَأَغلَقَ عَلَيْه بَابَهُ وَألْقَى عَلَيْهِ سِتْرَهُ وَاسْتَتَرَ بِسِتْرِ الله؟ قالُوا: نَعَمْ، قال: ثُمَّ يَجْلِسُ بَعْدَ ذَلِكَ فيقُولُ فَعَلْتُ كَذَا فَعَلْتُ كَذَا. قَال: فَسَكَتُوا: قال: فأقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ فقالَ: هَلْ مِنْكُنَّ مَنْ تُحَدِّثُ، فَسَكَتْنَ، فَجَثَــت فَتَاةٌ، قال مُؤَمَّلٌ: في حَدِيثِهِ: فَتَاةٌ كَعَابٌ، عَلَى إحْدَى رُكْبَتَيْهَا وَتَطَاوَلَتْ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم لِيَرَاهَا وَيَسْمَعَ كَلاَمَهَا، فقالتْ: يَارَسُولَ الله إنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ وَإنَّهُنَّ لَيَتَحَدَّثْنَهُ، فقالَ: هَلْ تَدْرُونَ ما مَثَلُ ذَلِكَ؟ فقالَ: إنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ شَيْطَانَةٌ لَقِيَتْ شَيْطَاناً فـــي الـــسِّكَّةِ فَقَضَى مِنْها حاجَتَهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إلَيْهِ، ألاَ إنّ طِيبَ الرِّجالِ ما ظَهَرَ رِيحُهُ ولَم يَظْهَرْ لَوْنُهُ، ألاَ إنَّ طِيبَ النِّسَاءِ ما ظَهَرَ لَوْنُهُ ولَم يَظْهَرْ رِيحُهُ». قالَ أَبُو دَاوُدَ: وَمِـــنْ هٰهُنَـــا حَفِظْتُهُ عن مُؤَمَّلٍ وَمُوسَى: «ألاَ لاَ يُفْضِيَنَّ رَجُلٌ إلى رَجُلٍ وَلا امْرَأَةٌ إلى امْرَأَةٍ، إلاَّ إلى وَلَدٍ أو وَالِدٍ، وَذَكَرَ ثَالِثَةً فَأُنْسِيتُهَا وَهُوَ في حَدِيثِ مُسَدَّدٍ ولَكِنِّي لم أُتْقِنْهُ كما أُحِبُّ» وَقال مُوسَى أخبرنا حَمَّادٌ عن الْجُرَيْرِيِّ عن أبي نَضْرَةَ عن الطُّفَاوِيِّ. (يوسف عامر).

وهذا عمرو بن معد يكرب الذى كان من أشهر شعراء العرب وشجعانهم البواسل، انتُهك عِرض أخته ريحانة بنفس هذه الطريقة، قال :

"أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوعُ

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيعُ"

ولم تكن عندهم عدة للطلاق، فإذا أراد الزوج تطليق زوجته فإنها لا تستطيع البقاء عنده، كما أنها لا تستطيع الزواج بغيره .

ولم يكن عندهم حد لعدد الزوجات، فحين اعتنق غيلان بن سلمة الثقفى الإسلام كان لديه عشر زوجات، ولما أسلم وهب الأسدى (ﷺ) كان فى عصمته ثمانى زوجات [1].

وكانوا يجمعون بين الأختين، وإذا مات الأب يعاشرون زوجاته (عدا الأم منهن)، ويعتبرونهن زوجات شرعيات .

وكانوا أيضاً يعتزلون النساء فى أيام حيضهن، فلا يأكلون ولا يشربون معهن.

وإذا تُوفى عن المرأة زوجها تركوها تعيش فى حجرة ضيقة جداً خارج البيت مرتديةً ثياباً بالية، ولم يكن من حقها أن تستخدم العطور أو غيرها مما كانت تتجمل به النساء آنذاك، فإذا مضى عليها عام كامل وهى على هذه الحالة أتوا لها بحمارٍ أو شاةٍ فتمسّ بها جسدها، ثم تخرج من الحجرة، وتجعل الشاة

---

[1] – أبو داود، كتاب النكاح .وهذا نص الحديث: (٢٢٤٢) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا هُشَيمٌ ح. وأخبرنا وَهْبُ بن بَقِيَّةَ، أنبأنا هُشَيْمٌ عن ابنِ أبي لَيْلَى عن حُمَيْضَةَ بن الشَّمَرْدَلِ عن الحارِثِ بنِ قَيْسٍ، قال مُسَدَّدٌ بنُ عُمَيْرَة، وَقال وَهْبٌ الأسَدِيُّ، قال: «أسْلَمْتُ وَعِنْدِي ثمَانُ نِسْوَةٍ، قَالَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: اخْتَرْ مِنْهُنَّ أرْبَعاً». قالَ أَبُو دَاوُدَ: وحدثنا بِهِ أَحْمَدُ بنُ إبراهِيمَ أخبرنا هُشَيْمٌ بِهذَا الحديثِ فقال قَيْسُ بنُ الحارِثِ مكَانَ الحارِثِ بنِ قَيْسٍ. قال أَحْمَدُ بنُ إبراهِيمَ هٰذَا هُوَ الصَّوَابُ ــ يَعْني قَيْسَ بنَ الحارِثِ. (يوسف عامر).

تبعر في يدها، وما تلبث أن تُلقى بهذا البعرحتى تخرج من حدادها وتعود لسابق عهدها [1]، وكان صداق المرأة يُدفع لأبيها، إذ لم يكن من شأنها المطالبة به.

خلاصة القول إن المرأة كانت في نظرهم أحط الكائنات، ومرمىً لكل سهام القهر والاستبداد، حتى بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يتضررون من إنجاب البنات، ويتوارون من الناس خجلاً، قال تعالى :

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ (النحل:٥٨، ٥٩)

---

[1] - أبو داود، كتاب النكاح، باب حداد المتوفى عنها زوجها . وهذا نص الحديث: (٢٣٠٠) حدثنا الْقَعْنَبِيُّ عن مَالِكٍ عن عَبْدِ الله بنِ أبي بَكْرٍ عن حُمَيْدِ بن نَافِعٍ عن زَيْنَبَ بِنْتِ أبي سَلَمَةَ، أنَّهَا أخْبَرَتْهُ بِهذِهِ الأحَادِيثِ الثَّلاَثَة. قالَتْ زَيْنَبُ: «دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ حِينَ تُوُفِّيَ أبُوهَا أبُو سُفْيَانَ فَدَعَتْ بِطِيبٍ فيه صُفْرَةٌ خَلُوقٌ أوْ غَيْرُهُ، فَدَهَنَتْ مِنْهُ جَارِيَةً ثُمَّ مَسَّتْ بِعَارِضَيْهَا ثُمَّ قالَتْ: وَالله ما لي بالطِّيبِ من حَاجَةٍ غَيْرَ أنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: لاَ يَحِلُّ لامْرَأةٍ تُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ أنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ إلاَّ عَلَى زَوْجٍ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وَعَشْراً. قالَتْ زَيْنَبُ وَدَخَلْتُ عَلَى زينب بِنْتِ جَحْشٍ حِينَ تُوُفِّيَ أخُوهَا، فَدَعَتْ بِطِيبٍ فَمَسَّتْ مِنْهُ، ثُمَّ قالتْ وَالله مَالِي بالطِّيبِ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرَ أنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ: «لاَ يَحِلُّ لامْرَأةٍ تُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ أنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ إلاَّ عَلَى زَوْجٍ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وَعَشْراً» **قالَتْ زَيْنَبُ وَسَمِعْتُ أُمِّي أُمَّ سَلَمَةَ تَقُولُ: «جَاءَتْ امْرَأةٌ إلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَقَالَتْ يَارَسُولَ الله إنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ زَوْجُهَا عَنْهَا، وَقَد اشْتَكَتْ عَيْنُهَا فَنَكْحَلُهَا؟ فَقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: لاَ مَرَّتَيْنِ أوْ ثَلاَثاً كلُّ ذٰلكَ يَقُولُ لاَ، ثُمَّ قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: إنَّما هِيَ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ وَعَشْراً. وَقَدْ كَانَتْ إحْدَاكُنَّ في الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمَى بالْبَعْرَةِ عَلَى رَأسِ الْحَوْلِ. قالَ حُمَيْدٌ: فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ: وَمَا تَرْمَى بالْبَعْرَةِ عَلَى رَأسِ الْحَوْلِ؟ فقالتْ زَيْنَبُ: كَانَتْ المَرْأةُ إذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ حِفْشاً وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا وَلَمْ تَمَسَّ طِيباً وَلاَ شَيْئاً، حَتَّى تَمُرَّ بها سَنَةٌ، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ حِمَارٍ أوْ شَاةٍ أوْ طَائِرٍ فَتَفْتَضُّ بِهِ، فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إلاَّ مَاتَ، ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَى بَعْرَةً فَتَرْمِي بِهَا ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدُ ما شَاءَتْ مِنْ طِيبٍ أوْ غَيْرِهِ».** قالَ أبُو دَاوُدَ: الْحِفْشُ بَيْتٌ صَغِيرٌ. (يوسف عامر).

وحين ولدت بنت لأبى حمزة - وهو أحد أشراف قومه - هجر بيته، فكانت زوجته تهدهد رضيعتها قائلةً :

ما لأبى حمزة لا يأتينــا يبيت فى بيت التي تلينا

غضــبان ألا نلد البنينا تالله مــا ذاك بأيدينــا

ونحن كالزرع لزارعينا تنبت ما قد زرعوه فينا

ثم تفشت عندهم تدريجياً عادة قتل البنات، فكان الواحد منهم إذا أنجب بنتاً أخذها إلى الصحراء، وحفر لها حفرةً فيدفنها فيها وهى على قيد الحياة، وهذا ما يطلق عليه فى اللغة العربية (وأد البنات) .

وقد جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واعترف بأنه قد وأد بيديه ثماني بنات[١] .

ولم يكن للمرأة عندهم نصيب فى الميراث ؛ إذ كانوا يستندون فى ذلك إلى قانونهم الذي ينص على أن الميراث حق لمن يحمل السيف[٢]. وكانت المرأة إذا تُوفى عنها زوجها صارت ملكاً لورثته، وما إن يُلقى أحدهم عليها رداءه حتى يحل له الدخول بها[٣].

الجهل والبداوة

لم يكن عندهم فرق بين الحلال والحرام، فكانوا يستبيحون أكل أي شئ وأى حيوان، وكانت حشرات الأرض طعاماً شائعاً عندهم، حتى أنهم كانوا يأكلون الوزغ[٤]، ويُجمِّدون الدم ثم يقضمونه قضماً، كما كان أكل الميتة من الأمور المعتادة عندهم[٥].

---

١ - تفسير ابن جرير وابن كثير، سورة الشمس كورت .

٢ - تفسير يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين.

٣ - تفسير ولا تعضلوهن .

٤ - الوزغة ــ البرص السام (يوسف عامر).

٥ - أسباب النزول للسيوطي، آية حرمت عليكم الميتة .

كانوا أيضاً يشوون الجلد ويأكلونه، ويأكلون مُضَغاً من الحيوانات الحية، كما كانوا يأكلون المنخنقة [١] والموقوذة[٢] وما افترسه ذو ناب أو ظُفرٍ من الحيوان، وكانوا أيضاً يأكلون لحوم الحمير [٣].

هذا وقد وردت قصيدة مدح لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) للشاعر العربى الجاهلى المشهور الأعشى ميمون الذى شهد بدء ظهور الإسلام، نورد منها الأمور التى يُرغّب بها العرب فى الإسلام، يقول الأعشى: [٤]

وإياك والميتــات لا تأكلنهـــا ولا تأخذن سهماً حدا لتفصدا
وذا النصب المصوب لا تنسكنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
ولا السائل المحروم لا تتركنــه لعاقبــة ولا الأســير المقيّدا
ولاتسخون من بأس ذى ضراوة ولا تحسبن المرأ يوماً مخلدا
ولا تقربن جــارة إن ســرهــا عليك حرام فانكحــن أونابّدا

---

١ – التي تموت خنقاً وهو حبس النفس سواء بفعل أدمي أو غيره .

٢ – الموقوذة ــ التي ترمى أو تضرب بحجر أو عصا من غير تذبحه .

٣ – صحيح النسائي، كتاب الصيد والذبائح . وهذا نصه كما ورد فى باب أكل لحوم الحمــر الأهلية: (٤٣١٥) أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِــي يُونُسُ ومَالِكٌ وأُسَامَةُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنِ الْحَسَنِ وعَبْدِ اللَّهِ ابْنَيْ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِمَا عَــنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَــنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ». (يوسف عامر). كما ورد فى الباب نفسه: (٤٣١٤) أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَنْصُورٍ والْحَارِثُ بْنُ مِسْكِينٍ قِرَاءَةً عَلَيْهِ وَأَنَا أَسْــمَعُ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ سُفْيَانَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ وعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِمَا، قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ لابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنْ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْبَرَ». (يوسف عامر).

٤ – ديوان الأعشى، طبعة ديانة سنة ١٩٢٧، ص ١٠٣.

سمات العرب

وجدارتهم بأن يكونوا خير الأمم

بالرغم من كل هذه المفاسد والمساوئ، كانت للعرب سمات فطرية وطبيعية امتازوا بها عن سائر شعوب العالم الأخرى، فكان من شأنهم أن اصطفاهم رب الكون لحمل نبوته وتبليغ رسالته وتعاليمه وشريعته، وأنعم عليهم من بين بقية الأمم بهذا الشرف العظيم.

صحة أنسابهم

وأول ما يطالعنا من هذه السمات هو صحة أنسابهم؛ إذ كانت قبائل شمال شبه الجزيرة العربية تنتمي إلى آل سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وذريته، وقد ثبتت صحة ذلك بروايات مشهورة ومتواترة لم يجرؤ أحد على دحضها، فكل أسماء آل إبراهيم (عليه السلام) التي وردت في التوراة نجدها جميعاً في آثار المستوطنات العربية القديمة التي أشار إليها ريورندر فاستر وحدد مواقعها بالوثائق والأدلة والبراهين في الجغرافيا التاريخية لبلاد العرب التي كتبها في سنة ١٨٤٤ م، وهو أيضاً ما أثبته المؤرخ اليهودي القديم يوسيفوس في كتابه[١]. كما صدر حالياً(١٩٣٠) كتاب " اليهود في بلاد العرب " للكاتب اليهودي دكتور إسرائيل ولفنسون، سلّم فيه أيضاً بهذه الواقعة واستعرض أدلة صحتها[٢]. وذلك إلى جانب بعض المناظرين المسيحيين المعاصرين، ولم يشك أحد في تواترها، وكان ذلك غالباً هو ما جعل سينت بال يستخدم استعارة هاجرة العرب في رسائله[٣]، وقد خاطب القرآن الكريم العرب والقرشيين صراحة، فقال تعالي: " **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** " (سورة الحج: ١٧٨).

---

[١]- الترجمة الإنجليزية لكتاب حروب اليهود، سنة ١٨٢٢ م، ج ١، ص ٢٥.

[٢]- تاريخ اليهود في بلاد العرب، إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ص ٧٥، ٧٦.

[٣] – سينت بال، إلى جليتون، الإصحاح ٤، الفقرة ٢٥، وهذا نصها:"لأن هاجر جبل سيناء في العربية. ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيها"(يوسف عامر).

ربما يتفاوت عدد الأسماء والأنساب ارتفاعاً وانخفاضاً، قلةً أو كثرةً حتى الوصول إلى شجرة نسب آل سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، بيد أنه لا مجال للشك علي الإطلاق في صحة الدعوى القائلة إن العرب كانوا من ذرية سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، وبخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا ما يدعم ذلك من قرائن خارجية، حيث إن الطبائع الاجتماعية والعادات الحضارية والتقاليد الأخلاقية التي وردت في التوراة عن آل إبراهيم هي نفسها التي ظلت قائمة بين العرب حتى ظهور الإسلام بل حتى عصرنا هذا، فقد ظلت عندهم نفس مظاهر الحياة البدوية من صحاري، وخيام، وبعير، وعادات وتقاليد ثم جاء الإسلام فهذَّبها وصقَلها. ومازلنا نري عندهم بعض معالم الحياة الإبراهيمية مثل : البيت الحرام، والحج، وشعائر الأضحية، مما يجعل ذلك هو القرينة الصريحة والواضحة اليوم أمام الباحثين الأوربيين، فيقول الباحث الألماني الشهير نولدكه :

" وتظل لدي العرب كذلك كل تلك الصفات والأخلاقيات السامية القديمة بطابعها الحضاري[1]الأصيل، كما تظل لغتهم وطيدة الصلة باللغة الأصلية ".

تزخر كتب التاريخ العربي بالحديث عن اعتزاز العرب بالمحافظة على أنسابهم، فقد كان الافتخار بالأنساب يتصدر أغراض شعرهم وموضوعات خطبهم، كما كان حفظ تسلسل أسماء الأسلاف واجباً قبلياً مقدساً حتى أنهم كانوا لا يقتصرون في ذلك على البشر فقط، بل تعدوه إلى الخيول أيضاً؛ فقد كان في كل قبيلة جماعة يختصون بحفظ أنسابها، وهذا هو ما يفسر لنا إمكانية الاطلاع على شجرة النسب الخاصة بكل فرد من مشاهير العرب وذوي المكانة المرموقة منهم حتى يومنا هذا. وقد صُنفت الكثير من الكتب المهمة حول هذا الموضوع. ونري أن العرب وحدهم هم الذين اختصوا بهذه السمة من بين سائر الأمم، فعلي الرغم من أن اليهود أيضاً كانوا من ذرية سيدنا إبراهيم (عليه السلام) فإنهم لم يضارعوا

---

[1]- دائرة المعارف البريطانية، الطبعة الحادية عشر، مادة " اللغات السامية "، وقد كتبت بحثاً موثقاً حول هذا الموضوع في كتاب " أرض القرآن " الجزء الأول، ص ١٠٧ ــ ١١٦، وجمعت فيه عناوين كل المراجع الأوربية.

العرب في هذه السمة الفريدة؛ إذ إن عدم استقرارهم في وطن قومي خاص واختلاطهم بالأمم الأخرى قد أفقدهم معظم سمات أصولهم.

ومع أن حفظ الأنساب ليس مدعاةً للفخر في حد ذاته، لنهي رسول الله (ﷺ) عن التفاخر بالأنساب مقارنة بالعمل، فإنه استجابة من الله لدعاء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لذريته بالهداية – وإحقاقاً لهم بشرف الولاية على البيت الحرام التي أسندها إليهم، ثم استجابة لدعائه بأن يبعث الله فيهم نبياً، ومصداقاً لوعد الله إياه بأن يرزقهم الخير في دينهم ودنياهم – كان من الطبيعي أن تصح أنساب ذرية سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، ولذا فقد اختصهم الله (سبحانه وتعالي) بهذه المنزلة الرفيعة.

عدم اعتناقهم إحدى الديانات السابقة

وهكذا كانوا بمنأى عن كافة المؤثرات التي من شأنها أن تؤثر فى طبائع الشعوب وعاداتها بالإحلال والتبديل، فعلي سبيل المثال لم يتسن لدين من الأديان أن يتغلغل في نفوسهم رغم احتكاكهم الدائم بكبري الديانات ومجاوراتهم لها آنذاك، إذ كانت المجوسية تسيطر على المنطقة الممتدة من خليج فارس وحتى حدود اليمن، بينما كانت اليهودية تستحوذ على أسواق التجارة في اليمن والحجاز، أما المسيحية فكانت منتشرة بكامل جاهها وسلطانها من قساوسة ورهبان وجند في المنطقة الممتدة من اليمن وحتى حدود الشام. رغم أن بعض القبائل وبعض الأفراد قد اتبعوا المسيحية ظاهرياً، فإن سائر العرب قد ظلوا على حالتهم الأصلية السابقة، ومن اتسم منهم بنزعات دينية وخصال حميدة استعاضوا عن المجوسية واليهودية والمسيحية باتباع دين إبراهيم (عليه السلام)، وأطلقوا عليه " دين الحنيفية "،وما كان ذلك كله إلا ليظل طريق الدعوة إلى دين إبراهيم (عليه السلام) ممهداً للتجديد على يد خاتم النبيين محمد (ﷺ).

استقلالهم

ظل العرب منذ بدء الخليقة وحتى ظهور الإسلام مستقلين تماماً عن سائر الدول الأجنبية، وما استطاعت دولة من الدول أن تستعبد شمال شبه الجزيرة، فعلي الرغم من أن **بختنصر** ملك بابل قد أباد بني إسرائيل فإنه لم يجرؤ على

مجرد التفكير فى غزو العرب. ورغم أن اليونان والرومان حكموا المنطقة الممتدة من مصر إلى حدود العراق قروناً متعاقبة، فإنهم لم يستطيعوا أن يطأوا بأقدامهم أرض العرب. وكانت طبيعة هذه البلاد تقف بالمرصاد أمام الاسكندر وخلفائه من قادة الروم كلما تطلعوا إلى الزحف إليها. ومع أن بلاد العرب كانت تقع على حدود الدولتين العظميين (الفرس والروم) في العالم آنذاك، فإنهما عجزتا عن الطمع فيها. وعندما حاول مسيحيو الحبشة النابيين – بعد فتحهم اليمن – اقتحام مكة المكرمة بسيول متدفقة من الفيلة، أبادتهم القدرة الإلهية عن بكرة أبيهم، مما يدعم القول بأن سر العناية الإلهية التي أحاط الله بها هذه البلاد إنما هو حماية أهلها حتى لا تستطيع قوة أخرى طاغية أن تدمر استعداداتهم العقلية ومشاعرهم القلبية، وأن تظل لديهم روح الاستقلال والحرية، وأن تنعم أفئدتهم بنشوة النصر الإيجابية حتى يفيدوا من كل هذه الأخلاقيات الدفينة في إعلاء كلمة الله وبقاء دينه الخاتم.

عدم درايتهم بالعلوم الفاسدة المدونة

مثلما سلم العرب من المؤثرات الخارجية كانوا أيضاً يجهلون سائر أنواع العلوم المدونة اكتفاءً باعتمادهم على فطرتهم، مما يعني أنهم قد سلموا بذلك أيضاً من المؤثرات العقلية والفكرية للأمم الأخرى، فبرئوا من التفكير العلمي الذي يتسم بالغلو في الجدل وإفراط في تقديس العقل، فكانوا أميين حتى يصيروا على أهبة الاستعداد لتلقي التعاليم الربانية على يد المعلم الأمي.

موقعهم الاستراتيجي

كانت بلاد العرب تحتل قلب العالم القديم، فتحدها آسيا من الشرق، وإفريقيا من الغرب، بينما تقترب حدودها الشمالية من طريق أوربا، كما أن موقعها البحري قد جعلها قريبةً من الجزر وأقاصي البلاد. لذلك حين خرج العرب من بلادهم استطاعوا الوصول عن طريق العراق إلى إيران وتركستان وخراسان وسيستان وكابل والهند، ووصلوا من ناحية أخري إلى مصر وإفريقيا والجزائر وتونس ومراكش وأسبانيا عن طريق الشام ووصلوا أيضاً عبر طرقهم البحرية إلى كافة جزر إفريقيا والحبشة وزنجبار، وإلي جزر الهند وجاوه

وسومطرة والصين. ومن ناحية أخري ارتفعت أعلامهم خفاقة فوق جزر قبرص وكريت وصقلية، وإنما تيسر لهم الوصول إلى كل هذه المواقع لأن موقع بلاد العرب كان هو المقر الملائم لهذه الدعوة، فلو افترضنا أن مقر هذه الدعوة كان في الهند أو الصين فكم كانت ستستغرق من الوقت حتى تصل إلى آفاق بعيدة مثل أسبانيا وصقلية؟ ثم إن العالم كان يخضع حتى ذلك الحين لقوتين عظميين إحداهما شرقية والأخرى غربية، ولم يكن هناك موقع في العالم كله أنسب من بلاد العرب للإطاحة بهما معاً بصورة متوازنة، حيث كان من اليسير على العرب الهجوم عليهما وتخليص العالم من براثنهما الدموية.

بعض مزاياهم الأخلاقية

فضلاً عن هذا كان من الضروري أن يتسم العرب ببعض المزايا الأخلاقية على أن تكون مترسخةً في شغاف قلوبهم، حتى يحق لهم أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس وأسوة حسنة يقتدي بها العالم ثم دعاة مصلحين، فبدون هذه المزايا ما كان يمكنهم حمل لواء الدعوة الإسلامية العظمي ولا قيادة هذا العلم.

شجاعتهم

كانوا شجعاناً فوق العادة، لا يهابون المخاطر ولا يعُيرون الحروب بالاً أكثر مما يُعيرونه للعب، وهذا هو السبب في أنهم وقفوا فرادي في مواجهة شتي إمبراطوريات العالم، وتحدوا كسري وقيصر في آن واحد، وجابهوا ببسالة فى سبيل نشر هذه الدعوة جيوشاً قوامها الآلاف وهم جماعات صغيرة من الأفراد العزل، فكان النصر حليفهم في كل ما سعوا إليه.

حماسهم

وبجانب ذلك كانوا يتسمون أيضاً بالحماس الشديد، فكان من شأنهم أن نشروا الدعوة التي اعتنقوها في سائر أرجاء المعمورة بحمية وعزيمة ومثابرة لا نظير لها، فلم تعق حميتهم الجبال أو تصد عزيمتهم البحار، وانتشروا في شتي البقاع حاملين لواء التوحيد، فزلزلوا بعزيمتهم الراسخة جنبات العالم كله.

صدقهم

وبالإضافة إلى شجاعتهم الجسدية كانوا ذوي قلوب جسورة، فما كانت تختلج به نفوسهم كانت تلهج به ألسنتهم، وكان النفاق الذي اتسم به بعض أهل المدينة نتيجة حتمية لاختلاطهم باليهود؛ إذ لم تكن هذه الرذيلة شائعة عند القرشيين وعامة العرب، فكانوا إما أعداء ظاهرين أو أصدقاء مقربين، وكانوا لا يهابون أحداً في الإفصاح عما يرونه حقاً.

حكمتهم

بالرغم من أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة بوجه عام فإنهم كانوا يتمتعون بالحكمة ورجاحة العقل، فالفصاحة التي اتسم بها سيدنا أبو بكر الصديق والفاروق عمر والثري عثمان والمرتضى علي وطلحة والزبير وخالد وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم من مئات وآلاف الصحابة (رضوان الله عليهم) — في العلم والدين والأخلاق والسياسة، خير دليل على فطنتهم ورجاحة عقولهم. ومما يوضح ذلك أيضاً معاملاتهم ومراسلاتهم مع حضارتين عظميين كالفرس والروم، وقدرتهم على توفير الحلول المناسبة لأعقد القضايا العلمية والسياسية، ولو سمعت قصائد شعرائهم وخطب خطبائهم لتبين لك مدى ما لديهم من ملكات فطرية، حيث استطاعوا أن يتفوهوا بالدرر واللآلئ دون أن ينالوا حظاً من التعليم التقليدي.

قوة حافظتهم

ينص قانون الطبيعة على أنه إذا كانت هناك بعض الطاقات العاطلة، فإن قواها تنتقل إلى الطاقات الأخرى العاملة، وأن العضو الذي يُستخدم كثيراً هو الذي يزداد قوةً يوما تلو الآخر، ووفقاً لهذه الضوابط فإنه لما كان لدي العرب بعض الطاقات المعطلة، نظراً لحرمانهم من القراءة والكتابة والتعليم التقليدي، اعتادوا على أن يعتمدوا كلية على ذاكرتهم وحواسهم في حفظ أفكارهم وخواطرهم بدلاً من أن يعتمدوا على الألواح والأسفار، ونتج عن ذلك أن اتسمت ذاكرتهم بالقوة والحدة البالغة، وهذا هو السر وراء قدرة شعرائهم على إنشاد أطول القصائد شفاهة، وحفظ كل ما يقولونه جيداً، كما كان من فضل هذه القدرة

المميزة على الحفظ أن كان من بينهم فئة كبيرة تحفظ طوال سور القرآن الكريم، وفئة أخرى تفوقهم عدداً تحفظ كتاب الله كاملاً، وقد سار على نهجهم آلاف المسلمين في شتي بقاع العالم فحفظوا القرآن الكريم بأكمله. ومن مظاهر هذه السمة عند العرب أيضاً أنهم كانوا يتواترون شفهياً وتحريرياً بكل دقة وأمانة ثروة هائلة من الأحاديث والسـير والوقائع، وكان هنـاك مئات من الصحابة (رضوان الله عليهم) يحفظون آلاف الأحاديث بنص عبارتها وألفاظها عن ظهر قلب. وهكذا فقد لعبت سمات العرب هذه دوراً كبيراً في حماية الإسلام ونشره.

كرم ضيافتهم

كان أبرز ما يميز العرب هو كرمهم وجودهم، فكان إكرام الضيف أهم سماتهم، ومن ذلك أنهم كانوا يضحون بأرواحهم من أجل جيرانهم وكل من يلجأ إليهم، وكان نحر الإبل وإطعامها للناس سعياً وراء الشهرة وذيوع الصيت، وتبديد الثروة المكتسبة من الميسر في مجالس الأحبة ومآدب الخلان، والتفاخر بذلك كله من سماتهم القومية المتأصلة، ولذا فإن هذه الصفات هي الأكثر تداولاً في أشعارهم، وقد هذّبها الإسلام وصقلها حتى صار سخاؤهم في دفع الزكاة والتصدق بالأموال خالصاً لوجه الله تعالي، فضلاً عن مساهمته الكبرى في تيسير الأزمات التي تعرض لها الإسلام والمسلمين.

ميلهم إلى المساواة

وحيث إنهم لم يخضعوا أبداً لأية أمة أخرى كما لم يكونوا تابعين لملك ذي سيادة مطلقة، فإن شعور الاعتزاز بالنفس كان متأججاً في صدورهم، فكانوا لا يرتضون العبودية ولا يحطون من شأن أنفسهم أو يستذلونها ويتحدثون مع أكابر القوم وأشرافهم بكل إباء وشمم.

وقد اندلعت عشرات الحروب في بلاد العرب من أجل الدفاع عن هذا الإباء والاعتزاز بالنفس حيث تصور لنا القصيدة الأخيرة من المعلقات السبْع ملمحاً من ذلك. وقد ساهم ميل العرب إلى المساواة مساهمة واضحة في انتشار الصدق والمساواة والديمقراطية وغيرها من التعاليم الإسلامية.

طبيعتهم العملية

أما السمة الأخيرة من سمات العرب الأخلاقية فهي طبيعتهم العلمية، فلم يكونوا مجرد خياليين أو نظريين مثل الفرس والهنود، بل كانوا يميلون إلى الحياة العلمية، ومن ثم فقد خلت أذهانهم من التعقيدات الفلسفية بما تشتمل عليه من محاجّات وتساؤلات لا حصر لها، فكانوا كسائر الجنود والتجار وأرباب الحرف إذا استحسنوا شيئاً عملوا به فور سماعه، وهذا هو السبب في أنهم لم يتأثروا إطلاقاً بروح الجدل الأعجمية في حل مشاكلهم أو ما يعن لهم من معضلات، فالعمل وحده هو الكفيل بكل شيء، وعلى هذا الأساس قدم إليهم الشارع (عليه السلام) ديناً عملياً مُعززاً لديهم هذه الروح العملية، فما لبثوا أن امتثلوا لتعاليمه وطبقوها تطبيقاً عملياً، ثم قدموها إلى العالم كله في غضون عدة سنوات صوراً حية متمثلةً فيهم، فكان الأعراب يُقبلون على رسول الله (ﷺ) من أقاصي البلاد فيتلقون منه تعاليم الدين دون تشكيك أو محاجّاة حتى إذا عادوا إلى قبائلهم بثوا الإسلام في قلوب أهلها جميعاً من خلال تطبيقاتهم العملية لكل تعاليمه، وهكذا لا يقع أهل قبيلتهم في دائرة الجدل والمراء؛ إذ كانت تعاليم الدين متمثلةً أمامهم يرونها رأي العين ويسمعونها مليء الآذان، فقد كانت بواكير الدعوة على خطورتها وصعوبتها تعتمد كليةً على هذا الإيمان الراسخ في قلوب أصحابها. وهكذا كان من شأن تلك الطبيعة العملية التي امتاز بها العرب أن حافظت على بساطة الإسلام وسلاسته ونزهته عن الفلسفات والنظريات الأعجمية، وإلى هذا وذاك فقد رفعت راية الإسلام عالية خفاقة في سماء هذا العالم كله شرقه وغربه شماله وجنوبه خلال سنوات معدودة.

حكمة اتصافهم بهذه الصفات

وبالنظر إلى كل هذه الصفات والأخلاق الفطرية التي اتسم بها العرب، فإنه ليس أمامنا من سبيل إلا التسليم التام بأن الأمة التي اصطفاها الحق تبارك وتعالي من أجل نشر دينه الخاتم والمحافظة عليه كانت مصطفاةً لذلك منذ الأزل، فبرغم كل ما اتسم به العرب من ضلال وعتو، فإن هذه الصفات الحميدة كانت مودعةً في نفوسهم حتى تكون لهم ثروة عظمي من الطبائع الفطرية تقوم منهم

مقام جنود الغيب في دعم هذا الدين حين يُظهره الله تعالي للناس. تلك الثروة التي لم تكن آنذاك لدي الفرس أو الروم أو الترك أو الهنود أو الزنوج، وإنما كانت من نصيب العرب وحدهم، فاصطفاهم الله سبحانه وتعالي لحمل نبوته الأخيرة، وسلمّهم هذه الأمانة الكبرى. وقد قالَ رَسُولُ الله : «إِنَّ الله اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسمَاعِيلَ، واصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسمَاعِيلَ بنِي كِنَانَةَ، واصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[1]. وورد في رواية أخرى أنه ﷺ قال أَنَا مُحمّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بن عَبْدِ المُطَّلِب. إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ فرقة، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ [2] فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ [3]، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتاً فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ بَيْتاً وَخَيْرِهِمْ نَفْساً». [4]

---

1 - وهذا نص الحديث كما ورد فى سنن الترمذي، كتاب المناقب: (٣٧٥٦) حَدَّثَنَا خَلاَّدُ بنُ أَسْلَمَ البَغْدَادِيُّ، حدثنا مُحمَّدُ بنُ مُصْعَب، حدثنا الأَوْزَاعِيُّ عَن أَبي عَمَّارٍ عَن وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ، رضي الله عنه قالَ قالَ رَسُولُ الله : «إِنَّ الله اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسمَاعِيلَ، واصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسمَاعِيلَ بنِي كِنَانَةَ، واصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ،وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر). وورد فى الترمذي أيضا: (٣٧٥٩) حَدَّثَنَا مُحمّدُ بنُ إِسْمَاعِيلَ، حدثنا سُلَيْمَانُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الدِّمَشْقِيُّ، حدثنا الوَلِيدُ بنُ مُسْلِمٍ، حدثنا الأَوْزَاعِيُّ، أخبرنَا شَدَّادُ أَبُو عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي وَاثِلَةُ بنُ الأَسْقَعِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، واصْطَفَى هَاشِماً مِنْ قُرَيْش، واصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غريبٌ. (يوسف عامر).

2 أي العرب والعجم. (سيد سليمان الندوي).

3 أي العرب. (سيد سليمان الندوي).

4 وهذا نصه كما ورد فى سنن الترمذي، كتاب المناقب: (٣٧٥٨) حَدَّثَنَا مَحمُودُ بنُ غَيْلاَنَ، حدثنا أَبُو أَحْمَدَ، حدثنا سُفْيَانُ عَن يَزِيدَ بنِ أَبي زِيادٍ عَن عَبْدِ اللَّهِ بنِ الْحَارِثِ عَن المُطَّلبِ بنِ أَبِي وَدَاعَةَ قالَ: «جَاءَ العَبَّاسُ إِلَى رسُولِ اللَّهِ وكَأَنَّهُ سَمعَ شَيْئاً، فقامَ النبِيُّ عَلَى المِنْبَرِ فقالَ: مَنْ أَنَا؟ فقَالُوا أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْكَ السَّلاَمُ، قالَ أَنَا مُحمّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ. إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ فرقة، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي في

فجـــر الســعادة

بينما كانت أرض العرب والعالم غارقة في هذه الظلمة أطل فجر السعادة وأشرقت شمس النبوة فبددت ظلمة الليل، ونشرت أشعتها في كل حدبٍ وصوب فأضاءت بها جنبات العالم. ومع أن هذه الشمس قد بزغت لتُضئ العالم كله فإنها بزغت من أفق العرب، فكان من الضروري أن تستضيء بنورها أرض هذه البلاد أولاً قبل أي أرض أخري.

اصطفاء أمة

ومع أن الحق سبحانه وتعالي قد أرسل سيد العالمين (ﷺ) لهداية الناس كافة، فأوحي إليه بشريعةٍ متكاملة لا تفي باحتياجات العرب وحدهم وإنما تفي باحتياجات العالم أجمع إلى أبد الآبدين،[1] فإنه لا يمكن لأية شريعةٍ أو قانون أو دستور أن يؤتي ثماره إذا لم تقترن به فئةٌ من الناس تحوله إلى واقع عملي

خَيْرِهِمْ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتاً فَجَعَلَنِي في خَيْرِهِمْ بَيْتَــاً وَخَيْرِهِمْ نَفْساً».

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غريبٌ. وَرُوِيَ عَن سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَن يَزِيدَ بــن أبي زِيَادٍ نَحْوَ حَدِيثِ إسمَاعِيلَ بنِ أبي خَالِدٍ عَن يَزِيدَ بنِ أَبي زِيَادٍ عَن عَبْدِ اللَّهِ بنِ الحارِثِ عَن العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ. (يوسف عامر). وورد فى الترمذي أيضا: (٣٧٥٧) حَــدَّثَنَا يُوسُفُ بنُ مُوسَى القَطَّانُ البَغْدَادِيُّ، حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ مُوسَى عَن إسْمَاعِيلَ بنِ أَبي خَالِــد عَن يَزِيدَ بنِ أَبِي زِيَادٍ عَن عَبْدِ اللَّهِ بنِ الْحَارِثِ عَن العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ قالَ، : «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ قُرَيْشاً جَلَسُوا فَتَذَاكَرُوا أَحْسَابَهُمْ بَيْنَهُمْ فَجَعَلُوا مَثَلَكَ كمَثَلِ نَخْلَةٍ فِي كَبْــوَةٍ مِنَ الأرْضِ. فقال النَّبِيُّ : «إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي من خَيْرِ فِرَقِهِمْ وَخَيْرِ الفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ خيَّرَ القَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ القَبِيلَةِ، ثُمَّ خَيرِ البُيُوت فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فأَنَا خَيْــرُهُمْ نَفْساً وَخَيْرُهُمْ بَيْتاً».

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَعَبْدُ اللَّهِ بنُ الْحَارِثِ هُوَ أبو نَوْفَلٍ. (يوسف عامر).

[1] كتب سيد شاه ولي الله : إن النبي الذي يبعث إلى الناس كافةً يتبنى مبادئ الأديان الأخــرى جنباً إلى جنب عدة مبادئ أخرى جديدة، هذه واحدة منها :

يدعو قوما إلى السنة الراشدة، ويزكيهم، ويصلح شأنهم ثم يتخذهم بمنزلة جوارحه فيجاهد بهم أهل الأرض، ويفرقهم في البلاد، وهو قوله تعالي " كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس ".

ملموس، وتتمثل تلك الشريعة في كل ما يصدر عنهم من قولٍ أو فعلٍ أو عملٍ أو إماءةٍ، فيؤثرون فيمن حولهم ويستميلونهم إلى عقيدتهم. وعلى هذا كان أهم ما ينشده خاتم النبيين (ﷺ) هو تنشئة أمةٍ خاصة وتأهيلها لإصلاح العلم كله. وبالرغم من أن ثمة أمم أخرى قد شرُفت بهذه المنزلة من قبل مثل بني إسرائيل، التي تتسم اليوم [١] بالذل في شتي ربوع العالم، حيث تُوجت يوماً ما بقوله تعالي: "**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**" (البقرة: ٤٧)، بيد أننا ذكرنا بالتفصيل آنفاً أن تلك الفترة قد شهدت فقدان أمم العالم لجوهرها، فكان الفرس الذين تمتعوا بأبهى مظاهر الترف والنعيم على مدار ثلاثة قرون مضت ــ قد بددوا جوهر حضارتهم، وكان الروم يعانون من اضمحلال قواهم العملية، وكان الهنود منقادين للأوهام والخرافات، أما العرب وحدهم فهم الذين كانوا مثل الأرض البكر الثرية بكل عناصر الخصب والنماء، أو كاللوحة الخالية الصالحة لشتى ضروب الرسم، فاصطفتهم مشيئة الله سبحانه وتعالي، وقُدر لأولئك العرب الذين كانوا بالأمس القريب يُسيطر عليهم الجهل وتستولي عليهم الوحشية والهمجية أن يصيروا قدوةً حسنة ويصدق عليهم قول الله تعالي: "**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** " (آل عمران: ١١٠).

وكان سمت هؤلاء القوم متمثلاً في قوله تعالي : " **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** " **(سورة الحج : ٤١)**

معوقات الإصلاح والهداية

من الطبيعي أن يواجه إصلاح أية أمةٍ في بدايته العديد من الصعاب والمعوقات العسيرة، غير أنها لا تتشعب إلى أكثر من نوع أو نوعين، ولكن إصلاح العرب كان يواجه معوقات متنوعة في شتي جوانبها، تبلغ صعوبة حل الواحدة منها حداً يفوق طاقة البشر. فعلي سبيل المثال خضع بنو إسرائيل لعبودية الفراعنة في مصر لحقبة من الزمن وتعرضوا على أيديهم لأبشع ألوان الظلم

[١] كان هذا في بدايات القرن العشرين. (يوسف عامر).

والجور، فكان من عظيم إحسان سيدنا موسى عليه السلام أن خلّصهم من براثن فرعون الجائرة وأخرجهم من مصر، غير أن معايشتهم الطويلة للعبودية قد رسخت المذلة والجبن في قلوبهم، حتى أنه حين أخبرهم موسى عليه السلام أن أمامهم أرض كنعان، وأمرهم بمحاربة أهلها والاستيلاء علي عرشها عندئذ قالـوا لسيدنا موسى عليه السلام بصراحة ووضوح "**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**" (المائدة: ٢٤)، فكان ذلك امتداداً لطبعهم الاجتماعي الذي لم يفارقهم حتى موتهم، وما دامت ذريتهم هذه لم تنقرض تماماً من على وجه الأرض، لم يقدر لهم دخول أرض كنعان. كان ذلك مثالا لمشكلة واحدة فقط ولك الآن أن تقدر مشاكل العرب.

الجهل.

كان العرب أميين ولم يتطرق إلى آذانهم شئٌ عن الإلوهية أو الرسالة أو الكتاب أو الميعاد أو العبادة، فكانوا كلّما تناهي إلى سمعهم لفظ إسلامي بدا لهم صوتاً عجيباً ومدهشاً، وقد صوَّر القرآن الكريم حيرتهم وجهلهم هذا في آيات عديدة، فقال تعالي : " **يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** " (سورة يس :١ – ٦).

إن هذه الأمة التي حُرِمت من شرفِ النبوةِ لم تكن لديها أدني دراية أو خبرة بكافة خصائص الدين السماوي، قال تعالي:

"**وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ" (سورة ص : ٣ – ٧).**

" **بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ** " (سورة ق: ١-٢).

وكانوا كلما سمعوا أمراً غيبياً مثل الصفات الإلهية، أو علامات النبوة، أو أهوال يوم القيامة استولت عليهم الدهشة وأخذتهم الحيرة، كما كانوا يعتقدون أن الإنسان ليس جديراً بالنبوةِ وأنه كان يجب أن تتقلدها الملائكة، قال تعالي : "**وَقَالَ**

الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ " (سورة الفرقان: ٢١). وقال تعالي : "إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ " (سورة فصلت: ١٤). وقال تعالى: " وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً " (سورة الإسراء : ٩٥).

ولما كان تصورهم للنبي تصوراً يفوق مستوى البشر، فهو منزه عن الاحتياجات الإنسانية والله وملائكته مصطفون من خلفه، وعنده خزائن السماوات والأرض، قال تعالي : "وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ" (سورة الإسراء: ٩٠ -٩٢). وقال تعالى: "وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا" (سورة الفرقان: ٧-٨).

كما كانوا يعتقدون أن النبي لابد أن يكون عريض الثراء، ولديه ثروة كبيرة، وحدائق غنّاء، وخزائن مكدسة بالذهب والفضة، فقد وردت الإشارة إلى اعتقاد الكفار هذا في الآية السابقة، ولذلك كانوا يظنون أن الأثرياء من أكابر مكة والطائف هم الأحق والأولي بهذه المنزلة، قال تعالي : " وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ " (سورة الزخرف: ٣١)

وكان المعني الذي يمثله " نزول الكتاب " في أذهانهم هو أن ينزل من السماء كتاب كامل في قرطاس على ملأٍ من الناس. قال تعالي : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً " (سورة الفرقان: ٣٢). وقال تعالي : " وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ " (سورة الإسراء: ٩٣). وقال تعالي : "وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ" (سورة الأنعام: ٧)

خلاصة القول أنهم كانوا على جهل تامٍ بكافة مظاهر الدين السماوي، فالألوهية، وأسرار صفاتها، وخصائص النبوة، وحقيقة نزول الكتاب، كلها أمورٌ تُعد بالنسبة إليهم مثار دهشة واستغراب، قال تعالي : " **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** " (سورة المؤمنون: ٦٩).

وبناءً على ذلك فإن مشركى العرب كانوا بحاجةٍ إلى أن تألف آذانهم نداء النبوة، الأمر الذي استغرق عدة سنوات، غير أن الذين كانوا يأنسون بسماع هذا النداء منهم قد بادروا بالاستجابة له فور سماعه، فقد ذكرنا في الجزء الأول أن عامة السابقين في الإسلام كانوا من الذين تربوا فى أحضان الحنفاء وأهل الكتاب. وبالإضافة إلى الأفراد كان ذلك هو حال القبائل أيضاً، فكان المشركون يقابلون الخطاب الإلهي بالتهكم والسخرية، أما العارفون بأمارات النبوة فكانت أعينهم تفيض دمعاً وقلوبهم تهتز نشوةً. قال تعالي :

"**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً**" (سورة الإسراء : ١٠٧- ١٠٩).

قال تعالى : " **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** " (سورة المائدة: ٨٢- ٨٣).

كان يهود المدينة يتعصبون لدينهم ويحقدون على الإسلام، ومن ثم كانوا يرون أنه فرض عليهم التعبير بلسانهم عن أي أمر يكنّونه ضد الإسلام، ومع ذلك أيضاً كانوا لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من معرفة الحق، قال تعالى: " **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** " (سورة البقرة : ١٤٦). وقال تعالى : " **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ**

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ " سورة البقرة : ٨٩).

وبغض النظر عن استشهادات القرآن الكريم، فإننا إذا تأملنا الوقائع لتكشفت لنا تلك الحقيقة أيضاً، فالقبائل والأفراد الذين استجابوا للإسلام بمجرد سماعهم لدعوة الحق يؤكدون لنا من خلال قصص إسلامهم أن الإسلام لم يكن بحاجةٍ إلا إلى أعين مبصرة، وقلوب مرهفة، فكان سيدنا سعيد بن زيد، وعثمان بن مظعون، وصهيب الرومي، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي (رضوان الله عليهم أجمعين) وغيرهم من السابقين فى الإسلام _ من هذا النوع من الناس _ أما أبو جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وغيرهم من مشركى قريش فقد ظلوا يستمعون إلى كلام الله لمدة ثلاثة عشر عاماً متتالية، ولم يؤثر ذلك فى قلوبهم البتة، بينما يسمع ورقة بن نوفل _نصراني قريش _ القرآن مرةً واحدةً فيعرف أنه الناموس الأكبر. وقد ظل مشركو مكة يرون وجهه (ﷺ) لمدة ثلاثة وخمسين عاماً ومع ذلك لم يتعرفوا على النور الإلهي، ويرى العالم اليهودي عبد الله بن سلام(ﷺ) وجهه (ﷺ) الوضاء فينهض ويصيح:

إنه تجلى الحق ويتابع أشراف قريش بأعينهم نزول الوحى فى كل يومٍ فلا يحرك فيهم ساكناً، بينما يسمع النجاشي وهرقل بعض آيات الله فتنفض قلوبهم، وتتنزل هذه الدعوة القيمة على قريش فى عقر دارها فتعرض عنها، ويجيء أهل يثرب الذين سمعوا على لسان جيرانهم اليهود بشارة النبى الخاتم، ويدخلون مكة مصادفة فيأخذون تلك الثروة الأبدية إلى ديارهم. ويُمطر أهل الطائف الجهلاء متحجرى القلوب النبى الكريم بالحجارة ويسخرون منه، بينما يأتى علماء نجران المسيحيون إلى المدينة بقصد المناظرة، ويبصرون وضاءة النبوة على وجهه الكريم فيوقرونه ويهادونه بالصلح.

ويظل أهل قريش والحجاز يقاومون دعوة الحق بالسيف والسّنان طيلة إحدى وعشرين سنة، بينما تعتنق الإسلام أكبر قبائل يثرب واليمن وعمان والبحرين الذين كانوا على معرفةٍ بتلك الرموز - إلى حد ما- بفضل معايشتهم لليهود والنصارى والمجوس، وذلك بمجرد أن نما إلى أسماعهم صوت الحق.

إتباع الآباء والأجداد

إذا تأملت أية حركة جديدة أدركت أن العائق الأول لقبولها هو التمسك بالتقاليد القومية ومعتقدات الأسلاف، فلا توجد أغلال في أقدام البشرية أثقل منها؛ فمفارقة الأحبة والخلان، والانفصال عن الوالدين، وهجران الأهل والولدان، والتنازل عن الثروة والمال، ومعارضة الجماعة، والانقطاع عن القوم، والبعد عن الوطن كلها أمور يصعب على الإنسان تحملها، بيد أن العشق التليد للعادات والتقاليد المتوارثة، والألفة الوراثية لدستور الأسلاف يبددان الحاسة التي يفرق بها الإنسان بين الحق والباطل، ويعرف بها الخير من الشر، وعلاوة على أن هذه الطبيعة الفطرية متأصلة في قلوب سائر شعوب العالم، فإن العرب على وجه التحديد مشهورون بالنزوع إلى القديم والميل إلى تكريس وتقديس أطوارهم السالفة، فعلي الرغم من كل التغيرات التى طرأت على العالم، وبالرغم من أن الصفات البدوية التي اتسمت بها الأجيال العتيقة الواردة بالتوراة قد انقرضت من الأمم السامية كافة، فإن معالم هذه الخلال البدوية نفسها كانت ما تزال بارزة عند العرب حتى ذلك الحين بل إلى يومنا هذا، فالعديد من شعائر دين إبراهيم (عليه السلام) مثل الحج والختان والأضحية وغيرها قد ظلت بعد مرور آلاف السنين باقية عند العرب يتوارثونها ولا يتخلون عنها، وأكثر موضوعات شعرهم ومفاخراتهم اشتعالاً بالحمية والحماس هو التفاخر بالأنساب وذكر أسماء الآباء والأجداد، الأمر الذي كانوا يعتبرون تخليهم عنه تقويضاً لصرح عظمتهم بأيديهم.

وحين بدأ رسول الله ﷺ يدعوا الناس في مكة إلى الدين الحق كان السبب الرئيسي للمعارضة الشديدة التي واجهها، مسألة التخلي عن تلك المعتقدات المتوارثة، وكانت هذه المسألة عندهم هي الحجة الدامغة على بطلان هذا الدين الجديد، فقد كرر القرآن الكريم قولهم هذا في مواضع عديدة موضحاً عنادهم وتعنتهم، قال تعالي:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

وقال تعالي: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا

آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(الزخرف:٢٢: ٢٤).

وقال تعالي:﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٨).

وقال تعالي:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾. (المائدة: ١٠٤).

وقال تعالي:﴿... وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان: ٢١).

يبين لنا جدل الكفار مدي استحالة تخليهم عن تقاليدهم المتوارثة، ولما بدأ رسول الله (ﷺ) يتعرض علناً ـ بعد البعثة بثلاث سنوات ـ لعبادة الأوثان بالذم والاستنكار. كانت أكبر الجرائم التي نُسبت إليه في محكمة قريش هي ازدراء آلهة الآباء وإهانة الأسلاف، واستنكار العادات والتقاليد. وحين بدأ (ﷺ) يجهر بالدعوة الإسلامية في مكة وآمن بدعوته كثيرٌ من الصالحين، ذهب أكابر قريش إلى عمه أبي طالب وأقاموا ضده (ﷺ) اتهاماتهم فقالوا: يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه.

كان ذلك هو المطلب الأول في محاكمتهم، فقال لهم أبو طالب قولاً جميلا وردهم رداً رقيقاً. ثم جاءوا بعد أيام قلائل فكرروا عليه مطلبهم بقولهم: يا أبا طالب ! إنا قد استنهيناك أن تنهي ابن أخيك فلم تفعل، وإنا ـ والله ـ لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا، وتسفيه أحلامنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك. لم يفلح هذا الإعلان بالحرب، فجاءوا إلى أبي طالب للمرة الثالثة يقولون: هذا عمارة بن الوليد، أجمل فتيان قريش، فاتخذه ولداً، وأسلم إلينا ابن أخيك لنقتله، فقد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، وفي المرة الأخيرة التقي أشراف قريش برسول الله (ﷺ) نفسه وتحدثوا معه

فقالوا: يا محمد! ما أنزل رجل بقومه مثل ما أنزلت بينا، فلقــد ضــلّلت آباءنــا، واستهفت بدينا، وسببت آلهتنا، وسفّهت أحلامنا، وفرّقت قومنا، فلم تترك إســاءة إلا وجهتها إلينا.(١)

إذا قرأت هذه الاتهامات بنداً بنداً فسوف يتضح لك كم كان من الــصعب عليهم التحرر من عبودية معتقدات الآباء وتقاليدهم وآلهتهم المتوارثة! وكم كانوا يستقبحون هذه الجريمة، وحين كان رسول الله (ﷺ) يذهب إلى الناس في موســم الحج ليدعوهم إلى التوحيد، كان أبو لهب يسعى إلى إبطال تأثيره فيقول عقب كل حديث لرسول الله (ﷺ):هذا يأمركم أن تدعوا دين آبائكم (٢).

وأبو طالب الذي طالما دافع عن رسول الله (ﷺ) في شتي المواقــف وكــان رسول الله (ﷺ) أقرب إليه من قلبه وروحه، كان هو الآخر يعتبر أن دعوته (ﷺ) إلى الحق ليست جديرةً بالقبول إزاء التخلي عن دين آبائه، وكم من مرة قال لــه ابن أخيه: يا عَمّ، قلْ لا إله إلاّ اللَّهُ كلمةً أشهَدُ لكَ بها عندَ اللَّهِ، فقال أبو طالــب: أي بني ! فداؤك كل شئ، ولكني لا أستطيع التخلي عن دين آبائي وأجدادي. ولما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله (ﷺ) فقال: يا عَمّ، قلْ لا إلــه إلاّ اللَّــهُ كلمةً أشهَدُ لكَ بها عندَ اللَّهِ. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ـــ اللذان كانــا يجلسان عنده ـــ يا أبا طالبٍ: أترغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلب؟. فلم يزل رسول الله (ﷺ) يعرضها عليه ويُعيد له تلك المقالة قال أبو طالبٍ آخرَ ما كلمَهم: هوَ علــى مِلَّةِ عبدِ المُطَّلبِ. وأبى أن يقولَ لاَ إله إلاّ اللَّهُ. كانت هذه هــي الروايــة التــي

---

١ – وردت كل هذه الوقائع بالتفصيل في ابن إسحاق وكافة كتب السيرة.

٢ – مستدرك الحاكم، ج ١، ص ١٥، كتاب الإيمان. ورد في مسند الإمام أحمــد: (١٥٧١٧) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا سعيد بن أبي الربيع السمان قال: حدثني سعيد بن سلمة يعني ابن أبي الحسام قال: ثنا محمد بن المنكدر أنه سمع ربيعة بن عباد الديلي يقــول: رأيــت رسول الله ﷺ يطوف على الناس بمنى في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: «يــا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» قال: ووراءه رجــل يقول: هذا يأمركم أن تدعوا دين آبائكم فسألت: من هذا الرجل؟ فقيل: هــذا أبــو لهــب. (يوسف عامر).

وردت في صحيح البخاري[1]، وأما التي وردت في صحيح مسلم، فقد جاء فيها أن أبا طالب قد قال بعد ذلك: لَوْلاَ أَنْ تُعَيِّرِنِي قُرَيْشٌ. يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ، عَلَى ذَلِكَ، الْجَزَعُ، لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ. [2] وقد ورد في ابن إسحاق أنه قال هذه العبارة بتلعثم. [3]

---

[1] - كتاب الجنائز، باب قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله. وهذا نصه: (١٣٣٦) حدَّثنا إسحاقُ أخبرَنا يَعقوبُ بنُ إبراهيمَ قال حدَّثني أبي عن صالح عنِ ابنِ شهابٍ قال أخبرَني سعيدُ بنُ المسيَّبِ عن أبيهِ أنه أخبرَهُ «أنه لما حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ جاءهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ فوَجَد عندَهُ أبا جهل بنِ هشامٍ وعبدَ اللَّهِ بنَ أبي أُميَّةَ بنِ المُغيرةِ، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ لأبي طالب: يا عَمِّ، قلْ لا إله إلاَّ اللَّهُ كلمةً أشهَدُ لكَ بها عندَ اللَّه. فقال أبو جهلٍ وعبدُ اللَّهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ: أترغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلب؟ فلم يَزَلْ رسولُ اللَّـهِ ﷺ يَعرِضُها عليهِ ويَعودانِ بتلكَ المقالةِ حتى قال أبو طالبٍ آخرَ ما كلمَهم: هوَ على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلبِ، وأبى أن يقولَ لاَ إله إلاَّ اللَّهُ. فقال رسولُ اللَّهُ ﷺ، أما واللَّهِ لأستَغفِرَنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عنكَ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى فيه: {ما كان للنبي} الآية: (التوبة: ١٣١).(يوسف عامر).

[2] - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ٩. وهذا نصه: (١٠٠) حدثنا مُحمَّدُ بْنُ حَاتِمِ بْنِ مَيْمُونٍ. حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ. حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ كَيْسَانَ عَنْ أَبِي حَازِمٍ الأَشْجَعِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ لعَمِّه «قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ: لَوْلاَ أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ. يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ، عَلَى ذَلِكَ، الْجَزَعُ، لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ. فَأَنْزَلَ اللّـهُ: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}. (القصص آية: ٥٦).(يوسف عامر).

[3] - ابن هشام، وفاة أبي طالب. ورد في ابن إسحاق: فلما تقارب من أبي طالب الموت قال نظر العباس إليه يحرك شفتيه، قال: فأصغى إليه بأذنه، قال فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، قال: فقال رسول الله ﷺ: لم أسمع. وورد في مسند الإمام أحمد: (٨٠٩) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا إبراهيم بن أبي العباس ثنا الحسن بن يزيد الأصم، قال: سمعت السدي إسماعيل يذكره عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه قال: « لما توفي أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت: إن عمك الشيخ قد مات، قال: اذهب فواره، ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني، قال: فواريته، ثم أتيته قال: اذهب فاغتسل، ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني، قال: فاغتسلت، ثم أتيته، قال: فدعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بها حمر النعم وسودها ». قال: وكان علي رضي الله عنه إذا غسل الميت اغتسل. (يوسف عامر).

على أية حال فإن ما نريد استعراضه من خلال هذه الواقعة هو أنه في هذه الحالة أيضاً لم يكن لدي المشركين ــ للحيلولة دون اعتناق الإسلام ــ حجةٌ دامغةٌ أو دليلٌ قاطع أقوي من قولهم: يا أبا طالبٍ: أتَرغَبُ عن مِلَّةٍ عبدِ المُطَّلب؟. نستوضح من ذلك كله كيف كان هذا الاعتقاد يمثل حجر عثرة في طريق نشر الدعوة الإسلامية. (١)

الإيمان بالخرافات

• كان العائق الآخر في طريق إصلاح العرب وهدايتهم هو إيمانهم بالخرافات، فقد ساد اعتقاد الجهلة في كل قوم منهم أنه إذا أساء أحد بلسانه إلى إله أو ناسكَ فسوف تداهمهم الشرور والمصائب، وقد كان في كل بيت من بيوت العرب مئات الأوثان وعشرات الأصنام، وكانوا يعتقدون أن سائر أعمال الحياة وثيقة الصلة بتلك الأصنام والأوثان، ولذا فقد تكرس لديهم الاعتقاد بأنهم إذا قصروا في خدمة أحد الآلهة أو عبادته، فسوف ينقطع المطر من السماء، وسيحُرم الناس من إنجاب الأبناء، ولن تُثْمِر الحقول والبساتين، وبناءً على ذلك كانوا يرتعدون خوفاً من الإسلام. ولم يكن هذا الاعتقاد وليد تلك الفترة فقط بل كان متوارثاً عند العرب لأجيال وفترات متعاقبة، فقد قال قوم ثمود ردًا على دعوة سيدنا هود (عليه السلام):﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾(هود:٥٤).

وحين بدأ رسل الله (ﷺ) يُبين للناس فسادَ عقائدهم وينهاهم عن عبادة الأصنام ظنه أغلبهم مجنوناً (٢)(والعياذ بالله)' وجاءه بعض المشركين ــ الذين

---

١ – هذا هو ما كتبه ابن كثير، والزمخشري، وابن حبان، والبغوي وغيرهم من سائر المفسرين.

٢ – انظر تفسير قوله تعالي: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(القلم:٢)، وقوله تعالي: ﴿ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾(الأعراف:١٨٤)، صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة والخطبة. وهذا نصه: (١٩٥٨) وحدثنا إِسْحَـقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى. كِلاَهُمَا عَنْ عَبْدِ الأَعْلَىٰ. قَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنِي عَبْدُ الأَعْلَى وَهُوَ أَبُو هَمَّامٍ حَدَّثَنَا دَاوُدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَاداً قَدِمَ مَكَّةَ. وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ. وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هٰذِهِ الرِّيحِ. فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّداً مَجْنُونٌ. فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هٰذَا

كانوا مقربين إليه في الجاهلية ــ ليرقوه من باب المواساة والتعاطف معه [1]، ولما عاد الصحابي ضمام بن ثعلبه(ﷺ) إلى قبيلته بعد اعتناقه الإسلام، وأخذ يسب اللات والعزي ارتعدت القبيلة كلها خوفاً، وقالوا له:: مه يا ضمام، اتق البرص والجذام، اتق الجنون [2]. ولما كان السيد زنيرة (رضي الله عنه) قد فقد بصره بعد

الرَّجُلَ لَعَلَّ الله يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ. قَالَ فَلَقِيَهُ. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هٰذِهِ الرِّيحِ. وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَىٰ يَدِي مَنْ شَاءَ. فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله: «إِنَّ الْحَمْدَ للّه. نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ. مَنْ يَهْدِهِ الله فَلاَ مُضِلَّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ». قَالَ فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هٰؤُلاَءِ. فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله. ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. قَالَ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ. فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هٰؤُلاَءِ. وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ. قَالَ فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ. قَالَ فَبَايَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله: «وَعَلَىٰ قَوْمِكَ» قَالَ: وَعَلَىٰ قَوْمِي. قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ الله سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ. فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هٰؤُلاَءِ شَيْئاً؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ: رُدُّوهَا. فَإِنَّ هٰؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ.

[1] – مسند الدارمي، كتاب الصلاة.

[2] – انظر تفسير آية "ما أنت بنعمة ربك بمجنون" وقوله "ما بصاحبهم من جنة"، وصحيح مسلم باب تخفيف الصلاة والخطبة. وهذا نصه: (١٩٥٨) وحدّثنا إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى. كِلاَهُمَا عَنْ عَبْدِ الأَعْلَىٰ. قَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنِي عَبْدُ الأَعْلَى وَهُوَ أَبُو هَمَّامٍ حَدَّثَنَا دَاوُدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَاداً قَدِمَ مَكَّةَ. وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ. وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هٰذِهِ الرِّيحِ. فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّداً مَجْنُونٌ. فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هٰذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ الله يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ. قَالَ فَلَقِيَهُ. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هٰذِهِ الرِّيحِ. وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَىٰ يَدِي مَنْ شَاءَ. فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله: «إِنَّ الْحَمْدَ للّه. نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ. مَنْ يَهْدِهِ الله فَلاَ مُضِلَّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ». قَالَ فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هٰؤُلاَءِ. فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله. ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. قَالَ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ. فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هٰؤُلاَءِ. وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ. قَالَ فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ. قَالَ فَبَايَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله: «وَعَلَىٰ قَوْمِكَ» قَالَ: وَعَلَىٰ قَوْمِي. قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ الله سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ. فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هٰؤُلاَءِ شَيْئاً؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً.

فَقَالَ: رُدُّوهَا. فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ. (يوسف عامر). ورد في مسند الإمام أحمد: (٢٣٨٤) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا يعقوب ثنا أبي عن محمد بن إسحاق حدَّثني محمد بن الوليد بن نويفع عن كريب ـ مولىٰ عبد الله بن عباس ـ عن عبد الله بن عباس قال: « بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد، ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غريرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال: أيّكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا ابن عبد المطلب قال: محمد ؟ قال: نعم، فقال: ابن عبد المطلب، إني سائلك ومغلّظ في المسألة فلا تجدن في نفسك ؟ قال: لا أجد في نفسي فسل عمّا بدا لك، قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولاً ؟ فقال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه ؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس ؟ قال: اللهم نعم، قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة، الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها يناشده عند كل فريضة كما يناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، قال: ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولى إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة، قال: فأتى إلى بعيره فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أوّل ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، قالوا: مه يا ضمام، اتق البرص والجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله عز وجل قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً، استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال: فو الله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً، قال: يقول ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة ».(يوسف عامر).

إسلامه، أخذ المشركون يقولون: أعمتها اللات والعزى[1]. وحين عاد سيدنا طفيل بن عمرو الدوسي (ﷺ) إلى وطنه بعد أن اعتنق الإسلام وأخذ يدعو زوجته إلي الدين الحق قالت: عسي أن يهلكنا ذو الشرى (اسم صنم)[2].

---

[1]- أسد الغابة، ترجمة سيدنا زنيرة (رضي الله عنه)، وسيرة ابن هشام، ذكر المستضعفين المسلمين. وقد ورد في الإصابة في تمييز الصحابة: ١١٢١٦ زنيرة بكسر أولها وتشديد النون المكسورة بعدها تحتانية مثناة ساكنة الرومية ووقع في الاستيعاب زنبرة بنون وموحدة وزن عنبرة وتعقبه بن فتحون وحكى عن مغازي الأموي بزاي ونون مصغرة كانت من السابقات إلى الإسلام وممن يعذب في الله وكان أبو جهل يعذبها وهي مذكورة في السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصديق وأنقذهم من التعذيب وقد ذكروا في ترجمة أم عيسى وأخرج الواقدي من حديث حسان بن ثابت قال حججت والنبي ﷺ يدعوا الناس إلى الإسلام وأصحابه يعذبون فوقفت على عمرو يعذب جارية بني عمرو بن المؤمل ثم يثب على زنيرة فيفعل بها ذلك وأخرج الفاكهي عن محمد بن عبدالله بن يزيد المقري وابن منده من وجه آخر عن بن المقري عن بن عيينة عن سعد بن إبراهيم قال كانت زنيرة رومية فأسلمت فذهب بصرها فقال المشركون أعمتها اللات والعزى فقالت إني كفرت باللات والعزى فرد الله إليها بصرها وأخرج محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه من رواية زياد البكائي عن حميد عن أنس قال قالت لي أم هانئ بنت أبي طالب أعتق أبو بكر زنيرة فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى فقالت كذبوا وبيت الله ما يغني اللات والعزى ولا ينفعان فرد الله إليها بصرها.(يوسف عامر).

[2] – أسد الغابة، ذكر طفيل بن عمرو الدوسى (ﷺ). ورد في معجم البلدان: الشَّرَى: بالفتح، والقصر، وهو داء يأخذ في الرجل أحمر كهيئة الدرهم، وشرى الفرات: ناحيته؛ قال بعض الشعراء:

لُعِنَ الكَواعبُ بعد يوم وصَلْنني بشرَى الفرات وبعد يوم الجَوْسق

ويقال للشجعان: ما هم إلاّ أسود الشَّرَى؛ وقال بعضهم: شرى مأسدة بعينها، وقيل: شرى الفرات ناحيته به غياض وآجام تكون فيها الأسود؛ قال: أُسودُ شَرًى لاقتْ أُسودَ خفيّة وخفية: موضع بعينه ذكر في موضعه؛ وقال نصر: الشرى، مقصور، جبل بنجد في ديار طيّء وجبل بتهامة موصوف بكثرة السباع. والشرى: موضع عند مكّة في شعر مُليح الهذَلي:

ومن دون ذكراها التي خطرَت لنا بشرقيّ نعمانَ الشّرَى فالمعرّف

شرقي نعمان: هو جبل طيّء؛ وقال المرزوقي في قول امرأة من طيّء:

وبعد فتح مكة انكشف أمر الآلهة، وأدرك الناس أنها لا تنفع ولا تضر، واعتنقت أغلب القبائل الإسلام، غير أن ذلك كله لم يدفعهم إلى أن يحطموا بأيديهم أصنام اللات، والعزي، ومنات، وذي الكفين، وسواع، فأُرسل إليهم من المدينة ــ بصفة خاصة ــ جماعة من المسلمين ذوي العقيدة الراسخة حيث قاموا بهذه المهمة، فلم يُبد عبدة الأصنام هناك أية مقاومة؛ إذ كانوا يظنون أنه ما من أحد

دعا دعوةً يوم الشَّرَى يالَ مالك، ومن لم يُجَبْ عند الحفيظة يُكلَم
فيا ضيعة الفنيان، إذ يَعتلُونه ببطن الشَّرَى مثل الفنيق المسدَّم
أما في بني حِصن من ابن كريهَة من القوم طَلاَّب الترات غَشَمْشَم
فيقتل حرّاً بامرىء لم يكن لهُ بواء، ولكن لا تَكَايُلَ بالدّم

قال السكري في قول مخليح:

لها بنعمان أو فَيض الشَّرَى ولَدُ تَشْني لنا جيدَ مكحولٍ مدامعُها،

الشرى: ما كان حول الحرم وهي أشراء الحرم. و الشرى: واد من عرفة على لية بين كبكب ونعمان؛ قال نُصيب:

وهل مثل ليلات لهنّ رواجعٌ إلينا وأيّام تحولّ طيبُها
إذ أهلي وأهلُ العامريّة جيرَةٌ بحيثُ النقى رَهْوُ الشَّرَى وكثيبُها
إذا لم تَعُدْ أمواهُ جَزْع سُوَيقة بحاراً ولم يحذَر عليها خصيبُها
إذا لم تُرِبْ في أُمّ عمرو ولم تُرِبْ عيون أُناسٍ كنتُ بعدُ تريبُها
فأمْسَتْ تَبَغّاني بجُرْمٍ كأنها، إذا عَلّنتْ ذنبي، تمحّى ذنوبُها

وذو الشرى: صنم كان لدوس وكانوا قد حموا له حمى، وفي حديث الطفيل بن عمرو لما أسلم ورجع إلى أهله بالنور في رأس سوطه دنَت منه زوجته فقال لها: إليك عني فلستُ منكِ ولستِ مني! قالت: لِمَ بأبي أنت وأمّي؟ فقال: فرّق بيني وبينك دينُ الإسلام، فقالت: ديني دينك! فقال لها: اذهبي إلى حنا ذي الشرى، بالنون، ويقال حمى ذي الشرى، فتطهري منه؛ قال: وكان ذو الشرى صنماً لدوس وكان الحنا حمًى حَمَوْه له به وشَلٌ من ماء يهبط من جبل، قال: قالت بأبي أنت وأمّي أخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً، فقال: أمنا ضامنٌ لك، فذهبتْ واغتسلتْ ثمّ جاءت فعرض عليها الإسلام فأسلمت؛ وقال الكلبي: وكان لبني الحارث بن يشكُر بن مبشّر من الأزد صنم يقال له ذو الشرى وله يقول أحد الغطاريف:

إذاً لَحلَلنا حول ما دون ذي الشَّرَى
وشَجّ العِدَى منّا خَميسٌ عرَمرَمُ. (يوسف عامر).

يستطيع تحطيم الآلهة،وأن من يعزم على هذا التطاول فسوف يلاقى حتفه بنفسه[1].

ولم يكن المعتقدون بمثل هذه الخرافات يستندون إلى الشواهد العقلية للاستدلال على صحة أو بطلان الدين الذي يتبعونه، وإنما كان تمسكهم بدين ما رهنا بمدي ما يعم عليهم من مكاسب الحياة الدنيا ــ ماديةً كانت أو معنويةً ــ حال إتباعهم هذا الدين، بيد أن قانون الحياة قد يقضي أحياناً بأن يتعرض المؤمنون بأي دين من الأديان إلى بعض المصائب والآلام، ولذلك كان الأعراب في بادئ الأمر يُقدمون على دخول الإسلام توقعاً منهم أنهم سيُحفظون من شتى ضروب الآفات السماوية منها والأرضية، ومن ثم كانوا إذا خاب توقعهم هذا يترددون بغتةً في دينهم وقد ينقلبون على أعقابهم، فقد ورد في كتاب التفسير بصحيح البخاري [2]: **"كان الرجل يَقدَمُ المدينةَ، فإن ولدت امرأتُهُ غلاماً ونُتِجَت خيلُهُ قال: هذا دينٌ صالحُ، وإن لم تَلِدِ امرأتُهُ ولم تُنتَجْ خيلُهُ قال: هذا دِينُ سوء".**

وهؤلاء ومن على شاكلتهم هم الذين نزل في شأنهم قول الله تعالي [3]:﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ...**﴾(الحج: ١١).

---

[1] - ابن سعد والطبري، ذكر الأصنام.

[2] - تفسير سورة الحج، الجزء الثاني، ص ٦٩٤. وهذا نص الحديث: (٤٦٢٤) حدَّثني إبراهيمُ بن الحارث حدَّثنا يحيى بن أبي بكير حدَّثنا إسرائيلُ عن أبي حَصينٍ عن سعيد بن جبير عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: {ومن الناس مَن يَعبدُ اللَّهَ على حَرف} قال: كان الرجل يَقدَمُ المدينةَ، فإن ولدتِ امرأتُهُ غلاماً ونُتِجَت خيلُهُ قال: هذا دينٌ صالحُ، وإن لم تَلِدِ امرأتُهُ ولم تُنتَجْ خيلُهُ قال: هذا دينُ سوء.(يوسف عامر).

[3] - صحيح البخاري، تفسير سورة الحج. وهذا نصه: (٤٦٢٤) حدَّثني إبراهيمُ بن الحارث حدَّثنا يحيى بن أبي بكير حدَّثنا إسرائيلُ عن أبي حَصينٍ عن سعيد بن جبير عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: {ومن الناس مَن يَعبدُ اللَّهَ على حَرف} قال: كان الرجل يَقدَمُ المدينةَ، فإن ولدتِ امرأتُهُ غلاماً ونُتِجَت خيلُهُ قال: هذا دينُ صالحُ، وإن لم تَلِدِ امرأتُهُ ولم تُنتَجْ خيلُهُ قال: هذا دينُ سوء.(يوسف عامر).

وبعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة وتصادف عدم إنجابهم أطفالاً لفترة ما، ظن الأعداء أن ذلك من أثر دعائهم على المسلمين وجعلوا يبتهجون لـذلك، حتى وُلد عبد الله بن الزبير (ﷺ) بعد عدة أشهر، ففرح المسلمون فرحاً شديداً [1].

---

[1] - مستدرك الحاكم، ج ٣، والإصابة، ذكر عبد الله بن الزبير. وهـذا نـص مـا ورد فـي الإصابة: ٤٦٨٥ عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشـي الأسدي أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ولد عام الهجرة وحفظ عن النبي ﷺ وهو صغير وحدث عنه بجملة من الحديث وعن أبيه وعن أبي بكر وعمر وعثمـان وخالتـه عائـشة وسفيان بن أبي زهير وغيرهم وهو أحد العبادلة وأحد الشجعان من الصحابة وأحـد مـن وليَ الخلافة منهم يكنى أبا بكر ثم قيل له أبو خبيب بولده روى عنه أخوه عـروة وابنـاه عامر وعباد وابن أخيه محمد بن عروة وأبو ذبيان خليفة بن كعب وعبيـدة بـن عمـرو السلماني وعطاء وطاوس وعمرو بن دينار ووهب بن كيسان وابن أبي مليكة وسماك بـن حرب وأبو الزبير وثابت البناني وآخرون وبويع بالخلافة سنه أربع وستين عقـب مـوت يزيد بن معاوية ولم يتخلف عنه إلا بعض أهل الشام وهو أول مولود ولد للمهاجرين بعـد الهجرة وحنكه النبي ﷺ وسماه باسم جده وكناه بكنيته وزعم الواقدي أنه ولد فـي الـسنة الثانية والأصح الأول وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قال سمعت أصحابنا يقولون ولـد سنة الهجرة وأتاه النبي ﷺ في اليوم الذي ولد فيه يمشي وكانت أسماء مع أبيهـا بالـسنح فأتى به فحنكه قال الزبير والثبت عندنا أنه ولد بقباء وإنما سكن أبوه السنح لمـا تـزوج مليكة بنت خارجة بن زيد قال الواقدي ومن تبعه ولد في شوال سنة اثنتـين ووقـع فـي الصحيح من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة قالت فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة ونزلت بقباء فولدته بقباء ثم أتيت به رسـول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل فيه فكان أول شيء دخل في جوفه ريق النبي ﷺ ثم حنكه بالتمرة ثم دعا له وبرك عليه وكان أول مولود ولد في الإسلام لفظ أحمد في مسنده وقد وقع في صحيح البخاري أن الزبير كان بالشام لما هاجر النبي ﷺ وأنه قدم المدينة لما قدم النبي ﷺ فكساه ثوبا أبيض وإذا كان كذلك فمتى حملت أسماء منه بعد ذلك بل الذي يدل عليه الخبر أنها حملت منه قبل أن يسافر إلى الشام فلما هاجر النبي ﷺ إلـى المدينة وتبعه أصحابه أرسالا خرجت أسماء بنت أبي بكر بعد أن هاجر النبي ﷺ بأشـهر فإن كان قدومها في شوال محفوظا فتكون سنة إحدى وقد وقع في بعض طرق الحديث أن عبد الله بن الزبير جاء إلى النبي ﷺ ليبايعه وهو بن سبع سنين أو ثمان كما أخرجـه بـن مـده من طريق عبد الله بن محمد بن عروة حدثني هشام بن عروة عن أبيه قال خرجـت

أسماء حين هاجرت وهي حامل قالت فنفست به فأتيته به ليحنكه فأخذه فوضعه في حجره وأتى بتمرة فمصها ثم مضغها في فيه فحنكه فكان أول شيء دخل بطنه ريق النبي ﷺ ثم مسحه وسماه عبد الله ثم جاء بعد وهو بن سبع أو ثمان ليبايع رسول الله ﷺ أمره بذلك الزبير فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه وبايعه وكان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة وكانت يهود تقول قد أخذناهم فلا يولد لهم بالمدينة ولد فكبر الصحابة حين ولد وقد قال الزبير بن بكار حدثني عمي مصعب سمعت أصحابنا يقولون ولد عبد الله بن الزبير سنة الهجرة وأما ما رواه البغوي في الجعديات من طريق إسماعيل عن أبي إسحاق عمن حدثه عن أبي بكر أنه طاف بعبد الله بن الزبير في خرقة وهو أول مولود ولد في الإسلام فقد ذكر بن سعد أن الواقدي أنكره وقال هذا غلط بين فلا اختلاف بين المسلمين إنه أول مولود ولد بعد الهجرة ومكة يومئذ حرب لم يدخلها النبي ﷺ حينئذ ولا أحد من المسلمين قلت يحتمل أن يكون المراد بقوله طاف به من مكان إلى مكان وإلا فالذي قاله الواقدي متجه ولم يدخل أبو بكر مكة من حين هاجر إلا مع النبي ﷺ في عمرة القضية ولم يكن بن الزبير معه وفي الرسالة للشافعي إن عبد الله بن الزبير كان له عند موت النبي ﷺ تسع سنين وقد حفظ عنه وقال الدينوري في المجالسة حدثنا إبراهيم بن يزيد حدثنا أبو غسان حدثنا محمد بن يحيى أخبرني مصعب بن عثمان قال قال عبد الله بن الزبير هاجرت وأنا في بطن أمي وأخرج الزبير من طريق مسلم بن عبد الله بن عروة بن الزبير عن أبيه أن النبي ﷺ كلم في غلمة من قريش ترعرعوا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعمرو بن أبي سلمة فقيل لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر فأتى بهم إليه فكأنهم تكعكعوا فاقتحم عبد الله بن الزبير أولهم فتبسم رسول الله ﷺ وقال إنه بن أبيه ومن طريق عبد الله بن مصعب كان رسول الله ﷺ قد جمع أبناء المهاجرين والأنصار الذين ولدوا في الإسلام حتى ترعرعوا فوقفوا بين يديه فبايعهم وجلس لهم فجمع منهم بن الزبير وأخرج البخاري في ترجمة عبد الله بن معاوية عن عاصي بن الزبير إنه روي عن هشام بن عروة عن أبيه أن الزبير قال لابنه عبد الله أنت أشبه الناس بأبي بكر وأخرج أبو يعلى والبيهقي في الدلائل من طريق هنيد بن القاسم سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير أن أباه حدثه أنه أتى النبي ﷺ وهو يحتجم فلم فرغ قال يا عبد الله اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد فلما برز عن رسول الله ﷺ عمد إلى الدم فشربه فلم رجع قال يا عبد الله ما صنعت بالدم قال جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفي عن الناس قال لعلك شربته قال نعم قال ولم شربت الدم ويل للناس منك وويل لك من الناس قال أبو موسى قال أبو عاصم فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم وله شاهد من طريق كيسان مولى بن الزبير عن سلمان

ومن سوء الطالع أن الذين جاءوا إلى المدينة لم يتواءموا مع مناخها في بادئ الأمر، فلما جاء سيدنا أبو بكر وسيدنا بلال (رضي الله عنهما) إلى المدينة مع بدء

الفارسي رويناه في جزء الغطريف وزاد في آخره لا تمسك النار إلا تحلة القسم وأخرج عن أسماء بنت أبي بكر في معجم البغوي وفي البخاري عن بن عباس أنه وصف بن الزبير فقال عفيف الإسلام قارئ القرآن أبوه حواري رسول الله ﷺ وأمه بنت الصديق وجدته صفية عمة رسول الله ﷺ وعمة أبيه خديجة بنت خويلد وقال بن أبي خيثمة حدثنا أحمد بن يونس حدثنا الزنجي بن خالد عن عمرو بن دينار قال ما رأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير وأخرج أبو نعيم بسند صحيح عن مجاهد كان بن الزبير إذا قام للصلاة كأنه عمود وقال بن سعد حدثنا روح حدثنا حسين الشهيد عن بن أبي مليكة كان بن الزبير يواصل سبعة أيام ثم يصبح اليوم الثامن وهو إلينا وأخرج البغوي من طريق ميمون بن مهران رأيت بن الزبير واصل من الجمعة إلى الجمعة وأخرج بن أبي الدنيا من طريق ليث عن مجاهد ما كان باب من العبادة إلا تكلفه بن الزبير ولقد جاء سيل بالبيت فرأيت بن الزبير يطوف سباحة وشهد بن زبير اليرموك مع أبيه الزبير وشهد فتح إفريقية وكان البشير بالفتح إلى عثمان ذكره الزبير وابن عائذ واقتص الزبير قصة الفتح وأن الفتح كان على يديه وشهد الدار وكان يقاتل عن عثمان ثم شهد الجمل مع عائشة وكان على الرجالة قال الزبير حدثني يحيى بن معين عن هشام بن يوسف عن معمر أخبرني هشام بن عروة قال أخذ عبد الله بن الزبير من وسط القتلى يوم الجمل وفيه بضع وأربعون جراحة فأعطت عائشة البشير الذي بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف ثم اعتزل بن الزبير حروب علي ومعاوية ثم بايع لمعاوية فلما أراد أن يبايع ليزيد امتنع وتحول إلى مكة وعاد بالحرم فأرسل إليه يزيد سليمان أن يبايع له فأبى ولقب نفسه عائذ الله فلما كانت وقعة الحرة وفتك أهل الشام بأهل المدينة ثم تحولوا إلى مكة فقاتلوا بن الزبير واحترقت الكعبة أيام ذلك الحصار ففجعهم الخبر بموت يزيد بن معاوية فتوادعوا ورجع أهل الشام وبايع الناس عبد الله بن الزبير بالخلافة وأرسل إلى أهل الأمصار يبايعهم إلا بعض أهل الشام فسار مروان فغلب على بقية الشام ثم على مصر ثم مات فقام عبد الملك بن مروان فغلب على العراق وقتل مصعب بن الزبير ثم جهز الحجاج إلى بن الزبير فقاتله إلى أن قتل بن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وهذا هو المحفوظ وهو قول الجمهور وعند البغوي عن بن وهب عن مالك أنه قتل على رأس اثنتين وستين وكأنه أراد بعد انقضائها.(يوسف عامر).

الهجرة، أُصيبا بمرضٍ شديد [1]، كما أن سيدنا طفيل بن عمرو الدوسي(ﷺ) لم يتجاوب مع طقس المدينة حين هاجر إليها[2]، ومع أن هذه الحوادث العارضة لم تؤثر البتة على المخلصين وذوي الألباب من المسلمين، فإن عامة الناس ممن كان يستولي عليهم الإيمان بالخرافات، قد تأثروا كثيراً بهذه الأمور العرضية، فلما قدم بعض أهل عكل وعرينه إلى المدينة، وأشهروا إسلامهم، ثم مرضوا لعدم ملائمة المناخ لهم ــ وأرسلهم رسول الله (ﷺ) إلى مرعي للإبل حتى ينعموا بطقسٍ آخر

---

[1] – صحيح البخاري، كتاب المرضي، وباب مقدم النبي (ﷺ) المدينة. وهذا نص الحديث: (٣٨٣٩) حدَّثنا عبدُ اللّهِ بن يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن هشامِ بن عروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ رضيَ اللّهُ عنها أنها قالت: «لما قدمَ رسولُ اللّه ﷺ المدينةَ وُعِكَ أبو بكرٍ وبلال. قالت: فدخَلْتُ عليهما فقلتُ: يا أبتِ كيف تَجدُك؟ ويا بلالُ كيفَ تجدُك؟ قالت: فكان أبو بكرٍ إذا أخَذَتهُ الحمَّى يقول:

كلُّ امرىءٍ مُصبَّحٌ في أهلهِ والموتُ أدنىٰ من شِراكِ نعلهِ

وكان بلالٌ إذا أقلعَ عنهُ الحمَّى يَرفَعُ عَقيرتَه ويقول:

ألاَ ليتَ شِعري هل أبيتَنَّ ليلةً بوادٍ وحَولي إذخِرٌ وجَليلُ

وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مِجَنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطَفيلُ

قالت عائشة: فجئتُ رسولَ اللّهِ ﷺ فأخبرتهُ، فقال: اللَّهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكةَ أو أشدَّ، وصحِّحْها، وباركْ لنا في صاعها ومُدِّها، وانقلْ حُمّاها فاجعلْها بالجحفة».(يوسف عامر).

[2] – صحيح مسلم، كتاب الإيمان. وهذا نصه: (٢٧١) حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ إِسْحٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ. جَمِيعا عَنْ سُلَيْمَانَ. قَالَ: أَبُو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ حَجَّاجٍ الصَّوَّافِ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ أَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ؟ قَالَ حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَبَىٰ ذٰلِكَ النَّبِيُّ. لِلَّذِي ذَخَرَ الله لِلأَنْصَارِ. فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ إِلَى الْمَدِينَةِ. هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو. وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِه. فَاجْتَبَوا الْمَدِينَةَ. فَمَرِضَ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ. فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ. فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ. وَرَآهُ مُغَطِّيا يَدَيْه. فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِجرتي إِلَى بنيه. فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيا يَدَيْكَ؟ قَالَ قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ. فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْه فَاغْفِرْ».(يوسف عامر).

ـ ارتدوا عن الإسلام رغم تماثلهم للشفاء [1] ومن قبيل ذلــك أيــضاً أن جــاء أعرابي إلى رسول الله (ﷺ) فبايعه بيده الكريمة، ولكن لسوء حظ الرجــل فقــد أُصيب بالحمى في اليوم التالي، فما كان منه إلا أن نقض بيعته، وقد نهاه رسول الله (ﷺ) ثلاثاً، غير أنه أصر على فسخ البيعة، فقال رسول الله (ﷺ) [2]:

«إنما المدينة كالكير تنفي خَبَثَها، وتَنصعُ طَيِّبَها»

وبناءً على هذه الأسباب، دعا رسول الله (ﷺ) للمدينة فقال: **«اللَّهمَّ حبِّــبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكةَ أو أشدَّ، اللهم وصحِّحْها، وبارِكْ لنا في مُدِّها وصــاعِها، وانقلْ حُماها فاجعَلْها بالجُحْفة»**.[3]

---

[1] – صحيح البخاري، كتاب المحاربين. وهذا نصه: (٢٣٤) حدَّثنا سُليمانُ بنُ حَربٍ قــال: حدَّثنا حَمّادُ بنُ زَيدٍ عن أيوبَ عن أبي قِلابةَ عن أنَسٍ قال: قَدِمَ أُناسٌ مِن عُكْلٍ ــ أو عُرَينةَ ــ فاجْتَوَوُا المَدينةَ، فأمرَهُم النبيُّ ﷺ بلِقاحٍ، وأن يَشربوا من أبوالِها وألبانِها، فانطلَقوا. فلمّا صَحُّوا قَتَلوا راعِيَ النبيِّ ﷺ، واستاقوا النَّعَمَ. فجاءَ الخبرُ في أوَّلِ النهارِ، فبَعَثَ في آثارِهمْ. فلما ارتَفَعَ النَّهارُ جِيءَ بهم، فأمَرَ فقَطعَ أَيديَهمْ وأَرْجُلَهم وسُمِّرَتْ أعيُنُهم وأُلْقوا في الحَــرَّةِ يَستَسقونَ فلا يُسقَون.

قال أبو قِلابَةَ: فهؤُلاءِ سَرَقوا، وقَتَلوا، وكَفَروا بعدَ إيمانِهم، وحارَبوا اللّهَ ورسولَه.(يوســف عامر).

[2] – صحيح البخاري، ج١ ص ٢٥٣، كتاب الحج، فضائل المدينة، وباب اعتصام السنة. وهذا نصه: (٧٠٥١) حدَّثنا عبدُ اللَّه بن يوسفَ أخبرَنا مالك عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد اللَّه «أن أعرابياً بايعَ رسول اللَّه ﷺ على الإسلام فأصابَ الأعرابيَّ وَعكٌ بالمدينــة، فأتى الأعرابيُّ إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّه أَقِلْني بيعتي، فأبى. ثم جاءه فقــال: أقلني بيعتي فأبى، فخرج الأعرابيُّ؛ فقال رسولُ اللَّه ﷺ: إنما المدينة كالكير تنفي خَبَثَهــا، وتَنصعُ طَيِّبَها». (يوسف عامر).

[3] – صحيح البخاري، مقدم النبي (ﷺ) المدينة. وهذا نصه: (٥٥٢٦) حدثَنا قُتَيبةُ عن مالك عن هِشام بن عروةَ عن أبيهِ عن عائشةَ أنها قالت: «لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ وُعِكَ أبــو بكر وبلالٌ رضيَ الله عنهما. قالت: فدخلتُ عليهما قلت: يا أبتِ كيفَ تَجدُكَ، ويابلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أَخَذَتْهُ الحمَّى يقول:

كُلُّ امرِىءٍ مُصبَّحٌ في أهلِهِ ... والموتُ أدنى من شِراكِ نَعلِهِ

وكان بلالٌ إذا أقلعَتْ عنه يقول:

الحروب الأهلية بين القبائل

كانت الحروب الأهلية في شبه الجزيرة العربية من أبرز المعوقات التـــي واجهت نشر الدعوة الإسلامية ؛ إذ إنها كانت تتصدر خصائص المجتمع العربي القبلية، وقد امتدت هذه الحروب لآلاف السنين، فنتجت عنها تلك الموجة العنيفــة والمتتالية من مشاعر الثأر والانتقام التي اجتاحت القبائل، وكان إيقافها أقرب مـــا يكون إلى المستحيل، وكانت هذه الحروب هي السبب في وجود عادة الثأر التـــي تحدثنا عنها آنفاً، تلك العادة التي بلغت عندهم من الحدة والشراسة مبلغـــاً كـــان يدفعهم إلى إبادة قبيلة بأكملها انتقاماً لمقتل رجل واحد، وكان من واجبهم القبلي أن يتوارثوا دماء قتلاهم لآلاف السنين فكانت مدونة عندهم، ومتداولة علـــى ألـــسنة أطفالهم؛ فكانوا إذا ولد لهم طفل حرصوا على أن يكون أول ما يسمعه عند بلوغه هو كلمة الثأر، أي أن شخصاً ما من العشيرة قد قُتل، وما يزال عليها أن تثـــأر له، ومن ثم فإن الهدف الرئيسي الذي كان ينشده كل طفل منهم في مطلع شـــبابه هو القيام بأخذ هذا الثأر .

وعلى هذا كان ذلك القدر من الإخلاص واليقين الذي يدفع فـــرداً مـــاً أو عشيرةً ما إلى الانقياد إلى الإسلام والإذعان له مقترناً في ذات الوقت بقدر آخرـــ مماثلٍ له في القوة ـــ من الرفض والاستنكار الذي كان يدفع الفريق الآخـــــر ـــ أي الخصـــم المنـــافس لذلك الفرد أو تلك

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحَولي إذخرٌ وجَليلُ
وهل أرِدَنْ يوماً مِياهَ مجَنَّة وهل تَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطَفيلُ

قالت عائشة: فجئتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرتُه، فقال: اللَّهمَّ حبِّبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكةَ أو أشدَّ، اللهم وصحِّحْها، وبارِكْ لنا في مُدِّها وصاعِها، وانقلْ حُماهـــا فاجعَلْها بالجُحْفَـــة». (يوسف عامر).

العشيرة ــ إلى مقاومة الإسلام والتعنت معه، فقد كان السر وراء مقامة الإسلام في مكة هو أن الله (سبحانه وتعالي) قد اصطفي بني هاشم للنبوة، فكان لابد من معارضة بني أمية لها.

وكان بالمدينة قبيلتا الأوس والخزرج اللتان احتدم القتال بينهما قبل الإسلام، وقد اعتنقتا معاً الإسلام بمجرد أن تناهي صوت الحق إلى سمعيهما، غير أنه على قدر ما كان يتسم به عامة أهل الأوس من حمية وإخلاص لهذا الدين، كان هناك عشرات المنافقين بين أهل الخزرج، وكان مبلغ هذا التنافس أن كلتا القبيلتين لم تأتمّا في صلاتهما قبل الهجرة ومع بدء الإسلام ــ إلا برجل من أى قبيلة أخرى غيرهما باعتبار أنه من العار أن يقف أحدهما خلف الآخر حتى وإن كان أمام الله أيضاً [1].

وكان هناك عداء شديد وضارب بجذوره في القدم بين خزاعة وبني بكر، وما إن قدما إلى المدينة حتى دعاهما رسول الله (ﷺ) إلى الإسلام وإبرام الصلح بينهما، وأجابت خزاعة دعوة الإسلام فكانت النتيجة الحتمية لذلك أن تحالفت بنو بكر مع قريش.

لاحظ جيداً، أن الأنصار حين اعتنقوا الإسلام صاروا مثالاً رائعاً لطيب النفس والتوق إلى العمل الصالح، ومع ذلك كان من الهيِّن أن تتأجج فجأةً حمية الثأر في نفوسهم، فقد أثار يهوديٌ ذات مرة ذكري " حرب بُعاث "، فما كان من قبيلتي الأنصار (الأوس والخزرج) إلا أن أشهرتا سيوفهما [2]، وأخمد رسول الله (ﷺ) نار حميتهم بصعوبة شديدة.

ولما وقف رسول الله ﷺعلى المنبر وشكي ما تعرضت له السيدة عائشة (رضي الله عنها) في حادثة الإفك، قال سيدنا سعد بن معاذ (ﷺ): يا رسول الله إذا كان (القاذف) من قبيلتنا فسأقطع عنقه، وإن كان من قبيلة إخواننا الخزرج

---

[1]- ابن هشام، ذكر بيعة العقبة.

[2]- الإصابة، ج ١، طبعة مصر، ص٨٨، وقد وردت واقعة أخري من هذا القبيل أيضاً في المعجم الصغير للطبراني، (ذكر عبد الله).

فالأمر لك وعليّ الطاعة، عندئذ نهض سعد بن عبادة ــ الذي كان زعيم قبيلة الخزرج ــ فجأةً وقال:

كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل.

فنهض أهل القبيلتين الأوس والخزرج، وكادت الحرب تندلع بينهما، فقد ورد في حديث الإفك بصحيح البخاري [1] ما يلي:

---

[1] - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٦٣٢) ـــ حدَّثنا يحيى بن بُكَير حدَّثنا الليثُ عن يونسَ عن ابن شهاب قال: أخبرَني عروةُ بن الزُّبير وسعيد بن المسيَّب وعلقمة بن وقاص وعُبَيدُ الله بن عبد الله بن عتبَةَ بن مسعود عن حديث عائشة رضيَ الله عنها زوج النبيِّ صلى الله عليه وسلم حينَ قال أهلُ الإفك ما قالوا، فبرَّأها الله مما قالوا وكلٌّ حدَّثني طائفةً من الحديث، وبعض حديثهم يصدِّقُ بعضاً، وإن كان بعضُهم أوعىٰ له من بعض ــ الذي حدَّثني عروةُ عن عائشةَ رضيَ الله عنها أن عائشة رضي الله عنها زوجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالت: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يَخرُجَ أقرعَ بينَ أزواجِه، فأيتُهنَّ خرج سهمها خرجَ بها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم معهُ. قالت عائشة: فأقرعَ بيننا في غَزوةٍ غَزاها فخرجَ سهمي، فخرجتُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بعدَما نزل الحجابُ، فأنا أُحملُ في هَودَجي وأُنزلُ فيه. فسرنا حتى إذا فَرَغَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من غَزوته تلك وقفل ودَنونا من المدينةِ قافلين آذنَ ليلةً بالرَّحيل، فقمتُ حينَ آذنوا بالرَّحيل فمَشَيتُ حتى جاوَزتُ الجيشَ، فلما قَضَيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي، فإذا عِقدٌ لي من جَزْعِ ظِفَارٍ قد انقطع، فالتمست عِقدي وحَبَسَني ابتغاؤه. وأقبلَ الرَّهطُ الذين كانوا يَرحَلونَ لي فاحتَملوا هودَجي، فَرحلوه على بَعيري الذي كنتُ ركبتُ وهم يحسبونَ أني فيه، وكان النساءُ إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنَّ اللحم، إنما تأكل العُلقةَ من الطعام، فلم يَستنكرِ القومُ خِفةَ الهودج حين رَفَعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السن، فَبَعَثوا الجملَ وساروا، فوَجَدتُ عقدي بعدَ ما استمرَّ الجيشُ، فجئتُ منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب. فأممتُ منزلي الذي كنتُ به، وظَنَنتُ أنهم سيفقِدوني فيرجعونَ إليَّ. فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلبَتني عيني فنمت، وكان صفوانُ بن المعطل السُّلَميُّ ثم الذَّكوانيُّ من وراءِ الجيش، فادلَج، فأصبحَ عندَ منزلي، فرأى سَوادَ إنسان نائمٍ، فأتاني فعرَفني حينَ رآني، وكان يَراني قبلَ الحجاب، فاستَيقظتُ باسترجاعهِ حينَ عَرَفَني، فخمرت وَجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمةً ولا

سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه، حَتَّى أناخَ راحلَتَهُ فوطىءَ على يدَيها فركبتُها، فـانطلقَ يَقودُ بي الراحلة حتى أَتَينا الجيشَ بعدَ ما نزلوا مُوغرينَ في نحرِ الظهيرة فهلكَ من هلك، وكان الذي تولّى الإفكَ عبدَ الله بن أبيٍّ ابن سلول؛ فقدمنا المدينة، فاشتكيتُ حـينَ قـدمتُ شهراً، والناسُ يفيضون في قولِ أصحاب الإفك، ولا أشعُرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يَرِيبُنـي في وَجَعي أني لا أعرفُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطفَ الذي كنتُ أرى منـه حين أشتكي، إنما يدخُلُ عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيُسلِّمُ ثم يقول: كيفَ تِيكم، ثمَّ ينصرفُ، فذاكَ الذي يريبني ولا أشعر حتى خَرَجتُ بعدَما نَقهتُ، فخَرَجت معي أمُّ مِسْطح قِبلَ المَناصِع، وهوَ متبرزنا وكنا لا نخرُجُ إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبلَ أن نَتَّخذَ الكُنُفَ قريباً من بُيوتنا، وأمرُنا أمرُ العرب الأول في التبرُّز قبلَ الغائط، فكنا نتأذى بالكنُف أن نَتَّخِـذَهَا عندَ بيوتنا، فانطلَقتُ انا وأمُّ مسطح ــ وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مَناف، وأمُّها بنتُ صخرِ بن عامر خالة أبي بكرِ الصديق، وابنها مسطحُ بن أُثاثة ــ فأقبلتُ أنا وأُمُّ مسطح قِبَلَ بيتي قد فرَغنا من شأننا، فَعَثَرت أمُّ مسطح في مِرطها، فقالت: تَعِسَ مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، أتَسُبِّينَ رجلاً شهدَ بدراً؟ قالت: أي هَنْتاه، أولَم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ قالت فأخبرَتني بقولِ أهل الإفكِ، فازددتُ مرضاً عَلَى مرضي. فلما رجعـت إلـى بيتـي وَدخل عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تعني سلم ثم قال: كيفَ تيكم؟ فقلت: أتأذَنُ لي أن آتي أبويَّ ــ قالت: وأَنَا حينئذٍ أُريدُ أن استيقنَ الخبرَ من قِبَلِهما ــ قالـت: فـأذِنَ لـي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فجئتُ أبويَّ، فقلت لأمي: يا أُمَّتَاهُ ما يتحدَّث الناس؟ قالت: يا بُنيَّة هَوِّني عليك، فوالله لَقلَّما كانت امرأةٌ قط وَضيئةً عندَ رجلٍ يُحبُّها ولها ضَـرائر إلا أكثَرنَ عليها. قالت: فقلتُ: سبحانَ الله، أو لقد تحدَّثَ الناس بهذا؟ قالت: فبكَيتُ تلكَ الليلـةَ حتى أصبحتُ لا يَرقأُ لي دمع، ولا أكتَحِلُ بنوم حتىٰ أصبحتُ أبكي. فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليَّ بن أبي طالبٍ وأُسامَةَ بن زيد رضيَ الله عنهما حينَ استَلبَثَ الـوَحيُ يَستأمِرُهما في فراقِ أهلِه. قالت: فأمَّا أُسامةُ بن زيد فأشار عَلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من بَراءةِ أهله، وبالذي يعلمُ لهم في نفسِه من الوُدِّ فقال: يا رسـول الله، أهلكَ، وما نعلمُ إلا خَيراً. وأما عليُّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيِّقِ اللهُ عليك والنساء سِواها كثير، وإن تسألِ الجارية تَصدُقْكَ. قالت: فدَعا رسولُ الله صلى الله عليـه وسلم بريرة، فقال أي بريرة هل رأيتِ من شيءٍ يَريبُكِ؟ قالت بَريـرة: لا والـذي بَعثَـك بالحق، إنْ رأيت عليها أمراً أغمِصُهُ عليها أكثرَ من أنها جاريةٌ حديثةُ السنِّ تنام عن عَجينِ أهلها فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاستعذَرَ يومئذٍ من عبـدالله بن أبيٍّ ابن سَلول، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو عَلَى المنبـر: يـا معـشر

المسلمين، من يَعذِرُني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ماعلمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجُلاً ماعلمتُ عليه إلا خيراً. وما كان يدخلُ على أهلي إلا معي. فقام سعدُ بنُ مُعاذٍ الأنصاريُّ فقال: يا رسولَ الله، أنا أعذرك منه، إن كان منَ الأوس ضربتُ عُنُقَه، وإن كان من إخواننا منَ الخزرَجِ أمرتَنا ففعلنا أمرك. قالت فقام سعدُ بن عبادةَ ــ وهو سيدَ الخزرج، وكان قبلَ ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملَتْه الحمية ــ فقال لسعد كذبتَ لَعمرُ الله، لا تقتلهُ ولا تقدرُ على قتله. فقام أُسَيدُ بن حُضَيرٍ ــ وهو ابن عمِّ سعدِ بن مُعاذٍ ــ فقال لسعدِ بن عبادة: كذبتَ لَعمرُ الله لَنقتُلَنَّه، فإنك منافقٌ تجادلُ عن المنافقين. فتَثَاوَرَ الحيَّانِ الأوسُ والخزرج حتى هموا أن يقتَتلوا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ على المنبر، فلم يزلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُخَفضهم حتى سَكتوا وسكت. قالت: فمكثتُ يومي ذلك لا يَرقأُ لي دَمعٌ ولا أكتحِلُ بنومٍ. قالت: فأصبحَ أبَوايَ عندي وقد بَكَيتُ لَيلَتَين ويوماً لاأكتحِلُ بنومٍ ولايرقأُ لي دمع يَظُنان أنَّ البكاءَ فالقٌ كبدي. قالت: فبينما هما جالسانِ عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليَّ امرأةٌ منَ الأنصار فإذِنتُ لها، فجلستْ تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك دخلَ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّمَ ثم جلس، قالت: ولم يَجلسْ عندي منذ قيلَ ما قيل قبلها، وقد لَبثَ شهراً لا يُوحى إليه في شأني قالت: فتشهَّدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حينَ جلس ثم قال: أما بعدُ، يا عائشة فإنه قد بَلَغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بَريئةً فسيُبَرِّؤكِ الله، وإن كنت ألممتِ بذَنبٍ فاستغفري اللهَ وتُوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترَفَ بذنبه ثم تابَ إلى الله تابَ اللهُ عليه. قالت: فلما قضى رسول اللَّه مَقالَتَهُ قَلصَ دَمعي حتىٰ ماأُحِسُّ منه قَطرةً، فقلت لأبي: أجب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. قال: واللهِ ماأدري ماأقول لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم. فقلتُ ــ لأمي: أجيبي رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قالت: ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم. قالت: فقلتُ ــ وأنا جارية حديثة السنِّ لاأقرأُ كثيراً منَ القرآن ــ إني واللهِ لقد علمتُ: لقد سَمعتم هذا الحديثَ حتى استقرَّ في أنفُسكم وصدَّقتم به، فَلَئن قلتُ لكم إني بَريئةٌ ــ واللهُ يعلمُ أني بريئة ــ لاتُصدِّقونني بذلك، ولَئن اعترَفتُ لكم بأمرٍ ــ والله يعلم أني منه بريئة ــ لتصدِّقنِّي. والله ما أجدُ لكم مثلاً إلا قولَ أبي يوسف، قال: {فصبرٌ جميلٌ، والله المستَعانُ على ماتُصِفون} قالت: ثم تحوَّلت فاضطَجعتُ على فراشي. قالت: وأنا حينئذٍ أعلم أني بريئةٌ وأنَّ اللهَ مُبرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظنُّ انَّ اللهَ مُنزِلٌ في شأني وَحياً يُتلى ولَشأني في نفسي كان أحقَرَ من أن يتكلم اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتلى ولكنْ كنتُ أرجو أن يرى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في النومِ رؤيا يُبرِّؤني اللهُ بها. قالت: فوالله ما رامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خرَجَ أحدٌ من أهلِ البيت حتى أُنزلَ عليه، فأخذَه ما

فَتَثَاوَرَ الحيَّانِ الأوسُ والخزرج حتى هموا أن يَقتَتلوا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ على المنبر

وبعد انتشار الإسلام، قتل محلم بن جثامة الليثي ــ ذات مرة ــ رجلاً من قبيلة أشجع، ورُفعت الواقعة إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم، ووفقاً للعلاقات القبلية ناب عُيينة عن القاتل والأقرع بن حابس عن القتيل، فاحتدم الأمــر وعــمّ الصخب والضجيج، فقال رسول الله ﷺ: «يَا عُيَيْنَةُ ألاَ تَقْبَلُ الْغِيَرَ؟» [1]، قــال: لاَ

كان يأخذُهُ من البُرَحاء، حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثلُ الجُمان من العَرق وهو في يومٍ شاتٍ من ثقل القول الذي يُنزل عليه. قالت: فلما سُرِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُــرِّي عنه وهو يضحَك؛ فكانت أوَّلُ كلمةٍ تكلَّم بها: يا عائشة، أمّا الله عزَّوجل فقد برَّأك. فقالــت أمي: قومي إليه قالت: فقلت: واللَّه لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا اللَّهَ عزَّوجل. وأنزلَ الله {إنَّ الذين جاؤوا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسَبوه...} العشرَ الآيات كلها فلما أنزلَ اللهُ هذا فــي برَاءتي قال أبو بكرٍ الصديقُ رضيَ الله عنه وكان يُنفقُ على مِسطح بن أُثاثةَ لقَرابته منــه وفقره: والله لاأُنفقُ على مسطحٍ شيئاً أبداً بعدَ الذي قال لعائشة ما قالِ فأنَزلَ الله {ولايأتَــلِ أولو الفضلِ منكم والسَّعة أن يؤتوا أولي القُربى والمساكينَ والمهاجرين فــي ســبيل الله، وليعفوا ولْيَصفَحوا، ألا تحبُّون أن يغفرَ الله لكم والله غفورٌ رحيم} قال أبو بكر: بلى والله، إني أحبُّ ان يغفرَ الله لي. فرجَعَ إلى مسطح النفقةَ التي كان يُنفق عليــه وقــال: واللهِ لا أنزعُها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يــسأل زينــب ابنــة جحشٍ عن أمري فقال: يا زينبُ، ماذا علمتِ أو رأيت؟ فقالت: يا رسولَ الله، أحمي سمعي وبصَري. ما علمتُ إلا خيراً. قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فَعَصَمَها الله بالورَع، وطفقَت أختُها حَمنةُ تُحارِبُ لها، فهلكَت فيمن هلكَ من أصحاب الإفك».(يوسف عامر).

[1]- أبو داود، ج٢، ص ١٥٥، كتاب الديات. وهذا نص الحديث: (٤٤٩٧) ـــ حدثنا مُوسَــى بنُ إسْمَاعِيلَ أخبرنا حَمَّادٌ قالَ أخبرنا مُحمَّدٌ ــ يَعْني ابنَ إسْحَاقَ ــ فحدَّثَني مُحمَّدُ بنُ جَعْفَرِ بنِ الزُّبَيْرِ قالَ سَمِعْتُ زِيَادَ بنَ ضُمَيْرَةَ الضُّمَرِيَّ ح. وأخبرنا وَهْبُ بنُ بَيَانَ وأحْمَــدُ بــنُ سَعِيدٍ الْهَمْدَانيُّ قالاَ أخبرنا ابنُ وَهْبٍ أخبرني عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ أبي الزِّنَادِ عن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ الْحَارِثِ عنْ مُحمَّدِ بنِ جَعْفَرٍ أنَّهُ سَمِعَ زَيَادَ بنَ سَعْدِ بنِ ضُمَيْرَةَ السُّلَميَّ وَهَــذَا حَــدِيثُ وَهْبٍ وَهُوَ أتَمُّ يُحَدِّثُ عُرْوَةَ بنَ الزُّبَيْرِ عن أبيهِ قال مُوسَى وجَدِّهِ، وكَانَا شَهِدَا مَعَ رَسُــولِ الله صلى الله عليه وسلم حُنَيْناً، ثُمَّ رَجَعْنَا إلَى حَدِيثِ وَهْبٍ: «أنَّ مُحَلِّمَ بنَ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيَّ قَتَلَ

وَاللهِ حَتَّى أُدْخِلَ عَلَى نِسَائِهِ مِنَ الحربِ وَالحَزَنِ ما أُدْخِلَ عَلَى نِسَائِي، عندئذ تفاقمت الفوضى وازداد الصخب، فكرر رسول الله صلي الله عليه وسلم السؤال ورد عليه عيينة بنفس الإجابة، ونظراً لأن ذلك كان في صدر الإسلام وكانت هذه أول قضية قتل تُعرض على رسول الله (ﷺ)، فقد قال رجل من قبيلة بني ليث كان واقفاً بسلاحه: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَمْ أَجِدْ لِمَا فَعَلَ هَذَا فِي غُرَّةِ الإِسْلَامِ مَثَلاً إِلاَّ غَنَماً وَرَدَتْ فَرُمِيَ أَوَّلُها فَنَفَرَ آخِرُهَا. أي أنه إذا فُصل في القضية وفقاً لما يراه القاتل لظن الناس أن الإسلام يميل إلى استبدال القصاص بالدية، ومن ثم فسوف يترددون في اعتناق الإسلام، لأن نفوسهم كانت ما تزال متأججة بمشاعر الثأر، ولكن رسول الله (ﷺ) كان على سفر فأعطي حينذاك دية قوامها خمسون ناقة ووعد بأن يعطي خمسون ناقة أخرى حين يصل إلى المدينة.

رَجُلاً مِنْ أَشْجَعَ فِي الإِسْلَامِ وَذَلِكَ أَوَّلُ غِيَرٍ قَضَى بِهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَتَكَلَّمَ عُيَيْنَةُ فِي قَتْلِ الأَشْجَعِيِّ لأَنَّهُ مِنْ غَطَفَانَ، وَتَكَلَّمَ الأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ دُونَ مُحَلِّمٍ لأَنَّهُ مِنْ خِنْدِفَ، فارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَكَثُرَتِ الْخُصُومَةُ وَاللَّغَطُ، فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: يَا عُيَيْنَةُ أَلاَ تَقْبَلُ الْغِيَرَ، فقالَ عُيَيْنَةُ: لاَ وَاللهِ حَتَّى أُدْخِلَ عَلَى نِسَائِهِ مِنَ الحَرْبِ وَالحَزَنِ ما أُدْخِلَ عَلَى نِسَائِي، قال: ثُمَّ ارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَكَثُرَتِ الخُصُومَةُ وَاللغَطُ، فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: يَا عُيَيْنَةُ أَلاَ تَقْبَلُ الْغِيَرَ؟ فقالَ عُيَيْنَةُ مِثْلَ ذَلِكَ أَيْضاً، إِلَى أَنْ قَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ يُقَالُ لَهُ مُكَيْتِلٌ عَلَيْهِ شِكَّةٌ وَفِي يَدِهِ دِرَقَةٌ فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَمْ أَجِدْ لِمَا فَعَلَ هَذَا فِي غُرَّةِ الإِسْلَامِ مَثَلاً إِلاَّ غَنَماً وَرَدَتْ فَرُمِيَ أَوَّلُها فَنَفَرَ آخِرُهَا، اسْنُنِ الْيَوْمَ وَغَيِّرْ غَداً، فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: خَمْسُونَ فِي فَوْرِنَا هَذَا، وَخَمْسُونَ إِذَا رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَمُحَلِّمٌ رَجُلٌ طَوِيلٌ آدَمُ وَهُوَ فِي طَرَفِ النَّاسِ، فَلَمْ يَزَالُوا حَتَّى تَخَلَّصَ فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَعَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ، فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي بَلَغَكَ، وَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللهِ، فاسْتَغْفِرِ اللهَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَقَتَلْتَهُ بِسِلَاحِكَ فِي غُرَّةِ الإِسْلَامِ، اللَّهُمَّ لا تَغْفِرْ لِمُحَلِّمٍ بِصَوْتٍ عَالٍ. زَادَ أَبُو سَلَمَةَ: فَقَامَ وَإِنَّهُ لَيَتَلَقَّى دُمُوعَهُ بِطَرَفِ رِدَائِهِ». قالَ ابنُ إِسْحَاقَ: فَزَعَمَ قَوْمُهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم اسْتَغْفَرَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ. قالَ أَبُو دَاوُدَ: قالَ النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: الْغِيَرُ الدِّيَةُ.(يوسف عامر).

وهكذا كانت عاطفة الثأر قد نمت في نفوس العرب لدرجة أنهــا ظلــت مسيطرةً على أفئدتهم إبّان فتح مكة رغم مناداة الرسول الله (ﷺ) بمراعاة الأمــن العام وعدم اللجوء إلى إشهار السيوف.

وبينما كان هناك رجل من قبيلة هذيل متوجهاً إلى رسول الله (ﷺ) كــي يدخل في الإسلام ـــ وكان قد ارتكب في الجاهلية جريمة في قبيلة خزاعة، وكان أهلها يجدون في البحث عنه لينالوا الثأر منه ـــ ولسوء حظه التقــي بهــم فــي الطريق فقتلوه على الفور لئلا يصل إلى حضرة النبوة فلا تتسنى لهم فرصة النيل منه بعد ذلك، ولما علم رسول الله (ﷺ) بهذه الواقعة غضب غضباً شديداً، بينمــا التمس أولئك الرجال من سيدنا عمر، وسيدنا أبي بكر، وسيدنا على (رضوان الله عليهم) الشفاعة عند رسول الله (ﷺ)، فألقى رسول الله (ﷺ) خطبة بعد الــصلاة، قال فيها:

«أما بعد، فإن الله عزَّ وجلَّ هو حرم مكة ولم يحرمها الناس، وإنما أحلها إلى ساعة من النهار أمس، وهي اليوم حرام كما حرمها الله عزَّ وجلَّ أوّل مــرة، وإن أعتى الناس على الله عزَّ وجلَّ ثلاثة: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل في الجاهلية، وإني والله لأدين هذا الرجل الذي قتلــتم، فــودّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم». ودفع رسول الله (ﷺ) دية ذلك الرجل [1].

---

[1]- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٤، ص ٣١. وهذا نص الحديث: (١٦٠٦٤) ـــ حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا وهب بن جرير قال: حدَّثني أبي قال: سمعت يونس يحدِّث عن الزهري عن مسلم بن يزيد أحد بني سعد بن بكر أنه سمع أبا شريح الخزاعي ثم الكعبي وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقول: «أذن لنا رسول الله يوم الفــتح فــي قتال بني بكر حتى أصبنا منهم ثأرنا، وهو بمكة، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وســلم برفع السيف، فلقي رهط منا الغد رجلاً من هذيل في الحرم يؤمرسول الله صلى الله عليه وسلم كيسلم، وكان قد وترهم في الجاهلية، وكانوا يطلبونه، فقتلوه، وبادروا أن يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب غضباً شديداً، والله ما رأيته غضب غضباً أشد منه، فسعينا إلى أبي بكر وعمــر وعلــي رضي الله عنهم نستشقهم، وخشينا أن نكون قد هلكنا، فلما صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام، فأثنى على الله عزَّ وجلَّ بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإن الله عزَّ وجلَّ هــو

وكان رجل من بني ثعلبة قد قتل رجلاً من الأوس والخزرج، فلما اعتنق بنو ثعلبة الإسلام، وقدموا إلى المدينة أخذ رسول الله (ﷺ) يخطب فيهم، فإذا بأحد الأنصار لم يتمالك نفسه فنهض وهو يصيح: يا رسول الله هذا هو المجرم الذي نبحث عنه، فاقتص لنا منه، فرفع رسول الله (ﷺ) يده وقال: **ألا يجني والد علة ولده.** [1]

بوسعنا أن نستنتج من هذه الوقائع كيف كانت عاطفة الثأر تسري في أوصالهم سريان الدم في الوريد، وإلى أي مدي كان اشتعالها أمراً يسيراً وهيناً.

لم تنته الحروب الأهلية، وهكذا كانت القبائل كلها ما بين قبيلة معادية وأخري حليفة، وإذا شب نزاع على أمر خاص بين رجلين من قبيلتين مختلفتين وصاح أحدهما باسم قبيلته، اندلعت حرب قبلية، فذات مرة صفع مهاجرٌ أنصارياً، فصاح الأنصاري: يا للأنصار، وهتف المهاجر هو الآخر: يا للمهاجرين، وعلم رسول الله (ﷺ) بذلك، فقال: «**ما بالُ دعوى الجَاهليَّة** »؟ [2]

حرم مكة ولم يحرمها الناس، وإنما أحلها إلى ساعة من النهار أمس، وهي اليوم حرام كما حرمها الله عزَّ وجلَّ أول مرة، وإن أعتى الناس على الله عزَّ وجلَّ ثلاثة: رجل قتل فيها، ورجل قتل غير قاتله، ورجل طلب بذحل في الجاهلية، وإني والله لأدين هذا الرجل الذي قتلتم، فودّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم».(يوسف عامر).

[1] – الدار قطني، ج٢، ص ٢٠٨.

[2] – ورد في صحيح ابن حبان: (٦٤٦٨) أخبرنا أبو يعلى، قال: حدَّثنا عمرُو بنُ محمَّد النَّاقد، قال: حدَّثنا سفيانُ، عن عمرِو بنِ دينارِ عن جابرِ بنِ عبدِ الله، قال: كَسَعَ رجلٌ مِنَ المهاجرينَ رجلًا مِنَ الأنصارِ، فقالَ الأنصاريُّ: يا للأنصارِ، وقالَ المهاجريُّ: يا للمهاجرينَ. قالَ: فَسَمِعَ النَّبيُّ ذلِكَ، فقالَ: «ما بالُ دعوى الجَاهليَّة »؟ فقالوا: يا رسول اللَّه، رجلٌ مِنَ المهاجرين كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الأنصارِ، فقالَ: «دَعُوها، فإنَّها مُنْتِنَةٌ»، فقال عبدُ اللَّه بنُ أُبيٍّ بن سلولٍ: قَدْ فعلوها، لئنْ رَجَعْنَا إلى المَدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فقالَ عمرُ: دعني يا رسولَ اللَّهِ أضربُ عُنُقَ هٰذا المنافقِ، فقالَ: «دعهُ، لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمَّداً يقتلُ أصحابَهُ». (٦٢:٢)

قال أبو حاتم: قوله: «فإنَّها مُنْتِنَةٌ» يريد أنَّه لا قصاص في هٰذا، وكذلكَ قولهم: فإنَّها ذميمةٌ وما أشبهها.(يوسف عامر).

كان الناس يعلمون أن الإسلام يستنكر هذه الرذيلة أشد الاستنكار، ولذا كان العرب يترددون في اعتناق الإسلام ما داموا لم يأخذوا بثأرهم، فكان هناك سيد يدعي عمرو بن الأقيش، وقد قدم إلى رسول الله (ﷺ) متأثراً بالإسلام، وأبدي كامل استعداده للدخول فيه، غير أن العائق الوحيد الذي كان يحول بينه وبين ذلك هو " الثأر "، فقد كان يعرف أنه إن اعتنق الإسلام فلن يُباح له القيام بهذا الواجب القبلي، وقد وصف ابن منده حال هذا الرجل فكتب يقول:

وكان له ثأر في الجاهلية وكره أن يسلم حتى يأخذه.

ومن ذلك أيضاً أنه لما قدم سيدنا عمرو بن مالك (ﷺ) إلى رسول الله (ﷺ) واعتنق الإسلام ثم عاد إلى قبيلته يدعوها إلى الدخول فيه، قال له أهلها: ما زال لنا ثأرٌ عند بنى عقيل، وحين نأخذه فسوف ندخل في الإسلام، فأغاروا وقتذاك على بني عقيل ـ التي كانت قد اعتنقت الإسلام ـ وتحرروا من هذا الواجب [1].

---

[1]- الإصابة في أحوال الصحابة، ذكر عمرو بن مالك (رضي الله عنه). وهذا نصه: ٥٩٥٤ عمرو بن مالك بن قيس بن بجيد بموحدة وجيم مصغرا بن رؤاس بضم أوله والهمزة وآخره مهملة بن ربيعة بن عامر بن صعصعة قال البخاري وابن السكن يعد في الكوفيين زاد بن السكن روى عنه طارق بن علقمة بن خالد بن عفيف بن بجيد بن رؤاس وكان حميد وبجيد شريفين بخراسان وقال بن السكن له صحبة ولأبيه صحبة وقال أبو عمر وفد عمرو بن مالك بن قيس مع أبيه فأسلما وقال تبعا لابن السكن وقد قال قوم إن الصحبة لأبيه وأخرج بن أبي عاصم في الوحدان وابن أبي خيثمة في التاريخ وابن السكن عنه جميعا عن عبدالرحمن بن مطرف قال حدثنا بن عمي وكيع بن الجراح عن حميد بن عبدالرحمن الرؤاسي عن نافع جد علقمة قال كنت في القوم فأتى عمرو بن مالك الرؤاسي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى قومه فدعاهم فأبوا أن يجيبوه حتى يدركوا بثأرهم من بني عقيل فأتوهم فأصابوا منهم رجلا فاتبعهم بنو عقيل فقاتلوهم وفيهم رجل يقال له ربيعة بن المنتفق يقول في رجز له أقسم لا أطعن إلا فارسا إذا القيام ألبسوا القلانسا فقام رجل من القوم يحرضهم فحمل المحرش بن عبدالله الرؤاسي فاطعنا طعنتين فطعنه ربيعة في عضده فاختلها فقال المحرش قال رؤاس فقال ربيعة وما رؤاس أجبل أم أناس فعطف عمرو على ربيعة ثم أسقط في يده فقال قتلت مسلما فأتى النبي صلى الله عليه

المعوقات السياسية

إن الجهل، والبربرية، والتمسك بالتقاليد، واقتفاء الآباء والأجداد، وغيرها من المعوقات لم تحل دون إصلاح وهداية العرب، بيد أن تراكم الأسباب السياسية وحدها كان كفيلاً بأن يمنع قريشاً والقبائل العربية الأخرى كافة من الخضوع والإذعان أمام عظمة الإسلام، فقد كان في مكة متنافسان متكافئان على الزعامة، هما بنو أمية، وبنو هاشم، وكان يبدو للعيان أن كفة بني أمية قد رجحت قبيل بعثة رسول الله (ﷺ)، وهذا هو ما يفسر عناد بني أمية وإصرارهم على مقاومة الدعوة الإسلامية ـ بعد أن جهر بها رسول الله (ﷺ) ـ وحملهم راية العصيان والتمرد عليها حتى آخر لحظة، فلم يذعنوا للدين الجديد إلا يوم فتح مكة، وهكذا أيضاً كانت كل العشائر الأخرى ـ التي تلي بني أمية، والتي كان لها أنصبة وفيرة في خدمة البيت الحرام (من رفادة وغيرها) ـ تري أن هذه الثورة الجديدة تنطوي على كل عوامل القضاء على نفوذهم وأرباحهم، فقد سُئل أبو جهل ذات مرة: " ماذا تقول في دين محمد؟ "، فقال أبو جهل: " ماذا أقول، تنازعنا نحن

وسلم وقد غل يديه لما أحدث فسمع صبيانا يقولون لئن أتانا مغلولة يده لأضربن ما فوق الغل فأتاه من بين يديه فقال يا رسول الله أرض عني فأعرض عنه فأتاه من خلفه فقال له مثل ذلك ثم أتاه عن يمينه وعن شماله مثل ذلك ثم أتاه من بين يديه فقال يا رسول الله أرض عني فوالله إن الرب ليترضى فيرضى قال فلان له وقال قد رضينا عنك وقال البخاري قال لي وقال البغوي حدثنا عثمان بن أبي شيبة وقال الطبراني حدثنا عبدالله بن أحمد حدثنا عثمان وأخرجه أبو نعيم من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه حدثنا وكيع عن أبيه عن شيخ يقال له طارق بن عمرو بن مالك الرؤاسي قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرض عني فأعرض عني ثلاثا فقلت يا رسول الله والله إن الرب ليترضى فيرضى فارض عني قال فرضي عني وأخرجه البزار في مسنده عن إبراهيم بن زياد الصائغ عن وكيع هكذا وقال لا يعلم روى عمرو بن مالك إلا هذا الحديث قال أبو موسى رواه غير واحد هكذا عن وكيع وخالفهم سفيان بن وكيع فرواه عن أبيه عن جده عن طارق عن عمرو بن مالك عن أبيه قلت سفيان بن وكيع ضعيف في أبيه وغيره وقد خبط في السند فزاد فيه عن جده وزاد بعده عن أبيه ورواية عبد الرحيم بن مطرف وهو من الثقات تشهد لرواية عثمان بن أبي شيبة وهو من الحفاظ.(يوسف عامر).

وبنو عبد مناف (قبيلة سيدنا محمد ﷺ) الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا؟ والله لا نؤمن به ولا نصدقه".[١] إنه أبو جهل الذي قُتل على يد الأنصار فقال بحسرة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: ليتني قتلت على يد قوم آخرين غير هؤلاء المزارعين.

لاحظ جيداً أن هذا العنصر الأموي هو الذي كان يقوم بدور بارز وفعّال في غزوة بدر، وأحد، والحمراء، والأسد، والأحزاب وغيرها من سائر الغزوات. وقد كانت القبائل الكبرى خارج قريش مثل غطفان وأسد وغيرها، فرعاً من فروع أهل مكة أو حلفاء لقريش، أما اليهود في خيبر فكانوا مستقلين ومنفصلين عن قريش من حيث الجنس والأمة، بيد أن العرب كانوا مثقلين بالديون لهؤلاء اليهود من ناحية القطاع الأكبر في تجارتهم؛ إذ كانوا يقترضون منهم الأموال، ويرهنون عندهم البضائع والأمتعة.[٢] وقد ظلت خيبر وغطفان متحالفتين لفترة طويلة من الزمان، وهكذا كانت هناك سلسلة واحدة تضم سائر العرب بدءاً من مكة ومروراً بخيبر وانتهاءً بنجد.

كانت الكعبة هي القبلة العظمى لسائر العرب، فكانوا يحجون إليها كل عام، ويحنون رؤوسهم على أعتابها، ولم يكن مجاورو الكعبة مجرد سدنة عاديين، بل كانوا يتمتعون بكل مقومات الزعامة من جاه وسلطان ومنعة، وكان نفوذهم وسلطتهم يمتد إلى بلاد العرب كافة، وهذا هو السبب فى أنه لم يتسن للإسلام أن ينعم بالسكينة على مدار الفترة التي لم تُفتح فيها مكة. ولكن مقاومة الإسلام لم تنحصر في متابعة قريش فحسب، بل كان السبب الرئيسي في ذلك هو أن الخسارة التي كانت قد تلحق بقريش من جراء الإسلام سوف تلحق مباشرة بزعماء القبائل كلها، فقد كان نظام العرب الداخلي أنهم كانوا مجموعة من القبائل المتفرقة في أرجاء البلاد، ولكل منها زعيم مطلق يحكمها ويحصّل ربع غنائمها،

---

١ - ابن هشام، ج١، ص ١٠٨، طبعة مصر، الطبعة الأولى.

٢ - تاريخ الطبري، واقعة خيبر.

الذي كان يُسمي بـــ " المرباع "، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ينتقي من هذه الغنائم ما يستحسنه من النساء أو الأشياء القيمة، وهو ما كان يُسمي بـــ " الصفي"، وهكذا كانت هذه القبائل أشبه بدويلات صغيرة منتشرة فى طول البلاد وعرضها، وتسير وفق المبادئ القبلية المتوارثة، فكان الابن يخلف أباه في زعامة القبيلة، وكانت المعاملات، والمنازعات الشخصية، وقرارات القصاص أو الدية، وكل شئون القبيلة تخضع لسلطة زعيمها، ومن ثم كان هؤلاء الزعماء يتميزون عن عامة القوم بكثير من الحقوق.

وكانت هناك فوارق طبقية بين القبائل نفسها بحيث إذا قُتل رجلٌ من إحدى القبائل ذات المنزلة الأعلى على يد أحد من أية قبيلة أخرى كان دم الأول يُقابل لشخصين من قبيلة الآخر، ولذا كانت مثل هذه القبيلة (الأعلى منزلةً) تقتل رجلين انتقاماً لمقتل رجل واحد، وكانت هذه الامتيازات وفوارق المستويات قد بلغت عندهم مبلغها، فحين خرج عتبة وشيبة من جيش قريش، ونزلا ساحة القتال في غزوة بدر ثم طلبا من يبارزهما، وخرج الأنصار لمجابهتهما، فما كان من عتبة إلا أن رفض مبارزتهم استناداً إلى أنه لا يوجد تكافؤ في المستوي بين الأنصار وقريش.

وقد أسلم جبلة بن الأيهم آخر حكام الغساسنة، وقَدِم إلى مكة في عهد سيدنا عمر (ﷺ)، وبينما كان يطوف بالكعبة ذات يوم سقط رداؤه تحت قدمي رجل ما، فلطمه جبلة لطمةً على وجهه، ورد عليه الرجل بمثلها، فذهب جبلة إلى سيدنا عمر (ﷺ) يشكو إليه ذلك، فما إن سمع سيدنا عمر (ﷺ) الواقعة حتى قال: ماذا عليه؟ لقد لقيت جزاء ما فعلت، فقال جبلة إن منزلتي توجب القتل على من يرفع يده عليّ، فقال سيدنا عمر: نعم، كان هذا عُرفاً متبعاً في الجاهلية، وقد أبطله الإسلام، فقال جبلة: إني أرجع عن هذا الدين الذي يستذل الشرفاء، قال ذلك ثم تسلل إلى الروم خفية واعتنق النصرانية هناك.

وفي الحقيقة فقد كان كل شيخ لإحدى القبائل العربية هو جبلة هذا، الذي تعرض لمثل هذا الموقف في بدء عهده بالإسلام، هذا الدين الذي كان يستأصل منذ اللحظة الأولى هذه الفوارق والامتيازات كلها، فالناس جميعاً في رحابه

سواسية كأسنان المشط لا فرق بين سادة وعبيد، أو حكامٍ ومحكومين، أو أغنياء وفقراء، ولذا فقد كان يبدو بوضوح تام لزعماء القبائل العربية كافة أن انتشار الإسلام معناه القضاء على كل امتيازاتهم ودواعي فخرهم وعظمتهم.

وكانت القوة الأخرى المعادية للإسلام في بلاد العرب هي قوة اليهود الذين كانوا منتشرين في المنطقة الممتدة من الحجاز حتى تخوم الشام، وكانوا يمتلكون حصوناً منيعة، وعلى دراية كبيرة بفنون القتال، ولديهم كمٌّ هائل من الأسلحة والعتاد، كما كانوا يملكون ثروات طائلة، فبحوزتهم الأراضي والضياع، وهكذا كانوا يحتكرون وحدهم كافة موارد العرب الاقتصادية ثم جاء الإسلام فأماط اللثام عن كل نقائصهم ومساوئهم، وأوضح علانية زيف وقارهم الديني، ومن ثم فقد تراءي لهم بوضوح أنه إذا قدر لهذه القوة الجديدة أن تتمركز وتتأصل في البلاد فسوف تستأصل شأفتهم، ولذا فقد كان إقطاعيو اليهود، وتجارهم، وأثرياؤهم، ومن يقطن الحصون منهم – في بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، ويثرب، وخيبر، وفدك، وتيماء، ووادي القري وغيرها – يتمنون من أعماق قلوبهم عرقلة هذه القوة بأي صورة كانت حتى اندلعت الحروب (الغزوات)، فساندوا المشركين في واقعة الخندق والأحزاب وغطفان ضد التوحيد. وكانت إمبراطوريتا الفرس والروم تتقاسمان السيادة على بعض قبائل شبه الجزيرة العربية وأقاليمها الحدودية، فكانت دولة الفرس تحكم العراق، واليمن، والبحرين، وكان قيصر يسيطر على حدود الحجاز مع الشام، كما كانت مختلف القبائل المجاورة للعرب تعيش تحت حماية إحدى هاتين الدولتين، اللتين كانتا تراقبان عن كثب كل ما هو يدور في هذه البلاد ذات الموقع الاستراتيجي المهم الذي يتوسط العالم، ولذلك كان من الطبيعي ألا يرتضيا بأي حال من الأحوال أن تقوم في هذه البلاد مثل هذه الحركة العظيمة ويكون لها من القوة نصيباً، ومن ثم فحين بدأتا تشعران بما للإسلام من قوة بين العرب حاولتا أن تسيطرا عليه، فكتب كسرى إلى حاكمه على اليمن: اقبض على هذا المدعي الجديد وأحضره بين يدي، وأعد قيصر العدة علناً لمهاجمة الإسلام مما ترتب

عليه إعداد المسلمين لجيش تبوك، وفي نهاية المطاف وبعد وفاة رسول الله (ﷺ) اضطر المسلمون إلى محاربة هاتين القوتين المجاورتين.

موارد الكسب

كان من الموانع الكبرى لدخول العرب في الإسلام هو أن عامة موارد رزقهم كانت تعتمد على قطع الطريق وسلب الأموال والإغارة على القوافل، وقد ذكرنا آنفاً نقلاً عن كتاب " الأمالي " لأبى على القالي أن الإغارة كانت هي مورد الكسب عند العرب، وأن مواردهم هذه كانت تنعدم تماماً عند امتناعهم عن القتل والإغارة خلال أشهر الحج الأربعة مما كان يدفعهم ــ من باب الضرورة ــ إلى تبديل هذه الأشهر حسب أهوائهم.

كانت بلاد العرب الداخلية مجرد صحراء جرداء، لا مجال فيها للزراعة أو التجارة، رغم أنه كان يعيش فيها آلاف البشر، لذا فقد اضطروا إلى الإغارة على الآخرين، ثم تأصلت هذه العادة في نفوسهم مع مرور الزمن، وبالتدريج انتشر السلب، وقطع الطريق، والسرقة في سائر أرجاء البلاد، حتى بعض كبار الشعراء كانوا لصوصاً وقطّاع طريق.

كانت أغلب العصابات الكبرى تنشأ وتتكون من أجل سلب التجار الذين كانوا يطوفون بالبلاد للمتاجرة في الغلال، وقد أرسل رسول الله ﷺ سرية إلى دومة الجندل للقضاء على مثل هذه العصابات، وعلى الرغم من أن دومة الجندل تقع على بعد خمسة عشر منزلاً من المدينة المنورة فإن هؤلاء القوم كانوا يخططون للإغارة على المدينة رغم كل هذا البعد، ونما الخبر إلى علم رسول الله (ﷺ) فذهب إليهم بنفسه توقياً لذلك، وأقام هناك عدة أيام حتى وطّد دعائم النظام في تلك النواحي.

وكان سيدنا المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) قد قتل قبل إسلامه عدة أفراد وسلب أموالهم، فلما اعتنق الإسلام وجاء إلى رسول الله (ﷺ) فروي له هذه الواقعة، وعرض عليه المال المسلوب، قال له رسول الله (ﷺ):

أمّا الإسلام فأقبلُ وأما المال فلستُ منهُ في شيء.[1]

---

[1] - وهذا نص الحديث: (٢٦٧٣) ــــ حدّثني عبدُ الله بنُ محمدٍ حدَّثنا عبدُ الـــرزّاقِ أخبرَنـــا مَعْمرٌ قال: أخبرَني الزُّهريُّ قال: أخبرَني عُروةُ بنُ الزُّبَيرِ عـــن المِـــسْوَرِ بـــنِ مَخْرَمـــةَ ومَروانَ ــ يُصدِّقُ كلُّ واحد منهما حديثَ صاحبه ــ قالا: «خَرَجَ رســـولُ اللهِ صـــلى الله عليه وسلم زمنَ الحُدَيبيةِ حتَى إذا كانوا ببعضِ الطريقِ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنَّ خالدَ بنَ الوَليدِ بالغميم في خَيلٍ لقُرَيشٍ طَليعةً، فخُذوا ذاتَ اليمين. فوَاللهِ ما شَعَرَ بهم خالدٌ حتَى إذا هم بقَتَرَةِ الجيشِ، فانطَلَقَ يَرْكُضُ نَذيراً لقُريشٍ، وسارَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، حتَى إذا كان بالثَّنيَّةِ التي يُهبَطُ عليهم منها بَرَكَت به راحلتُه، فقال الناسُ: حَلْ حَل. فألحَتْ. فقالوا خلأتِ القَصواء. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ما خَلأتِ القَصواء وما ذاك لهـــا بخُلُق. ولكن حَبَسَها حابسُ الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيدِه، لا يَسألونني خُطَّـــةً يُعظِّمـــون فيها حُرُماتِ الله إلا أعطَيتُهم إياها. ثم زجَرَها فوَثَبَتْ. قال فَعَدَلَ عنهم حتَى نَزَلَ بأقـــصى الحُدَيبيةِ على ثَمَدٍ قليلِ الماء يَتَبرَّضُهُ الناسُ تَبرُّضاً، فلم يُلَبِّثْهُ الناسُ حتَى نزَحوهُ، وشُـــكيَ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم العطشُ، فانتزَعَ سَهماً من كِنانته، ثمَّ أمرَهم أن يَجعلوهُ فيه، فوَاللهِ ما زالَ يَجيش لهم بالرِّيِّ حتَى صَدَروا عنه. فبينما هم كذَلكَ، إذ جاءَ بُدَيلُ بـــنُ وَرْقاءَ الخُزاعيُّ في نفَرٍ من قَومِه من خُزاعةَ ــ وكانوا عَيبةَ نُصحِ رسولِ اللهِ صـــلى الله عليه وسلم من أهلِ تِهامةَ ــ فقال: إني تَركتُ كعبَ بنَ لُؤَيٍّ وعامرَ بنَ لُؤَيٍّ نزَلوا أعـــدادَ مياهِ الحُدَيبيةِ، ومعَهمُ العُوذُ المَطافيلُ، وهم مُقاتِلوكَ وصادُّوكَ عن البيت. فقال رســـولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إنّا لم نَجيء لقتالِ أحد، ولكنّا جِئنا مُعتَمرينَ، وإنَّ قُرَيشاً قد نَهِكَـــتْهُم الحربُ وأضرَّتْ بهم، فإن شاؤوا مادَدْتُهم مُدَّةً ويُخَلُّوا بَيني وبينَ الناسِ، فإن أظهَـــرْ فـــإن شاؤوا أن يَدخُلوا فيما دَخَلَ فيه الناسُ فعَلوا، وإلاّ فقد جَمُّوا. وإنْ هم أبَوا فوَالّذي نفْسي بيدِهِ لأُقاتِلَنَّهم على أمري هٰذا حتَى تَنفَرِدَ سالِفَتي، ولَيُنْفِذَنَّ اللهُ أمرَه. فقال بُدَيلٌ: ســـأُبَلِّغُهم مـــا تقولُ. قال فانطَلَقَ حتَى أتىٰ قُرَيشاً قال: إنّا جِئناكم من هٰذا الرَّجُل، وسمِعناه يقولُ قَولاً، فإنْ شِئتُم أنْ نَعرِضَهُ عليكم فعَلْنا. فقال سُفَهاؤهم: لا حاجةَ لنا أن تُخْبِرونا عنهُ بشيء. وقـــال ذَوُو الرأيِ منهم: هاتِ ما سمِعتَهُ يقول. قال سمعتُهُ يقولُ كذا وكذا. فحدَّثَهُم بما قال النَّبـــيُّ صلى الله عليه وسلم. فقامَ عُروةُ بنُ مَسعودٍ فقال: أيْ قَومِ، ألستُم بالوالد؟ قالوا: بلىٰ. قال: أوَلستُ بالوَلَد؟ قالوا: بلىٰ. قال: فهل تتَّهمونَني؟ قالوا: لا. قال: ألستُم تَعلمونَ أنِّي استَنفَرْتُ أهلَ عُكاظَ، فلمّا بَلَّحوا عليَّ جِئتُكم بأهلي ووَلَدي ومَن أطاعَني؟ قالوا: بلىٰ. قال: فإنَّ هٰـــذا قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشدٍ اقبَلوها ودَعوني آتيه. قالوا: ائتِه.فأتاهُ، فجعلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم نَحواً من قَولِه لبُدَيل. فقال عُروةُ عندَ ذلكَ:

أيْ محمدُ، أرأيتَ إنِ استأصلتَ أمرَ قومِكَ، هل سمعتَ بأحَدٍ منَ العَرَبِ اجْتاحَ أهلَهُ قبلَكَ؟ وإنْ تَكُنِ الأخرىٰ، فإني واللهِ لا أرَى وُجوهاً، وإني لأرَى أشواباً منَ الناسِ خَليقاً أنْ يَفِرُّوا ويَدَعوك، فقال لهُ أبو بكرٍ: امْصصْ بِبَظْرِ اللاتِ، أنحنُ نَفِرُّ عنه ونَدَعُهُ؟ فقال: مَن ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نَفْسي بيدِه، لَوْلا يَدٌ كانتْ لكَ عندي لم أجْزِكَ بها لأجَبْتُك. قال: وجعلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فكلَّما تَكلَّم كلمةً أخَذ بلِحْيَتِه، والمغيرةُ بنُ شُعبةَ قائمٌ على رأسِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومعَهُ السَّيفُ وعليهِ المِغْفَر، فكلما أهْوَىٰ عُروةُ بيدِه إلىٰ لِحيةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ضَرَبَ يَدَهُ بنَعْلِ السيفِ وقال له: أخِّرْ يدَكَ عن لِحيةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فرفَعَ عُروةُ رأسَهُ فقال: مَن هٰذا؟ قال: المغيرةُ بنُ شُعبة. فقال: أيْ غُدَر، ألستُ أسعىٰ في غَدْرَتِكَ؟ وكان المغيرةُ صَحِبَ قوماً في الجاهليةِ فقتلَهم وأخذَ أموالَهم ثمَّ جاء فأسلم. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: أمَّا الإسلام فأقبلُ وأما المالَ فلستُ منهُ في شيء. ثمَّ إنَّ عُروةَ جَعلَ يَرْمُقُ أصحابَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعَينَيه. قال فوَاللهِ ما تَنَخَّمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم نُخامةً إلاّ وَقعَتْ في كفِّ رجُلٍ منهم فدَلَكَ بها وَجهَهُ وجِلْدَه، وإذا أمرَهُم ابتَدَرُوا أمرَه، وإذا تَوَضَّأَ كادُوا يقْتَتِلونَ على وَضُوئِه، وإذا تَكلموا خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ إليه النَّظرَ تَعظيماً لَهُ. فرجَعَ عُروةُ إلى أصحابِهِ فقال: أيْ قَومِ، واللهِ لقَد وفَدْتُ على المُلوكِ، ووَفَدتُ على قَيصَرَ وكِسْرَى والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَليكاً قطُّ يُعظِّمُهُ أصحابهُ ما يعظم أصحابُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم محمداً، واللهِ إنْ يَتَنَخَّمُ نُخامةً إلاّ وَقَعَت في كفِّ رجُلٍ منهم فدَلَكَ بها وَجهَهُ وجِلْدَه، وإذا أمرَهم ابتَدروا أمرَه، وإذا تَوَضَّأَ كادوا يقْتَتِلونَ على وَضوئِه، وإذا تكلموا خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ إليه النَّظرَ تَعظيماً له. وإنهُ قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبَلوها. فقال رجُلٌ من بني كِنانةَ: دَعوني آتيه، فقالوا: ائته. فلمَّا أشرَفَ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِهِ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: هٰذا فُلانٌ، وهوَ من قومٍ يُعَظِّمون البُدْنَ، فابْعَثوها له، فبُعِثَتْ لهُ، واستقْبَلَهُ الناسُ يُلَبُّونَ. فلما رأى ذٰلكَ قال: سُبحانَ الله، ما ينبغي لِهؤُلاءِ أن يُصَدُّوا عنِ البيتِ. فلما رَجعَ إلى أصحابِه قال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأُشعِرتْ، فما أرَى أن يُصَدُّوا عنِ البيتِ. فقامَ رجُلٌ منهم يُقالُ لهُ مِكرَزُ بنُ حَفصٍ فقال: دَعوني آتيه. فقالوا: ائتِه. فلما أشرَفَ عليهم قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: هٰذا مِكرَزٌ، وهوَ رجُلٌ فاجِر. فجعلَ يُكلِّمُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم. فبينما هوَ يُكلِّمُهُ إذ جاءَ سُهَيلُ بنُ عمرو. قال مَعْمَرٌ: فأخبرَني أيُّوبُ عن عكرمةَ أنه لما جاءَ سُهَيلُ بنُ عمرو قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: قد سَهُلَ لكم من أمرِكم. قال مَعمرٌ قال الزُّهريُّ في حديثِه: فجاءَ سُهَيلُ بنُ عمرو فقال: هاتِ اكتُبْ بيننا وبينَكم كتاباً. فدَعا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم

الكاتبَ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم» فقال سُهيلٌ: أما «الرحمٰنُ» فوَاللهِ ما أدرِي ما هي، ولَكنِ اكتُبْ «باسمِك اللّهمَّ» كما كنتَ تكتُبُ، فقال المسلمونَ: واللهِ لا نكتُبُها إلا «بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرحيم»، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: اكتُبْ «باسمِكَ اللّهمَّ». ثم قال: «هٰذا ما قاضىٰ عليهِ محمدٌ رسولُ الله» فقال سُهيلٌ واللهِ لو كنّا نَعلمُ أنكَ رسولُ اللهِ ما صَدَدْناكَ عنِ البيتِ ولا قاتَلْناك، ولكنِ اكتُبْ «محمدُ بنُ عبدِ اللهِ»، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: واللهِ إني لَرسولُ الله وإنْ كذَّبتُموني، اكتُبْ «محمدُ بنُ عبدِ الله» قال الزُّهريُّ: وذلك لقولِه: «لا يسألونني خُطَّةً يُعظِّمونَ فيها حُرُماتِ اللهِ إلاَّ أعطَيْتُهم إيّاها» فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: علىٰ أن تُخَلُّوا بينَنا وبينَ البيتِ فنَطوفَ به. فقال سُهَيلٌ: واللهِ لا تتحدَّثُ العَرَبُ أنا أُخِذْنا ضُغْطة، ولكنْ ذلكَ مِنَ العامِ المقبلِ، فكتَبَ، فقالَ سُهيلٌ: وعلىٰ أنه لا يأتيكَ منّا رجُلٌ ــ وإنْ كان على دينِكَ ــ إلا رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سُبحانَ اللهِ، كيفَ يُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جاءَ مُسلماً؟ فبينما هم كذٰلك إذ دَخلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهيلِ بنِ عمرٍو يَرسُفُ في قيودِه، وقد خرَجَ مِن أسفَلِ مكةَ حتّى رَمىٰ بنَفسِه بينَ أظهُرِ المسلمين، فقالَ سُهَيلٌ: هذا يا محمدُ أوّلُ مَن أُقاضيكَ عليهِ أن تَرُدَّهُ إلَيَّ. فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنا لم نَقضِ الكتابَ بعدُ. قال: فواللهِ إذاً لم أُصالِحْكَ على شيءٍ أبداً. قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: فأجِزْهُ لي، قال: ما أنا بمجيزِه لكَ، قال: بلى فافعَلْ، قال: ما أنا بفاعل. قال مِكْرَزٌ: بل قد أجَزْناهُ لك. قال أبو جَندلٍ: أيْ مَعشَرَ المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركينَ وقد جئتُ مُسلماً؟ ألا تَرَونَ ما قد لَقيت؟ وكان قد عُذِّبَ عَذاباً شَديداً في الله. قال: فقال عمرُ بنُ الخَطاب: فأتيتُ نبيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقلتُ: ألستَ نبيَّ اللهِ حَقّاً؟ قال: بلىٰ. قلت: ألَسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلىٰ. قلت: فلم نُعطِي الدَّنيَّةَ في دينِنا إذاً؟ قال: إني رسولُ اللهِ ولستُ أعصيه، وهوَ ناصِري. قلت: أوَليسَ كنتَ تحدِّثُنا أنّا سنأتي البيت فنَطُوفُ به؟ قال: بلىٰ، فأخبرتُكَ أنّا نأتيه العامَ؟ قال: قلتُ: لا. قال فإنَّكَ آتيهِ ومُطَوِّفٌ به. قال: فأتيت أبا بكرٍ فقلتُ: يا أبا بكرٍ، أليس هٰذا نبيَّ اللهِ حَقّاً؟ قال: بلىٰ. قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلىٰ. قلتُ: فلم نُعطي الدّنيّةَ في ديننا إذاً؟ قال: أيّها الرجُلُ، إنهُ لَرسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وليسَ يَعصي ربَّه، وهوَ ناصِرُه، فاستَمْسِكْ بغَرْزِه فوَاللهِ إنهُ على الحقّ. قلتُ: أليسَ كانَ يُحدِّثُنا أنّا سنأتي البيتَ ونَطوف بِه؟ قال: بلىٰ، أفأخبَرَكَ أنكَ تأتيهِ العامَ؟ قلت: لا. قال: فإنكَ آتيه ومُطوِّفٌ به. قال الزُّهري قال عمر: فعملتُ لذلكَ أعمالاً. قال: فلما فَرَغ مِن قضيةِ الكتابِ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحرُوا ثمَّ احلِقوا. قال: فوَاللهِ ما قامَ منهم رجُلٌ، حتى قال ذٰلكَ ثلاثَ مرّاتٍ، فلمّا لم يَقُمْ منهم أحدٌ دَخلَ على أُمِّ سلَمةَ فذَكرَ لها

والمسألة الجديرة بالملاحظة والتوجيه في هذا المقام هي أن الوارد في الأحاديث الشريفة يخبرنا رسول الله (ﷺ) كان يأخذها على الناس ــ في أغلب الأحيان ــ عند مبايعتهم على الإسلام ألا يسرقوا، فقد كان السبب في ذلك يرجع

ما لقيَ منَ الناسِ، فقالت أُمُّ سلمةَ: يا نبيَّ اللهِ أتُحِبُّ ذلك؟ اخرُجْ، ثمَّ لا تُكلِّمْ أحداً منهم كلمةً حتى تنْحَرَ بُدْنَك، وتَدْعو حالِقَكَ فيَحْلِقَكَ. فخرجَ فلم يُكلِّمْ أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحرَ بُدْنَهُ، ودَعا حالِقَهُ فحلقَه. فلما رأوا ذلكَ قاموا فنَحروا، وجَعلَ بعضُهم يَحلِقُ بعضاً، حتى كادَ بعضُهم يَقتُلُ بعضاً غَمّاً. ثمَّ جاءَهُ نِسْوةٌ مُؤمناتٌ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ: {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ــ حتَّى بَلَغَ ــ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ} (الممتحنة: ١٠) فطَلَّقَ عمرُ يَومَئذٍ امرأتَين كانتا لهُ في الشِّرك، فتزَوَّجَ إحداهما مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ والأخرىٰ صَفوانُ بنُ أُميةَ. ثمَّ رجَعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينةِ، فجاءهُ أبو بَصيرٍ رجُلٌ مِن قُرَيشٍ وهوَ مُسلم، فأرسَلوا في طَلَبِهِ رجُلَين فقالوا: العَهدَ الذي جعلتَ لنا، فدفعَهُ إلى الرَّجُلَين، فخرجا بهِ حتَّى بلغا ذا الحُلَيفةِ، فنزلوا يأكلونَ من تمرٍ لهم، فقال أبو بصيرٍ لأحدِ الرَّجلَين: واللهِ إني لأرَى سيفَكَ هٰذا يا فُلانُ جيِّداً، فاستلَّهُ الآخَرُ فقال: أجَلْ واللهِ إنهُ لجَيِّدٌ، لقد جَرَّبتُ بهِ ثمَّ جَرَّبتُ. فقال أبو بَصيرٍ: أرِني أنظُرْ إليهِ، فأمكَنَهُ منه، فضَربه حتى بَرَد، وفرَّ الآخَرُ حتى أتىٰ المدينةَ، فدَخَلَ المسجدَ يَعْدو، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ رآهُ: لقد رأى هٰذا ذُعْراً، فلما انتهىٰ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: قُتِلَ واللهِ صاحِبي وإني لمقتول. فجاءَ أبو بَصيرٍ فقال: يا نبيَّ اللهِ، قد واللهِ أوفىٰ اللهُ ذِمَّتَك قد رَدَدْتَني إليهم، ثمَّ أنجاني اللهُ منهم. قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَيلُ امِّهِ مِسعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد، فلما سمِعَ ذلكَ عَرَفَ أنهُ سيَرُدُّهُ إليهم؛ فخرَجَ حتى أتى سِيفَ البحرِ. قال: ويَنفَلِتُ منهم أبو جَندَلِ بنُ سُهيلٍ فلَحِقَ بأبي بَصيرٍ، فجعلَ لا يَخرجُ من قُرَيشٍ رجُلٌ قد أسلَم إلا لَحِقَ بأبي بصيرٍ، حتى اجتمعَتْ منهم عِصابةٌ، فوَاللهِ ما يَسمعونَ بعِيرٍ خرَجَتْ لقُرَيشٍ إلى الشَّأمِ إلا اعترَضوا لها. فقتلوهم وأخذوا أموالَهم. فأرسلَتْ قريشٌ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم تُناشِدُهُ اللهَ والرَّحِمَ لما أرسلَ فمن أتاهُ فهوَ آمِنٌ فأرسلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إليهم، فأنزلَ الله تعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ــ حتَّى بلغ ــ الحميَّةَ حَميَّةَ الجَاهِلِيَّةِ} (الفتح: ٢٤) وكانت حميَّتَهم أنهم لم يُقِرُّوا أنهُ نبيُّ اللهِ، ولم يُقِرُّوا ببسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم، وحالوا بينهم وبينَ البيت».

قال أبو عبدِ اللهِ: معرَّةُ العُرِّ: الجرَبُ. تَزَيَّلوا: انمازوا. وحميتُ القومَ: منَعتُهم حمايةً. وأحمَيْتُ الحِمىٰ: جعلتُه حِمى لا يُدْخَل. وأحميتُ الرَّجُلَ إذا أغضبتَه إحْماءً.(يوسف عامر).

إلى تفشي وانتشار هذه الجرائم آنذاك، حيث إننا إذا أخذنا اليوم مثل هذا الإقرار على شرفاء القوم عند أخذ البيعة منهم، فسوف يندهش الناس؛ إذ ما علاقة هذا بالبيعة ؟

لقد كان اعتناق الإسلام مقترناً بالتوبة من كل هذه الجرائم، ولذا فقد كان يبدو للعرب عند دخولهم في الإسلام أنهم قد صاروا عاجزين عن ممارسة كل أساليب الكسب المعتادة عندهم؛ فلا يستطيعون الإغارة على القوافل، أو سلب مال أحد، فماذا يتبقى لهم بعد ذلك إذن ؟!.

لم يكن القرشيّون أنفسهم قطاع طرق أو أهل إغارة، وإنما كانوا يعيشون حياة المدن المتحضرة، ومع ذلك أيضاً فقد كان من أسباب امتناعهم عن الدخول في الإسلام، أنه قد يؤثر سلباً على موارد معيشتهم التي كانت تنحصر في العلاقات التجارية التي أقاموها بصورة دورية ومنتظمة مع القبائل والبلاد الأخرى التي كانت كلها خصوماً معادية للإسلام، وبناءً على ذلك فإن القرشيّين كانوا يخشون الانضمام إلى دائرة الإسلام؛ لأنه بذلك سوف تنقطع علاقاتهم التجارية كلها دفعةً واحدة، فقد أورد العلامة ابن تيميه في كتابه " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " (ص١٣٨، ج٤) عن رواية الإمام الشافعي ما يلي:

قال الشافعي: كانت قريش تنتاب الشام انتياباً كثيراً، وكان كثير من معائشها منه، وتأتي العراق، فيقال لما دخلت في الإسلام ذكرت للنبي صلعم خوفها من انقطاع معائشها بالتجارة من الشام والعراق إذا فارقت الكفر، ودخلت في الإسلام، وخلاف ملك الشام والعراق لأهل الإسلام فقال النبي صلي الله عليه وسلم: إذا هلك كسري بعده، فلم يبق بأرض العراق كسرى يثبت له أمر بعده، وقال: إذا هلك قيصر، فأجابهم على ما قالوا.

رفع الشك

من الضروري أن ننوه هنا إلى خطأٍ شائع في الدوائر الأوربية بصفة عامة، حيث يري الغربيون أن السبب الرئيسي لانتشار الإسلام هو أنه كان يتضمن كافة مقومات إشباع أهواء العرب وشهواتهم، فلما كان العرب يهوون

القتال والسلب، شرّعهما الإسلام بعد تحويلهما إلى صورتي الجهاد والغنيمة، وكان العرب شهوانيين لأبعد الحدود، فأجاز الإسلام أربع زوجات وعدداً لا حصر له من الجواري، وكان العرب لا يعرفون شيئاً عن حياة الزهد والتقشف، فاستنكر الإسلام الرهبانية وازدراها، فأي شيء إذن كان من شأنه أن يحول بين العرب وبين الإسلام ؟!.

لكن هذا الرأي يفتقر تماماً إلى الصحة، وسنورد في أجزاء أخرى من هذا الكتاب مباحث كاملة عن الجهاد وتعدد الزوجات والسراري، ويكفينا في هذا الصدد أن نبين أن ما كان يبيحه الإسلام من الجهاد وتعدد الزوجات لا يمت بصلة إلى الانفلات والإباحية القديمة، فلم يُشرع الجهاد ضد أحد إلا المشركين فقط، فلو أن قبيلةً ما دخلت في الإسلام ما كان أحد ليستطيع أن يُشهر في وجهها السلاح أو يتعرض لأموالها وأمتعتها، ولكن إذا نظرنا إلى عادة العرب القديمة لوجدنا أن وحدة الدين لم تكن تمثل عائقاً من أي نوع، فقد كانت القبائل كلها متحدة في عبادة الأوثان، غير أنها كانت تسلب بعضها بعضا. كما كان للجهاد الكثير من الضوابط الأخرى التي لم يكن لها وجود من قبل، فلم تكن تشارك في الجهاد إلا القبائل المجاورة فقط، مما يعني أن القبائل النائية لم تكن تستطيع أن تجني أية فائدة من ورائه، كما كان لا يجوز الدخول بالجواري التي تُسبي في الجهاد إلا بعد أن يمضي عليهن شهر كامل أو يضعن مواليدهن إذا كنّ حوامل، ولكن العرب كانوا يُجامعون سبايا النساء قبل الإسلام في ساحة القتال بمجرد أن تلوح لهم معالم النصر، ويفتخرون بذلك، كما أنه لم يكن في النكاح قيد على عدد الزوجات، فكانوا يجمعون بين ثماني أو عشر زوجات في وقت واحد، أما الإسلام فقد قصر التعدد على أربع زوجات، ووضع لذلك شرطاً صارماً وهو أن يلتزم الزوج بالعدل والمساواة بينهن جميعاً، ولذلك كله فإن القول بأن الإسلام كان يكرس لرغبات العرب، لهو قول خاطئ بكل المقاييس، بل على العكس من ذلك فإن كل شئ من موروثات العرب كالجهل، والعادات والتقاليد، والشهوانية كان يمثل حاجزاً مانعاً لهم عن الدخول في الإسلام.

إن الشيء الذى يسيطر بمزيد من القوة والإحكام على أية أمة من الأمم إنما هو معتقداتها وعاداتها وتقاليدها العتيقة، فبالرغم من كل التطورات الهائلة التي وصلت إليها أوربا اليوم في العلوم والفنون وحرية الفكر، فإن عاداتها القديمة على سذاجتها وغرابتها، ما زالت قائمة حتى الآن، ذلك أن أوربا لا تستشعر أساساً ما تنطوي عليه هذه العادات من مساوئ بسبب اعتيادها لها، أما إذا استشعرتها فإن حرية الفكر وسائر العلوم والفنون تظل عاجزة حيال سيادة العادة وسلطانها.

ولقد كان الإسلام عدواً لدوداً لكل ما كان عند العرب من تلك العادات والتقاليد القبلية التي كانت متغلغلةً في نفوسهم وجزءاً لا يتجزأ من كيانهم، فلما كان الثأر أى الانتقام للقتل هو الصورة الواضحة لمشاعر العرب وانفعالاتهم، استأصله الإسلام من جذوره، وكان التفاخر بالأنساب هو روح حياتهم القبلية، فأبطله الإسلام، وصار أبو سفيان زعيم العرب يجالس بلالا (ﷺ) (الذى كان عبداً حبشياً)، وكان من العار على قريش أن تُشهر سيوفها لمبارزة الأنصار، فلما جاء الإسلام أباح للحرائر من نساء قريش أن تأوين إلى بيوت عبيدها (زيد وسالم وغيرهما)، كما أن الإسلام قد أخمد الحماس الذى كان يشتعل في عكاظ وغيره من الأسواق التي كان العرب يجتمعون فيها طوال العام ليتناشدوا قصائد فخرهم.

وبينما أباد الإسلام كل مفاخر العرب، فقد خلا فى حد ذاته من كافة وسائل الترويح والتسرية عن الأنفس، فكان اعتناق الإسلام مقترناً بحلقٍ يُوضع فى الأذن وهو الصلوات الخمس، التي كانت عسيرة وشاقة للغاية على ذوى الطبائع المتحررة، قال تعالى:﴿. .. **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِين**﴾ **(البقرة: ٤٥)**.

كما لم يكن الصوم ــ أى الإمساك عن الطعام والشراب ثلاثين يوماً متتالية ــ أمراً هيناً، كما بلغ من وطأة ضريبة الزكاة أن اندلعت ثورة عارمة فى عهد سيدنا أبى بكر (ﷺ) من أجل الامتناع عن دفعها، فكان الحج فقط هو الفرض الوحيد الذى بدا فى ظاهره مشتملاً على عوامل البهجة، غير أن هذا الحج لم يكن هو حج الجاهلية، فقد حُرِّم فيه طواف العرى، وأُخرجت من

الحرم كل الأصنام التى كانت هى أبرز عوامل الجذب والتشويق لحجاج الجاهلية، كما أُبطلت العادة التى كانت متبعة فى إنشاد الرجز عن الوقائع القبلية بمنى، كان هذا هو الحال بالنسبة للفرائض والأوامر، أما ما اقترن بها من نواهٍ شاملة فقد حولت حياتهم الجاهلية إلى سجن حقيقي، فالزنا حرام، والخمر حرام، والميسر حرام، والأطلس والحرير حرام، والقتل حرام، والتصوير حرام، فماذا يتبقى إذن للتسلية والاستمتاع بالحياة ؟

لاحظ جيداً أن سائر الأديان الأخرى قد تضمنت بعض وسائل التسلية والاستمتاع فى عباداتها، فهناك إنشاد الترانيم فى صلاة المسيحيين، والزمزمة عند البارسيين، وينشد الهندوس أيضاً الترانيم " بهجن " أثناء عبادتهم وهم أمام صنم جذاب، أما الإسلام فيخلو فى ظاهره من أى عنصر للجذب والتشويق.

وبناءً على الوقائع المذكورة أعلاه فإن ادعاء الأوربيين أن الإسلام انتشر لأنه كان يكرس لشهوات النفس ويوفر لها أسبابها لهو ادعاء باطل تماماً ولا أساس له من الصحة.

ثم ماذا كان؟ هذا ما سوف نجيب عنه فى الصفحات التالية.

الدعوة النبوية

"مبادئها وأسباب نجاحها"

تحطمت الحواجز والصعاب والمشكلات والعوائق والموانع السابقة شيئًا فشيئًا الواحدة تلو الأخرى، فلقد انتشر الإسلام لدرجة أنه لم يكن بين العرب عندما توفى النبي (ﷺ) وثني واحد، لذا فإن أول سؤال يطرح نفسه ما الذي يدفع المعارضين إلى القول بأن السيف كان هو السبب في هذا الانتشار؟ إلا أن (كارلائل) [١]. يقول «بأي قوة سيف أتى هذا السيف في يد المسلمين العزل؟ الحقيقة هي أن دعوة الإسلام هي كانت نفسها هذا السيف. ومن ثم فمن المناسب أن نقدم أولا توضيحاً لقوة الإسلام هذه.

فريضة التبليغ والدعوة

إن المعنى اللغوي للتبليغ هو تبليغ الرسالة، ومعناه في الاصطلاح هو الشيء الذي نعتقد فيه خيرًا ونقوم بإيصال خيره وحسنه للناس والأمم والبلدان الأخرى ندعوهم إلى قبوله، وورد في القرآن عدة ألفاظ أخرى في معنى التبليغ منها لفظ (إنذار)، و(دعوة)، و(تذكير). كان في العالم نوعان من الأديان حين بعث النبي (ﷺ)، اثنتان منها ديانات تبشيرية وهما المسيحية والبوذية، أما أكثر الديانات الباقية فلم تكن تبشيرية مثل اليهودية، والمجوسية، والهندوسية، وأما اللتان كانتا تؤمنان بالتبشير فقد وردت شكوك وشبهات حول هذا الأمر بالنسبة لهما، ومنها هل كان التبليغ في أصل دينهما أم هو من عمل التابعين من بعد؟ لأنه لا توجد هناك أمثلة عملية في صحف هاتين الديانتين عن حياة مؤسسيها ولا عن تعاليمها الواضحة لعموم الدعوة، فالإسلام هو أول دين من بين الأديان اهتم بتبليغ الدعوة اهتماماً كبيراً، وقرر لها أحكامًا واضحة في كتابه، وقدم حاملها والداعي لها، عليه السلام، أمثلتها العملية. كان هناك سببان جوهريان جعلا تلك الأديان لا تقر بالتبليغ في شريعتها، وهما أن شرف استحقاق قبول هذا الحق عندهم يكون

---

[١] Heroes and Heroworsip.

منذ الميلاد، وليس بالاجتهاد والسعي، والسبب الثاني هو أن الحق عندهم منـزه وطاهر لدرجة أنه خاص بقومهم ونسلهم الطاهر، وأنه ستوجه صدمة للدين نفسه عند اعتناق سائل الأمم الأخرى النجسة القذرة الدنيئة لدينهم المقدس. لهذا السبب قال السيد المسيح عليه السلام ذات مرة عندما أرادت امرأة كنعانية (متى ١٥)[1] أو يونانية (مرقس ٧)[2] أن تطلب البركة منه فقال «لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥- ٢٤)[3] ثم قال « فأجاب وقال ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب».(٢٦)[4] ثم قال: «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»

---

١ - وهذا نص الفقرة ٢٢ من الإصحاح ١٥، إنجيل متى:"وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داود. ابنتي مجنونة جدًا"(يوسف عامر).

٢ وهذا نص الفقرة ٢٦ من الإصحاح ٧، إنجيل مرقس:" وكانت المرأة أممية وفي جنسها فينيقية سورية. فسألته أن يُخرج الشيطان من ابنتها"(يوسف عامر).

٣ - وهذا نص الفقرة:" «فأجاب وقال لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»(يوسف عامر).

٤ - وهذا نص الفقرة:"فأجاب وقال ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب"(يوسف عامر).

(إنجيل متى، الإصحاح ١٠، الفقرة٦)[١] ثم قال: «لا تعطوا القدس للكــلاب. ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير»(إنجيل متى، الإصحاح ٧، الفقرة ٦)[٢].

لقد أخفى الهندوس دينهم عن سائر الأمم، وكان هذا هو السبب أيضًا في أنهم بلغوه لخاصتهم الطاهرين، لم يبلغوه إلى الطبقات الدنيا، وكان اليهود يعتقدون في أن غير المختون ليس أهلاً لهذه النعمة.

أهمية التبليغ والدعوة

لقد أرسى النبي (ﷺ) مستوى واحدا للمساواة لجميع أمــم الــدنيا وأقــر استحقاق الجميع على السواء لرسالة الله؛ لهذا لم يحصر دعوتــه بــين العــرب والعجم وقريش وغيرهم والحجاز واليمن والهند والروم، وإنما أقر تبليغ الــدعوة الإلهية إلى أمم ولغات وأرجاء الدنيا كلها، فكان أول حكم في بداية الــوحي هــو إنذار الجهلاء وتنبيه الغافلين. يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ ﴾(المدثر:١، ٢)

﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (المائــدة:٦٧) ﴿ فَــادْعُ وَاسْــتَقِمْ كَمَــا أُمِــرْتَ﴾ (الشورى:١٥)

« فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى » (الأعلى:٩)

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات:٥٥)

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾(ق:٤٥)

---

[١] – وهذا نص الفقرة: «هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قــائلا.إلــى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا* بل اذهبوا بالحرى إلى خــراف بيــت إســرائيل الــضالة»(إنجيــل متــى، الإصــحاح ١٠، الفقرتان٥،٦)(يوسف عامر).

[٢] – وهذا نص الفقرة كاملا: «لا تعطوا القدس للكلاب. ولا تطرحوا درركم قــدام الخنازير. لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم»(إنجيل متى، الإصــحاح ٧، الفقرة ٦)(يوسف عامر).

وهناك عشررت الآيات الأخرى تثبت هذا الفرض. قال النبي (ﷺ) لعلي ﷺ: «فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1].

أقر الإسلام بضرورة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق على كل أتباعه، وأخبر المسلمين بأن عليهم الاجتهاد في إخراج الآخرين معهم من الظلام.

ويأمر الله الرسول ﷺ بألا يهتم بأي نوع من أنواع المخاطر، وأن عليه تبليغ الرسالة الإلهية إلى الناس، وإن لم يفعل هذا يكون بذلك لم يؤد فرض رسالته.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ... ﴾(المائدة:٦٧)

---

[1] صحيح مسلم باب خيبر. وهذا نص الحديث: (٦١٧٦) ــــ حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيد. حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ يَعْنِي ابْنَ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلٍ. ح وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَاللَّفْظُ هَـٰذَا. حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ عَنْ أَبِي حَازِمٍ. أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ هٰذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ. يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا. قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ. كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقَالُوا: هُوَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ فِي عَيْنَيْهِ. وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ. حَتَّىٰ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ. فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ. حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلاَمِ. وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ. فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».(يوسف عامر).

سعة فريضة التبليغ والدعوة

إن الرسالة الإلهية هي أحد عيون الحق الجارية التي تسعى تدريجيا إلـــى أرضها القريبة منها ثم إلى التي تليها فالتي تليها حتى تصل إلى أطراف الأرض، ولقد اتبع النبي (ﷺ) هذا التدرج في تبليغ الدعوة، فأُمر قبل كل شيء بدعوة أهل بيته وعشيرته.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤)

ثم اتسعت الدائرة بعد ذلك لتصل إلى مكة وما حولها من قرى

﴿لِّتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا. ..﴾(الشورى:٧)

ثم تتسع دائرة تبليغ الدعوة، وتشمل كل حي وكل ذي روح. فيقـول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياً...﴾(يس:٦٩-٧٠)

ثم تخاطب هذه الدعوة الجميع حيث يصل نداؤها. يقول الله تعالى:

﴿...لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ. ..﴾(الأنعام:١٩)

ثم تسع البشر جميعا. يقول الله تعالى:

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ...﴾(إبراهيم:٥٢)

قال الله تعالى للنبي (ﷺ)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا. ..﴾(سبأ:٢٨)

أمر (ﷺ) بأن يدعو الناس جميعا ويقول:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً...﴾ (الأعراف:١٥٨)

الأكثر من هذا هو أن دائرة دعوته (ﷺ) تشمل جميع الكائنات، قال تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾(الفرقان:١،٢)

وجدير بالذكر أنه قد بُشر بسعة هذه الدعوة والتبليغ والنجاح فيها حـين طرأ على قلوب المسلمين نوع من أنواع اليأس. يقول الله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة ص:٨٧)

فابحثوا ونقبوا عن نماذج وأمثلة عملية لدى الأنبياء ومؤسـسي الأديـان عندها ستتضح الحقيقة أكثر وهي الإسلام فحسب (دين تبليغي) أما الـدين الـذي

يُعتقد في تبليغه فهو في الحقيقة ليس دينا تبليغيا، فالبوذية لم تأمر ولم تدع أحدا للنجاة عن طريق الإيمان بها سوى الهندوس. وعيسى عليه السلام لم يخاطب ولم يعظ أيا من الأمم الأخرى سوى بني إسرائيل، ولم يتخذ أحدًا من الأمم الأخرى تلميذاً، ولم يقم في حياته بتبليغ وعظه إلى الأمم الأخرى، مع أنه كانت توجد هناك مجموعات كبيرة من الرومان واليونان في فلسطين.

ظل النبي (ﷺ) في مكة وقام بإنذار أهالي مكة وما حولها، فلقد كان يذهب إلى كل قبيلة من العرب على حده يبلغها رسالة الحق حتى وصل صوته (ﷺ) في هذا الوقت إلى اليمن والحبشة، وأقبلت الأقوام عليه لتبحث عن الحقيقة إلى أن أتى المدينة، ويظل القرشيون يبنون طريقا مسدودا أمام وصول الإسلام إلى القبائل الأخرى، ثم يُرسل الدعاة والمبلغين ويصل الصوت إلى القبائل. وفي النهاية يُرفع السيف ضد قريش فللإسلام أن يجد حرية الأمن للتبليغ. وبعد ست سنوات من الحرب والجدل سلمت قريش بطلب الإسلام في الحديبية ومنحته حرية التبليغ، وقد أقر القرآن الكريم هذا الفتح الروحاني للإسلام «الفتح المبين»[١] ونزلت: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**﴾ (الفتح:١)

بعدها وصل مبلغ ورسول وواعظ الإسلام إلى العرب وغير العرب، وكُتبت خطابات دعوة الإسلام إلى أمراء وسلاطين الدنيا، واعتنق الإسلام علاوة على العرب، الراغبون من الروم والحبشة وإيران وديلم وارتووا من نهر الحق، فجميع مشركي العرب واليهود والنصارى والمجوس استناروا بنوره (ﷺ) في عصره.

غير أن هناك شيئا أكثر أهمية من فرضية التبليغ وأهميتها وهو أصول التبليغ.

أصول التبليغ

وهو أمر غاية في الدقة إذ كيف يُرغب الناس في قبول دعوة الحق، ولأول مرة في الدنيا يتم هذا عن طريق لسان ترجمان وحي النبي (ﷺ)، فالأديان

---

[١] صحيح مسلم باب صلح الحديبية.

التي تدّعي التبليغ، لم تستطع أن تقول أن صحفها قد وضحّت لها أهم أصول التبليغ لكن القرآن الكريم أخبر أتباعه باختصار شديد لكن مع توضيح واف، كيف تصل الرسالة الإلهية إلى الناس وكيف تقدم لهم دعوة قبول الحق

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(النحل:١٢٥)

لقد عُلِّمَ المسلمون ثلاثة أصول للتبليغ والدعوة وهي: الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ولقد أوضح المتكلمون المسلمين أن الأصول الثلاثة للتبليغ والدعوة هي التي يُعمل فيها الاستدلال المنطقي على الإطلاق، أي أن إحداها تقيم الأدلة على ثبوت الدعوى عن طريق تلك البراهين التي تحوي مقدمات يقينية، والثانية إثبات المقصود عن طريق فن الخطابة الذي يحوي أقوالاً مرغوبة مؤثرة، والثالثة الاستدلال عن طريق فن المجادلة الذي يحوي أقوالاً هي موضع احترام لدى الجميع ومقدمات مسلمة للفريقين. ولقد عبّر القرآن الكريم عن الطريقة الأولى بالحكمة وعن الثانية بالموعظة وعن الثالثة بالجدال، وهي طرق الاستدلال الثلاث التي بها يثبت المرء للآخر دعواه.

على أي حال فذلك الأمر أمر فلسفي إذ إن الحقيقة هي أنه عندما نعرض أمرًا أمام شخص ما وندعوه لقبول الدعوة، فعلينا أن نستخدم ثلاث طرق: إما أن نعرض بعض الأدلة الراسخة في تأييد هذا الأمر وإثباته و ننصحه نصيحة مخلصة، أو نعرّفه حسن وسوءه وعاقبته بأسلوب مؤثر، أو نفعل هذا بأن نفند أدلته بطريقة مناسبة ونوضح خطأه فاسم الطريقة الأولى الحكمة والثانية الموعظة الحسنة والثالثة الجدال بالتي هي أحسن، ولقد أخبر الإسلام عن هذه الطرق الثلاث للدعوة والتبليغ.

القول اللين

ويكون بالاستدلال الحكيم أو بالوعظ والنصيحة أو الجدال والمناظرة ومن الضروري أن يتحدث الداعي بلين ونصح، فطريق التشدد والتعنت يولد مشاعر الكره والعداء في قلب الآخر، ولو أن الأمر طيب وحق فإن هذا النوع من المشاعر يسلب منه استعداده للقبول، ويتولد عن خطئه العناد والتمرد عند السامعين الذي بسببه يبطل أثر فائدة ونصيحة الدعوة؛ لهذا أكد القرآن الكريم على الرسل أن يتحدثوا بلين مع أعدائهم المعارضين مثلما أمر هارون بعرض الرسالة الإلهية أمام فرعون المتمرد ودعوته للهداية ومعها هذاالتوجيه.

﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾(طه:٤٤،٤٣)

لا يمكن أن يكون هناك مثال أفضل من هذا للتحمل والرفق واللين في التبليغ والدعوة، ولا يمكن أن يكون هناك من هو أفضل من الرسل الدعاة الواعظين، ولا يمكن أن يكون هناك مذنب يزيد عن فرعون، ثم عندما يكون تعليم ونصح ووعظ الرسل بهذا الرفق واللين أمام مثل هذا المذنب، فإنه يجب على الدعاة والمبلغين والوعاظ أن يقوموا بواجبهم نحو المعارضين والمذنبين والمتمردين برفق ولين.

الإعراض والقول البليغ

كان هذا هو الحكم عندما ارتكب اثنا عشر منافقًا أثم معصية الرسول (ﷺ): ﴿... **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً** ﴾(النساء:٦٣)

إن في هذا التعليم ثلاثة إرشادات: أولها الصفح عن المعارضة الوقحة متدنية الثقافة والحادة، وتحملها عند الدعوة والتبليغ، ثانيها تقديم النصح لها ووجوب إفهامها، وثالثها وجوب اختيار الأسلوب المؤثر لهذا الحوار الذي يتغلغل في القلب.

التيسير والتبشير

عندما عيّن النبي (ﷺ) معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري لتبليغ دعوة الإسلام إلى اليمن عملاً بتلك الإرشادات الربانية، نصحهم (ﷺ) قائلا لهم وقت

الرحيل يَسِّرا ولا تُعَسِّرا. وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا.[1] هذه هي الأصول التبليغية التي هي روح نجاح الداعي والمبلغ، ولقد قدم النبي (ﷺ) الدين الإلهي طبقًا لهذه الأصول للصحابة وقدمها الصحابة لعامة المسلمين ونجحوا. إن عرض يسر وسهولة الدين وعدم جعله جامدا وصلداً وصعباً هو الطريق الرئيس لقبوله، كما أنها تجعل القلوب مسرورة مليئة بالأمل بنداءات لطف الله تعالى وشفقته ورحمته وكرمه وعطفه ومحبته المطمئنة، وأكثر من هذا إن ذكر جلال الله وهيبته وجروته في كل الأمور تصيب القلوب باليأس والفزع.

التدرج

وهو أحد أصول التبليغ، وقد دعا النبي (ﷺ) إلى هذا التعليم وذلك بأن لا يوضع عبء أحكام الشريعة كلها دفعة واحدة فوق كاهل أي أمة جديدة أثناء الدعوة، وإنما يعرض أمامها شيئًا فشيئًا، إذ يجب أولا عرض التوحيد والرسالة ومن بعدها مراعاة العبادات الأهم فالأهم ثم أهم الأصول، فالصلاة أهم ما في

---

[1] وهذا نص الحديث: (٤٢٣٨) ـــ حدَّثنا موسى حدَّثنا أبو عَوانَةَ حدَّثنا عبد الملك عن أبي بُردَةَ قال: «بَعَثَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومُعاذَ بن جَبَل إلى اليمن، قال: وبعث كلَّ واحد منهما على مِخْلاف، قال: واليمنُ مِخلافانِ ثم قال: يَسِّرا ولا تُعَسِّرا. وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا. فانطلَق كلُّ واحد منهما إلى عمله، وكان كلُّ واحدٍ منهما إذا سارَ في أرضِهِ كان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً فسلَّمَ عليه. فسار مُعاذٌ في أرضِهِ قريباً من صاحبه أبي موسى، فجاءَ يَسيرُ على بغلتِهِ حتى انتهى إليه. وإذا هوَ جالس وقدِ اجتمعَ إليه الناسُ، وإذا رجُلٌ عندَهُ قد جُمِعَتْ يداهُ إلى عنقه، فقال له مُعاذ: يا عَبدَ الله بن قيس أيّمَ هذا؟ قال: هذا رجلٌ كفر بعدَ إسلامه. قال: لا أنزِلُ حتى يقتَلَ. قال: إنما جيءَ به لذلك؛ فانزِلْ. قال: ما أنزلُ حتى يُقتلَ. فأمَرَ به فقتل، ثم نزلَ فقال: يا عبدَ الله، كيف تقرَأُ القرآن؟ قال: أتفوَّقُهُ تفوُّقاً. قال: فكيف تقرأ أنتَ يا مُعاذ؟ قال: أنامُ أوّلَ الليل، فأقومُ وقد قضَيتُ جُزئي منَ النوم، فأقرأُ ما كتبَ الله لي. فأحتسبُ نومتي، كما أحتَسِبُ قَومتي».(يوسف عامر).

العبادات ثم الزكاة ثم الفرائض الأخرى، قال النبي (ﷺ) لمعاذ بن جبل ﷺ أثناء رحيله إلى اليمن« إنكَ ستأتي قوماً أهلَ كتابٍ، فإذا جئتهم فادعُهم إلى أن يَشهدوا أنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبِرْهم أنَّ اللّهَ قد فَرَضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كل يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلكَ فأخبرْهم أنَّ اللّهَ قد فَرَضَ عليهم صدقةً تُؤْخَذُ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لكَ بذلكَ فإيَّاكَ وكَرائمَ أموالهم. واتَّقِ دَعوةَ المظلومِ، فإنه ليس بينَهُ وبينَ اللّهِ حِجابٌ» [1].

تأليف القلوب

لقد قدم الإسلام طريقة أخرى في صدد التبليغ والدعوة والتي عُبر عنها باسم تأليف القلب – ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ **(التوبة: ٦٠)** ومعناه اللفظي «التقاء القلوب» والمقصود منه مواساة الشخص الذي يميل للإسلام ونصرته وإعانته ومساعدته ومحبته، لأن الإنسان يكون ممتناً للمشاعر الطيبة وهذا الامتنان يبعد أفكار التمرد والعناد ويولد قدرة قبول الحق. لقد صيّر النبي (ﷺ) كثيراً من الناس ممتثلين للإسلام عن طريق إعجازه هذا؛ لذلك تأثر بعض وجهاء مكة بهذه العاطفة واعتنقوا الإسلام – لقد قسم النبي (ﷺ) كل أموال غنيمة حنين بينهم،

---

[1] صحيح البخاري، بعث معاذ إلى اليمن، المجلد الثاني، صـ ٦٢٢. وهذا نص الحديث: (١٤٧٨) حدَّثنا محمدٌ أخبرنَا عبدُ اللّهِ زكرياءُ بنُ إسحاقَ عن يحيى بنِ عبدِ اللّهِ بنِ صَيفيّ عن أبي مَعْبدٍ مَولى ابنِ عبّاسٍ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللّهُ عنهما قال «قال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم لمعاذ بنِ جَبَلٍ حينَ بَعثَهُ الى اليمنِ: إنكَ ستأتي قوماً أهلَ كتابٍ، فإذا جئتَهم فادعُهم إلى أن يَشهدوا أنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبِرْهم أنَّ اللّهَ قد فَرَضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كل يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لكَ بذلكَ فأخبِرْهم أنَّ اللّهَ قد فَرَضَ عليهم صدقةً تُؤْخَذُ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لكَ بذلكَ فإيَّاكَ وكَرائمَ أموالهم. واتَّقِ دَعوةَ المظلومِ، فإنه ليس بينَهُ وبينَ اللّهِ حِجابٌ».(يوسف عامر).

وكانت النتيجة أنهم لم يتمكنوا من رفع رؤوسهم ضد الحق، فصفوان الذي كان من أشد معارضي الإسلام وأكثر الناس بغضا للنبي (ﷺ) يقول: وَاللّه لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّهِ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّىٰ إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ (١). ذات يوم جاء بدوي وقال أجعلني أرعى قطعان الماعز تلك التي بين كلا الجبلين، فأعطاه النبي (ﷺ) جميعها، رأى الرجل هذا فوقع أثره عليه فذهب إلى قبيلته وقال: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا. فَوَاللّهِ إِنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ (٢).

كان غُلامٌ يهوديٌّ يَخدُمُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فمَرِضَ، فأتاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَعودُهُ، فقعَد عندَ رأسِهِ فقال لهُ: «أسلِمْ». فنظَرَ إلى أبيهِ وهوَ

---

(١) صحيح مسلم باب جوده ﷺ ج ٢ صـ ٢٩٠ مصر. وهذا نص الحديث: (٥٩٧٥) ـــ وحدّثني أَبُو الطَّاهِرِ، أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ. أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ وهْب. أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: غَزَا رَسُولُ اللّه غَزْوَةَ الْفَتْحِ، فَتْحِ مَكَّةَ. ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ. فَنَصَرَ اللّهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ. وَأَعْطَىٰ رَسُولُ اللّه يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ. ثُمَّ مِائَةً. ثُمَّ مِائَةً. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَاللّه لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّه مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّىٰ إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ.(يوسف عامر).

(٢) المصدر السابق. وهذا نصه: (٥٩٧٤) ـــ حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ غَنَماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. فَأَتَىٰ قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا. فَوَاللّهِ إِنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلاَّ الدُّنْيَا. فَمَا يُسْلِمُ حَتَّىٰ يَكُونَ الإِسْلاَمُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.(يوسف عامر).

عندَهُ، فقال له: أطِعْ أبا القاسِمِ صلى الله عليه وسلم. فأسلَمَ.فخَرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «الحمدُ للّهِ الذي أنقَذَهُ منَ النار». [1].

دعوة العقل

بين الإسلام أصول التبليغ والدعوة التي تبرهن على أن هذا الدين دين عقلي استدلالي، وهي أصول لا يمكن أن تقوم بدونها أسس الحكمة والمناظرة والنصيحة والحوار. وبناءً على هذا فإن النبوة المحمدية هي أول صوت رباني في تاريخ أديان العالم خاطب العقل الإنساني بدلاً من القوانين الحاكمة (التوراة) أو تصريف الألفاظ (الإنجيل) أو أحكام الأمراء (الويد)، ودعا أيضًا إلى الفكر والتأمل بل طالب بالفهم والتدبر، وأظهر حكمة وفائدة تعليمه عن طريق تعاليمه كلها وأرشد المعارضين مراراً إلى التفكر والتأمل في آيات الله.

﴿...**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ. ..**﴾(الأنعام:١٤٩،١٤٨)

يوضح أيضاً-

﴿... **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأنفال:٤٢)

كما نسب شعار الغفلة للكافرين

﴿... **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾ (يوسف: ١٠٥) وأثنى على أهل الإيمان المتفكرين -

---

[1] صحيح البخاري كتاب الجنائز. وهذا نصه: (١٣٣٢) ـــ حُدَّثنا سليمانُ بنُ حربٍ حدَّثَنا حمَّادٌ وهو ابنُ زيدٍ عن ثابتٍ عن أنَسٍ رضيَ اللَّهُ عنه قال: «كان غُلامٌ يهوديٌّ يَخدُمُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فمَرِضَ، فأتاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَعودُهُ، فقعَد عندَ رأسهِ فقال لهُ: أسلِمْ. فنظَرَ إلى أبيهِ وهوَ عندَهُ، فقال له: أطِعْ أبا القاسِمِ صلى الله عليه وسلم. فأسلَمَ.فخَرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمدُ للّهِ الذي أنقَذَهُ منَ النار».(يوسف عامر).

﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِـي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِـي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً. ..﴾(آل عمران:١٩٠، ١٩١)

وهل هناك ما هو أكثر من الاستدلال المادي والعقلي على صحة الدعوة؟ على أي حال كان هذا استدلالا خارجيا، فدعا أيضًا إلى الاستدلال الداخلي.

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١)

ونسب للقرآن الكريم هذه الألفاظ في كل مكان.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق:٨)

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ٢٠٣)

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ (الجاثية:٢٠)،

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء: ٨٢)

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (يس:٢)

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: ١، لقمان٢)

ليس هذا فقط، وإنما قدم القرآن أدلة عقلية على صدق وجود الله والتوحيد والرسالة والقيامة والثواب والعقاب والعبادات والصلاة والصوم والحج والزكـاة والأخلاق وغيرها أثناء تلقين كل هذه التعاليم، وأظهـر علـى المـلأ الحكمـة والمصلحة من مسألة، وسوف نقدم أدلتها في الصفحات التالية مع كل خطوة.

لا إكراه في الدين

هذه هي الحقيقة التي يدوي صداها ف كل مكان، لكن قد لا يعلم الناس أن هذه الحقيقة قد أعلن لسان النبي المبارك في هذه الدنيا قبل الجميـع، ويبـدو أن الدين الذي أخذ طريق الدعوة والتبليغ فقط لنشر نفسه هو الذي أخبر عن أصولها، وهو الذي طالب الناس بالتدبر والفهم والتعقل والتبصر في كل المعاملات، وأظهر الاستعداد العقلي والمصلحة والحكمة مع كل خطوة، مع أنه كان بإمكانه أن يختار طريق الجبر والإكراه والشدة، فليس الإسلام هو الدين الذي نبـذ نـشر الـدين الجبري فحسب، بل وأخبر عن فلسفته وهي لا إكراه في الدين، وأن دين السابقين

جزء من الإيمان في الإسلام. والإيمان اسم لليقين، وإن أي طاقة في الدنيا لا يمكنها أن تخلق ذرة يقين في أي قلب بالقوة، ولا يمكن لحد السيف أن يحفر أي حرف من حروف اليقين في قلب أي شخص مهما كانت قوته، قال تعالى:

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ...﴾(البقرة:٢٥٦)

هذه هي الحقيقة عظيمة الشأن التي لقنها النبي (ﷺ) للبشر قال تعالى في موضع آخر:

﴿وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)

ليس هناك أي إكراه لأي شخص على الاختيار بين الإيمان والكفر فأصحاب العقل والبصيرة سيقبلونه بأنفسهم، أما الجاهل فسيظل محرومًا منه؛ لذلك فإن دور الرسول هو توصيل رسالة الله للناس وليس القبول بالإكراه، وهذا ما وضح مرارا في القرآن.

﴿...أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ ﴾(المائدة:٩٢)

ولقد هدأت نفس النبي (ﷺ) بعدما كان قد أصابها حزن شديد بسبب إعراض وعناد قريش.

﴿... إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاغُ. ..﴾(الشورى:٤٨)

﴿... إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢١ ،٢٢)

﴿... فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاغُ...﴾(الشورى:٤٨)

إن انتشار أي دين بالإكراه في نظر الإسلام هو هذا الفعل الذي أفهم النبي (ﷺ) هذا المعنى السامي: قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩)

إن الإسلام يجيز حماية الحق ودحض الباطل، ولقد أجبر النبي (ﷺ) على القتال، فاستنتج المعارضون من هذا أن القتال كان فقط من أجل نشر الإسلام بين الناس بقوة السيف، مع أنه لا يوجد في القرآن مثل هذه الآية التي تدعو إلى جعل

أي كافر مسلمًا بالقوة، ولم يكن في سيرة النبي (ﷺ) واقعة تثبت أن شخص ما أسلم بقوة السيف وإنما لو كان هناك شيء فهو

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ٦)

فلم يقل لا تجره طالما أنه لم يسلم، وإنما قال أجره وآويه واحمه وبلغه كلام الله لكي يجد فرصة للفكر والتدبر. والظاهر أن المشرك الذي سيسلم بهذه الطريقة سيكون محركه لتغيير دينه هو شيء آخر غير السيف (رسالة الحق).

والحقيقة هي أن مشروعية الجهاد كانت من أجل حماية المظلومين، واستعادة حقوق المهاجرين، وفتح طريق للحج، وحرية الدين، كما فصل في أماكن عديدة في الكتاب، وفي القرآن الكريم هذه الآية

﴿وَقَاتِلُوَهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ...﴾ (الأنفال:٣٩)

ولم يكن المراد من «الفتنة» هي حرية الدين والعقيدة، فابن عمر رضي الله عنهما لم يشارك في حروب الصحابة الداخلية فجاءه شخص وقال ألم يأمر الله بالقتال للقضاء على الفتنة؟ وذكر الآية السابقة، فأجاب لقد تم أداء هذا الغرض في عهد النبي (ﷺ) عندما كان المسلمون قلة وكان الإنسان يُبتلى بالفتنة بسبب دينه فكان يُقتل أو يُسجن، وطالما أن تعداد المسلمين قد ازداد فلم تبق هناك فتنة[1].

---

[1] صحيح البخاري المجلد ٢ تفسير الأنفال صـ ٦٧٠. وهذا نصه: (٤٥٣٢) ـــ حدَّثنا الحسن بن عبد العزيز حدَّثنا عبدُ الله بن يحيى حدَّثنا حَيْوة عن بكرِ بن عمرو عن بُكَير عن نافع «عنِ ابن عمرَ رضي الله عنهما أن رجلاً جاءه فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمعُ ما ذكر الله في كتابه {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا} (الحجرات: ٩) إلى آخر الآية، فما يَمنعك أن لا تُقاتلَ كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أُغْتَرُّ بهذه الآية ولا أُقاتل أحبُّ إليَّ من أن أُغْتَرَّ بهذه الآية التي يقول الله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً} (النساء: ٩٣) إلى آخرها. قال: فإنَّ الله يقول: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ} (الأنفال: ٣٩) قال ابنُ عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان

التبليغ في ميدان الحرب

لقد أخطأ الجهلاء في التعبير عن هذه القضية، فمسالمة الإسلام هي التي سنت هذه القوانين، إذا ما اضطر لقتال أي جماعة معارضة وهي أن لا يبعد خيار الصلح والسلام حتى ولو وصل إلى ميدان الحرب، بل ويعرض أمرين: قبل قرار السيف أولهما أن ينطقوا بالشهادة ويصبحوا مسلمين ويرفعوا أيديهم عن القتال ويصبحوا إخواننا، فإذا فعلوا هذا تساووا معنا في جميع حقوق الدين والحكم والعزة، وإذا لم يقبلوا هذا يبقون على دينهم ويرضون بحكمنا السياسي، وفي هذه الحالة ستكون مسئولية حمايتهم على كاهلنا، فإذا ما رضوا بأي من الأمرين فقتالهم غير مشروع، وفي تاريخ الإسلام العديد من هذه الصور فلقد قبلت الأقوام المعادية إما الإسلام أو الطاعة المحضة، وتوقفت إراقة الدماء، وصار ميدان القتال ساحة للحب والسلام.

هذا القانون مبني من أوله إلى آخره على المسالمة وطلب الأمن والسعي حتى النهاية للنجاة من سفك الدماء إلا أن المعارضين عرضوا له بصورة أخرى وهي أن النبي (ﷺ) دعا لجعل الناس مسلمين بقوة السيف لقد كان دستور النبي (ﷺ) عندما يعين قائدًا لجيش أن يقدم له تلك النصائح. «... وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ «أَوْ خِلَالٍ» فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى

الإسلامُ قليلاً، فكان الرجلُ يُفتَنُ في دينه: إما يَقتلونه، وإما يوثقونه، حتى كثُرَ الإسلامُ فلم تكن فتنة. فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال: فما قولك في عليّ وعثمان؟ قال ابنُ عمر: ما قولي في عليّ وعثمان؟ أما عثمان فكان اللَّه قد عفا عنه، فكرِهتم أن يَعفوَ عنه، وأما عليّ فابن عم رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وخَتَنه ـــ وأشار بيدِه ـــ وهذه ابنتُه أو بنته حيث ترون».(يوسف عامر).

...مِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ... »[1].

---

[1] صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير. وهذا نصه: (٤٤٧٦) ـــ وحَدَّثَنِي عَبْدُ الله ابْنُ هَاشِمٍ «وَاللَّفْظُ لَهُ» حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمنِ «يَعْنِي ابْنَ مَهْدِيٍّ» حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَلْقَمَةَ ابْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ الله إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاه في خَاصَّتِه بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَدرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ «أَوْ خِلاَلٍ» فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجابُوكَ فَاقْبَلْ مِنهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذلكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ وَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّه فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّه وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَن تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ رَسُولِه وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ الله فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ الله وَلَكِنْ أَنزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ الله فِيهِمْ أَمْ لاَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمنِ هذَا أَوْ نَحْوَهَ وَزَادَ إِسْحَاقُ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ آدَمَ قَالَ فَذَكَرْتُ هَذَا الْحَدِيثَ لِمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ «قَالَ يَحْيَى يَعْنِي أَنَّ عَلْقَمَةَ يَقُولُهُ لاِبْنِ حَيَّانَ» فَقَالَ حَدَّثَنِي مُسْلِمُ بْنُ هَيْصَمٍ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ عَنِ النَّبِيِّ. (يوسف عامر).

هذه هي مبادئ الحرب التي كان المقصود منها إيقاف إراقة الدماء وليس إجبار أي شخص لأن يكون مسلمًا بقوة السيف، فعندما بدأ قتال الفرس في عهد الصحابة لم يرفع المسلمون السيف في ميدان الحرب مدة ثلاثة أيام، وكان سلمان الفارسي يبين لهم طوال الثلاثة أيام ويقول لهم « إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ فَارِسِيٌّ تَرَوْنَ العَرَبَ يُطِيعُونِي، فإنْ أسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مِثْلُ الذي لنا، وعَلَيْكُمْ مِثْلُ الذي عَلَيْنَا، وإنْ أَبَيْتُمْ إلاَّ دِينَكُم تَرَكْنَاكُمْ عَلَيْهِ وأعطُونا الْجِزْيَةَ عَن يدٍ وأنتمُ صَاغِرُونَ. »[1]. يتضح من هذا أن العدو لم يُجبر على تغيير دينه في الحرب وإنما فتح له طريقين.

---

[1] جامعُ الترمذي أبواب السير. وهذا نصه: (١٥٥١) ـــ حدثنا قُتَيْبَةُ حدثنا أبو عَوَانَةَ عن عَطَاءَ بن السَّائِبِ عن أبي البَخْتَرِيِّ، «أَنَّ جَيْشاً مِن جُيُوشِ المُسْلِمينَ كان أميرَهُمْ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ حَاصَرُوا قَصْراً من قُصُورِ فَارِسَ، فقالوا يا أبا عبدِ الله ألا نَنْهَدُ إليهم، قال: دَعُونِي أدْعُوهُم كما سَمِعْتُ رسولَ الله يَدْعُوهُم، فأَتَاهُم سَلْمَان فقال لهم: إنمَا أنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ فَارِسِيٌّ تَـرَوْنَ العَـرَبَ يُطِيعُوني، فإنْ أسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مِثْلُ الذي لنا، وعَلَيْكُمْ مِثْلُ الذي عَلَيْنَا، وإنْ أبَيْتُمْ إلاَّ دِينَكُم تَرَكْنَاكُمْ عَلَيْهِ وأعطُونا الْجِزْيَةَ عَن يدٍ وأنتمُ صَاغِرُونَ. قالَ: ورَطَنَ إليهم بالفارِسِيَّةِ وأنتمُ غَيْرُ مَحْمُودِينَ وإنْ أبَيْتُم نَابَذْنَاكُمْ على سَوَاء. قالوا: ما نَحْنُ بالَّذي يُعطي الْجِزْيَةَ ولَكِنَّا نقَاتِلكُمْ. فقالوا يا أبا عبدِ الله ألا نَنْهَدُ إليهم؟ قال: لا، قال: فدعاهم ثلاثةَ أيَّامٍ إلى مِثْلِ هذا ثُمَّ قال: انْهَدُوا إليهم، قال: فَنَهَدْنَا إليهم فَفَتَحْنَا ذَلِكَ القَصْرَ». قال وفي البابِ عن بُرَيْدَةَ والنعمانِ بنِ مُقَرِّنٍ وابنِ عُمَرَ وابنِ عباس.

وحديثُ سلمانَ حديثٌ حسنٌ لا نعرفُهُ إلاَّ من حديثِ عَطَاءِ بن السَّائِبِ.

وسَمِعْتُ محمداً يقولُ: أبو البَخْتَرِيُّ لم يُدْرِكْ سلمانَ لأنه لـمْ يُـدْرِك عَلِيًّا، وسلْمَانُ مات قَبْلَ عَلِيٍّ.

وقد ذَهَبَ بعضُ أهلِ الْعِلْمِ من أصحابِ النبيِّ وغيرِهم إلى هذا ورَأَوْا أنْ يُدْعَوا قبلَ القِتَالِ. وهو قولُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ. قال: إن تَقَدَّم إليهم في الدَّعْوَةِ فَحَسَنٌ يكونُ ذلكَ أهْيَبَ.

كان ثمامة بن اثال من قبيلة بني حنيفة وسيد بني يمامة، تلك القبيلة التي ظلت متمردة إلى النهاية والتي ظهر فيها مسيلمة في آخر عهد النبي (ﷺ)، وحدث أن وقع ثمامة أسيرًا في يد أحد جيوش المسلمين مصادفةً وأحضر إلى المدينة وقُيد في أحد أعمدة المسجد النبوي إلى أن جاء النبي (ﷺ) للصلاة فسال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ يا محمدُ، إن تَقتلني تَقتلْ ذا دم، وإن تُنعِم تنعم على شاكر، وإن كُنْتَ تريدُ المالَ فسلْ منه ما شئتَ، فلم يجب النبي (ﷺ) بشيء ثم كان هذا السؤال وهذه الإجابة في اليوم الثاني ثم كان اليوم الثالث فقال النبي (ﷺ) «أطلقوا ثمامة» ففتح الناس له وفك هذا الحبل وتحرر إلا أن قيد الحق سقط في قدمه، فذهب إلى واحدة بالقرب من المسجد النبوي واغتسل ثم جاء المسجد ونطق بالشهادة وأصبح مسلمًا[1]، فهل كانت هناك فرصة أفضل من هذه ليصبح أي

وقالَ بعضُ أهلِ العِلْمِ: لا دَعْوَةَ اليومَ. وقال أحمدُ: لا أعْرِفُ اليومَ أحداً يُدْعَى. وقال الشافعيُّ: لا يُقَاتَلُ الْعَدُوُّ حتَّى يُدْعَوْا إلاَّ أن يَعْجَلُوا عن ذلك، فإنْ لَم يَفْعلْ فقد بلغَتْهم الدعوةُ.

[1] صحيح البخاري وسنن الترمذي ربط الأسير. وهذا نص رواية البخاري: (٤٢٦٦) ـــ حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بن يوسفَ حدَّثنا الليثُ قال: حدَّثني سعيدُ بن أبي سعيد أنهُ سمعَ أبا هريرة رضيَ اللَّهُ عنه قال: «بَعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم خيلاً قِبلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفةَ يقال له ثُمامة بن أُثال، فربَطوهُ بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: ما عندَك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ يا محمدُ، إن تَقتلني تَقتلْ ذا دم، وإن تُنعِم تنعم على شاكر، وإن كُنْتَ تريدُ المالَ فسلْ منه ما شئتَ. فتُرِكَ حتى كان الغَد ثم قال لهُ: ما عندَك يا ثمامة؟ فقال: ما قلتُ لك: إن تُنعِم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعدَ الغدِ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلَقَ إلى نخلٍ قريبٍ من المسجدِ فاغتسلَ، ثم دخل المسجدَ فقال: أشهد أن لا إلهَ إلاّ الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله. يا محمد، واللَّهِ ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وَجهك، فقد أصبحَ وَجهكَ

شخص مسلمًا؟ لقد أُسر أسرى بدر ولم يقل لهم السيف أو الإسلام، وهكذا كانت المعاملة مع أسرى الحروب الأخرى، قال تعالى عن أسرى الحروب:

﴿ **أطلقوا ثمامة** ﴾ (محمد: ٤) ولم يقل الإسلام أو السيف.

في غزوة خيبر يهجم المسلمون على بعض القلاع ويصابون بالفشل وفي النهاية يصدر أمر لأسد الله علي ﷺ بأن يأخذ الجيش ويذهب، فيسال « يَا رَسُولَ اللّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: «انفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ. حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلاَمِ. وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللّهِ فِيهِ. فَوَاللّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»»[(١)]. إلا أن يهود خيبر رفضوا الإسلام ورفضوا بحكمه فكان الصلح ووضع السيف في الغمد.

أحبَّ الوجوهِ إليّ. واللَّهِ ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ. واللَّهِ ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبحَ بلدكَ أحبَّ البلاد إليّ. وإن خيلَكَ أخذتني، وأنا أُريد العمرةَ، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمَرَه أن يَعتمر. فلما قدمَ مكة قال له قائل: صَبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ولا واللَّهِ لا يأتيكم من اليمامَةِ حَبةُ حِنطة حتى يأذَن فيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم».(يوسف عامر).

(١) صحيح البخاري غزوة خيبر. وهذا نص الحديث: (٦١٧٦) ــــ حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيد. حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ يَعْنِي ابْنَ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلٍ. ح وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَاللَّفْظُ هَـٰذَا. حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ عَنْ أَبِي حَازِمٍ. أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللّـهِ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ هٰذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ. يُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ. وَيُحِبُّهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ» قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا. قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَىٰ رَسُولِ اللّهِ. كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقَالُوا: هُوَ، يَا رَسُولَ اللّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ: فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ. فَبَصَقَ رَسُولُ اللّهِ فِي عَيْنَيْهِ. وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ. حَتَّىٰ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ.

كما أنه لا يجوز للمسلم أن يرفع السلاح على مسلم آخر، بـل إن هـذا يؤدي هذا إلى الكفر. وقد كان معلوما لدى الكفار أسلوب عمل المـسلمين، ففـي أكثر المعارك عندما يشعر المشرك المهاجم بضعفه يتلفظ بكلمة التوحيـد إنقـاذاً لحياته، ويضطر المسلم الثائر مرغمًا أن يسيطر على غضبه ويوقف يده.

ذات مرة سأل صحابي:«يَا رَسُولَ اللّه أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الْكُفَّارِ. فَقَاتَلَنِي. فَضَرَبَ إِحْدَى يَدِيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا. ثُمَّ لاَذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسْـلَمْتُ للّه. أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللّه بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللّه : «لاَ تَقْتُلْهُ» قَالَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّه إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِي. ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا. أَفَأَقْتُلُهُ؟ قَالَ رَسُولُ اللّه : «لاَ تَقْتُلْهُ. فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ. وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَـهُ الَّتِي قَالَ» [١].

كان أسامة بن زيد من أكثر المقربين للنبي (ﷺ)، تـولى قيـادة سـرية وأرسل إلى إحدى المعارك وعندما دار القتال جاء كافر لضربه فهجم عليه فصاح

فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: «انفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ. حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلاَمِ. وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِـبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللّهِ فِيهِ. فَوَاللّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».(يوسف عامر).

[١] صحيح مسلم كتاب الإيمان. وهذا نصه: (٢٣٤) ــــ حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَـعِيدٍ : حَدَّثَنَا لَيْثٌ. ح وَحَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ رُمْحٍ وَاللَّفْظُ مُتَقَارِبٌ أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ عَنِ ابْـنِ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللّه أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلاً مِنَ الْكُفَّارِ. فَقَاتَلَنِي. فَضَرَبَ إِحْدَى يَدِيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا. ثُمَّ لاَذَ مِنِّـي بِـشَجَرَةٍ، فَقَـالَ: أَسْلَمْتُ للّه. أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللّه بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللّه : «لاَ تَقْتُلْـهُ» قَالَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّه إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِي. ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا. أَفَأَقْتُلُهُ؟ قَالَ رَسُولُ اللّه : «لاَ تَقْتُلْهُ. فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ. وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَته قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ».(يوسف عامر).

الكافر بـــ لا إله إلا الله فتوقف أحد الأنصار الذي وثب عليه من قبل إلا ان أسامة ﷺ لم يعتقد سوى أن هذا الكافر حُمل على المكر لإنقاذ روحه بالتلفظ بهذه الكلمة فقتله بالرمح، فعلم النبي (ﷺ) بهذا فحزن حزنًا شديدًا من أسامة فقال أســـامة يَـــا رَسُولَ اللّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفا مِنَ السِّلاَحِ. قَالَ: «أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّـــى تَعْلَـــمَ: أقالها أم لا» ثم يقول بمساواة «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَـــهَ إِلاَّ اللّـــهُ إِذَا جَـــاءَتْ يَـــوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، يقول أسامة كنت نادمًا لدرجة تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.[1]

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان صـــ ١٥٢، مصر. وهذا نصه: (٢٣٧) ـــــ حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ : حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الأَحْمَرُ. ح وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ وَ إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ كِلاَهُمَا عَنِ الأَعْمَشِ عَنِ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَهَذَا حَدِيثُ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللّهِ فِي سَـــرِيَّةٍ. فَـــصَبَّحْنَا الْحُرُقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ. فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً. فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله. فَطَعَنْتُهُ فَوَقَـــعَ فِـــي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ. فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «أَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفا مِنَ السِّلاَحِ. قَالَ: «أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ: أقالها أم لا»، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ، فَقَالَ سَعْدٌ: أَنَا وَالله لاَ أَقْتُلُ مُسْلما حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ يَعْنِي أُسَامَةَ. قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلِ الله: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الـــدِّينُ كُلُّـــهُ لله} (الأنفال الآية: ٣٩) فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا لاَ تَكُونَ فِتْنَـــةٌ. وَأَنْـــتَ وَأَصْـــحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ. (يوســـف عـــامر).وورد فـــي صـــحيح مسلم:(٢٣٩) ـــــ حدّثنا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنُ بْنِ خِرَاشٍ : حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ : حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، يُحَدِّثُ أَنَّ خَالِدا الأَثْبَجَ ابْنَ أَخِي صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، حديث بن صفوان بن محرز حَدَّثَ أَنَّ جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِ اللّهِ الْبَجَلِيَّ بَعَثَ إِلَى عَسْعَسِ بْنِ سَلاَمَةَ، زَمَنَ فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: اجْمَعْ لِي نَفَرا مِنْ إخوانك حَتَّى أُحَدِّثَهُمْ. فَبَعَثَ رَسُولاً إِلَيْهِمْ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَ جُنْـــدَبٌ وَعَلَيْـــهِ بُـــرْنُسٌ أَصْفَرُ. فقَالَ: تَحَدَّثُوا بِمَا كُنْتُم تَحَدَّثُونَ بِهِ. حَتَّى دَارَ الْحَدِيثُ. فَلَمَّا دَارَ الْحَدِيثُ

انظروا إلى أي مدى قلب صورة تلك الحادثة، فالحادثة هي أن بعض الكفار والمنافقين كانوا يعلمون أن المسلمين لا يقتلون أي شخص ينطق بلفظ التوحيد طبقًا لأحكام دينهم في حروبهم الهجومية، لذا كانوا عندما يقعون في قبضة المسلمين ينطقون على الفور بالشهادة إنقاذاً لأرواحهم. ويتضح من هذه الصورة أن الإسلام لم يجبر الكفار بحد السيف على كلمة التوحيد، فهل هذا حق ؟

كما أن للنبي (ﷺ) دعوة أخرى كثيراً ما حرفت قال (ﷺ): «أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ... فإذا فَعَلوا ذلكَ عَصَموا مِنِّي دِماءَهُم وأموالَهُم... وحسابُهم عَلَى اللّه »[1] ومغزى هذا

إِلَيْهِ حَسَرَ الْبُرْنُسَ عَنْ رَأْسِهِ. فَقَالَ: إِنِّي أَتَيْتُكُمْ وَلاَ أُرِيدُ أَنْ أخبركم عَنْ نَبِيِّكُمْ. إِنَّ رَسُولَ اللّهِ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَإِنَّهُمُ الْتَقَوْا فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ. وَإِنَّ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ. قَالَ: وَكُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ. فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ قَالَ: لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللّهُ، فَقَتَلَهُ. فَجَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى النَّبِيِّ. فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ. حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ. فَدَعَاهُ. فَسَأَلَهُ. فَقَالَ «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ. وَقَتَلَ فُلاَنًا وَفُلاَنا. وَسَمَّى لَهُ نَفَرا. وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللّهُ. قَالَ رَسُولُ اللّهِ «أَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ قَالَ «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: فَجَعَلَ لاَ يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ اللّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟». (يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٢٥) ــ حدَّثنا عبدُ اللّه بنُ محمدٍ المُسْنَديُّ قال: حدَّثَنا أبو رَوحٍ الْحَرَمِيُّ بنُ عُمَارة قال: حدَّثَنا شُعبةُ عن واقدِ بنِ محمدٍ قال: سَمِعْتُ أبي يحدِّثُ عنِ ابنِ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إلهَ إلاّ اللّهُ وأنَّ

الحديث هو عدم مشروعية قتال المسلم، إلا أن قتال غير المسلم جائز طالما أنه لم يقر بالتوحيد فإذا أقر حُرّم قتاله أيضًا سواء قال لا إله إلا الله خوفًا من الهجوم أو أقر بقلب صادق، فالتحقق من نيته ليس هو واجب الإنسان وإنما هو لله فقط، بل على المرء أن يدعوا إلى الإسلام فقط غير أن بعض النــاس فهمــوا أن دعــوة الإسلام هي أن يكون المسلم هائما بالسيف، فمن يجده يخيفه ويزجره ويقول له قل كلمة التوحيد وإلا قطعت رأسك، أمعنوا النظر فلو أن الأمر كذلك فلماذا يــذهب السجين بسهولة دون النطق بكلمة التوحيد، ولماذا لم تُسلم الأقلام المنهزمة وإنما تدفع درهما فقط جزية وتُمنح الحرية.

ولماذا سمح للمسلمين بهــذا. ﴿ **وَإِن جَنَحُــوا لِلــسَّلْمِ فَــاجْنَحْ لَهَا...**﴾(الأنفال:٦١)

فلم لم يقل لا تجنح للسلم طالما أنهم لم يسلموا ولماذا أيضًا أمــر المسلمين بهذا. ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَــسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ (التوبة:٦)

ولماذا لم يقل إذا لم يُسلم بعد إجارته وسماعه لكــلام الله فاقتلــه وأدخله جهنم بدلاً من إبلاغه مأمنه، إلا أن مثل هذا لم يحدث. ويتــضح من هذا كله كيف تم تفسير مفهوم مسالمة ومــودة الإســلام بطريقــة مغلوطة، مع أن الإسلام حرم قتال هؤلاء المشركين الذين هــم حلفــاء لقبيلة حليفة لنا والذين يريدون الصلح والسلام معنا.

﴿**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّــهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾ (النساء:٩٠)

محمداً رسولُ اللّهِ، ويُقيموا الصلاةَ، ويُؤتوا الزّكاةَ. فإذا فعَلوا ذلكَ عَــصَموا مِنّي دِماءَهُم وأموالَهُم إلاّ بحَقّ الإسلامِ، وحسابُهم علَى اللّهِ».(يوسف عامر).

أي لا يجوز رفع السيف عليهم، فلو أن الدين الإسلامي عدواني بهذا المعنى «السيف أو الإسلام» فلماذا اشتمل على الصورة من المسالمة والمصالحة وترك القتال ؟

السرايا التبليغية المسلحة

هذه آفة أخرى من آفات انتشار الفهم الخاطئ، وهي أن الجماعات التي كانت تُرسل إلى البلاد للتبليغ والدعوة كانت مسلحة، إلا أن هناك حقيقة غُفل عنها، وهي أن هذه كانت معضلة العرب، حيث لم تكن هناك حكومة لضبط الأمور يكون عليها مسئولية حماية جميع الرعية، فلقد قامت في كل واد قبيلة مستقلة بذاتها، وكانت كل قبيلة تتناحر مع الأخرى وكانت الطرق تحت سيطرة اللصوص وقطاع الطرق الذين ما كان يمكن لرجل أن ينجو منهم سالمًا، لذلك عندما كانت ترسل أي حملة تبليغية كانت تُسلح لحماية نفسها طبقًا للنظام العام للسكان في البلد غير الآمن، ودليل هذا الأمر هو أن هدف هذه الجماعة المسلحة لم يكن سوى التبليغ والدعوة، كما أن عددها كان قليلاً لا يمكن أن يكون كافيًا للقيام بحملة عسكرية.

وعندما حُطمت قوة قريش بعد غزوة بدر، وبدا الإسلام قوة لا حصر لها أرسل النبي (ﷺ) العديد من السرايا للتبليغ والتعليم إلى أماكن عديدة بناءً على طلب بعض القبائل، فقُتل أكثرهم في الطريق، ففي واقعة الرجيع قُتل سبعون من الدعاة، وفي واقعة بئر معونة قتل ما بين ستة إلى عشرة من الدعاة، واستشهد خمسون مسلماً في سرية ابن أبي العوجاء، وفي واقعة ذات الطلاح قتل أربعة عشر من دعاة المسلمين بالسهام ورُمي عروة بن مسعود الثقفي بالسهام، وهذه شهادت الدعوى.

جماعة التبليغ والدعوة

ظل النبي (ﷺ) فترة وجوده في مكة المعظمة يؤدي هذا الفَرض بنفس راضية، فكان يذهب إلى كل شخص على حدة ويُسمعه رسالة الحق، يخرج من الحضر ويذهب إلى ما حول مكة ويُسمع القادم والذاهب البشارة، كما خرج من مكة وذهب إلى الطائف وقام بأداء واجبه هناك. وكانت هذه هي حكمة الله أن

يجعل مكة هي مركز دينه الأخير، حيث كانت مركزًا للعرب وكانت جميع القبائل تتوافد إليها في موسم الحج، ولسنين طوال يذهب النبي (ﷺ) إلى كل قبيلة على حدة في موسم الحج ويعرض عليهم دعوة الله وعن طريق هذه الدعوة السنوية حصل على هذه الجماعة التي تدعى الأنصار.

الغرض هو أن المئات من الرجال اعتنقوا الإسلام في مكة بسبب هذه الأنشطة التبليغية، إلا أنهم أجبروا على ترك مكة بسبب ظلم قريش لهم وهاجروا إلى الحبشة بمشورة من رسول الله (ﷺ) وكانت لهذه الهجرة حكمة عجيبة، فلقد هيأت هجرة هؤلاء المظلومين المسلمين الفرصة لأن يصل صوت الإسلام إلى كل مكان يمرون به أثناء الهجرة وبهذه الطريقة انتشر الإسلام في اليمن والحبشة.

وبعد رسول الله (ﷺ) في مكة يأتي سيدنا أبو بكر ؓ كأول داع ومبلغ بين عامة المسلمين جعل حمية شباب، أشرف أسر مكة في خدمة الإسلام بدعوته، كما اتسعت رقعة الإسلام بسبب مساعي عثمان وطلحة والزبير وأبو بكر رضي الله عنهم، وبعد أبي بكر يأتي مصعب بن عمير والذي جعل أسر المدينة نجوما للتوحيد قبل هجرة النبي (ﷺ) وذلك بسبب سماعهم لوعظه المؤثر.

جاء الإسلام إلى المدينة فساد الأمن والاطمئنان، وأسس النبي (ﷺ) جماعة لتبليغ الإسلام إلى جميع أرجاء البلاد ولتعليم المسلمين الجدد الذين يتوافدون إلى ديار الإسلام من أقاصي البلاد، واشتهرت هذه الجماعة باسم «أصحاب الصُفّة»، وكان ينضم إليها في بعض الأحيان ما يزيد عن مائة رجل، هؤلاء الرجال كانوا يوفدون إلى البلاد للدعوة إلى الإسلام ويقومون بتعليم من هم حديثو عهد بالإسلام، وأعضاء هذه الجماعة هم السبعون مبلغ وداع الذين قُتلوا في واقعة «بئر معونة» الضارية.

بالإضافة إلى ذلك فإن أكابر الصحابة عملوا على نشر دعوة الإسلام من حين إلى آخر بين البلاد والملوك والأقوام والقبائل والذين وردت أسماؤهم في كتب الأحاديث والسير بصورة متفرقة. ولقد جُمعت أسماء خمسة وثلاثين صحابيا من هذا الصنف بجهد متواضع. وهؤلاء الصحابة ممن قاموا بأداء هذا الغرض بأمر من رسول الله (ﷺ)

أبو ذر الغفارى، الطفيل بن عمرو الدوسي، جعفر الطيار، عمرو بن عنبسه السلمي، ضماد بن ثعلبة، خالد ين الوليد، على بن أبي طالب، مهاجر بن أبي أمية، زياد بن لبيد، خالد بن سعيد، عدي بن حاتم، العلاء بن الحضرمي، أبو موسى الأشعري، معاذ بن جبل، جرير بن عبد الله البجلى، دحيه الكلبى، عمرو بن أمية الضمرى، المغيرة بن شعبة، عمرو بن العاص، دبر بن نخيس، عروة بن مسعود الثقفي، عامر بن شهر، المنقذ بن حبان، ثمامة بن آثال، محيصه بن مسعود الأحنف، أبو زيد الأنصاري، عمر بن مره، عياش بن ربيع المخزومي، دائلة بن الأسقع، عبد الله بن حذافة السهمي، حاطب بن أبي بلتعة، سليط بن عمرو بن عبد شمس، شجاع بن وهب الأسدي لقد كانت صيحة هؤلاء الدعاة والمبلغين والرسل هي التي أيقظت اليمن واليمامة والبحرين والحجاز ونجد وكل العرب إلى أن تم إبلاغ رسالة الإسلام إلى إيران والشام ومصر والحبشة وإلى كل مكان خارج جزيرة العرب.

تربية وتعليم الدعاة

تناولنا في بداية المجلد الثاني للسيرة تاريخ انتشار الإسلام وتربية وتعليم الدعاة المعلمين، وفي هذا الصدد يمكننا القول إنهم كانوا قبل كل شيء يُحفّظون سور القرآن الكريم، ويُعلّمون القراءة والكتابة وكانت تُهيئ لهم الفرصة لسماع توجيهات النبي (ﷺ) ليل نهار، إلا أن الحقيقة هي أن الدرس الأول للتبليغ الإسلامي كان القرآن والقرآن فقط.

الدعوة بالقرآن

القرآن الكريم هو دليل ودعوى الإسلام وهو كتاب هذا الدين، وكان النبي (ﷺ) نفسه والدعاة من الصحابة يتلون سور القرآن الكريم في التبليغ والدعوة فقط، وكان تأثيره يبدو جلياً عندما تتاح لهم فرصة لذلك. ولقد أقر القرآن الكريم نفسه هذا الفرض فكان لابد من جهاد التبليغ، إلا أن سلاح هذا الجهاد لم يكن سيفًا من حديد، وإنما كان سيف القرآن الذي كان يستحيل على الخوذة والترس إيقاف ضرباته، ولقد أمر الله تعالى رسله الجهاد بهذا السيف – قال تعالى:

﴿ فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان:٥٢)

لقد كان الغرض من نزول هذه الرسالة الإلهية إلى الأرض هو تذكير عباد الله الغافلين بعهدهم، قال تعالى:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥)

فالقرآن الكريم هو رسالة رحمة عامة، وهذا هو الهدف والغاية من نزوله، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(الفرقان :١)

فالقرآن الكريم هو قوة الإسلام وسلاح النبي محمد (ﷺ) الحقيقي الذي لا يخطئ هدفه مطلقًا

القدرة التنظيمية لانتشار الإسلام

كان في بلاد العرب ثلاثة أمم لو أسلمت فكأنما أسلمت شبه الجزيرة العربية كلها وهم المشركون واليهود والنصارى، حيث كانت الكعبة مركزًا لمشركي العرب وكانت قريش تتزعم دينهم، في حين كانت المدينة وخيبر مقرًا لليهود، وكانت المجوسية تنتشر على أطراف الشام واليمن.

وعلى هذا الأساس (الأقرب فالأقرب) كانت القدرة التنظيمية لانتشار الإسلام، وذلك بأن تُدعى قريش وكفارها إلى التوحيد أولا ثم يدعى اليهود إلى قبول الإسلام ثم النصارى ومن بعدهم المجوس؛ وبذلك نشر النبي (ﷺ) الإسلام بهذا الترتيب وبناءً على ذلك تبدو طريقة الدعوة في القرآن الكريم مختلفة، فكان المخاطب في السور المكية كفار مكة، ولهذا لم يكن في تلك الآيات سوى ذم عبادة الأصنام، والترغيب في التوحيد، وبيان عجائب القدرة، والتخويف من عذاب الله، والرد على اعتراض صناديد قريش، ولكن عندما هاجر النبي من مكة إلى المدينة وتعرف على اليهود تغير أسلوب خطاب القرآن الكريم؛ لذلك فإن أكثر السور المدنية الأولى كانت تضم تاريخ الدين اليهودي وتحريفاته، وأخلاقهم الدنيئة، وقصص بني إسرائيل، في حين نزلت السور الأخيرة عن النصارى، وبعد فتح مكة جاء وفد نجران المسيحي فنزلت سورة آل عمران والتي ورد فيها ذكر النصارى.

لقد كان المجوس قلة في بلاد العرب، فلقد كانوا يتواجدون بندرة في اليمن والبحرين، فهم من نسل فارسي، ولم يكن أصلهم عربيا، ولم يخاطبهم القرآن الكريم في أي سورة على وجه الخصوص، وإنما ذكر اسمهم في أماكن متفرقة، وأنكر عقائدهم، ودعاهم إلى التوحيد بدلاً من عبادة إلهين.

حتمية قبول الإسلام

إذا كان الغربيون يزعمون أن الإسلام إنما انتشر في بلاد العرب بقوة السيف لكن ماذا عن أولئك الأشخاص وتلك القبائل التي قبلت الإسلام منذ البداية والتي ثبت بوضوح بعد إلقاء نظرة على أوصافهم أن الإسلام كان هو الباحث عن قلب متأثر به، وعندما كان يوجد هذا العش كان يحط الملك أمامه، لذلك فإن الذين اعتنقوا الإسلام مع بداية مبعثه (ﷺ) كانوا هم الصالحين المؤمنين المهتمين الذين تعرفوا على صفات وخصائص النبوة، والتي لم يتعرفوا عليها في أي دين من الأديان السماوية السابقة، فحظوا بالثقافة وحسن العيش. وعلاوة على هؤلاء الأشخاص فإن القبائل وأهالي البدو الذين بادروا إلى اعتناق الإسلام كانوا هم أيضًا ممن وجدت فيهم تلك الميزات، إن أكثر نجاحات الإسلام كانت في الجزء الشمالي والجنوبي من بلاد العرب فنجح في الجنوب أي عمان والبحرين واليمامة ونجح في الشمال في المدينة المنورة وما حولها، لأن أهلها كانوا أكثر تأثرًا بالروم والفرس كأكبر أمتين متحضرتين من حيث المدنية، أما من حيث الديانة فكان اختلاطهم وتعاملهم مع اليهود والنصارى فتأثروا كثيرًا بعادات وتقاليد وثقافة يهود أهل المدينة[1].

لقد جوبه الإسلام بهذا القدر من المعارك من قبل العرب، ووقعت جميع المعارك في نجد والحجاز، إلا أن أي جيش جرار للمسلمين لم يُرسل إلى المدينة أو اليمن أو عمان أو اليمامة أو البحرين لفتحها، بل إن أنصار المدينة جاءوا بأنفسهم لمكة ولبّوا دعوة الإسلام، كما جاءت إلى مكة قبائل من أطراف المدينة كقبيلة غفار التي وقفت ضد سيف قريش وقالت لا إله إلا الله. كما وصل إلى مكة

---

(1) مستدرك الحاكم ج ٢ صـ ١٩٥ صحيح على شرط مسلم.

المكرمة رجال قبيلة دوس اليمنية وفازوا بنعمة الإيمان وعرض قائدها قلعته لحماية الإسلام، وأسلمت قبيلة أشعر في هذا الوقت بطريقة غيابية مشرفة، واعتنقت قبيلة همدان الإسلام ذات يوم بدعوة من علي رضي الله عنه.

كان هذا هو حال عمان أيضًا، فلقد انتشر الإسلام هناك وصارت له مقاليد الأمور بفضل الجهود التبليغية، ذات مرة أرسل النبي (ﷺ) رجلا وحكى له الواقعة فقال (ﷺ)«لَوْ أَنَّ أَهْلَ عُمَانَ أَتَيْتَ، مَا سَبُّوكَ وَلاَ ضَرَبُوكَ». (مسلم فضائل أهل عمان).[1]

لقد أُسر سيد يمامة وجئ به المدينة، وهناك فك أسره، إلا أن هذا النور الذي رآه في المسجد النبوي لم يحرره من القيد النوراني بعد تحرره المادي الملموس، فأسلم بنفسه وذهب إلى قبيلته وصار داعيا للإسلام، وحصل الإسلام هناك على الأغلبية دون إراقة قطرة دم واحدة.

لقد لبت قرية الجواثى نداء التوحيد قبل جميع قرى البادية وكانت تقع على ضواحي البحرين، فلقد أعتنق سكان قرية الجواثى الإسلام قبل فتح مكة، لذلك فإن أول جمعة أقيمت في البادية بعد المسجد النبوي كانت في هذه القرية[2]. ومع أن وفود العرب كانت تأتي إلى مقر النبوة بعد فتح مكة إلا أن أهالي البحرين سبقوا جميع القبائل في هذا، لذلك قدم أول وفد إلى النبي (ﷺ) في سنة ٥٠هـ وكان وفد قبيلة عبد القيس التي كانت تعيش في البحرين. ومع أن أهل اليمن لا يعدون من المهاجرين الأوائل فإنهم عندما علموا بهجرة النبي (ﷺ) أخذ أبو موسى الأشعري

---

(1) وهذا نص الحديث: (٦٤٤٧) ـــ حدثنا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ. حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ عَنْ أَبِي الْوَازِعِ، جَابِرِ ابْنِ عَمْرٍو الرَّاسِبِيِّ. سَمِعْتُ أَبَا بَرْزَةَ، يَقُولُ: بَعَثَ رَسُولُ اللّهِ رَجُلاً إِلَىٰ حَيَ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ. فَسَبُّوهُ وَضَرَبُوهُ. فَجَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «لَوْ أَنَّ أَهْلَ عُمَانَ أَتَيْتَ، مَا سَبُّوكَ وَلاَ ضَرَبُوكَ».(يوسف عامر).

(2) صحيح البخاري باب الجمعة في القرى والمدن. وهذا نصه: ٨٨١) ـــ حدثنا محمدُ بنُ المثنّى قال: حدَّثنا أبو عامرٍ العَقَديُّ قال: حدَّثنا إبراهيمُ بنُ طَهمانَ عن أبي جمرةَ الضُّبَعيِّ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنه قال: «إنَّ أولَ جُمعة جُمِّعتْ ـ بعدَ جُمعةٍ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ـ في مسجدِ عبدِ القَيْسِ بجُواثىٰ منَ البَحرَينِ».(يوسف عامر).

اثنين وخمسين رجلاً منهم وسافر بنية الهجرة إلى المدينة، وكان السفر عبر البحر، فركب هؤلاء الرجال السفينة إلا أن الرياح المعاكسة أوصلتهم إلى الحبشة التي كانت مقر الهجرة الأولى للمسلمين، وهناك التقوا بجعفر بن أبي طالب، فقال لهم إن رسول الله (ﷺ) أمرنا بالإقامة هنا فلتقيموا هنا إن أردتم فأقام هؤلاء الرجال هناك، وجاءوا إلى النبي (ﷺ) مع المهاجرين إلى الحبشة في فتح خيبر[1].

فالحقيقة أن طريق الإسلام كان مليئاً بالعراقيل والجهالة والوحشية، وكانت معرفته

---

[1] صحيح مسلم، فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس.وهذا نصه: (٦٣٦٣) ـــــ حدثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ بَرَّادٍ الأَشْعَرِيُّ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ الْهَمْدَانِيُّ. قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ. حَدَّثَنِي بُرَيْدٌ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، قَالَ: بَلَغَنَا مَخْرَجُ رَسُولِ اللّهِ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ. فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ. أَنَا وَأَخَوَانِ لِي. أَنَا أَصْغَرُهُمَا. أَحَدُهُمَا أَبُو بُرْدَةَ وَالآخَرُ أَبُو رُهْمٍ. ـــــ إِمَّا قَالَ بِضْعاً وَإِمَّا قَالَ: ثَلاَثَةً وَخَمْسِينَ أَوِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي ـــــ قَالَ: فَرَكِبْنَا سَفِينَةً. فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ. فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ. فَقَالَ جَعْفَرٌ: إِنَّ رَسُولَ اللّهِ بَعَثَنَا هٰهُنَا. وَأَمَرَنَا بِالإِقَامَةِ. فَأَقِيمُوا مَعَنَا. فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّىٰ قَدِمْنَا جَمِيعاً. قَالَ: فَوَافَقْنَا رَسُولَ اللّهِ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ. فَأَسْهَمَ لَنَا، أَوْ قَالَ أَعْطَانَا مِنْهَا. وَمَا قَسَمَ لأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئاً. إِلاَّ لِمَنْ شَهِدَ مَعَهُ. إِلاَّ لأَصْحَابِ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ. قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ. قَالَ: فَكَانَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا ـــ يَعْنِي لأَهْلِ السَّفِينَةِ ـــ: نَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ. قال: فَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، وَهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا، عَلَىٰ حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ زَائِرَةً وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ. فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَىٰ حَفْصَةَ، وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا. فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَىٰ أَسْمَاءَ: مَنْ هٰذِهِ؟ قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ. قَالَ عُمَرُ: الْحَبَشِيَّةُ هٰذِهِ؟ الْبَحْرِيَّةُ هٰذِهِ؟ فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: نَعَمْ: فَقَالَ عُمَرُ: سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ. فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ الله مِنْكُمْ. فَغَضِبَتْ. وَقَالَتْ كَلِمَةً: كَذَبْتَ. يَا عُمَرُ! كَلاَّ وَالله! كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ الله يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارٍ، أَوْ فِي أَرْضٍ، الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ فِي الْحَبَشَةِ. وَذَلِكَ فِي الله وَفِي رَسُولِهِ وَايْمُ الله! لاَ أَطْعَمُ طَعَاماً وَلاَ أَشْرَبُ شَرَاباً حَتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ الله. وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَىٰ وَنَخَافُ. وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله وَأَسْأَلُهُ. وَوَالله! لاَ أَكْذِبُ وَلاَ أَزِيغُ وَلاَ أَزِيدُ عَلَىٰ ذَلِكَ. قَالَ فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ الله! إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ رَسُولُ الله «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُم. وَلَهُ وَلاصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. وَلَكُمْ أَنْتُمْ، أَهْلَ السَّفِينَةِ، هِجْرَتَانِ». قَالَتْ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَىٰ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالاً. يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ. مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلاَ أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله. قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَىٰ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنِّي. (يوسف عامر).

بالمدينة والأخلاق العالية والكتب السماوية والديانات الأخرى هي أكبر محرك لانتشاره، ولقد أظهر القرآن الكريم هذا بنفسه.

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٩٧).

وهذا أيضاً نوع من الآيات، فهؤلاء الرجال الذين أتوا من البادية واعتنقوا الإسلام وتعلموا بعض المسائل ثم عادوا كان منهم من أخذ البيعة والتي كان اسمها "بيعة الأعرابي" وهو الذي اعتبر ذا منزلة أقل، وبناءً عليه ظل في البادية منعزلاً وكان يُعتبر معيبًا في عهد الصحابة، بل إن بعض الناس كان يعتبره من علامات الارتداد[1].

وسائل وأسباب انتشار الإسلام

حين نلقي نظرة فاحصة على المنهج الذي ننشر به النبي (ﷺ) الدين الحق بين العرب، وكيف تحقق له النجاح، فسوف يتضح لنا كيف انتشر الإسلام. وفي السطور التالية نجمل الحديث عن عوامل انتشار الإسلام:

١. كانت معجزة القرآن هي أولى أسباب انتشار وذيوع الإسلام، فالقرآن المجيد يلقن العقائد والمعارف والأخلاق بطريقة مؤثرة توجل القلب وتجتاز كل العوائق والعراقيل التي أمامها، وقدم القرآن لهؤلاء الذين كانوا منكرين لوجود الله أدلة واضحة لهم من طبيعة وأجرام سماوية تدل على قدرة الله وعظمته. يقول الله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٨).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٦٤)

---

[1] صحيح مسلم، الإمارة، وسنن النسائي كتاب البيعة.

﴿ولَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران :٨٣)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً...﴾(آل عمران:١٩٠، ١٩١)

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (يونس:٢٢)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾(الروم:٢١، ٢٣)

إن الاعتراف بوجود الله أو القوة العظمى هو من فطرة الإنسان **إلا** أن الغفلة والتأثر بالآباء وأسبابا أخرى تُميت هذه الفطرة أحيانًا.

﴿... أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ. ..﴾(إبراهيم: ١٠)

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٨).

لقد كان الملحدون قلة في العرب، فلقد كانْ أكثرهم مشركين، ومع أنهم كانوا يؤمنون بالله، فهم كانوا يؤمنون أيضًا بوجود إله آخر غيره وهو شريك لله يكتمل نظام الدنيا بيده، إن فطرة الإنسان هي التي جعلته يتعلق به مباشرة ويؤمن به ويحبه ويعبده كثيرًا، لذلك كان اعتقاد المشركين أن مطر السحب ومحصول الغلال وبقول النباتات هي من قبيل عمل الأصنام أو جميع الأجرام السماوية، لهذا فإن الشيء الذي كانوا عبيدًا له كان من هذه المعبودات. فكانوا يعبدونها ويحبونها وينذرون لها ويقدمون لها القرابين ويهتفون بأسمائها في الحرب، وبناءً على هذا كان العمل الحقيقي للنبي (ﷺ) هو القضاء على الشرك وعبادة الأصنام – ولهذا

السبب ورد في القرآن الكريم أدلة قليلة جدًا تتعلق بأصل الوجود، حيث كان أكثرها عن بطلان الشرك وتحقيره.

لقد كان القرآن الكريم يظهر أباطيل الشرك بأساليب غاية في التأثير. ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(النمل: ٦١-٦٤)

ولقد كان الكفار والمشركون ينكرون القيامة وكانوا يقولون «من يحيى العظام وهي رميم» وكان القرآن المجيد يخاطبهم.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (القيامة: ٣٧-٤٠)

والخلاصة أن القرآن الكريم كان يستخدم طريقة مؤثرة وجذابة للعبادات والأخلاق والأعمال وسائر الأشياء بحيث يُفسح لها مكانا في القلب. ولم يكن من الممكن إيقاف هذا الطوفان بسد العادات والتقاليد التي رسخ فوقها الكفر وكان أثر للأغراض الشخصية التي لم ينكرها القاضي العادل.

لقد سمع كبار الصحابة وكبار رؤساء القبائل وكبار الشعراء والخطباء القرآن الكريم فأمنوا، وقد كان عمر رضي الله عنه ذاهبا بنية (قتل زوج أخته الذي أسلم) إلا أنه عندما سمع آيات القرآن الكريم ارتعد واعتنق الإسلام، وكان عتبة سيد قريش وعالما بعلوم العرب جاء إلى النبي (ﷺ) وقال عد عن دعوة النبوة ونمدك بكل شيء، فقرأ (ﷺ)أوائل سورة حم وعندما وصل إلى الآية

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (حم - فصلت: ١٣)

اضطرب عتبة ثم وضع يده على فم النبي (ﷺ) وقال بالله عليك كفى، أستحلفك بصلة الرحم ثم عاد وقال لقريش إن كلام محمد الذي يقوله ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة[١] (وإنما شئ آخر). وقبل أن يعتنق أبو ذر رضي الله عنه الإسلام أرسل أخوه أنيس وكان من شعراء العرب للتحقق من حال النبي (ﷺ) فجاء إلى النبي (ﷺ) وسمع القرآن الكريم ثم ذهب وقال لأبي ذر رضي الله عنه إن الناس يقولون عنه إنه شاعر وكاهن لكنني أعلم كلام الشعراء والكهان، وكلامه مختلف عنهما، ثم ذهب أبو ذر بنفسه وعاد فأسلمت نصف قبيلته في هذا الوقت[٢].

---

[١] العلامة ابن تيمية الرواية عن مسند أبو العلى وغيره وفي الجواب الصحيح مجلد ٤ ص ٤٤ وأيضًا وردت هذه الرواية في مستدرك الحاكم.

[٢] صحيح مسلم فضائل أبو ذر رضي الله عنه. وهذا نصه: (٦٣١٢) ــــ حدثنا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ الأَزْدِيُّ. حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ. أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ هِلاَلٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرَ : خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارٍ. وكَانُوا يُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ. فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أُنَيْسٌ وَأُمُّنَا. فنزلْنَا عَلَىٰ خَالٍ لَنَا. فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا. فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أُنَيْسٌ. فَجَاءَ خَالُنَا فَنَثَا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ. فَقُلْتُ: أَمَّا مَا مَضَىٰ مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ، وَلاَ جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدُ. فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا. فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا. وَتَغَطَّىٰ خَالُنَا ثَوْبَهُ فَجَعَلَ يَبْكِي. فَانْطَلَقْنَا حَتَّىٰ نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ. فَنَافَرَ أُنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا. فَأَتَيَا الْكَاهِنَ. فَخَيَّرَ أُنَيْساً. فَأَتَانَا أُنَيْسٌ بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا. قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ، يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَىٰ رَسُولَ اللّهِ بِثَلاَثِ سِنِينَ. قُلْتُ: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلّهِ. قُلْتُ: فَأَيْنَ تَوَجَّهُ؟ قَالَ: أَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُوَجِّهُنِي رَبِّي. أُصَلِّي عِشَاءً حَتَّىٰ إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُلْقِيتُ كَأَنِّي خِفَاءٌ. حَتَّىٰ تَعْلُوَنِي الشَّمْسُ. فَقَالَ أُنَيْسٌ: إِنَّ لِي حَاجَةً بِمَكَّةَ فَاكْفِنِي. فَانْطَلَقَ أُنَيْسٌ حَتَّىٰ أَتَىٰ مَكَّةَ. فَرَاثَ عَلَيَّ. ثُمَّ جَاءَ فَقُلْتُ: مَاصَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رَجُلاً بِمَكَّةَ عَلَىٰ دِينِكَ. يَزْعُمُ أَنَّ اللّهَ أَرْسَلَهُ. قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ. وكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ. قَالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ. فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ. وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَىٰ أَقْرَاءِ الشِّعْرِ. فَمَا يَلْتَئِمُ عَلَىٰ لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ. وَاللّهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ. وَإِنَّهُم لَكَاذِبُونَ. قَالَ: قُلْتُ: فَاكْفِنِي حَتَّىٰ أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ. قَالَ: فَأَتَيْتُ مَكَّةَ. فَتَضَعَّفْتُ رَجُلاً مِنْهُمْ. فَقُلْتُ: أَيْنَ هٰذَا الَّذِي تَدْعُونَهُ الصَّابِىءَ؟ فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَقَالَ: الصَّابِىءَ فَمَالَ عَلَيَّ أَهْلُ الْوَادِي بِكُلِّ مَدَرَةٍ وَعَظْمٍ. حَتَّىٰ خَرَرْتُ مَغْشِيًّاعلَيَّ. قَالَ: فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ، كَأَنِّي نُصُبٌ أَحْمَرُ. قَالَ فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ فَغَسَلْتُ عَنِّي الدِّمَاءَ: وَشَرِبْتُ

وكان الوليد بن المغيرة (والد خالد بن الوليد ﷺ) من أشد أعداء الإسلام، وعندما جاء إلى النبي (ﷺ)، قرأ (ﷺ) هذه الآيات.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠)

مِنْ مَائِهَا. وَلَقَدْ لَبِثْتُ، يَا ابْنَ أَخِي ثَلاَثِينَ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ، مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلاَّ مَاءَ زَمْزَمَ. فَسَمِنْتُ حَتَّىٰ تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي. وَمَا وَجَدْتُ عَلَىٰ كَبِدِي سَخْفَةَ جُوعٍ. قَالَ: فَبَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إِضْحِيَانَ، إِذْ ضُرِبَ عَلَىٰ أَسْمِخَتِهِمْ. فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ. وَامْرَأَتَانِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إِسَافاً وَنَائِلَةَ. قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا فَقُلْتُ: أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الأُخْرَىٰ. قَالَ: فَمَا تَنَاهَتَا عَنْ قَوْلِهِمَا. قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ. فَقُلْتُ: هَنٌ مِثْلُ الْخَشَبَةِ. غَيْرَ أَنِّي لاَ أَكْنِي. فَانْطَلَقَتَا تُوَلْوِلاَنِ وَتَقُولاَنِ: لَوْ كَانَ هٰهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا. قَالَ: فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ اللّهِ وَأَبُو بَكْرٍ. وَهُمَا هَابِطَانِ. قَالَ: «مَا لَكُمَا؟» قَالَتَا: الصَّابِىءُ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا. قَالَ: «مَاقَالَ لَكُمَا؟» قَالَتَا: إِنَّهُ قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمْلأُ الْفَمَ. وَجَاءَ رَسُولُ اللّهِ حَتَّىٰ اسْتَلَمَ الْحَجَرَ. وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ. ثُمَّ صَلَّىٰ. فَلَمَّا قَضَىٰ صَلاَتَهُ قَالَ أَبُو ذَرَ فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلُ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الإِسْلاَمِ. قَالَ: فَقُلْتُ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللّهِ فَقَالَ «وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللّهِ». ثُمَّ قَالَ: «مَنْ أَنْتَ؟» قَالَ: قُلْتُ: مِنْ غِفَارٍ. قَالَ: فَأَهْوَىٰ بِيَدِهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَىٰ جَبْهَتِهِ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: كَرِهَ أَنِ انْتَمَيْتُ إِلَىٰ غِفَارٍ. فَذَهَبْتُ آخُذُ بِيَدِهِ. فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ. وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ. ثُمَّ قَالَ: «مَتَىٰ كُنْتَ هٰهُنَا؟» قَالَ: قُلْتُ: قَدْ كُنْتُ هٰهُنَا مُنْذُ ثَلاَثِينَ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ، قَالَ: «فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلاَّ مَاءُ زَمْزَمٍ. فَسَمِنْتُ حَتَّىٰ تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي. وَمَا أَجِدُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ. قَالَ: «إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ. إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللّهِ ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِهِ اللَّيْلَةَ. فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللّه وَأَبُو بَكْرٍ. وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا. فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَاباً. فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَبِيبِ الطَّائِفِ. وَكَانَ ذٰلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا. ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ. ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللّهِ فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِيَ أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ. لاَ أُرَاهَا إِلاَّ يَثْرِبَ. فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ؟ عَسَىٰ اللّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ». فَأَتَيْتُ أُنَيْساً فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ. قَالَ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكَ. فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ. فَأَتَيْنَا أُمَّنَا. فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةٌ عَنْ دِينِكُمَا. فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ. فَاحْتَمَلْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَاقَوْمَنَا غِفَاراً. فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ. وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ إِيمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ. وَكَانَ سَيِّدَهُمْ. وَقَالَ نِصْفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا. فَقَدِمَ رَسُولُ اللّهِ الْمَدِينَةَ. فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي. وَجَاءَتْ أَسْلَمُ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ إِخْوَتُنَا. نُسْلِمُ عَلَىٰ الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ. فَأَسْلَمُوا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «غِفَارُ غَفَرَ اللّهُ لَهَا: وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللّهُ»(يوسف عامر).

فقال الوليد اقرأ ثانية، فقرأ (ﷺ) مرة أخرى، فعاد إلى قريش ثم قال إنه ليس بكلام بشر(١).

وكان عثمان بن مظعون ﷺ صحابيا ومن السابقين في الإسلام، سمع تلك الآيات التي رأى قلبه بها نور الإسلام قبل الجميع، وكان ذاهبا إلى الكعبة فأجلسه النبي (ﷺ) في الطريق إلى القرب منه ثم قال (ﷺ) لقد نزل عليّ الآن هذا الكلام ثم قرأ النبي (ﷺ) الآيات السابقة، يقول عثمان ﷺ لقد كانت هذه هي المناسبة الأولى التي استقر الإسلام فيها في قلبه(٢).

كما سمع جبير بن مطعم في عهد الكفر سورة الطور من النبي (ﷺ) وعندما وصل إلى هذه الآية. ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المُسَيْطِرُونَ ﴾الطور:٣٥-٣٧) يقول جبير رضي الله عنه بنفسه كنت أعلم أن قلبي بدأ يفتتن(٣).

وكان الطفيل بن عمرو ﷺ شاعرا مشهورا ومن شرفاء العرب، ذهب إلى مكة قبل الهجرة، وعلم الناس بقدومه فذهبوا إليه وقالوا له عن النبي (ﷺ) لا تذهب إليه فهو يسحر الناس، ولكنه عندما سمع القرآن الكريم من لسان النبي (ﷺ) صدفةً لم يستطع الصمود وأسلم(٤).

---

(١) الجواب الصحيح مجلد ٤ صـ ٤٦ نقلا عن عبد الرزاق.

(٢) مسند ابن حنبل الجزء الأول صـ ٣١٨، وأدب المفرد الإمام البخاري باب البغى.

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير سورة الطور. وهذا نصه: (٤٧٣٥) ـــ حدَّثَنا الحُمَيْدي حدَّثَنا سفيانُ قال: حدثوني عن الزُّهريِّ عن محمَّد بن جُبَير بن مُطْعِم عن أَبيهِ رضيَ اللّهُ عنه قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقرأُ في المَغْرِبِ بالطُّورِ، فلما بَلَغَ هذه الآيةَ: {أَمْ خُلقوا مِن غير شيءٍ أَمْ هُمُ الخالِقون؟ أَمْ خَلَقوا السَّماواتِ والأرضَ؟ بَلْ لا يوقنون. أَمْ عِنْدهم خَزائنُ رَبِّك، أَمْ هم المُسَيْطرون} (الطور: ٣٥ ــ ٣٧) كادَ قَلْبي أنْ يَطيرَ. قال سفيانُ فأمّا أنا فإنما سمِعت الزُّهْريَّ يحدِّثُ عن محمَّد بن جبَير بن مُطعم عن أبيه سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ في المغرِب بالطُّور، لم أَسْمَعْه زاد الذي قالوا لي».(يوسف عامر).

(٤) كتب ابن القيم عن إسلامه في (زاد المعاد) بالتفصيل وكتب نقلاً عن بن اسحاق.

وعندما سافر النبي (ﷺ) إلى الطائف قبل الهجرة لدعوة المشركين إلى الإسلام وكان الرد عليه هناك بالحجارة ومع ذلك فقد سمع منه خالد العدواني ﷺ «والسماء والطارق» فتأثر حتى أنه حفظ السورة كاملة وهو في حالة الكفر هذه ثم أسلم في النهاية[١].

لقد أجار بعض المشركين أبا بكر ﷺ أثناء إقامته بمكة فقام ببناء مسجد في هذا الوقت كان يصلي فيه، إلا أنه كان يصلي بصوت عال يسمعه شباب ونساء الحي فيتجمعون ويسمعون القرآن وتنجذب قلوبهم تلقائيًا إلى الإسلام؛ لذلك اشتكى الكفار من أبي بكر (وقالوا له) «لا تجهر بالقرآن حتى لا يفتتن به أولادنا ونسائنا»[٢]. وعندما أعتنق الأنصار الأوائل الإسلام في العقبة كان بسبب سماعهم للقرآن. فكان الرسول (ﷺ) يُرسل إليهم الدعاة فيحفّظونهم القرآن، وأينما كانوا يذهبون كانوا يحسنون استغلال هذه الآلة المؤثرة، فعندما أرسل كفار قريش سفراءهم إلى بلاط النجاشي، واستدعى النجاشي المسلمين بناءً على شكواهم، وسألهم فقرأ جعفر الطيار ﷺ بعض آيات القرآن الكريم فبكى النجاشي بطريقة لا إرادية ثم قال «والله إن هذا الكلام والإنجيل قد خرجا من مشكاة واحدة»[٣].

---

(١) مسند بن حنبل ج ٤ صـ ٣٣٥.

(٢) البخاري، ذكر الهجرة.

(٣) مسند ابن حنبل ج ٥ صـ ٢٩١.وهذا نصه: حديث جعفر بن أبي طالب هو حديث الهجرة (١٧٥١) ـــ حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا يعقوب ثنا أبي عن محمد بن إسحاق حدَّثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أُم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشي، آمنًا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدّموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم، قالت :

فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جار، فلم يبــق مــن بطارقتــه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم إنه قد صبا إلــى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤا بدين مبتــدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملــك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بمــا عــابوا عليهم، فقالوا لهما : نعم، ثم إنهما قرَّبا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلّماه فقالا له : أيها الملك، إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم مــن آبــائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص مــن أن يــسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلِمْهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قال : فغضب النجاشي ثم قال : لا، ها الله، أيم الله إذاً، لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولــون أســلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جــوارهم مــا جاوروني، قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وســلم فــدعاهم، فلمــا جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل وإذا جئتموه؟ قالوا : نقول : والله ما علّمنا وما أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جــاءوه ــ وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ــ سألهم فقال : ما هذا الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت : فكان الذي كلّمه جعفــر بن أبي طالب، فقال له : أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الخوارج، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنــا بالصلاة والزكاة والصيام ــ قال : فعدد عليه أمور الإسلام ــ فصدقناه وآمنا به، واتبعنــاه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّمَ علينا، وأحلَلنا ما أحــلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننــا وبــين

ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاءه به من الله من شيء؟ قالت : فقال له جعفر : نعم، فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدراً من { كهيعص } قالت : فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي : إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد، قالت أُم سلمة : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لأنبئنهم غداً عيبهم عندهم ثم أستأصل به خضراهم، قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة : وكان ــ أتقى الرجلين فينا ــ لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت : ثم غدا عليه الغد، فقال : أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فأسألهم عما يقولون فيه، فأرسل إليهم يسألهم عنه قالت : ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال : بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا : نقول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت : فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال : وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ــ والسيوم الآمنون ــ من سبّكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبراً ذهباً وإني آذيت رجلاً ــ والدبر بلسان الحبشة : الجعل ــ، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، قالت : فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، قالت : فوالله إنا على ذلك إذ نزل به ــ يعني من ينازعه في ملكه ــ قالت : فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك، تخوّفاً أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت : وسار النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت : فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت : فقال الزبير بن العوّام : أنا، قالت : وكان من أحدث القوم سناً قالت : فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت : ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوّه والتمكين له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ». (يوسف عامر).

وعندما ذاع صيت بعثته (ﷺ) كان هناك عــشرون رجــلاً علــى ديــن النصرانية قد جاءوا إلى النبي (ﷺ) في مكة لتقصي الحقيقة فقرأ النبي (ﷺ) عليهم آيات القرآن المجيد فسالت الدموع من أعينهم بطريقة لا إرادية واعتنقوا الإسلام في الحال، وقام هؤلاء الرجال من عند رسول الله (ﷺ) فالتقى بهم أبو جهل وقال إنكم قوم شديدو الحمق أتيتم من سفر بعيد وبدلتم دينكم في لحظة، فقالوا: إننــا لا نريد قتالك[١]. كما أن صدق نبؤات القرآن قد استمالت قلوب الناس أيضًا؛ لــذلك فإن اليوم الذي انتصر فيه الروم على الفرس والذي كان قد تنبــأ بــه (القــرآن) وحدث بالفعل أسلم فيه الكثير من الكفار[٢].

---

[١] ابن هشام ج ١ ص ١٣٦ طبعة مصر، ذكر هجرة الحبشة.

[٢] صحيح الترمذي تفسير سورة الروم. وهذا نص الحديث: (٣٣١٤) ــــ حدثنا مُحَمَّدُ بنُ إسْمَاعِيلُ حدثنا اسْمَاعِيلُ بنُ أبِي أُوَيْسٍ حدثني ابنُ أبِي الزِّنَادِ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَن عُروَةَ بــنِ الزُّبَيْرِ عَن نِيَارِ بن مُكْرَمٍ الأَسلَمِيِّ، قَالَ «لَمَّا نَزَلَت {الم غُلِبَتِ الرُّومُ في أدْنَى الأَرْضِ وَهُــمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِينَ} فَكانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَــاهِرِينَ لِلــرُّومِ وكانَ المُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لأَنَّهُمْ وإيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وفي ذَلكَ قَولُ الله تَعَالَى {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بِنَصرِ الله يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ} وكَانتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهورَ فَارِسَ لأَنَّهُمْ وإيَّاهُمْ لَيْسُوا بأَهْلِ كِتَابٍ وَلاَ إيمَانٍ بِبَعْثٍ، فَلَمَّا أَنْزَلَ تَعَالَى الله هَذِهِ الآيَــةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَصِيحُ في نَوَاحِي مَكَّةَ {الم غُلِبَتِ الرُّومُ فــي أدْنَــى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِينَ} قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لأَبِي بَكْــرٍ فَــذَلكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ زَعَمَ صَاحِبُكم أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ أَفَلاَ نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلكَ قَالَ بَلَى، وَذَلكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ والمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ وقَالُوا لأَبِــي بَكْرٍ كَمْ تَجْعَلُ البِضْعَ ثَلاَثَ سِنِينَ إلى تِسْعِ سِنِينَ فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطاً تَنْتَهِــي إليــه. قَــالَ فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، قَالَ فَمَضَتِ السِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا فأَخَذَ المُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِــي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ فَعَابَ المُسْلِمُونَ عَلَى أَبِــي بَكْــرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ قَالَ لأَنَّ الله تعالى قَالَ في بِضْعِ سِنِينَ، قَالَ وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلكَ نَاسٌ كَثِيرٌ».
قال أبو عيسَى: هَذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ أَبي الزِّنَادِ.(يوسف عامر).

حكمة

هناك اعتقاد عام بأن العرب كانوا يستمعون إلى القــرآن الكــريم، ثــم يعتنقون بعدها الإسلام، وذلك بسبب إعجازه وفصاحته وبلاغته وذلك لأن الشعر والخطابة قد ذاع صيتهما بين العرب وكان الناس جميعا يتذوقون الــشعر؛ لهــذا فإنهم عندما رأوا أنه ليس لكلام أي شاعر أو خطيب مثل ما لهذه الكلام الفــصيح والبليغ، كانوا يعتنقون الإسلام.

مما لا شك فيه أن القرآن المجيد معجز من حيث فصاحته وبلاغته إلا أن إعجازه في المعنى والمقاصد أكثر إعجازًا منها في العبارة والإنشاء.

فلتفترضوا أن القرآن المجيد معجز من حيث الفصاحة والبلاغة كما هــو الآن ولكن ليس فيه سوى أحداث تاريخية أو أي أمر آخر من هذا النوع، فما هو الأثر الذي يمكن أن يحدثه؟ إن القرآن الكريم معجز في الفصاحة والبلاغة مــن ناحية ومن ناحية أخرى لأنه يقدم المقاصد والمطالب التي هي مقاصد ومطالــب الإسلام. يطرح القرآن تلك المطالب كتعظيم وجلال الله وتحقير وإهانة الأصــنام وتعبد وعجز الإنسان والثواب والعقاب والبعث والحشر وتقبيح الظلــم والجــور والثناء على الأخلاق الحسنة والتي كانت تتغلغل في القلوب تلقائيًــا ولــم يكــن يتراءى لهم أنهم أذعنوا لتلك الأمور لهذا آمنوا وإنما لأن تلك الأمور كانت تقــع في قلوبهم مباشرة فكانوا يُسلمون.

إزالة العراقيل

كانت هناك أشياء تحول بين العرب وبين الإسلام مــن أهمهــا – كمــا أوضحنا سابقًا – معتقداتهم وأوهامهم الباطلة والتي كانت تتواتر منذ آلاف السنين أو الاحتياجات السياسية والاجتماعية، والتي اجتثها القــرآن الكــريم والإعجــاز النبوي، لقد كان من بين العرب رجال ذوو فطنة وتأثير ولم يكونــوا عــاجزين بسبب الدواعي السياسية، لهذا لم يكن من الممكن أن يسمعوا القرآن الكــريم ولا تمحى جميع معتقداتهم وأوهامهم فجأة. إن أصحاب التأثير هؤلاء عنــدما كــانوا يتأثرون بنفسهم كان يُسلم آلاف الأشخاص بتأثير منهم، لأن رئيس القبيلــة كــان يعتبر عقل قبيلته وقلبها كلها طبقًا لعادة القبائل.

إن هؤلاء القوم الذين لم يكونوا يريدون الإصغاء لدعوة الإسلام مطلقًا بسبب الدواعي السياسية وهاجموا مراراً مقر النبوة (المدينة المنورة)، إلا أن النصر الإلهي هزمهم واضطروا في النهاية إلى القعود، لقد هلك بعضهم ودخل بعضهم الإسلام مجبرًا وفي النهاية وشيئًا فشيئًا أسلم الكثير منهم.

لقد كانت إمارة القبائل تعارض الإسلام من الناحية السياسية ولكنها كانت تؤيد الإسلام من وجوه أخرى، فديمقراطية الإسلام كانت مخالفة إلى حد ما للإمارة، حيث كانت مناصرة لكل أفراد القبيلة، ولو أن الإسلام كان يُنقص من شأن وحرية الرئيس لتراءى لآلاف الرجال أن كل شخص كفوء لأن يكون الرئيس إذا اعتنق الإسلام، ولو كان هدف الإسلام القضاء على الرئاسة لكان قد أوجد رئيسًا للكثيرين.

فالإسلام لا يلغى إمارة الرؤساء أبدًا، وإنما كانوا يبقون رؤساء لقبائلهم بعد اعتناقهم الإسلام، والذي حدث أن سلطتهم لم تعد مطلقة العنان ودون قيد، إذ كانت مقيدة بالأحكام الإسلامية، لهذا فلو أن شخصا كان يريد مصلحة شخصية فإن هذه الصفقة لا تتم له وجماعة المؤلفة قلوبهم مثيل صريح لهذا.

والآن فقط يمكن أن يكون الحاجة الاجتماعية عقبة لكن لقد كان يتراءى للناس في تلك الحدود التي تقام عليها الحكم الإسلامي أن التجارة وسبل المعيشة الأخرى ترتقي بشدة بسبب إقامة الأمن والأمان هناك.

٢. كانت لديهم شكوك فيما يتعلق بالنبوة، لكن المشاهدة والتجربة أزاحت تلك الشكوك عنهم، فأعظم تخيل للإنسانية والحياة الطاهرة يمكن أن ترد في عقل إنسان كانت حياة النبي (ﷺ) أسمى وأعلى منها. لقد كان يتراءى لهم أن مدعي النبوة يمكن أن يكون في صورة البشر ظاهريًا ولكنه مخلوق فوق البشرية من حيث حياته المعنوية وأخلاقه المعجزة وعلمه ومعرفته الخارقة ومعجزاته الربانية ﴿**مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ (يوسف:٣١) لقد دلل القرآن الكريم على صدق نبوة النبي (ﷺ) بهذه الحياة الطاهرة البريئة. قال الله تعالى: ﴿ **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ (يونس: ١٦).

لقد كان إعجاز الحياة هو الذي حصل به النبي (ﷺ) على لقب الأمين قبل ظهور النبوة، فليس هناك شخص أعلم بالأحوال والأخلاق الحقيقية لإنسان مستقيم من زوجته فمن كان أول مؤمن بنبوة النبي (ﷺ)؟ إنها أم المؤمنين خديجة بنت خويلد لكن ماذا كان سر هذا الإيمان القوي؟ إن الأربعين عام المعجزة وحنكة الأوصاف والظروف الخارقة هي التي لقبت الرسول نفسه ومنحته سكينة النبوة في تلك الألفاظ « كَلاّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقِّ »[1].

---

[1] صحيح البخاري بدء الوحي. وهذا نص الحديث: (٣) ـــ حدّثنا يَحيى بنُ بُكَيْر قال: حدَّثنا اللَّيثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ أنَّها قالتْ: أوَّلُ مابُدِىءَ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخلُو بغارِ حِراءٍ فيَتَحَنَّثُ فيهِ ــ وهو التَّعَبُّدُ ــ اللياليَ ذواتِ العدَدِ، قَبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلِهِ ويتزوَّدُ لذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَديجةَ فيَتَزَوَّدُ لمثلِها، حتَّى جاءَهُ الحَق وهوَ في غارِ حِراءٍ، فجاءَهُ المَلَكُ فقال: اقْرَأْ. قالَ: ما أنا بقارِىءٍ. قال: فأخذَني فغَطَّني حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرْسَلَني فقال: اقْرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارِىءٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثانيةَ حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقْرَأْ فقلت: ما أنا بقارِىءٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: {اقرأ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكرَمُ} فرجعَ بها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدخلَ على خَديجةَ بنتِ خُوَيلِدٍ رضِيَ اللهُ عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني. فزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهبَ عنهُ الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خَشيتُ على نَفْسي. فقالت خَديجةُ: كَلاّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقِّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حتى أتتْ بهِ ورقةَ بنَ نوفَلِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى ــ ابنَ عَمِّ خديجة ــ وكانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ في الجاهليَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكِتابَ العِبْرانيَّ، فيكتُبُ منَ الإنجيلِ بالعِبْرانيَّةِ ماشاءَ اللهُ أن يَكتُبَ، وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: ياابنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِن ابنِ أخيكَ. فقال لهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا ترَى؟ فأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ مارأى. فقال له ورَقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، ياليْتني فيها جَذَعٌ، لَيْتني أكونُ حَيّاً إذْ يُخْرِجُكَ قوْمُك. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال: نَعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ماجئتَ به إلاّ عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ.(يوسف عامر).

لقد سمع أبو ذر الغفاري بنبوة النبي (ﷺ) عندما ذاع صيتها بين العـرب فأرسل أخاه «أنيس» لتقصي الحقيقة، فعاد وقال وأثر النبوة في تلـك الألفـاظ « واللهِ لقد رأيتُ رجلاً يأمُرُ بالخير، وينهىَ عنِ الشر »[1].

---

[1] صحيح البخاري المجلد الأول صــ ٤٩٩ قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه.وهذا نـصه: (٣٤٤٦) ـــ حدّثنا زيدٌ هو ابن أخْزَمَ قال أبو قتَيبةَ سَلْمُ بنُ قتيبةَ حدَّثني مُثَنَّى بـنُ سـعيدٍ القصيرُ قال: حدثني أبو جمرةَ قال: «قال لنا ابن عبّاسٍ: ألا أُخبرُكم بإسلام أبي ذرٍ؟ قـال: قلنا: بَلى. قال: قال أبو ذَر: كنتُ رجلاً من غِفارٍ، فبلَغنا أنَّ رجلاً قد خرَجَ بمكةَ يَزعُمُ أنَّـهُ نبيّ، فقلتُ لأخي: انطلِقْ إلى هذا الرجلِ، كلمهُ وأْتِني بخبره. فانطلَقَ فلقِيَه ثمَّ رَجعَ، فقلت: ما عندك؟ فقال: واللهِ لقد رأيتُ رجلاً يأمُرُ بالخير، وينهى عنِ الشر. فقلت له: لم تَـشفِني مَـنَ الخبر، فأخذتُ جِراباً وعَصاً. ثمَّ أقبَلتُ إلى مكةَ فجعلت لا أعرفهُ، وأكرَهُ أن أسـألَ عنـه، وأشرَبُ من ماءَ زمزَمَ وأكونُ في المسجدِ. قال: فمرَّ بي عليٌّ فقال: كأنَّ الرجُلَ غَريب؟ قال: قلت: نعم. قال: فانطلِقْ إلى المنزلِ. قال: فانطلَقْتُ معهُ لا يَسألُني عن شيء ولا أُخبِرُه. فلما أصبَحتُ غدَوتُ إلى المسجدِ لأسأل عنهُ، وليس أحدٌ يخبرُني عنه بشيء. قال: فمرَّ بي عليٌّ فقال: أما نالَ للرجُلِ يعرفُ منزلَه بعد؟ قال: قلت. لا. قال: انطلِقْ معي، قـال: فقـال: مـا أمرُك، وما أقدَمَكَ هذه البلدةَ؟ قال: قلتُ له: إن كتمتَ عليَّ أخبرتُك. قال: فإني أفعلُ. قـال: قلتُ له: بلَغَنا أنه قد خرَجَ ها هنا رجل يزعُمُ أنهُ نبيّ، فأرسلتُ أخي ليكلمَـهُ، فرجـعَ ولـم يَشفِني منَ الخبرِ، فأردتُ أن ألقاهُ. فقال له: أما إنكَ قد رَشدْتَ. هذا وَجهي إليـه، فـاتَّبِعْني، ادخُلْ حيثُ أدْخُلُ، فإني إن رأيتُ أحداً أخافهُ عليكَ قمتُ إلى الحائط كـأني أُصـلِحُ نَعلـي، وامضِ أنتَ. فمَضى ومَضَيتُ معه، حتى دَخلَ ودَخلتُ معه على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقلتُ له: اعرِضْ عليَّ الإسلامَ، فعَرَضَهُ، فأسلمتُ مكاني. فقال لي: يا أبـا ذَرّ. اكـتُمْ هـذا الأمر، وارجعْ إلى بلَدِكَ، فإذا بَلغَكَ ظهورُنا فأقبِلْ. فقلتُ: والذي بَعثَكَ بالحقّ لأصرُخَنَّ بهـا بينَ أظهُرِهم. فجاءَ إلى المسجدِ وقرَيشٌ فيه فقال: يا مَعشرَ قرَيش، إني أشهدُ أن لا إلـهَ إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الـصابِيء، فقـاموا: فـضُرِبتُ لأموتَ، فأدركَني العباسُ فأكبَّ عليَّ، ثمَّ أقبلَ عليهم فقال: وَيلَكم، تقتلونَ رجلاً مـن غِفـارَ، ومَتْجَرُكم ومَمَركُم على غِفار؟ فأقلَعوا عني. فلمّا أن أصبَحت الغدَ رَجعتُ فقلت مثلَ ما قلتُ بالأمس. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابيء، فصُنع بي مثل ما صُنِعَ بالأمس، وأدركَني العبّاس فأكبَّ عليَّ وقال مثلَ مقالته بالأمس. قال: فكان هذا أوّلَ إسلامِ أبي ذَرٍّ رحمه الله».(يوسـف عامر).

وبعد النبوة لم تخف قريش أي نوع من أنواع العداوة والحقد ضد النبي (ﷺ)، ومع ذلك لم يُنسب للنبي (ﷺ) أي جرم أخلاقي مهين، فعندما صعد النبي (ﷺ) الجبل كأول مناسبة للجهر بالدعوة (وقال): أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلاّ صدقاً »[1]. وأبو سفيان الذي كان من أشد أعداء الإسلام حتى السنة الثامنة من الهجرة كان يدلي بشهادته فيما يتعلق بأوصاف وأخلاق النبي (ﷺ) مع جماعة من كفار قريش في بلاط هرقل قيصر الروم في العام السادس للهجرة، ومع ذلك لم يتمكن من قول حرف واحد يخالف الحقيقة، فشهد أن محمدا (ﷺ) لم يكذب مطلقًا، ولم يخلف عهدًا مطلقًا، ينهى عن الشرك ويدعو إلى التوحيد، ويحض على صلة الرحم والعفة والصدق والعبادة، وكان هرقل يقول مع كل جملة إنها من آثار ودلائل النبوة، وكان ذلك أول يوم أيقن فيه قلب أبو سفيان انتصار النبي(ﷺ)[2].

لقد ذكرنا بالتفصيل في المجلد الثاني جميع محاسن أخلاق النبي (ﷺ) أي الرفق واللين وحسن المعاملة والجود والكرم، وعدم العنف والعفو والسماحة والتي توضع بإلقاء نظرة خاطفة عليها أن النبي (ﷺ) كان في الحقيقة معجزة. فلقد وهب معجزة تسخير القلوب، ويخبر القرآن الكريم بدقة عن هذه الحكمة. قال الله تعالى: **﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)**.

لقد كانت جاذبيته المعجزة تجذب الناس وتدخلهم في دائرة الإسلام وتقضي في لحظة على الأوهام والشكوك الجاهلية للكفار، ففي صحيح مسلم أن

---

(١) صحيح البخاري تفسير سورة «المسد» وصحيح مسلم كتب الإيمان. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٦٥٢) ـــ حدَّثنا عمرُ بن حفصِ بن غياثٍ حدَّثنا أبي حدَّثنا الأعمشُ حدَّثني عمروُ بن مُرَّةَ عن سعيدِ بن جُبيرٍ عنِ ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما قال: «لما نَزَلت {وأنذرِ عَشيرَتَكَ الأقرَبين} صَعَدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الصَّفا فجعل يُنادي: يا بني فِهر، يا بني عَديّ ـ لبطونِ قُرَيشٍ ـ حتى اجتمعوا، فجعلَ الرجلُ إذا لم يَستطعْ أن يَخرجَ أرسل رسولاً لينظرَ ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: أرأيتَكُم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تُغيرَ عليكم أكنتم مُصدِّقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلاّ صِدقاً. قال: فإني نَذيرٌ لكم بينَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ. فقال أبو لهب: تَبّاً لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتَنا؟ فنَزَلت {تَبَّتْ يدا أبي لهبٍ وتَبّ. ما أغنى عنه ماله وما كَسَب}» (المسد: ١، ٢).(يوسف عامر).

(٢) صحيح البخاري بدء الوحي.

شخصا طلب من النبي (ﷺ) أغنامًا كثيرة، فأعطاه، فأثر فيض النبي (ﷺ) عليه حتى أنه ذهب إلى قبيلته وقال « يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا. فَإِنَّ مُحَمَّداً يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَىٰ الْفَاقَةَ »[١].

وعندما أسلم صفوان بن امية في فتح مكة مجبرًا أعطاه النبي (ﷺ) ثلاث مائة من الإبل، يقول صفوان: وَاللّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّهِ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّىٰ إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ[٢]، وكانت هند من أشد أعداء أسرة النبوة فلقد شقت بطن عضد الإسلام حمزة رضي الله عنه، وأخرجت كبده ومضغتها ولم تستطع بلعها فتفلتها، وقامت بقطع أذن وأنوف بعض الشهداء ونظمتها عقدًا. وفي فتح مكة تنكرت وجاءت إلى النبي (ﷺ) لاعتناق الإسلام وكانت لا تزال على أسائتها، لكنها وصلت إلى مقر النبوة، وتأثرت بحسن الخلق حتى أنها قالت مسلوبة الإرادة « يا رسولَ اللّه، ما كان مما على ظهر الأرض أهلُ أخباءٍ ــ أو خباء ــ أحبَّ إليَّ أن يَذِلُّوا من أهل أخبائك ــ أو خبائك، شكَّ يحيى ــ ثمَّ ما أصبحَ اليومَ أهلُ أخباء أو خباء أحبَّ إليَّ من أن يَعزُّوا من أهل

---

[١] صحيح مسلم ج ٢ صـ ٢٩٠ باب ما سئل الرسول شيئًا قط فقال لا، وصحيح البخاري باب حسن الخلق والسخاء.وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٥٩٧٣) ــ وحدثنا عاصِمُ بْنُ النَّضْرِ التَّيْمِيُّ. حَدَّثَنَا خَالِدٌ يَعْنِي ابْنَ الْحَارِثِ. حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللّهِ عَلَىٰ الإِسْلاَمِ شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ. قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَماً بَيْنَ جَبَلَيْنِ. فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا. فَإِنَّ مُحَمَّداً يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَىٰ الْفَاقَةَ.(يوسف عامر).

[٢] صحيح مسلم الباب السابق. وهذا نص الحديث: (٥٩٧٥) ــ وحدثني أَبُو الطَّاهِرِ، أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ. أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ وهْبٍ. أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: غَزَا رَسُولُ اللّهِ غَزْوَةَ الْفَتْحِ، فَتْحِ مَكَّةَ. ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ. فَنَصَرَ اللّهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ. وَأَعْطَىٰ رَسُولُ اللّهِ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ. ثُمَّ مِائَةً. ثُمَّ مِائَةً. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَاللّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللّهِ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ. فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّىٰ إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ.(يوسف عامر).

أخبائك أو خبائك. قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: وأيضاً والذي نفسُ محمدٍ بيده.»[١].

كان على النبي (ﷺ) دينًا لعالم يهودي، فطلب دينه فأخبره النبي (ﷺ) ليس معه شيء الآن، فقال إنك ستغيب عني فجلس معه النبي (ﷺ) من الظهر وحتى صلاة الفجر. فأظهر الصحابة عدم الرضا لسوء أدب اليهودي وقالوا لرسول الله (ﷺ) يا رسول الله ! لقد منعك يهودي. فأخبرهم النبي (ﷺ) بأن ما قالوه صحيح، ولكن الله منعه ﷺ عن ظلم أهل الكتاب أو أي شخص آخر. وما إن طلع النهار حتى نطق اليهودي بكلمة التوحيد وقال «إن نصف مالي صدقة في سبيل الله، إنني أساءت الأدب لأن في التوراة ذكر لأوصاف الرسل التي أستدل عليها[٢].

كان ثمامة بن أثال سيد اليمامة عدوًا لدودًا للإسلام، وحين أرسل النبي ﷺ سرية من الصحابة رضوان الله عليهم إلى نجد، فلاقت ثمامة صدفة فى الطريق، وقبضت عليه، وأتت به إلى المدينة المنورة، ثم رُبط فى سارية من سواري المسجد النبوي، فخرج إليه النبي ﷺ وقال:«مَاذَا عِنْدَكَ؟ يَا ثُمَامَةُ»! فَقَالَ: عِنْدِي، يَا مُحَمَّدُ! خَيْرٌ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ. وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ. وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللّه. حَتَّىٰ كَانَ بَعْدَ الْغَد. فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ؟ يَا ثُمَامَةُ!» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ. إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ. وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللّه حَتَّىٰ كَانَ مِنَ الْغَدِ. فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ؟ يَا ثُمَامَةُ!» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ

---

[١] صحيح مسلم المجلد الثاني ص ٥٥ باب قضية هند. وهذا نص الحديث: (٦٤٩٣) ــــ حدَّثنا يحيى بنُ بُكَير حدَّثنا الليثُ عن يونسَ عن ابن شهابٍ حدَّثني عروةُ بن الزُّبير أنَّ عائشة رضيَ اللّهُ عنها قالت: «إنَّ هندَ بنتَ عتبة بن ربيعة قالت: يا رسولَ اللّه، ما كان مما على ظهر الأرض أهلُ أخباءٍ ــ أو خباء ــ أحبَّ إليَّ أن يَذِلُّوا من أهل أخبائك ــ أو خبائك، شكَّ يحيى ــ ثمَّ ما أصبحَ اليومَ أهلُ أخباء أو خباء أحبَّ إليَّ من أن يَعزُّوا من أهل أخبائك أو خبائك. قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: وأيضاً والذي نفسُ محمدٍ بيده. قالت: يا رسولَ اللّه، إن أبا سفيان رجلٌ مسِّيكٌ، فهل عليَّ حَرَجٌ أن أُطعمَ منَ الذي له؟ قال: لا، إلا بالمعروف».(يوسف عامر).

[٢] المشكاة ص ٥٢١ كتاب الفتن في أخلاقه صلى الله عليه وسلم.

شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَانْطَلَقَ إِلَىٰ نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ. فَاغْتَسَلَ. ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. يَا مُحَمَّدُ! وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ كُلِّهَا إِلَيَّ». (١)

---

(١) صحيح مسلم، جـ ٢، ص ٧٦، كتاب الجهاد والسير. وهذا نص الحديث كما ورد في باب ربط الأسير وحبسه، وجواز المنّ عليه (٤٥٤٣) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ : حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ؟ يَا ثُمَامَةُ»! فَقَالَ: عِنْدِي، يَا مُحَمَّدُ! خَيْرٌ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ. وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ، حَتَّىٰ كَانَ بَعْدَ الْغَدِ. فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ؟ يَا ثُمَامَةُ!» قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ. إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ. وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّىٰ كَانَ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ؟ يَا ثُمَامَةُ!» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فَانْطَلَقَ إِلَىٰ نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. يَا مُحَمَّدُ! وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَىٰ؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ. فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لاَ. وَلَـٰكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ. وَلاَ، وَاللَّهِ! لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّىٰ يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ. (يوسف عامر)

بينما كان النبي ﷺ فى سفر مع صحابته الكرام، ونفذ ما معهم من مــاء، واشتكي إليه ﷺ الناس من العطش، فأرسل ﷺ صحابيًا [١] مع علي ﷺ للبحث عن ماء، فانطلقا فتلقَّيا امرأةً بين مَزادَتَينِ ـ أو سَطيحَتَينِ ـ من ماءٍ عَلَى بَعيرٍ لهــا فقالا لها: أينَ الماءُ؟ قالتْ: عَهدِي بالماءِ أمسِ هذهِ الساعةَ، وَنَفَرُنا خُلُوفٌ. قــالا لها: انطَلِقِي إذاً. قالت: إلى أينَ؟ قالا: إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم. قالتِ الذي يُقالُ له الصابِىءُ؟ قالا: هو الذي تَعْنِينَ، فانْطَلِقي. فجاء بها إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وحدَّثاهُ الحديثَ. قال: فاستَنْزَلوها عن بَعيرِها، وَدَعَا النبيُّ صلى الله عليه وسلم بإناءٍ ففرَّغَ فيه مِن أفواهِ المَزادَتَينِ ـ أو السَّطيحتَينِ ـ وَأَوْكَأَ أَفْواهَهُما وَأَطلَقَ العَزاليَ وَنُودِيَ في الناسِ: اسقُوا واستَقُوا. فسَقَى مَن شاءَ واســتَقَى مَــن شاء. وَهيَ قائمةٌ تَنظُرُ إلى ما يُفْعَلُ بمائِها. وأيمُ اللّهِ لقدْ أُقلِعَ عنها وَإنه لَيُخيَّلُ إلينا أنها أشدُّ مِلأَةً منها حينَ ابتَدَأَ فيها. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اجْمَعوا لهــا فجَمَعوا لها ـ مِن بينِ عَجْوَةٍ وَدَقيقةٍ وَسَويقةٍ ـ حتى جَمَعوا لها طَعاماً، فجَعلوها في ثَوبٍ وحَمَلوها عَلَى بَعيرِها وَوَضَعوا الثَّوبَ بينَ يَدَيْها، قال لها: تَعلَمِــينَ مــا رَزِئنا من مائكِ شَيئاً، ولَكنَّ اللّهَ هوَ الذي أسقانا. فأَتَتْ أهلَها وقد احتبَسَتْ عــنهم. قالوا: ما حَبَسكِ يا فُلانةُ؟ قالت: العَجَبُ، لَقِيَني رَجُلانِ فذَهَبا بي إلى هــذا الــذي يُقالُ لهُ الصابِىءُ، ففعلَ كذا وكذا، فواللّهِ إنه لأسْحَرُ الناسِ مِن بينِ هذهِ وهــذهِ ـ وقالت بإصبَعَيْها الوُسطى والسَّبَّابةِ فرَفَعَتْهما إلى السماء تعني الــسماءَ والأرضَ- أوَ إنه لَرسولُ اللّهِ حَقّاً.[٢]

---

[١] هو أبو رجاء. للمزيد انظر صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب الصعيد الطيــب وضــوء المسلم يكفيه من الماء. (يوسف عامر).

[٢] وهذا نصه كما ورد فى صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المــسلم يكفيه من الماء. (٣٤٢) حدَّثنا مُسَدَّدٌ قال: حدَّثني يحيى بنُ سَعيدٍ قال: حدَّثنا عَوفٌ قــال: حدَّثنا أبو رَجاءٍ عن عِمرانَ قال: كنّا في سَفَرٍ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وإنّا أَسْــرَينا حتى إذا كنّا في آخرِ الليلِ وَقَعْنا وَقعةً ولا وَقعةَ أحلَى عِندَ المُسافرِ منها، فما أيقظَنا إلاّ حَرُّ الشمسِ، وكان أَوّلَ مَنِ استَيقَظَ فُلانٌ ثمَّ فلان ثمَّ فلان ـ يُسمِّيهمْ أبو رَجاءٍ فنَسِيَ عَوفٌ ـ ثمَّ عُمرُ بنُ الخَطّابِ الرّابعُ، وكانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا نامَ لمْ يُوقَظْ حتى يَكــونَ هُوَ يَستَيقظُ لأنا لا نَدرِي ما يَحدُثُ لهُ في نَومِه. فلمّا استَيقَظ عمرُ ورأى ما أصابَ النّــاسَ

لم يؤثر الإسلام فى هذه المرأة فقط، بل أثر فى قومها جميعًا. (١)

لم يكن عظيم خلق الرسول ﷺ وحده فقط سبب تميزه وفضله ﷺ، بل كان كل حرف من كلامه وحليته وصورته ﷺ وحركاته وسكناته ﷺ إعجازًا، كما كان

ـ وكانَ رجُلاً جَليداً ـ فكبَّرَ ورَفَعَ صَوتَهُ بالتكبير، فما زالَ يُكبِّرُ ويَرفَعُ صوتَهُ بالتكبير حتى استَيقَظَ بِصوتِهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فلمّا استيقظَ شكَوْا إليه الذي أصابَهمْ، قال: لا ضَيرَ ـ أو لايَضيرُ ـ ارتَحلوا. فارتحلَ، فسارَ غيرَ بَعيدٍ، ثمَّ نزلَ فدَعا بالْوَضوءِ فتوضَّأ، ونُوديَ بالصلاةِ فصلَّى بالناسِ، فلما انفَتَلَ مِن صلاتهِ إذا هُوَ برَجُلٍ مُعتَزِلٍ لم يُصلِّ مع القومِ، قال: ما مَنعَكَ يا فلانُ أن تُصلِّيَ مع القومِ؟ قال: أَصابَتْني جَنابةٌ ولا ماءَ. قال: عليكَ بالصَّعيدِ، فإنه يَكفيكَ. ثمَّ سارَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فاشتكى إليه الناسُ من العَطَشِ، فنزلَ فدعا فُلاناً ـ كان يسمِّيهِ أبو رجاءٍ نَسيَهُ عَوفٌ ـ ودَعا علياً. فقال: اذْهَبا فابتَغيا الماءَ، فانطلقا فتلقَّيا امرأةً بين مَزادتَينِ ـ أو سَطيحتَينِ ـ من ماءٍ علَى بَعيرٍ لها فقالا لها: أينَ الماءُ؟ قالتْ: عَهدي بالماءِ أمسِ هذهِ الساعةَ، ونَفَرُنا خُلوفٌ. قالا لها: انطَلقي إذاً. قالت: إلى أينَ؟ قالا: إلى رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم. قالتِ الذي يُقالُ لهُ الصابىءُ؟ قالا: هو الذي تَعْنينَ، فانطَلِقي. فجاء بها إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وحدَّثاهُ الحديثَ. قال: فاستَنْزَلوها عن بَعيرِها، ودَعَا النبيُّ صلى الله عليه وسلم بإناءٍ ففرَّغَ فيه مِن أفواهِ المَزادتَينِ ـ أوِ السَّطيحتَينِ ـ وأَوكأَ أفواهَهُما وأَطلَقَ العَزاليَ ونُوديَ في الناسِ: اسقُوا واستقُوا. فسقَى مَن شاءَ واستَقى مَن شاء، وكان آخرَ ذاكَ أن أعطى الذي أصابَتْهُ الجَنابَةُ إناءً من ماءٍ قال: اذهبْ فأفرِغْهُ عليكَ. وَهيَ قائمةٌ تَنظُرُ إلى ما يُفعَلُ بمائها. وأيمُ اللّهِ لقدْ أُقلعَ عنها وَإنه لَيُخيَّلُ إلينا أنها أشدُّ مِلأةً منها حينَ ابتَدأَ فيها. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اجْمَعوا لها فجَمَعوا لها ـ مِن بينِ عَجْوَةٍ ودَقيقةٍ وَسَويقةٍ ـ حتى جَمَعوا لها طَعاماً، فجَعلوها في ثَوبٍ، وحَمَلوها علَى بَعيرِها، ووَضَعوا الثَّوبَ بينَ يَديْها، قال لها: تَعلَمينَ ما رَزِئنا من مائكِ شيئاً، ولكنَّ اللّهَ هوَ الذي أسقانا. فأتَتْ أهلَها وقد احتبَسَتْ عنهم. قالوا: ما حَبَسكِ يا فُلانةُ؟ قالت: العَجَبُ، لَقيَني رَجُلانِ فذَهَبا بي إلى هذا الذي يُقالُ لهُ الصابىءُ، ففعلَ كذا وكذا، فواللّهِ إنه لأسْحَرُ الناسِ مِن بينِ هذهِ وهذهِ ـ وقالت بإصبَعَيْها الوُسطى والسَّبّابةِ فرَفَعَتْهما إلى السماء تعني السماءَ والأرضَ ـ أوَ إنه لَرسولُ اللّهِ حقّاً. فكانَ المسلمونَ بَعدَ ذلكَ يُغيرونَ علَى مَن حَولَها منَ المشركينَ ولا يُصيبونَ الصِّرْمَ الذي هيَ منه. فقالتْ يوماً لِقومِها: ما أُرَى أنَّ هؤلاءِ القَومَ يدَعونَكم عَمداً، فهل لكم في الإسلامِ؟ فأطاعوها، فدَخلوا في الإسلام. (يوسف عامر).

(١) البخاري، جـ ١، ص ٤٩، كتاب التيمم.

ﷺ نفسه إعجازًا. [1] يقول الرومي [2] (ما ترجمته): إن وجه وصوت النبي ﷺ معجزة

كان كلام الرسول ﷺ وخطابه كله صدق، لذا كانت كلماته وألفاظه كلها تصل إلى القلب.

ويتضح أثر النبوة على السامع حين هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة، فقد عمت المدينة بضجة كبيرة، وكان عبد الله بن سلام _ أحد علماء اليهود المعروفين فى المدينة _ يجمع حينذاك التمر فى نخل له، وحين سمع بنبأ مجيء النبي ﷺ؛ فجاء إليه ﷺ من فوره، وحينئذ كان النبي ﷺ يقول:

« أفشوا السلامَ وأطعموا الطعامَ، وصِلوا الأرحامَ وصلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ تدخلوا الجنةَ بسلامٍ ». [3] فتأثر عبد الله بن سلام بهذه الكلمات تأثرًا كبيرًا، وبمجرد وصول النبي ﷺ إلى بيت أبي أيوب الأنصاري، أتاه عبد الله بن سلام وقال: «أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق». [4]

---

[1] ابن حنبل، جـ ٥، ص ٤٥.

[2] هو جلال الدين الرومي شاعر الفارسية المعروف. (يوسف عامر).

[3] وهذا نصه كما ورد فى سنن الدارمي: (١٤٦٧) أخبرنا سعيدُ بنُ عامرٍ عنْ عونٍ، عنْ زرارةَ بنِ أوفَى، عنْ عبدِاللَّهِ بنِ سلامٍ، قالَ: لمَّا قَدِمَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم المدينةَ استشرفَهُ الناسُ، فقالوا قدِمَ رسولُ اللَّهِ، قَدِمَ رسولُ اللَّهِ، فخرجتُ فيمَنْ خَرَجَ، فلمَّا رأيتُ وجهَهُ عرفتُ أنَّ وجهَهُ ليسَ بوجهِ كذابٍ، فكانَ أولُ مَا سمعتُهُ يقولُ: «يَا أيُّهَا الناسُ، أفشوا السلامَ وأطعِموا الطعامَ، وصِلوا الأرحامَ وصلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ تدخلوا الجنةَ بسلامٍ». (يوسف عامر).

[4] البخاري، جـ ١، ص ٥٥٦، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. وهذا نصه: (٣٨٢٤) حدّثني محمدٌ حدَّثنا عبدُ الصمدِ حدَّثنا أبي حدَّثنا عبدُ العزيز بن صهَيب حدَّثنا أنسُ بن مالكٍ رضيَ اللهِ عنه قال: «أقبلَ نبيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى المدينةِ وهوَ مُردِفٌ أبابكر، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعرَف ونبيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم شابٌّ لا يُعرَف. قال: فيَلقى الرجلُ أبا بكرٍ فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجلُ الذي بين يدَيك؟ فيقول: هذا الرجل يَهديني السبيل، قال فيَحسِبُ الحاسبُ أنهُ إنماَ يعني الطريقَ، وإنماَ يعني سبيلَ الخير. فالتفتَ أبو بكر فإذا هو بفارسٍ قد لَحقهم، فقال: يا رسولَ الله هذا فارسٌ قد لحقَ بنا، فالتفتَ نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللَّهم اصرَعْه؛ فصرَعَهُ الفرَس، ثم قامت تُحمحِمُ، فقال:

كان ضماد يعالج مرض الجنون في الجاهلية، وكانت لـه صـداقة مـع رسول الله ﷺ قبل البعثة، وصدفة جاء إلى مكة وسمع من الكفار أن محمـدا ﷺ (نعوذ بالله) قد أصابه الجنون؛ فجاء إلى النبي ﷺ، فقال : يا محمد، إني أعالج من الجنون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي**

يا نبيَ الله مُرْني بما شئت. قال: فقِفْ مكانَكَ، لا تَتْرُكنَّ أحداً يَلحقُ بنا. قـال: فكـان أوّلَ النهار جاهداً على نبيِّ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، وكان آخرَ النهار مَسْلحةً له. فنَزلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جانبَ الحرَّة، ثمَّ بَعثَ إلى الأنصار فجاؤوا إلى نبيِّ الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فسلَّموا عليهما وقالوا: اركبا آمنين مُطاعَين. فركبَ نبيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ وحَفُّوا دونَهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاءَ نبيُّ الله، جاءِ نبـيُّ الله صلى الله عليه وسلم، فأشرَفوا ينظرونَ ويقولون: جاء نبيُّ الله جاء نبيُّ الله. فأقبلَ يـسيرُ حتىٰ نزلَ جانبَ دارِ أبي أيوب، فإنه ليحدِّثُ أهلَهُ إذ سمعَ بهِ عبدُ اللهِ بن سلام وهـو فـي نخل لأهلهِ يختَرف لهم، فعَجِلَ أن يَضعَ الذي يَختَرِف لهم فيها، فجاءَ وهيَ معَهُ، فسمعَ من نبيِّ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثمَّ رجع إلى أهله، فقال نبيُّ اللهِ صلى الله عليـه وسـلم: أيُّ بيوتِ أهلِنا أقرَب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله، هذهِ داري وهذا بابي. قال فانطلقْ فهيِّىءْ لنا مَقِيلاً. قال: قوما على بركةِ الله، فلما جاء نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم جاء عبدُ اللهِ بن سلامٍ فقال: أشهدُ أنكَ رسولُ الله، وأنكَ جئتَ بحقّ، وقد علمتْ يهودُ أنـي سّـيدُهم وابـنُ سيدِهم وأعلمُهم وابنُ أعلمِهم، فادعُهم فاسألهم عني قبلَ أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيَّ ماليس فيَّ. فأرسل نبيُّ اللهِ صلى الله عليه وسـلم فـأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشرَ اليهود، ويْلَكم اتقـوا الله، فواللهِ الذي لا إلَه إلاّ هوَ إنكم لتعلمون أني رسولُ اللهَ حقّاً، وأني جِئتكم بحـق، فأسـلموا. قالوا: ما نَعلمهُ ــ قالوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَها ثلاثَ مِرار ــ قال: فأيُّ رجل فيكم عبدُ الله بن سَلام؟ قالوا: ذاك سيدُنا، وابنُ سيدِنا، وأعلمُنا وابنُ أعلَمِنا. قـال: أفـرأيتم إن أسلمَ؟ قالوا: حاشا للهِ ما كان ليُسلمَ. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليُـسلم. قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليُسلم. قال: يا ابنَ سَلام اخرُجْ عليهم. فخرج، فقال: يا معشرَ اليهود، اتقوا الله، فواللهِ الذي لا إله إلاّ هو إنكم لتعلمونَ أنـه رسـولُ الله، وأنه جاء بحَق. فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم». (يوسف عامر).

له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» [1]

أثرت هذه الكلمات في ضماد تأثيرا كبيرا، حتى أنه طلب من النبي ﷺ أن يعيدها عليه مرة ثانية ثم مرة ثالثة، وقال: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ. فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هؤُلاَءِ. وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ. قَالَ فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ. [2]

---

1 - وهذا نصه كما ورد في مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن عباس: (٢٧٥٢) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يحيى بن آدم ثنا حفص بن غياث ثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: « قدم ضماد الأزدي مكة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلمان يتبعونه، فقال: يا محمد، إني أعالج من الجنون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: فقال: رد عليَّ هذه الكلمات، قال: ثم قال: لقد سمعت الشعر والعيافة والكهانة فما سمعت مثل هذه الكلمات، لقد بلغن قاموس البحر وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فأسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلم: عليك وعلى قومك؟ قال: فقال: نعم، عليَّ وعلى قومي، قال: فمرَّتْ سرية من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بقومه، فأصاب بعضهم منهم شيئاً أداوة أو غيرها، فقالوا: هذه من قوم ضماد ردوها، قال: فردوها ». (يوسف عامر).

2 - صحيح مسلم، باب تخفيف الصلاة والخطبة. وهذا نصه: (١٩٥٨) وحدّثنا إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى. كِلاَهُمَا عَنْ عَبْدِ الأَعْلَىٰ. قَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنِي عَبْدُ الأَعْلَى وَهُوَ أَبُو هَمَّامٍ حَدَّثَنَا دَاوُدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ ضِمَاداً قَدِمَ مَكَّةَ. وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ. وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هٰذِهِ الرِّيحِ. فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّداً مَجْنُونٌ. فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هٰذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ الله يَشْفِيهِ عَلَى يَدَيَّ. قَالَ فَلَقِيَهُ. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هذهِ الرِّيحِ. وَإِنَّ اللّهَ يَشْفِي عَلَىٰ يَدِي مَنْ شَاءَ. فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله: «إِنَّ الْحَمْدَ للّه. نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ. مَنْ يَهْدِهِ الله فَلاَ مُضِلَّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ». قَالَ فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هؤُلاَءِ. فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ الله. ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. قَالَ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ. فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هؤُلاَءِ.

قدم الحارث زوج السيدة حليمة (السعدية مرضعة الرسول ﷺ) إلى مكة المكرمة، فقالت له قريش: أسمعت ما يقول ابنك (فى الرضاعة)؟ إنه يقول إن الناس سيبعثون ثانية بعد مماتهم. فاستفسر الحارث من رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، فأجابه النبي ﷺ، وأخبره بأنه حين يأتي ذلك اليوم سوف يمسك بيده ويخبره بأن ما كان ﷺ يقوله كان حقًا. تأثر الحارث برد النبي ﷺ تأثرا كبيرا، ودخل في دين الله تعالى من فوره.وأدى به هذا الأثر إلى أنه كا يقول: إن ابني سيمسك بيدي ويأخذني إلى الجنة.(١)

أن وجه الإنسان مرآة الحقيقة، لذا كانت كل حركة من حركات الرسول ﷺ وكل سكنة من سكناته تعبيرا ونموذجا للصدق والعصمة، وكان النور والجلال يشع من وجهه الكريم ﷺ، كما كان صوته ﷺ يفيض بالوقار والهيبة. وكانت هذه الخصال كلها بجانب الإعجاز النبوي تجذب القلوب إليه ﷺ. وكان هذا هو السبب الذي جعل عبد الله بن سلام _ العالم اليهودي _ يقول حين رأى وجهه ﷺ المبارك: « وَجْهُهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ» (سنن الترمذي: ٢٠٩) (٢)

وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ. قَالَ فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَى الإِسْلاَمِ. قَالَ فَبَايَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله : «وَعَلَىٰ قَوْمِكَ» قَالَ: وَعَلَىٰ قَوْمِي. قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ الله سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ. فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هٰؤُلاَءِ شَيْئاً؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ: رُدُّوهَا. فَإِنَّ هٰؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ. (يوسف عامر).

١ - الإصابة، جـ ١، ص٢٩٦، تذكرة الحارث.

٢ - وهذا نصه كما ورد فى سنن الترمذي، جـ ٧، ص ١٩٠: (٢٥٣٤) حَدَّثنا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، أخبَرنَا عَبْدُ الوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ وَ مُحمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ وَ ابنُ أَبِي عَدِيٍّ وَ يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ، عنْ عَوْفِ بنِ أَبِي جَمِيلَةَ الأعرابي عن زُرَارَةَ بنِ أَوْفَى عن عَبْدِ الله بنِ سَلاَمٍ، . قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله، يَعْنِي المَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ الله فجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا استَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُو السَّلاَمَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلاَمٍ».

قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حديثٌ صحيحٌ. (يوسف عامر). وورد فى مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٢٣٣٩٩) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا يحيى بن سعيد عن عوف حدثنا زرارة قال: قال عبد الله بن سلام: ح، وثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن زرارة عن عبد الله بن

رغم أن عبد الله بن سلام كان حديث عهد بالإسلام.

وبسبب جاذبية وقبول وجهه ﷺ المبارك جعل عرب البادية يقولون في حجة الوداع:

هذا وجه مبارك.

حين جاء أبو رافع كرسول من قبل قريش إلى رسول الله ﷺ ورأى وجهه المبارك، فألقي في قلبه الإسلام، [1] واعتبر عشقه للنبي ﷺ علامة فخار.[2]

سلام قال: «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام». (يوسف عامر).

[1] – سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجن به في العهود. وهذا نصه: (٢٧٥٩) حدثنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ وَهْبٍ أخبرني عَمْرٌو عن بُكَيْرِ بنِ الْأَشَجِّ عن الْحَسَنِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي رَافِعٍ أَنَّ أَبَا رَافِعٍ، أَخْبَرَهُ قال: « بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم أُلْقِيَ في قَلْبِيَ الإِسْلاَمُ فَقُلْتُ: يَارسُولَ الله إنيِّ والله لا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَداً، فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ وَلا أَحْبِسُ الْبُرُدَ وَلَكِن ارْجِعْ، فإنْ كانَ في نَفْسِكَ الَّذِي في نَفْسِكَ الآنَ فارْجِعْ. قَالَ: فَذَهَبْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فأَسْلَمْتُ. قال بُكَيْرٌ وأخبرني أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كانَ قِبْطِيًّا». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: هٰذَا كانَ في ذٰلِكَ الزَّمَانِ، وَالْيَوْمَ لا يَصْلُحُ. (يوسف عامر).

[2] – الإصابة، والاستيعاب.

الإسلام

أو الأعمال النبوية لرسول الله محمد (ﷺ)

جاء النبي ﷺ برسالة عظيمة، وللقيام بأعمال هامة عظيمة الشأن، وبمجرد أن سمع بها أصحاب القلوب الصالحة والعارفون بالحقائق وشاهدوا هذه الأعمال الهامة والعظيمة آمنوا بها، ولكن الناس الذين كانت قد تغبرت مرآة قلوبهم آمنوا بها بفضل صدق الرسالة وتأثير الوحي وحكمة الرسول (ﷺ) في الدعوة وبفضل معجزة عصمته ﷺ، وبحسن أخلاقه وسموه في معاملاته، فكانت هـذه الأمـور أسباب مباشرة في تنقية مرآة قلوب هؤلاء الناس تدريجيا، وبدأت تزول ظلمـات الشكوك وكافة العوائق. وبدأ يزداد نور الإسلام ساطعًا يومًا بعد يوم على آفـاق العالم العربي بمزيد من الصفاء والبهاء حتى وُلد عهد جديـد أي أرض جديـدة وسماء جديدة خلال ثلاثة وعشرين عاما في صورة القومية الواحـدة والـسلطنة المتحدة ونظام أخلاق متكامل وقانون شامل وشريعة متكاملة وديانة أبدية وجماعة عملية وأخلاق مبنية على عبادة الله والتضحية والتدين والتقوى والأمانة والصدق وهذه هي تلك الحقيقة التي أشار إليها الرسول (ﷺ) قبل شهرين من وفاته تقريبًـا أمام جمع غفير من المسلمين وهو في حجة الوداع.

«إنَّ الزَّمان قدِ استدَارَ كهيئتهِ يومَ خَلَقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ » (البخاري)[1]

وكانت هذه هي الحقيقة التي قال عنها قبل أيام من وفاته في ختام حجتـه الأخيرة.

«قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ. لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا» [1]

---

[1] – وهذا نص الحديث: (٤٥٤٤) حدَّثنا عبدُ الله بن عبدِ الوَهاب حدَّثنا حمَّادُ بن زيدٍ عن أيوبَ عن محمدٍ عن ابن أبي بَكرةَ عن أبي بكرة عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال «إنَّ الزَّمان قدِ استدَارَ كهيئتهِ يومَ خَلَقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ، السنة اثنا عشرَ شهراً منهـا أربعـةٌ حُرُم: ثلاثٌ مُتواليات ذو القَعدةِ وذو الحجةِ والمحرَّم ورجبُ مُضَرَ الـذي بـينَ جُمـادَى وشعبان». (يوسف عامر).

وبَشر الرسول ﷺ المسلمين في حجة الوداع بإتمام الرسالة وتكميل دعوته. يقول الله تعالى:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾ (المائدة:٣)

يقول البروفيسور مارجوليوث في شهادة له: «لم يكن وقت وفاة محمد (ﷺ) عمله السياسي غير مكتمل، بل كان قد ترك حجرَ أساسٍ لدولة، وعين لها عاصمة سياسية ودينية وكان قد جعل القبائل العربية المشتتة قومًا واحدًا وقد أعطى (ﷺ) العرب ديناً مشتركا وربطهم بصلة القرابة التي كانت أكثر استحكامًا واتحادا من القرابة العائلية والقبلية».[٢]

وهذا مستشرق أوروبي استقى علمه ومعرفته عن العرب والإسلام من عدة كتب قليلة فقط، وقد قال مسيحي عربي القول الفصل في هذا الأمر؛ ففي بيروت كانت قد نشرت جريدة نصرانية "أخبار الوطن" سنة ١٩١١م على ملايين من النصارى العرب السؤال التالي: من هو أعظم إنسان في العالم ؟ فكتب ردًا على هذا السؤال عالم نصراني (دارومجاعص): أعظم إنسان في العالم هو من أرسى قواعد دين جديد وفلسفة جديدة وشريعة جديدة وحضارة جديدة خلال مدة قصيرة لا تزيد عن عشر سنوات؛ [٣]. ليس هذا فحسب بل غير قانون الحرب، وأسس أمة جديدة، وأقام دولة جديدة ذات عمر طويل، ومع كل هذه الإنجازات

---

[١] – سنن ابن ماجة، أبواب السنة والبدعة، والمستدرك للحاكم، ج ١، ص ٩٦، ومسند ابن حنبل،ج٤، ص١٢٦، وهذا نصه: (٤٤) حدثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ بِشْرِ بْنِ مَنْصُورٍ، وَإِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ السَّوَّاقُ قَالاَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ ضَمْرَةَ بْنِ حَبِيبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ، يَقُولُ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ. إِنَّ هٰذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ. فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ. لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا. لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ. مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً. فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ. عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ. وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ. وَإِنْ عَبْداً حَبَشِيًّا. فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ. حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ».(يوسف عامر).

[٢] حياة محمد (Life of Mohammed)، ص٤٧١، مارجوليوث.

[٣] عاس الرسول ﷺ فى المدينة عشر سنين.

الضخمة كان أمياً لم يكن يعرف القراءة والكتابة فمن هو ؟ هو محمد بن عبد الله القرشي رسول العرب والإسلام. لقد أكمل هذا الرسول كل ضروريات حركته العظيمة بنفسه ووفر لأمته وأتباعه وللدولة التي أقامها كل أسباب التقدم والاستمرارية.وفي القرآن والسنة توجيهات وإرشادات يحتاجها المسلم في أموره الدينية والدنيوية، وقد فرض اجتماعا سنويًا وهو الحج، كي يجتمع فيه كل من استطاع إليه سبيلا من الشعوب الإسلامية ويتشاوروا فيما بينهم من أمور دينية وقومية، وقد قضى على احتياجات فقراء أمته بفرض الزكاة على أغنياء أمته، وجعل لغة القرآن لغة عالمية وأبدية كي تصبح لغة تعارف فيما بين الشعوب الإسلامية، ومنح كل فرد من أفراد الشعوب الإسلامية فرصة التقدم والرقي إذ قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) أي لا مفاضلة بين مسلم ومسلم إلا بالتقوى، وعليه فالإسلام يمثل جمهورية حقيقية، إذ ينتخب رئيسها على أساس حب الشعب.

والمسلمون الأوائل عملوا على هذه الأسس والمبادئ فترة من الزمن مقرين بمبدأ الإسلام: «ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجمي ولا لعجمي على عربي».[1] كذلك يسّر اعتناق الإسلام لكل شخص، وأخذ على عاتقه مسئولية إقامة غير المسلمين في الدول الإسلامية بأمن وأمان وطمأنينة تطبيقا لمبدأ «جميع الخلائق عيال الله وأحب شخص إلى الله هو من يكون أكثر مفيداً لعياله».ولم يغفل

---

[1] – ورد في مسند الإمام أحمد: ١٠٥٩ حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم:(٢٣١٠٥) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا إسماعيل حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة حدَّثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أَبَلَّغْتُ؟ قالوا: بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، ثم قال: أيُّ شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: ثم قال: أيُّ بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم، ــ قال: ولا أدري قال: أو أعراضكم أم لا ــ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، أَبَلَّغْتُ؟ قالوا: بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب».(يوسف عامر).

إصلاح الأحوال الشخصية والأسرة؛ فقد قرر أحكام الزواج والميراث، ورفع قيمة المرأة، وفرض قوانين للفصل بين المنازعات والدعاوى، وأسس نظام بيت المال كي لا تهدر الثروة القومية، وكان له فضل كبير في نشر العلم والثقافة، فقد أعلن الإسلام مبدأ «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ. حَيْثُمَا وَجَدَهَا، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا» [1] ومن ثم تقدم المسلمون في العلوم والفنون في عصور تقدمهم. أفــلا يُعتبــر صــاحب هــذه الإنجازات الكبيرة أعظم شخصية في العالم؟!!.

أما الأديب الانجليزي الشهير "كارلائل" فلم يجد فــي كتابــه: (Heroes and Heroworship) من بين مئات الآلاف من الأنبياء والقديسين والمؤســسين للأديان إلا شخصية محمد (ﷺ) كي يعتبره بطل النبوة. ويقول كاتب في مقال له في الموسوعة البريطانية عن محمد (ﷺ): يُعرف من خــلال القــرآن الارتقــاء الروحاني لهذا الشخص الذي كان أكثر نجاحا من بين ســائر الأنبيــاء ورجــال الدين[2].

خلاصة القول هو أن العدو قبل الصديق اعترف بأن هذا الرسول من بين الأنبياء والرسل هو الوحيد الذي أدى معظم فرائض بعثته في مدة وجيزة جــدًا، ولم يترك زاوية كانت في حاجة إلى الإصلاح إلا وأكملها بتعليمه وعمله، وذلــك لأنه هو وحده من أُعطي من بين الأنبياء والمرسلين ختم النبوة والــدين الكامــل والعلم الأخير؛ فلو كان قد بقى أي مجال من مجالات الإنسان العملية والأخلاقية والدينية محروما من فيضه وبركته، لكانت هناك حاجة حينئذ ماسة إلى نزول نبي آخر من بعده، لكنه قال: فأنا اللَّبنة، وأنا خاتمُ النَّبيين [3].

---

[1]- ورد في سنن ابن ماجة: (٤٢٥٩) حدّثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْــنُ نُمَيْرٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْفَضْلِ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّــهِ: «الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ. حَيْثُمَا وَجَدَهَا، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا».(يوسف عامر).

[2] الموسوعة البريطانية الطبعة ١١، مقال «القرآن» ج ١٥ صــ ٥٩٨.

[3] صحيح البخاري ج ١، خاتم النبيين والجامع للترمذي كتاب الأمثال. وهذا نص رواية الإمام البخاري: (٣٤٥٩) حدّثنا قُتَيبةُ بنُ سعيدٍ حدَّثنا إسماعيلُ بنُ جعفر عن عبد اللهِ بن دينــارٍ عن أبي صالح عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وســلم قــال:

فهذه هي شمولية وآفاقية تعليماته (ﷺ)، والتي كان الناس يتعجبون منها من قبل، وليس اليوم فقط كما هو حال ضيقي النظر، إذ حدث مثل هذا في عهد الصحابة أنفسهم. ففي ذات مرة قال بعض المشركين لسلمان الفارسي (رضي الله عنه) استهزاءً: قَدْ علمكمْ نبيُّكُمْ (ﷺ) كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْخِرَاءَةَ؟ فَقَالَ سَلْمَانُ: أَجَلْ، نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ بغائطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بالْيَمِينِ، أَوْ (أَنْ) يَسْتَنْجِيَ أَحَدُنَا بِأَقَلَّ مِن ثَلاَثَة أَحْجَارٍ، أَوْ أَن نَستَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»[1].

إن شمولية التعاليم المحمدية هي نفسها دليل على اكتمالها، والتدبر فيها يوضح أنها لشمول توجيهات وهدايات واحدة لكل الشعوب المتحضرة وغير المتحضرة، فقد كانت رسالته (ﷺ) للأعراب والبدو كما كانت لرؤساء قريش، ومن ثم تجد في تعاليمه توجيهات تجعل المنبوذ رفيعاً، والشريف أكثر شرفًا، ولهذه الأسباب ينتشر الإسلام اليوم في أحباش أفريقيا بفضل تعاليمه وتوجيهاته، ولا يحتاج لجعلهم متحضرين أكثر مما في شريعته. لكن الديانة النصرانية على العكس تماما من الإسلام، فسوى بعض الأخلاق المأخوذة من الإنجيل نجد أن العقائد مستمدة من مجالس القساوسة والأدعية والعبارات من حكام الكنائس، أما الحضارة والثقافة، فهي مأخوذة من تعليمات الملاحدة واللادينيين بأوروبا. أما

«إنَّ مثلي ومَثل الأنبياءِ من قَبلي كمثل رجُلٍ بنى بيتاً فأحسَنَهُ وأجملَهُ، إلا مَوضعَ لبنةٍ مَن زاويةٍ، فجعلَ الناسُ يطوفونَ بهِ ويعجَبونَ له ويقولون: هلاَّ وُضِعَت هذه اللبنةُ ؟ قال: فأنا اللَّبنة، وأنا خاتمُ النَّبيين».(يوسف عامر).

[1] جامع الترمذي وسنن ابن ماجة كتاب الطهارة. وهذا نص رواية الإمام الترمذي: (١٦) حدَّثنا هَنَّادٌ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: «قِيلَ لِسَلْمَانَ: قَدْ علمكمْ نبيُّكُمْ (ﷺ) كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْخِرَاءَةَ؟ فَقَالَ سَلْمَانُ: أَجَلْ، نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ بغائطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بالْيَمِينِ، أَوْ (أَنْ) يَسْتَنْجِيَ أَحَدُنَا بِأَقَلَّ مِن ثَلاَثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَن نَستَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ». (قَالَ أَبُو عِيسَى): وَفِي الْبَابِ عَنْ عَائِشَةَ، وَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ، وَ جَابِرٍ، وَ خَلاَّدِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِيهِ. قَالَ أَبُو عِيسَى: وَحَدِيثُ سَلْمَانَ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَمَنْ بَعْدَهُم: رَأَوْا أَن الاسْتِنْجَاءَ بِالْحِجَارَةِ يُجْزِيءُ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَنْجِ بِالْمَاءِ، إِذَا أَنْقَى أَثَرَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ، وَبِهِ يَقُولُ الثَّوْرِي، وَابْنُ الْمُبَارَكِ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ.(يوسف عامر).

الإسلام؛ فهو دين لا يوجد فيه شيء خارجًا عن تعليمات محمد (ﷺ)، سواء في هذا كل الأمور أي العقيدة والعبادة والدعاء والأخلاق والثقافة والتمدن والأحوال الشخصية والمعاملات اليومية من بيع وشراء وغيرها، وعلاقة الناس بالناس بين بعضهم البعض وعلاقة الإنسان بربه سبحانه، فمصدر كافة هذه الأمور هو التعاليم الشاملة والكاملة للرسول محمد (ﷺ).

إن كتاب تعليماته الشاملة والتي تضم كل شعبة من شعب الحياة الإنسانية، ينقسم إلى أربعة أبواب، ويطلق عليها جميعها مسمى الإسلام. فقد أخبر النبي (ﷺ) أن لكل إنسان علاقتان، واحدة مع خالقه وأخرى مع مخلوقات الله، ولك أن تقول هذه الجملة بألفاظ أخرى أي أن للإنسان علاقتان: واحدة مع سيده ومالكه، والأخرى مع عبيد سيده ومولاه. ويمكنك أن تقول بأن للإنسان وجهة إلى السماء، وأخرى إلى الأرض، له صلة بعالم الغيب، وصلة بعالم الشهود، والصلة الأولى ما بين سيد رحيم وعبد مطيع، والصلة الثانية علاقة الأخوة والمودة مع الآخرين.

إن كانت العلاقة التي ما بين الخالق والمخلوق أو الخالق والعبد تختص بقولنا الذهنية والقلبية فهي العقيدة، وإن كانت مع هذه الأحوال القلبية المتعلقة باجتهادنا وأرواحنا وأحوالنا وأملاكنا فهي العبادة. أما العلاقة بين الناس بعضهم البعض فإن كانت أحكامها تتعلق بالقوانين فهي المعاملات، وإن كانت بمثابة النصائح الروحية والتوجيهات الأخوية فهي الأخلاق.

وفي مصطلح القرآن الكريم يُطلق مسمى الإيمان على العلاقات الأولى ومسمى العمل الصالح على العلاقات الثانية والثالثة والرابعة. وعلى الإيمان والعمل تنحصر النجاة الكاملة. والعمل الصالح على ثلاثة أقسام. ١)إظهار العبودية لله تعالى وتنفيذ أوامره سبحانه. ٢) الالتزام بالقانون الإلهي في التعامل مع العباد. ٣) حسن معاملة العباد أي معاملتهم بألفة وحب ومعروف. ومع أن أي عمل يُبتغى به وجه الله يسميه الإسلام عبادة، إلا أن المسمى الاصطلاحي للقسم الأول العبادات والثاني المعاملات والثالث الأخلاق. وخلاصة القول هو أن الشريعة الشاملة والكاملة والتوجيهات السديدة الأبدية التي جاء بها محمد الرسول (ﷺ) مجموعة لهذه العناوين الأربعة. أي العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق.

ولإصلاح هذه الأمور وتكميل تعاليمها جاءت بعثة النبي (ﷺ)، وهـــي الأعمـــال والمهام الأصلية لفروض رسالته (ﷺ).

العقيدة

العقيدة : حقيقتها وأهميتها

إن أفكار وتخيلات الإنسان هي محور جميع أفعاله وأعماله وحركاته وسكناته، وهي التي تصلحه وتفسده. هذه الأفكار والحقائق العامة في حقيقة الأمر مبنية على عدد من الآراء والأفكار الأصولية الجازمة والثابتة والغير مشكوكة فيها، ويقال لهذه الأفكار الأصولية (عقائد)، وهذه العقائد هي النقطة التي يخرج منها كل خط من خطوط عمل الإنسان، وإليها ينتهي كل خط من خطوط دائرته. ومن ثم فكل أفعالنا وحركاتنا تكون تبعا لإرادتنا، وتتحرك إرادتنا بأفكارنا وعواطفنا، وتتحكم عقائدنا الداخلية على أفكارنا وعواطفنا ويُعبر عن هذه الأشياء عامة في لغة الحوار اليومي بلفظ "القلب" وأخبر معلم الإسلام أن من بين جميع أعضاء جسد الإنسان عضو هو محل الخير والشر ألا وهو القلب. قال رسول الله (ﷺ):«**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله، ألا وهِيَ القَلْبُ**» (صحيح البخاري، كتاب الإيمان)[1]

بين القرآن الكريم ثلاث حالات للقلب، أولها القلب السليم، الذي يسير على طريق النجاة والسلامة مبتعداً عن كل إثم. ثانيها القلب الآثم، وهو الذي يختار طريق الآثام والمعاصي. وثالثها القلب المنيب، وهو وإن كان يضل ويبتعد عن الصراط المستقيم لكنه يعود على الفور إلى طريق الخير والحق. خلاصة القول هو أن هذا التلون لهذا الكيان الذي نسميه محرك جميع أعمالنا، وهو إرادة

---

[1] وهذا نص الحديث: (٥٢) حدَّثنا أبو نُعَيم حدَّثنا زكريّاءُ عن عامرٍ قال: سمعتُ النُّعمانَ بنَ بَشيرٍ يقول: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: «الحَلالُ بَيِّنٌ، والحَرامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كثيرٌ منَ الناسِ. فمنِ اتَّقَىٰ المُشَبَّهاتِ استَبْرَأَ لِدينِهِ وعِرْضِهِ، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ: كراعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمىٰ يُوشِكُ أنْ يُواقِعَهُ. ألا وإنَّ لِكلِّ مَلِكٍ حِمىً، ألا إنَّ حِمَى اللهِ في أرضِهِ مَحارِمُه. ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كله، ألا وهِيَ القَلْبُ»(يوسف عامر).

ونية قلوبنا هذه، وبطاقته تتحرك ألة جسدنا. ولذا قال النبي (ﷺ):«إِنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات» (صحيح البخاري أول الكتاب).[1]

وبيّن هذا المعنى في كلمات أخرى هكذا: «وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إلى دُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إِلَيه» (صحيح أول الكتاب).

وقد أثبت علم النفس في هذه الأيام أن الإصلاح القلبي والذهني مقدم على الإصلاح العملي للإنسان، وأن العقيدة تتحكم في قلب الإنسان وإرادته. والآن لابد من تصور أصول صحيحة ومقدمات من أجل الأعمال الصحيحة والصالحة وهي أن يكون القلب ملئ باليقين وعقيدة راسخة، ونؤدي جميع أعمالنا بناءً على هذا اليقين الصحيح والعقيدة الراسخة.

ومثال ذلك اقليدس، فكما لا يمكن صنع شكل من أشكاله أو إثباته دون افتراض عدد من الأصول الوضعية والأصول المتعارفة، كذلك لا يمكن أن يستقيم أي عمل من أعمال الإنسان ما لم نقبل أولاً عدداً من الأصول والمبادئ المفترضة.

في ظاهر الأمر نرى أن عقلنا هو المرشد لكل أعمالنا، ولكن لو تأملنا قليلاً لعرفنا أن عقلنا أيضًا ليس حرا، بل هو مقيد في سلاسل يقيننا القلبي ونزعاتنا الذهني وعواطفنا الداخلية، ولذلك لا نستطيع أن نسيطر بهذا العقل المقيد بالسلاسل على أفكارنا القلبية ونزعاتنا الذهنية وعواطفنا الداخلية. وإن كنا نستطيع احتوائه، فذلك بتأكيداتنا القلبية الصحيحة وعدد من التصورات الذهنية القوية. ولهذا ذكر القرآن الكريم الإيمان ملازمًا بالعلم الصالح، ولم يعتبر أي عمل صالحا للقبول بدون الإيمان، إذ بفقدان الإيمان تنعدم إرادة القلب وبالذات

---

[1] – وهذا نص الحديث: (١) حدَّثنا الحُمَيْديُّ عبدُ اللّهِ بنُ الزُّبَيرِ قال: حدَّثَنا سُفْيَانُ قال: حدَّثَنا يحيى بنُ سَعيدِ الأنْصاريُّ قال: أخبرَني محمدُ بنُ إبراهيمَ التَّيْميُّ أَنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بنَ وقَّاصٍ اللَّيْثيَّ يقولُ: سمعتُ عمرَ بنَ الخَطَّابِ رضي اللّهُ عنه على المِنْبَرِ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يَقولُ «إِنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُه إلى دُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إِلَيه».(يوسف عامر).

النية الخالصة التي يدور حولها حسن العمل ولمزيد من توضيح هذا الأمر إليكم هذه القصة. كان هناك قرشي اسمه عبد الله بن جدعان، وكانت له في الجاهلية أعمال صالحة كثيرة، ولكنه كان مشركا، وذات مرة سألت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها عن مصير هذا الرجل قائلة: يا رسول الله هل ينال عبد الله بن جُدعان ثواب أعماله الصالحة التي عملها في الجاهلية ؟ قال رسول الله (ﷺ):«لا إنّه لم يَقُلْ يَوْماً قطُّ اللهمَّ اغفِرْ لي يَوْمَ الدِّينِ»[1].

وفي موقعة بدر خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ قبلَ بَدْرٍ. فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ. قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ. فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ حِينَ رَأَوْهُ. فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللّهِ : جِئْتُ لأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ. قَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ : «تُؤْمِنُ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَ: لاَ. قَالَ: «فَارْجِعْ. فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ». ثُمَّ مَضَىٰ. حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ. فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ. قَالَ: «فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ». قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ. فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ «تُؤْمِنُ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ : «فَانْطَلِقْ» [2].

---

[1] ومصنف أبن أبي شيبة غزوات. النسخة الخطية لدار المضفين، وابن حنبل ج ٦ صـ ١٤٩ مصر. ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٢٤٤٩٩) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا عفان قال: حدثنا عبد الواحد بن زياد قال: حدثنا سليمان الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إن عبد الله بن جدعان كان في الجاهلية يُقري الضيف، ويفك العاني، ويصل الرحم، ويحسن الجوار، فأثنيت عليه، فهل ينفعه ذلك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا إنّه لم يَقُلْ يَوْماً قطُّ اللهمَّ اغفِرْ لي يَوْمَ الدِّينِ» وقال عفان مرة: فأثنيت عليه. (يوسف عامر).

[2] صحيح مسلم باب الغزوات ج ٢ صـ ١٠٦ مصر. وهذا نصه: (٤٦٥٦) حدّثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بْنُ مَهْدِيَ عَنْ مَالِكٍ. ح وَحَدَّثَنِيهِ أَبُو الطَّاهِرِ وَاللَّفْظُ لَهُ. حَدَّثَنِي عَبْدُ اللّهِ بْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنِ الفُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللّهِ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ نِيَارٍ الأَسْلَمِيِّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ، النَّبِيِّ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ قَبْلَ بَدْرٍ. فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ. قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ. فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ حِينَ رَأَوْهُ. فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللّهِ : جِئْتُ لأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ. قَالَ لَهُ

ضرب القرآن الكريم مثلاً لأعمال الذين حُرموا من الإيمان بالرماد الذي تطير به الريح فتفنيه ولا يبقى له وجود، إذا فعمل الإنسان الذي لا يوجد لديه إيمان لا قيمة له. يقول الله تعالى: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم: ١٨)**

وفي سورة النور ضرب الله مثلاً لأعمال الذين حرموا من ثروة الإيمان بسراب لا وجود له،.فهو خداع للبصر ليس إلا.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً..... ﴾ (النور: ٣٩)

كذلك شبه الله هذه الأعمال بظلمة شديدة حيث لا تُرى اليد ومع الصحة الجسمانية تستحيل الاستفادة منها.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور:٤٠)

خلاصة القول هو أنه لا يمكن أن يقوم أساس العمل على تصور صحيح دون إيمان، وعليه فلا يحترم. وإذا كان هناك أي عمل صالح في ظاهره، ولكن نية فاعله سيئة وهدفه الأنانية والرياء والسمعة، فتبغضه الدنيا أخلاقيًا وتحط من شأنه، ومن ثم حذر الله سبحانه وتعالى المسلمين من خلال الرسول (ﷺ) من مثل هذا العمل؛ فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ**

رَسُولُ اللَّهِ : «تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَ: لاَ. قَالَ: «فَارْجِعْ. فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ». قَالَتْ: ثُمَّ مَضَىٰ. حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ. فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ. قَالَ: «فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ». قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ. فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ «تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ : «فَانْطَلِقْ».(يوسف عامر).

عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة: ٢٦٤)

خلاصة القول هو أن الإيمان هو أساس جميع أعمالنا، وبدونه لا أساس لأي عمل، وهو المنبع الرئيسي لإشباعنا، وبدونه لا حقيقة لأعمالنا سوى السراب، فهي حينئذ تبدو أعمالاً، لكنها خالية من الأثر الروحي ولا طائل من ورائها لأنها بلا نتيجة. إن الإقرار بوجود الله وابتغاء وجهه هو غرض وغاية كل أعمالنا، فإن لم يكن هناك وجود لهذا الإقرار، تصبح أعمالنا بلا نظام، وبلا هدف، لذا فهو نور قلوبنا وبصيرتنا بدون هذا النور تصبح حياتنا مظلمة، وتكون جميع أعمالنا مبنية على الرياء والشهرة والتفاخر والأنانية.

ورد في التوراة ذكر لبعض العقائد، ولكنها خالية من الإيمان وأهمية تعليمه. وفي الإنجيل يوجد تأكيد على ضرورة الإيمان، ولكن هذا التأكيد ليس لصدق الإخلاص وتقويم الأعمال وإخلاص القلب، وإنما لإظهار المعجزات والكرامات ولنيل القدرة على خوارق العادات. وعلى العكس من ذلك نجد من أتباع فلاسفة اليونان والديانات الهندية يقررون أن وسيلة نجاة الإنسان تنطوي على التصريف الذهني والمراقبة والتخيل والعلم، ولم يتطرقوا إلى الأخلاق والأعمال الصالحة أبدًا. كذلك النصارى والزرادشت والبراهمة توسعوا في العقائد، وفسروها حتى أصبحت من أولها لآخرها فلسفة خيالية، واضمحلت قوى الإنسان العملية.

أما رسولنا محمد (ﷺ) فقد أكد على اقتران العلم بالعمل، والتصور بالفعل، والناحية العقلية بالعملية، وأكد على العمل واليقين بالعقيدة التي تصلح قلب الإنسان، وأساس العمل، وأساس الأخلاق والعبادات ولم يقض على العلم بالخوض في شرح وتفسير التصورات والنظريات والمسائل الفلسفية، وأطلق مسمى العقيدة على عدد من الضوابط والأصول الواضحة واليسيرة التي هي جوهر وخلاصة الحقائق والصدق الذهني،ومسمى الإيمان على الإقرار واليقين بهذه الأصول. حث (ﷺ) على خمسة أصول فقط للعقيدة وهي الإيمان بالله، والإيمان بملائكته، والإيمان برسله وأنبيائه، والإيمان بكتبه، والإيمان بيوم الحساب.

هذه هي الحقائق التي لابد من الإيمان بها من القلب والإقرار بها باللسان، إذ بدونها لا يمكن أن يكون هناك وجود لعمل خالص. فالإيمان بالله هو أن الله وحده خالق وسيد هذا العالم، وهو عالم بكل ظاهر وباطن، كي يكون سبحانه قبلة جميع أعمالنا، وتكون غاية جميع أفعالنا ابتغاء وجهه تعالى، وحتى نستطيع أن نبتعد عن السيئات وكل شر في السر والعلن، ونعمل كل خير ونتجنب كل شر، تنفيذاً لأمر خالقنا سبحانه وتعالى وهكذا يمكن أن تكون أعمالنا منزهة عن الأغراض الخبيثة والرغبات المحرمة. وكما يجب أن تكون أعضاءنا الجسمانية طاهرة من المعاصي والآثام، كذلك ينبغي أن تكون قلوبنا طاهرة من الأفكار النجسة، وخالية من هوى النفس والشهوة، ويجب أن يكون إيماننا بصدق رسالة النبي (ﷺ) قوياً بحيث لا تستطيع أفكارنا السيئة واستشهاداتنا الخاطئة ورغباتنا الضالة أن تصيبنا بأي شك أو شبهة (في آي شيء جاء به (ﷺ).

والإيمان بالرسل لابد منه، لأن أوامر الله تعالى وتوجيهاته والعلم بمرضاته لم يصل إلينا إلا عن طريقهم، فحين لا يقر الإنسان بصدقهم وصلاحهم ففي هذه الحالة يصبح صدق الرسالة الإلهية وصدق أوامر الله تعالى مشتبهاً ومشكوكًا فيه، وبالتالي لن يبقى أمام الناس أي نموذج للخير والنزاهة والعصمة الذي يكون بمثابة محرك لقوى الإنسان العملية، ثم لا تكون لنا أي قدرة لتقويم الخير والشر والصحيح والخطأ سوى عقولنا التي تكون محكومة بعواطفنا.

وكذلك يجب الإيمان بالملائكة على أساس أنهم سفراء بين الله تعالى ورسله، وواسطة بين المادية والروحية، وهم يُسيّرون الخلائق حسب القانون الإلهي، ويكتبون جميع أعمالنا وأفعالنا كل ساعة بل كل لحظة، كي نجد الجزاء الأوفى لأعمالنا إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر.

إن أوامر الله وأحكامه التي وصلت إلينا عن طريق الرسل كان لابد من حفظها كي يتم توصيلها إلى الأجيال عن طريق الكتب والصحف، أو تحفظ بألفاظها وأصواتها في الصدور، ومن ثم فالإيمان بكتب الله تعالى وصحفه وما فيها فرض، وإلا ستنتهي طرق معرفة أوامر الله وأحكامه بعد الرسل، ولم يبق تبقى لنا أي معيار لمعرفة الخير والشر. المعيار الذي يمكن أن يتفق عليه الأدنى

والأعلى، والعالم والجاهل، والرئيس والمرؤوس. فلو لم يكن هناك أي خوف من المحاسبة وأي شك أو اشتباه في الثواب والعقاب طبقا للأعمال لتحول البشر إلى عالم الوحوش رغم القوانين الوضعية والعقيدة هي التي تجعل الناس يشعرون بمسئوليتهم في السر والعلن، لذا فبدون الإيمان بيوم الدين والآخرة يستحيل نجاح الإنسانية وفلاحها، وعليه أكد الرسول (ﷺ) هذا الأمر كثيراً، وركز عليه معظم الوحي المكي.

وهذه الأمور الخمسة هي العناصر الرئيسية لإيمانيات الإسلام، وهي الإيمان بالله، والإيمان برسله، والإيمان بكتبه، والإيمان بملائكته، والإيمان بيوم الدين. وقد ورد ذكر هذه العقائد الخمسة في سورة البقرة وغيرها من سور القرآن الكريم أكثر من مرة تفصيلاً وإجمالاً.

﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...** ﴾ (البقرة:٣)

﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ...**﴾ (البقرة:٤)

﴿**...وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾(البقرة:٤)

هذه الآيات وردت في بداية سورة البقرة. أما في وسط السورة فقد جاء.

﴿**وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...**﴾ (البقرة:١٧٧)

وفي آخر السورة: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ...**﴾ (البقرة:٢٨٥)

وفي سورة النساء أمر بالإيمان بهذه العقائد:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**﴾ (النساء:١٣٦)

الإيمان بالله تعالى (آمن بالله)

إن أول حرف أبجدي من تعاليم النبي محمد (ﷺ) هو الإيمان بالقادر المطلق مع الإيمان بجميع صفاته. إن الإيمان بوحدانية الله وصفاته رغم أنه كان موجودا في الأديان السابقة في داخل مبادئها، لكن الترتيب كان مفقودًا في تعاليمها. ولم يكن معروفًا أي درجة من الأهمية تحتلها مسألة التوحيد في نظرها. لكن الرسول محمد (ﷺ) أدرك أهمية التوحيد، وجعله أول درس في منهجه التعليمي، كما جعله على رأس المعارف الروحية والحقائق الجسدية والأعمال والأخلاق. ولو شاء الله لغفر جميع ذنوب العباد، لكنه رفض أن يغفر الشرك، فرفض التوحيد إثم ومعصية لن يغفرها الله أبدًا: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ...**﴾ (النساء:٤٨)

ومن سمات التعاليم المحمدية بيان هذا التوحيد الخالص وشرح الأسماء والصفات ورفض كل صنوف الشرك، وتكملة كافة جوانب التوحيد. وقد أخبر الإسلام أن غرض وغاية النبوة المحمدية لم يكن تعاليم فلسفة إلهية أو نظرية قياسية أو تطبيقية أو تخليد محضًا، بل كان الهدف منها إحياء أمة ذات جهد وعلم، وإخلاص وصلاح وتقوى، وجعلها نموذجًا عمليا لقيادة العالم كله. وعلى رأس هذه الأمة العرب الذين كانوا أول مخاطب له، كما جعلهم حاملين لرموز وأسرار التوحيد؛ كي تتولد في عروقهم نشوة الحماس. وكان من الضروري لهذا الغرض أن تمهد الأرض أولا، وتمحى جميع عقائد الشرك التي كانت منتشرة بين العرب، لذا كان لابد من اقتلاع واستئصال الأسباب التي أدت إلى هذا الشرك.

إصلاح العقائد

من المعزوف أن مئات من العقائد الخاطئة والخرافات كانت منتشرة بين العرب بسبب الجهل والوحشية، كما دخلت أخطاء كثيرة في عقائد الأديان الأخرى أيضا، وكان الشرك بالله تعالى من أسوأها، ولهذا بدأ النبي (ﷺ) بإصلاح العقيدة قبل كل شيء.

إن السلم الحقيقي للشرك والوثنية هو وجود الأسباب والمؤثرات، والله سبحانه وتعالى قد جعل في العالم سلسلة من الأسباب، وأحداث ووقائع الدنيا كلها حلقات لهذه السلسلة، وكل حلقاتها بيد القادر المطلق، ولا يمكن أن تتحرك أي حلقة من هذه السلاسل بدون أمره سبحانه. يبدأ الشرك حينما يتأثر الإنسان ببعض الآثار الظاهرة والقاهرة من هذه الأسباب والعلل. فعلى سبيل المثال ينظر الإنسان إلى عظمة الأجرام الفلكية وأشعة الشمس ونور القمر والتلاطم القوي للبحر وأشكال وألوان العناصر المختلفة، فيتأثر بها أولا، ثم ينفعل معها وفي النهاية يصبح عبدًا لها. في المرحلة الأولى من الاعتقاد بأي مخلوق من هذه المخلوقات يدرك الإنسان بتأمله وتمييزه أن هذه الأشياء ليست آلهة أو تستحق العبادة. ولكن هذا التمييز والتدبر لا يستمر طويلاً، ثم تصبح هذه الأشياء مع مرور الوقت شريكة لله، ويغيب عن الأنظار المسبب الأصلي لهذه الأسباب.

هذه صور وأشكال مختلفة للشرك التي استأصلها رسول الله محمد (ﷺ) وقضى عليها تماما:

١. كانت النصارى والمجوس مشركين علانية، فكانوا يعتقدون بوجود إلهين أو ثلاثة، كما كان الهندوس كذلك يعبدون أكثر من إله. وبدأت هذه الديانات تدعي بأن صفات الله سبحانه وتعالى وجسمت في وجود مستقل لها. على سبيل المثال أُعتقد بأن صفة الخلق والإحياء والإماتة مجسمة في برهمابشن مهيش. ورأى المجوس أن جميع الأشياء والأفعال والحركات مضادة فيما بينها، النور والظلام، والأسفل والأعلى، واليمن والشمال، واللين والخشن، والليل والنهار، والخير والشر، والحلم والغضب، والغرور والتواضع، والفسق والصلاح، أي لا يوجد شيء في العالم يخل من التضاد. وبناء على هذا لا يمكن أن يكون خالق واحد لعالمين متضادين، ولهذا قبل المجوس فكرة وجود إلهين يطلقون عليهما مسمى "يزدان" و"أهرمن" أي النور والظلام (أحدهما إله للخير، وثانيهما للشر).

نزلت جميع أحكام القرآن المجيد بتدريج متناه، حتى أنه لم ينـــزل أمـــر بفرض الصوم والزكاة والحج خلال ثلاثة عشر سنة. إن كان استئصال الـــشرك والقضاء عليه أول درس يقدمه الإسلام.

نزلت سورة الزمر في مكة، وقد قضى تماما على كل صـــور وأشـــكال الشرك. كما يوجد إبطال ورد لكافة أنواع الشرك في مختلف سور القرآن، ومـــن ثم فنحن هنا لسنا في حاجة إلى مزيد من التفصيل.

كان أساس شرك المجوس يقوم على أنه لا يمكن أن يكون هناك خـــالق واحد لأفعال الخير والشر، وإلا يترتب عليه بأن الله يخلق الشر، ومن يخلق الشر ليس طيب. ولهذا جاءت في القرآن الكريم توضيحات وتصريحات كثيرة تبين أن فاعل الأعمال التي نسميها الخير والشر وخالقها هو الله. وأكد الرسول (ﷺ) بشكل حازم وصارم أن كل ما يحدث في العالم يحدث بأمر من الله. أما مسألة أن خالق الشر ليس طيبًا فأولاً إن هذا خطأ مزيج بالمغالطة، فلو أن هناك مصوراً مـــاهراً صور صورة جيدة لحيوان قبيح الشكل، فلا يقلل هذا من مهارتـــه لأن الحيـــوان نفسه قبيح.

ثانياً: حل الإسلام العقدة الأصلية لهذه القضية، وهي أن الأشياء بذاتها لا تتسم بالخير والشر، بل تتحول إلى خير وشر حـــسب اســـتخدامها الـــصحيح أو الخاطئ، فالنار لا هي خير ولا هي شر. وإذا استخدمت لعمل طيب؛ فهي خيـــر، وإذا استخدمت لعمل سيء، فهي شر، وكذلك السم لا هو خير ولا هو شـــر، لـــو استخدم هذا السم لعمل طيب، فهو طيب، ولو استخدم لعمل خبيث فهو خبيث، فإن استخدم مثلاً للقضاء على الأمراض، فهو خير وإن استخدم لقتل شخص برئ فهو شر، كذلك الأشياء الأخرى لها جانب خير وجانب شر، فلا يوجد شيء في الدنيا خير مطلق أو شر محض، ولذلك لم ينسب القرآن الشر إلى الله سبحانه وتعـــالى بل نسبه إلى الإنسان نفسه. يقول الله تعالى:

﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ (الجن: ١٠)

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْـــسِكَ...﴾ (النساء: ٧٩)

﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنـدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:١٦٥)

خلاصة القول هو أن كل شيء له جانبان: أحدهما خير، وثانيهما شر، فالشر ليس مطلقًا في الشيء، بل استخدام جانب الشر منه هو الشر. على سبيل المثال يصنع الصيادلة أدوية سامة لمعالجة كثير من الأمراض، إذاً ليس هذا التصنيع شرّ لكن الشر هو أن يستخدم شريرٌ هذه الأدوية لإزهاق روح بريئة بدلا من إزالة الأمراض التي صُنعت من أجلها. إن لم يكن الخير والشر في الأشياء بذاتهما، فكيف لأحد أن يعتقد بأن الأشياء الطيبة لها خالق وأن الأشياء الخبيثة لها خالق آخر ؟ كلا بل الخالق واحد فقط.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّـايَ فَـارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(النحل:٥١، ٥٢)

٢. النهي عن تمجيد العظماء لحد الشرك

إن أكبر سبب يقود الإنسان إلى حدود الشرك هو تعظيم شخص أو شيء تعظيماً مبالغًا ومفرطًا، وهو ما الذي يسمى بعبودية الأشخاص وعبودية التذكار، وهذا هو التعظيم المفرط الذي جعل سيدنا عيسى (عليه السلام) إلهًا كما جعل رام جندركرشن إلهًا. ومن ثم حقر الله تعالى عبادة أحد سواه. يقول تعالى:

﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَـقَّ إِنَّمَـا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ...﴾ (النساء:١٧١)

﴿لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّه وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُـونَ وَمَـن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِه وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْه جَمِيعاً﴾ (النساء:١٧٢)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِـنَ اللَّه شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّه مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ (المائدة:١٧)

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَـيْنِ مِـن دُونِ اللَّه قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَـدْ

عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ..... ﴾ (المائدة:١١٦، ١١٧)

أكد القرآن الكريم في آيات كثيرة أن محمدًا (ﷺ) بشر. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ...﴾(الكهف:١١٠). وجدير بالذكر أن جميع الأنبياء العظماء كانت لهم ألقابا خاصة. فمثلاً "كليم الله" كان لقب سيدنا موسى (عليه السلام)، و"خليل الله" كان لقبا لسيدنا إبراهيم (عليه السلام)، و"روح الله" كان لقبا لسيدنا عيسى (عليه السلام)، ولكن ماذا كان لقب محمد (ﷺ) رغم أنه أشرف الأنبياء والرسل ؟ وهل يعتبر ذكر اسمه (ﷺ) في كلمة التوحيد (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) وفي التشهد (الصلاة) امتياز وفضل ؟ الحقيقة هي أن ذكر الرسول (ﷺ) هذا ما هو إلا تأكيد على العبودية والرسالة: "أشهد أن محمدًا عبده ورسوله". ويلاحظ هنا أن صفة العبودية مقدمة على صفة الرسالة. دعا الرسول (ﷺ) ذات مرة على بعض الكفار فنزلت هذه الآية[1]: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٨)

كان الرسول (ﷺ) يرغب في هداية بعض الكفار، وكان يتمنى لهم اعتناق الإسلام، فنزلت عليه هذه الآية:

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ... ﴾ (القصص:٥٦)

استغفر الرسول (ﷺ) لعبد الله بن أُبى[2]؛ فجاء في القرآن المجيد: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ

---

[1] البخارى، غزوة أحد وقد ورد هذا الحديث في مختلف أبواب البخاري. وهذا نصه: (٣٩٨١) وعن حَنظلةَ بن أبي سفيان سمعتُ سالمَ بن عبدِ اللّهِ يقول: «كان رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يَدعو على صَفوانَ بن أميَّةَ وسُهيلِ بن عمرٍو والحارثِ بن هشام: فنزلَت: {ليس لك مِنَ الأمر شيء} – إلى قوله – {فإنهم ظالمون} (آل عمران: ١٢٨).(يوسف عامر).

[2] البخارى، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة. وهذا نصه: (١٢٤٨) حدَّثنا مسدَّدٌ قال حدَّثنا يحيى بنُ سعيدٍ عن عُبيدِ اللّهِ قال حدَّثني نافعٌ عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللّهُ عنهما «أنَّ عبدَ اللّهِ

لَهُمْ...﴾ (التوبة:٨٠). كان الرسول (ﷺ) يؤكد دائمًا على عدم المغالاة في مدحه حتى لا يقود هذا المدح إلى الشرك أو حده، لذا قال (ﷺ): « لا تُطْرونـي كمـا أطرَتِ النصارَى ابنَ مريمَ »[1].

ذات مرة كان الرسول (ﷺ) ذاهبًا إلى مكان ما إذ رآه شخص في الطريق فجأةً، فطرأت على الرجل دهشة ورعب حتى بدأ يرتجف فقـال لـه الرسـول (ﷺ):«هَوِّنْ عَلَيْكَ. فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ. إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»[2].

وعندما جاءه (ﷺ) وفد من بني عامر فقالوا لرسول الله (ﷺ):أَنْتَ سَـيِّدُنا فقَالَ السَّيِّدُ الله، قُلْنا وَأَفْضَلُنا فَضْلاً وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً فَقَالَ قُولُوا بِقَـوْلِكم أَوْ بَعْـضِ قَوْلِكمُ وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكمْ الشَّيْطَانُ» [3] والنص هكذا[1].

بن أبيٍّ لما تُوُفِّيَ جاءَ ابنهُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسـولَ اللّـهِ أعطِنـي قَميصَكَ أُكفِّنْهُ فيه، وصلِّ عليه واستغفر له. فأعطاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسـلم قميـصَهُ فقال: آذِنِّي أُصلِّي عليه. فآذَنَهُ. فلما أرادَ أنْ يُصلِّيَ عليه جذَبَهُ عمرُ رضيَ اللّه عنه فقال: أليسَ اللّهُ قد نَهاكَ أن تُصلِّيَ على المنافقين؟ فقال: أنا بينَ خيرتَينِ قال قـال الله تعـالى: {استَغفِرْ لهم أو لا تستَغْفِرْ لهم، إن تَستَغفِرْ لهم سَبعينَ مرَّةً فلن يَغفِرَ اللّهُ لهم} (التوبة: ٨٠) فصلَّى عليه، فنَزَلَتْ {ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً}.(التوبة: ٤٨)(يوسف عامر).

[1] البخاري، ج ١ كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم. وهذا نـصه: (٣٣٧٢) حـدّثنا الحُميديُّ حدَّثَنا سفيانُ قال: سمعتُ الزُّهريَّ يقول: أخبرني عُبَيدُ اللهِ بن عبدِ الله عنِ ابـنِ عباسٍ سمعَ عمرَ رضيَ الله عنه يقولُ على المنبرِ: «سمعت النبيَّ صلى الله عليـه وسـلم يقول: لا تُطْروني كما أطرَتِ النصارَى ابنَ مريمَ، فإنما أنـا عبـده، فقولـوا: عبـد اللهِ ورسوله».(يوسف عامر).

[2] شمائل الترمذي والمستدرك ج ٣ صـ ٤٨ على شرط الشيخين واقعة فتح مكة. وورد فـي ابن ماجة: (٣٣٩١) حدثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَسَدٍ. حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ. حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ رَجُلٌ. فَكَلَّمَهُ. فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ. فَقَالَ لَهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ. فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ. إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ».
قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: إِسْمَاعِيلُ، وَحْدَهُ، وَصَلَهُ.(يوسف عامر).

[3] الأدب المفرد الإمام البخاري باب هل يقول سيدي وأبو داود كتـاب الأدب بـاب كراهـة التمادح. وهذا نص رواية أبي داود: (٤٨٠٢) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا بِشْرٌ يَعْني ابنَ المُفضَّلِ أخبرنا أَبُو سَلَمَةَ سَعِيدُ بنُ يَزِيدَ عنْ أَبي نَضْرَةَ عن مُطَرِّفٍ، قالَ قالَ أَبِي: « انْطَلَقْتُ فـي

تدبر في أن مثل هذه الكلمات في شأن الرسول (ﷺ) ليست مكروهة، ولكن حماية وصيانة التوحيد من كل شبهة أي الشرك كان غالباً على كل رأي.

٣. العقيدة الوثنية للوساطة البينية

إن الضرر الأصلي للشرك هو أن درجة العلاقة المطلوبة ما بين الله وعبده من عجز واحتياج وحب ولجوء تتحول إلى جانب آخر. فملايين الناس يعلمون جيدًا أن الآلهة ليسوا بخالق السماء والأرض، ولكن مع هذا العلم يطلبون منها كل حاجاتهم ويسألونها كل شيء، ويحسبونهما قاضي حاجاتهم، ويذكرون أسماءها في كل حال، ويقدمون لها القرابين. خلاصة القول هو أن جميع علاقاتهم تكون مرتبطة بهؤلاء الآلهة. ونجد من بين المسلمين أنفسهم مئات الآلاف يقتربون من الشرك بسبب اعتقادهم الخاطئ نحو الأنبياء والصالحين والمزارات والمقامات. لذا بادئ ذي بدء يجب تصحيح هذا الخطأ، وتوضيح هذا الاعتقاد نحو الآلهة مبني على الخطأ فلا لا سلطان لأحد أمامه سبحانه وتعالى، ولا يستطيع أحد أن يتدخل في شئونه. فهذا هو سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وعد أباه أن يستغفر له، وقال له وهو يعده بأنه لا يملك من الأمر شيئا: قال تعالى: ﴿**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾ (الممتحنة:٤) وقال الرسول (ﷺ):«اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي. وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي» [٢].

وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَقُلنا أَنْتَ سَيِّدُنا فقَالَ السَّيِّدُ الله، قُلنا وَأَفْضَلُنا فَضْلاً وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً فَقَالَ قُولُوا بِقَولِكم أَوْ بَعْضِ قَولِكمُ وَلاَ يَستَجْرِيَنَّكمْ الشَّيْطَانُ».(يوسف عامر).

[١] مسند أحمد بن حنبل ج ٣ صـ ١٥٣. وهذا نصه: (١٣٣٠٥) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عفان ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا محمد يا خيرنا، وابن خيرنا، ويا سيدنا، وابن سيدنا، فقال: «قولوا بقولكم ولا يستجركم الشيطان أو الشياطين». قال إحدى الكلمتين: «أنا محمدُ بنُ عَبْدِ الله وَرَسُولُهُ، أنا محمدٌ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، ما أحبُ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي التي أَنْزَلَنِي الله عَزَّ وَجَلَّ»(يوسف عامر) .

[٢] صحيح مسلم كتاب الجنائز. وهذا نصه: (٢٢١١) حدّثنا يَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ وَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ وَاللَّفْظُ لِيَحْيَىٰ قَالا: حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ عَنْ يَزِيدَ يَعْنِي ابْنَ كَيْسَانَ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ

وعندما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(الشعراء:٢١٤)؛ فجمع النبي (ﷺ) عشيرته وقال لهم: يا معشرَ قُرَيشٍ ــ أو كلمةً نحوها ــ اشتَرُوا أنفُسَكم، لا أُغنِي عنكم منَ اللهِ شيئاً، يا بني عبد منافٍ لا أغني عنكم منَ اللهِ شيئاً، يا عباسُ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ لا أغني عنكَ منَ اللهِ شيئاً. يا صفيَّةُ عمةَ رسولِ اللهِ لا أغني عنكِ منَ اللهِ شيئاً. ويا فاطمةُ بنتَ محمدٍ سَليني ما شِئتِ من مالي، لا أغني عنكِ منَ اللهِ شيئاً» [1].

نزلت آيات كثيرة في القرآن الكريم تؤكد على أنه لا يوجد أي أحد له الأمر من قبل ومن بعد سوى الله تعالى، ولا سلطان لأحد أمامه، ولا قاضي للحاجات سواه. يقول الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ (الإسراء:٥٦، ٥٧)

٤. حدوث الخوارق بإذن الله

إن الاعتقاد الخاطئ عن خوارق العادات لوسيلة خطيرة للشرك؛ فهناك أشخاص تحدث منهم أمور خارقة للعادة تجعل الناس يعتقدون بأن هؤلاء الأشخاص رغم أنهم ليسوا آلهة، إلا أنهم يتمتعون بقدراتٍ إلهية، ومن ثم تحدث

أبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «استَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي. وَاستَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي».(يوسف عامر).

[1] وردت هذه الرواية في تفسير هذه الآية، وتوجد في جميع التفاسير وكتب الأحاديث. وهذا نصها: (٢٦٩٤) حدثنا أبو اليمانِ : أخبرَنا شُعَيبٌ عن الزُهريِّ قال: أخبرَني سعيدُ بنُ المسيَّبِ و أبو سَلمةَ بنُ عبدِ الرحمن أنَّ أبا هريرةَ رضي الله عنه قال: «قامَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حينَ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {وأنذر عشيرَتَكَ الأقربين} (الشعراء : ٢١٤) قال: يا معشرَ قُرَيشٍ ــ أو كلمةً نحوها ــ اشتَرُوا أنفُسَكم، لا أُغني عنكم منَ اللهِ شيئاً، يا بني عبدِ منافٍ لا أُغنِي عنكم منَ اللهِ شيئاً، يا عباسُ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ لا أغني عنكَ منَ اللهِ شيئاً. يا صفيَّةُ عمةَ رسولِ اللهِ لا أغني عنكِ منَ اللهِ شيئاً. ويا فاطمةُ بنتَ محمدٍ سَليني ما شِئتِ من مالي، لا أغني عنكِ منَ اللهِ شيئاً». تابَعهُ أصبَغُ عنِ ابنِ وهبٍ عن يونُس عنِ ابنِ شِهابٍ.(يوسف عامر).

منهم أفعالاً تفوق قدرة البشر، فينمو هذا الاعتقاد تدريجيا حتى يصل هؤلاء الأشخاص إلى الألوهية. وهذا هو السبب الذي جعل سيدنا عيسى (عليه السلام) اليوم إلها لـ ٤٠٠ مليونا من الناس أو ابن إله.

ولكن هذا لا يعني إنكار معجزات الأنبياء والرسل، إذ أن المعجزات من خصائص النبوة، ولكن هذه المسألة ظلت مشبوه فيها أو مجملة حتى الإسلام. نزل في القرآن الكريم عن هذه المسألة الأمور التالية.

١. يمكن صدور المعجزات والله يعطي من يشاء من عباده الصالحين هذه المعجزات.

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام:٣٧)

٢. على الرغم من أن الكفار كانوا يُمنعون من طلب المعجزات، وكان يقال أن النبوة ليست موقوفة على المعجزات يقول الله تعالى:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد:٧)

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ (الإسراء:٩٠-٩٣)

٣. إن المعجزات التي طلبها الكفار في هذه الآية لم تكن مستحيلة، ولكن الرد الذي تلقاه الرسول (ﷺ) من ربه هو أن يقول ما أنا إلا بشر. وفي موضع آخر جاء الرد بأن المعجزات من عند الله أي عندما تأتي المعجزات فلا تكون من عمل أو فعل الرسول ومن عنده (ﷺ)، بل هو من فعل الله سبحانه وتعالى. **﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ**

يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٠، ٥١)

ولذا ورد لفظ المعجزات مقترنًا دائمًا "بإذن الله".

٤. التحريم والتحليل من عمل وخصائص الله تعالى. من أنواع الشرك كان هناك أناس يحسبون الأنبياء ورجال الدين وكلاء للتحريم والتحليل، أي أن لهؤلاء الحق في أن يحرموا ما يريدون، ويحللوا ما يريدون وحين نزل قوله تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابا ...﴾ (التوبة: ٣١)

قال عدي (ﷺ)ابن حاتم الطائي والذي كان نصرانيًا قبل اعتناق الإسلام للنبي (ﷺ): «أَتَيْتُ النَّبيَّ وَفي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَب، فقال: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ في سُورَةِ بَرَاءَةَ: {اتَّخَذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله}، قال: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرَّمُوهُ» [1]. وكان أهل الأديان عامة يحسبون الأنبياء يشرعون الشرائع، لذا كان هذا شرك لأن إرساء الشريعة وتحديد الحلال والحرام والتفريق بين المباح والمكروه وإحكام الأوامر والنواهي أمور كلها خاصة بالله سبحانه وتعالى وحده. أما الأنبياء فما هم إلا رسل مبلغين وشارحين للتعاليم الإلهية. وعلى هذا النحو جاء في القرآن

---

[1] جامع الترمذي وابن كثير في تفسير الآية. وهذا نصه: (٣١٩٩) حدثنا الحُسَيْنُ بنُ يَزِيدَ الْكُوفِيُّ، أخبرنا عَبْدُ السَّلاَمِ بنُ حَرْبٍ عن غُطَيْفِ بنِ أَعيَنَ عن مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ عن عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ، قال: «أَتَيْتُ النَّبيَّ وَفي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَب، فقال: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ في سُورَةِ بَرَاءَةَ: {اتَّخَذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله}، قال: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرَّمُوهُ» .

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاَّ من حديثِ عبدِ السَّلاَمِ بنِ حَرْبٍ. وَغُطَيْفُ بنُ أَعْيَنَ لَيْس بمَعْرُوفٍ في الحديثِ.(يوسف عامر).

الكريم التأكيد مرارا على أن النبي أو الرسول ما هو إلا رسول. يقول تعالى:
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ... ﴾ (آل عمران:١٤٤)
﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ....﴾ (النساء:١٧١)
والهدف من هذا الحصر هو أن الأنبياء لا توجد فيهم أي صفة إلهية إنما الصفة التي توجد فيهم فهي من صفات الرسالة والنبوة.

٥. التعظيم الإلهي لغير الله

كان نسب أفعال الله تعالى وصفاته إلى آخرين سبباً كبيرًا من أسباب الشرك وكان هذا النوع من الشرك يتضح أولاً في العبادة وفي الصفات، ثم يصل إلى الشرك في الذات. إن السجود عبادة خاصة لله تعالى، ولكن الكفار وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى كانوا يسجدون للأصنام وأرباب الأديان، كما كان السجود للسلاطين والأمراء يروج بين الناس، وجاء النبي محمد (ﷺ) ونهى عن هذا العمل المشرك بكل شدة. كان مباحاً في بني إسرائيل سجدة يقال لها سجدة التعظيم أو سجدة الحب وعلى هذا سجد ليوسف (عليه السلام) والداه، لكن الإسلام أراد أن يصل بالتوحيد إلى قمته ومنتهاه، ولهذا منع سجدة التعظيم. فذات مرة جاء صحابي إلى الرسول (ﷺ) وقال: إِنِّي أَتَيتُ الحيرَةَ فَرَأَيْتهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانَ لَهُمْ فأَنتَ يَارَسُولَ الله أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قال: أرَأيتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أكُنْتَ تَسْجُدَ لَهُ؟ قال قُلْتُ: لاَ. قال: فَلاَ تَفْعَلُوا لَوْ كُنْتُ آمِراً أحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّسَاءَ أنْ يَسْجُدْنَ لأزْوَاجِهِنَّ [1]. وجاء صحابي آخر من بلاد الشام فسجد له؛ فقال الرسول (ﷺ): «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ

[1] أبو داود كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة. وهذا نصه: (٢١٤٤) حدثنا عَمْرُو بنُ عَوْنٍ أنبأنا إِسْحَاقُ بنُ يُوسُفَ عن شَرِيكٍ عن حُصَيْنٍ عن الشَّعْبِيِّ عن قَيْسِ بنِ سَعْدٍ، قال: «أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ، فَقُلْتُ: رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ. قال: فأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيتُ الحيرَةَ فَرَأَيْتهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانَ لَهُمْ فأَنتَ يَارَسُولَ الله أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قال: أرَأيتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟ قال قُلْتُ: لاَ. قال: فَلاَ تَفْعَلُوا لَوْ كُنْتُ آمِراً أحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لاِءَحَدٍ لأَمَرْتُ النِّسَاءَ أنْ يَسْجُدْنَ لاِءَزْوَاجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ الله لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ». (يوسف عامر).

وَبَطَارِقَتِهِمْ. فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَلاَ تَفْعَلُوا. فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا[1].

٦. توحيد الصفات الإلهية

هناك نوع آخر من أنواع الشرك وهو إقرار صفات الله تعالى للآخرين، وتبعًا لهذا أن لهذا أن يصبح هذا الآخر شريكاً وكفواً لله سبحانه وتعالى. ومن بين هذه الصفات صفة علم الغيب. كان كثير من أتباع الديانات السابقة يعتقدون – ومازالوا – أن الأنبياء والأولياء يعلمون علم الغيب، ففي عصر بني إسرائيل كان الكهنة ينبئون بما يحدث في المستقبل. مرة بالتفاؤل، ومرة برمي الأقلام، ومرة ثالثة بالقول بأن الجن يأتي لهم بعلم الغيب.

قضى النبي (ﷺ) على هذا الاعتقاد، وأبطل جميع صور الادعاء بعلم الغيب، ونزلت آيات كثيرة في القرآن الكريم توضح هذا الأمر. يقول الله تعالى:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ...﴾ (الأنعام:٥٩)

وقد بيّن الرسول (ﷺ) هذا الإجمال أخبر أن مفاتح الغيب خمسة لا يعلمها أحد سوى الله[2].

---

[1] ابن ماجة، باب حق الزوج على المرأة. وهذا نصه: (١٩٠٧) حدثنا أَزْهَرُ بْنُ مَرْوَانَ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ الْقَاسِمِ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ. قَالَ: «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ. فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَلاَ تَفْعَلُوا. فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا، وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ، لَمْ تَمْنَعْهُ».(يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، وورد تفصيل هذا أيضا في كتاب الرد على الجهمية. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري (٤٦٥٩) حدَّثني إسحاقُ عن جريرٍ عن أبي حَيَّانَ عن أبي زُرعةَ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه «أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاهُ رجلٌ يَمشي فقال: يا رسولَ الله، ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن باللَّهِ، ومَلائكته، ورُسُلِه، ولقائه، وتؤمن بالبَعثِ الآخر. قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلامُ أن تعبُدَ الله ولا تُشرِكَ به شيئاً، وتُقيمَ الصلاةَ، وتؤتيَ الزكاةَ المفروضةَ، وتصومَ رمضانَ. قال: يا

- العلم بما في الأرحام، هل الجنين ذكراً أم أنثى.
- ماذا سيحدث غدًا.
- متى ينزل الأمطار.
- أين سيأتي الموت.
- متى ستأتي القيامة.

وإن كانت هناك صور أخرى للادعاء بعلم الغيب ولكن الناس كانوا يدعون معرفة علم الغيب عن هذه الأمور الخمسة وكانوا يرغبون بشدة في معرفة هذه الأمور قبل حدوثها.

نفى النبي (ﷺ)عن نفسه معرفة علم الغيب، فذات مرة كان الرسول (ﷺ) موجودًا في عرس، وبه عدد من فتيات الأنصار يغنين. وفي أثناء الأغنية قالت الفتيات وفينا نبيٌّ يَعلمُ ما في غَدٍ [1]. فنهاهن النبي (ﷺ) وقال: دَعي هذِهِ وقولي بالذي كنتِ تقولين» [2].

وأمر الله تعالى النبي (ﷺ) أمراً خاصًا ببيان هذه الحقيقة:

﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ...﴾ (الأنعام: ٥٠)

لا ريب في أن علم الغيب خاص بالله تعالى وحده. يقول تعالى:

رسولَ الله، ما الإحسان؟ قال: الإحسان أن تَعبُدَ اللَّهَ كأنكَ تراه، فإن لم تَكنْ تراه فإنه يراك. قال: يا رسولَ الله، متى الساعة؟ قال: ما المسؤولُ عنها بأعلم منَ السائل، ولكنْ سأُحدِّثكَ عن أشراطِها: إذا ولَدتِ المرأةُ ربَّتَها فذاكَ من أشراطها، وإذا كان الحُفاةُ العُراة رُؤوسَ الناس فذاك من أشراطِها، في خمسٍ لا يَعلمهنَّ إلا الله {إنَّ اللَّهَ عندَهُ علم الساعة، ويُنزِّلُ الغَيثَ، ويَعلمُ ما في الأرحام}. ثم انصرفَ الرجلُ، فقال: رُدُّوا علَيَّ. فأَخَذُوا ليرُدُّوا فلم يَرَوْا شيئاً، فقال: هذا جبريلُ جاء ليعلِّمَ الناسَ دِينَهم».(يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري، كتاب الرد على الجهمية.

[2] صحيح البخاري كتاب النكاح. وهذا نصه: (٥٠٢٦) حدّثنا مسدَّدٌ حدَّثنا بِشرُ بن المفضَّل حدَّثنا خالدُ بن ذكوان قال: «قالتِ الرُّبَيِّعُ بنتُ مُعَوِّذ بن عفراءَ: جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم فدخلُ حين بُنِيَ عليَّ فجلسَ على فِراشي كمجلِسكَ منّي، فجعلتْ جُوَيْرِياتٌ لنا يَضربنَ بالدُّفِّ ويَندُبنَ مَن قُتلَ من آبائي يومَ بدرٍ، إذ قالت إحداهنَّ: وفينا نبيٌّ يَعلمُ ما في غَدٍ، فقال: دَعي هذِهِ وقولي بالذي كنتِ تقولين».(يوسف عامر).

﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللَّهُ...﴾ (النمل:٦٥)

كان كهنة العرب يدعون علم الغيب، وكانوا ينشرون شباك الخداع والاحتيال في كل مكان من بلاد العرب، وكانوا يحكمون وينهون وكأنهم آلهة في معابد الأصنام، ولكن جاء وقت وانتهى فيه سطوهم بل وانتهوا هم أنفسهم. جاء الصحابة إلى النبي (ﷺ) وسألوه: يا رسول الله كنا نذهب في الجاهلية إلى الكهنة. فأمرهم رسول الله (ﷺ) بألا يذهبوا ثانية ... قالوا كنا نتفاءل بالطيور. فأخبرهم بأن هذا كان توهما منهم، وأمرهم بألا يعدلوا عمًا قصدوه بسبب هذا الاعتقاد. وأخبر ردًا على أسئلة بعض الناس بأن الكاهن لا يعلم شيئًا عن الغيب. فقالوا لكن بعض أحاديثهم تكون صادقة. أخبر بأن الشيطان يسمع بعض الأحاديث ثم يلقي في آذان أصدقاءه مثل صياح الديك ويخلط فيه مئات الأكاذيب. كما أخبر أن الشيطان يخترقون السمع في سماء الدنيا والكهنة يخلطون فيه مئات الأكاذيب من عند أنفسهم وكان هناك جهلة ماكرون من يدعون أنهم يستطيعون أن يخبروا عناوين المسروقات. وكان العرب يطلقون عليهم مسمى العرافين فأخبر النبي (ﷺ): أن من يذهب إلى عرّاف للسؤال عن المسروقات فلا تُقبل منه الصلاة أربعين يوماً[1].

وعد الرسول (ﷺ) السحر ذنبًا، حيث قال: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم».[2]

قضت هذه التعاليم النبوية على الاعتقاد بأن علم الغيب ليس خاصًا بالله وحده. وكسدت أسواق الكهنة، وأكد الإسلام على أن معرفة علم الغيب عن الطيرة

---

[1] مشكاة باب الكهنة والأحاديث منقولة من الصحيحين. وحديث حرمة علم النجوم موجود في أبي داود وابن ماجة وأحمد.

[2] ورد في مسند الإمام أحمد: (٩٤٠٥) حدثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا يحيى بن سعيد، عن عوف قال: حدثنا خلاس، عن أبي هريرة، و الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم». (يوسف عامر).

والعيافة توهم ووسواس ولا سلطان لأحد على مملكة الغيب لغير الله سبحانه وتعالى.

٧. إبطال القوى الخفية

كان هناك اعتقاد في قوى خفية تعرف غيب الأسباب والعلل في الكون ومن بينها السحر والجن والشياطين والأرواح الخبيثة والنحس وغيرها من القوى التي كان الناس يعتقدون بها، وكانوا يطلبون منها حوائجهم، ويقدمون لها القرابين، جاء الإسلام واقتلعها تماما، ولم يعد هناك وهم وأصبح الناس لا يخشون أحد سوى الله تعالى، يدعونه ويلجأون إليه دون سواه، وأخذوا يقرأون القرآن، ويبتعدون عن الرقى والتمائم والسحر، وأُعلن أن الاستعانة من غير الله تعالى شرك وكفر. وللاستئصال مثل هذه الأفكار الفاسدة أُمر أن تُقرأ في كل ركعة هذه الآية من سورة الفاتحة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)

وعن السحر والرقى نزلت هذه الآية الكريمة:

﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾(البقرة:١٠٢)

وأُعلن أيضًا أن السحر تخيل ليس إلا:

﴿... يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (طه:٦٦)

بل لاقتلاع السحرة الماكرين والخداعين أمر بعض الصحابة أن يقتلوهم رأى بعض الصحابة أنه لابد من قتل السحرة[١] حتى يزول الخوف تماما من قلوب الناس، ويدركوا أن هؤلاء السحرة ما هم إلا بشر عاديين، وأنهم لا يملكون أي قوة خارقة تمنع من القتل أو الموت، وهم لا حول لهم ولا قوة.

---

[١] جامع الترمذي، باب ما جاء في حد الساحر، وأبو داود، باب أخذ الجزية من المجوس.

ورد في سنن أبي داود أن صحابيًا قال «كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ فَقَالَ اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكاً». [1]

ورد أن صحابيا قرأ على رجل مجنون سورة الفاتحة ونفث فيه، فأصبح الرجل سليمًا. وأعطاه مكافأة، فجاء هذا الصحابي وأخبر الرسول (ﷺ) بما حدث فأخبر (ﷺ) أن كل رقية باطلة ولكن هذا الصحابيْ كسب رزقًا من هـذه الرقية الصحيحة. وروى عن صاحبي أن الرسول (ﷺ) قال: «إنَّ الرُّقَى والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ». (أبو داود وابن ماجة)

وفي دار هذا الصحابي (ﷺ) كانت تأتي عجوز، وذات مرة استعملها أهل لعمل رقية من مرض ما، فقرأت شيئا في خيط ثم ربطته. وحين جاء الصحابي منزله ورأى هذا الخيط، فمدد يده إليه وقطعه وألقى به، ثم قال: : لَقَدْ أَصبحَ آلُ عبدِ اللَّهِ أغنياءَ أَن يُشْرِكُوا باللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بهِ سلطاناً، ثُمَّ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله يقولُ: «إنَّ الرُّقَى والتَّمائمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ». [2] فقالت له زوجته: لَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذفُ فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلاَنٍ الْيَهُودِيِّ يَرْقِينِي فإذَا رَقَانِي سَكَنَتْ. فَقَالَ عَبْدُ الله: إِنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَنْخُسُهَا بيَدِهِ فإذَا رَقَاهَا كَفَّ عَنْهَا، إنَّمَا كَانَ يَكْفِيكِ أَنْ تَقُولِي كَمَا كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: اذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ،

---

[1] – وهذا نص الحديث: (٣٨٨٦) حدثنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا ابنُ وَهْبٍ أخبرني مُعَاوِيَةُ عن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ جُبَيْرٍ عن أبيهِ عن عَوْفِ بنِ مَالك، قالَ: «كُنَّا نَرْقِي في الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يَارَسُولَ الله كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ فَقَالَ اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لاَ بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكاً».(يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث: (٥٩٨٦) أخبرنا عِمرانُ بنُ موسى بنِ مجاشعٍ، قال: حَدَّثنا واصلُ بنُ عبد الأعلى، قال: حَدَّثنا ابنُ فُضَيْلٍ، عن العلاء بن المسيب، عن فُضيل بنِ عمرو، عن يحيى بنِ الجزار، قال : دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ على امرأةٍ وفي عُنُقِهَا شَيءٌ مُعَوَّذٌ، فَجَذَبَهُ فَقَطَعَهُ، ثُمَّ قال: لَقَدْ أَصبحَ آلُ عبدِ اللَّهِ أغنياءَ أَن يُشْرِكُوا باللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بهِ سلطاناً، ثُمَّ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله يقولُ: «إنَّ الرُّقَى والتَّمائمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ». قالوا: يا أبا عبد الرحمٰن، هٰذه الرُّقى والتَّمائم قد عرفناها، فما التِّوَلَةُ؟ قال: شيءٌ يصنعُه النِّسَاءُ يَتَحَبَّبْنَ إِلَى أزواجِهِن. (٣:٥١)(يوسف عامر).

اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إلاَّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقْماً»(رواه البخاري ومسلم وابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها)[1].

٨. إبطال الأوهام والخرافات

قضى الرسول (ﷺ) على الأوهام والخرافات التي كانت ترتعد منها العرب المشركين، والتي كانوا يحسبونها مؤثرة بذاتها ومتصرفة بنفسها، وأبطل سحرها، وأعلن أن كل الأوهام والخرافات لا أصل لها[2]. قال رسول الله (ﷺ):**«لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيرَةَ وَلاَ صَفَرَ وَلاَ هَامَةَ»**. (أبو داود، وابن ماجة).[3]

---

[1] – وهذا نص الحديث: (٣٨٨٣) حدثنا مُحمَّدُ بنُ الْعَلاَءِ أخبرنا أَبُو مُعَاوِيَةَ أخبرنا الأعمَشُ عن عَمْرِو بن مُرَّةَ عن يَحْيَى ابنِ الْجَزَّارِ عن ابنِ أَخِي زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ الله عن زَيْنَبَ امْـرَأَةِ عَبْدِ الله عن عَبْدِ الله، قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إنَّ الرُّقَى وَالتَّمائمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ. قالَتْ قُلْتُ: لِمَ تَقُولُ هٰذا، وَالله لَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِفُ فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إلَى فُلاَنٍ الْيَهُودِيِّ يَرْقِينِي فإذَا رَقَانِي سَكَنَتْ. فقالَ عَبْدُ الله: إنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ كَانَ يَنْخُسُهَا بِيَدِهِ فإذَا رَقَاهَا كَفَّ عَنْهَا، إنَّمَا كَانَ يَكْفِيكِ أنْ تَقُولِي كَما كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: اذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إلاَّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقْماً».(يوسف عامر).

[2] وردت هذه الروايات كلها في أبي داود وج ٢ باب ما جاء في الرقى، وابن ماجة باب تعليق التمائم.

[3] – وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود: (٣٩١١) حدثنا مُحمَّدُ بنُ المُتَوَكِّلِ الْعَسْقَلاَنِيُّ وَالْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ قالاَ أخبرنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أنبأنا مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِيِّ عنْ أبي سَلَمَةَ عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَلاَ صَفَرَ وَلاَ هَامَةَ. فقالَ أعْرَابيٌّ: مَا بَالُ الإبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ فَيُخَالِطُهَا الْبَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيُجْرِبُهَا. قَالَ فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ» قالَ مَعْمَرٌ قالَ الزُّهْرِيُّ فَحَدَّثَنِي رَجُلٌ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لاَ يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍ. قَالَ فَرَاجَعَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ حدَّثْتَنَا أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ: لاَ عَدْوَى وَلاَ صَفَرَ وَلا هامَةَ؟ قالَ لَمْ أُحَدِّثْكُمُوهُ. قالَ الزُّهْرِيُّ قالَ أَبُو سَلَمَةَ قَدْ حَدَّثَ بِهِ وَمَا سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ نَسِيَ حَدِيثاً قَطُّ غَيْرَهُ».(يوسف عامر).

روى صحابي آخر عن رسول الله (ﷺ) أنه قال«الْعِيَافَةُ وَالطِّيْرَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الْجِبْتِ» (أبو داود، وابن ماجة)[1]

وورد عن صحابي أن رسول الله (ﷺ) أنه (ﷺ) قال: «الطِّيَرَةَ شِرْكٌ الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ثَلاَثاً وَمَا مِنَّا إلاَّ ولَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[2]. وورد عنه (ﷺ) أنه أخبر بأنه لا طيرة ولا علاقة لها بنزول المطر[3]. كما أبطل الرسول (ﷺ) معتقد العرب عن الغول بكلمة واحدة ألا وهي «لاَ غُولَ» (أبو داود، باب في الطيرة).[4].

أبطل القرآن الكريم المعتقدات الفاسدة عن البحيرة والسائبة وغيرها من الحيوانات، ففي سورة آل عمران ورد تصريح بإبطال هذه المعتقدات المشركة، وقال الله تعالى في سورة المائدة. ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ** ﴾ (المائدة: ١٠٣)

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في أبي داود: (٣٩٠٧) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا يَحْيَى أخبرنا عَوْفٌ أخبرنا حَيَّانُ قالَ غَيْرُ مُسَدَّدٍ حيَّانُ بنُ الْعَلاَءِ قالَ أخبرنا قَطَنُ بنُ قَبِيْصَةَ عن أبِيهِ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «الْعِيَافَةُ وَالطِّيْرَةُ وَالطَّرْقُ مِنَ الْجِبْتِ» الطَّرْقُ الزَّجْرُ وَالْعِيَافَةُ الْخَطُّ.(يوسف عامر).

[2] أبو داود، وابن ماجة، ذكر الفال. وهذا نص الحديث: (٣٩١٠) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ كَثِير أنبأنا سُفْيَانُ عن سَلَمَةَ بنِ كُهَيْلٍ عنْ عِيسَى بن عَاصِمٍ عن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ عنْ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُود، عنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ: «الطِّيَرَة شِرْكٌ الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ثَلاَثاً وَمَا مِنَّا إلاَّ ولَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ».(يوسف عامر).

[3] أبو داود وابن ماجة.

[4] - وهذا نص الحديث: (٣٩١٣) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ بنِ الْبَرْقِيِّ أنَّ سَعِيدَ بنَ الْحَكَمِ حَدَّثَهُمْ قالَ أخبرنا يَحْيَى بنُ أَيُّوبَ قالَ حدَّثني ابنُ عِجْلاَنَ قالَ حدَّثني الْقَعْقاعُ بنُ حَكِيمٍ وَ عُبَيْدُالله بنُ مِقْسَمٍ وَ زَيْدُ بنُ أسْلَمَ عَنْ أبي صَالِحٍ عن أبي هُرَيْرَةَ، أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ «لاَ غُولَ». قالَ أَبُو دَاوُدَ: قُرِىءَ عَلَى الْحَارِثِ بنِ مِسْكِينٍ وَأَنَا شَاهِدٌ أَخْبَرَكُمْ أشْهَبُ قالَ سُئِلَ مَالِكٌ عن قَوْلِهِ: «لاَ صَفَرَ» قال إنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُحِلُّونَ صَفَرَ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً، فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لاَ صَفَرَ».(يوسف عامر).

والبحيرة هي صغير الناقة الذي كان العرب يقطعون أذنيه ويقدمونها قرابين للأصنام.

والسائبة هي الحيوان الذي كان يطلق سراحه باسم الأصنام. أما الوصيلة فهي أن الناس في الجاهلية كانوا ينذرون إذا ولدت الناقة الذكر فيترك للآلهة، وإذا ولدت أنثى فتبقى عندهم، ولكن إذا ولدت الذكر والأنثى معًا؛ فكانوا يحتفظون بالاثنين.

والحام هي الناقة التي تلد عشرة صغار، وحين تكبر هذه الصغار وتستطيع الحمل، فيتركون هذه الناقة باسم الآلهة.

كانت هذه بعض الأوهام والمعتقدات التي كانت سائدة بين العرب، لذا اقتلعها النبي (ﷺ) من جذورها، لأن هذه الخرافات والحقيقة تكون سببا كبيرا لهلاك الأمم، إذ أنها ضد الواقع، كما أنها توقع الفساد والخلل في كثير من الأمور. وإذا تدبرت فيها، لأدركت أنها تقود إلى الشرك، وتضل الناس عن الصراط المستقيم. فعلى سبيل المثال إذا عولج الداء طبقا لعلم الطب. فستكون هناك الفائدة المرجوة، ولكن هناك أناس كثيرون يتوهمون أن الرقية والسحر تبعد المرض وتقضي عليه. وكان هذا النوع من الأوهام سائدًا بكثرة بين أهل العرب. وقد أبطلها النبي (ﷺ) إبطالا، مع ذكر أسمائها. على سبيل المثال:

١. كان العرب يعتقدون أن الشمس والقمر ينكسفان عند موت أي شخص عظيم القدر والمرتبة. وقد كُسفت الشمس عند وفاة إبراهيم ابن الرسول (ﷺ)، لذا ظن الناس أن هذا الكسوف يرجع إلى موت إبراهيم، وحين علم الرسول (ﷺ) بهذا الظن والاعتقاد جمع الناس وخطب فيهم في المسجد النبوي وقال لهم: هما آيتانِ من آياتِ اللهِ لا يخسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتهِ.(١)

---

(١) صحيح البخاري، باب صلاة الكسوف. وهذا نصه: (١٠٣٢) حدثنا يحيى بنُ بُكَيرٍ قال: حدَّثني الليثُ عن عُقَيلٍ عنِ ابنِ شهابٍ وحدَّثني أحمدُ بنُ صالحٍ قال: حدَّثني عَنْبَسةُ قال: حدَّثنا يونسُ عنِ ابنِ شهاب حدَّثني عُروةُ عن عائشةَ زوجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالت: «خَسفَتِ الشمسُ في حياةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فخرجَ إلى المسجدِ، فصفَّ

٢. كان هناك اعتقاد بأنه إذا قتل الثعبان، يأتي زوجه ويقتل الإنسان.

٣. في ذات مرة بينما كان النبي (ﷺ) يجلس في المسجد سقط نجم على الأرض، فاستفسر النبي (ﷺ): عمّ كانوا يعتقدون عن هذه الحادثة في الجاهلية ؟ قال الناس: كنا نعتقد بأن النجوم تسقط عند موت أو ميلاد أي عظيم فأخبر النبي (ﷺ) أن النجوم لا تسقط لوفاة أو ميلاد أي أحد[١].

٤. كان العرب يضعون الموس عند رؤوس الأطفال الرضع، حتى لا يضرهم الجن. وذات مرة رأيت السيدة عائشة هذا الموس، فأخذته وألقت به، وقالت لقد منعنا النبي (ﷺ)، من هذا[٢].

٥. كان العرب يعلقون في أعناق الإبل قلادة لبعد الحسد، لذا أمر الرسول (ﷺ) بعدم تعليق مثل هذه القلادة في أعناق الإبل[٣].

الخلاصة هي أن تعليم التوحيد الكامل قد قضى على كافة الأوهام والخرافات المشركة، التي كانت سائدة بين العرب. ولك أن تدرك أهمية وقيمة إصلاح الإسلام في هذا الأمر وذلك من خلال النظر إلى الروايات والحكايات المقدسة لدى المسيحيين، التي أوقعت الدنيا لقرون طويلة في براثن عذاب الآلهة

الناسُ وَراءَهُ، فكبَّرَ، فاقتَرأ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قِراءةً طويلةً، ثمَّ كبَّـرَ فركـعَ ركوعاً طويلاً: ثمَّ قال: سَمِعَ اللهُ لمن حَمِده فقامَ ولم يَسجُدْ وقرأ قِراءةً هي أدنى منَ القِراءةِ الأُولى، ثمَّ كبَّرَ وركعَ رُكوعاً طويلاً وهوَ أدنى من الركوعِ الأولِ، ثمَّ قال سمعَ اللهُ لمن حمدَهُ ربَّنا ولَكَ الحمدُ، ثم سجدَ، ثم قال في الركعة الأخرةِ مثلَ ذلكَ فاستكملَ أربعَ ركعاتٍ في أربَعِ سجَداتٍ، وانجلَتِ الشمسُ قبلَ أن يَنصرِفَ. ثمَّ قامَ فأثنى علَى اللهِ بما هو أهلهُ ثم قال: هما آيَتانِ من آياتِ اللهِ لا يخسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، فإذا رأيتموهما فافزَعوا إلى الصلاة»

وكان يُحدِّثُ كثيرُ بن عباسٍ أن عبدَ اللهِ بنَ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما كان يُحدِّث يومَ خَسَفَتِ الشمسُ بمثلِ حديثِ عروةَ عن عائشةَ، فقلتُ لعروةَ: إنَّ أخاكَ يومَ خَسفَت الشمس بالمدينةِ لم يَزِدْ على ركعتينِ مثلَ الصبحِ، قال: أجَلْ، لأنهُ أخطأ السنَّةَ.(يوسف عامر).

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ١.

(٢) الأدب المفرد، باب الطيرة من الجن، صـ ١٨٠ مصر.

(٣) موطأ الإمام مالك، باب ما جاء في نزع التعليق والجرس من العين.

وتسلط العفاريت والجن، وكان يُعتقد في أن طرد هذه العفاريت - الجان أمر يدل على كمال المسيحية وإعجازها.

٩. إبطال المفهوم الخاطئ للشفاعة

كان المفهوم الخاطئ للشفاعة وللكفّارة سببا كبيرًا للشرك، وكان هذا الاعتقاد رائجًا بين العرب والنصارى وغيرهم. والسبب الأصلي في عدم فهم العرب للشفاعة فهما صحيحا يرجع إلى تصورهم عن العلاقة بين الخالق والمخلوق؛ فكانوا يعتقدون أن هذه العلاقة علاقة بين ملك قاهر وجبار ورعيته، وكما أنه لا يمكن الوصول إلى بلاط الملك دون وساطة واستعانة بالمقربين، لا يمكن الوصول إلى الرب أيضا إلا من خلال شخصيات وسيطة، ولذا يجب مراعاة مرضاتهم، ومن ثم كانوا يعبدون أصنامهم والآلهة والملائكة، وكانوا يقولون: ﴿**هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ**﴾ (يونس:١٨)

وحين ذم الرسول (ﷺ) أصنامهم قالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ (الزمر:٣)

أما اليهود فكانوا قد وقعوا في سوء فهم آخر، إذ كانوا يعتقدون أن بني إسرائيل أسرة الرب، ولما كان أنبياء ورسل بني إسرائيل من أحباء الله تعالى، لذا (اعتقدوا) أن أولادهم يتمتعون بنفس الدرجة العالية في الدنيا والآخرة، فلو نزلت بهم أي نازلة، فينقذهم منها أجلاّء نسلهم المقربين إلى الله. وكانت دعواهم:

﴿**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾(المائدة:١٨)

فرد القرآن عليهم: ﴿**بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾(المائدة:١٨)

وبناء على هذا كانت دعواهم أيضا: ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً**﴾(البقرة:٨٠)

فرد القرآن عليهم: ﴿**وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم**﴾(آل عمران:٢٤)

وكان النصارى يعتقدون أن الآب (الرب) كفّر ذنوب كافة البشر الذين هم عصاة بالوراثة والفطرة وذلك بالتضحية بابنه الوحيد (عيسى)، وهكذا تطهّر الناس جميعا من الذنوب والآثام، وأصبح الباباوات خلفاء لعيسى عليه السلام في

تكفير الذنوب. ولذا ظهرت عقيدة الإقرار بالذنب أمام البابا، ونال حق تكفير ذنوب العباد في الدنيا.

رفضت الرسالة المحمدية اعتقادهم هذا. يقول الله تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(التوبة: ٣١)

وأعلن الإسلام بأن الله تعالى هو الذي يغفر الذنوب. قال تعالى:

﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(آل عمران: ١٣٥)

وكانوا يعتقدون أن الابن سيجلس على يمين الأب يوم القيامة ويقضي بين الناس. أبطل القرآن الكريم اعتقادهم هذا بأسلوب مؤثر وقوي، وأعلن بأن الله سيسأل عيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(المائدة: ١١٦)

فيجيب عيسى عليه السلام بأنه ما قال لهم إلا ما أمره الله تعالى به، ولم يقل لهم أي شيء من هذا، بل قال لهم اعبدوا الله الواحد. والآن: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨)

ثبت من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى هو وحده غافر الذنوب، وهو وحده المثيب والمعاقب، وليس لأحد غيره أي دخل في هذا.

كان العرب عبدة الأصنام يعتقدون أن هذه الأصنام من قبل الله تعالى، ولها مطلق التصرف في الدنيا والآخرة، تملك العطاء وعدمه في الدنيا، وتغفر (الذنوب)، وكانوا يطلقون على هذا الاعتقاد مسمى الشفاعة، وكانوا يعتقدون أن أصنامهم ستشفع لهم. جاء القرآن الكريم ودحض اعتقاد الكفّارة والشفاعة هذا، واعتقاد المغفرة والعفو من أحد غير الله، وأثبت أن الله تعالى له مطلق التصرف في كل شيء، وكل مخلوق عاجز وخاضع أمام قدرته وعظمته وجلاله سبحانه. يقول تعالى:

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦).

﴿ لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٨٧).

﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ﴾ (يس:٢٣).

كان الكفار يعبدون الملائكة من أجل هذا الغرض، لذا قال الله تعالى:
﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم:٢٦).
﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ (الزمر:٤٣).

ويقول الله تعالى لهم يوم القيامة:
﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾(الأنعام:٩٤).
﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ...﴾(الروم:١٣،١٢)

خاطب الله تعالى اليهود خاصة وأبطل عقيدتهم: **﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾** (البقرة:٤٧، ٤٨)

وجاء هذا المعنى نفسه في الآية التالية:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ...﴾(البقرة: ١٢٢، ١٢٣)

وأمر الله تعالى المسلمين أيضا بالعمل، وألا يركنوا إلى الشفاعة. يقول الله تعالى:
﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾(البقرة:٢٥٤)

خلاصة القول هو أن الرسالة المحمدية قد أبطلت كل معتقدات الكفار والمشركين عن الشفاعة بتلك المفاهيم، وأكدت على أن الشفاعة بيد الله تعالى وحده.

يقول الله تعالى:

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(الزمر: ٤٤،٤٣).

أبطلت هذه الآية الكريمة عقيدة المشركين عن الشفاعة. وفي الآية الثانية سلمت بجزء واحد فقط من عقيدة اليهود والنصارى عن الشفاعة، وهو أن عباد الله الصالحين سيشفعون لإخوانهم. يقول تعالى:

﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(الزخرف:٨٦)

وفي آية أخرى ورد أن هذه الشهادة بمثابة اتخاذ عهد. يقول الله تعالى:

﴿ لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ (مريم:٨٧)

ولكن رغم هذه الشهادة والعهد الإلهي لابد من رضا الله تعالى وإذنه لاستخدام هذا الحق. يقول تعالى:

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾(يونس:٣).

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾(البقرة:٢٥٥).

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم:٢٦).

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ (النبأ:٣٨)

ثم تكون هذه الشفاعة في حق هؤلاء الناس الذين أذن الله تعالى للأنبياء والصالحين في أن يشفعوا لهم. يقول تعالى:

﴿ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...﴾(سبأ:٢٣)

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه:١٠٩)

ليس هذا فحسب، بل إن الأنبياء لا يشفعون لأحد إلا لمن ارتضى الله تعالى له. يقول تعالى: ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء:٢٨)

وهناك طائفة من البشر أعلن لأفرادها إعلانًا عامًا أن باب المغفرة والشفاعة مغلق بالنسبة لهم. وهؤلاء هم الآثمون والعصاة الذين ابتعدت قلوبهم عن الشهادة بالحق. يقول الله تعالى:

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر:٤٨)

﴿... مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر:١٨)[1].

أما الطائفة التي لا يُفتح لها بابُ الرحمة فهم المشركون. كما هو بين من قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ... ﴾ (النساء:٤٨).

وبعدما تبين أن من يشفعون هم الذين يأذن الله لهم، ولمن يشفعون، فهم من يرضى الله تعالى عنهم. والحقيقة هي أن الله تعالى نفسه سيكون شفيعًا في خلقه، أو كما يقول المتصوفة أن صفتي الكرم والرحمة من صفات الله وهما اللتان ستقومان بأمر هذه الشفاعة. لذا قال تعالى:

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:٥١)

﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة:٤)

وتتضح صفة كرم الله ورحمته في هذه الدنيا، إذ كان الأنبياء والرسل مظهرا من مظاهر هاتين الصفتين، وهم شهداء على أممهم.

١٠. إبطال قدرة الأجرام السماوية:

---

[1] ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣) (صحيح البخاري، ذكر لقمان ج ١)، وهذا نصه: (٣٢٩٥) حدثنا عمرُ بن حفصِ بنِ غياثٍ حدثنا أبي حدَّثنا الأعمشُ قال: حدثني إبراهيمُ عن علقمةَ عن عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنه قال: «لما نَزَلَتْ: {الذينَ آمَنوا ولم يَلبِسوا إيمانَهم بظلم} (الأنعام: ٨٢) قلنا: يا رسولَ الله، أيُّنا لا يَظلِمُ نفسَه ؟ قال: ليس كما تقولون، {لم يلبسوا إيمانهم بظلم}: بشِرك. أوَ لم تَسمَعوا إلى قولِ لقمانَ لابنه {يا بُنيَّ لا تُشرِكْ بالله، إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيم} (لقمان: ١٣)».(يوسف عامر).

بيّن أن هناك أمور كثيرة تحدث نتيجة لـدوران القمـر حـول الأرض، ودوران الأرض حول الشمس مثل تعدد الفصول، ومن ثم اعتقد عبدة النجوم أن كل ما يحدث في هذه الدنيا ما هو إلا نتيجة لدوران النجوم. وساد هذا الاعتقـاد أيضًا بين مشركي العرب، إذ كانوا يسجدون للشمس والقمـر، فجـاء الإسـلام ومنعهم مـن هـذا الـشرك. يقـول الله تعـالى: ﴿**لاَ تَـسْجُدُوا لِلـشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ...**﴾(**فصلت:٣٧**).

كما كانوا يعتقدون أن الدهر هو المؤثر الحقيقي في أمور الدنيا، لذا كانوا يقولون: ﴿ **وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾(الجاثية:٢٤).

وكان من أثر هذه العقيدة أن وجد في شعرنا (الأردي) «شكوى الـزمن المعوج» و«الدهر العقيم». كما كان مشركوا العرب يلعنون الزمن حين تنزل بهم أي نازلة لم تكن في حسبانهم[١]، لذا نهاهم الرسـول (ﷺ) وقـال: « **لاَ يَقُـولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ** »[٢] وقال (ﷺ):قال اللّـهُ عـزَّ وجـلَّ يُؤْذِيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أُقلِّبُ الليلَ والنهـار»[٣]. أي أن الذين يسيئون إلى الدهر معتقدين أنه موجد الضرر والمصائب، في حـين أن الله تعالى هو خالق كل شئ. ولذا فهذا السب واللعن يكون في الحقيقة موجه إلـى الخالق.

وكان العرب ينسبون نزول الأمطار إلى أي نجم من النجـوم، وكـانوا يقولون أن المطر نزل بسبب هذا النجم. وحين نزل المطر صدفة في يوم الحديبية

---

[١] فتح الباري شرح البخاري ج ٨، كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ص ١١٥، إله آباد.

[٢] صحيح مسلم، ألفاظ الأدب. وهذا نصه: (٥٨١٧) حدثنا قُتَيْبَةُ. حَـدَّثَنَا الْمُغِيـرَةُ بْـنُ عَبْـدِ الرَّحْمٰنِ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَـالَ: «لاَ يَقُـولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنَّ اللّهَ هُوَ الدَّهْرُ».(يوسف عامر).

[٣] صحيح البخاري، تفسير سورة الجاثية، وكتاب الرد على الجهمية ج ٢ صــ ١١٦. وهـذا نصه: (٤٧٠٨) حدَّثنا الحميديُّ حدَّثنا سفيان حدَّثنا الزُّهريُّ عن سعيد بنُ المسيَّب عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: قال اللّـهُ عـزَّ وجـلَّ يُؤْذيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أُقلِّبُ الليلَ والنهار».(يوسف عامر).

ليلاً، خطب النبي (ﷺ) في صحابته بعد صلاة الفجر، وقال: هل تدرونَ ماذا قال ربُكم؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ، قال: أصبحَ مِن عبادي مُؤْمِنٌ بي وكافرٌ، فأَمَّا من قال: مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتهِ فذلكَ مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال مُطِرْنا بنوءِ كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب»[1].

كما كانوا يعتقدون أن الكسوف والخسوف علامتان لأحداث جسام، بل كانت أغلب الأمم تحسبهما من مظاهر غضب آلهة السماء. وفي سنة ٩ هـ كُسفت الشمس، وفي اليوم ذاته توفي إبراهيم ابن النبي (ﷺ)، فظن الصحابة أن الشمس كُسفت حزنًا على إبراهيم، وحين علم النبي بهذا، جمع الناس في المسجد وخطب فيهم وأبطل هذا الاعتقاد وقال:«إِنَّ الشمسَ والقمرَ لا يَخسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتهِ، ولكنَّهما آيتانِ من آياتِ اللهِ»[2].

١١. المنع من الحلف بغير الله

كان الحلف بغير الله نوعًا من أنواع الشرك الخفي، وكان الناس يحلفون بغير الله.

والحلف يعني في الحقيقة الشهادة، فمن يحلف باسم من الأسماء فكأنه يقوم مقام الشاهد لمن يحلف به، وكان العرب يحلفون بالأصنام والآلهة بسبب انتشار

---

[1] صحيح البخاري، باب الاستسقاء وباب الذكر بعد الصلاة، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان. وهذا نصه: (١٠٢٤) حدثنا إسماعيلُ قال حدَّثني مالكٌ عن صالحِ بنِ كيسانَ عن عُبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ بنِ مسعودٍ عن زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ أنه قال: «صلىَّ لنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبحِ بالحُدَيبيةِ علَى إثرِ سماءٍ كانتْ منَ الليلة، فلما انصرفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أقبلَ علَى الناسِ فقال: هل تدرونَ ماذا قال ربُكم؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ، قال: أصبحَ مِن عبادي مُؤْمِنٌ بي وكافرٌ، فأَمَّا من قال: مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتهِ فذلكِ مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال مُطِرْنا بنوءِ كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب».(يوسف عامر).

[2] البخاري، صلاة الكسوف. وهذا نصه: (١٠٢٨) حدثنا أصبَغُ قال: أخبرَني ابنُ وَهبٍ قال: أخبرَني عمرُو عن عبدِ الرحمنِ بنِ القاسمِ حدَّثَهُ عن أبيه عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما أنهُ كان يُخبرُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الشمسَ والقمرَ لا يَخسِفانِ لموتِ أحدٍ ولا لحياتهِ، ولكنَّهما آيتانِ من آياتِ اللهِ، فإذا رأيتموهما فصلُّوا».(يوسف عامر).

الوثنية، وهذا كفر صريح. وكانت قريش تحلف باللات والعزى، فنهاهم النبي (ﷺ) عن هذا[1]. وبسبب العادة والعرف كان بعض المسلمين يحلفون أحيانا دون قصد باللات والعزى؛ فأمرهم النبي (ﷺ) بعدم الحلف إلا بالله، ومن حلف سهوا فليقل من فوره لا إله إلا الله. فكأنها توبة من كلمة الكفر. وكانت قريش تحلف بالأب أيضا، ومنعهم النبي (ﷺ) من هذا. في ذات مرة سمع النبي (ﷺ) عمر رضي الله عنه يحلف بأبيه؛ فقال له الرسول (ﷺ):«إِنَّ اللّه عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»، قَالَ عُمَرُ: فَوَاللّهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ نَهَىٰ عَنْهَا،ذَاكِراً وَلاَ آثِرا [2].

وكان الناس يحلفون بالأم أيضًا، فنهى الرسول (ﷺ) عن هذا، كما كانوا يحلفون بالكعبة، ولذا انتقد يهودي المسلمين، وقال إنكم تشركون أنتم الآخرون إذ تحلفون بالكعبة، فأمر النبي (ﷺ) المسلمين أن يحلفوا برب الكعبة، وليس بالكعبة[3]. وفي ذات مرة سمع عبد الله بن عمر رجلاً يحلف بالكعبة فمنعه وقال له: لا تحلف بغير الله، فقد سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (ما معناه) «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فقد كَفَرَ أو أَشْرَكَ» [4]. وفي رواية أخرى أخبر ﷺ بأن كل حلف يحلف بغير الله فهو شرك[1].

---

[1] سنن النسائي، الإيمان والنذور.

[2] أوردت هذه الوقائع كلها في مسلم والبخاري والنسائي، كتاب الإيمان والنذور. وهذا نص رواية مسلم: (٤٢٠٨) وحدثني أَبُو الطَّاهِرِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ عَنْ يُونُسَ ح وحَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ : أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ : أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «إِنَّ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»، قَالَ عُمَرُ: فَوَاللّهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ نَهَىٰ عَنْهَا،ذَاكِراً وَلاَ آثِراً.(يوسف عامر).

[3] الترمذي، أبواب النذور والإيمان.

[4] الترمذي، أبواب النذور والإيمان، والمستدرك للحاكم ص ٢١٨ كتاب الإيمان. وهذا نصه: (١٥٣٨) حدثنا قُتَيْبَةُ حدثنا أبو خالدٍ الأحمرُ عن الحسنِ بنِ عُبَيْدِ الله عن سعْدِ بن عُبَيْدَةَ، : أَنَّ ابنَ عُمَرَ سَمِعَ رجلاً يقولُ لا والكعبةِ، فقالَ ابنُ عُمرَ: لا يُحْلَفُ بِغيْرِ الله، فإني سَمِعْتُ رسولَ الله يقول: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فقد كَفَرَ أو أَشْرَكَ» .

١٢. لا شريك في مشيئة الله وإرادته

كثيرا ما يعتقد عن الصالحين أن مشيئتهم هي مشيئة الله تعالى بعينها، ولم يقع في هذا الخطأ سيئوا العقيدة فقط، بل وقع فيه أيضًا بعض أهل التوحيد، وقد أنذر النبي (ﷺ) الناس من هذا الخطأ، وأخبر (ﷺ) أن المشيئة لله تعالى وحده، ويسير العالم كله وفقا لأوامره وإرادته سبحانه، وكل إرادة ومشيئة تابعة لمشيئة وإرادته، فلا شريك له سبحانه في تصريف أمور الدنيا، ولكن الناس كانوا قد أشركوا مشيئة الآخرين بمشيئة الله، وقد أبطل النبي (ﷺ) هذا الاعتقاد وهذا الفكر إبطالا، وبين القرآن الكريم حقيقة أنه لا شريك لله تعالى ومشيئته وإرادته، والكل تابع له سبحانه. وكان هذا الاعتقاد الخاطئ سائدًا بين الكثيرين حتى أولئك الذين كانوا لا يعتقدون بهذا الوهم كانوا يحسبونه نوعا من أنواع حسن الأدب عند تحدثهم مع السلاطين والأمراء، إذ كانوا يقولون: ما شاء الله وما شئت، فمنع النبي (ﷺ) الناس عن هذا الشرك، ليس هذا فحسب بل نهى الصحابة أن يقرنوا مشيئته (ﷺ) بمشيئة الله سبحانه. وكان هذا الأسلوب جاريًا على ألسنة المسلمين. لذا صحح النبي (ﷺ) هذا الأسلوب، إذ أمر بألاّ يؤتى بحرف العطف (الواو) بين مشيئة الله ومشيئة غيره؛ كي لا تكون هناك أي شائبة من الشبهة، ولمزيد من الاحتياط يستخدم بين المشيئتين حرف (ف)، و(ثم) كي يُعرف بوضوح أن درجة مشيئة الآخرين بعد مشيئة الله تعالى.

قال أبو عيسى هذا حديثٌ حسنٌ.

وتفسيرُ هذا الحديثِ عندَ بعضِ أهلِ الْعِلْمِ أنَّ قولَه فقد كَفَرَ أو أَشْرَكَ على التَّغْليظ. والْحُجَّةُ في ذلك حديثُ ابنِ عُمَرَ: «أنَّ النبيَّ سَمِعَ عُمَرَ يقولُ وأبي وأبي، فقال ألاَ إنَّ الله يَنْهَاكُمْ أنْ تَحْلفُوا بآبائكم». وحديثُ أبي هُريرَةَ عن النبيِّ أنه قال: «مَنْ قال في حَلْفِهِ واللاَّت والعُزَّى فَلْيَقُلْ لا إلهَ إلا الله».

قال أبو عيسى وهذا مِثْلُ ما رُوِيَ عن النبيِّ أنهُ قال: «الرِّيَاءُ شِرْكٌ».

وقد فَسَّرَ بَعْضُ أهلِ الْعِلْمِ هذه الآيةَ: {فَمَنْ كان يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالحاً} الآية، قال: لا يُرَائي.

(١) المرجع السابق.

ورد في النسائي أن يهوديا أتى النبي (ﷺ) وقال للمسلمين إنكم تشركون بالله؛ إذ تقولون ما شاء الله وما شاء محمد، فخطب النبي (ﷺ) في صحابته أمرهم بأن يقولوا ما شاء الله ثم ما شئت. ووردت هذه الواقعة ذاتها في سنن ابن ماجة هكذا: رأى صحابي في منامه أن يهوديا أو نصرانيا يقول له: وأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله، وشاء محمد، فجاء هذا الصحابي إلى النبي (ﷺ) وقص رؤياه، فقال النبي: إنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها، قال: لا تقولوا ما شاء الله وما شاء محمد [١]. وورد في أبي داود هذا التعليم النبوي أن النبي (ﷺ) أمر الصحابة بألا يقولوا ما شاء الله وما شاء فلان، بل يقولوا ما شاء الله ثم ما شاء فلان. ولكن الإمام البخاري في الأدب المفرد والإمام البيهقي في كتاب الأسماء والصفات يذكر رواية مختلفة ويثبت منها ألا يذكر مع مشيئة الله مشيئة أي أحد قطعًا، فقد جاء شخص إلى النبي (ﷺ) وقال أثناء كلامه: ما شاء الله وما شئت، فأخبر الرسول (ﷺ) أن هذا الرجل أشرك مع الله الذي لم يكن له كفوا أحد [٢].

---

[١] وهذا نص الحديث كما ورد في المسند: ٨٨١ حديث طفيل بن سخبرة رضي الله تعالى عنه (٢٠٢٩٧) حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا بهز و عفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن جراش عن طفيل بن سخيرة أخي عائشة لأمها «أنه رأى فيما يرى النائم، كأنه مر برهط من اليهود فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود. قال: إنكم أنتم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيراً ابن الله. فقالت اليهود: وأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله، وشاء محمد. ثم مر برهط من النصارى فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى. فقال: إنكم أنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم أنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله، وما شاء محمد. فلما أصبح أخبر بها من أخبر، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره. فقال: «هل أخبرت بها أحداً؟ قال عفان: قال: نعم. فلما صلوا خطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن طفيلاً رأى رؤيا فأخبر بها من أخبر منكم، وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها، قال: لا تقولوا ما شاء الله وما شاء محمد».(يوسف عامر).

[٢] – ورد في مسند الإمام أحمد: (١٨٥٠) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا هشيم أنا أجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « ما شاء الله وشئتَ،

اهتم الإسلام بهذا الأمر اهتمامًا بالغًا حتى أمر النبي (ﷺ) باستخدام (ثـم) بين مشيئة الله ومشيئته (ﷺ)، ويأتي بعدها فعل كي لا يُفهم بأن درجة الرسـول مساوية لله تعالى، فذات مرة كان شخص ما يخطب وقال في خطبته: مَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ. وَمَنْ يَعْصِهِمَا.... حتى نهاه الرسول (ﷺ) ولم يسمح له أن يتم جملته وقال: «بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ»[1]. وأبدى رسول (ﷺ) تألمه الشديد بهذا الكلام لأنه ربما يؤثر في السامعين ويعتقدون أن حكم عصيان الله ورسوله واحد، وهذا يدخل في باب الشرك. ولهذا كان على الخطيب أن يقول: من يعصي الله ورسوله هو ... كما جاء في القرآن الكريم في أكثر من آية، ويوجد هذا الأسـلوب فـي الخطب المأثورة.

١٣- النهي عن مشبهات الشرك

١٥. نهى الإسلام عن كل شيء فيه تشابه بسيط بالشرك، فكـان النـاس يسمون أولادهم على عبودية الشمس والقمر نحو: عبد الشمس، وعبد مناف، فنهى عن تلك الأسماء بكل صراحة، وقيل: « أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ».. (أبو داود، كتاب الأدب، باب خير الأسماء)[2]

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أجعلتني والله عدلاً ؟ بل مـا شـاء الله وحـده » .(يوسف عامر).

[1] كتاب الأسماء والصفات، البيهقي، ص ١٨١، مطبعة إله آباد. ورد فـي صـحيح مـسلم: (١٩٦٠) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ. قَالاَ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ عَنْ تَمِيمِ بْنِ طَرَفَةَ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّ رَجُلاً خَطَـبَ عِنْدَ النَّبِيِّ فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ. وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى!. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ. قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ». قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ: فَقَدْ غَـوِيَ.(يوسـف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث: (٤٩٤٥) حدثنا إِبْرَاهِيمُ بنُ زِيَادٍ سَبَلاَنَ أخبرنا عَبَّادُ بنُ عَبَّادٍ عن عُبَيْدِ الله عن نَافِعٍ عن ابنِ عُمَرَ، قالَ قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: « أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ».

وكان العجم يقولون لملوكهم «شاهنشاه»، ومعناه: ملك الملوك ولأنه فيه نوع من الشرك، فقال (ﷺ):« أَخْنَعُ اسْمٍ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيامَةِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ» (أبو داود، كتاب الأدب)[1]

وفي رواية أخرى أخبر (ﷺ): بأن الله يغضب على عبد قال لنفسه «ملك الملوك » إذ لا مَلِكَ إلا الله، (الحاكم في المستدرك، ص: ٢٧٥، ج: ٤)

وكان الناس يقولون للرقيق عبد، مع أن الإنسان هو عبد الله وليس عبد البشر، وكذلك كان الرقيق يقول لمالكهم رب مع أن الرب هو الله تعالى ولذلك كان الرسول (ﷺ) نهى حتى من أن يقول أحد لمن يملكه من الأرقاء «عبد» فقال (ﷺ): لا يقل أحدكم: أطعِمْ ربك، ورضى ربك، وليقل: سيد ومولا، ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي، كلكم عباد، والرب هو الله تعالى. (أبو داود، كتاب الأدب باب الكرم وحفظ المنطق).[2]

كان هانى رضي الله عنه صحابيا جليلا: يكنى بأبى الحكم، وحين قدم إلى رسول الله (ﷺ) في وفد قومه، قال له الرسول (ﷺ):إنَّ الله هُوَ الْحَكَمْ وَإِلَيْه الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟ فقالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا في شَيْءٍ أَتُوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَا أَحْسَنَ هٰذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قالَ: لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله. قالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قالَ قُلْتُ: شُرَيْحٌ قالَ: فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ» (أبو داود، كتاب الأدب، باب تغير الاسم القبيح)[3]

---

[1] – وهذا نص الحديث: (٤٩٥٧) حدثنا أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ أخبرنا سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ عن أَبِي الزِّنَادِ عن الأَعْرَجِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، قال: « أَخْنَعُ اسْمٍ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيامَةِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَاهُ شُعَيْبُ بنُ أَبِي حَمْزَةَ عن أَبِي الزِّنَادِ بإِسناده قال: أَخْنَى اسمٍ.(يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث: (٤٩٧١) حدثنا مُوسَى بنُ إِسْمَاعِيلَ أخبرنا حَمَّاد عن أَيُّوبَ وَ حَبِيبِ ابنِ الشَّهِيدِ وَ هِشَامٍ عن مُحَمَّدٍ عن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم عَبْدِ ي وَأَمَتِي، وَلا يَقُولَنَّ المَمْلُوكَ رَبِّي وَرَبَّتِي وَلْيَقُلِ الْمَالِكُ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَلْيَقُلِ المَمْلُوكُ سَيِّدِي وَسَيِّدَتي فإِنَّكُم المَمْلُوكُونَ وَالرَّبُّ الله تَعَالَى».(يوسف عامر).

[3] – وهذا نص الحديث: (٤٩٥١) حدثنا الرَّبِيعُ بنُ نَافِعٍ عن يَزِيدَ ــ يَعني ابنَ المِقْدَامِ ابنِ شُرَيْحٍ ــ عن أَبِيهِ عن جَدِّهِ شُرَيْحٍ عن أَبِيهِ هَانِىءٍ، : « أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه

وكان من عادة الناس أن يلعنون الشيطان إذا ارتكبوا خطيئة، كأنه هو الذي ساقهم إلى مثل هذا العمل. مرة كان صاحبي رديف الرسول (ﷺ) على فرسه، وتعثر الفرس في عثرة، فقال الصاحبي إنه لمن أثر الشيطان؛ فأمره النبي بألاّ يقول مثل هذا حتى لا يغتر الشيطان، ويقول إن هذا حدث بقوتي، وأمره بأن يذكر الله، إذ بذكره سبحانه يعجز الشيطان ويكون كذبابة[1].

١٤- النهي عن عبادة القبور

تعتبر عبادة القبر والذكريات الأثرية وسيلة واضحة تؤدي إلى الشرك. فهناك من يتخذون القبور وأماكن الذكريات الأثرية معابد يتعبدون بها، ويجتمعون عندها ويحتفلون بها سنويا، ويشدون الرحال إليها من بقاع بعيدة، ويبنون المساجد على القبور، ويستغيثون بمن في القبور، وينذرون لها النذور، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن مثل هذه الأفعال كلها، وقال قبل خمسة أيام من وفاته: أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ. إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ». [2] وألقى الرداء عن وجهه ساعة وفاته وقال: «لَعَنَ اللّهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخَذوا قبورَ أنبيائهم مسجداً»[1].

وسلم مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ فَدَعَاهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: إِنَّ الله هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟ فقالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَا أَحْسَنَ هَذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قالَ: لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله. قالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قالَ قُلْتُ: شُرَيْحٌ قَالَ: فأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ».(يوسف عامر).

[1] - أبو داود، كتاب الأدب، باب لا يقول خبثت نفسي.

[2] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٤٠) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَاللَّفْظُ لأَبِي بَكْرٍ قَالَ إِسْحَقُ : أَخْبَرَنَا. وَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ : حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ بْنُ عَدِيٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً. أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ

١٥- الرياء وعدم الإخلاص شرك معنوي

كانت تلك الإصلاحات والتغيرات في التوحيد متصلة بالأعمال وآداب الكلام اليومية، ولكن الإصلاح الحقيقي الذي يكتمل به التوحيد هو توحيد القلب والروح؛ ووراء كل عمل إنساني دافع، هناك من يعمل للسمعة، ومن يعمل للنفع والمقابل المادي، ومن يعمل للرياء، ومن يعمل بسبب حب الآخر أو عداوته. إذا الدافع الأساسي لتلك الأعمال ليس ابتغاء وجه الله وإنما السبب الآخر، أنزله المرائي أو المنافق منزلة الرحمن. يقول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان: ٤٣)

.ومن هنا فإن الشرك الكبير هو ما أخفاه الإنسان نفسه في معبد قلبه الوثني، وهذا الشرك لا يزول إلا باكتمال التوحيد. وقد أخبر النبي (ﷺ) أن أعمال الإنسان كلها تقوم على عمل قلبه ذاته. «**إنما الأعمال بالنيات**»

ومن هنا ينبغي أن تكون أعمال المسلم كلها بدافع تنفيذ حكم الله، وخوفه وطاعته ونيل رضاه وحبه. وألا يهدف المسلم بأي عمل من أعماله سوى الخالق سبحانه.

وكلما يرتقي الإنسان في إخلاص نيته لله تعالى وتصفو نفسه، يصل إيمانه وتوحيده أيضًا إلى قمة كماله وعلوه.

ولذلك حث الإسلام الإنسان في كل مكان وفي كل وقت على أن تكون غاية عمله: رضا الله وإخلاص الدين له، وعبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله: **﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾**(البقرة:٢٠٧)، **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** (الأعراف:٢٩)، **﴿وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾**(الليل:٢٠).

قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ. إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».(يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٣٠٦) حدَّثنا عُبَيدُ اللّهِ بنُ موسىَ عن شَيبانَ عن هِلالٍ هوَ الوَزّانُ عن عُروةَ عن عائشةَ رضيَ اللّهُ عنها «عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال في مَرَضهِ الَّذي ماتَ فيه لَعَنَ اللّهُ اليهودَ والنَّصارَى اتَّخَذوا قبورَ أنبيائهم مسجداً. قالت: ولولا ذلك لأبرَزُوا قبرهُ، غيرَ أنِّي أخشى أن يُتَّخذ مسجداً».(يوسف عامر).

وعليه فإن كل عمل يقوم به الإنسان لغير الله للحصول على أهداف معينة أخرى فقد اتخذ له إلها آخر مؤقتا، ورغم أنه في الوقت ذاته لم يقترف إثم وذنب الشرك الشرعي واللفظي؛ إلا أنه في حقيقة الأمر وقع في الشرك المعنوي والنفسي.

أشار (ﷺ) في حديث إلى أن من أعطى لله ومنع لله، ومن أحب لله وأبغض لله ونكح لله فقد استكمل الإيمان[1].

وقد رُوِي عن صحابة كثيرين أن[2] رسول الله (ﷺ) أخبر بأن الرياء شرك خفي.

وروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) أخبر بأن من الشرك الخفي أن يعمل الرجل عملا من أجل الآخر [3]

وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله (ﷺ): «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدّق يرائي فقد أشرك» [4]

---

[1] - مستدرك الحاكم، الترمذي في آخر كتاب الزهد، وقد وجد حكمان على هذا الحديث في طبعتين مختلفتين للكتاب، ففي أحدهما منكر وفي الآخر: حسن. فقد تُكُلِّم في أحد رواته وهو أحلج، ولكن معنى الحديث يوافق تماماً بقواعد وأحكام الإسلام

[2] - وردت روايات أبي سعيد الخدري ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وشداد بن أوس ومحمود بن لبيد وأبي سعيد بن أبي فضالة في مسند أحمد بن حنبل وسنن ابن ماجه، والمستدرك وغيرها. وهذا نص رواية ابن ماجة: (٤٠٧٥) حدثنا حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ عِيسَىٰ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ خَرَجَ يَوْماً إِلَى مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، فَوَجَدَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَاعِداً عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ يَبْكِي. فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: يُبْكِينِي شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ. وَإِنَّ مَنْ عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الأَبْرَارَ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ، إِذَا غَابُوا، لَمْ يُفْتَقَدُوا. وَإِنْ حَضَرُوا، لَمْ يُدْعَوْا وَلَمْ يُعْرَفُوا. قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَىٰ. يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ».(يوسف عامر).

[3] - مستدرك حاكم، كتاب الرقاق صـ ٣٢٩ ج ٤ وصحيح.

[4] - المرجع السابق، المستدرك، ابن حنبل مسند شداد بن أوس صـ ١٢٦ ج ٤.وهذا نص الحديث كما ورد في مسند أحمد: (١٦٨١٣) حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا أبو النضر. قال: حدثنا عبدالحميد ــ يعني ابن بهرام ــ قال: قال شهر بن حوشب: قال ابن غنم: «لما

وروى عنه أيضًا أن رسول الله قال في صحابته: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ. أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلاَ قَمَراً وَلاَ وَثَناً. وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً».[1]

دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة بن الصامت، فأخذ يميني بشماله وشمال أبي الدرداء بيمينه فخرج يمشي بيننا ونحن ننتجي، والله أعلم فيما نتناجى، وذاك قوله، فقال عبادة بن الصامت: لئن طال بكما عمر أحدكما أو كلاكما ليوشكان أن تريا الرجل من ثج المسلمين ــ يعني من وسط قرأ القرآن ــ على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فأعاده وأبداه وأحلّ حلاله وحرم حرامه ونزل عند منازله أو قرأه على لسان أخيه قراءة على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فأعاده وأبداه وأحل حلاله وحرم حرامه ونزل عند منازله لا يحور فيكم إلاّ كما يحور رأس الحمار الميت، قال: فبينا نحن كذلك، إذ طلع شداد بن أوس وعوف بن مالك فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من الشهوة الخفية والشرك، فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء: اللهم غفراً أو لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدّثنا أن الشيطان قد يئس أن يُعبد في جزيرة العرب؟! فأما الشهوة الخفية فقد عرفناها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوّفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل أو يصوم له أو يتصدق له أترون أنه قد أشرك؟ قالوا: نعم، والله إنه من صلى لرجل أو صام له أو تصدق له لقد أشرك، فقال شداد: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدّق يرائي فقد أشرك، فقال عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يُعمد إلى ما ابتغى فيه وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ويدع ما يشرك به؟ فقال شداد عند ذلك: فإني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله عزّ وجلّ يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإن حشده عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به وأنا عنه غني».(يوسف عامر).

[1] – سنن ابن ماجه، باب الرياء، والسمعة. وهذا نصه: (٤٢٩٦) حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفٍ الْعَسْقَلاَنِيُّ. حَدَّثَنَا رَوَّادُ بْنُ الْجَرَّاحِ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ ذَكْوَانَ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسَيٍّ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ. أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلاَ قَمَراً وَلاَ وَثَناً. وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً».(يوسف عامر).

وعن محمود بن البيد الأنصاري أن رسول الله (ﷺ) قال للصحابة: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، إن الله تبارك وتعالى يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» [1]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ. فَقَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالَ، قُلْنَا: بَلَىٰ. فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ»، ومعناه على سبيل المثال هو من يؤدي الصلاة صحيحة لأن غيره يراه.[2]

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ، نَادَى

---

[1] - أحمد بن حنبل، مسند محمود بن البيد الأنصاري صـ ٤٢٨ ج ٥، وأبو داود، مسند أحمد بن حنبل. وهذا نص الحديث كما ورد مسند أحمد: (٢٣٢٥١) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن محمود بن لبيد الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر». قال عبد الله: وجدت هذا الحديث في كتاب أبي بخطه، حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن قتادة عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أخوف ما ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، إن الله تبارك وتعالى يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».(يوسف عامر).

[2] - سنن ابن ماجة، باب الرياء والسمعة. وهذا نصه: (٤٢٩٥) حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ. حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ الأَحْمَرُ عَنْ كَثِيرِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ رُبَيْحِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ. فَقَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالَ، قُلْنَا: بَلَىٰ. فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ».(يوسف عامر).

مُنَاد: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ لَهُ لِلَّهِ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ. فَإِنَّ اللَّـهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ» [١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ. فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ. وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ» [٢]

وقد أثرت تلك التوجيهات والتعليمات النبوية في قلوب الصحابة حتى كانوا يخافون من هذا الشرك الخفي في كل عمل يقومون به.

يقول شداد بن أوس: كنا نعد الرياء شركا أصغر على عهد رسول الله (ﷺ)[٣]. ذات مرة كان عمر الفاروق رضي الله عنه يمشي وإذ يرى أن صحابي الرسول (ﷺ) معاذ بن جبل جالسا يبكي عند قبر الرسول (ﷺ)، فسأله عمر رضي الله عنه وقال: ما يبكيك ؟ قال مشيرا إلى الضريح المبارك: قال صاحب هذا القبر: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ».[٤]

---

١ – سنن ابن ماجة باب الرياء، وترمذي ومسند ابن حنبل. وهذا نصه: (٤٢٩٤) حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، وَ هَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمَّالُ، وَ إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُور حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ الْبُرْسَانِيُّ. أَنْبَأَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ. أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ زِيَادِ بْنِ مِينَاءَ عَنْ أَبِي سَعْدِ بْنِ أَبِي فَضَالَةَ الأَنْصَارِيِّ وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَاد: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ لَهُ لِلَّهِ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ. فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ».(يوسف عامر).

٢ – ابن ماجة، باب الرياء. وهذا نصه: (٤٢٩٣) حدّثنا أَبُو مَرْوَانَ الْعُثْمَانِيُّ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنِ الْعَلاَءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ. فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ. وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».(يوسف عامر).

٣ – مستدرك الحاكم، كتاب الرقاق ٤، ص ٣٢٩ صحيح.

٤ – مستدرك حاكم، كتاب الرقاق ٤ صـ ١٣٢٨، صحيح. وقد ورد في سنن ابن ماجة: (٤٠٧٥) حدّثنا حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ عِيسَىٰ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ خَرَجَ يَوْماً إِلَىٰ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، فَوَجَدَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَاعِداً عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ يَبْكِي. فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: يُبْكِينِي شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ. وَإِنَّ

ورأى عبادة (التابعي) عن شداد بن أوس «أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله فذكرته فأبكاني، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أتخوّف على أمتي الشرك والشهوة الخفية، قال: قلت: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه». [1]

بعد قراءة هذه الروايات والأحاديث يستطيع كل فرد أن يُقَدِّر كيف أبطل الرسول (ﷺ) الشرك واستأصل كل صوره وأنواعه وكيف أكمل التوحيد وأتمه. وهؤلاء هم العرب الذين كانوا يعبدون كل شيء سوى الله، قد وصلوا إلى قمة التوحيد والعبودية لله وحده بسبب تعليمه وتربيته الحكيمة (ﷺ).

مَنْ عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الأَبْرَارَ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ، إِذَا غَابُوا، لَمْ يُفْتَقَدُوا. وَإِنْ حَضَرُوا، لَمْ يُدْعَوْا وَلَمْ يُعْرَفُوا. قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى. يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ».(يوسف عامر).

[1] – مستدرك حاكم، المرجع السابق، قال الحاكم: صحيح الإسناد ورده الذهبي وقال: فيه عبد الواحد بن زيد متروك، إلا أن نفس الحديث ورد في مسند ابن حنبل. (ج ٤ صـ ٢٦) وسنن ابن ماجة، باب الرياء بطريق ليس فيه عبد الواحد ولذلك أوردت هذا الحديث هنا. وهذا نص رواية الإمام أحمد: (١٦٧٩٤) حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا زيد بن الحباب قال: حدَّثني عبدالواحد بن زيد أخبرنا عبادة بن نسي عن شداد بن أوس «أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله فذكرته فأبكاني، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أتخوّف على أمتي الشرك والشهوة الخفية، قال: قلت: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه».

التوحيد
وأركانه وأصوله الإيجابية

كانت هذه هي الأجزاء السلبية للتوحيد أي المعتقدات والأفكار المرفوضة والمخالفة للتوحيد، ولكن عمل سيدنا محمد ﷺ النبوي أهم وأفضل من هذا وهـو توثيق أسس التوحيد، وتحديد أصوله وأركانه، وبيان الإيمان وأمـوره تفـصيلا وتكميل أجزائه. فقد كانت عبادة الأوثان والشرك منتشرة في بلاد العـرب، كمـا كانت هناك أيضًا صور محرفة للأديان السماوية السابقة، ولم يكن أمامهم تصور للدين الصحيح، ومن ثم لم يكن من الممكن أن يجدوا في أذهانهم أية صورة مرتبة وصحيحة للإيمان والعقائد. وقد جاء رسول الله ﷺ ومحا كـل هـذه الخرافـات السابقة والأوهام التي مُنحت درجة الدين مثل عبادة الأوثـان، وعبـادة الجـن، وعبادة الملائكة، وعبادة النجوم، وعبادة الطبيعة، وعبادة الإنسان. والخلاصة أنه ﷺ قد قضى تمامًا على صور وأشكال الشرك كلها، وجعل مكانها عقائـد كلهـا صدق وحقيقة، والتي هي حجر أساس أخلاق الإنسان وسائر أعماله.

الدليل علي وجود الله تعالي

إن أول شيء في هذا الموضوع هو اليقين بوجود الله عـز وجـل، ثـم الإيمان بوحدانيته. لقد دعا الأنبياء الذين أتوا الدنيا الناس إلي عبادة هـذا القـادر المطلق (الله)، لكن دعوتهم هذه كانت دعوة مسلمًا بها، فلم يعتبروا أن هذه الدعوة تحتاج إلى أدلة. وفي الحقيقة إن من بُعثوا في تلك الأزمنة الكثيرة لهداية الأقوام، لم يكونوا في حاجة إلى دليل أو برهان(على وجود الله)؛ إذ إنه لم يكـن هنـاك رواج للوثنية وعبادة النجوم وعبادة الطبيعة في تلك الأزمان، كما لم يكن هنـاك إلحاد، ولكن بعثة سيدنا محمد رسول الله ﷺ كانت عامة لسائر الأقـوام والأمـم والبشر أجمعين، كما كانت آخر الرسالات حتى تقوم الساعة. وكان فـي العلـم الإلهي أن العقل الإنساني بعد بعثة محمد ﷺ سيريد طي مراحل البحث والدراسة حتى آخر مراحلها، وستكون خزانة الطبيعة المغلقة والمبهمة وقفًا عامًا. وسينشط

العقل وتنتشر سيطرته وسيحتاج كل شيء إلى دليل وبرهان، لذا لُقن سيدنا محمد ﷺ الأدلة والبراهين والحجج والشواهد (على وجود الله)

والسبب الثاني هو أن الأنبياء السابقين قد أمروا بدعوة أقوامهم فقط، الذين كان من بينهم المشركون والملحدون، ولكن خاتم الأنبياء ﷺ قد أُرسل إلى سائر الأقوام والبشر على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم، لذا يتضح جليا في دعوته ﷺ أنه ﷺ يدعو كل أنواع العقل الإنساني كل حسب حاله، ويقدم الأدلة على وجود هذا القادر المطلق(الله)، وعليه لم يدع النبي ﷺ المشركين فقط كغيره ممن سبقه من الأنبياء عليهم السلام، بل دعا المشركين، والكافرين، والملحدين، والمشككين، والدهريين، وأقنع كل واحد منهم.

يتحدث الفلاسفة عن إثبات وإنكار وجود القادر المطلق(الله) وخالق العالم والكائنات، فيبدءون دائمًا بالمناقشات ويقدمون الأدلة، فقد قدم أولو الألباب أدلة واضحة على إثبات وجود الله تعالى في مصر واليونان والهند والبلاد الإسلامية وفي أوربا اليوم أيضًا بفضل بصيرتهم وفطنتهم وحكمتهم، ولكن حين تتدبر فيها يتضح لك أنه رغم أن لغتها وأسلوبها يتغير دائمًا، فإن المعنى والهدف واحد. ومن ثم فإن الأدلة التي قدمها محمد ﷺ (عن طريق الوحي) لإثبات وجود الله تعالى تعبر عن هذا المعنى والهدف، وكررها بأسلوب مؤثر وفعّال، وحذر البشر(من إنكار وجود الله).

إن أول دعوى للوحي المحمدي هي أن الاعتراف بوجود القادر المطلق وخالق العالم والكائنات أمر تشتمل عليه الفطرة ذلك، وتوجد أدلة لهذا الاعتراف في كل الأمم سواء في الأمم المتمدنة أو غير المتمدنة، وقد أثبتت دراسات الآثار القديمة في تاريخ مئات الأمم غير المعروفة السابقة، والتي لم تكن تتمتع بقدر وافر من التمدن والحضارة، إلا أن الاعتراف بوجود الله لا يخلو من تاريخها. وحين يُنقب في آثارها وعماراتها المتهدمة فإن المعابد هي أول ما يوجد في هذه الأنقاض. ولا تخلوا أية بقعة في العالم اليوم من وجود الاعتراف بالخالق، وموجد الكون. وخلاصة القول هو أنه لا يوجد أي مكان على ظهر الأرض في أي زمان خلا من الاعتراف بوجود الله، إذ يتضح من هذا أن الاعتراف بوجود الله أمر في

فطرة الإنسان. يقول الله تعالى عن هذه الفطرة:﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ (الروم: ٣٠)

وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ** »[1]

والإحساس بهذا العهد والميثاق الذي سرى في عروق وشرايين الإنسان هو السبب في الاعتراف بوجود الله مهما كان هناك من إنكار لله. وعبر القرآن الكريم عن هذا الأمر في قوله تعالى:﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾**(الأعراف: ١٧٢)**

وأحيانًا يتأثر هذا الإحساس الفطري لدى الإنسان بمؤثرات خارجية، وتحدث القرآن الكريم في أكثر من آية كريمة عن هذا الإحساس الذي يتأثر بالعوامل الخارجية، وذكّر الإنسان بهذا العهد والميثاق المنسي، لذا يسأل الله تعالى البشر في قوله تعالى:﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ **(إبراهيم: ١٠)**

ويقول الله تعالى في آية كريمة أخرى:﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ**﴾ **(الطور: ٣٥، ٣٦)**

لا شك في وجود الإنسان فهو مخلوق من المخلوقات التي توجد في الدنيا، كما أنه كائن من الكائنات، وهو أفضلها بفضل عقله وإدراكه، ولكن السؤال هو لأي شيء خلق؟ وهل خلق هو نفسه، أم خُلق بنفسه؟ ظاهر أن كلا الأمرين باطل، إذ لا يوجد أي شيء من تلقاء نفسه، ولا يمكن أن يكون أي مفعول فاعلا لنفسه. وإذا قال أي جاهل إن التقاء الذكر والأنثى يُولد الطفل سألناه كيف بدأت

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح ابن حبان: (١٢٧) أخبرنا الحُسَينُ بنُ عبد الله بن يزيد القَطَّان، حدثنا موسى بنُ مروان الرَّقِّيُّ، حدثنا مُبَشِّرُ بنُ إسماعيل، عن الأوزاعيِّ، عن الزُّهريِّ، عن حُمَيْدِ بنِ عبد الرحمن عن أبي هريرة، عن النبي قال : «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ». (٣:٣٥).(يوسف عامر).

سلسلة التوالد والتناسل؟ ومن هو خالق مادة الخلـق والـروح للـذكر والأنثـى الأوليين؟

هذا العالم المتنوع، وهذه الكائنات المختلفة والمتعددة، وهذه النجوم، وهذه السماء، وهذه الأرض مختلفة الألوان، وهذه الشمس، وهذا القمر، وهذه الأشجار، وهذا البحر، وهذه الجبال، وهذه آلاف الأشـياء ذوات الأرواح، وآلاف الأشـياء الجامدة، وهذا التسلسل للعلل والأسباب، هذا النظام المتغير والمتقلـب، ونظـام ونسق الكائنات هذا، وقانون وقاعدة كل ذرة من ذراتها. وقوى للإنسان الداخليـة والترتيب والتنسيق فيما بينها، وأسرار الموت والحياة، ورموز الخواص والقوي، وعلو الفكر الإنساني والعجز العملي، كلها أمور تجعل الإنسان يقـر ويعتـرف بخالق واحد. وهذه السماء الزرقاء، وبساط الأرض الأخـضر، وتعاقـب الليـل والنهار تؤكد على وجود الله تعالى خالق كل شيء. يقول الله تعالي: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْـتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لآيَـاتٍ لأُوْلِـي الأَلْبَـابِ**﴾ (**آل عمران: ١٩٠**)

إن نور وظلام الليل والنهار، وضوء هذه الشمس وضوء هـذا القمـر، وسيره المحدد، وطلوع الشمس وغروبها، لدليل على أن هناك متحكم في الأيـام والأزمان. يقول الله تعالى:﴿**وَمِنْ آيَاتِـهِ اللَّيْـلُ وَالنَّهَـارُ وَالـشَّمْسُ وَالْقَمَـرُ**﴾ (**فصلت: ٣٧**)

إن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وجريان الفلـك فـي البحار الخطيرة تنقل التجارة من بلد إلى آخر، لدليل واضـح علـى وجـود الله تعالى،وإذا ألقيت أي ذرة من تراب أو حديد في الماء، لغرقت على الفور، ولكـن السفينة تحمل آلاف الأطنان وتسبح في الماء كالزهرة وكأن ذلك فطرتهـا فمـا أعظم إحسان الله تعالى على الإنسان في هذه النعمة. إن تصاعد الأبخـرة مـن البحار ثم ارتفاعها في السماء وتحولها إلى سحب، ثم تسقطها على هيئة الأمطار على أي زرع وأي أرض تحتاج إلى مياه، ثم كيف تجلس السحب على الريـاح وتنتقل هنا وهناك طبقًا للحاجة إليها. يقول الله تعالي:﴿**إِنَّ فِي خَلْـقِ الـسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّـاسَ**

وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)

إن في خلق الإنسان لمعجزة كبيرة بجانب معجزة خلق السموات والأرض. يقول الله تعالى: « وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَباً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأنعام: ٩٩). ويقول تعالى:

« وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » (الجاثية: ٤).

قدم الله تعالى في سورة الأنعام خلق النباتات واختلاف ألوانها دليلا على وجوده سبحانه، فما أعجب أن تنبت من الأرض الواحدة فواكه متنوعة، وزهور ملونة، وأشجار مختلفة وتسقى من ماء واحد، وتتنفس هواءً واحدًا، ولكن لكل نبات منها لونه، وحلاوته، وطعمه، وطوله، وقصره، ولكل نبات خصائصه وفوائده، وكل نبات يختلف عن الآخر تمامًا. يقول الله تعالى:

« إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ » (الجاثية: ٣). ويقول الله تعالى: « وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَباً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأنعام: ٩٩)

ويتحدث الله تعالى في سورة الروم عن خلق الإنسان أولاً من تراب، ثم خلقه بعد ذلك من ذكر وأنثى، ثم جعل مشاعر المحبة والمودة والرحمة بين الرجل والمرأة، وهذه آية من آيات وجوده سبحانه وتعالى، ثم قدم آيات ومعجزات أخرى له في السموات والأرض واحدة بعد الأخرى، ففي البداية خلق الإنسان ثم جعل منه الزوجين الذكر والأنثى، ثم جعل بينهما المودة والرحمة، ثم خلق الأمم ولغاتها المختلفة وأشكالها المتعددة وألوانها المتنوعة. وحقيقة الأمر هي أن نوم

الإنسان لكاف للتدبر والإمعان. يقول الله تعالى:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ...﴾(الروم: ٢٠: ٢٥).

وذكر في الآية الأخيرة أن الأرض والسماء تقوم بأمره، أنكم تقولون إنها قائمة بقوة الجاذبية لكن هذه القوة الجاذبية ذاتها نتيجة جذب من؟ هذا الأمر نفسه محير، وورد في سورة لقمان أن السماء مرفوعة بلا عمد، وثبّت الأرض مكانها. إن قوة الجاذبية التي لا تُرى سر من أسراره تعالى، وإن خلق أنواع مختلفة من النبات من الأرض الجامدة بإنزال المطر عليها لأمر عجيب ودليل على إعجازه في خلقه سبحانه. يقول الله تعالى:﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان: ١٠).

ورد في سورة السجدة خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من نطفة ثم سواه ثم نفخ فيه من روحه وجعل فيه السمع والأبصار والأفئدة. يقول الله تعالى:﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾(السجدة: ٧، ٩).

كم من قوى أُودعت في الأرض الميتة، وكم من خزائن عجيبة ومعجزة في أجسام وأرواح البشر أنفسهم، ولكن لا يدرك هذا إلا أصحاب النظر، فحياة الإنسان ومشاعره وأحاسيسه الداخلية وقواه الذهنية كلها معجزات تدل على وجود الخلق. يقول الله تعالى:﴿وَفِي الأرض آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١).

إن النظام الداخلي في جسم الحيوانات لمعجزة كبيرة تدعو إلى التأمل والتدبر، فجميع الحيوانات تعيش على غذاء واحد، ثم يتحول بعض هذا الغذاء إلى روث، وبعضه إلى دم، وآخر إلى لبن، ثم يخرج اللبن الأبيض الحلو من بين الروث والدم. يقول الله تعالى:﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ**﴾ (النحل ٦٦)

وهناك نوع من الفاكهة إن أكلته بطريقة سليمة يقوى عقلك وقوتك، وإن أكلته بطريقة غير صحيحة ضيع عقلك وقوتك. يقول الله تعالى: ﴿**وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (النحل: ٦٧)

دعك من الأرض وما عليها من مخلوقات، وارفع بصرك إلى السماء، تجد معجزة نور الشمس، وضوء القمر، ثم انظر إلى الشمس وكيف تدور الأرض حول بروج السماء الاثني عشر في الاثني عشر شهرًا في السنة، مما يترتب عليه اختلاف الفصول والأزمان. يقول الله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً**﴾ (الفرقان:٦١).

ولم تقتصر معجزات قدرته سبحانه على هذه المعجزات فقط، بل كل شيء يدل بخلقه على إعجاز وقدرة الخالق. يقول الله تعالى: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (**النمل: ٨٨**)

إن صنع الله منزه عن العيوب، يتجلى فيه النسق والنظام الحكيم. يقول الله تعالى: ﴿**مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ (الملك: ٣، ٤).

وهناك آيات قرآنية لا حصر لها من هذا النوع يتضح فيه ثلاثة أنواع من الأدلة:

١. معجزات متنوعة للقدرة (الإلهية)، وإخضاعها لقانون واحد.

٢. نسق وترتيب نظام العالم.

٣. منافع لا حصر لها في كل حلقة من سلسلة العالم والكائنات، وحكم وفوائد كثيرة.

يثبت من هذه المقدمات أن هذه الكائنات ومعجزاتها وأسبابها وعللها المنظمة لم تخلق فجأة بنفسها، بل خلقها حكيم عالم وقادر مطلق بقدرته وإرادته.

ويستدل الفلاسفة وعلماء الكلام عموما على وجود العالم بأننا نرى بديهة أن لكل شيء في العالم أو الكون سلسلة من الأسباب، وهذه السلسلة إما أن تنتهي في نقطة ما، وإما أن تظل متصلة، فإن ظلت متصلة فلابد إذا من وجود علل لا حصر لها. فلو كان هذا التسلسل متصلاً فلابد من وجود علل وأسباب لا حصر لها لخلق أي شيء، ولا يمكن أن تنتهي أو تنقطع هذه العلل والأسباب، ولا يمكن أن يكون لها بداية، لذا فلا يمكن أن يخلق أي شيء والتسلسل محال عقلاً، بل إن الإنسان عاجز أيضًا عن تصوره، وبناءً عليه لابد من انتهاء علل سلسلة المحال. وإن علة الكل التي تنتهي عندها سائر العلل تكون هي أصل علة العلل للخلق والإيجاد والوجود والكون.

ومع أن هذا الدليل مليء بالاصطلاحات المعقدة الكثيرة ومبني على مقدمات محذوفة كثيرة فإنه ورد في العقل الإنساني، وأصبح سببا لاطمئنان الكثيرين(تجاه هذه المسألة). وورد في آيتين من آيات الذكر الحكيم مصدر هذا الدليل. يقول الله تعالى في آخر سورة هود:﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ **(هود:١٢٣)**

ويقول أيضًا﴿ **وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾ **(النجم:٤٢)**

كان النبي ﷺ على علم بالقصور البشري، فذات مرة جاءه بعض الصحابة وقالوا له ﷺ : إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ».[1] والمقصود هو أن ورود

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها: (٢٩٨) حدّثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ

الوساوس في القلب ثم التفكير فيها لدرجة أن يعتبر الإنسان التلفظ بهـا إثـم، لا يمكن أن تعترى هذه الحالة أي إنسان دون إيمان(فهذه الكيفية والحالة دلالة علـى الإيمان).فورد عن رسول الله ﷺ قوله: «لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا، خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ»[1]

وهذا التعلم في الحقيقة تعليم لهذه المسألة وهى أن سائر العلل تنتهي عند الله تعالى، ولا توجد أي علة بعده عز وجل، لذا فمثل هذه الوساوس لا تحتاج إلى إجابة، إذ يعتبر مثل هذا السؤال سؤالا يدل على الجهل وعدم المعرفة.

الأدلة العقلية على التوحيد

إذا كان هناك خالق وصانع للعالم فمن المؤكد أنه واحد فقط وليس اثنين، ولكننا نجد أهل العقل في الدنيا أيضًا يذهبون إلى القول بأن هناك آلهة متعـددة، ويقسم هؤلاء مملكة العالم إلى مئات الأقسام والممالك ويُقرون بحكومات مختلفـة الآلهة. جاء الإسلام وقدم دليلا على إبطال ورفض هذا الشرك، وهذا الدليل هـو وحدة نظام العالم والتوافق البين بين علل وأسباب الكائنات والتعاون فيمـا بينهـا واتحادها، فلا يمكن أن تُخْلَق ذرة في الدنيا طالما لا يوجد توافق وتعاون فيما بين أسباب وقوى كل المخلوقات في السموات والأرض، وطالما لا يوجد بينها اشتراك واتحاد في العالم، فلا يمكن للحبة أن تنبت من الأرض طالما أن هذه الحبة ليست

النَّبِيَّ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِـهِ. قَـالَ: «وَقَـدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ». (يوسف عامر).

[1] ذكر هذين الحديثين في كتاب الإيمان في صحيح مـسلم بروايـات متعـددة، ووردت هذه الرواية في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها: (٣٠١) حدثنا هَـارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ ومُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ وَاللَّفْظُ لِهَـارُونَ قَالاَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا، خَلَـقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّـهِ».(يوسـف عامر).

صالحة للنبت، وطالما الأرض نفسها ليست صالحة للإنبات، وطالما الموسم ليس مناسبًا، وطالما لا يوجد المطر، وطالما لا تُنْزل عليها الشمس حرارتها وضوءها طبقا لما يلائمها، وطالما لا توجد هناك أي موانع أو عوائق للنبت، فبعد المرور بكل هذه المراحل تنبت الحبة، وتُثمر. وقد بيَّن القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى:﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (الأنبياء:٢٢).

ولو أن سائر أعمال السماء والأرض هذه وكل قوانين الطبيعة هذه في يد قوتين بدلا من قوة واحدة، فلن تستمر هذه الأعمال للحظة واحدة بسبب التصادم الذي سيقع بينهما، وإن أردت أن تعبر عن هذا طبقا للمصطلحات الفلسفية فلك أن تقول أن كائنات العالم معلول وله علة تامة. وواضح أنه لا يمكن أن يكون للمعلول الواحد علتان تامتان، إذ يقال للعلة التامة بأنها الشيء الذي بعد وجوده لا يكون هناك انتظار لأي شيء آخر لوجود المعلول. وإن لم تكن علة العالم التامة واحدة، بل اثنتان، فالسؤال هو بعد وجود العلة التامة الأولي هل سيكون هناك انتظار للعلة التامة الثانية لوجود العالم؟ فإذا كان هناك انتظار فأول شيء هو أن العلة التامة لن تدوم، وإن لم يكن هناك انتظار فالأمر الثاني هو أنه لن تكون هناك علة تامة. يثبت من هذا أن للعالم علة تامة واحدة.

والدليل الثاني على إثبات التوحيد وإبطال الشرك هو وحدة نظام العالم. فحين تنظر إلى الشمس، والقمر، والنجوم(وغيرها من مخلوقات الله في السموات السبع) والإنسان والحيوان والهواء والماء والأشجار والأعشاب(وغيرها من مخلوقات الله في الأرض) يتضح لك أن كل واحد منها يسير طبقا لنظام مقرر ومحدد وخاضع لقواعد وضوابط معينة لا يحيد عنها أحد، فكل شيء يسير بأصول وضوابط وعادة يسير عليها، فيتضح من هذا أن في المخلوقات كلها وحدة خاصة للمساواة، وكلها جميعا تسير طبقا لأمر خالق واحد. يقول الله تعالى:﴿**وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾(المؤمنون:٩١)

قال تعالى:﴿**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُواً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ**

السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾ (الإسراء:٤٢: ٤٤)

وقال الله تعالي في آية كريمة أخرى مبينا الاستدلال على وحدة النظام هذه:﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٣، ٤).

لا يوجد دليل صحيح آخر أكثر من هذا الاستدلال المنطقي المبني على نظام الفطرة والطبيعة، لذا فضله القرآن الكريم. إن هذه الدنيا تسير تحت وحدة نظام واحد، وإلا ما استطاعت أن تسير للحظة واحدة، ويثبت من هذا وحدة الحاكم والآمر المطلق لهذه الدنيا.

تكميل التوحيد

إن التوحيد – مهما شابه التحريف، واختلط بالشرك، أو نقص شكله- تعليم مشترك في سائر أديان العالم، ولكنه في هذه الأديان لم يبن على أصل معين، وجاء الإسلام وأقام عمارته على عدة أسس وضوابط معينة. ما هذه الضوابط والأسس؟ هي معرفة العظمة الحقيقية لله تعالى، وتعيين مكانة الإنسان وحيثيته الأصلية بين سائر الكائنات.

العظمة الحقيقية لله سبحانه وتعالي

كان العرب على معرفة باسم قوة حقيقية واحدة، وكانوا يقرون أيضًا بأنه الخالق، ولكنهم لم يعتبروه المالك الواحد للعالم، فقد كان إله اليهود إلها أُسريا أو قوميا، وهو الذي خلق العالم بأسره لبني إسرائيل فقط، خلقه وتعب ثم استراح في اليوم السابع، وكان يتحارب مع البشر، وكان له أولاد. أما إله المسيحيين فقد منح المسيح بن مريم كل شيء وقضى هو على نفسه. وكانت ألوهية إله الإيرانيين مقسمة إلى مملكتين الخير والشر. أما إله الهنادكة فقد تبدل في صورة رجال الدين(سدنة الهنادكة)، وصار هناك مئات الآلاف من الآلهة، واتحد "برهما" و"مهيش" و"وشنو" وقسموا الأعمال الإلهية فيما بينهم. جاء محمد ﷺ ووضح صفة هذا الإله المالك الوحيد لكل شيء في السموات والأرض، فلا يوجد أي شريك له في أعماله، وليس له شريك في ملكه، وليس له ثان في قدرته، وليست هناك أية

ذرة من ذرات الكون خارجة عن حكمه، وليس هناك أي شيء في الدنيا مستتر عن عينه، يسجد له الشجر، والحجر، والغابات، والجبال، والصحراء، والنهر، والبحر، والشمس، والقمر، والأرض، والسماء، والإنسان، والحيوان، ومن يستطيع الكلام، ومن لا يستطيع، والكل مشغول بتسبيحه وتهليله، والكل ضعيف أمامه صاحب القوة العليا، والكل جاهل، وله هو وحده العلم، والكل فان، وله وحده البقاء، والكل محتاج، وهو وحده مستغن، والكل عبد له، وهو وحده الملك، خلاصة القول هو أن له ملك ما في السموات وما في الأرض، وهو الحاكم وحده لهذا الملك، وهو منزه عن كل عيب وسوء، وهو برئ من كل إدعاء واتهام، وهو المتصف بكل أنواع الصفات العالية، والكمال، والمحامد الجميلة، ليس كمثله شيء، فهو يفوق التشبيه والتمثيل، وبعيد كل البعد عن التشبيه والتمثيل الإنساني:

قال تعالي:﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾(الزمر:٦)

قال تعالي:﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(الزمر:٤٤)

قال تعالي:﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(الأنعام:١٤)

قال تعالى:﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ﴾(القصص:٨٨)

قال تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى:١١)

قال تعالي:﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ (غافر:٦٥)

قال تعالي:﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾(الأنعام: ٥٩)

قال تعالي:

﴿اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران: ٢٦)

قال تعالي:﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(يونس: ١٠٧)

قال تعالي:﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(البقرة: ٢٥٥)

قال تعالى:﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(الحديد: ٤، ٥)

قال تعالى:﴿ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة: ١)

قال تعالى:﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(آل عمران: ٨٣)

قال تعالى:﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(الجمعة: ١)

قال تعالى:﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(الإسراء: ٤٤)

وردت آيات قرآنية كثيرة في هذه المعاني، توضح عظمة الله وجلاله وكبريائه، هذا الكبرياء الذي جعل عزة الآلهة الموضوعة في التراب، وحطم طلسم عظمة الأصنام، وانطفئ للأبد سراج ألوهية الشمس والقمر والنجوم، وسجد لجلاله وجبروته -سبحانه- الجن والأنس والشجر والحجر والبر والبحر وكل المخلوقات، ثم علا صوت **(أنا الله لا إله إلا هو)**.

مرتبة الإنسان

إن حيثية الإنسان في هذا العالم ودرجته هي الأساس الثاني للإسلام، إن من يسجدون للأصنام، ويعبدون الأحجار، ويسجدون للأشجار، ويعتقدون في ألوهية الحيوانات، ويدعون بأسماء الجن والأرواح الخبيثة، ويقرون بربوبية المخلوقات الإنسانية، ويعتقدون في ألوهية البشر هم في الحقيقة بعيدون تماما عن معرفة منزلة الإنسان وفضله، فهم بأفعالهم هذه يقرون بأفضلية الحجارة، والأشجار، والحيوانات،والأنهار، والبحار، والجبال، والقمر، والنجوم على الإنسان وحقارته أمامهم. إن هؤلاء الناس في حقيقة الأمر ما عرفوا المنزلة والمرتبة الأساسية للإنسان. جاء النبي ﷺ وأخبر عن طريق الوحي العرب الجهلة بتلك المكانة والمرتبة، وهي أن الإنسان أشرف المخلوقات بأسرها في هذا العالم، وقد خلقه الله تعالى ليتولى فرض نيابة الله تعالى في هذه الدنيا، إن قصة خلافة أدم عليه السلام التي وردت في القرآن الكريم ليست مجرد قصة فقط؛ بل هي مقدمة

أولى لتوضيح وبيان المكانة والمنزلة الأصلية للإنسان، فسجود الملائكة له دلالة على سجود كل المخلوقات له، وتعليمه الأسماء كلها كأنه منحه ملكية التصرف في كل الأشياء، وهو نائب لله تعالى في هذا العالم مصداقا لقوله عز وجل:﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾(البقرة:٣٠)، وفُضِلَ بتاج الخلافة الإلهية، واختير لحمل أمانة الله في مخلوقاته على الأرض، ولم تنل الملائكة هذه المنزلة وهذا الشرف العظيم، ولم تنله السماء ولا الأرض ولا الجبال، وكان صدر الإنسان فقط هو خزينة هذه الأمانة، وكان كتفه هو المستحق لتحمل هذا العبء وهذه المسئولية. يقول الله تعالى:﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ**﴾(الأحزاب:٧٢)

لقد عظَّم الله تعالى من درجة الإنسان ومكانته وفضله على الملائكة وسائر المخلوقات، وأنعم عليه بالأنعام وغيرها من المخلوقات. يقول الله تعالى:﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾(الإسراء: ٧٠)

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي خُلِقَ في الدنيا في أحسن تقويم. يقول الله تعالى:﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (التين:٤)

ليس الإنسان إلا انعكاس للصفات الإلهية. فقد ورد في أحاديث كثيرة أن النبي ﷺ قال:«خَلَقَ اللّهُ آدمَ على صورته»[1] وعليه أوصى البني ﷺ بأنه إذا أراد

---

[1] – صحيح البخاري كتاب الاستئذان، وهذا نصها: (٦٠٨٤) حدَّثنا يحيى بنُ جعفر حدَّثنا عبدُ الرزَّاق عن مَعْمر عن همام عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «خَلَقَ اللّهُ آدمَ على صورته، طولهُ ستون ذراعاً. فلما خَلَقَهُ قال: اذهَبْ فسلِّمْ على أُولئكَ نفَرٍ من الملائكةِ جُلوسٍ، فاستمعْ ما يُحيُّونَكَ، فإنها تحيَّتُك وتحية ذرِّيتك. فقال: السلامُ عليكم، فقالوا: السلامُ عليكَ ورَحمةُ اللّه، فزادوه ورحمة اللّه. فكلُّ من يَدخلُ الجنةَ على صورةِ آدم، فلم يزلِ الخلقُ يَنقصُ بعدُ حتى الآن». (يوسف عامر). وابن أبي عاصم في السنة، والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات، والأدب المفرد للبخاري، وأحمد عن أبي

أحد أن يعاقب عبده، فلا يضربه على وجهه، لأنه إنسان والإنسان خُلِق على الصورة الإلهية. كما ورد عنه ﷺ أيضًا بأنه لا يجوز إذا وقعت الحرب أن يضرب المسلم عدوه على وجهه [1] فإن الله خلق آدم علي صورته [1] كما أنه لا

هريرة. وهذا نصها: (١٠٥٠٧) حدّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا سليمان بن داود أنبانا المثنى، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه، فإن الله عزّ وجلّ خلق آدم على صورته».(يوسف عامر). وصحيح مسلم كتاب البر. وهذا نصها: (٦٦٠٧) حدّثنا نَصرُ بْنُ عَلِيَ الْجَهْضَمِيُّ. حَدَّثَنِي أَبِي. حَدَّثَنَا الْمُثَنَّى. ح وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بْنُ مَهْدِيَ عَنِ الْمُثَنَّى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ حَاتِمٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ. فَإِنَّ اللّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ». (يوسف عامر).إضافة إلى أن هذا المعني ورد في التوراة هكذا " يَوْمَ خَلَقَ اللهُ الْإِنْسَانَ عَلَى شَبَه الله عَمِلَهُ " (سفر التكوين، الإصحاح٥، الفقرة٢)(يوسف عامر).

[1] - صحيح البخاري في كتاب العتق، باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه. وهذا نص الرواية: (٢٥١٠) حدّثني محمدُ بنُ عُبيدِ الله، حدَّثنا ابنُ وَهبٍ قال: حدَّثني مالكُ بنُ أنسٍ .قال: وأخبرَني ابنُ فلانٍ عن سعيدٍ، المقبُريِّ عن أبيه عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وحدَّثني عبدُ اللهِ بنُ محمد حدثَنا عبدُ الرزّاقِ، أخبرَنا مَعْمرٌ عن هَمّامٍ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قاتَلَ أحدُكم فلْيَجْتَنِبِ الوَجهَ».(يوسف عامر). وصحيح مسلم من كتاب البر والصلة. وهذا نصها: (٦٦٠٨) حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنِي عَبْدُ الصَّمَدِ،حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ يَحْيَى بْنِ مَالِك الْمَرَاغِيِّ وَهُوَ أَبُو أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْه».(يوسف عامر).

يجب أن يقول أحد لآخر قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك إذا غضب، فإن الله خلق أدم على صورته. [٢] وهذا لا يعني مطلقا أن الأحاديث الشريفة تقصد أن لله تعالى شكلا أو صورة جسمانية كالإنسان، وإن شكل أدم وصورته عليه السلام نقل له، إذ يقول الله تعالى في القرآن الكريم: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)(الشورى:١١)، ولكن المقصود من هذه الأحاديث النبوية هو أن في الإنسان وميض من الصفات الكاملة لله تعالى، فصفات العلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والإرادة، والغضب، والرحمة، والكرم وغيرها أمثلة للصفات الناقصة أودعها الله تعالى في الإنسان. والوجه هو مرآة شخصية الإنسان، ومصدر أكثر حواسه من بين سائر الأعضاء،

---

[١] - صحيح مسلم، كتاب البر. وهذا نصها: (٦٦٠٧) حدّثنا نَصرُ بْنُ عَلِيَ الْجَهْضَمِيُّ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا الْمُثَنَّى، ح وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بْنُ مَهْدِيَ عَنِ الْمُثَنَّى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ حَاتِمٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ، فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ. فَإِنَّ اللّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ». (يوسف عامر)

[٢] - الأدب المفرد، للإمام البخاري، باب لا تقل قبح الله وجهه. ورد في مسند الإمام أحمد: (٩٤٧٤) حدّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، قال: حدثنا ابن عجلان قال: حدَّثني سعيد، عن أبي هريرة؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا ضرب أحدكم، فليجتنب الوجه، ولا يقل: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله عزّ وجلّ خلق آدم عليه السلام. على صورته». كما ورد في صحيح ابن حبان: (٥٦١٣) أخبرنا الفضلُ بنُ الحباب، قال: حدثنا إبراهيمُ بن بَشَّار، قال: حدثنا سفيانُ، عن ابنِ عَجْلانَ، عن سعيدٍ عن أبي هُريرةَ، عَنِ النبيِّ قال : «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهُ مَنْ أشبهَ وَجْهَكَ، فإنَّ اللّهَ خَلَقَ آدمَ على صورتِه».(٢:٤٣)

قال أبو حاتم: يُريدُ به على صُورةِ الذي قيلَ له: قَبَّحَ اللَّهُ وجهَك من ولدِه، والدليلُ على أَنَّ الخطابَ لبني آدمَ دُونَ غيرِهم قولُه : «وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ»، لأنَّ وجهَ آدمَ في الصورةِ تُشبهُ صورةَ ولدِه. (يوسف عامر).

ومن الوجه تتضح كل الصفات، لذا بَيَّن النبي ﷺ أن على الوجه فيضا من الصفات الإلهية من بين سائر أعضاء الإنسان.[1] إذن فلتتدبر في هل يليق للوجه الذي له مع الله هذه الصفة وهذه النسبة أن يسجد على الأرض لغير الله تعالى؟!!

جعل الله تعالى الإنسان خليفة له في الأرض. يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ﴾ (الأنعام:١٦٥)

إذن يسجد هذا الإنسان لمن غير الله تعالى؟. إن سائر المخلوقات على وجه الأرض خُلِقت من أجل الإنسان، ولم يُخْلَق هو من أجل المخلوقات على وجه الأرض. يقول الله تعالى: ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ (البقرة:٦٣)
قال تعالي: ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ﴾ (الحج:٦٥)

إذًا من ذا الذي على وجه الأرض يستحق سجود الإنسان له(سوى الله عز وجل). إن انحناء المشركين أو سجودهم أو خضوعهم، وعبدة الأصنام، وعبدة النجوم، وعبدة الطبيعة للآخرين يثبت في الحقيقة أن هذا الآخر ما خُلق لهم؛ بل خلقوا هم له. إن من يعبد الشمس والقمر يعتقد في أنهما ما خُلقا له، بل خُلق هو من أجلهما. أخبر محمد رسول الله ﷺ عن طريق الوحي أن كل المخلوقات قد خُلقت من أجل الإنسان، وخُلق الإنسان لعبادة الله تعالى، لذا يجب على الإنسان أن يبقى دائما في خدمة الله وطاعته، طالما أن كل ذرة في الكون تكون دائما في خدمة الإنسان وتمتثل لأمره.

اتخذ البشر المخلوقات السماوية آلهة، لذا قال لهم محمد ﷺ عن طريق الوحي قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾(النحل:١٢)

عبد البشر الحيوانات، لذا أخبرت الرسالة المحمدية هؤلاء الجهلة بأن الأنعام قد خُلقت لكم، ولم تخلقوا أنتم لهم. يقول الله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ (النحل:٥)

١ - نُقل هذا القول من شرح هذا الحديث في كتاب فتح الباري لشرح صحيح البخاري.

اتخذ البشر الأنهار والبحار آلهة ذكورا وإناثا، في حين أن الأنهار والبحار قد خُلقت لهم. يقول الله تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾(النحل:١٤)
قال تعالى:﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس:٨٠)

سجد البشر للنار واتخذوها إلها لهم، في حين أنها تحترق في حبهم. يقول الله تعالى:﴿تَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ (النحل: ١٤)

خلاصة القول هو أن الإنسان أشرف وأفضل مخلوق، ولا يفضله أي مخلوق في السماء أو الأرض، بل خُلق ما بين السموات والأرض من مخلوقات من أجدله هو، ثم بعد هذا أي جاهل يتخذ مخلوقا من المخلوقات إلها له يعبده ويسجد له. وبعد وضوح هذه الحقيقة هل يمكن للمسلم الصادق أن يقع في أي نوع من أنواع الشرك، ويترك الله ويسجد لغيره؟

إن الرسالة التي جاء بها محمد رسول الله ﷺ ترتكز على ركنين أساسين: الأول الإنسان أشرف وأفضل المخلوقات، لذا يجب عليه ألا يسجد لأي مخلوق. والثاني هو أن كل أنواع القوة والقدرة والصفات الكمالية كلها لواحد فقط، وهو من يحكم كل ذرة من وراء العرش حتى الأرض، ولا توجد نقطة واحدة خارجة عن دائرة طاعته، ويجب سجود جبهة الإنسان له هو فقط وليس لغيره، إن حبنا كله وإخلاصنا وخوفنا وآمالنا وأدعيتنا والتجائنا وضعفنا له هو وحده، وحياتنا كلها مرهونة برحمته وكرمه

من هو ذلك الواحد القوى؟ وما هو تخيلنا عنه؟ لقد أجاب الإسلام على هذا التساؤل.

التصور الجامع والمانع لله تعالي

ثبت جليا من آيات القرآن الكريم، وأشعار الجاهلية، ووقائع وأحوال العرب قبل الإسلام ونقوش آثار العرب القديمة، أنه كان في ذهن العرب تصور لهذا الواحد القوى، وكانوا يسمونه الله، ولكن من هو الله؟، وكيف هو؟، وما هي صفاته؟، وما هي الأمور التي يمكن أن تُنسب إليه؟، وما هي الأمور التي هو

مُنَزه عنها؟، وما علاقته بعباده؟، وكيف يجب أن نعبده ونخضع له؟، وما يجب أن نطلبه منه؟، وكيف ندعوه؟، ولم ندعوه؟، ولم نخشاه؟، وكيف نخشاه؟، وما حقيقة الخوف منه وخشيته؟،وهل لنا أن نحبه أم لا؟، وإن كان لنا هذا فكيف؟، وما حقيقة حبه؟، وإلى أي مدى قدرته؟، وما منزلة علمه؟، هل هو بعيد عنا أم قريب تماما؟، هل هناك حد لتقديسه وعظمته وكبريائه؟، وكيف نتوكل عليه؟، وهل يتكلم مع أي نوع من البشر؟، وهل له أحكام وأوامر؟، وهل هذه الأحكام والأوامر واجبة التنفيذ والطاعة؟، وبأي الأمور يرضى؟، وهل هو عليم بما في صدورنا؟، وهل يمكن لأي ذرة في الأرض أن تتحرك من مكانها دون إرادته؟، وكيف تحيط إرادته ومشيئته بكل شيء في السموات والأرض؟، هل له قانون ودستور؟، هل يبعث أنبياء ورسلا لهداية البشر؟، هل سيحاسبنا على أعمالنا؟، ولم وكيف يؤاخذنا على أعمالنا؟، هذه هي الأمور التي كانت بعيدة تماما عن تفكير العرب في الجاهلية، ولم يكن هناك أي تصور في أذهانهم عنها. وحين تقرأ تاريخ العرب في الجاهلية وتتحقق من دياناتهم ومعتقداتهم لا تجد أكثر من أنهم كانوا يعتقدون في أن الله قوى خلق كل شيء، ويجب الالتجاء إليه عند الشدائد والابتلاءات.

جاء محمد رسول الله ﷺ وعرَّف العرب عن طريق الوحي بالعظمة الحقيقية لله تعالى، وأخبرهم بوحدانيته سبحانه وتعالى وبأنه ليس كمثله شيء، وأوضح لهم إرادته عز وجل ومشيئته وعظيم قدرته سبحانه، وبيّن لهم أهمية الاعتقاد بهذا الواحد(الله عز وجل) الذي لا حد لقدرته، ولا انتهاء لعلمه، وتسير كل ذرة في الكون حسب مشيئته، ويحيط علمه كل شيء، ويعلم ما في الصدور، وهو بصير بلفظ اللسان وأعمال الأيدي والأقدام في أي لحظة، والإنسان مسئول ويحاسب على أعماله أمامه سبحانه وتعالى، ويخاف عقابه، ويطمع في رحمته، هو الله المحبوب الأزلي، بنشوة حبه تستنير قلوبنا، ويعم فضله وكرمه ولطفه وعطفه السموات والأرض، وقوته تفوق كل قدرة، وإرادته فوق كل إرادة، وحكمه فوق كل حكم، وعبادته فرض على كل مخلوق، وطاعته واجبة على كل مكلف، وهو عز وجل منزه عن كل عيب، ومستحق لكل وصف حميد، كان يُرسل الرسل والأنبياء لتذكير البشر ولهدايتهم وتزكيتهم، وتكلم معه(صنف من

البشر)، له أحكام وضوابط وقوانين، إطاعتها ثواب، وعصيانها إثم، هو مضيء الظلام، وهو سبحانه وتعالى أقرب إلينا من حبل الوريد، يسمع ندائنا، ويحب الخير ويكره الشر، وإن أراد أن يفني السماء والأرض لأفناهما، وإن أراد أن يبقيهما لأبقاهما، وحبه سبحانه وتعالى هو الهدف الأساسي من الحياة الدنيا،وعبادته هي الغرض الحقيقي من حياتنا وذكره سبحانه اطمئنان لقلوبنا. يقول الله تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد:٢٨).

وكان من نتيجة وأثر هذه التعليمات والهدايات (النبوية) أن هؤلاء الناس الذين لم يذكروا حتى ولو نسيانا اسم الله أن نسوا كل شيء سواه وضحوا بأنفسهم في سبيله، وأخذوا يذكرونه سبحانه وتعالى في سيرهم وقعودهم، في نومهم ويقظتهم، وفي كل حال. يقول الله تعالى: ﴿**يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ (آل عمران:١٩١).

(ولكنهم في دوام ذكرهم وعبادتهم لله) لم يتخذوا حياة رهبانية في الصحارى، ولم يعتمدوا على التوسل إلى الأثرياء والأغنياء، ولم يلجئوا إلى ذكر الله في الخلوة طلبا للنجاة من صراع الدنيا،[1] ولكنهم اعتبروا أداء الفروض والسعي والكفاح في طريقها مسلكا لهم، وعرفوا حكم الله تعالى واستعدوا لتنفيذه، وهم رغم كثرة الأعمال وتنوعها في الدنيا لا يلهيهم أي شيء عن ذكر الله وعبادته، لذا قال الله تعالى في شأنهم:﴿**رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ (النور:٣٧).

إن حبهم لله تعالى فاق كل حب في الدنيا، يقول الله تعالى يصف حبهم له سبحانه:﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ**﴾(البقرة:١٦٥)

كان توكلهم وصبرهم واستقلالهم واستقامتهم وشجاعتهم وصدقهم وطاعتهم وكل شيء بفضل إيمانهم بالله تعالى، وكانوا دائما يذكرون قوله تعالى:

---

[1] – يشير المؤلف هنا إلى أهمية تمسك الإنسان بعبادة الله وطاعته مع المشاركة في الحياة الإنسانية بفاعلية واضحة حتى يستمر إعمار الكون إلى أن يشاء الله.(يوسف عامر).

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق:٣) وقوله تعالي:﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر: ٣٦) وقوله تعالي:﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب:٣٧)

ظهر هذا الجوهر الروحاني والأخلاقي فيهم بفضل الإيمان بالله تعالى وحده.

أسماء الله تعالى وصفاته

قال الله تعالى في بداية خلقه للعالم إنه سبحانه علَّم أدم الأسماء كلها. والآن كم اتسعت الدنيا، وكم اتسع العلم، ولكن تدبر في أننا حتى الآن ما تقدمنا عن دائرة الأسماء، وهذا ما نعتبره الوصول للحقيقة، وهذه هي فلسفتنا، لقد ادعينا أننا نعرف الأشياء عن طريق الحقائق والخواص بناء على فرضياتنا المنطقية، ولكن بعد مرور آلاف القرون لم نستطع أن نقدم مثالا للتعريف الحقيقي والذاتي، وما استطعنا معرفته هو إيجاد أشكال صبيانية جديدة بألوان مختلفة لصفات العوارض والخواص ثم نفسدها حين يكون عالم المادة، فكيف تتحمل طاقتنا البشرية أكثر من هذا في عالم ما وراء المادة، وجبل الطور صورة نارية لهذا الرمز.

يمكن لنا معرفة الإله عن طريق أسمائه وأعماله وصفاته، وقد علَّم محمد رسول الله ﷺ جهلة العرب وفقا لهذا المعيار الإنساني. كان جهلة العرب على معرفة باسم الله، ولكنهم كانوا جاهلين -إلى حد كبير- بتصور أسمائه وأعماله، لذا كانوا على جهل تام بأسماء وصفات الله تعالى. يوجد في ديوان العرب أي شعرهم اسم الله "الله" في أكثر من موضع، ولكن لا يوجد ذكر لصفاته. وجاء في القرآن الكريم تصوير كامل لأفكارهم وتخيلاتهم، ولكن لم يثبت بأي دليل أنهم كانوا على معرفة بأسماء الله تعالى وصفاته. كان بعض مسيحي العرب يستخدمون لفظ "الرحمن" مع لفظ "الله"، والذي يعنى الرحمة. وإن اللوحة المعلقة على "سد العرم" "اليمن" باسم أبرهة المسيحي زعيم أصحاب الفيل، والتى نشرها عالم ألمانيا الفاضل "كلازر" ورد فيها لفظ "الرحمن" في موضعين. ويوجد هذا اللفظ أيضًا في أشعار شعراء العرب المسيحيين. وكان من أثر استخدام المسيحيين

له أن نفره العرب المشركون وسخطوا منه؛ لذا حين استخدم الإسلام هذا اللفظ؛ رفضه المشركون وسخطوا منه أيضًا، وحين استكتب النبي ﷺ في معاهدة صلح الحديبية **بسم الله الرحمن الرحيم** فقال ممثل قريش: أقسم بالله بأني لا أعرف لفظ الرحمن.[1]

وبسبب استخدام محمد رسول لله ﷺ للفظ "الرحمن"، ولوروده كثيرا في القرآن الكريم دالا على الله تعالى غضب المشركون، وكانوا يقولون: لن ننحني أبدًا أمام الرحمن، وقد ذكر القرآن الكريم حالهم تلك في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾** (الفرقان: ٦٠)

كان المشركون ينفرون من أن محمد ﷺ يذم أصنامهم وآلهتهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يمتدح المسيحيون "الرحمن" ويثنون عليه. يقول الله تعالى: **﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾** (الأنبياء: ٣٦)

وفي النهاية عرَّف محمد ﷺ العرب بالحقيقة التي كانوا يجهلونها، وهي أنه لا حد لأسماء الله تعالى وصفاته، ويمكن دعاؤه بكل الأسماء الحسنى: **﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾**(الإسراء: ١١٠)

إن مسألة أسماء الله تعالى وصفاته من بين أهم الاصطلاحات الدينية التي قام بها الإسلام، والتي لم يكن العرب وحدهم جاهلين بها، بل ابتلى بهذا الجهل أيضًا أتباع أديان معروفة في الدنيا؛ فكان "يهوة" الاسم الأصلي لله تعالى في صحف وأسفار اليهود، ولكن لم يكن يُسْمح لعامة اليهود أن يتفوهوا بهذا الاسم المقدس، وكان "إلوهيم" هو الاسم الثاني العام، والذي يُستخدم في أي مقام، أما أسماء الله الأخرى، والأسماء التي هي في الحقيقة تعبير عن صفاته الذاتية

---

[1] وورد فى سيرة ابن هشام، الجزء الثالث " ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ: اكتب: باسمك اللهم". (يوسف عامر).

وأعماله الربانية فلا يوجد ذكر لها في التوراة تماما، وتعتبر صفة "رب الأفواج" هي أوضح صفة من الصفات الإلهية في صحف اليهود كمظهر لصفات الله تعالى الجلالية.

استخدم لفظ "الآب" لله في إنجيل المسيحيين والكتب الدينية. ما المقـصود بحقيقة هذا اللفظ وإطلاقه على الله؟ وإلى أي حد يجوز إطلاق لفظ مادي بـسبب هذا الأمر؟ دعك من هذه الأمور وتدبر في أن هذا تعبير مادي وناقص لـصفات الله الجمالية فقط. أخفى اختلاط الفلسفات في المسيحية عقيدة التثليـث المبتدعـة تحت ستار مـسألة الـصفات هـذه، وأُوِّلـت الأقـانيم الثلاثـة أي الأب (الله)، والابن(عيسى عليه السلام)، والروح القدس على أنها عبارة عن ثلاث صـفات الأب أي الحياة، الابن أي الخلق، والروح القدس أي العلـم، وثلاثـتهم واحـد، ولكـنهم منفصلون في وجودهم، وبناء على هذا التفسير والتأويل ظهرت مـسألة تجـسيم الصفات الإلهية، وأصبح الإله الواحد مجموعة من الإلهة.

وعند الهنادكة اختلطت أسماء الله وصفاته بالسحر والشعوذة، إذ إن كـل صفة عندهم اتخذت وجودًا مستقلاً له، وتجرد الإله نفسه من كل أنواع الصفات، لذا أصبحت سائر ديانات الهند مظهرا لتجسيم الصفات هـذا، فـــ "برهمـا" و " مهيش" و "وشنو" مجسمات لثلاث صفات: **الخالق، والمميت، والقيوم**، وقـد أدى الفهم الخاطئ هنا إلى وجود التثليث بدلا من الوحدة.سـلَّم "شـنكر آتـشاريه"[1] بصفات أصلية ثلاث فقط للإله، وهي الحياة، والعلم، والسرور. واستحدثت صفة الخلق في الديانة الجينية وبعض الفرق الهندوسية ضلال عبادة الأعضاء التناسلية، وأوجدت الفلسفة الخاطئة تجسيم أسماء الله تعالى وصفاته في شكل ٣٣٠ مليـون إله ذي خلقة عجيبة وغريبة عند عامة الهنادكة، كما أظهرت هذه الفلسفة الخاطئة أشكالا جديدة تماما لعبادة الأصنام، ونتج عن ثنائية "يـزدان" و "أهرمـان" فـي المجوسية أن قسمت صفتا الله "الهادي" و "المضل" إلى إلهين مستقلين. وخلاصة

---

[1] - تكتب هكذا "شنكر آچاريه" بالأردية.(يوسف عامر).

* هذا التفصيل هو أن القيم الخاطئ لهذه المسألة قد تسبب في نشر الضلال في الدنيا.

أبطل محمد رسول الله ﷺ كل تخيلات وأفكار الناس الفاسدة هذه، وصحح عقائدهم الخاطئة، وبفضل نور الهداية الربانية أصبح سراجا منيرا وأظهر الحقيقة، والتي تعتبر من أهم أعمال النبوة المحمدية.

أخبر النبي ﷺ بأن صفات الله تعالى الكاملة لا يمكن أن تعد أو تحصى، وليس هناك أي حد لأعمالها. وقد علم النبي ﷺ (المسلمين) هذا الدعاء:«أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك». وتعلمت السيدة عائشة رضي الله عنها هذا الدعاء الإلهامي"اللهم أدعوك بأسمائك الحسنى التي نعرفها والتي لا نعرفها" [1] يقول الله تعالى:﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً**﴾ (الكهف:١٠٩)

ويقول سبحانه في آية أخرى:﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ (لقمان: ٢٧)

---

[1] - أورد الإمام البيهقي هذه الأدعية بسندها في كتاب الأسماء والصفات، والرواية الأولى وردت في مسند أحمد ابن حنبل أيضًا بسند عبد الله بن مسعود،وهذا نصها: (٣٧١٣) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا يزيد أنبأنا فضيل بن مرزوق، ثنا أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أصاب أحداً قط همّ ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً قال : فقيل : يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال : بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها ».(يوسف عامر).

خلاصة القول هو أن لله تعالى الأسماء الحسنى. يقول الله تعالى:﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾(طه:٨)

إن الأسماء الحسنى وكل وصف حميد خاص لذات الله تعالى:﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياًّ مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾(الإسراء:١١٠)
ولكن يجب ألا تدعوه بأسماء منافية للكمال والعظمة والكبرياء كالمشركين، ولا تذكره بأسماء الأصنام والآلهة. يقول الله تعالى:﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾(الأعراف: ١٨٠)

إن القرآن الكريم مليء بأسماء الله تعالى الحسنى وسائر صفاته سبحانه، فلا توجد صفحة واحدة من صفحات القرآن لا يوجد بها اسم الله تعالى أو صفة من صفاته وكل هذه الصفات والأسماء توضح هذا العشق والحب الذي يجب أن يكون في قلب كل أتباع القرآن الكريم تجاه المحبوب الأزلي الأبدي ونور السموات والأرض. يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥)
قال تعالى:﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥)
قال تعالي:﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (الحشر:٢٢: ٢٤)

قال تعالى:﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الحديد:١: ٦)

قضي محمد رسول الله ﷺ على التصور والاعتقاد الباطل الذي كان في أذهان العرب عن الله تعالى، وقدم لهم صورة صحيحة عن الحق تبارك وتعالى. والواقعة التالية توضح هذا الأمر، فحين دعا النبي ﷺ إلى التوحيد، جاءه المشركون الذين كانوا يقدسون آلهتهم ويتغنون بالثناء على أهلهم وأولادهم وزوجاتهم وخدامهم وقالوا: "انْسُبُ لَنَا رَبَّكَ". وكأنهم كانوا يريدون بمقابلة إله الإسلام بآلهتهم، القول بأن إله الإسلام لا يساوى آلهتنا في هذا الأمر وهذه المكانة. ورد عليهم الله تعالى موضحًا حقيقته سبحانه في أقصر سورة من سور القرآن الكريم[1]. يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص:١: ٤)

[1] – مستدرك الحاكم، تفسير سورة الإخلاص(صحيح)، وجامع الترمذي، تفسير سورة الإخلاص،وهذا نص الحديث: (٣٤٩٤) ــــ حدثنا أَحْمَدُ بنُ مَنِيعٍ، حدثنا أَبُو سَعْدٍ هُوَ الصنْعَانِيُّ عَن أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ عَن الرَّبِيعِ بن أَنَسٍ عَن أَبِي العَالِيَةِ عَن أُبَيِّ بن كَعْبٍ : «أَنَّ المُشْرِكينَ قَالُوا لرَسُولِ الله : انْسُبُ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصَّمَدُ} فَالصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إلاّ سَيَمُوتُ، ولَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إلاّ سَيُورَثُ، وإنَّ الله عز وجلّ لاَ يَمُوتُ ولاَ يُورَثُ {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْواً أَحَدٌ} قَالَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلاَ عِدْلٌ ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ» .، وكتاب الأسماء للبيهقي، صـ٢٣، إله آباد.

وفي رواية عن أبي بن كعب ﷺ، والذي كان يعد من أمهر الصحابة في فهمه وتفسيره للقرآن الكريم، يقول في تفسير سورة الإخلاص أن "الصمد" هو من لم يلد، ولم يولد، لأن من يُولد، يموت أيضًا، ومن يموت يترك لـــه وارث، والله تعالى لا يموت، وليس له أي وارث، وليس له أي كفء أي لا يكافئه ولا يساويه أي احد، وليس كمثله شيء. تدبر في انحطاط تخيل وتصور العرب لله قبل بعثـة محمد رسول الله ﷺ، ويمكن أن تتعرف على هذا التدني الفكري من خلال سؤالهم لرسول الله ﷺ السابق (عن نسب الله)، ثم كم ارتقى وتنزه تخيلهم وتصورهم عن الله تعالى بعد بعثة محمد رسول الله ﷺ، ويمكن لك أن تتعرف على هذا الارتقاء الفكري من خلال تفسير أبي بن كعب ﷺ للفظ "الصمد"، وهذا هو أبي بن كعـب الذي كان يتسم بالمكانة الرفيعة في قبيلته العربية، ولكن قلبه أُنير بفيض هدايــة وتعليم النبي ﷺ. كان أبو هريرة ﷺ يستمع إلى النبي ﷺ ويقول : يقول الله تعالى: «يشتُمني ابنُ آدمَ. وما ينبغي لهُ أن يشتُمَني ويكذِّبني وما ينبغي له. أمـا شـتمُهُ فقوله: إنَّ لي ولداً. وأما تكذيبهُ فقوله: ليسَ يُعيدُني كما بَدَأني»[1] فـي حـين أن الخلق الثاني أيسر بكثير من الخلق في المرة الأولى. وشتم ابن أدم لله تعالى هـو أنه أدعى بأن لله -حاشاه- ولد في حين أن الله تعالى أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.[2]

---

[1] - وهذا نص الحديث: وقد ورد في صحيح البخـاري، كتـاب بـدء الخلـق: (٣١٢٣) حدّثنا عبدُ الله بنُ أبي شَيبةَ عن أبي أحمدَ عن سُفيانَ عن أبي الزناد عنِ الأعرجِ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: «قال رسولُ اللهِ صـلى الله عليه وسلم: قال اللهُ تعالى: يشتُمني ابنُ آدمَ. وما ينبغي لهُ أن يشتُمَني ويكذِّبني وما ينبغي له. أما شتمُهُ فقوله: إنَّ لي ولداً. وأما تكذيبهُ فقوله: ليسَ يُعيـدُني كما بَدَأني».(يوسف عامر).

[2] - صحيح البخاري، سورة الإخلاص، وهذا نصه: (٤٨٥٦) حدَّثنا إسحاقُ بـن منصور، حدَّثنا عبدُ الرزاق أخبرَنا مَعمرٌ عن هَمّام عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك، وَشَـتمني

• كان أبو هريرة من عرب اليمن، أي أنه كان أحد هؤلاء العرب الذين كانوا جاهلين تماما بهذه الحقائق قبل محمد رسول الله ﷺ، والآن يُخْرج من فمه لآلئ التقديس والتنزيه(لله تعالى).

إن لفظ "الصمد" هو أوجز الألفاظ في هذه السورة الكريمة، ولكن بلاغة القرآن الكريم قد أخفت فيه صفات إلهية كثيرة. و"الصمد" يعنى في اللغة الأرض الحجرية المرتفعة أو الصخرة، والتي توجد في مكان مرتفع لا يصله الطوفان، لذا حين يأتي الطوفان يفر الناس إلى هذا المكان وينجون بأنفسهم. ثم يخرج من هذا المعني اللغوي للفظ الصمد معنى السيد الذي وصل إلى آخر مراتب العظمة والشرف، كما يطلق أيضًا على السيد الذي لا يمكن الفصل أو الحكم في المجلس بدون وجوده، ويطلق على السيد الذي لا سيد بعده، واستخدم هذا اللفظ أيضا للدلالة على مكان الملاذ والمأوى الذي يأوي إليه الجميع وقت المصيبة. ويستخدم أيضًا في الدلالة على المرجع والمركز الذي يذهب إليه كل شخص. ويطلق على الشيء الصلب الذي لا تجويف فيه، لذا يطلق على من لا يأكل ولا يشرب، ولا من لا آل له ولا أولاد، ويطلق على من لا يمكن الاستغناء عنه، ويطلق على الشجاع الذي لا يشعر بجوع أو عطش في القتال، ويطلق لفظ "صمدة" على الناقة التي لا تلد. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: إن "الصمد" هو ذلك السيد والقائد الذي وصل إلى درجة الكمال في عظمته وسيادته، هو ذلك العظيم الذي اكتملت عظمته، وهو ذلك الكبير الذي لا نقص في كبريائه، هو ذلك الحليم الذي وصل إلى آخر درجات الحلم، هو ذلك المستغني، والغني الذي لا حد لغنائه واستغنائه، هو ذلك القوي الذي لا حد لجبروته، هو ذلك العليم الذي وصل إلى آخر درجات

ولم يكن له ذلك. أما تكذيبُهُ إيايَ أن يقولَ إني لن أُعيدَهُ كما بدأْتُه، وأما شَتمهُ إيايَ أن يقول اتخذَ اللّهُ ولداً، وأنا الصَّمَدُ لم ألِدْ ولم أُولَدْ ولم يكن لي كُفواً أحد» {لم يَلِد ولم يُولَد ولم يكن له كُفُواً أحد} كفواً وكفِيئاً وكِفاءً واحد. (يوسف عامر).

العلم، هو ذلك الحكيم الذي بلغ مرتبة الكمال بحكمته وبصيرته، أي هو الكامل في كل صنف من صنوف الكبرياء والعظمة.[1].

وإضافة إلى هذا المعنى للفظ "الصمد" كتب بعض الصحابة والتابعين المعاني الآتية في تفسير هذا اللفظ:

ابن عباس رضي الله عنهما: هو من يرجع إليه الناس وقت المصيبة.

الإمام الحسن البصري ﷺ: هو الحي القيوم الباقي والغير فان.

ربيع بن أنس ﷺ: هو من لا ولد له ولا أم ولا أب.

عبد الله بن مسعود ﷺ: هو من ليس له معدة وغيره من الأعضاء الجسمانية.

بريده ﷺ: هو من لا يخشى أحدا.

عكرمة ﷺ والشعبي ﷺ: هو من لا يأكل.

عكرمة ﷺ: هو من لا يخرج منه شيء آخر.

قتادة ﷺ: هو الباقي والغير فان.

والحقيقة هي أن هذه المعاني كلها[2] مستترة في هذا اللفظ، وجميعها تعبيرات مختلفة لحقيقة واحدة، فقد ذكرنا آنفا أن المعنى الأصلي لهذا اللفظ هو الصخرة، التي تكون ملاذا ومأوى وقت المصائب والقتال. وللفظ "الصمد" أيضًا هذه الأهمية البالغة في الإلهيات الإسرائيلية. وقد ورد لفظ الصخرة دلالة على مكان اللجوء والملاذ في صحف بني إسرائيل.(سفر التثنية، الإصحاح٣٢، الفقرتان ٣٠، ٣١).

---

١ - الإمام البيهقى، كتاب الأسماء والصفات صـ٤٣ (بسند).

٢ - للتعرف على هذه المعاني انظر كتاب الأسماء،البيهقي، صـ٤٣، مفردات القرآن، راغب الأصفهاني، وابن جرير الطبري، وابن كثير، وتفسير سورة الإخلاص لابن تيمية.

"لولا أن صخرهم باعهم والرب سلمهم* لأنه ليس كصخرنا صخرهم".[1]
إن استخدام لفظ الصخرة هنا في حقيقة الأمر كناية عن مدد ونصرة الله، وتتغير هذه الكناية في سفر صموئيل الأول إلى "ليس قدوس مثل الرب.لأنه ليس غيرك وليس صخرة مثل إلهنا"[2] (الإصحاح٢، الفقرة٢).

ورد في هذه السورة الكريمة – سورة الإخلاص- لفظان في صفة الله تعالى، وهما "أحد" و "الصمد"، وكلاهما يضم صفتين كماليتين متضادتين لله تعالى، فنتج عن وحدانيته سبحانه وتعالى أنه ليس كمثله شيء، وأنه ليس في حاجة إلى أي شيء، وهو واحد، لا مثيل له، منزه(عن العيوب)، مستغن، غني عن العالمين، ومستقل عن كل شيء، ولكن مع كمال الوحدانية هذا، هو معين ومساعد للجميع، وملاذ للجميع، والكل محتاج إليه، وهو مركز للجميع ومرجع للجميع، ومأوى وملجأ وملاذ للناس جميعًا يلجئون إليه في كل المصائب والابتلاءات. يقول الله تعالى:﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ (الذاريات:٥٠).

إن هذه السورة الكريمة تضم شُعب التوحيد الإسلامي كلها، ولذا فهي تعدل ثلث القرآن الكريم. كان هناك صحابي يقرأ هذه السورة الكريمة في آخر كل قراءة من ركعتي كل صلاة، وبيَّن الناس هذا الأمر لرسول الله ﷺ فقال: «سَلوه لأيِّ شيءٍ يَصنعُ ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أخبروه أنَّ الله يُحبهُ»[3] وكان هناك

---

[1] – وهذا نص الفقرتين كاملتين من سفر التثنية، الإصحاح ٣٢ "كيف يطرد واحد ألفًا ويهزم اثنان ربوة لولا أن صخرهم باعهم والرب سلمهم* لأنه ليس كصخرنا صخرهم ولو كان أعداؤنا القضاة" (يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الفقرة كاملة من سفر صموئيل الأول، الإصحاح الثاني، الفقرة الثانية: " لولا أن صخرهم باعهم والرب سلمهم* لأنه ليس كصخرنا صخرهم"(يوسف عامر).

[3] – صحيح البخاري كتاب التوحيد. وهذا نصها: (٧٢١٠) حدَّثنا أحمدُ بن صالحٍ، حدَّثنا ابن وَهبٍ، حدَّثنا عمرُو عنِ ابن أبي هلال أنَّ أبا الرِّجال محمدَ بن عبدِ

صحابي آخر من الأنصار يؤم الناس في صلاتهم فاعترض عليه المأمومون من الصحابة رضوان الله عليهم فقال:"ما أنا بتاركها، إن أحببْتم أن أؤمّكم بذلك فعلتُ، وإن كرهتم تركتُكم" .فذكر الناس هذه الواقعة للنبي ﷺ، فاستفسر النبي ﷺ منه عن سبب هذا، فقال: إني أُحبُّها. قال ﷺ: «حُبُّكَ إيّاها أدخلَكَ الجنّةَ».[1] كان قتادة بن النعمان الصحابي الجليل يكرر قراءة هذه السورة الكريمة طوال الليلة ويستمتع

الرحمن حدَّثه عن أمه عمرةَ بنتِ عبد الرحمن ـ وكانت في حجر عائشة زوج النبيِّ صلى الله عليه وسلم ـ «عن عائشة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بَعثَ رجلاً على سَرِيةٍ وكان يَقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هوَ اللهُ أحد، فلما رَجعوا ذكروا ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: سَلوه لأيِّ شيءٍ يَصنعُ ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحبٌّ أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أخبروه أنَّ اللهَ يُحبهُ».(يوسف عامر).

1 - صحيح البخاري كتاب الصلاة، وهذا نص الحديث: (٧٦٦) ــ وقال عُبَيدُ الله بن عمر عن ثابتٍ عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه: «كان رجلٌ من الأنصار يَؤُمُّهم في مسجد قُباء، وكان كلَّما افتَتَحَ سورةً يَقرأُ بها لهم في الصلاةِ مما يقرأُ به، افتَتَحَ بقُل هوَ اللهُ أحد حتّى يَفرُغَ منها، ثمَّ يقرأُ سُورةً أخرَى معها، وكان يَصنَعُ ذلكَ في كلِّ ركعةٍ،، فكلَّمهُ أصحابُهُ فقالوا: إنَّكَ تَفتَتِحُ بهٰذِهِ السورةِ ثمَّ لا تَرى أنَّها تُجزئُكَ حتى تَقرَأَ بأُخرَى، فإمّا أن تَقرَأَ بها وإما أنْ تَدعَها وتَقرَأَ بأُخرَى، فقال: ما أنا بتاركِها، إن أحبَبْتُم أن أؤمكم بذٰلكَ فعلتُ، وإن كرِهْتم تَركتُكم. وكانوا يَرَونَ أنَّهُ مِن أفضلِهم وكرِهوا أن يَؤُمَّهم غيرهُ ــ فلما أتاهمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أخبرَوهُ الخبرَ، فقال: يا فلانُ، ما يمنعُكَ أن تفعلَ ما يأْمُرُكَ به أصحابُكَ، وما يَحملكَ عَلَى لُزومِ هٰذِهِ السورة في كلِّ ركعةٍ؟ فقال: إني أُحبُّها. فقال: حُبُّكَ إيّاها أدخلَكَ الجنَّةَ». (يوسف عامر).

بقرّاءتها، فأخبر الناس النبي ﷺ بهذا،فقال ﷺ:«والذي نفس بيده، لتعدل نصف القرآن أو ثلثه». [1]

لك أن تقارن بين الظلام والضلال الذي كان قد ساد بلاد العرب قبل الإسلام، وهذا النور والهداية التي سادت بلاد العرب عن طريق محمد ﷺ.

ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أكثر من مائة اسم لله تعالى، فجاء في صحاح الحديث أن النبي ﷺ قال:«إن للّه تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخلَ الجنَّة»[2] «إِنَّهُ وِتْرٌ. يُحِبُّ الْـوِتْرَ».[1] إن الجملة

---

[1] مسند أحمد بسند أبي سعيد الخدري. وهذا نص الحديث: (١٠٨٨٥) حدّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبانا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: «بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله {قل هو الله أحد} فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفس بيده، لتعدل نصف القرآن أو ثلثه».(يوسف عامر).

[2] – صحيح البخاري، كتاب التوحيد، وهذا نصه: (٧٣٢٦) حدَّثنا أَبو اليمان أخبرَنا شعيبٌ حدَّثنا أبو الزِّناد عن الأعرج «عن أبي هريرةَ أنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: إن للّه تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخلَ الجنَّة». أحصيناه: حفِظناه.(يوسف عامر). وصحيح مسلم، كتاب الذكر، وهذا نصه: (٦٧٦١) حدّثني مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِنَّ للّه تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً. مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً. مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». وَزَادَ هَمَّامٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ «إِنَّهُ وِتْرٌ. يُحِبُّ الْوِتْرَ». (يوسف عامر). ومسند احمد بسند أبي هريرة، وهذا نصها: (٧٥٨٨) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا مَعْمَر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، وعن همام بن مُنَبه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إن للّه تسعةً وتسعين إسماً، مائةً إلاَّ

واحداً، مَنْ أحصاها دَخَل الجنة»(يوسف عامر). وجامع الترمذي، وهذا نصه: (٣٦٤٤) حدثنا يُوسُفُ بنُ حَمَّادٍ البَصْرِيُّ، أخبرنا عَبْدُ الأَعْلَى عَن سَعِيدٍ عَن قَتَادَةَ عَن أَبي رَافِعٍ عَن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه عَن النبيِّ قَالَ: «إنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مائَةً غير وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاها دَخَلَ الْجَنَّةَ» .قالَ يُوسُفُ، وَأخبرنا عَبْدُ الأَعْلَى عَن هِشَامِ بنِ حَسَّانَ عَن محمّدِ بنِ سِيرِينَ عَن أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَن النبيِّ بِمِثْلِه. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ وَقَد رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَن أبي هُرَيْرَةَ عَن النبيِّ .(يوسف عامر). والنسائي، وابن ماجه، وهذا نصه: (٣٩٤٤) حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ: «إِنَّ لِلَّـهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً. مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً. مَنْ أَحْصَاهَا دَخَـلَ الْجَنَّـةَ».(يوسف عامر). وابن خزيمة، وأبو عوانة، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي وغيرهم.

[1] - وهذا نص الرواية كما وردت في صحيح مسلم: (٦٧٦١) حدّثني مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً. مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً. مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». وَزَادَ هَمَّامٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ «إِنَّهُ وِتْرٌ. يُحِبُّ الْوِتْرَ».(يوسف عامر). وورد فى صحيح ابن حبان: (٧٨٥) ـــــ أخبرنا الحسنُ بنُ سفيانَ، و محمد بنُ الحسن بن قتيبة، و محمد بن أحمد بن عبيد بن فياض بدمشق، واللفظ للحسن، قالوا: حدثنا صفوانُ بنُ صالح الثقفي، قال: حدثنا الوليدُ بنُ مسلم، قال: حدثنا شعيبُ بن أبي حمزة، قال: حدثنا أبو الزّناد، عن الأعرج عن أبي هُريرة قال: قال رَسُولُ اللَّهِ : «إنَّ للَّه تسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً، مِئَةً إلَّا وَاحِداً، إنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ... هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ، الرَّحِيمُ، المَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، المُؤْمِنُ، المُهَيْمِنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، المُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِىءُ، الْمُصَوِّرُ، الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ، الْوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ،

الأخيرة توضح علة كون الأسماء تسعة وتسعين اسما وليس مائة اسما، فلو كانت السماء مائة اسما، لما تحقق الوتر، ولا يتضح به رمز التوحيد. ولم يرد في الأحاديث الصحيحة هذا العدد (من الأسماء) أي أنه لم يُصرح بتسعة وتسعين اسما، ورد في الترمذي وبعض الأحاديث الضعيفة عدد هذه الأسماء ولكن المحدثين عموما ومنهم الحافظ ابن حجر كتبوا أن هذه الروايات ضعيفة، كما أن فيها تكرارا لهذه الأسماء، وتوجد بها أسماء لم يرد ذكرها في القرآن الكريم، ولا توجد بها بعض الأسماء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، لذا فالقول الفصل للعلماء في هذا هو أن الرواة كتبوا الأسماء في هذه الروايات بفضل تحقيقيهم هم أنفسهم، وعليه فلا شبهة من هذه الروايات في أن أسماء الله تعالى محصورة في هذه التسعة والتسعين اسما فقط، بل صرح كبار الأئمة والمحدثين من مثل عبد العزيز بن يحيى، وأبو بكر بن العربي، والإمام النووي، والحافظ ابن حجر، والإمام الخطابي، الإمام ابن تيمية، والقرطبي وغيرهم أن أسماء الله تعالى ليست محصورة في التسع والتسعين اسما هذه، كما وردت تصريحات أخرى أيضًا تنص على أنه لا حد لأسماء الله تعالى وصفاته،[1] واستدل المحدثون على هذا

الْخَافِضُ، الرَّافِعُ، الْمُعِزُّ، المُذِلُّ، السَّمِيعُ، البَصِيرُ، الْحَكَمُ، العَدْلُ، اللَّطِيفُ، الْخَبِيرُ، الْحَلِيمُ، العَظِيمُ، الغفُورُ، الشَّكُورُ، العَلِيُّ، الكَبِيرُ، الْحَفِيظُ، المُقِيتُ، الْحَسِيبُ، الْجَلِيلُ، الكَرِيمُ، الرَّقِيبُ، الْوَاسِعُ، الْحَكِيمُ، الْوَدُودُ، المجيدُ، المجيبُ، البَاعِثُ، الشَّهِيدُ، الْحَيُّ، الْوكِيلُ، القَوِيُّ، المَتِينُ، الْوَلِيُّ، الْحَمِيدُ، المُحْصِي، المُبْدِىءُ، المُعِيدُ، المُحيي، المُمِيتُ، الْحَيُّ، القَيُّومُ، الوَاجِدُ، المَاجِدُ، الوَاحِدُ، الأَحَدُ، الصَّمَدُ، القَادِرُ، المُقْتَدِرُ، المُقَدِّمُ، المُؤَخِّرُ، الأوَّلُ، الآخِرُ، الظَّاهِرُ، الباطِنُ، المُتَعَالِ، البَرُّ، التَّوَّابُ، المُنْتَقِمُ، العَفُوُّ، الرَّؤُفُ، مَالِكُ المُلْكِ، ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، المُقسِطُ، المَانِعُ، الغَنِيُّ، المُغْنِي، الْجَامِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، النُّورُ، الْهَادِي، البَدِيعُ، البَاقِي، الوَارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ». (١:٢) (يوسف عامر).

[1] – تمهيد أبي الشاكور السالمي، القول الثالث في عدد الأسماء، وهذا كتاب معروف يعتد به عند الماتريدية.

بروايات ابن مسعود ﷺ والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها والتي ذكرناها في بداية الحديث عن هذا الموضوع.

علي أي حال أخبر العلماء بتدبرهم في القرآن الكريم وتتبعهم للأحاديث النبوية الصحيحة بالتسعة والتسعين اسما، ثم فصلوها وحصروا كل اسم على حدة. وهذه الأسماء كلها إما أن تكون قد وردت في القرآن الكريم كعَلَم أو كصفة، وإما أن تكون منسوبة إلى الله تعالى كأفعال، وإما أن يكون الرسول أخبر بها في الأدعية. ونحن هنا ندرج هذه الأسماء بالترتيب، ونفسر معناها اللغوي بإيجاز، حتى يتضح التصور والتخيل عن الله تعالى والعقيدة التي علمها ووضحها محمد رسول الله ﷺ لأتباعه، وكم هو سبحانه عالٍ، ومحيط بكل شيء، ومنزه عن كل العيوب. وقد رتب العلماء هذه الأسماء أو الصفات طبقًا لمعان مختلفة، ولكننا هنا قسمناها إلى ثلاث مراتب فقط:الأولى: الأسماء أو الصفات التي يتضح منها رحمته وكرمه وعفوه عز وجل أي الصفات الجمالية. والثانية: تلك الصفات والأسماء التي يتضح منها ملوكه وجلاله وجبروته وحكومته وسيطرته عز وجل(على كل شيء) ونطلق على هذه الصفات مسمي الصفات الجلالية. والمرتبة الثالثة: هي تلك الأسماء أو الصفات التي تُثبت تنزيهه، وجامعيته، ورفعته وكماله، وكل نوع من أنواع الصفات الحسنة والمحامد الرفيعة، ونطلق على هذه الصفات مسمى الصفات الكمالية.

خلاصة القول هو أن أسماء الله تعالى وصفاته كلها تفسير لهذه العناوين الثلاثة، أي التي منها تظهر رحمة الله تعالى وكرمه، أو جاهه وجلاله عز وجل، أو إثبات كماله ورفعته وتنزيهه.

الصفات الجمالية

هي تلك الأسماء والصفات التى تظهر رحمة الله تعالى وكِرمه وعطفه.

- **الله**: هو اسم الله الذي ورد في القرآن الكريم كعَلَم في كل موضع، وكان يستخدم للدلالة على الله الحق عند العرب قبل الإسلام. واختلف كثيرا في تحقيق هذا اللفظ لغويا، فقال بعضهم: إنه يعنى الموجود الذى يُعبد. وقال غيرهم: هو من يحتار ويعجز العقل الإنساني عن معرفة حقيقته. وقال

آخرون: إن هذا الاسم يعنى من يعطف ويشفق على مخلوقاته كعطف وشفقة الأم بأطفالها. وبناء على هذا المفهوم الأخير يعنى لفظ الجلالة "الله" المحب أو المحبوب.

- **الرحمن:** هو الاسم أو الصفة الثانية بعد "الله" الذي حصل على صفة العلم، ويعني "الراحم". وقد مر أن لفظ "الرحمن" كان مستخدما عند مسيحي العرب فقط قبل الإسلام. وكان اسم "الله" مستخدما عند عامة العرب، وعبَّر القرآن الكريم في بدايات كل سورة وكذلك في مواضع أخرى عن الله بالرحمن، وهذا في الحقيقة بدل ومبدل منه، وفيه إشارة إلى أن لفظ الله الذي كان يستخدمه عامة العرب، ولفظ الرحمن الذي كان يستخدمه مسيحيو العرب كلاهما واحد يعبران عن ذات واحدة، وكلاهما اسمان لموجود واحد، لذا دعيت الأمم على اختلافها إلى الوحدانية. يقول الله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**﴾ (الإسراء: ١١٠)
- **الرحيم:** مشتق من لفظ "رحم"، وهو المكان الذي يولد منه. وبناء على الأصل اللغوي لهذا اللفظ يتضح منه أيضا عاطفة الحب والتربية. إن "الرحمن" و "الرحيم" صفتان منورتان صفحات القرآن الكريم كلها، وإن ما حدث للكائنات وما يحدث وما سيحدث ما هو إلا نتيجة لهاتين الصفتين، وهما ظاهران، بينان في الدارين.
- **الرب: يعنى المسئول عن نشأة وتطور المخلوقات فى كل لحظة منذ بداية الخلق إلى النهاية.**

اللطيف	**العَفُو**	**الودود**	**السلام**
المحب	**المؤمن**	**الشكور**	**الغفور والغفار**
الحفيظ والحافظ	**الوهاب**	**الرازق والرزّاق**	
الولي	**الرءوف**	**المقسط**	**الهادي**
الكافي	**المجيب**	**الحليم**	**التواب وقابل**
التوب	**الحنان**	**المنان**	**النصير**

ذو الطول	**ذو الفضل**	**الكفيل**	**الوكيل**
المقيت	**المغيث**	**المجير**	**المغنى**

الصفات الجلالية

هي الأسماء والصفات التي تظهر عظمة الله تعالى وكبرياءه وملوكيته. وهي:

الملك والمليك	**العزيز**	**القاهر والقهار**	**المنتقم**
الجبار	**المهيمن**	**المتكبر**	**شديد العقاب**
شديد البطش			

حكمة

ورد ذكر صفات الله تعالى الجلالية كثيرًا فى التوراة، ولكن هذه الصفات لم تأت فى القرآن الكريم وحدها؛ بل جاءت مقترنة دائما بصفات **العادل، والحكيم، والعليم**، حتى يزول تماما سوء الفهم الإنساني فى أن الهدف من صفات الله تعالى هذه هو (نعوذ بالله) أن يفعل ما يشاء كمن لا يبالي فى لحظة واحدة، ولكن **قهره سبحانه، وغلبته، وانتقامه، وقبضته عز وجل** كل هذه الصفات تقوم على العدل والحكمة والخير، وهنا تزول شبهة القسوة والظلم عن الصفات الجلالية. يقول الله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**﴾(آل عمران:١٨٢)

لذا ورد فى القرآن الكريم اقتران صفة العزيز بالحكيم دائما، وهذا هو السبب فى ورود عذاب الله تعالى مقترنا بصفة الرحمة فى القرآن الكريم دائما أيضا، كما اقترن كذلك الحديث عن جهنم أو النار بذكر الجنة.

وحيثما ورد قوله تعالى " ... **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ**" (سورة ص: ٦٥) ورد أيضا قوله تعالى " **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ**" (سورة ص: ٦٦)، وحيثما ورد ذكر هلاك الأمم ورد قوله تعالى:﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ**﴾ (غافر:٣١).

حيثما ورد ذكر صفته عز وجل "ذو عقاب اليم"، ورد قبلها" لذو مغفرة". يقول الله تعالى:﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (فصلت:٤٣). خلاصة القول هو أنه عند ذكر الصفات الجلالية ذُكرت الصفات الجمالية لله قبلها أو بعدها حتى يتضح عطفه ولطفه وكرمه عز وجل بجانب الخوف منه وخشيته سبحانه.

الصفات الكمالية

هى تلك الأسماء والصفات التي بها تتضح عظمة الله، وكبرياءه، وكل صفة فيها كمال له سبحانه. وتنقسم هذه الأسماء والصفات إلى خمسة أقسام:

الأول: الأسماء والصفات التي تتعلق بوحدانيته عز وجل.

الثاني: الأسماء والصفات التي تتعلق بوجوده.

الثالث: الأسماء والصفات التي تتعلق بعلمه.

الرابع: الأسماء والصفات التي تتعلق بقدرته.

الخامس: الأسماء والصفات التي تتعلق بطهارته وتنزيهه(عن كل العيوب).

صفات الوحدانية

هى الصفات التي تبين وحدانية الله تعالى، ومخالفته للحوادث. وهي:

الواحد الأحد الوتر

صفات وجوده سبحانه

هى الصفات التي بها يتضح وجوده عز وجل وبقائه ودوامه وأزليته وأبديته. وهي

الموجود	**الحي**	**القديم**	**القيوم**
الباقي	**الدائم**	**الأول**	**الآخر**
المقدم	**المؤخر**	**الظاهر**	**الباطن**

صفات العلم

هى الصفات التي تُظهر أنه سبحانه وتعالى خبير وعليم بكل شيء. وهي:

الخبير العليم علام الغيوب عليم بذات الصدور السميع البصير المتكلم

الواجد	الشهيد	الحسيب	المحصى
المدبر	الحكيم	المريد	القريب

صفات القُدرة

هي صفات بها تتضح سعة قدرته تعالى. وهي:

الفاتح والفتاح	القدير والقادر		المقتدر
القوى	المتين	الجامع	الباعث
مالك الملك	البديع	الواسع	المحيط
المحي والمميت	القابض والباسط		المعز والمذل
الخافض والرافع	المعطى والمانع النافع والضار		
المبدئ والمعيد.			

حكمة

استخدمت الصفاتُ التي قد يوحى ظاهرها بالسوء مثل "الضار" و"المذل" و"الخافض" و"المانع" مقترنة بما يقابلها من صفات حتى لا يحدث أي نوع من أنواع إساءة الفهم، فاستخدمت صفة "الضار" مقترنة بصفة "النافع" وصفة "الخافض" مقترنة بـ" الرافع" وصفة "المانع" مقترنة بـ "المعطى" وصفة "المذل" مقترنة بصفة "المعز". وذكرنا سابقًا أنه روعي استخدام مثل هذه الصفات في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، إذ إن "الضار" و"المذل" و"المانع" ليست صفات جميلة، ولكن الجمال هو أن "الضار" هو "النافع" و"الخافض" هو "الرافع" و"المذل" هو "المعز" و"المانع" هو "المعطي". والهدف من هذا سعة قدرة الله تعالى، فلو أن هناك نافعا، ولكنه لا يملك القدرة على الضرر، أو أن هناك معزا ليس في مقدوره الإذلال، فسيكون مجبورا على منح العزة والنفع.ولن يكون هذا كمال لقدرته، وإن من يملك قدرة الضرر والنفع، وقدرة الذل والعزة يُقر كل شخص بكماله.

الصفات التنزيهية

وهي تلك الصفات التي تُظهر عظمته وكبريائه وقدسيته وتنزهه عن كل عيب ونقص.

العلي	الماجد	العظيم	الحميد
الكبير	القدوس	الرفيع	الحق
الجليل	الجميل	الكريم	البر
الغني	العدل	الصادق	السُبُّوحُ
	الصمد		الرشيد

أثر تلك التعليمات فى الأخلاق الإنسانية

إن عقيدة أسماء الله تعالى وصفاته ليست نظرية محضة في الإسلام بـل لها مكانة عملية أيضًا، أي أن محامده وصفاته هذه معيار للأخـلاق الإنـسانية. يمكن للإنسان أن يتصف بصفات الله تعالى ومحامده سوى الـصفات الخاصـة بالمولى عز وجل، والتي تفوق طاقة وطبيعة العبد، لذا ففرض على الإنـسان إذا أراد إيجاد علاقة مع الله أن يوجد بداخله علاقة مع هذه المحامد والصفات، وعليه أن يسعد بتتبع ومحاكاة هذه الصفات والمحامد محاكاة كاملة. فالمحامـد الإلهيـة كورقة خطية تدريبية لأستاذ عظيم يراها تلميذ ويرغب في تحسين خطــه؛ لهـذا يجب على الإنسان أن يمعن النظر في هذه الورقة الخطيـة التدريبيـة للأسـتاذ الأزلي في كتابة حروفه (نزول المحامد الإلهية) حتى يعلم درجة تدريبه الـذاتي طبقًا للورقة الأصلية التدريبية.

وقد مر أن أول درس للقرآن الكريم هو جعل ابـن آدم خليفـة الله فـي الأرض بأمر ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ (البقرة: ٣٠) وكلما تتضح صفات ومحامد الأصل بين الخليفة والنائب، كلما يثبت (النائب) استحقاقه لهذا المنـصب وهذه المكانة، ويستطيع أن يقوم بفروض النيابة والخلافة علـى أفـضل وجــه، ويتضح فيه التجلى حين يُصبغ بالصبغة الإلهية. يقول الله تعالى:﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**﴾ (البقرة: ١٣٨).

ويتفق المفسرون جميعًا على أن المقصود من صبغة الله هذه هو "دين فطرة الله".

وقد ورد آنفاً حديث وهو: «**خَلَقَ اللّهُ آدمَ على صورته**»[1] وقد مر في تفسيره أن المقصود من لفظ الصورة هنا ليس الصورة الجسمانية، ولكنها الصورة والشكل المعنوى، أي أن الله تعالى قد أودع عكس صفاته الكاملة في الإنسان، ومنحه أهلية تقبلها، كما منحها استعداد الرقي إلى الحد البشري، ومنح الإنسان شبها بالملأ الأعلى في الأخلاق والصفات، وتشابها في الجوهر وهذا هو الهدف من قول الصوفية والخاصة: «**تخلقوا بأخلاق الله**»، وقد ورد هذا المفهوم ذاته بتلك الألفاظ في حديث برواية الطبراني «**حسن الخلق خلق الله الأعظم**»[2].

ولقد وضح سالفًا أن صفات الله تعالي الكاملة على ثلاثة أقسام: صفات جلالية، وصفات كمالية، وصفات تنزيهية. والصفات الجلالية هي صفات الكبرياء، والعظمة، والملوكية، والتي هي صفات خاصة بالله تعالى، لا يتصف بها أحد سوى الله تعالى. وهذه الصفات لا تتفق ومرتبة العبودية، في مقابلها يوجد في العباد صفاتها المضادة أي العجز، والتواضع، والمسكنة والانكسار؛ لذا حُرّم الغرور، والتكبر، والترفع، ومن ثم اختار آدم عليه السلام التواضع والعجز، واعترف بذنبه، فغُفر له، أما الشيطان فقد ترفع وتكبر، لذا استحق لعنة الله تعالى الخالدة. يقول الله تعالى: ﴿**أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: ٣٤).

فالعظمة والكبرياء في القرآن الكريم لله وحده فقط فلا يتصف بها أحد سواه. يقول الله تعالى:

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٠٨٤) حدَّثنا يحيى بنُ جعفر حدَّثنا عبدُ الرزّاق عن مَعْمر عن همام عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «خَلَقَ اللّهُ آدمَ على صورته، طولهُ ستون ذراعاً. فلما خَلَقَهُ قال: اذهَبْ فسلِّمْ على أُولئكَ نفَرٍ من الملائكةِ جُلوسٍ، فاستمعْ مايُحيُّونَكَ، فإنها تحيَّتُك وتحية ذرِّيتك. فقال: السلامُ عليكم، فقالوا: السلامُ عليكَ ورَحمةُ اللّه، فزادوه ورحمة اللّه. فكلُّ من يَدخلُ الجنةَ على صورةِ آدم، فلم يزلِ الخلقُ يَنقصُ بعدُ حتى الآن». (يوسف عامر).

[2] كنز العمال، ج ١٢، صـ ٢، برواية عمار بن ياسر.

﴿وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الجاثية: ٣٧)

روي في صحيح[١] مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وصحابيين أن رسول الله (ﷺ) قال: «الْعِزُّ إِزَارُهُ. وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ. فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ» وفي رواية أخرى أن الرسول (ﷺ) قال: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ، رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاَكِ. لاَ مَلِكَ إِلاَّ اللَّهُ»[٢] يقول الله تعالى: ﴿العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ﴾ (الحشر: ٢٣). فله سبحانه العظمة. غير أن الله ينزل فيضان عزته وجلاله وقوته وجبروته على بعض العباد والأمم ويهبهم الطاقة والقوة والملك وبعد هذا الكرم ففرض على المؤمنين والأمم الصالحة أن يسجدوا له سبحانه ويعبدوه حق عبادته، وتنحني الرؤوس أمامه احتياجا له سبحانه، فالعزة والجلال لله تعالى فقط. وقد فاض جلال الله تعالى وعظمته على الرسول، وعن طريقه ﷺ فاض على المؤمنين. وقد ورد هذا الترتيب فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)

روي في مستدرك الحاكم عن أبي هريرة ﷺ أن لله تعالى ثلاثة أثواب، يربط إزار عزته وجلاله، ويرتدي رحمته الجامعة، ويلبس رداء كبريائه،

---

[١] كتاب الأدب، باب الكبر، ج ٢، صـ ٤٠٠، مصر. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر: (٦٦٣٢) حدّثنا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ الأَزْدِيُّ. حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ. حدَّثنا أَبِي. حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ. حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَقَ عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الأَغَرِّ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ. وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ. فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ».(يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري، وهذا نصها: (٦٠٦٣) حدّثنا عليُّ بنُ عبدِ الله: حدّثنا سُفيان، عن أبي الزّناد، عن الأعْرَج، عن أبي هريرة رواية قال: «أَخْنَعُ اسمٍ عِنْدَ الله». وقال سُفيانُ غيرَ مرَّةٍ: «أَخْنَعُ الأَسْماءِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تسمَّى بملكِ الأَمْلاكِ» قالَ سفيانُ: يقولُ غيرُهُ: تَفْسيرُهُ شَاهانْ شَاه. (يوسف عامر). ومسلم، كتاب الأدب. وهذا نصها: (٥٥٦٦) حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ. قَالَ: هَـٰذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللّهِ. فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ، رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلاَكِ. لاَ مَلِكَ إِلاَّ اللّهُ».(يوسف عامر).

فالشخص الذي يريد العزة دون هذه العزة التي مُنحت إياه من قبل الله تعالى، فهو ذلك الشخص الذي سيُقال له يوم القيامة: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان: ٤٩). ومن يرحم الناس يرحمه الله، لأنه لبس هذا الرداء فكان له جائزا، ومن يتكبرفهو يريد نزع رداء الله هذا، الذي كان لله تعالى[١].

والوحدانية والأزلية والأبدية صفات خاصة لله تعالى وحده من بين صفاته تعالى الكمالية وحرمت منها سائر المخلوقات، أما بقية الصفات الكمالية فيتشرف بها الإنسان. أما الصفات التنزيهية مثل القدرة، والعلم، والسمع، والبصر، والكلام وغيرها فسائر المخلوقات محرومة منها أيضاً، وتنزههم يعني أن يبتعدوا تماما عن عصيان الله تعالى ومخالفته سبحانه.

إن صفات الله تعالى الجمالية صفات أصلية، تفتح باب فيضانها لكل من يتسم بالتوفيق والأهلية، وأعظم مظهر لهذه الصفات هو العفو والصفح. وقد ورد فى الدعاء العام للمسيحيين "اللهم ! اغفر لنا ذنوبنا كما نعفو نحن عن مدينينا". غير أن الإسلام لم يجز هذا التشبيه المعكوس؛ ففي الإسلام: يا أيها الإنسان أعف عن المسيئين لك يغفر الله ذنوبك. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... مَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [٢].

ويأمرنا القرآن الكريم بالعفو عن الآخرين حتى يعفو الله تعالى عنا. يقول الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُواً قَدِيراً﴾ (النساء: ١٤٩).

ذات مرة أقيمت محكمة في عهد النبوة، وعُوقب المجرمُ، فتغير وجه النبي ﷺ بمشاهدة هذا الحال، فسأل الحاضرون عن السبب، فقال رسول الله ﷺ:

---

[١] كنز العمال، ج ٢، صـ ١٧٩، ومستدرك الحاكم.

[٢] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة. وهذا نصه: (٦٥٣٠) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ. حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ. مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ. وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (يوسف عامر).

«والله عزّ وجلّ عفوّ يحب العفو. ولا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحدّ إلا أقامه، ثم قرأ { وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم }». [١].

كان رسول الله (ﷺ) ذات مرة يقول في جمع من الصحابة: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**» [٢] فهذا ليس كبرًا فالكبر الحق هو الإفساد وقهر البشر. وروى هذا الحديث في كتب أخرى بألفاظ تعني أن «الله جميل يحب الجمال، وإن الله عزّ وجلّ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». [٣] وورد فى رواية: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ

---

[١] مستدرك الحاكم، مجلد ٤، صـ ٣٨٢، كتاب الحدود. وقد ورد في مسند الإمام أحمد: (٣٩٧٦) حدثنا عبد الله حدَّثني أبي ثنا يحيى بن آدم ثنا سفيان عن يحيى بن عبد الله الجابر التيمي عن أبي الماجد قال: « جاء رجل إلى عبد الله فذكر القصة، وأنشأ يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن أول رجل قطع في الإسلام أو من المسلمين رجل أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله، إن هذا سرق، فكأنما أسف وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماداً، فقال بعضهم: يا رسول الله، ـ أي يقول ـ: مالك ؟ فقال: وما يمنعني وأنتم أعوان الشيطان على صاحبكم، والله عزّ وجلّ عفوّ يحب العفو، ولا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحدّ إلا أقامه، ثم قرأ { وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم } ». قال يحيى: أملاه علينا سفيان إملاء. (يوسف عامر).

[٢] صحيح مسلم كتاب الإيمان، والترمذي، باب الكبر. وهذا نص حديث صحيح مسلم: (٢٢٥) وحدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّار وَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ دِينَارٍ جَمِيعا عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ حَمَّادٍ. قَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنِي يَحْيَىٰ بْنُ حَمَّادٍ. أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبَ عَنْ فُضَيْلٍ الْفُقَيْمِيِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».(يوسف عامر).

[٣] كنز العمال، كتاب الزينة بالإشارة إلى شعب الإيمان للبيهقي. وورد فى مسند الإمام أحمد: (٨٠٦٣) حدّثنا عبد الله، ثنا أبي، ثنا يحيى بن آدم، ثنا شريك، عن ابن موهب، عن أبيه، عن أبي هريرة رفعه قال: «إن الله عزّ وجلّ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». (يوسف عامر).

النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ»[1] وروى أيضًا بألفاظ تعني «إن الله جميل يحب الجمال يحب محاسن الأخلاق ويبغض ذميم الأخلاق»[2]. وفي ذات مرة نصح النبي (ﷺ) السيدة عائشة رضي الله عنها باللطف إذ إن الله لطيف، يحب اللطف في كل الأمور.[3] وقال في خطبة له (ﷺ): «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً»[4]. وخاطب عامة المسلمين وقال: «يَاأَهْلَ الْقُرْآنِ أَوْتِرُوا فَإِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ» [5]

---

[1] كنز العمال، كتاب الزينة نقلا عن الكامل لابن عدى. وورد في سنن الترمذي، باب ما جاء في النظافة: (٢٨٧٧) حدثنا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، أخبرنا أَبُو عَامِرٍ العقدي، أَخبرنا خَالِدُ بنُ إِلْيَاسَ، عن صَالِحِ بنِ أَبِي حَسَّانَ، قالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بنَ المُسَيَّبِ، يَقُولُ: «إِنَّ الله طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، فَنَظِّفُوا ــ أُرَاهُ قالَ ــ أَفْنِيَتَكُمْ، وَلاَ تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ، قالَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِمُهَاجِرِ بنِ مِسْمَارٍ، فَقَالَ حَدَّثَنِيه عَامِرُ بنُ سَعْدِ بن أبي وقاص عن أَبِيهِ، عن النبيِّ مِثْلَهُ إِلاَّ أَنَّهُ قالَ نَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ».
قال أبو عِيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ. وَخَالِدُ بنُ إِلْيَاسَ يُضَعَّفُ وَيُقَالُ ابنُ إِيَاسٍ. (يوسف عامر).

[2] المعجم الوسيط للطبراني.

[3] صحيح مسلم، وأبو داود، والحاكم، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي في الأدب.

[4] صحيح مسلم، كتاب الصدقات، والترمذي في تفسير سورة البقرة. وهذا نصه كما ورد في سنن الترمذي: (٣٠٨٣) حدثنا عبد بنُ حُمَيْدٍ أخبرنا أَبُو نُعَيْمٍ أخبرنا فُضَيْلُ بنُ مَرْزُوقٍ عن عَدِيِّ بنِ ثَابِتٍ عن أَبي حَازِمٍ عن أَبي هُرَيْرَةَ، قالَ: قالَ رَسولُ الله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّباً، وَإِنَّ الله أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِه المُرْسَلِينَ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِني بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} وَقَالَ: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} قالَ: وَذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبَهُ حَرَامٌ. وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ».
قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وَإِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ فُضَيْلِ بنِ مَرْزُوقٍ. وَأَبُو حَازِمٍ هُوَ الأَشْجَعِيُّ اسْمُهُ سَلْمَانُ مَوْلَى عَزَّةَ الأَشْجَعِيَّةِ. (يوسف عامر).

[5] – أبو داود، باب استحباب الوتر وهذا نص الحديث: (١٤١٧) حدثنا إِبراهِيمُ بنُ مُوسَى أَنبأنا عِيسَى عن زَكَرِيَّا عن أَبي إِسْحَاقَ عن عَاصِمٍ عن عَلِيّ، قال قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «يَاأَهْلَ الْقُرْآنِ أَوْتِرُوا فَإِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ». (يوسف عامر).

إن الرحمة والشفقة صفقتان خاصتان بالله تعالى، ويستحق أن يتصف بهما كل من يرحم ويشفق على الآخرين. قال الرسول ﷺ «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَٰنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُم مَنْ في السَّماءِ» (أبو داود، باب الرحمة")[١]. أمر الله تعالى بأداء حقوق الأهل والأقارب، فسائر القرابات والأنساب قائمة على صلة الرحم. قال ﷺ:«إنَّ الرَّحمَ شُجْنةٌ من الرحمن، فقال اللّه: من وصلَك وَصلْتُه، ومن قَطعك قطعتُه».[٢] وفي الترمذي ورد الأمر والتعليم بهذه الألفاظ «أَنَا الله وَأَنَا الرَّحْمنُ، خَلَقْتُ الرَّحِم وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسمِي، فَمَنْ وَصلَهَا وَصلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ» [٣]. ثم قال ﷺ «مَنْ لاَ يَرْحَمِ النَّاسَ لاَ يَرْحَمْهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ».[٤] ووردت

---

[١] وهذا نص الحديث: (٤٩٣٧) حدثنا مُسَدَّدٌ وَ أَبُو بَكْرِ بنُ أَبِي شَيْبَةَ المَعْنَى قالاَ أخبرنا سُفْيَانُ عن عمْرٍو عن أَبِي قَابُوسَ مَوْلَى لِعَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو عن عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَٰنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُم مَنْ في السَّماءِ» لَمْ يَقُلْ مُسَدَّدٌ مَوْلَى عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو، وقَالَ قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم. (يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري، باب صفة الرحم. وهذا نص الحديث: (٥٨٥١) حدّثنا خالدُ بن مَخْلدٍ حدثنا سليمان حدّثنا عبدُاللّه بن دينارٍ عن أبي صالحٍ عن أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الرَّحمَ شُجْنةٌ من الرحمن، فقال اللّه: من وصلَك وَصلْتُه، ومن قَطعك قطعتُه».(يوسف عامر).

[٣] أبواب البر والصلة. وهذا نصه: (١٩١١) حَدَّثَنا ابنُ أَبي عُمَرَ و سَعِيدُ بنُ عَبْدِ الرحمنِ المَخْزُومِيُّ قالا: حدثنا سُفْيَانُ ابنُ عُيَيْنَةَ عن الزُّهْرِيِّ عن أَبي سَلَمَةَ، قَالَ: اشْتَكَى أَبُو الدَّرْدَاءِ فَعادَهُ عَبْدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ فقالَ: خَيْرُهُمْ وَأَوْصَلُهُمْ ما عَلِمْتُ أَبُو محمدٍ، فقالَ عَبْدُ الرحمنِ: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله يقول: قال الله تَبارَكَ وتَعالى: أَنَا الله وَأَنَا الرَّحْمنُ، خَلَقْتُ الرَّحِم وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسمِي، فَمَنْ وَصلَهَا وَصلْتُهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ». وفي البابِ عن أَبِي سَعِيدٍ وابنِ أَبي أَوْفَى وعَامِرِ بنِ رَبِيعَةَ وأَبي هُرَيْرَةَ وجُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ. قال أَبو عِيسَى: حَدِيثُ سُفْيَانَ عن الزُّهْرِيِّ حَدِيثٌ صحيحٌ. ورَوَى مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِيِّ هذا الحديث عن أَبي سَلَمَةَ عن رَدَّادٍ الليثي عن عَبْدِ الرَّحمنِ ابنِ عَوفٍ وَمَعْمَرٍ كذَا يقولُ، قال محمدٌ: وحديثُ مَعْمَرٍ خَطأٌ.(يوسف عامر).

[٤] وهذا نصه فى صحيخ مسلم، باب رحمته الصبيان والعيال: (٥٩٨٣) حدّثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَ إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ. كِلاَهُمَا عَنْ جَرِيرٍ. ح وَحَدَّثَنَا إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَ عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ

هذه الرواية في البخاري بهذه الألفاظ: «مـــن لا يَـــرحمُ لا يُـــرحَم». [1] وقـــال (ﷺ)«جَعلَ اللّهُ الرحمةَ في مائة جزء، فأمسكَ عندهُ تسعةً وتسعينَ جُزءاً، وأنـــزل في الأرض جُزءاً واحداً، فمن ذلك الجُزءِ تَتراحَمُ الخلق، حتـــىٰ تَرفـــعَ الفـــرسُ حافِرَها عن ولَدِها خَشيةَ أن تُصيبَه». [2].

إن البخل ليس صفة لله تعالى، وحثّ الرسول الله (ﷺ) المسلمين على عدم إغلاق الصرر (مايودع فيه المال) حتى لا تُغلق أفواه صـــررهم [3] ونـــصح ﷺ الناس بستر عيوب الآخرين إذ يقول ﷺ «... ومَنْ سَتَر على مُسْلِمٍ في الدُّنْيا سَتَرَ

قَالاَ: أَخْبَرَنَا عيسَى بْنُ يُونُسَ. ح وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ. حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ. ح وَحَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الأَشَجُّ. حَدَّثَنَا حَفْصٌ يَعْنِي ابْنَ غِيَاثٍ. كُلُّهُمْ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ زَيْـدِ بْـنِ وَهْبٍ وَ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «مَنْ لاَ يَرْحَمِ النَّـاسَ لاَ يَرْحَمْهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ». (يوسف عامر).

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته: (٥٨٦٠) حدّثنا أبو اليَمان أخبرَنا شُعيبٌ عن الزُهريّ حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن «أن أبـا هريـرةَ رضيَ اللّه عنه قال: قبّلَ رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم الحسنَ بن عليٍّ وعندَهُ الأقرعُ بن حابس التميميُّ جالساً، فقال الأقرعُ: إنَّ لي عشرةً من الولَدِ ما قبَّلتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم ثم قال: من لا يَرحمُ لا يُرحَم». (يوسف عامر). وورد في باب قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠): (٧٢١١) حدَّثنا محمدُ بن سلامٍ أخبرَنا أبو معاويةَ عن الأعمش عن زيد بن وَهبٍ و أبي ظَبيانَ «عن جَرير بن عبد اللّه قال: قال رسولُ اللّـه صـلى الله عليه وسلم: لا يَرحمُ اللّهُ مَن لا يَرحم الناسَ». (يوسف عامر).

[2] الصحيح الجامع للبخاري، باب رحمة الولد. وهذا نصه كما ورد في باب جعلَ اللهُ الرحمةَ في مائةِ جُزء: (٥٨٦٣) حدّثنا الحكمُ بن نافع البهرانيُّ أخبرنا شعيبٌ الزّهريّ أخبرَنا سعيدُ بن المسيِّب أنَّ أبا هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: «جَعلَ اللّـهُ الرحمةَ في مائة جزء، فأمسكَ عندهُ تسعةً وتسعينَ جُزءاً، وأنزل في الأرض جُزءاً واحداً، فمن ذلك الجُزءِ تَتراحَمُ الخلق، حتىٰ تَرفعَ الفرسُ حافِرَها عن ولَدِها خَشيةَ أن تُـصيبَه». (يوسف عامر).

[3] الجامع، للبخاري، باب رحمة الولد.

الله عَلَيْهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. ..» [١] ويحث الإسلام على مساعدة الآخرين. يقول رسول الله ﷺ: «... والله في عَوْنِ العَبْدِ ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخيهِ». [٢].

وفي مقام آخر أخبر (ﷺ) بأنه لا أحد أكثر غيرة من الله، لهذا حرَّم فواحش الأمور. وقد ورد عنه ﷺ بأنه قال في حديث آخر: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَالمُؤْمِنُ يَغَارُ، فَغَيْرَةُ اللَّهِ أَن يَأْتِيَ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ». [٣]. يقول الله تعالى: **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾** (آل عمران: ١٨٢)

---

[١] صحيح الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الستر على المسلمين. وهذا نصه: (١٩٣٤) حَدَّثنا عُبَيْدُ بنُ أَسْبَاط بن محمد القُرَشِيُّ، حدثنا أبي، حدثنا الأَعْمَش، قالَ حُدِّثْتُ عن أَبي صَالِحٍ عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ، قالَ: «مَنْ نَفَّسَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ في الدُّنْيَا يَسَّرَ الله عَلَيْهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ومَنْ سَتَر على مُسْلِمٍ في الدُّنْيَا سَتَرَ الله عَلَيْهِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، والله في عَوْنِ العَبْدِ ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخيهِ».

قالَ: وفي البابِ عن ابنِ عُمَرَ وعُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ.

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ. وقد رَوَى أَبُو عَوَانَةَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، هـذا الحَـدِيثَ عـن الأَعْمَشِ عن أَبي صَالِحٍ عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ نَحْوَهُ ولَمْ يَذْكُرُوا فيه حُدِّثْتُ عـن أَبـي صَالِحٍ. (يوسف عامر).

[٢] مسلم، كتاب البر والصلة، باب بشارة من ستر الله تعالى عليه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة. وهذا نص الحديث الذي ورد في هذا الباب: ٦٥٤٧) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا عَفَّانُ. حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ. حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً فِي الدُّنْيَا، إِلاَّ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ». (يوسـف عـامر)، وورد فـي صـحيح الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الستر على المسلمين. وهذا نصه: (١٩٣٤) حَدَّثنا عُبَيْدُ بنُ أَسْبَاط بن محمد القُرَشِيُّ، حدثنا أبي، حدثنا الأَعْمَش، قالَ حُدِّثْتُ عن أَبـي صَالِحٍ عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ، قالَ: «مَنْ نَفَّسَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ في الدُّنْيَا يَسَّرَ الله عَلَيْهِ في الـدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ومَنْ سَتَر على مُسْلِمٍ في الدُّنْيَا سَتَرَ الله عَلَيْهِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، والله في عَـوْنِ العَبْدِ ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخيهِ».

[٣] أبو داود، كتاب الأدب. وورد في صحيح ابن حبان: (٢٩٢) أخبرنا ابنُ سَلْم، قال: حـدثنا عبدُ الرحمٰن بنُ إبراهيم، قال: حدثنا الوليدُ، قال: حدثنا الأوزاعيُّ، عن يحيى بنِ أبي كثير،

لهذا وجب على عباده ألاّ يظلم بعضهم بعضاً. قال رسول الله (ﷺ) مبلغاً عن الله تعالى هذا التعليم العملي في هذا الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا**». [1].

من صفات الله تعالى وأسمائه اللطيف، والقدوس؛ لهذا يجب على كل عبد أن يعيش في طهارة ونظافة. قال (ﷺ): «إِنَّ الله طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ فَنَظِّفُوا وَلاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»[2].

عن أبي سَلَمة عن أبي هريرة، عن النبيِّ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَالْمُؤْمِنُ يَغَارُ، فَغَيْرَةُ اللَّهِ أَن يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ». (٣: ٦٧) (يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري، كتاب التوحيد، المجلد ٢، صـ ١١٠٣. وورد في صحيح مسلم، باب تحريم الظلم: (٦٥٢٤) حدثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ بَهْرَامَ الدَّارِمِيُّ. حَدَّثَنَا مَرْوَانُ يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ الدِّمَشْقِيَّ. حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ عَنْ أَبِي ذَرَ عَنْ النَّبِيِّ. فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي. وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. مَا زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ. مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي. فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ. مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ. ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللّهَ. وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ، إِذَا حَدَّثَ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ، جَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ. (يوسف عامر).

[2] الجامع، للترمذي، باب ما جاء في الغيرة من أبواب النكاح. وهذا نص الحديث كما ورد في باب النظافة: حدثنا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، أخبرنا أَبُو عَامِرٍ العقدي، أخبرنا خَالِدُ بنُ إِلْيَاسَ، عن صَالِحِ بنِ أَبِي حَسَّانَ، قالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بنَ المُسَيَّبِ، يَقُولُ: «إِنَّ الله طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، فَنَظِّفُوا ــ أُرَاهُ قالَ ــ أَفْنِيَتَكُمْ، وَلاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ، قالَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِمُهَاجِرِ بنِ مِسْمَارٍ، فَقَالَ حَدَّثَنِيه عَامِرُ بنُ سَعْدِ بنِ

كان هذا اتجاها للتوحيد، اتجاهه الثاني جدير بالاهتمام.

إن الأمم التي لم تعرف التوحيد لم ترق إلى درجة الإنسانية، فلقد كانت تعتقد أنها عبد لكل مظهر من مظاهر الطبيعة، إلا أن توحيد محمد (ﷺ) قد أخرج من قلوب الناس الخوف من كل شيء إلا الخوف من الله. لقد أصبح كل شيء مسخرًا للإنسان ماثلاً أمامه بدلاً من أن يكون تحت سيطرته بدءاً من الشمس وأنهار الأرض وحتى الغدير. لقد تحطم طلسم جبروت الملوك وجلالهم، وتراءى أنا ربكم الأعلى وآلهة بابل ومصر والهند وإيران في صورة خدم ورعاة وحراس للناس، وليسوا آلهة (كما زعموا) والذين لم يكن علوهم وانحطاطهم في يد الآلهة والملائكة، وإنما كان في يد الناس أنفسهم.

إن الأخوة الإنسانية بأسرها والتي قسمتها حكومات الآلهة إلى عليا وسفلى وعالٍ ووضيع، وشريف وذليل، وإلى طبقات وأجناس عديدة، والتي من بينها التسليم بخلْق البعض من وجه الإله، والبعض من يده، والبعض من قدمه، ومن ثم قد قسم البشر إلى مثل هذه الأجناس المختلفة بسبب هذه العقيدة والتي لم يتفقوا عليها بأي حال من الأحوال، وهكذا انعدمت المساواة الإنسانية فى الدنيا، وصارت الأرض صراعا للظلم والجبروت والكبر والغرور بين الأمم والأجناس حتى جاء التوحيد، وساوى بين هذا العلو والإنحطاط، والسمو والإنحدار، وأقر بأن الناس جميعًا عبيد لله، وكلهم سواسية عند سبحانه، وكلهم أخوة فيما بينهم، وكلهم متساوون في الحقوق. أُرسيت هذه التعاليم بفضل إصلاحات سياسية وأخلاقية وإجتماعية للعالم، والتي أثبتت نتائجها في صفحات التاريخ.

على أي حال لقد سلم بصدق هذا الأساس من لا يعرفون التوحيد الحقيقي، ومن ثم فهم جاهلون حتى الآن بالجانب الحقيقي للمساواة الإنسانية، والنتيجة هي أنهم رغم ذهابهم إلى بيت الله لا يبتعد عن أذهانهم الاعتقاد في تفاوت الدرجات والطبقات، ولا ينسون فروق الثراء والفقر واللون والجنس رغم انحناء رؤوسهم أمام الله. في حين أن المسلمين قد فازوا بنعمة المساواة منذ ألف وثلاثمائة سنة

أبي وقاص عن أبيه، عن النبيِّ مِثْلَهُ إلاَّ أنَّهُ قالَ نَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ». قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ. وَخَالِدُ بنُ إِلْيَاسَ يُضَعَّفُ وَيُقَالُ ابنُ إِيَاسٍ. (يوسف عامر).

بفضل هذا التوحيد الكامل، وهم براء تماما من كل أنواع الفوارق الموضوعة؛ فالجميع عبيد لله تعالى في نظر الإسلام، والناس جميعا متساوون وعاجزون أمامه. والإسلام لا يفرق بين الناس بناء على الثراء والفقر، أو اللون والعرق، وإنما يفرق بينهم بناء على تقوى الله وطاعته سبحانه. يقول الله تعالى:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)

الخوف من الله وحبه

إن أهم قضية في هذا الصدد هي الخوف من الله وحبه؛ فلقد اعتقد المعارضون بشكل عام أن محمد (ﷺ) بلَّغ عن الله فقط أنه قهّار، وجبّار، ومخيف، ويجب على العباد كلهم الخوف من هيبته وجلاله فى كل لحظة، وهو (حاشا لله) بعيد عن اللطف والكرم، ولا يقبل أي حب، ولا يحب عباده الضعاف، ولا يطلب محبته من عباده. وهذا كله فى الحقيقة تصور خاطئ تماما فى تعاليم الإسلام، فحين تمعن النظر فى كل اسم لله تعالى وفى كل صفة له سبحانه من بين الأسماء والصفات التي مر ذكرها تدرك أن سائر أسماء الله تعالى وصفاته تعبر عن الحب واللطف والكرم والرحمة سوى أسمائه الجلالية التي توضح حقيقة قدرته التامة وملوكيته العامة. وهناك سببان لوقوع المعارضين فى عدم فهم هذه الحقيقة:

١. أن النبي (ﷺ) حث الناس على الخوف من الله وخشيته.
٢. خالف الإسلام بشدة المصطلحات التي تظهر وتعبر عن حب الله تعالى والتي قررتها الأديان الأخرى، ليس هذا فحسب بل قرر بأن ذلك شرك.

تعليم الخوف من الله وخشيته مع الحب

إن النبي (ﷺ) أفسح لحب الله مكانًا فى هدايته وتعليمه إلى جانب الخوف منه سبحانه وخشيته. تدبر فى أن محرك جميع الأعمال في الإنسان هما عاطفتان اثنتان فقط: الخوف والحب. وتوجد كلتاهما منفصلتان، كما توجدا معا أحيانا، أو واحدة تلو الأخرى، كما أن لهما مقومات منفصلة أيضًا؛ فنتيجة ادعاء الحب الدلال وسوء الأدب أحيانا، وأحيانًا يكون العصيان بسبب الاعتماد الكامل على الحب والمحبوب. ويبدو أن فساد مقومات الحب وآثاره للحب يمكن أن يكون فقط

عن طريق عاطفة الخوف؛ لهذا لا يمكن أن تكتمل الصلة بين الخالق والمخلـوق بالخوف فقط، ولا بالحب وحده، ولكن عن طريق امتزاجهـا واشـتراكهما معـا واعتدالهما، وهذا هو التعليم المحمدي النبوي.

لقد وُجد غلو ومبالغة في هذه المسألة أيضا في الأديان السابقة للإسـلام، وابتعدت تماما عن الصراط المستقيم، فقد قام كيان الدين اليهودي على الخـوف والخشية والغلو، وكان إلهه رب الجنود [١] ويأخذ إثم الأباء من الأبناء جيلاً بعـد جيل"[٢]، مع أن ذكر رحمة الله وكرمه وحبه وشفقته موجودة في مواضع قليلة في الصحف اليهودية[٣]، وعلى العكس من هذا فالمسيحية تزخر بذكر صفات رحمة الله وكرمه وحبه وعطفه، وكأنه لم يكن فيها تعليم مطلق للخوف من الله وخشيته بل تأكيد على دوام الخوف من الله تعالى[٤] إلا أن أتباع الـديانتين لـم يهتمـوا

---

[١] سفر ارمياء، الإصحاح ٣٢، الفقرتان١٤، ١٥ وما بعدها.وهذا نـصهما: "هكـذا قـال رب الجنود إله إسرائيل. خذ هذين الصكين صك الشراء هذا المختوم والصك المفتـوح هـذا واجعلهما في إناء من خزف لكي يبقيا أيامًا كثيرة* لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل سيشترون بعد بيوتًا وحقولاً وكرومًا في هذه الأرض"(يوسف عامر).

[٢] سفر الخروج(الإصحاح٢٠، الفقرة٥)،وهذا نصها" لا تسجد لهن ولا تعبدهن. لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من منغضي" (يوسف عامر). و(الإصحاح٣٤، الفقرة٧) وهذا نصها" حافظ الإحسان إلى ألـوف. غـافر الإثـم والمعصية والخطية. ولكنه لن يبرئ إبراء. مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع" (يوسف عامر). وسفر استثناء ٤، ٣٤، ٦، ١٥ وغيرها.

[٣] سفر الخروج، الإصحاح٢٠، الفقرة ٦، وهذا نص الفقرة: " وأصنع إحسانا إلى أُلوف مـن محبي وحافظي وصاياي"(يوسف عامر). والفقرة٣٤: "مذبحا من تراب تصنع لي وتـذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك وبقرك. في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمي ذكرا آتي إليك وأباركك" (يوسف عامر).، وسفرالزبور، المزمور ٨٦، الفقرة١٥، وهذا نصها: "أما أنت يا رب فإله رحيم ورؤف طويل الروح وكثير الرحمة والحق" (يوسف عـامر). والمزمور١٠٣، الفقرة ٨، وهذا نصها: "الرب رحـيم ورؤوف طويـل الـروح وكثيـر الرحمة"(يوسف عامر). وذكر في غيرها حب الله ورحمته وكرمه.

[٤] انجيل لوقا،الإصحاح ١٢، الفقرة ٥، وهذا نصها: "بل أُريكم ممن تخافون. خافوا من الـذي بعد ما يُقتل له سلطان أن يُلْقِي في جهنم. نعم أقول لكم من هذا خافوا" (يوسـف عـامر).

بالمساواة بين التعليمين المتعارضين، ولكن الإسلام اهتم بالاعتدال والوسطية في هذا الأمر، فهو لا يقر بأن الله تعالى جبّار، وقهّار محض، ورب الجنود، وإله بنى إسرائيل أو بنى إسماعيل فقط، ولا يعتقد في أنه على شكل بشر، ولا أبا للبشر أو أبا لسيدنا محمد ﷺ، كما أنه لا يصفه بصفات الرحمة والكرم والحب والعطف فقط؛ بل يؤمن إيمانا مطلقا بأنه عز وجل قهار، ورحمن وكريم أيضًا، ومنتقم وشديد العقاب وغفور ورحيم أيضًا، ويعاقب عباده، ويحبهم أيضًا، يغضب، وينعم ويرضى، تجب خشيته، كما يجب حبه. يقول الله تعالى:﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٥، ٥٦)

قال الله تعالى في مدح بعض عباده الصالحين. يقول الله تعالى:﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً**﴾ (الأنبياء: ٩٠)

وجدير بالذكر أن الإسلام يدعو الناس إلى خشية الله تعالى، إلا أنه لم يقل إنه جبّار وقهّار، وإنما قال رحمن رحيم، لذا فصفة عباد الله المحظوظين هي: يقول الله تعالى:

﴿**وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾ (يس: ١١)

ويقول أيضًا:﴿**مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾ (ق: ٣٣)

يخشع لسان الإنسان بل سائر الكائنات أمام هذه الرحمة. يقول الله تعالى:﴿**وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ**﴾ (طه: ١٠٨)

إن الأنبياء الذين أتوا إلى الدنيا كانوا على قسمين: أحدهما من كان أمام عينيه نور جلال الله وكبريائه فقط؛ لذا دعوا فقط إلى الخوف من الله وخشيته، كسيدنا نوح وسيدنا موسى عليهما السلام. وثانيهما من كان هائمًا في الحب الإلهي

رسالة بطرس الرسول الأولى، الإصحاح٢، الفقرة٧، وهذا نصها: " فلكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة وأما للذين لا يطيعون فالحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية"(يوسف عامر)، أفسس، الإصحاح ٥، الفقرة٢١، وهذا نصها: " خاضعين بعضكم لبعض في خوف الله"(يوسف عامر). والغرض هو أن تعليم الخوف من الله ورد في المسيحية أيضًا.

ويدعو الناس إلى عشق الله وحبه عز وجل كسيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهما السلام.

وجاء رسول يدعو الناس إلى كلا الصفتين، وكان مظهرًا للجلال والجمال وجامعا للحب والأدب، وهو محمد رسول الله ﷺ، والذي كانت تدمع عيناه دائما من خشية الله من ناحية، ومن ناحية أخرى كان قلبه متعلقًا بحب الله ورحمته وكرمه، وكان الناس يرون كلا المشهدين على وجهه المبارك (ﷺ) في آنٍ واحد، لذلك حين كان يصلى ليلاً، ويقرأ سور القرآن الكريم الطويلة، ويتدبر في معانيها ودلالاتها، ويقرأ آية تدل على الخوف من الله وخشيته؛ فكان يطلب اللجوء إلى الله تعالى والرجاء منه، وحين كان يقرأ أي آية تدل على الحب والرحمة والبشرى، فكان يدعو الله تعالى لنيل حب الله تعالى ورحمته وعطفه[1].

خلاصة القول هو أن الإسلام لا يدعو الناس إلى الخوف من الله وخشيته فقط، ولا يدعوهم إلى حبه سبحانه فقط، وإنما يدعوهم إلى الخوف من الله وخشيته، وإلى الطمع في حبه ويأملون رحمته وكرمه. ومن ثم قيل "إن الإيمان الكامل هو ما بين الخوف والأمل أو الرجاء" فالخوف وحده يجعل الناس ييأسون من رحمة الله، كما أن اعتمادهم فقط على رحمة الله وكرمه يجعلهم أناسًا متمردين وبعيدين عن الأدب. الأمر الذي يبدو عمليا من خلال الأعمال اليومية في هذا العالم، كما يمكن مشاهدة نتائجه من الناحية الدينية عمليا من خلال اليهود والمسيحيين؛ لذا أعطى النبي (ﷺ) درجة متساوية في تعليمه وهدايته لكلتا هاتين الحالتين المتضادتين طبقا للإيمان والعقيدة، وبجانب هذا أيضًا بشّر ﷺ العاجزين والضعفاء بهذه البشرى، وهي أن دائرة رحمة الله تعالى أوسع بكثير من دائرة غضبه سبحانه. يقول الله تعالى:﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (الأعراف: ١٥٦)

ولقد فسر النبي (ﷺ) هذا القول الإلهي في الحديث الآتي:«... **رحمتي(أي رحمة الله) سبقَت غضبي (أي غضب الله)» (البخاري)**[2]

---

[1] مسند ابن حنبل، ج ٩، صـ ٩٣.

[2] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب التوحيد: (٧٢٥٦) حدَّثنا أبو اليمان أخبرنا شعيبٌ حدثنا أبو الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم

لقد ربط المسيحيون نسبهم بالله، حين قالوا إن المسيح "ابن الله"، كما جعلت بعض فرق اليهود بني إسرائيل أبناء الله وأحبائه ومنحوا عزير[1] منزلة الابن الإلهي على غرار عيسى ﵇، ولكن الإسلام لا يعطى هذا الشرف لأسرة بعينها أو قوم أو أمة خاصة، بل يُقر بأن البشر جميعا عباد لله تعالى. وفي مواجهة المسلمين ادعى اليهود والنصاري بأنهم:﴿**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾ (المائدة: ١٨)

وردَّ القرآن الكريم على هذا. يقول الله تعالى:﴿**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾ (المائدة: ١٨)

وفي آية آخرى ردَّ القرآن الكريم على اليهود وحدهم. يقول الله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (الجمعة: ٦)

فالإسلام لا يحصر دائرة الرحمة الإلهية على أي أسرة أو قوم، وإنما يُدخل البشر جميعًا في هذه الدائرة. دخل شخص مسجد النبي ﷺ ودعا:«اللَّهمَّ ارحمني ومحمداً» فقال النبي (ﷺ): «لقد حَجَّرْتَ واسعاً».[2] وجاء أعرابي آخر

قال: «إن اللهَ لما قضى الخلقَ كَتَبَ عندَه فوق عرشه إن رحمتي سبقَت غضبي».(يوسف عامر).

[1] – كتبها المؤلف عزيز والصحيح أنها عزير لقول الله تعالى في سورة التوبة: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)»(يوسف عامر).

[2] صحيح البخاري، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث: (٥٨٧٣) حدثنا أبو اليمان أخبَرنا شُعيبُ عن الزُّهريِّ قال: أخبرني أبو سَلمةَ بن عبدالرحمن أنَّ أبا هريرةَ قال: «قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في صلاةٍ وقمنا معَه، فقال أعرابيٌّ وهوَ في الصلاة: اللّهمَّ ارحمني ومحمداً، ولا تَرحمْ معنا أحداً. فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال للأعرابيّ: «لقد حَجَّرْتَ واسعاً. يُريدُ رحمةَ الله».(يوسف عامر).

ودعا في المسجد: اللّهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ:«أتقولون هذا أضل أم بعيره؟». [1]

منع مصطلاحات الحب الجسمانية

مر آنفاً أن السبب الثاني لسوء الفهم حول الإسلام هو أن بعض الأديان أوجدت مصطلحات مادية وجسمانية للتعبير عن حب الله وكرمه، وجاء الإسلام وخالف هذا تماما، وأقر بأنه شرك، فنتج عن هذا القول بأن إله الإسلام لا يتصف بالرحمة والكرم(نعوذ بالله).

والحقيقة هي أن الإنسان يمكنه التعبير عن مشاعر الحب بين العبد والله كبقية مشاعر الإنسان الأخرى غير المادية بلغته البشرية. وتظهر مشاعر الحب والعشق هذه عن طريق العلاقات المادية والجسمانية داخل البشر، وبناء عليه اعتقدت بعض الأديان أن هذه هي أفضل طريقة للتعبير عن العلاقة والصلة بين الخالق والمخلوق، فهناك من أوجد علاقة الآب والابن بين الخالق والمخلوق كما فعل المسيحيون، وهناك من اعتقد في أن حب الأم أعظم درجات الحب، لذا أوضح (هذا الاعتقاد) هذه العلاقة باستخدام الأم والابن، وأصبحت الملائكة الإناث أمهات البشر كما هو المعتقد الديني العام عند الهنادكة، ويمثل الحب بين الزوجة وزوجها درجة كبيرة في بلاد الهند، الأمر الذي لا يوجد نظير له في البلاد الأخرى، لذا فهم يرون أنه لا يوجد أي تعبير عن الحب يفوق الحب بين الزوجة والزوج، ومن ثم عبرت بعض الفرق في بلاد الهند عن علاقة الحب بين الخالق

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (١٨٤٤٦) حدثنا عبدالله حدّثني أبي حدثنا عبدالصمد حدثنا أبي أنبانا الجريري عن ابن عبدالله الجشمي حدثنا جندب قال: «جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى: اللّهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى قال: «لقد حظرت رحمة الله واسعة، إن الله خلق مائة رحمة فأنزل الله رحمة واحدة يتعاطف بها الخلائق جنها وأنسها وبهائمها، وعنده تسع وتسعون، أتقولون هو أضل أم بعيره؟».(يوسف عامر).

والمخلوق باستخدام مصطلح الزوجة والزوج، ويعتبر دراوشة فرق "سدا سهاك" صورًا مضحكة لهذا الاعتقاد.

إن جميع هذه الفرق التي أرادت أن تعبر عن العلاقة بين الخالق والمخلوق عن طريق الصلات المادية والجسمانية قد ضلت الطريق، كما أضل الاستخدام الظاهري للفظ الحب الخاصة والعامة على السواء من أهل هذه الفرق، إذ قيدوا الجوهر الأصلي للفظ في الأخطاء المادية، فاعتقد المسيحيون بأن عيسى عليه السلام هوابن الله، وعبد أبناء بلاد الهند الأمهات، وارتدى دراوشة "سدا سهاك" زى النساء والحلى، واخذوا يسيئون إلى الإله القادر سبحانه، لهذا خالف الإسلام ــ المبلغ إلى التوحيد الخالص بشدةــ هذه المصطلحات المادية أو الجسمانية، وأقر بأن استخدام مثل هذه المصطلحات لله تعالى ضلال وغواية، ولكنه في الوقت ذاته لا ينكر المعنى الأصلى من هذه الألفاظ والهدف منها والحقيقة المستترة وراء ستار المجاز، ويعتقد في أن المعاني الجسمانية هذه ليست كافية للتعبير عن الصلة والعلاقة بين الخالق والمخلوق أو العبد والمعبود، ويطلب معنى كاملا أوفى من معنى هذه الألفاظ والمصطلحات. يقول الله تعالى:﴿**فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**﴾ (البقرة: ٢٠٠)

انظر فالإسلام يقر بأن حب الله تعالى كحب الأباء ليس كافيا، بل يجب أن تكون علاقة الحب بين العابد والمعبود أشد وأقوى من هذا بكثير.

وخلاصة القول هو أن إنكار الإسلام لطريقة التعبير الجسمانية هذه عن الحب لا يعنى أن الإسلام خال من صلة ومشاعر الحب والعشق بين الخالق والمخلوق أو العبد والمعبود، إذاً فمن ذا الذي لا يؤمن بأن تعليمات الدين قد نزلت بلغة البشر؟ إن سائر تصورات ومعتقدات البشر انعكاس لهذه البيئة المادية والجسمانية، لذا لا يمكن أن يأتى في أذهانهم أي تصور غير مادي أو جسماني مباشرة دون وساطة أي تصور مادي أو جسماني ولا يوجد فيَ لغتهم لفظ يدل عليه، والذي يُوضح أي مفهوم مادي أو غير جسماني بطريقة بيِّنة لا تشوبها أي مادية أو جسمانية، والإنسان يتصور الأشياء غير المرئية لتمثيلها بالأشياء المرئية، وهكذا يأتي في الذهن انعكاس وتصور للأشياء غير المرئية.

يوجد في كل الأديان تصور عن صفات هذه الذات غير مرئية والتي يطلق عليها "الله"، وبالتدبر فيه يتضح أنه تصور مستمد من الأشياء المحيطة بمتبعي هذا الدين(الذي يرجع إليه هذا التصور)، ولكن عمل أفضل الأديان وأكملها هو تنزيه هذا التصور عن المادية والجسمانية، ومساوئ البشرية، وابعاده عن أي شيء يكون ممكنا للبشر. إن تمثيل أو تصوير الله بالأب والأم والزوج تصور مادي وجسماني وبشري لا يُمكِن من يعتقد به من أن يكون على الصراط المستقيم للتوحيد الخالص، ومن ثم رفض الإسلام تماما كل الألفاظ أو المصطلحات التي تعبر عن هذه الصلات الجسمانية والعلاقات المادية بين الخالق والمخلوق، ليس هذا فحسب بل أقر بأن استخدامها شرك. ولما كان التعبير عن الحقائق الروحانية باللغة البشرية المادية، استخدم الإسلام العواطف والحاسيس والمشاعر المحضة للتعبير عن العلاقات والصلة بين الخالق والمخلوق بدلا من العلاقة الجسمانية والمادية التي استخدمتها الأديان الأخرى، وهكذا عبَّر الإسلام عن علاقة الخالق بالمخلوق دون إقامة علاقة جسمانية ودون استخدام خاطئ للمصطلحات التي كانت قد أضلت الناس من قبل، وحفظ البشرية منها.

توجد في كل لغة ألفاظ ما للتعبير عن ذات وكيان هذا الخالق، والتي استخدمتها الأمم المختلفة بناءً على تخيل خاص عندها، ومع أن هذه الألفاظ اتخذت شكل الأسماء والأعلام الآن؛ فإنها في الحقيقة استخدمت في بداية الأمر بناء على أنها وصف بشري، وفضلت كل أمة (أهل أي دين) هذا الوصف لهذا العلَم والذي يمكن أن يكون من وجهة نظرها أعظم وأفضل وصف لهذا الخالق.

اختار الإسلام لفظ (الله) دلالة على الخالق سبحانه، ولفظ الله في الحقيقة مشتق من لفظ آخر، وفي هذا اختلاف عند علماء اللغة، فهناك غالبية تقول بأنه اشتق من لفظ" وَلاَه" وأصل لفظ"وَلَه" في العربية يدل على الحزن والعاطفة التي تكون من الأم لأولادها، ثم أُطلق بعد ذلك على الحب والعشق ومنه لفظ «واله» أي عاشق، لذا فمنعى لفظ الله هو "المحبوب" و "المعشوق" الذي لا يحبه ويعشقه البشر فقط، بل سائر الكائنات. لقد قام مولانا شاه فضل الرحمن كنج مراد آبادى

بترجمة أكثر آيات القرآن المجيد إلى اللغة الهندية وقد ترجم لفظ الله إلى «من موهن» في اللغة الهندية والذي يعنى حبيب القلوب.

بمجرد فتح المصحف الشريف يقع النظر قبل كل شيء على صفتي الله الرحمن والرحيم، واللفظان تقريبًا بمعنى واحد، ففي كل سورة في القرآن الكريم ترد هاتان الصفتان من خلال «بسم الله الرحمن الرحيم»، وتكرر مرارًا في كل صلاة. هل هناك دليل يفوق هذا يوضح تصور الإسلام عن الله تعالى؟!.

وبعد لفظ الله في لغة الإسلام يأتي العَلَم الثاني أي الرحمن وهو صيغة مبالغة لصفة بمعنى الرحمن والكريم واللطيف والعطوف. يقول الله تعالى:﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياًّ مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**﴾ (الإسراء: ١١٠)

وبالإضافة إلى ذكر القرآن الكريم لبسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة، ذكر بصفة خاصة اسم الرحمن لله في ثلاث وخمسين موضعًا.

ولقد مر عليك في الباب السابق أسماء الله تعالى واحدًا واحدًا، وورد فيها صفات الله تعالى الجلالية والجمالية، وحين تُحصى هذه الأسماء والصفات تجد أغلبها أسماء وصفات تدل على لطف الله تعالى وكرمه وحبه. وقد ورد في القرآن الكريم في سورة " البروج" اسم وصفة الله "الودود" والتي تعني المحبوب والمعشوق، ومن أسماء الله تعالى الأخرى"الولى" الذي يعنى الصديق والحبيب،وورد اسم الله تعالى "الرؤوف" في القرآن الكريم كثيرًا وهو لفظ مشتق من "الرأفة"، والرأفة تعنى حب وعطف الأب على أولاده، ومن أسماء الله تعالى "الحنان"، وهو مشتق من"حنًّ"، ويطلق "الحنّ" والحنين على حب وشفقة الأم بأولادها. وهذه الألفاظ"الأسماء" تُوضح تلك المعاني المجازية التي استخدمها الإسلام للتعبير عن الصلة والعلاقة بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود، وهكذا يدعو الإسلام إلى هذه المعاني الروحانية دون احتياج إلى تمثيل مادى أو جسماني.

أخبر النبي ﷺ والقرآن الكريم أن الله تعالى غفار وغفور «أي يغفر ذنوب العباد». هو السلام هو المؤمن هو العدل هو العفو هو الوهاب هو الحليم هو

الصبور هو التواب هو البر هو المقسط، تدبر في كل اسم أو صفة من هذه الصفات، لتدرك مدى علو وسمو تصور الإسلام عن ذات الخالق المطلق.

حين تقرأ أسفار التوراة وصحائف الإنجيل وأجزاء «الفيدا»[1] وتتدبر في كل أوراقها تجد مثل هذا الكم من الصفات والأسماء التي تدل على الحب واللطف والكرم. حقًا إن الإسلام لا يجيز استخدام لفظ الأم والآب لله تعالى مثل اليهود والنصارى والهنادكة، ولكن هذا لا يعنى أن الإسلام خال من صفات الحب والكرم والطف والشفقة، والتي يزعم أصحاب هذه الديانات بأنها صفات خاصة بهم. إن الإسلام يريد إنقاذ ونجاة البشر من ضلال الشرك وغواية الكفر الذي وقع فيه أصحاب الديانات الأخرى من خلال تجسيمهم للمعاني الروحانية.

حين تقارن بين المعني المشترك بين لفظي الأب والرب، يتضح لك مدى تدني المنزلة بين تصور اليهود والمسيحيين وتصور الإسلام. فعلاقة الأب بابنه تقوم على أساس حالة خاصة وفي لحظة خاصة ثم تتغير حيثيتها وتقتصر على فترة الطفولة في شكل التربية والرعاية، وبهذه الطريقة يكون الأب في حاجة لوجود الابن، إلا أن هذه العلاقة منزلة ناقصة محدودة وفانية، فوجود الابن وبقاؤه وحاجة حياته ومتاعها ونشأته وأي شيء خاص بنموه ليس في حاجة للأب فهو يعيش منفصلاً عن الأب ومستقلاً عنه ودون الحاجة له. ولكن حين تتدبر في العلاقة والصلة بين العبد والمعبود والخالق والمخلوق تدرك أنها لا تنقطع أبدًا، وهل يمكن للعبد أن يستغنى عن إلهه لحظة واحدة؟ وهل هذه العلاقة والصلة محدودة ومقتصرة على فترة معينة كالعلاقة بين الأب والابن.

إن الربوبية تعنى العلاقة بين العبد والمعبود والخالق والمخلوق، والتي تظل قائمة من البداية وحتى النهاية، ومن الميلاد وحتى الوفاة، بل إنها تظل قائمة بعد الوفاة أيضًا، وإلى الأبد، ولا تنقطع للحظة واحدة،وعليها تعيش الدنيا وبها توجد كل المخلوقات، وهي تمسك بكل موجود من أرجوحة العدم وحتى الفناء والمحض فالإنسان لا يمكنه الاستغناء عن عطف وكرم ولطف ومحبة الله سواء

---

[1] – كتاب الهندوس المقدس. (المترجم).

كان ذرة أو قطرة ماء أو قطرة دم أو مضغة لحم أو علقة وسواء كان طفلا أو شابًا أو كهلا أو عجوزًا.

علاوة على هذا فإن لفظ الرب منزه تماما عن تصور المادية والجسمانية والمساواة، والذي يتضح من استخدام ألفاظ الآب والابن، وليس فيه تخوف من الضلال أو الغواية التي ابتلي بها النصرانيون والهنادكة

حين تتدبر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يتضح لك أن صدر الإسلام كان زاخرا بنور العشق والحب الأبدي والأزلي، وكم يُذَكِّر الضالين قول الله تعالى: «**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**». إن أول ركن في الإسلام هو الإيمان، والحب الإلهي هو أكبر سمة وعلامة للإيمان، وكان هذا هو الفضل الذي حصل عليه أوائل المؤمنين. ويشهد الله تعالى على هذا الحب بقوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ (البقرة: ١٦٥)

يجب أن يكون الحب لله تعالى أشد من حب الأباء والأمهات والأولاد والإخوة والزوجة، ليس هذا فحسب بل يفوق حب النفس والمال والأهل جميعًا. يقول الله تعالى:﴿**إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ (التوبة: ٢٤)

وإن لم يجد الإنسان الحب بعد الإيمان فسيدرك أنه قد حاد عن الطريق الحق، لذا قال الله تعالى للذين كانوا يريدون الرجوع عن الطريق الحق:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ (المائدة: ٥٤)

ورد عن المسيح عليه السلام أنه أخبر بأنه يُتعرّف على الشجرة من ثمارها، ويُتعرّف على كل حقيقة معنوية وروحانية من خلال الآثار والعلاقات الجسمانية. فأنت على سبيل المثال تقول بأنك تحب زيد، ولكن لا يبدو عليك اضطراب رؤيته، ولا يحترق صدرك بنار فراقه، ولا تذرف عيناك الدموع بسبب هجره وبعده، فمن يُصدقك إذا فيما تدعي؟! وهكذا فإن من يقول بأنه يحب الله تعالى فلابد أن تظهر عليه علامات وآيات هذا الحب وهي إتباع أحكامه سبحانه،

وطاعة رسوله ﷺ. ويقول الله تعالى عن إطاعة الرسول ﷺ:﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)

كيف يحصل الإنسان على حب الله؟ يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداً﴾ (مريم: ٩٦)

في هذه الآية الكريمة طريقان للحصول على حب الله تعالى. الأول: الإيمان، والثاني العمل الصالح. لذا حصلت فئات مختلفة من البشر على حب الله تعالى بهاتين الطريقتين. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٤، ٧)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ (الصف: ٤)

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨)

ورد في مسند أحمد: حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي، حدثنا إسماعيل، حدثنا الجريري عن أبي العلاء بن الشخير عن ابن الأحمس قال: لقيت أبا ذر فقلت له: بلغني عنك أنك تحدث حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما سمعته منه، فما الذي بلغك عني؟ قلت: بلغني أنك تقول: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يشنؤهم الله عزَّ وجلَّ؟ قال: قلت: وسمعته. قلت: فمن هؤلاء الذين يحب الله؟ قال: «الرجل يلقى العدو في الفئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه، والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يحبوا أن يمسوا الأرض، فينزلون فيتنحى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم، والرجل يكون له الجار يؤذيه جواره، فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن» قلت: ومن هؤلاء الذين

يشنؤهم الله قال: «التاجر الحلاف أو قال: البائع الحلاف، والبخيل المنان، والفقير المختال»[1].

إن الخوف والحزن شوكتان دائما تخزان الإنسان العاجز والضعيف، وتذكّرانه بفشل الماضي والحاضر والخوف من المستقبل، ولكن من يطلب الحبيب الحقيقي (الله) ويعشقه فلا يُشاك أبدًا بأي شوكة. يقول الله تعالى:: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢)

إن الحب الذي يجعل الكبير يحسن إلى الصغير ويصفح ويعفو عنه يُطلق عليه اسم رحمة، وإله الإسلام رحيم وكله رحمة، ويفيض برحمته على الكائنات كلها، فاسمه رحمن ورحيم. فما في الدنيا من مخلوقات إلا نتيجة لرحمته، وإلا فلا، ومن ثم فالقنوط من رحمته إثم، واليأس ذنب. والله تعالي مستعد دائما للعفو عن العصاة والآثمين. يقول الله تعالى مُطَمْئنًا العصاة من عباده: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)

وتبشر الملائكة إبراهيم عليه السلام فتقول: ﴿فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ (الحجر: ٥٥)

ويقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: ٥٦)

ورغم أنه ليس هناك أي قيد على الله من جانب العباد؛ فإنه سبحانه فرض على نفسه بعض الأشياء من باب رحمته على عباده، فهو يقدر على عقاب

---

[1] أحمد بن حنبل، مسند أبو ذر ج ٥ صـ ١٧٦. وهذا نص الحديث: (٢٠٩٦١) حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا إسماعيل حدثنا الجريري عن أبي العلاء بن الشخير عن ابن الأحمس قال: لقيت أبا ذر فقلت له: بلغني عنك أنك تحدث حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما سمعته منه، فما الذي بلغك عني؟ قلت: بلغني أنك تقول: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يشنؤهم الله عزَّ وجلَّ؟ قال: قلت: وسمعته. قلت: فمن هؤلاء الذين يحب الله؟ قال: «الرجل يلقى العدو في الفئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه، والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يحبوا أن يمسوا الأرض، فينزلون فيتنحى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم، والرجل يكون له الجار يؤذيه جواره، فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن» قلت: ومن هؤلاء الذين يشنؤهم الله قال: «التاجر الحلاف أو قال: البائع الحلاف، والبخيل المنان، والفقير المختال».(يوسف عامر).

المذنبين، وإنزال العذاب بالعصاة، وإذاقة أصحاب السوء جزاء إساءتهم، وذلك لأنه الغالب، والقاهر، والجبّار، والمنتقم؛ ولكنه مع كل هذا فهو الغفار والغفور والرحمن والرحيم والعفو والرؤوف. وعلاوة على كل ما تقدم ألزم نفسه بالرحمة وفرضها على نفسه. يقول الله تعالى:﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٢).

أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ أن يبلّغ سلامه سبحانه لعباده العصاة، ويهدي لهم رسالة الطمأنينة، وهي أن باب رحمة الله تعالى مفتوح فى كل وقت وحين. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤).

وطبقًا لما جاء فى القرآن الكريم فإن كل ذرة في دائرة الكائنات الواسعة لن تحرم من ظل الرحمة هذه. يقول الله تعالى:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وورد فى صحيح البخاري وسنن الترمذي وغيرهما من كتب الحديث أن الله تعالى عندما خلق هذا العالم فرض على نفسه الرحمة، وورد في جامع الترمذي أن النبي (ﷺ) قال: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».[1] هذا هو التعبير الحقيقي لتصور الإسلام (عن الله تعالى). يُبشر الرسول ﷺ الخاتم للتوحيد العصاة فى هذا الحديث القدسي: «يا ابنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي

---

[1] وورد فى صحيح ابن حبان: (٦٣٤) أخبرنا حامدُ بنُ محمد بن شُعيب البَلْخي، حدثنا يحيى بنُ أيوب المقابري، حدثنا إسماعيلُ بنُ جعفر، أخبرني العلاء، عن أبيه عن أبي هريرة، أن رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ». (٣:٩)، كما وردت هذه الرواية أيضا: ٣٤٤) أخبرنا أبو خليفة، قال: حدثنا القَعْنَبيّ قال: حدثنا عبدُ العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه عن أبي هريرة أن رسولَ الله، قال: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ فِي الْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنِطَ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ» (٣:٧٢). (يوسف عامر).

غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بتُرَابِ الأرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِتُرَابِهَا مَغْفِرَةً» [1]. فبأي لسان رسول آخر سمعت آذان البشرية هذه الحب والرحمة وبشارة العفو العام هذه؟!!

قال أبو أيوب الأنصاري للناس وهو يحتضر: إن رسول الله (ﷺ) قال: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»[2]، أي أن الله تعالى يبحث عن المذنبين ليظهر رحمته وكرمه سبحانه وتعالى، لأن الجميع يبحث عن الصالحين، أما المذنبون فيبحث الله تعالى عنهم.

إن عناصر الرحمة والكرم والعطف والحب التي توجد في الدنيا بين البشر، والتي على أساسها تتكون أواصر المحبة والصلات بين الأصدقاء والأحباء والأقرباء والأبناء وغيرهم، وعلى أساسها أيضًا تتراءى المشاهد الرائعة للحب والعشق في الدنيا، ما هي إلا جزء من رحمة الله تعالى. قال النبي (ﷺ): «جَعَلَ اللَّهُ الرحمةَ في مائة جزء، فأمسكَ عندهُ تسعةً وتسعينَ جُزءاً، وأنزل في الأرض

---

[1] جامع الترمذي، (أبواب الدعوات)، وكتب الأحاديث الأخرى (الصحيح). وهذا نصه كما ورد في جامع الترمذي: (٣٦٨٠) حدثنا عبْدُ الله بنُ إسْحَاقَ الجَوْهَرِيُّ، البصريّ أخبرنا أَبُو عاصِمٍ، أخبرنا كثيِّر بنُ فَائِد، أخبرنا سَعِيدُ بنُ عُبَيْدٍ قالَ: سَمِعْتُ بَكْرَ بنَ عَبْدِ الله المُزَنِي يَقُولُ: أخبرنا أَنَسُ بنُ مالِك، قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: «قالَ الله تَبَارَكَ وتعَالى: يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ لَوْ بَلَغت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي. يا ابنَ آدَمَ إنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِتُرَابِ الأرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِتُرَابِهَا مَغْفِرَةً». قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حسن غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ هَذَا الوَجْه.(يوسف عامر).

[2] مسند ابن حنبل، ج ٥، صـ ٤١٤. وهذا نصه: (٨٠٣٩) حدّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدَّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن جعفر الجزري، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».(يوسف عامر).

جُزءاً واحداً، فمِن ذَلك الجُزءِ تَتراحَمُ الخلق» [١]. أيُّ دين (غير الإسلام) أخبر البشر ببشارات الود واللطف والكرم والشفقة هذه؟، ومن طمأن قلوب المذنبين المضطربة بهذه الطريقة؟ ورد في صحيح البخاري أن رجلاً كان على عهدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وقد وقع مرارا فى إثم شرب الخمر، فأُتيَ به يوماً فأُمرَ به فجُلدَ، فقال رجلٌ منَ القوم: اللهمَّ العَنْهُ، ما أكثرَ ما يؤتى به! فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا تَلعَنوهُ، فوالله ما علمتُ إلا أنه يحبُّ الله ورسوله». [٢] أرأيت كيف فتح الإسلام باب محبة الله تعالى للمذنبين والعصاة ؟.

كيف هدى محمد ﷺ هؤلاء العرب إلى المعرفة الحقيقية وقد كانوا يجهلون تماما معرفة الله ومحبته سبحانه؟ وكيف جعلهم يرتبطون بالذات الإلهية ويتمتعون بلطف الحب والوله؟ انظر إلى بلال ﷺ يُطرح على رمال العرب المحرقة وقت الظهيرة، ويُوضع على صدره حجر ساخن، ويُجبرُ على الكفر بالله الواحد، ويتكبد تلك المشاق كلها، ويتغنى لسانه بأنشودة أحد أحد[٣]. لقد كانت كل ذرة بمكة عدوًا لصوت الحق، وعلى الرغم من هذا يجهر أبو ذر الغفاري ﷺ بصوت كلمة التوحيد فى ساحة مكة ذاتها، فيُمطرُ بالحجارة والعظام من كل جانب، ويأتي

---

[١] البخاري، كتاب الأدب، باب صـ ٨٨٧. وهذا نصه: (٥٨٦٣) حدثنا الحكمُ بن نافع البهرانيُّ أخبرنا شعيبٌ الزّهريّ أخبرَنا سعيدُ بن المسيِّب أنَّ أبا هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: «جَعلَ اللّهُ الرحمةَ في مائة جزء، فأمسكَ عندهُ تسعةً وتسعينَ جُزءاً، وأنزل في الأرض جُزءاً واحداً، فمِن ذَلك الجُزءِ تَتراحَمُ الخلق، حتىٰ تَرفعَ الفرسُ حافرَها عن ولَدِها خَشيةَ أن تُصيبَه».(يوسف عامر).

[٢] البخاري، كتاب الحدود، باب يكره من لعن شارب الخمر، وهذا نص الحديث: (٦٦٣٢) حدثنا يحيى بن بكير حدَّثني الليثُ قال حدَّثني خالدُ بن يزيدَ عن سعيد بن أبي هلال عن زيدِ بن أسلمَ عن أبيهِ عن عمرَ بن الخَطاب أن رجلاً كان على عهدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يُلقبُ حِماراً وكان يُضحكُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم قد جَلَدَهُ في الشراب، فأُتيَ به يوماً فأمرَ به فجُلِدَ، فقال رجلٌ منَ القوم: اللهمَّ العَنْهُ، ما أكثرَ ما يؤتى به! فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا تَلعَنوهُ، فو الله ما علمتُ إلا أنه يحبُّ الله ورسوله». (يوسف عامر).

[٣] سيرة ابن هشام، ذكر عدوان المشركين، وأسد الغابة، ج ١، صـ ٢٠٦، مصر.

بعض الناس ويخلصونه، ولكن عندما يشرق صباح اليوم التالي يتراءى له عالم نشوة وطرب الحب الإلهي ثانية؛ فيقدم على فعل الأمر نفسه، ويُعاقب من المشركين[1].

عُيّن أحد الصحابة فى إحدي المعارك لحراسة أحد الجبال ليلاً وشغل نفسه بذكر الله تعالى حتى لا يتغلب عليه النوم، وإذ بالعدو يضربه بثلاثة سهام متتالية وتنفذ في جسمه وهو لا يزال مستمرا في صلاته، فيسأله صديقه: «سُبْحَانَ الله ألا أنْبَهْتَنِي أوَّلَ مَا رَمَى؟ قال: كُنْتُ فِي سُورَةٍ أقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أنْ أقْطَعَهَا»[2].

يُقتل ثاني خلفاء رسول الله ﷺ (عمر بن الخطاب) وهو في صلاته ويسقط، إلا أن صف المأمومين يقف أمام هذا الحي الباقي مستغنيا عن حب كل كيان فانٍ وميت؛ لهذا بشرهم الله تعالى بأنهم أحباب الله وهو وحده حبيبهم، أي رضي الله عنهم ورضوا عنه.

تُوفي أحد الصحابة في المدينة وأقيمت له جنازة، فَقَالَ النَّبِيُّ:«ارْفُقُوا بِهِ، رَفَقَ اللَّهُ بِهِ. إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، وعندما بدأوا حفر القبر

---

[1] طبقات ابن سعد، سيرة أبو ذر الغفاري.

[2] صحيح البخاري، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء من الدم. وهذا نصه كما ورد في سنن أبي داود: (١٩٨) حدثنا أَبُو تَوْبَةَ الرَّبِيعُ بنُ نَافِعٍ قال حدثنا ابن المُبَارَكِ عن مُحمَّدِ بنِ إسْحَاقَ قال حَدَّثَنِي صَدَقَةُ بنُ يَسَارٍ عن عَقِيلِ بنِ جَابِرٍ عن جَابِرٍ، قال «خَرَجْنَا مَعَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ـ يَعْنِي في غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ فأَصَابَ رَجُلٌ امْرَأَةَ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَحَلَفَ أنْ لاَ أنْتَهِي حَتَّى أُهْرِيقَ دَماً في أصْحَابِ مُحمَّدٍ، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أثَرَ النَّبي صلى الله عليه وسلم فَنَزَلَ النَّبي صلى الله عليه وسلم مَنْزِلاً، فقال: مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا، فانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ فقال: كُونَا بِفَمِ الشِّعْبِ. قال: فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلاَنِ إلَى فَمِ الشِّعْبِ اضْطَجَعَ المُهَاجِرِيُّ وَقَامَ الأنْصَارِيُّ يُصَلِّي وَأتَى الرَّجُلُ، فَلَمَّا رَأى شَخْصَهُ عَرَفَ أنَّهُ رَبِيئَةٌ لِلْقَوْمِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ حَتَّى رَمَاهُ بِثَلاَثَةِ أسْهُمٍ ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ ثُمَّ انْتَبَهَ صَاحِبُهُ فَلَمَّا عَرَفَ أنَّهُمْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ هَرَبَ: فَلَمَّا رَأى المُهَاجِرِيُّ مَا بالأنْصَارِيِّ مِنَ الدَّمِ قال: سُبْحَانَ الله ألا أنْبَهْتَنِي أوَّلَ مَا رَمَى؟ قال: كُنْتُ في سُورَةٍ أقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أنْ أقْطَعَهَا». (يوسف عامر).

قال(ﷺ):«أَوْسِعُوا لَهُ. أَوْسَعَ اللَّهُ عَلَيْه»، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ حَزِنْتَ عَلَيْهِ. فَقَالَ: «أَجَلْ. إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [1] وذات مرة أرسل النبي (ﷺ) أحد الصحابة قائدًا لجماعة، وحين كان يصلي بالناس كان يلتزم بقراءة سورة الإخلاص مع آخر كل سورة يقرأها في صلاته، وعندما عادت هذه الجماعة من سفرها أخبرت النبي (ﷺ) بهذا الأمر؛ فقال (ﷺ): «سلوه لأيِّ شيءٍ يَصنعُ ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ:«أخبروه أنَّ اللهَ يُحبهُ» [2]، فهل هناك شخص آخر بلّغ هذه البشرى سوى محمد ﷺ ؟

روي عن أنس ﷺ بطرق مختلفة في صحيحي البخاري ومسلم أن صحابيا أتى النبي ﷺ ثم قال: يا رسول الله مَتَىٰ السَّاعَةُ ؟ فقال ﷺ: «وماذا أعدَدْتَ لها؟» قال: لاشيء، إلاّ أني أحبُّ اللَّهَ ورسوله صلى الله

---

[1] ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في حفر القبر. وهذا نصه: (١٦٠٦) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ. حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ. حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ الأَدْرَعِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: جِئْتُ لَيْلَةً أَحْرُسُ النَّبِيَّ. فَإِذَا رَجُلٌ قِرَاءَتُهُ عَالِيَةٌ. فَخَرَجَ النَّبِيُّ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هٰذَا مُرَاءٍ. قَالَ فَمَاتَ بِالْمَدِينَةِ. فَفَرَغُوا مِنْ جِهَازِهِ. فَحَمَلُوا نَعْشَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ: «ارْفُقُوا بِهِ، رَفَقَ اللَّهُ بِهِ. إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». قَالَ وَحَفَرَ حُفْرَتَهُ فَقَالَ: «أَوْسِعُوا لَهُ. أَوْسَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ» فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ حَزِنْتَ عَلَيْهِ. فَقَالَ: «أَجَلْ. إِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». (يوسف عامر).

[2] مسلم، كتاب صلاة المسافر، والبخاري كتاب الصلاة، باب الجمع بين السورتين. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٧٢١٠) حدَّثنا أحمدُ بن صالحٍ حدَّثنا ابن وَهب حدَّثنا عمرُو عنِ ابن أبي هلال أنَّ أبا الرِّجال محمدً بن عبدِ الرحمن حدَّثه عن أمه عمرةَ بنتِ عبد الرحمن ــ وكانت في حَجر عائشة زوج النبيِّ صلى الله عليه وسلم ــ «عن عائشةَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بَعثَ رجلاً على سَريةٍ وكان يَقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هوَ اللهُ أحد، فلما رَجعوا ذكروا ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: «سَلوه لأيِّ شيءٍ يَصنعُ ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أخبروه أنَّ اللهَ يُحبهُ».(يوسف عامر).

عليه وسلم. فقال: «أنتَ مع من أحببت» سمع الصحابة هذه البشرى فاحتفوا بهذا اليوم.[1]

روى في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال:«إذا أحبَّ اللّه عبداً نادَى جبريلَ إن اللّه يُحبُّ فلاناً فأحبَّه، فيُحبُّه جبريل، فيُنادي جبريلُ في أهل السماء: إن اللّه يُحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء، ثم يوضعُ له القَبولُ في أهلِ الأرض».[2]

روى أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ في صحيح البخاري أن الله تعالى يقول: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افتَرَضْتُه عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي

١- مسلم، كتاب الأدب، المرء مع من أحب، البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك. وهذا نص الحديث كما في صحيح مسلم: (٦٦٦١) حدّثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ. حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ إِسْحَـاقَ بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَنَـسِ بْـنِ مَالِـكٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا، قَالَ لِرَسُولِ اللّهِ : مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: حُـبَّ اللّهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». (يوسف عامر).وهذا نـصها كمـا وردت فـي صحيح البخاري: (٣٦٠٦) حدَّثنا سلمانُ بن حربٍ حدَّثنا حمّادُ بن زيدٍ عن ثابتٍ عن أنسٍ رضي الله عنه: «أنَّ رجُلاً سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الساعةِ فقال: متى الساعةُ؟ قال: وماذا أعددْتَ لها؟ قال: لاشيء، إلاّ أني أحبُّ اللَّهَ ورسوله صلى الله عليـه وسـلم. فقال: أنتَ مع من أحببت. قال أنسٌ: فما فرِحنا بشيءٍ فرحَنا بقول النبيِّ صـلى الله عليـه وسلم: أنتَ معَ من أحببت. قال أنس: فأنا أحبُّ النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمرَ، وأرجو أن أكونَ معهم بحبِّي إياهم، وإن لم أعملْ بمثلِ أعمالِهم».(يوسف عامر).

٢ – مسلم، كتاب الأدب، باب إذا أحب الله عبدًا. وقد ورد هذا النص في صـحيح البخـاري: (٥٩٠١) حدّثنا عمرُو بن عليّ حدَّثَنا أبو عاصمٍ عنِ ابن جريجٍ قال: أخبرني موسى بـنُ عُقبةَ عن نافعٍ عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أحبَّ اللّـه عبـداً نادَى جبريلَ إن اللّه يُحبُّ فلاناً فأحبَّه، فيُحبُّه جبريل، فيُنادي جبريلُ في أهل الـسماء: إن اللّه يُحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء، ثم يوضعُ له القَبولُ في أهلِ الأرض».(يوسف عامر).

يبصر به ويدَه التي يبطِش بها. ورجله التي يمشي بها»[1] إن مثل هذه الثروة، وهذا النعيم، وهذه السعادة لا تنساب سوى من نهر فيض التعليم المحمدي.

روى الإمام البزار عن أبي سعيد ﷺ في المسند أن الرسول ﷺ قال: إن لله عزَّ وجلَّ عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله.... هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابّوا في الله وتصافوا،.[2] الخ. إن هذه المنزلة الرفيعة مُنحت (من قبل الله تعالى) عن طريق من سوى محمد ﷺ .

---

[1] - البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري:(٦٣٥٥) حدَّثني محمد بن عثمان بن كرامة حدَّثنا خالد بن مَخْلد حدَّثنا سليمان بن بلال حدثني شَريك بن عبد اللَّه بن أبي نَمرٍ عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «إن اللَّهَ قال: من عادَى لي وَليّاً فقد آذَنْته بالحرب. وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترَضْته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أَحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها. ورجله التي يمشي بها، وإنْ سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذَنه. وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترَدُّدي عن نفسِ المؤمن يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته».(يوسف عامر).

[2] - وردت أحاديث أخرى في هذا المعنى في سنن الترمذي، ومالك، وشعب الإيمان للبيهقي، وانظر المشكاة، كتاب الآداب في حب الله، الفصل الثاني، ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٢٢٥٢٦) حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد بن بهرام الفزاري عن شهر بن حوشب حدثنا عبد الرحمن بن غنم: «أن أبا مالك الأشعري جمع قومه فقال: يا معشر الأشعريين، اجتمعوا واجمعوا نساءكم وأبناءكم أعلمكم صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، صلى لنا بالمدينة، فاجتمعوا وجمعوا نساءهم وأبناءهم، فتوضأ وأراهم كيف يتوضأ، فأحصى الوضوء إلى أماكنه، حتى لما أن فاء الفيء وانكسر الظل قام فأذَّن، فصفَّ الرجال في أدنى الصف، وصف الولدان، خلفهم وصف النساء خلف الولدان، ثم أقام الصلاة، فتقدم فرفع يديه فكبَّر، فقرأ بفاتحة الكتاب وسورة يَسرُّهُمَا، ثم كبر فركع فقال: سبحان الله وبحمده ثلاث مرار، ثم قال: سمع الله لمن حمده واستوى قائماً، ثم كبَّر وخرَّ ساجداً، ثم كبَّر فرفع رأسه، ثم كبَّر فسجد، ثم كبَّر فأنهض قائماً، فكان تكبيره في أول ركعة ست تكبيرات، وكبَّر حين قام إلى الركعة الثانية فلما قضى صلاته أقبل إلى قومه بوجهه فقال: احفظوا تكبيري وتعلّموا ركوعي وسجودي فإنها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان يصلي لنا كذا الساعة من النهار، ثم إن رسول الله صلى الله عليه

روى الإمام مالك أن النبي ﷺ قال «قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، والمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، والمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، والمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ».[1]

بدا هذا الحب الإلهي الكبير من خلال تعاليم الإسلام.

روي في سنن الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أَحِبُّوا اللّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي»[2].

فمن يمكنه أن يمنح دعوة الحب والعشق هذه سوى المحبوب الأزلي؟

وسلم لما قضى صلاته أقبل إلى الناس بوجهه فقال: يا أيها الناس، اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عزَّ وجلَّ عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله، فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا نبي الله، ناس من الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله! انعتهم لنا ـ يعني صِفْهم لنا ـ، فسُرَّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لسؤال الأعرابي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابّوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».(يوسف عامر).

[1] – المشكاة، كتاب الآداب في حب الله. وهذا نص الحديث كما ورد في موطأ الإمام مالك: (١٧٥٧) وحدّثني عَنْ مَالِك ، عَنْ أَبِي حَازِمِ بْنِ دِينَار ، عَنْ أَبِي إِدْرِيس الخَوْلاَني ،؛ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِد دمَشْق. فَإِذَا فَتًى شَابٌ بَرَّاقُ الثَّنَايَا. وَإِذَا النَّاسُ مَعَهُ، إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوا إِلَيه. وَصَدَرُوا عَنْ قَوْلِه. فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: هٰذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَل. فَلَمَّا كَانَ الغَدُ، هَجَّرْتُ. فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهْجِير. وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي. قَالَ فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلاَتَهُ. ثُمَّ جِئْتُهُ من قِبَلِ وَجْهِه فَسَلَّمْتُ عَلَيْه. ثُمَّ قلْتُ: والله إِنِّي لأُحبكَ لله. فَقَالَ: آلله؟ فَقُلْت: آلله فَقَالَ: آلله؟ فَقُلْتُ: آلله. فَقَالَ: آلله. فَقُلْتُ: آلله. قَالَ، فَأَخَذ بِحُبْوة رِدَائي فَجَبَذَنِي إِلَيْه. وقَالَ: أَبْشِر. فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَقُولُ: «قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ. والمُتَجَالِسِينَ فِيَّ. والمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ. والمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ».(يوسف عامر).

[2] – المشكاة، مناقب آل البيت (رواه الترمذي). وهذا نص الحديث: (٣٩٥١) حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بنُ الأَشْعَث قال ،: حدثنا يَحيَى بنُ مَعِينٍ قال: حدثنا هِشَامُ بنُ يُوسُفَ، عَن عَبْدِ اللّهِ بنِ سُلَيْمَانَ النَّوْفَلِيِّ عَن محَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ بنِ عَبْدِ اللّهِ بنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

إن لقب محمد ﷺ بين عامة المسلمين هو "حبيب الله"؛ فانظر إلى مدى العزة والعظمة بين المحبوب والحبيب، وماذا كان يسأل (الرسول ﷺ) الله تعالى في أدعية الخشوع والخضوع لله تعالى، وعمّ كان يبحث ويرجو الله تعالى في لقاءات الخلوة الروحانية؟ روى الإمام أحمد والبزار في مسنديهما والترمذي في الجامع والحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم عن جمع من الصحابة أن النبي ﷺ كان يطلب في أدعيته نعمة الحب الإلهي، إن أحب شيء للإنسان في هذه الدنيا هي نفسه وحياة أهله وأولاده، إلاّ أن هذه الأشياء في نظر حبيب الله (محمد ﷺ) كانت لا تعني شيئا؛ إذ كان ﷺ يدعو الله تعالى:

« **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ والعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ** » (أحمد والترمذي والحاكم)[1]

«**اللَّهُمَّ أجْعَلْ حُبَّكَ أحَبَّ إليَّ مِنْ نَفْسِي وأَهْلِي وَمِنْ المَاءِ البَارِدِ» (الترمذي والحاكم)**

كان الماء البارد عند العرب هو أغلى وأثمن من جميع ثروات ونعم الدنيا، ولكن ظمأ النبي ﷺ لم يكن ليطفئه هذ الماء البارد المادي؛ إذ إن الحب الإلهي فقط كان بمثابة الزلال الخالص الذي يمكن له أن يروي ظمأه ﷺ. ومعروف أن الإنسان العادي يحيى بالخبز، إلا أن العاشق الإلهي – المسيح عليه السلام–

قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي» .

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.(يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الرواية في سنن الترمذى: (٣٦٢٧) حدثنا أَبُو كُرَيْبٍ، حدثنا مُحَمَّدُ بنُ فَضَيْل عَن مُحَمدِ بن سَعْدٍ الأَنْصَارِيِّ عَن عَبْدِ الله بنِ رَبِيعَةَ الدِّمَشْقِيِّ، قَالَ: حَدثني عَائِذُ الله أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِيُّ عَن أَبي الدَّرْدَاءِ، قَالَ قَالَ رَسُولُ الله «كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ والعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ. اللَّهُمَّ أجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِليَّ مِنْ نَفْسِي وأَهْلِي وَمِنْ المَاءِ البَارِدِ. قَالَ وَكَانَ رَسُولُ الله إِذَا ذَكَرَ دَاوُدَ يُحَدِّثُ عَنْهُ قَالَ كَانَ أَعْبَدَ البَشَرِ» .

قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.(يوسف عامر).

يقول ما يعني أن الإنسان لا يحيى فقط بالخبز، ثم أي نوع من الخبز يأكله الإنسان ولا يجوع بعده أبدا؟ يقول الرسول ﷺ:

« **اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ** » (الترمذي)[1]

إن الإيمان بصفة عامة هو الإيمان بالله والرسول ﷺ، ولكن هل تعرف ما المنزل الأخير في هذا الطريق؟ ورد في الصحيحين: «**مَنْ كانَ اللّهُ ورسولُهُ أحَبَّ إليه ممّا سواهُما**» [2]

تفخر بعض الديانات بأنها تُعلّم البشر أن يعتبروا الله أبويهم وأن يحبوه بالطريقة التي يحبون بها أبويهم. ولأن الإسلام حرّم طريقة ذلك التعبير عن الحب بناءً على أنها طريق للشرك؛ لذا يعتقد كثير من أصحاب هذه الديانات أن تعليم النبي ﷺ للحب الإلهي خالٍ من مشاعر الود المقدسة، ولكن هذا الزعم – كما

---

[1] – وهذا نص الحديث: (٣٦٢٨) حدثنا سُفْيَانُ بنُ وَكِيعٍ، حدثنا ابنُ أبي عَدِيٍّ عَن حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عَن أبي جَعْفَرٍ الْخَطْمِيِّ عَن مُحمَّدِ بنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ عَن عَبْدِ الله بنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الأنْصَارِيِّ، عَن رَسولِ الله أنَّه كانَ يَقُولُ في دُعَائِهِ «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ. اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ. اللَّهُمَّ ومَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فاجْعَلْهُ قوة لِي فيمَا تُحِبُّ» .

قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وأبُو جَعْفَرٍ الْخَطْمِيُّ اسْمُهُ عُمَيْرُ بنُ يَزِيدَ بنِ خُمَاشَةَ.(يوسف عامر).

[2] – مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان: وهذا نص الحديث: (١٢٩) حدثنا مُحمَّدُ بنُ الْمُثَنَّى و ابنُ بَشَّارٍ قَالاَ: حَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ طَعْمَ الإِيمَانِ. مَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاَّ لله. وَمَنْ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا. وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ. (يوسف عامر).البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان. وهذا نص الحديث: (٢١) حدَّثنا سُليمانُ بنُ حَرْبٍ قال: حدَّثنا شُعبةُ عنْ قَتادَةَ عنْ أنَسٍ رضيَ اللّهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ: مَنْ كانَ اللّهُ ورسولُهُ أحَبَّ إليهِ ممّا سِواهُما، ومَنْ أحَبَّ عَبداً لا يُحِبُّهُ إلاّ للّهِ، وَمَنْ يَكرَهُ أنْ يَعودَ في الكُفْرِ بعدَ إذْ أنْقَذَهُ اللّهُ كما يَكرَهُ أنْ يُلْقى في النّارِ».(يوسف عامر).

ذكرنا سابقا – لا أساس له من الصحة؛ فقد فاق التعليم المحمدي سائر الـديانات في التعبير عن الحب والود وسموه. وسبق أن ذكرنا هذه الآية الكريمة كدليل على هذا: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾(البقرة:٢٠٠)

وفي الأحاديث النبوية أيضا ما يدل على صحة قولنا؛ ففي ميدان حـرب جرى الأعداء كل إلى حيث يجد الأمان، وحاول كل فرد أن ينجو بنفسه، فتفـرق الأخ عن أخيه، والأم عن ابنها، وفي هذه الحال تأتي امرأة فقدت ابنها في ميدان المعركة، وكانت –من شدة لهفتها على ابنها وحبها له– إذا وَجَـدَت صَـبيّاً فـي السبي أَخَذَته فألصَقَتْه ببَطنها وأرضَعَتْه. فقال لنا النبيُّ صلى الله عليـه وسـلم: أتُرَونَ هذهِ طارحةً ولَدَها في النار؟ قلنا: لا، وهي تَقدِر على أن لا تَطرَحهُ. فقال: اللّهُ أرحمُ بعبادِه من هذهِ بولَدِها» [1]

ذات مرة كان النبي ﷺ عائدًا من إحدى الغزوات، فجاءته امـرأة تأخـذ بابنها في حضنها وقالت: يا رسول الله تحب الأم أولادها، فهل حـب الله لعبـاده أكثر منه؟. قال ﷺ: «اللّهُ أرحمُ بعبادِه» (أي حب الله أكثر منه)، فقالت: إن أي أم لا يطيب لها أن تطرح أبنائها بنفسها في النار. فتأثر ﷺ بهذا وبكي، ثم رفع رأسه وأخبر بأن الله يعذب فقط من يشرك بالله.[2]

---

[1] – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد. وهذا نصه: (٥٨٦٢) حدثنا ابـن أبـي مريمَ حدَّثنا أبو غسّان قال: حدَّثني زيدُ بن أسلمَ عن أبيه عن عمرَ بن الخطاب رضيَ اللّه عنه قال: «قَدِمَ على النبيّ صلى الله عليه وسلم سَبيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي تحلـب ثَـديَها تَسقي، إذا وَجدَت صَبَيّاً في السبي أَخَذَته فألصقَتْه ببَطنها وأرضَعَتْه. فقال لنا النبيُّ صـلى الله عليه وسلم: أتُرَونَ هذهِ طارحةً ولَدَها في النار؟ قلنـا: لا، وهـي تَقـدِر علـى أن لا تَطرَحهُ. فقال: اللّهُ أرحمُ بعبادِه من هذهِ بولَدِها». (يوسف عامر).

[2] – سنن النسائي، باب ما يرجى من الرحمة. وورد في الترمذي: (٣١٣٤) حدثنا خَـلاَّدُ بـنُ أَسلَمَ البَغْدَادِيُّ، أخبرنا النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ عن إِسْرَائيلَ عن ثُوَيْرٍ وَهُوَ ابنُ أَبي فَاخِتَةَ عن أَبيهِ عن عَلَيٍّ بنِ أَبي طَالِبٍ، قالَ: «مَا فِي القُرآنِ آيَةٌ أَحَبُّ الَيَّ مِنْ هَذهِ الآيَةَ: {إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} .

أتى النبي ﷺ مجلسًا فجاء صحابي وقد أمسك بطائر وصغاره في ردائه وقال : يا رسول الله ! لقد حملت هؤلاء الصغار من شجرة وعصبتهما في الرداء وعندما رأتني الأم حلقت فوق رأسي، ففتحتُ الثوب قليلا؛ فجاءت سريعا وسقطت فوق الصغار. فقال ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ لِرُحْمِ أُمِّ الأَفْرَاخِ فِرَاخِهَا؟... فو الذي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لله أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمِّ الأَفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا» [1]

اصطحب صحابي طفلا صغيرا وجاء به إلى النبي ﷺ، وكان من شدة حبه له يعانقه كثيرا؛ فاستفسر النبي ﷺ عن مدى حبه لهذا الطفل. فقال: أحبه

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وأَبُو فَاخِتَةَ اسْمُهُ سَعِيدُ بنُ عِلاَقَةَ وَثُوَيْرٌ يُكْنَى أَبَا جَهْمٍ، وَهُوَ كُوفِيٌّ رَجُلٌ من التابعين، وَقَدْ سَمِعَ مِنْ ابنِ عُمَرَ، وَابنِ الزُّبَيْرِ وَابنِ مَهْدِيٍّ كَانَ يَغْمِزُهُ قَلِيلاً. (يوسف عامر).

[1] المشكاة بالإشارة إلى أبو داود، كتاب الأسماء باب رحمة الله وغضبه. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبى داود، كتاب الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب: (٣٠٩١) حدثنا عَبْدُ الله بنُ مُحَمَّد النُّفَيْلِيُّ أخبرنا مُحَمَّدُ بنُ سَلَمَةَ عن مُحَمَّد بنِ إسْحَاقَ قال حَدَّثَني رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الشَّامِ يُقَالُ لَهُ أَبُو مَنْظُورٍ عن عَمِّهِ قال حَدَّثَني عَمِّي عن عَامِرٍ الرَّامِ أَخِي الْخُضْرِ. قال أَبُو دَاوُدَ قال النُّفَيْلِيُّ هُوَ الْخُضْرِ ،، وَلَكِنْ كَذَا قالَ، قالَ: « إنِّي لَبِبِلاَدِنَا إذْ رُفِعَتْ لَنَا رَايَاتٌ وَأَلْوِيَةٌ، فَقُلْتُ: مَا هٰذَا؟ قَالُوا: هٰذَا لِوَاءُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ تَحْتَ شَجَرَةٍ قَدْ بُسِطَ لَهُ كِسَاءٌ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَيْهِ وَقَدْ اجْتَمَعَ إلَيْهِ أصْحَابُهُ فَجَلَسْتُ إلَيْهِمْ، فَذَكَرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم الأسْقَامَ فقال: إنَّ المُؤْمِنَ إذَا أصَابَهُ السَّقَمُ ثُمَّ أعْفَاهُ الله عنْهُ كَانَ كَفَّارَةً لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَوْعِظَةً لَهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، وَإنَّ المُنَافِقَ إذَا مَرِضَ ثُمَّ أُعْفِيَ كَانَ كَالْبَعِيرِ عَقَلَهُ أهْلُهُ ثُمَّ أرْسَلُوهُ فَلَمْ يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ وَلَمْ يَدْرِ لِمَ أرْسَلُوهُ فقالَ رَجُلٌ مِمَّنْ حَوْلَهُ: يَا رَسُولَ الله وَمَا الأسْقَامُ؟ وَ الله مَا مَرِضْتُ قَطُّ، فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: قُمْ عَنَّا فَلَسْتَ مِنَّا، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إذْ أقْبَلَ رَجُلٌ عَلَيْهِ كِسَاءُ وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ قَد الْتَفَّ عَلَيْهِ فقالَ: يَا رَسُولَ الله إنِّي لَمَّا رَأَيْتُكَ أقْبَلْتُ إلَيْكَ فَمَرَرْتُ بِغَيْضَةِ شَجَرٍ فَسَمِعْتُ فِيهَا أصْوَاتَ فِرَاخِ طَائِرٍ فَأَخَذْتُهُنَّ فَوَضَعْتُهُنَّ في كِسَائي، فَجَاءَتْ أُمُّهُنَّ فَاسْتَدَارَتْ عَلَى رَأْسِي فَكَشَفْتُ لَهَا عَنْهُنَّ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ مَعَهُنَّ فَلَفَفْتُهُنَّ بِكِسَائي فَهُنَّ أُولاَءِ مَعِي. قَالَ: ضَعْهُنَّ عَنْكَ، فَوَضَعْتُهُنَّ، وَأَبَتْ أُمُّهُنَّ إلاَّ لُزُومُهُنَّ، فقالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصْحَابِه: أتَعْجَبُونَ لِرُحْمِ أُمِّ الأفْرَاخِ فِرَاخِهَا؟ قالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قالَ: فو الذي بَعَثَنِي بالْحَقِّ لله أرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمِّ الأفْرَاخِ بِفِرَاخِهَا، ارْجِعْ بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ مِنْ حَيْثُ أخَذْتَهُنَّ وَأُمُّهُنَّ مَعَهُنَّ، فَرَجَعَ بِهِنَّ».(يوسف عامر).

كثيرا. فأخبره ﷺ: بأن الله يحبه (الصحابي) أكثر من حبه لهذا الطفل، فهو أرحم الراحمين.[1]

جاء النبي ﷺ في مرضه الأخير إلى مسجده وقال للمسلمين: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً »[2]. فكان آخر ما أنبأ به النبي ﷺ أنه خليل الله تعالى، وقال وهو يحتضر: «الرّفيق الأعلى، الرّفيق الأعلى»[3]

لقد بلّغ النبي ﷺ النادمين والتائبين والعصاة رحمة الله تعالى وكرمه. يقول أبو ذر ﷺ: إن النبي ﷺ أبلغنا هذه الرسالة الربانية:
«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ

---

1 - المفرد، الإمام البخاري، باب رحمة العيال، ص٧٥، مصر.

2 - صحيح مسلم، كتاب المساجد. وهذا نصه: (١١٤٠) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَاللَّفْظُ لأَبِي بَكْرٍ قَالَ إِسْحَقُ : أَخْبَرَنَا. وقَالَ: أَبُو بَكْرٍ : حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ بْنُ عَدِيَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي أُنَيْسَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ النَّجْرَانِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي جُنْدَبٌ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً. أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ. إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ». (يوسف عامر).

3 وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (٢٣٨٢٤) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا إسماعيل قال: أخبرنا أيوب، عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: «مات رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي ويومي وبين سَحْرِي وَنَحْرِي، فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك رَطب، فنظر إليه، فظننت أن له فيه حاجة، قالت: فأخذته فمضغته ونفضته وطيَّبْته ثم دفعته إليه فاستنّ كأحسن ما رأيته مستناً قط، ثم ذهب يرفعه إليّ فسقط من يده، فأخذت أدعو الله ـ عز وجل ـ بدعاء كان يدعو له به جبريل عليه السلام، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدعُ به في مرضه ذلك، فرفع بصره إلى السماء وقال: «الرّفيق الأعلى، الرّفيق الأعلى» يعني وفاضت نفسه، فالحمدُ لله الذي جمع بين ريقي وريقه في آخر يوم من أيام الدنيا». (يوسف عامر).

أطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي. وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. مَا زَادَ ذَٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ. مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي. فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ. مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ. ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللّهَ. وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَٰلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». [1]

لقد سمع العالم رسالة الحب هذه من لسان النبي ﷺ المبارك، هذه الرسالة التي تبث روح الطمأنينة والشفاء، وقيل للعصاة "يا عبادي".

---

[1] وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم:
(٦٥٢٤) حدثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ بَهْرَامَ الدَّارِمِيُّ. حَدَّثَنَا مَرْوَانُ يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ الدِّمَشْقِيَّ. حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ عَنْ أَبِي ذَرَ عَنْ النَّبِيِّ. فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي. وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. مَا زَادَ ذَٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ. مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي. فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ. مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ. ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللّهَ. وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَٰلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ، إِذَا حَدَّثَ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ، جَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ.(يوسف عامر).

الإيمان بالملائكة

لفظ "الملائكة" جمع، ومفرده "مَلك" و"مِلاك" و"مالك"، ويستخدم في الدلالة على تلك المعاني الثلاثة. ويعني في اللغة "مبلغ" و"رسول"؛ لذا جاء في القرآن الكريم لفظ "رُسل" للتعبير عن الملائكة ومعناه رسول ومبلغ، والمراد منه مخلوق خيِّر غير مادي، فهي كائنات أو أرواح تُسيّر أمور الدنيا وأسبابها وعللها طبقا لأمر الله، فلو أن هذا العالم آلة فإن الملائكة هي محركها، وهي القوي الدافعة لمعدات آلتها وتحركها وتسيِّرها طبقا لأحكام وقوانين الله المحددة. أي أنهم وسطاء بين الخالق ومخلوقاته، ويبلغون رسالته إليهم طبقًا لحكم الله ومرضاته، وينفذون هذا كعبيد لله لا إرادة لهم في أي شيء، فهم يطيعون الله، ولا يعصونه. وما ينزل في الدنيا من رحمة أو عذاب فهو عن طريقهم، وينزل الله تعالى أحكامه على أنبيائه ورسله أو يكلمهم عن طريق هؤلاء الملائكة.

وقد أقرت الأديان بوجود هذا النوع من المخلوقات، كما أقر بوجودها أيضًا قدماء فلاسفة مصر واليونان، وسلم بها الصابئون في شكل الكواكب والنجوم، وأُطلق عليها في الفلسفة اليونانية والمصرية مسمي "العقول العشرة" وسُلم أيضًا بوجود نفوس ذوات إرادة متفرقة في السموات التسع، ليس هذا فحسب بل يتضح في الفلسفة اليونانية ما يشير إلى وجود بعض الأرواح المجردة وغير المادية، ويعد تصور "لوكس" أهم هذه الأرواح المجردة، والذي يعد أول مخلوق خلق الله عن طريقه سائر الكائنات، ويُطلق الفلاسفة عليه مسمى "العقل الأول". ويُطلق مسمى"امشاسبند" على هذه المخلوقات في الديانة المجوسية، والتي سلمت بأن هناك أعدادًا لا حصر لها من هذه المخلوقات. ويطلق عليها اليهود مسمي"كروبيم" ويسمون خاصتهم "جبريل" و"ميكائيل" وغيرهما. وكذلك يطلق عليها المسيحيون هذه الأسماء ذاتها أيضًا، كما يقولون "جبريل" و"روح القدس" وغيرهما. ويُطلق عليها في الديانة الهندوسية مسمى"ديفتا"(ملاك ذكر) و"ديفى"(ملاك أنثى). ويطلق عليها جهلة العرب مسمي"بنات الله". على أي حال

فإن هذه المسميات المختلفة الصحيح منها والخاطئ يعبر عن حقيقة واحدة تدل على أنها مخلوقات ووسطاء روحانيون بين الصانع والمصنوع أو بين الخالق والمخلوق، ويعملون طبقا لأحكام وأوامر الخالق.

حدث خلط كبير في حيثية هذه المخلوقات ذوات الأرواح وغير المادية في الأديان السابقة، فكانت تعد أحيانا مخلوقا وأحيانا أخرى ترتفع إلى درجة الألوهية. فحصلت هذه المخلوقات (ديفتا وديفى) عند الهنادكة على درجة رفيعة تصل إلي درجة الإله، وفي المجوسية حصل "امشاسبند" على هذه الدرجة ذاتها، فأحيانا يحصل على درجة الملائكة وأحيانا أخرى يكون ندا للإله، وأحيانا يكون الإله منهم. وكان المجوس يعتقدون كالهنادكة في أن هذه المخلوقات تستحق العبادة، وكانت مجموعة "امشاسبند" هي أعظم هذه المخلوقات غير المادية، ثم يأتي بعدها ٣٣ مخلوقا، ثم يندرج تحت كل واحد منها آلاف المخلوقات غير المادية الأخرى. ولما كانت المجوسية تؤمن بأن هناك إلهين متضادين إله للخير وإله للشر، لذا يندرج تحت هذين الإلهين مخلوقات غير مادية (ملائكة) لا حصر لها للشر، وأخري للخير،وخُلقت ملائكة الخير من أجل الخير في الدنيا، وملائكة الشر من أجل خلق المصائب والشرور في العالم. وكان يُعتقد بأن هذه الملائكة مأمورة بهذه الأشياء من قِبل إلههم أي إله الشر وإله الخير، وكان لكل إله جيشه وجنوده ويتحاربان ويتقاتلان فيما بينهما. وكان يعتقد أن هناك ملكا ذكرا وآخر أنثى زوجة للذكر، وهذا الاعتقاد أيضا موجود عند الهنادكة. ولم تكن هناك خصوصية بين الذكر والأنثى(الزوجين) إذ كان يحق لكل فرد منهم أن يستمتع بأي أنثى. أما عند اليهود فالملائكة كانت تشبه الله من حيث تقديسها وثنائها وصفتها، وكان يعظم الملك الذي يتراءى، ويسجد له، ويُطلق عليه مسمي "الرب" (سفر التكوين، الإصحاح١٦، الفقرة ١٣)[١]، (الإصحاح١٨، الفقرة٢)[٢]،

---

١ – سفر التكوين، الإصحاح ١٦، الفقرة ١٣: "فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رُئي. لأنها قالت أهاهنا أيضًا رأيت بعد رؤية".(يوسف عامر).

٢ – سفر التكوين، الإصحاح ١٨، الفقرة ٢:"فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض".(يوسف عامر).

(الإصحاح٣،الفقرة ٢٢)[١] وكانوا يطلقون عليها أحيانا أبناء الله(سفر التكوين، الإصحاح٦، الفقرة١)[٢]

وسلم المسيحيون بأن بعض منها(الملائكة) مثل روح القدس جزء من الإله وركن في الثالوث.

كان الصابئون يقدمون القرابين للملائكة، فكانوا يصنعون لهم هياكل، ويعتبرونها مظهرا للإله.وكان العرب يعتقدون في أن الملائكة إناث، ويطلقون عليها مسمي"بنات الله"، وكانوا يعبدونها، ويعتقدون في أنها تشفع لهم عند الله تعالى. وسلم اليونانيون بأن العقل الأول والعقول العشرة هي المحرك لخالق العالم ومرجع كل شيء، وأعجزوا الإله.

جاء الإسلام وقضى على هذه المعتقدات كلها، ونفى عن الملائكة كل صفات الربوبية والإلوهية، وحرم عبادتها، وبرأها من مادية الجنس (الذكر والأنثى) وحرّر الإنسان من عبودية وتبعية هذه المخلوقات الطاهرة، ولم يبق لها تصور درجتها وأعدادها، وأقر بأنهم ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويطيعونه ليل نهار، كما أوضّح الإسلام بأنه ليس لهم أي تصرف في العالم، وليس هناك ما يسمى بملائكة الخير وملائكة الشر، وأنهم ليسوا حكاما على أي نوع من المخلوقات. وورد في القرآن الكريم أنهم مخلوقات غير مادية وذوات أرواح، وعملهم هو طاعة الله تعالى وحمده وثناؤه، وهم وسيلة لتبليغ الرسالة بين الخالق ومخلوقاته، وينفذون أوامر الله تعالى في خلقه دون أي إرادة أو مشيئة لهم في هذا، لذا لم يطلق عليهم القرآن الكريم مسمى "الرب" كما فعل اليهود، ولم يقل بأنهم يستحقون العبادة كما فعل المجوس، ولم يقل بأنهم آلهة كما

---

١ – سفر التكوين، الإصحاح ٣، الفقرة ٢٢:"وقال الرب الإله هو ذا الإنسانِ قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد".(يوسف عامر).

٢ – سفر التكوين، الإصحاح ٦، الفقرة١، ٢:" وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض ووُلد لهم بنات* أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا".(يوسف عامر).

فعل الهنود مع"ديف" و"ديفتا" و"ديفى" [1]؛ بل استخدم لهم فقط ألفاظ "الملك" و"الرسول"، كما ذكر القرآن الكريم في حديثه عن بداية الخلق بأنه لا يليق لأدم أن يسجد للملائكة؛ بل إن أدم هو المستحق لسجود الملائكة، إذ إن مرتبته في العلم أفضل منهم، ورغم أنهم يسبحون الله ويقدسونه، فقد أقروا بشرف الإنسان وعلو منزلته حين عرفوا حقيقته. يقول الله تعالى:**﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** (البقرة: ٣٢)

ولقد أوضحت قصة بداية خلق الإنسان في القرآن منزلة هذه المخلوقات التي جعلتها الأديان الأخرى آلهة للبشر، وندا لله، ولها مطلق التصرف أمام الإنسان في الإسلام. إن الإنسان والملائكة مخلوقات متساوية أمام الله وعباد له سبحانه متساوون في العجز والضعف. ولقد وهب الإنسان السيطرة على الأشياء المادية حيث يمكنه استخدامها لضرره ونفعه، أما الملائكة فقد أُمروا بتنفيذ أوامر الله في السماوات والأرض وفي سائر الملك الإلهي.

لقد وضع الله سلسلة من الأسباب والعلل في الدنيا تبدو هي محرك كل مكان، فيرى الناس هذه الأسباب والعلل الظاهرية فينخدعون بها ويشرعون في عبادتها. فمثلاً النار تحرق وتضيء فيراها المجوسي والمادي ويؤمنان بأن قوة الإحراق داخل النار نفسها، غير أن الفرق هو أن المجوسي يخر ساجدًا أمامها أما المادي فلا تنحني رأسه أمامها، ولكن ينحني قلبه لأنه يؤمن بأن هذه الطاقة داخل هذه النار نفسها، ويعتقد بعض الناس أن طاقة الإحراق ليست داخل هذه النار؛ بل هي لملك مستقل يحكمها، لذا يركع هؤلاء الناس أمام حاكم هذه النار. لقد قضت نظرية التوحيد في الإسلام على هذا الشرك تماما، وأخبرت بأن النار وملك أي نار ما هما إلا محكومان وتابعان لرب العالمين سبحانه والحاكم في السموات والأرضين؛ لذا يجب الركوع والسجود له هو سبحانه، وهو وحده المستحق للعبادة.

ما هي حقيقة الملائكة في الإسلام ؟ يمكن أن نجد إجابة علي هذا (السؤال) في تلك النصوص التي وردت في القرآن، وتتعلق بأعمالهم والتي يتضح

[1] تكتب هذه الأسماء هكذا في اللغة الأردية " ديو، ديوتا، ديوى". (يوسف عامر).

منها أنهم مخلوقات غير مادية ذوات أرواح يبلغون الأحكام والأوامر الإلهية للخلق وينفذونها، فتلك الأسباب والعلل التي يرى المادي بأنها ذوات أثر قوى، وتلك الملائكة القوية التي يعتقد فيها المجوسي، ما هي إلا ملائكة يعملون طبقًا للأحكام الإلهية وحسب المشيئة والإرادة الإلهية.

إن هذا الاعتقاد بهذه الطريقة قابل لقبوله ورفضه من الناحية العقلية كما هو الحال في المعتقدات العقلية الأخرى ونظرياتها، لذا فالقول بأنه لا أحد يجرؤ على رد هذا الاعتقاد خلاف للعقل. ومثلما يُفصل في المسائل العقلية بالقياس والنقد العقلي يفصل بهما هنا أيضًا، وقد ظل الخلاف قائمًا دائمًا في مسألة وجود الخصائص والمقومات وأسبابها وعللها في الأشياء، ولازال هذا الأمر غامضا وغير واضح حتى يومنا هذا؛ فحله بعيد عن قدرة التجارب والأبحاث العملية والمادية والفلسفة أيضًا تعجز عن حل هذه المسألة، ومن ثم لو ابتعد عن طريق الفلاسفة الملحدين ووجد أرباب الدين حلا لها، لما كانت محل خلاف، وبالتالي لا يمكن القول بأنها خلاف للعقل، فكما أن هناك أسباباً وعللاً مادية محركة لحوادث الكائنات، فهناك أيضًا علل وأسباب روحانية محركة أعلى منها، وتوجد الحوادث بتوافق هذين النوعين من الأسباب والعلل، وهذا هو السبب في نجاح أو فشل الإنسان رغم وجود أو عدم وجود أكثر العلل والأسباب المادية، ويطلق على هذا مسمى الحظ والصدفة. في حين لا يكون هناك أي شيء يسمي الحظ أو الصدفة بعد الإقرار بمسألة العلل والأسباب، وهذه هي العلل والأسباب الروحانية التي أسندها الله تعالى بإرادته لهؤلاء الملائكة، الذين يسيرون نظام العالم على أنهم خدّام مطيعون. إن الفرق الذي يوجد في مصطلحات حكماء وعلماء الكلام عندنا وعند الآخرين هو أن الآخرين يقولون إن الملائكة قوى طبيعية لعلل والأسباب، أما نحن فنقول إنها قوى روحانية.

ليس الهدف من كلامنا هذا أنه لا توجد خواص وطباع وقوانين وأصول طبيعية معينة في الأشياء، وفي ملكية هذه المادة، بل المقصود هو أن الله تعالى حدد خصائص وطباعا وأصولا وقوانين لكل شيء طبقًا لتقديره الأزلي، وأمر الملائكة أن يقودوا له هذه الأصول والطباع طبقًا لأصولها وطبائعها المقررة.

ولفهم هذه المسألة نسوق الإنسان هنا كمثال، بل ويمكن أن يكون كل ذي روح مثالا؛ فالمخلوقات على قسمين: الأول: مخلوقات ذوات روح، ومخلوقات غير ذي روح؛ فأغلب أفعال وحركات الإنسان تتم عن طريق قوة روحه، فهذه الروح مسيطرة على يديه وأقدامه وسائر أعضائه؛ بل وكل شريان وعصب في كل عضو. وفي الوقت ذاته تستفيد هذه الروح من الأعضاء طبقًا لأصول معينة، ولا تخرج عن هذه الأصول. وهكذا فهناك أرواح معينة في المخلوقات التي ليست بذات أرواح مثل السحاب، والرياح، والبحار، والأنهار، والجبال، والقمر، والشمس، وغيرها من مثل هذه المخلوقات في السموات والأرض، وتقوم هذه الأرواح بجعل هذه الأشياء تُصدر أفعالاً وحركات متساوية طبقا لقوانين وأصول الله تعالى المحددة، وتعتمد على الخواص والطباع المعينة لهذه المخلوقات مثلما تتغير روحنا عن طريق الأعضاء في المادة، وهكذا فالملائكة أيضا تقوم بأعمالها المفروضة عليها عن طريق هذه الخواص والطبائع المعينة.

١. والآن يجب علينا أن نوضح منزلة الملائكة في ضوء القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فسفارة الملائكة وتبليغ الرسالة أي تبليغ أحكام الخالق وإرادته إلى المخلوقات، وليس لهم أية إرادة في عمل هذا العمل، وهذا ثابت من قوله تعالى:

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (الحج: ٧٥، ٧٦)

أي أنه ليس للملائكة أي دخل في أصل الحكم سوى السفارة وتبليغ الرسالة، فالأمر كله بيد الله، وإليه ترجع الأمور. ويقول الله تعالى في آية أخرى:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر: ١، ٢)

لقد أوضحت هذه الآيات الكريمة أن الملائكة لا تمتلك شيئًا آخر سوى السفارة والوساطة، فالله فقط هو فاتح أبواب الرحمة ومغلقها، وهذه الحقيقة تبطل الاعتقاد

الخاطئ بأن الملائكة لها دخل شخصي في حكم الدنيا وأمورها، كما توضح أنهم ليسوا آلهة أو أربابًا، ولا يستحقون العبادة أو اللجوء إليهم.

٢. تنفذ الملائكة أحكام الله تعالى في الدنيا. يقول الله تعالى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(الأنفال:١٢)

﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ (القدر: ٤)

مثلما تنزل الملائكة بالأحكام (الإلهية) تعرج إلى الله. يقول الله تعالى:

﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (المعارج: ٤)

إن الملائكة مكلفون بقبض الروح عند انتهاء الأجل. يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ (السجدة: ١١)

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمرات الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ (الأنعام: ٩٣)

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ﴾ (الأنفال: ٥٠)

وهناك آيات أخرى تدل وتعبر عن معاني الآيات السابقة، وتوضح أن علل الموت وأسباب الفناء تتعلق بهذه القوى الروحانية طبقًا للحكم الإلهي.

لا يكفي وجود علة أو سبب لفناء وجود أي شيء في الدنيا ونهايته؛ بل يجب أن تتحد كل حلقات العلل والأسباب المتعلقة بهذا الشيء، ويساعد أحدها الآخر، وتنعدم العوائق والموانع، فعدم وجود موانع وتوافق الأسباب والعلل هو التدبير الذي أسنده الله تعالى إلى الملائكة [1] وأحيانا ينسب الله تعالى هذا التدبير إلى نفسه. وأحيانا ينسبه للملائكة. يقول الله تعالى:

---

[1] صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، أن هناك ملكا معينا على الرحم يكتب القضاء الإلهي بالنسبة للطفل (٣١٣٨) حدّثنا الحسن بن الرَّبيع، حدَّثنا أبو الأحْوصِ عن الأعمَش عن زيدِ بنَ وَهبٍ قال عبدُ الله حدَّثنا: رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ــ وهوَ الصادقُ المصدوق ــ قال: «إنَّ أحدكم يُجمَعُ خَلْقُهُ في بطن أُمّه أربعينَ يوماً، ثمَّ يكونُ عَلَقَةً مثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضْغةً مثلَ ذلك ثمَّ يَبعَثُ الله مَلَكاً يُؤمَرُ بأربَع كلمات ويقال لهُ: اكتبْ عَمَلَهُ ورزقهُ وشقيٌّ أو سعيد. ثمَّ يُنفَخُ فيهِ الرُّوحُ، فإنَّ الرجلَ منكم لَيعملُ حتّى ما يكون بينَه وبينَ الجنَّةِ إلا ذراع، فيَسبقُ عليه كتابهُ يعملُ بعملِ أهل النار. ويَعملُ حتىّ ما يكونُ بينَهُ وبينَ النارِ إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتابُ فيَعمل بعملِ أهلِ الجنة».. كما ورد

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ (النازعات: ١: ٥)

٣. والملائكة أيضًا هم سفراء بين الله والرسول. يقول الله تعالى:

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ (الشورى: ٥١)

ويقول الله تعالى:

﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (النحل:٢)

ويقول الله تعالى عن النبي (ﷺ).

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٩٧)

٤. تنزل الملائكة بالبشرى للناس أو بعذابهم أيضًا. يقول الله تعالى:﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ (هود: ٦٩)

وهكذا بشروا سيدنا زكريا والسيدة مريم عليهما السلام. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً﴾ (مريم: ١٩)

وجاءوا إلى سيدنا لوط عليه السلام بهلاك قومه. يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ (هود: ٨١)

وبعد هذا يفتح هؤلاء الملائكة فوهة جبل بركاني على قوم لوط عليه السلام، وهلك جميع القوم، ومع أن الملائكة هم الذين قاموا بهذه المهمة؛ فإن الله تعالى نسب هذا العمل إلى نفسه، لأنه تم تنفيذاً لأمر الله وحكمه، وليس للملائكة أي إرادة ذاتية فيه. يقول الله تعالى:

أيضا هذا الحديث في صحيح مسلم: (٦٦٧٩) حدّثني مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَلَفٍ. حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ أَبِي بُكَيْرٍ. حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ أَبُو خَيْثَمَةَ. حدّثني عبدُ اللّه بْنُ عَطَاءٍ أَنَّ عِكْرِمَةَ بْنَ خَالِدٍ حَدَّثَهَا أَنَّ أَبَا الطُّفَيْلِ، حَدَّثَهُ قال: دَخَلْتُ عَلَىٰ أَبِي سَرِيحَةَ، حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ بِأُذُنَيَّ هَاتَيْنِ، يَقُولُ: «إِنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. ثُمَّ يَتَصَوَّرُ عَلَيْهَا الْمَلَكُ». قَالَ زُهَيْرٌ: حَسِبْتُهُ قَالَ: الَّذِي يَخْلُقُهَا: «فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ فَيَجْعَلُهُ اللّهُ ذَكَراً أَوْ أُنْثَىٰ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَسَوِيٌّ أَوْ غَيْرُ سَوِيٍّ؟ فَيَجْعَلُهُ اللّهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرَ سَوِيٍّ. ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ مَا رِزْقُهُ؟ مَا أَجَلُهُ؟ مَا خُلُقُهُ؟ ثُمَّ يَجْعَلُهُ اللّهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيداً». (يوسف عامر).

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (هود: ٨٢)

٥. إن الملائكة ترقب وترصد أعمال البشر، وتحفظ ثواب أعمالهم وذنوبهم. يقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار: ١٠ : ١٢)

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨)

﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١٠، ١١)

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١)

٦. إن الملائكة وسيلة لنزول رحمة الله تعالى على البشر أو لعنته، سبحانه، عليهم طبقا لأعمالهم. يقول الله تعالى:﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٣)

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (فصلت: ٣٠، ٣١)

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ (الأحزاب: ٤٣)

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٦)

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ (الشورى: ٥)

وتلعن الملائكة المسيئين والمذنبين. يقول الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (آل عمران: ٨٧)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (البقرة: ١٦١)

٧. ستتولى الملائكة شئون الجنة والنار. يقول الله تعالى:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ (الزمر: ٧١)

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر:٧٣)﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٣، ٢٤)

﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ﴾ (التحريم: ٦)

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ (المدثر: ٣١)

٨. الملائكة يحفون عرش الله المقدس. يقول الله تعالى:

﴿وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ (الزمر ٧٥)

﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلأِ الأَعْلَى﴾ (الصافات: ٨)

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (سورة ص: ٦٩)

ستحمل الملائكة عرش الله تعالى يوم القيامة، وهم حافون من حول العرش، وينفذون كل ما يأمرهم به الله تعالى. يقول الله تعالى:

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٧)

﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكاً دَكاً (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾(الفجر: ٢١، ٢٢)

٩. إن الملائكة لا تعصي الله أبدا، فهم دائما يسبحون بحمد ربهم ويستغفرونه، ويخشون جلاله وجبروته. ويستغفرونه لأهل الأرض عامة، وللمؤمنين خاصة. يقول الله تعالى:

﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللَّـهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الشورى: ٥)

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (غافر: ٧)

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّموات وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ١٩، ٢٠)

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦: ٢٨)

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦)

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (الرعد: ١٣)

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(النحل:٤٩، ٥٠)

ذكرنا سابقا أن سائر الأديان كانت تعتقد في وجود الملائكة، ولكن ساد هذا الاعتقاد أمور كثيرة تخالف التوحيد الكامل؛ فعند فلاسفة اليونان تم تعجيز الإله بعد خلق العقل الأول، وأُسند إلى الملائكة المحرك الأصلي للقرار في شكل العقول، وكان صابئو العراق يعبدونهم في شكل الأجرام السماوية، وكانوا يعتقدون بأنها تحكم العالم. وكان اليهود يعتقون أن لهم قدرا من الإرادة والقدرة، وكانوا أحيانًا يمنحونهم منزلة الآلهة كما يبدو في مواضع من قصص التوراة (سفر التكوين:الإصحاح ١٦، الفقرة ١٣)[1]، (الإصحاح ١٨، الفقرة ٢)[2]، (الإصحاح ٣، الفقرة ٢٢)[3] وكانوا يذكرونهم أحياناً بلقب "أبناء الله" (التكوين: الإصحاح ٦،

---

[1] - سفر التكوين، الإصحاح ١٦، الفقرة ١٣: "فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رُئى. لأنها قالت أهاهنا أيضًا رأيت بعد رؤية".(يوسف عامر).

[2] - سفر التكوين، الإصحاح ١٨، الفقرة ٢:"فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض".(يوسف عامر).

[3] - سفر التكوين، الإصحاح ٣، الفقرة ٢٢:"وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد".(يوسف عامر).

الفقرة ٢)[1]. أما الهنادكة فيطلقون عليهم "ديفتا: الملاك الذكر"، و"ديفى: الملاك الأنثى"، ولوثوهم بخصائص بشرية من ناحية، ومنحوهم درجة آلهة صغيرة بزعم أنهم يتمتعون بقدرة وصلاحيات. وكان المسيحيون يعتقدون أن بعض الملائكة مثل روح القدس جزء من الله، وكان هذا ركنا من أركان التثليث. أما العرب فكانوا يعتقدون في أن الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم، ويعتبرونهم شفعاء لذنوبهم.

قضى الإسلام على كل هذه المعتقدات الباطلة، ودحض كل معتقد منهم على حدة، وبين أن الملائكة مخلوقات لله تعالى مثل أي مخلوقات أخرى، ليس لهم أي قدرة أو إرادة إلهية؛ وإنما هم فقط ملائكة مشغولون دائما في طاعة الله وعبادته وتنفيذ أحكامه سبحانه. ويؤدي كل واحد منهم أي عمل يكلفه به الله تعالى، فهم عباد لله تعالى مثلنا؛ ومن ثم فهم لا يستحقون عبادة الآخرين لهم، ولا هم يستطيعون الشفاعة لأي مخلوق، ولا يقدرون على عرض أي شيء أمام الله تعالى. كان اليهود يقولون عنهم إنهم (نعوذ بالله) أبناء الله، وكان العرب يلقبونهم (حاشا لله) ببنات الله. ولقد دحض القرآن هذين القولين، ونزه الملائكة عن خصائص البشر ورغباتهم؛ فهم ليسوا رجالا ولا نساءً، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يمكن لهم أن يدعوا الألوهية، وهم دائما في خشية الله تعالى وعبادته وطاعته. يقول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء: ٢٦: ٢٩). ويقول تعالى:

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلائِكَةُ

---

[1] – التكوين، الإصحاح ٦،الفقرتان١، ٢:" وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات* أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا".(يوسف عامر).

المُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٧١، ١٧٢). ويقول تعالى:

﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٠). ويقول تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤٠، ٤١). ويقول تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ (النبأ: ٣٨). ويقول تعالى:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم: ٢٦). ويقول تعالى:

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلاَئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُواً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (الإسراء ٤٠: ٤٤). ويقول تعالى:

﴿وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الزخرف: ١٩، ٢٠)

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة توضح هذا المعنى، واستقصاؤها هنا ليس هدفا.

كان اليهود يعتقدون أن الملائكة تأكل وتشرب؛ فحيثما ورد في التوراة ذكر مجيء الملائكة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام ذكر أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أعد لهم مأدبة؛ فتناولوا الطعام. (سفر التكوين، الإصحاح ١٨، فقرة ٨)[1]، ولكن القرآن

---

[1] سفر التكوين، الإصحاح ١٨، الفقرة ٨ :"ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم. وإذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا".(يوسف عامر).

الكريم أعاد هذه القصة، وصرح بأن الملائكة منزهون عن الاحتياجات البشرية، وحين أعد لهم سيدنا إبراهيم ﷺ طعاما (ما وصلت إليه أيديهم). يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود: ٧٠).

كان كفار قريش يقولون: لم لم يُرسل إلينا رسولا ملكا بدلاً من إنسان؟ فقال الله تعالى ردا عليهم:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام:٩).

يثبت من هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات الاختلاف البين بين القدرة الملكوتية والقدرة البشرية، ولكن الملائكة أحيانا تظهر في صورة البشر كما جاء في قصة السيدة مريم عليها السلام وغيرها من القصص. يقول الله تعالى:

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياًّ﴾ (مريم: ١٧).

كان هذا هو السبب الذي جعل سيدنا إبراهيم ﷺ يحسب أن الملائكة (الذين أتوه في صورة بشر) بشرا؛ فقدم لهم الطعام، ولكن سرعان ما اتضح له الأمر.

وبعد هذا الحديث المفصل فما غرض الإسلام من وجوب الإيمان بالملائكة ؟ في الحقيقة أن هناك غرضين لهذا الأمر، وهما:

١- أنزلت أممُ عبدةَ الأصنام وغيرهم من أصحاب الملل والديانات الأخرى قبل الإسلام الملائكة منزلة الإله؛ لذا أراد الإسلام أن يقضي تماما على هذا الاعتقاد الباطل، حتى تتضح حقيقة أن الملائكة ما هم إلا عباد لله تعالى، وليس لهم أي قدرة أو سلطة. فكان لا بد من الإيمان بهم بهذه الحيثية حتى تكتمل كلمة التوحيد.

٢- من أجل القضاء على اعتقاد الماديين في أن خواص وطبائع والمادة هي القوة الدافعة والمحركة بذاتها. خاصة وأن هذا الاعتقاد هو حجر العثرة في تخبطهم وبعدهم عن الحق، ويقودهم في النهاية إلى الإلحاد وإنكار وجود الله تعالى. والحقيقة هي أن هناك أسبابا وعللا روحانية مسلطة على هذه الخواص والطبائع المادية، وهي التي تقود وتسير نظام العالم

تنفيذا لأوامر الله تعالى وطبقا لأصوله وقوانينـــه المحـــددة. إن المـــادة وخواصها ليست مؤثرة بنفسها؛ وإنما تتأثر بقوة أخرى، وهي التي تؤثر فيها عن طريق أرواحها المجردة، وبهذه العقيدة يـــتحطم للأبـــد صـــنم المادية. خلاصة القول هو أن الأحكام والشرائع قد تنزلت مـــن الخـــالق المنزه إلى المخلوق المادي، وأن أفعال القدرة الإلهية قد نفذت عن طريق هذه الأرواح المجردة والخاضعة لله تعالى.

الإيمان بالرسل

«وَرُسُلِه» (البقرة:٢٥٨)

هذه العقيدة (الإيمان بالرسل) عليهم السلام واحدة من خصائص الإسلام، التي لا تتم إلا عن طريقها. اعتقدت كل أمة من أمم الدنيا قبل مجيء محمد رسول الله ﷺ في أنها أحب الأمم إلى الله تعالى، وهي المختارة لهداية غيرها من الأمم، ولم تفز أي أمة دونها بهذا الشرف. كما كانت كل أمة تعتقد أن أرضها مسكن للآلهة، أو الملائكة، وفي أن لغتها هي لغة الإله المقدسة. خلاصة القول هو أن كل الأمم ادعت بأنها أفضل الأمم وأنها أمة الله تعالى المختارة سواء كانت بابل، أو مصر، أو اليونان، أو إيران، أو الهند، فكانت كل أمة تعتقد في أنها الأمة الوحيدة المستحقة لشرف نيل رسالة الله. ولكن حين جاء محمد ﷺ بَدّل حدود دائرة هذا الاعتقاد والفكر الضيق إلى دائرة كبيرة تسع العالم أجمع، فقد أكد النبي ﷺ أن سائر أمم العالم سواسية عند الله تعالى، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، [1] كما أخبر أن الأرض كلها له تعالى، وأن سائر الأمم مخلوقات للخالق الواحد القهار. قال رسول

---

[1] أحمد بن حنبل. وهذا نصه: حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا إسماعيل حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسودِ على أحمر إلا بالتقوى، أَبَلَّغْتُ؟ قالوا: بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، ثم قال: أيُّ شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: ثم قال: أيُّ بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم، ــ قال: ولا أدري قال: أو أعراضكم أم لا ــ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، أَبَلَّغْتُ؟ قالوا: بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب».(يوسف عامر).

الله ﷺ:« وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وآدَمُ مِنْ تُرَابٍ »[1]. وأكد ﷺ على أن التقوى هي معيار الأفضلية بين الناس وسائر الأمم.

وكانت أول نتيجة ظهرت لهذا التعليم والدرس المحمدي هي نسيان أسطورة أفضلية الأمم والبلاد بعضها على بعض، وأصبحت كل الأمم في مستوي واحد، واتضح تماما طريق المساواة بين الناس جميعًا. كان بنو إسرائيل يفتخرون بأنهم أبناء الله، لذا رفض الإسلام الاعتراف بادعائهم هذا. يقول الله تعالى:﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ (المائدة: ١٨).

زعم بنو إسرائيل أن النبوة والرسالة إرث لهم فقط، كما زعم الهنادكة أن أنبياءهم وملائكتهم(حسب زعمهم) قد سمعوا لغة الله تعالى، والتي حُفظت في صحائف"الفيدا"، كما ادعت الأمم الأخرى أيضًا بمثل هذه الادعاءات. وجاء الإسلام وأكد أن هذا التخصيص مخالف تماما لعدل الله تعالى وكرمه ورحمته. يقول الله تعالى:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾(الجمعة:٤).

﴿قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾

(آل عمران: ٧٣، ٧٤).

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلاَ المُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ (البقرة: ١٠٥).

---

[1] الجامع الترمذي آخر كتاب المناقب. وهذا نص الحديث: (٤١٢٧) حَدَّثَنَا هَارُونُ بنُ مُوسَى بنِ أَبِي عَلْقَمَةَ الفَرْوِيُّ المَدِينِيُّ، قال حَدَّثَنِي أَبِي عن هِشَامِ بنِ سَعْدٍ عن سَعِيدِ بنِ أَبِي سَعِيدٍ عن أَبِيهِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قال: «قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ. مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ. وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وآدَمُ مِنْ تُرَابٍ» .

قال أبو عيسَى: هذا أصح عندنا من الحديث الأول حديثٌ حسنٌ. وَسَعِيدٌ المَقْبُرِيُّ قَدْ سَمِعَ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَيَرْوِي عَنْ أَبِيهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةَ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وَقَد رَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ هَذَا الْحَدِيثَ عن هِشَامِ بنِ سَعْدٍ عن سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ عن أَبي هُرَيْرَةَ عن النَّبيِّ نَحْوَ حَدِيثِ أَبي عَامِرٍ عن هِشَامِ بنِ سَعْدٍ.(يوسف عامر).

أخبر الإسلام أن الله تعالى كان قد بعث في كل أمة رسولا حتى يهديهم إلى الصراط المستقيم ويُذَكّر الغافلين، حتى جاء محمد ﷺ وجعله الله خاتم الأنبياء والرسل.

كان العالم قبل بعثة محمد ﷺ مقسمًا إلى شعوب وقبائل وأسر مختلفة، لا تعرف أحدها الأخرى؛ فعلى سبيل المثال كان رجال ديانات الهند يعتقدون أنه لا يحق تبليغ رسالة الله خارج بلاد الهند، فالإله عندهم ما يريد سوى هداية الهند فقط (دون غيرها)،كما كان "زرادشت" يؤمن بأن سائر الدنيا محرومة من نور هداية "إله الخير". وزعم بنو إسرائيل بأنه لا يمكن بعثة أي نبي أو رسول إلا من بينهم، أما المسيحيون فقد كانوا يعتقدون في أنهم يستحقون بنوة الله تعالى، لكن محمدا رسول الله ﷺ أكد على أن هداية الله تعالى ليست مخصوصة لأي بلد أو قوم أو لغة، لذا فالعرب والعجم والشام والهند وسائر البلاد متساوية. وقد رأى محمد رسول الله ﷺ ببصيرته نور الله تعالى في الشرق والغرب، وفى الشمال والجنوب، وفي كل بلد وفي كل شعب وقبيلة، وسمع نداءه في كل لغة. يقول الله تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ (يونس: ٤٧)

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾ (النحل: ٣٦)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ (الروم: ٤٧)

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧)

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ (الزخرف: ٦)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)

يثبت من الآية الأخيرة أن رسول الله ﷺ أمر ببيان وتفسير هذه الرسالة الإلهية.

ليس من الضروري لأي يهودي أن يؤمن بأي نبي سوى موسى عليه السلام، ويمكن للمسيحي ألا يؤمن بسائر الأنبياء، ويبقى مسيحيا كما هو، ويمكن للهندوكي أن يجعل الناس جميعًا في درجة منبوذة، ويبقى هو هندوكيا محضا، ويمكن للزرادشتي أن يقول إن العالم كله بحر من الظلمات، ويبقى كما هو زرادشتيا، كما

يمكن له القول أنه متدين رغم أنه يُكَذِبَ (نعوذ بالله) إبراهيم وموسى عليهما السلام، ولكن محمدا ﷺ دحض هذا ولم يجعله ممكنا، فلا يمكن لأي أحد من أتباعه ﷺ ألا يؤمن بأي نبي من الأنبياء والرسل السابقين. وكان النبي ﷺ يدعو في تهجده ﷺ ويقول: « **والنبيونَ حقٌ ومحمدٌ حق** »[1] فلا يمكن لأي أحد أن يكون مسلما طالما لا يؤمن بموسى وعيسى وسليمان وداود وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم السلام، كما أنه لا يمكن أن يكون مسلما طالما لا يُقر إقرارا تاما بمساواة أنبياء الله ورسله جميعا في عصمتهم وصدقهم وأمانتهم وأهليتهم للنبوة والرسالة. ولا يؤمن بأن الله تعالى قد أنعم على سائر الأمم كالعرب وأرسل لهم أنبياء ورسلا لهدايتهم. والإيمان بالأنبياء والرسل ضروري كالإيمان بالله تعالى. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (النساء: ١٥٠: ١٥٢)

﴿وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة: ١٧٧)

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ (النساء: ١٣٦)

---

[1] صحيح البخاري باب التهجد. وهذا نص الحديث كما ورد في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بليل:(٦١٧٢) حدَّثنا عبدُ الله بنُ محمدٍ حدَّثنا سفيانُ قال: سمعتُ سليمانَ بن أبي مسلمٍ عن طاوُسٍ عنِ ابن عباس «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا قامَ من الليل يتهجَّدُ قال: اللهمَّ لك الحمدُ، أنتَ نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمدُ أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ ووعدُك حقّ، وقولك حقّ ولقاؤك حق، والجنَّة حقّ والنار حق والساعة حق، والنبيونَ حقّ ومحمدٌ حق، اللهمَّ لك أسلمتُ وعليك توكلتُ وبك آمنتُ وإليك أنبتُ وبكَ خاصمتُ وإليك حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرت، وما أسرَرتُ وما أعلنت، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخر، لاإلـه إلا أنت ـ أو ـ لاإلهَ غيرُك».

ويقول في خواتيم سورة البقرة:

﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥)

﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: ١٣٦، آل عمران: ٨٤)

والتفريق بين الرسل يعنى الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر، فقد منع الإسلام هذا منعا باتا، وأمر بالإيمان بسائر الأنبياء والرسل السابقين وأنهم جميعا رسل وأنبياء الله تعالى صادقون وأمناء.

كان اليهود يعتقدون (نعوذ بالله) في أن عيسى عليه السلام كاذب، وكانوا يلصقون به عليه السلام تهما وافتراءات مختلفة، ولا يزالون حتى الآن يعتقدون أن التشابه الذي يوجد بين اليهودية والإسلام أكثر من التشابه الذي يوجد بين المسيحية والإسلام، لذا لو لم يكن الإيمان بالمسيح عليه السلام واجبا في الإسلام؛ لاستعد يهود كثيرون للدخول في الإسلام، ولكن الإسلام لم يرض بهذا الذل والعار أبدا، وطالما لا يُقر أي يهودي بنبوة عيسى عليه السلام وعصمته وطهارته؛ فلا يدخله الإسلام في دائرته. وفي عهد النبي ﷺ استعد كثير من اليهود لاعتناق الدين الإسلامي، ولكن دون الإقرار والإيمان بعيسى عليه السلام، ولكن النبي رفض هذا تماما رغم الفوائد الكثيرة لصداقتهم. يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (المائدة: ٥٩).

كانت قريش تغضب من ذكر اسم عيسى عليه السلام، ولكن ما أُنكرت عصمة عيسى عليه السلام ونبوته من أجلهم. يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ (الزخرف: ٥٧: ٥٩).

كانت قريش تعلم أن الإسلام يؤمن بأن عيسى بن مريم عليه السلام عبد(لله تعالى) ورسول(من قِبَلِه)، وأنه عليه السلام ليس إلها، ومع هذا كانوا يَدّعون كالمسيحيين

بأن المسلمين يعبدون عيسى بسبب الإيمان بعيسى عليه السلام، وقد أبطل القرآن الكريم ادعائهم هذا.

لا يوجد حصر لعدد الرسل في الإسلام، وورد في رواية ضعيفة للطبراني[1] أن الله تعالى أنزل ١٢٥ ألف رسولا، وفي رواية أخرى ورد بأن عددهم يقل عن هذا. وجاء في القرآن الكريم أسماء أولئك الأنبياء والرسل فقط الذين كان العرب يعرفونهم، أو مَنْ جاء ذكرهم في صحائف جيرانهم من اليهود والنصارى. وورد في القرآن ذكر لبعض الأنبياء الذين كان يعرفهم العرب فقط، ولم تكن اليهود والنصارى على معرفة بهم، مثل سيدنا هود، وسيدنا شعيب عليهما السلام. كما ورد في القرآن أيضًا ذكر لبعض الأنبياء الذين كانوا معروفين لدى اليهود والنصاري، ولكنهم لا يؤمنون بنبوتهم مثل سيدنا داود، وسيدنا سليمان عليهما السلام. والإسلام يؤمن بنبوة هؤلاء الرسل جميعًا، ويقر بصدقهم وفضلهم وأمانتهم.

وجدير بالذكر أنه لم تكن هناك حقيقة واضحة للنبوة والرسالة قبل الإسلام، فقد كانت النبوة عند اليهود تعنى النبوءة والتنبوء والتكهن وكانوا يطلقون على النبي مسمي المتنبأ، وكانوا يؤمنون بأن دعاؤه خيرًا كان أم شرًا سريع القبول[2]، ومن ثم توجد عندهم ومضات محضة عن رسالة ونبوة سيدنا إبراهيم، وسيدنا لوط، وسيدنا اسحاق، وسيدنا يعقوب، وسيدنا يوسف عليهم السلام، بل إن شأن كاهن الشام ملكي صادق أكثر وضوحا عندهم مقارنة بسيدنا إبراهيم[3]. ويعدون سيدنا داود وسليمان عليهما السلام ملكين. ومتنبأ عهدهما نبي آخر[4]،

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، المجلد الثامن ص ١٦٧، مصر.

(٢) انظر التوراة سفر التكوين، الإصحاح٢٠، الفقرة٧، وهذا نصها:"فالآن رُد امرأةَ الرجل فإنه نبي فيُصلي لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك".(يوسف عامر).

(٣) سفر التكوين، الإصحاح ١٤، الفقرة ١٨، وهذا نصها:"وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزا وخمرا. وكان كاهنا لله العلي".(يوسف عامر).

(٤) هو النبي صموئيل ومعناه بالعبرية اسمه الرب (يوسف عامر).

وهذا هو السبب في وجود أمور مهينة في قصص وكتب اليهود منسوبة دون تدبر إلى أنبياء بني إسرائيل. ولم تُذكر حقيقة واضحة عن النبوة والرسالة عند المسيحيين، وإلا لما قيل بأن مَن جاءوا قبلى كانوا لصوصا[1]، ولا يوجد أي وصف لرسل الله في الأناجيل الموجودة حاليا، ولا أي ذكر لهم، كما لا يوجد إثبات على صدقهم وأمانتهم، ولا يسلمون بما ورد في الإنجيل عن سيدنا زكريا وسيدنا يحيى فيما يتعلق بشأن النبوة. وحين أُرسل محمد رسول الله ﷺ وضّح حقيقة مقام النبوة هذا المقام جليل القدر، وبيّن فروضه وخصوصياته، وقرر بأن الإيمان بجميع الرسل والأنبياء طريق النجاة، كما بيّن ﷺ أن النبوة والرسالة يمنحها الله تعالى للخاصة من البشر ويكلفهم بتبليغ رسالته وأحكامه إلى البشر، وهدايتهم إلى طريق الخير والصدق، فالرسل هداة، ودعاة، ومبشرون، ومعلمون، ومبلغون، ونور. ومنهم من تحدث الله معه، ولا يظهر الله على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول، وكان يهدى بهم الناس. والرسل معصومون من الذنوب وكل سوء ونقص، وهم عباد الله المصفون والأخيار، وهم أفضل الناس في عهدهم، وسائر أعمالهم لله تعالى، والله تعالى معهم. أنزل الله رسلا في كل أمة للقيام بتبليغ رسالته سبحانه، فمن آمن بهم نجا، ومن كذَّبهم هلك. تحدث القرآن الكريم عن حياة الرسل وتبليغهم لرسالاتهم وفضائل أخلاقهم، وإخلاصهم في عبادة الله تعالى. وبقراءة الآيات القرآنية التي تدل على هذه المعاني أو بالاستماع إليها تنبض في القلب رغبة تقليدهم، ويشتاق المرء إلى إتباعهم ويؤمن بصدقهم وأمانتهم. أما عن الأمور الخاطئة التي نسبت إلى شأن النبوة ومقامها في صحائف الأديان الأخرى فقد أبطلها الإسلام.

خلاصة القول هو أن الخصوصية الكبرى للنبوة والرسالة التي أقرها الإسلام هو أن الأنبياء والرسل طاهرون ومعصومون من كل سوء ونقص. لم يصل بنو إسرائيل إلى حقيقة النبوة والرسالة، ومن ثم نسبوا إلى أنبيائهم – بجرأة بالغة– كل أنواع الذنوب والآثام. أما المسيحيون فيقولون بأن عيسى معصوم، وبقية الأنبياء مذنبون، ولكن الإسلام جعل الأنبياء والرسل جميعًا في منزلة رفيعة

[1] الإنجيل.

ودرجة واحدة، وأقر بأنهم جميعا يشتركون في صفات الطهارة والعصمة من كل نقص، وذلك لأن المذنب أو الآثم لا يستحق أن يكون هاديا للمذنبين أو الآثمين. والأعمى لا يقدر على هداية الأعمى إلى الطريق، وبناء على هذا ثبَّت الإسلام عظمة وعصمة وعزة رسل الله تعالى جميعًا في الدنيا، وأثبت براءة كل من أتهم منهم في عصمته، وهذا من أجل أعمال الرسالة المحمدية. كان بيِّن من أسلوب الإنجيل نفسه أن عيسى عليه السلام لم يكن يُجِل والدته عليها السلام خلافًا للوصايا العشر، لذا أبطل القرآن الكريم هذا. ويقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام:

﴿وَبَراً بِوَالِدَتِي ولَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً﴾ (مريم: ٣٢)

لأن عدم إجلال الوالدين شقاء طبقًا للوصايا العشر، كذلك أدعى الإنجيل الحالي على سيدنا عيسى عليه السلام بأنه لا يهتم بالصلاة والصوم، لذا يقول الله تعالى:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم: ١٢)

كان اليهود يعتقدون أن سليمان عليه السلام هو الموجد للتعاويذ والتمائم والأسحار وغيرها، في حين أنه ورد في التوراة أن السحر والشعوذة شرك، وفي الآية الكريمة الآتية يرد القرآن الكريم علانية على افتراء اليهود هذا:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة: ١٠٢)

وكذلك ادعى اليهود على لوط عليه السلام الفحشاء، وقد ردّ القرآن الكريم على هذا وأبطله.

ذكرنا سابقًا أن القرآن الكريم أو أن سيدنا محمد (ﷺ) لم يذكر أسماء سائر الرسل، فلا يمكن أن تتولد حمية العقيدة في القلوب بمجرد ذكر قائمة الأسماء أو أسماء أشخاص غير معروفين، وكان معروفًا أن صدى دعوة محمد (ﷺ) ستصل يومًا ما إلى جميع أرجاء العالم، وستعتنقها أمم الأنبياء والرسل الآخرين وغيرهم من الأمم، وأن كل أمة ستبحث عن أسماء أنبيائها وأثرهم في الصحيفة المحمدية (القرآن الكريم) ومن ثم ورد ذكر سائر الأنبياء والرسل في آية قرآنية جامعة، وأخبر بعلامة صدقهم. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً (١٦٤) رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٦٣: ١٦٥).

ولقد اتضحت حقيقة الأنبياء والرسل هذه ثانية في سورة غافر. يقول الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾** (غافر: ٧٨).

وطبقًا لأسس تعاليم الإسلام يجب الإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلا قبل محمد ﷺ إلى مختلف الأمم والبلاد مثل الصين، وإيران، والهند، لذا لا يمكن لأي مسلم أن ينكر إنكارا قطعيا صدق وأمانة هؤلاء الأشخاص الذين تُقدرهم وتجلهم أممهم، وينسبون إليهم دينهم وعقيدتهم. وعليه ذهب بعض العلماء إلى القول بأنه لا يمكن الشك في إمكان وجود "كرشن" و"رام" [1] في الهند بل وفى "زرادشت" إيران[2]، ليس هذا فحسب، بل وذهب البعض إلى هذا أيضًا بالنسبة لبوذا، ولكن لا يمكن تخصيص هذه الأسماء؛ إذ إن الحقيقة هي أن الرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم على قسمين؛ أحدهما من صُرح فيه بأسمائهم، وثانيهما من لم يُصرح بأسمائهم، لذا فالإيمان واجب على كل المسلمين بالأنبياء والرسل الذين ورد ذكر أسمائهم، أما من لم تُذكر أسماؤهم؛ فيجب الإيمان بهم إيمانا إجماليا وهو الإيمان بأنه كان في تلك الأمم رسل وأنبياء لله تعالى، ولكن لا تُعرف أسماؤهم. أما الأمم التي تستخدم لهم أسماء، فإن كانت حياتهم(الرسل) وتعاليمهم مطابقة لشأن النبوة والرسالة؛ فيمكن الميل إلى نبوتهم ورسالتهم، والسبب في عدم إمكانية اليقين في هذا إيماننا بأن الوحي صامت عن هذا التخصيص والتعيين.

---

[1] كلمات طيبات للسيد شاه مرزا مظهر جان جانان رحمه الله.

[2] الملل والنحل لابن حزم.

ومع أن أسماء هذا النوع من الأنبياء والرسل لم يُذكر في القرآن؛ فإنهم قد أُرسلوا قبل محمد ﷺ، وينزلهم أتباعهم منزلة الأنبياء والرسل، وحدد القرآن الكريم أساسا لمعرفتهم، وهو أنهم دعوا أممهم إلى توحيد الله تعالى. يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)

لذا فسائر هداة البشر والمصلحين القدماء الذين جاءوا بأي دين إلى الدنيا، وكانت دعوتهم دعوة إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام وغيرها من العبادات، وكانت حياتهم مثالا يدعون إليه؛ فلا يمكن القول بأنهم ما كانوا رسلا لأقوامهم في زمانهم، فطبقا للقرآن الكريم لم تخل الأمم الكبرى من وجود الأنبياء والرسل. والإسلام يفرض على كل مسلم أن يؤمن إيمانا كاملا بكل الأنبياء والرسل السابقين لمحمد ﷺ، ويقر بصدقهم جميعا؛ وإلا فلا يُعد مسلما، وجميع هؤلاء الرسل دعوا الناس إلى توحيد الله تعالى. وهناك رسل فُضلوا على رسل. يقول الله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٣)

عظَّم النبي ﷺ الرسل السابقين وكرَّمهم. في ذات مرة خاطبه صحابي بـ **خير البرية** فقال (ﷺ): «ذاكَ إبراهيمُ عليه السّلامُ» [١] وذات مرة سأل صحابي: من كان أفضل الرسل نسبا؟ قال (ﷺ): «يوسفُ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم عليهم السلام» [٢]، وذات مرة كان هناك يهودي في المدينة يقول:" والذي اصطفى موسى

---

[١] مسند بن حنبل ج ١ ص ٥٣. وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد، باب : (١٢٦١٥) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الرحمن عن سفيان عن المختار بن فلفل قال: سمعت أنس بن مالك قال: قال رجل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: يا خير البرية قال: «ذاكَ إبراهيمُ عليه السّلامُ».(يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري، مناقب يوسف علي السلام ص ٤٧٩. وهذا نص الحديث، كتاب الأنبياء، باب «أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت»: (٣٣١٢) حدَّثنا إسحاق بن منصور،

على البَشَرِ، وكان هناك مسلم يسمع، فغضب منه، وقال: أيْ خَبيثُ، على محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ ثم ضربه، فجاء إلى حضرة النبي واشتكى، فأرسل النبي لاستدعاء هذا الصحابي وسمع دعوى ما حدث فاشتد غضبه وقال: «لا تُخَيِّروا بينَ الأنبياءِ »[1]. أي أيُ فضيلة تنقص من شأن أي نبي.

هذه هي التعاليم والهدايات المحمدية، والتي عن طريقها وُجدت وحدة الأديان في العالم، والمساواة الروحانية، والأخوة الإنسانية، ومشاعر احترام وتبجيل سائر الأنبياء والرسل. كان أتباع رسول بني إسرائيل لا يزيدون عن بعض مئات الألوف، ولكن ازداد عدد محبيه ومبجليه إلى ٤٠ مليونا وأكثر عن طريق محمد ﷺ. كان اليهود يلصقون التهم والادعاءات على مريم وعيسى عليهما السلام لمدة ٦٠٠سنة، وجاء محمد ﷺ وأبطل هذه التهم والافتراءات تماما، وأثبت عصمتهما، وبفضل هذا يُشهد بعصمتهما اليوم في ٤٠ مليون لغة. كان هداة ومصلحو الهند وإيران والصين لا يلقون احتراما أو تقديرا خارج بلادهم، ولكن المسلمين اصطحبوا احترامهم وتقديرهم حيثما ذهبوا.

أخبرنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبدِ اللهِ عن أبيهِ عنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الكريم ابنُ الكريم ابن الكريم بن الكريم يوسفُ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم عليهم السلام».(يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري مناقب سيدنا موسى ﷺ. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص، والخصومة بين المسلم واليهودى: (٢٣٧٠) حدثني موسى بنُ إسماعيلَ حدَّثنا وُهَيب حدّثنا عمرُو بنُ يحيى عن أبيهِ عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: «بَيْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ جاءَ يهوديٌ فقال: يا أبا القاسمِ ضربَ وَجْهي رجلٌ من أصحابِكَ. فقال: مَن ؟ قال: رجُلٌ من الأنصارِ. قال: ادعوهُ. فقال: أضربْتَهُ ؟ قال: سمعتُهُ بالسوقِ يحلفُ: والذي اصطفى موسى على البَشَرِ، قلتُ: أيْ خَبيثُ، على محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ فأخذتْني غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وجهَهُ. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: لا تُخَيِّروا بينَ الأنبياءِ، فإنّ الناسَ يَصعَقونَ يومَ القيامَةِ فأكونُ أولَ مَن تَنشَقّ عنه الأرضُ، فإذا أنا بموسى آخِذٌ بقائمةٍ من قوائمِ العَرْشِ، فلا أدري أكانَ فيمَنْ صَعِقَ، أم حُوسِبَ بصَعْقةِ الأولى». (يوسف عامر).

لم يكن العرب على دراية بالرسل أو بأسمائهم وكانوا جاهلين بخصائص النبوة، وغير عارفين بسيرة الأنبياء والرسل، ولا يوقرونهم أو يقدرونهم، وكانوا يسخرون ويحقرون عيسى عليه السلام أمام أصنامهم، كما كانوا يشتعلون غيظا عند سماعهم أي فضيلة لسيدنا موسى عليه السلام [1] ثم انظر إلى حالهم بعد فوزهم بفضل تعليم وهداية محمد ﷺ، فقد وقفوا على أسماء الرسل وفضائلهم وتاريخهم وسيرهم، وأخذوا يسمون أولادهم بأسمائهم تبركا وفضلا، وهذه الأسماء سائدة الآن بين المسلمين جميعًا، وقد شهدوا على صدق وأمانة الأنبياء والرسل، ونُقش احترامهم وتقديرهم في صدورهم، وآمنوا بأن تعظيم الأنبياء والرسل جزء لا يتجزأ من الإسلام. ولا توجد أية أمة تذكر أسماء الرسل والأنبياء بتقدير واحترام وأدب كالمسلمين، في حين أنه يجب على كل مسلم أن يقول عليه السلام عند ذكر أو سماع اسم أي نبي أو رسول.

---

[1] صحيح البخاري، مناقب موسى عليه السلام.

الإيمان بالله وكتبه

يجب على كل مسلم أن يؤمن بالكتاب الذي أوحي إلى رسوله ﷺ وهـذا الإيمان في الحقيقة نتيجة حتمية لعقيدة الإيمان بالرسل، أي أن الإيمان بالرسـول يوجب الإيمان بما أُنزل عليه، والعمل بما في الكتاب الذي أنزل عليه وقد مـدح الله تعالى المؤمنين الصادقين في بداية سورة البقرة حيث قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ (البقرة:٤).

والغاية من الإيمان بكتابه هو الإقرار الكامل بالقلب والروح بكل الأحكام والحقائق الواردة فيه. وكأن هذا تعبير موجز عن الإقرار والإيمـان بالـشريعة المطهرة بكاملها، ولذلك تدخل في هذه الجملة الواحدة تفاصيل الإيمان كله ومعنى الإيمان بالقرآن هو الإقرار بكل ما ورد فيه من علم وعمل وعقائـد وعبـادات وأحكام بدون زيادة أو نقصان. لأن من لا يؤمن به، كيف يؤمر بإتباع ما ورد فيه والتمسك بالعمل طبقا لما نزل فيه من أحكام وتعليمات. ولذلك شـرحه الرسـول (ﷺ) بقوله: «**بما جئت به**». ويقول الله تعالى: ﴿ **وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَـى مُحَمَّـدٍ** ﴾(**سورة محمد: ٢**)

أما إذا ورد في القرآن ما يعنى: أن يؤمن بي (القرآن) المؤمنون فقط، فلم يكن هذا الأمر ذا أهمية بالغة، لأن صاحب أي دين يدعو إلي الإيمـان بكتابـه، ولكن القرآن الكريم وضع أمامه جانبه التكميلي في وحدة العقيدة، كما أمر أهـل القرآن أن يؤمنوا بجانب إيمانهم بالقرآن بصدق الكتب السماوية الأخرى. ومعنى ذلك أن المسلم لا يكون مسلما حتى يؤمن بما أُنزل من كتب وصحف على سائر أنبياء ورسل الله تعالى من قبل بجانب إيمانه بما نزل على محمد.

ولذلك قال تعالى في بداية سورة البقرة :

﴿ **وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ (البقرة: ٤)

ثم قال في آخر هذه السورة ذاتها:

﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُـلٌّ آمَـنَ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ** ﴾ (البقرة: ٢٨٥)

وبعد بيان تفصيلي لدرجات بعض الأنبياء ومراتبهم وذكر الأنبياء الآخرين إجمالا أمر الله تعالى بتصديق ما أوحي الله تعالى إليهم من كتب وصحف:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾(البقرة: ١٣٦)

ونجد في سورة آل عمران تفصيلا أكثر من هذا،حيث قال جل شأنه: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ (آل عمران: ٨٤)

وفي سورة النساء أمر الله بالإيمان بالكتب السماوية السابقة، وذكر أن إنكارها كفر، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ (النساء:١٣٦)

وقد أُنذر الكافرون الذين يكذّبون برسالات الأنبياء بالعذاب في قوله تعالى.

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (غافر: ٧٠، ٧١)

ورد ذكر لأربعة كتب سماوية في القرآن الكريم، وهي:

(١) التوراة، وقد عُبر عنها بـ «صحف موسى» ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى: ١٩).

(٢) زبور داود عليه السلام.

(٣) أنجيل عيسى عليه السلام.

(٤) القرآن.

وقد ذكرت صحف إبراهيم عليه السلام في موضع. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى: ١٨، ١٩)

وورد ذكر ما عداها من كتب وصحف إجمالاً في موضعين.

يقول تعالى:﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (طه:١٣٣)
يقول تعالى:﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (الشعراء:١٣٣)

وبناء على ذلك يؤمن كل مسلم ومسلمة بهذه الكتب إجمالا وتفصيلا مثل إيمانهم الكامل بالأنبياء والكتب التي ذكرت بأسمائها، يجب الإيمان بها بأسمائها، أما الكتب التي لم تذكر بأسمائها، فيجب الإيمان بها إيماناً إجمالياً، وإن كانت هناك كتب سماوية في أي شعب أو أمة قبل القرآن، ولكن لم يرد ذكر اسمه في القرآن صراحة، وتدعو إلى التوحيد وتحث على البعد والنجاة من الطاغوت، فرغم أننا لا نستطيع أن نسلم صراحة بأنها منزلة من عند الله، ولكن لا يمكننا إنكارها صراحة، وبناء على ذلك قال (ﷺ): « لا تُصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذِّبوهم »[1] وهذا هو الحكم أيضًا في حال الكتب الأخرى المشكوك فيها.

لا يؤمن اليهود إلا بالتوراة، ولا يؤمن النصارى بأحكام وشريعة التوراة، ولكن يأخذون بنصائحه الأخلاقية إلا أنهم يراعون الاحتياط والأدب تجاه الكتب السماوية الأخرى عدا الإنجيل كما هو الحال في الإسلام. والمجوس لا يتخيلون أن هناك كلامًا إلهيًا خارج «اوستا»، كما يتصور البراهمة أن الفيض الرباني لا يوجد في غير كتبهم المقدسة «فيدا». وأما الإيمان بالإيمان بالقرآن الكريم يوجب الإيمان بصحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل على أنها كتب إلهية، كما أن المؤمن لا يكذب الكتب السماوية السابقة التي تضم خصائص التعاليم السماوية، لأنها قد تكون كتبا إلهية.

وفي الحقيقة إن اهتمام الإسلام بهذا الأمر اهتماما كبيرا لهو أكبر وأرفع تعليم ودعوة للتسامح، والأخوة الإنسانية، وعدم التعصب، على العكس من أصحاب الديانات الأخرى.فيرجو اليهودي النجاة بإيمانه بكتابه فقط دون الكتب

---

[1] – وهذا نص الحديث: (٤٣٧١) حدَّثنا محمدُ بن بشّارٍ حدَّثنا عثمانُ بن عمرَ أخبرَنا عليُّ بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «كان أهلُ الكتاب يَقرؤون التوراةَ بالعِبرانية ويُفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: لا تُصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: {وآمنّا بالله وما أُنزل إلينا} الآية (البقرة: ١٣٦)».(يوسف عامر).

السماوية الأخرى، ويتمنى المسيحي الملك السماوي بإيمانه بكتابه فقط، وكفره بالتوراة والصحف السماوية الأخرى. ويزعم المجوسي أنه يستحق الجنة بسبب إيمانه باوستا فقط، وتكذيبه لغيره من الكتب، ويعتقد الهندوكي أن كتبه المقدسة تنجيه من الهلاك، وما عداها من كتب خداعٌ ولا أصل لها. كما لا يعترف البوذي بوحي الكتب السماوية، ولا يقر بالعلم اللدني إلا لبوذا. وأما المسلم فهو يقر بأنه لا يستحق الجنة طالما لا يؤمن بالقرآن والكتب السماوية السابقة، ويقر بأنها كتب منزلة من عند الله تعالى على رسله.

إن هذا التعليم والمبدأ ليس تعليما نظريا فقط، بل عليه تقوم أحكام وقوانين الحكومة الإسلامية. واليهود مثلا لا يعترفون إلا بشعبين اثنين فقط. وهما:

بنو إسرائيل وغير بني إسرائيل أو نسل بني إسرائيل، والشعوب الأخرى. أو المختون وغير المختون. وهذان القسمان هما أساس دستور اليهود. ويقسم النصارى الناس من الناحية الدينية إلى ثلاثة شعوب. وهي: النصارى، واليهود، والوثنيون، ولما كان دينهم لا يحمل دستورا، لذا فهم يتبعون القانون الروماني في معظم الأمور، ونجد نصارى الروم يقسمون الناس على أساس البلد إلى روماني، وغير الروماني، فليس لغير الروماني أي حق في ملك الروم، لأن الرومي خلق للحكومة وغيره خلق للعبودية. وكذلك يقسم البوذيون الناس أيضا إلى قسمين: الإيرانيون، وغير الإيرانين، وكذلك يقسم الهنادكة الناس إلى طبقتين: الطبقة الرفيعة والطبقة الدنيا.

أما الإسلام فقد قسم شعوب العالم بناء على عقيدة الإسلام السالفة الذكر من الناحية القانونية إلى أربعة أقسام، ولكل منها حقوقه الخاصة، وقد جرى العمل بها دائما حتى يومنا هذا. وهي كالتالي:

١. المسلمون: الذين يؤمنون بالقرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى ككتب إلهية. كما يؤمنون بأنهم أخوة لأصحاب هذه الكتب، وهم شركاء لهم في الخير والشر، يجوز الزواج من نسائهم، وأكل ذبيحتهم، ولهم حقوق متساوية في سلطنة الإسلام.

٢. أهل الكتاب، أي أتباع الكتب المذكورة أسماؤها في القرآن. وإن شئت فقل، الذين إن كانوا لا يؤمنون بالقرآن ككتاب سماوي إلا أنهم يؤمنون بإحدى الكتب التي وردت أسماؤها في القرآن ككتاب سماوي، لهم حق السكن داخل حدود الحكومة الإسلامية بعد أداء الجزية، تحفظ معابدهم وأماكنهم الدينية، ولا يُكرهون على الدخول في الإسلام، والمسلمون مكلفون بالحفاظ على كرامتهم وأموالهم وأعراضهم وأرواحهم.

ويجوز للمسلمين نكاح نسائهم، وأكل ذبيحتهم، فطعام المسلمين حل لهم وطعامهم حل للمسلمين.

٣. شبه أهل الكتاب: أي الذين لا يؤمنون بالقرآن ولا بالتوراة، ولا بالإنجيل ولا بالزبور، ولكنهم يدعون الإيمان بكتاب سماوي آخر نحو الصابئون الذين يعبدون النجوم رغم ادعائهم بأن لهم كتاب سماوي، والمجوس الذين يدعون بأنهم فقط هم الذين يملكون كتابا سماويا وليس غيرهم. ومع ذلك يعبدون الشمس والنار ومظاهر الطبيعة الأخرى.

وقياسا عليهم أدخل علماء المسلمين الهندوس والبوذيين في هذا القسم في صدر العصر العباسي عند فتح التركستان والسند.

ولا يجوز للمسلمين نكاح نسائهم أو أكل ذبيحتهم، وما عدا هذين الشيئين أعطى لهم الرسول (ﷺ) للصابئين جميع حقوق أهل الكتاب، وهم شركاء في جميع الحقوق الوطنية بعد أداء الجزية، ويجب على الحكومة الإسلامية الحفاظ على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ومعابدهم.

٤. الكفار والمشركون: أي الذين ليس لديهم كتاب سماوي، ولا ينتسبون إلى دين إلهي. ويمكن توفير الأمن لهم بعدة شروط، ولكن يقال لهم من أجل الحصول على الحقوق أن يدخلوا في إحدى الديانات السماوية، كما نال الخرانيون العراقيون حقوقهم بدخولهم في المذهب الصابئي في صدر العصر العباسي.

وهذه الأمور كلها تثبت عظمة اهتمام الإسلام بنشر الأخوة والتسامح والأمن والآمان في كل أرجاء الدنيا، وكم يحث على التسامح الديني بين المسلمين

وأصحاب الديانات الأخرى، ومن ثم طبق المسلمون هذا التعليم في مشاركتهم الشعوب الأخرى وتآلفه معهم رغم إتباعهم وتمسكهم الشديد بعقائدهم وشريعتهم الدينية، كما كان لهذا المبدأ أثره في وضع أساس حضارات مختلفة تناسب تلك البلاد بالتعاون مع المجوس والصابئة واليهود والنصارى والهندوس.

وحدة الأديان

وينتج عن الإيمان بجميع الرسل وبكتبهم وصحفهم وحدة الأديان والتي جاءت كاملة وصحيحة في الإسلام. والإسلام اسم للدين الواحد الذي جاء من آدم مرورا بكل الأنبياء والرسل حتى اكتمل عند محمدﷺ.

قدمت الصحيفة المحمدية(القرآن الكريم) للناس أمران:

الأول: الدين.

الثاني: الشرعية، المنسك المنهاج.

ومعنى الشرعة والمنهاج: الطريق، ومعنى المنسك طريقة العبادة. وانكشف هذا السر لأول مرة في الدنيا لقلب محمد (ﷺ) وهو أن الدين الإلهي واحد منذ الأبد، كان ولا يزال واحدا، وأن نور المعرفة واحد، وإن كان يتلألأ في قوانين ذوات أشكال وألوان مختلفة.

وكان تعليم جميع الرسل والأنبياء تعليما وهداية واحدة في أصل الدين. وجاء الأنبياء جميعهم بدين واحد، ولم يتبدل هذا الدين أو يتغير في أي زمان أو مكان، ولم يحدث فيه أي خلاف باختلاف الشعوب والبلدان، وعلمه كل رسول ودعا إليه كل في زمانه ومكانه.

والحقيقة الدائمة لهذا الدين هي عبارة عن أصول أساسية له يقوم ويرتكز عليها، وهي الإيمان بوجود الله تعالى، وتوحيده عز وجل وعدم الإشراك بالله تعالى، والإيمان بأسمائه وصفاته الكاملة له وحده، والإيمان ببعث الأنبياء والرسل، والعبادة الخالصة لله تعالى، والإيمان بحقوق العباد، والأخلاق الفاضلة، والإيمان بالحساب على كافة الأعمال الصالحة والطالحة، والإيمان بالثواب والعقاب. وتتفق كافة الأديان السماوية فى هذه الأسس والأصول، وإن كان هناك

أي اختلاف في أي أمر فهو يرجع إلى اختلاف طرق التعبير، أو بسبب التدخل البشري.

والشيء الثاني الذي عبر عنه الرسول (ﷺ) بلسان الوحي بالشرعة والمنهاج والمنسك هو الأحكام الجزئية والطرق المختلفة للحصول على المقصد المتفق عليه، وهي تتغير طبقا لخصائص الشعوب والزمان والمكان.

وعلى سبيل المثال: عبادة الله تعالى ركن أساسي في كل دين، ولكن تختلف طرق العبادة بفروق ضئيلة في كل ديانة. وقد عين كل دين الجهة الخاصة لعبادته بناء على منافع خاصة لأتباعه. واتفقت الأديان كلها على نبذ كل قبيح والدعوة إلى كل صالح وخير، وكل دين له طريقة مستقلة في دعوته إلى الخير والشر. ولكنها كلها تجتمع على دين واحد وصداقة أبدية واحدة لا تقبل التبديل أو التغيير.

أنزل الله تعالى الأنبياء والرسل في أزمان مختلفة طبقا لحاجات الشعوب والأقوام، حتى يتعرف كل قوم على الدين الحق، وعلى عبادة الله الواحد القهار الأزلي الأبدي، وكان هذا هدفا أساسيا لكل دين، ولكن كل دين قدم أحكامه الجزئية طبقا لحال القوم والزمن.

حين نتدبر حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام ندرك أن كل رسول صاحب شريعة جاء بعد تعطيل أو فقدان شريعة الدين الذي قبله، أو تغير وتبدل أصلها نتيجة لعبث اليد البشرية. فعلى سبيل المثال ورد في سفر التكوين أن الزبور وصحف أخرى نزلت من أجل تصحيح التحريف الذي حل بصحيفة موسى عليه السلام، ثم جاء الإنجيل بعد ذلك وحين عيَّر البشر فيه نزل القرآن الكريم،ولما كان القرآن الكريم آخر الكتب السماوية، لذا تعهد الله تعالى بحفظه وصيانته حتى تقوم الساعة من التدخل البشري في أحكامه وتعليماته بالتحريف أو التبديل، لذا لم تعد هناك حاجة لنزول أي صحيفة سماوية أخرى بعده، ولم تعد هناك حاجة لبعثة نبي أو رسول بعد محمدﷺ . وهناك العلماء والخلفاء المجددون والمحدثون الذين يولدون باستمرار من أجل تفسير القرآن الكريم وشرح السنة النبوية، ويقضون

على أي بدعة تظهر، وسيظل الله تعالى يخلق مثل هؤلاء العلماء يفسرون قرآنه وسنة نبيه.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز عن حقيقة وحدة الأديان:﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(الشورى:١٣-١٥).

ويقول الله تعالى عن الدعوة إلى الدين الواحد.﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)

حرّف اليهود والنصارى بسبب فرقهم الدينية في أصل الدين، لذا يقول الله تعالى لمحمدﷺ عنهم:﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام:١٥٩).

ثم دعاهم الرسول ﷺ إلى هذا الدين القيم. يقول الله تعالى:﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:١٦١).

خلاصة القول هو أن الإسلام هو ذلك الدين القيم الذي دعا إليه سائر الأنبياء، وهو دين قضى على تحريف اليهود والنصارى في كتبهم، ويدعوهم إلى الدين الواحد الذي دعا إليه كل نبي في زمانه ومكانه، لذا يقول الله تعالى لمحمد ﷺ بعد ذكر أسماء عدد من الأنبياء عليهم السلام:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾(الأنعام:٩٠).

وجاء في القرآن الكريم بعد شرح بعض الحدود والأحكام الإسلامية.يقول الله تعالى:﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم...﴾(النساء:٢٦).

اتضح بعد هذا أن الإسلام يتحد مع تعليمات وهدايات الأنبياء السابقين من خلال شريعته وحدوده. يقول الله تعالى:﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾(الأعلى:١٨، ١٩).

ويقول في آية أخرى:﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء:١٩٦).

ويقول الله تعالى:﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾(فصلت:٤٣)

يثبت من هذا أن محمدا ﷺ دعا إلى ما دعا إليه الأنبياء والرسل من قبله، وما جاء القرآن بدين أو بدعوة جديدة وإنما جاء بنفس الدين وبنفس الدعوة السابقة التي ضاع صوتها في الدنيا وليذكر بها الناس. ولا يوجد بين الإسلام وما سبقه من أديان إلا فيما يتعلق بالإجمال والتفصيل والتكميل.

والشيء الثاني والذي يُمثل حيثية ثانوية في الدين وليس هدفًا أصليا، بل وسيلة تتغير دائمًا، وظلت تتغير حتى عهد محمد ﷺ يُسمى "شرعة" و"منهاجا"و "منسكا". اعترض اليهود على رسول الله ﷺ وقالوا: لمَ يُغير ويبدل في جزئيات الشريعة اليهودية؟ وبيَّن القرآن الكريم في الرد عليهم دائمًا أن هذه الجزئيات ليست مقصودة بذاتها؛ وإنما هي وسائل وسبل، فروع وليست أصول، لذا تتغير وتتبدل دائمًا حسب كل أمة، وستظل في تغير دائما. والقبلة أوضح مثال على هذا؛ فالصلاة هي الهدف الأصلي، أما تحديد وتعيين جهتها أو قبلتها فشيء فرعي وثانوي. اتخذ بنو إسرائيل مسجد آبائهم وأجدادهم (بيت المقدس) قبلة لهم، وارتبط عرب إبراهيم بمسجد آبائهم وأجدادهم(الكعبة)، لذا أصبحت قبلة لهم. ويقول الله تعالى في مقام تخصيص القبلة: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾(البقرة:١٤٨).

أي أن تحديد وتعيين الجهة لا يستحق الأهمية، بل عمل البر هو الجدير بكل الاهتمام، ومن ثم يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾(البقرة:١٧٧)

وهكذا لم يكن حج الكعبة عند اليهود، وحين فرض الإسلام الحج عليها؛ اتضح أن لكل أمة منسكًا أو طريقة لعبادتها الدينية الجمعية والقومية، ومن ثم جعل الإسلام الحج إلى الكعبة. يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(الحج:٦٧، ٦٨)

يأمر الله تعالى اليهود والنصارى في سورة المائدة في سياق الحديث عن العدل وطرق الجزاء والعقاب القانوني بتنفيذ الأحكام والأوامر التي وردت في كتبهم، هذه الأحكام التي تركوها تماما؛ فيقول الله تعالى لليهود:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(المائدة:٤٤)

ثم يقول تعالى عن الشريعة المسيحية:

﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾(المائدة:٤٦، ٤٧)

بعد ذلك يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾(المادة:٤٨)

تدبر كيف يُثنى القرآن الكريم (الصحيفة المحمدية) علي الكتب السماوية السابقة، ويصدقها بأسلوب وبطريقة جيدة،ودعا أصحاب هذه الأديان- الذين لم يعتنقوا الإسلام- إلى العمل بما نزل في كتبهم. ثم أعلن الإسلام بأن القرآن الكريم مصدق وأمين ومهيمن وحافظ الكتب السماوية السابقة، فالقرآن الكريم نفسه فيه كل ما ورد صدقا في هذه الكتب. وقد ترك هؤلاء الناس كتبهم واتبعوا أهواءهم. وهذه الأهواء هي أنهم حرفوا في الكتاب الإلهي وتصرفوا فيه، وأوجدوا فيه التيسيرات، وخلطوا الاجتهادات البشرية بالأحكام الإلهية. يقول الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (البقرة:٧٩)

أُمر محمد ﷺ بألا يترك شريعة الله تعالى، ويتبع أهواء أهل الكتاب، ثم أُخبر بعد ذلك بأن هذه الاختلافات والتغييرات الطفيفة في الحدود والثواب والعقاب -والتي وردت في التوراة والإنجيل والقرآن – لا تمثل أهمية. قال الله تعالى:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (المائدة:٤٨)

وبناء على هذه الاختلافات والتغييرات قالت اليهود إن النصارى على باطل، وقالت النصارى إن اليهود على باطل. يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ﴾(البقرة:١١٣)

واجتمع كلاهما وقالوا للمسلمين(يقول الله تعالى):

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾(البقرة:١٣٥)

أمرهم الله تعالى بأن يترك كل واحد منهم طريقه وملته، ويأتي إلى الدين الأصلي دين إبراهيم عليه السلام. يقول الله تعالى:

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّه وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ...﴾(البقرة:١٣٥-١٣٧)

ادعت اليهود والنصارى بأن الجنة ليست لغيرهم. يقول الله تعالى:

﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾(البقرة:١١١)

ردّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾(البقرة:١١١)

وقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:١١٢)

وخاطب الله تعالى سائر أصحاب الأديان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٦٢)

إن من آمن بوحدانية الله تعالى من المسلمين، واليهود، والنصارى، والصابئين، وعمل عملا صالحا وآمن باليوم الآخر سينال ثواب عمله، أي أن من عمل طبقا لتعاليم رسوله وشريعته (المنزهة عن الشرك والكفر والوثنية) سينال ثواب عمله. لا يمكن التوصل إلى توحيد الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، وعمل البر عن طريق هداية العقل وحده فقط،بل لابد من هداية أي رسول، وعلى هذا يتفق كل أصحاب الأديان، لذا فتصديق الرسالة أيضًا داخل في هذا الأمر. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(النساء:١٥٠-١٥٢)

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾(الحجرات:١٥)

يتضح من هذه الآيات الكريمة أمران اثنان: الأول هو أن الإيمان شرط لقبول العمل. والثاني هو أنه لابد من تصديق النبي أو الرسول من أجل العلم بالإيمان والعمل، لذا فالفرق الأربع التي ذُكرت سابقًا تؤمن بأي نبي أو رسول، وعليه فالإسلام لا يكتمل إلا بالإيمان الصادق بكل الرسل. وقد جاء تفصيل هذا في سورة المائدة. يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ

آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(المائدة:٦٨-٦٩)

ثم يتحدث القرآن الكريم بعد ذلك عن أن اليهود رفضوا دائما الإيمان بالرسل، وأن النصارى ترك توحيد الله تعالى وأبتلوا أنفسهم بالتثليث وألوهية المسيح عليه السلام، وعليه ابتعد كلاهما تماما عن أصل الإسلام والإيمان. يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المائدة:٧٠-٧٣)

كان هذا هو حال "إيمان" هؤلاء اليهود والنصارى. ثم يعرض القرآن الكريم بعد ذلك لحسن أعمالهم، ويقول لهم:

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٨١)

إن أصل أصول الإسلام (كدين واحد ومشترك لسائر الأنبياء والرسل) أمران هما: التوحيد الكامل، أي الإيمان الصادق بكل صفات التوحيد لله تعالى، والإيمان بسائر الأنبياء والرسل وبصدقهم وأمانتهم دون تفرقة. يقول الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران:٨٣-٨٥)

يثبت من هذه الآية الكريمة أن الدين هو الإيمان بالله تعالى وبرسله جميعا، ويطلق على هذا الدين مسمى الإسلام، ومن لم يُقِّر بهذه الأصول، فسوف يكون في الآخرة من الخاسرين. ورد في سورة آل عمران أن اليهود والنصارى قد ضلوا وحادوا عن الحق بسبب تأويلاتهم الباطلة واتباع ما اُختلف فيه، أي أنهم أعرضوا عن الإسلام ووقعوا في الاختلافات. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ...﴾(آل عمران:١٩-٢٠)

بعد ذلك أُمر محمد ﷺ بأن يسأل اليهود والنصارى:أأسلمتم؟ يقول الله تعالى:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:٢٠)

بُشِّر اليهود والنصارى بنزول "رسالة الهداية"، إليهم في شكل إيمانهم بالإسلام. ويثبت من هذا أن الإسلام"رسالة الهداية"، وهي ذلك الدين الذي فقده اليهود والنصارى وسائر أمم الأديان الأخرى(الذين بُعث فيهم رسولا)، والآن ينزل ثانيا على أهل الدنيا عن طريق محمد ﷺ. لذا فالهداية التي كانت عند تلك الأمم كانت هدايةً غير كاملة، أما الهداية التي جاء بها الإسلام فهي هداية كاملة. ويتضح أيضًا من الآيات التي أشارت إلى أن مَنْ آمن من اليهود والنصارى والصابئين بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أن المقصود بالإيمان بالله تعالى هنا التوحيد الكامل. وهذا لا يعنى أن اليهود والنصارى والصابئين وغيرهم مع عقيدتهم الضالة الحالية هذه يستحقون النجاة، فاليهودي والنصراني والمسلم محروم من النجاة والفلاح طالما لا يؤمن بالتوحيد الكامل(لله تعالى)، ولا يستحق أي مسلم النجاة والفلاح طالما لا يؤمن بالله الواحد، ولا يعمل صالحًا، فهذه (الإيمان بالله الواحد والعمل الصالح) ثابتة واجبة على الجميع المسلم واليهودي والمسيحي والصابئ وغيره.

إن الإسلام لا يدعي بأنه الدين الواحد الذي يعني الهداية وغيرها ضلال، بل يشير إلى أنه الهداية الكاملة، والأديان السابقة هداية غير كاملة للأحوال والعصور الحالية، أي أن الإسلام هداية أبدية كاملة، وقد صرف أتباع الأديان السابقة أديانهم وما جاءت بهم رسلهم من بينات وهدايات، لذا جاء محمد ﷺ بالهداية الأخيرة والكاملة(والموافقة لكل العصور والأزمان)، ولن يصيبها التحريف أو التأويل أبدًا، لأن صحيفة هذه الهداية(القرآن الكريم) محفوظة من التحريف والتصرف على الدوام.

وهذا هو السبب في أن حيثما دُعي اليهود والنصارى إلى اعتناق الإسلام، بُلِّغوا ببشرى الهداية هذه. يقول الله تعالى:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَوْا...﴾(البقرة: ٢٠)

وقال تعالى في سورة البقرة:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ...﴾(البقرة:١٣٦-١٣٧)

دُعّي اليهود والنصارى (وغيرهم من أمم الرسل السابقين) إلى الإسلام للحصول على هذه "الهداية" والتي هي مقصورة على الإسلام فقط باعتباره الدين الأزلي للرسل. وجاء به محمد ﷺ (كآخر دين فيه الفلاح والنجاة للبشر جميعًا). يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾(البقرة: ٤-٥)

ورد في القرآن الكريم بعد الحديث عن قصه موسى عليه السلام أن رحمة الله تعالى واسعة تسع كل شيء، ولكنها ستكون من نصيب من يؤمنون بالإسلام، فهم المستحقون للنجاة والفلاح الكامل. يقول الله تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(الأعراف:١٥٦-١٥٨)

ثبت من هذه الآيات الكريمة أنه يجب على أتباع الأديان السابقة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، إذ إن ذلك الدين الخالص الذي حُرّف واختلطت به تصاريف البشر، قد نُقي وصقل عن طريق محمد ﷺ طبقًا لنبوءات الكتب الإلهية(السابقة)، وعن طريقه ﷺ قُضي على ما أُضيف في شريعة (الأديان السابقة) من أحكام وجزئيات صعبة، كان قد أضافها أتباع الديانات السابقة في شريعتهم. أضف إلى هذا أن النبي ﷺ قد بعثه الله تعالى للناس كافة، ومن ثم فرسالة الهداية، والنبوة الشاملة، والنجاة الحقيقية، والنجاح، والفلاح العام مقصور على الرسالة المحمدية.

خلاصة القول هو أنه يجب على البشر جميعًا أن يؤمنوا بالدين الإسلامي؛ لأنه الدين الأزلي وجوهر سائر الأديان، تلك الأديان التي قُضي عليها بسبب تحريف أتباعها لها وتصرفهم في شريعتها. جاء الإسلام بالقرآن الكريم، وهو الكتاب الذي سيبقى محفوظًا، لأن نبيه خاتم النبيين، ولأن دينه هو الدين الكامل، ولأنه (القرآن الكريم) مهيمن على الكتب، ووعد الله سبحانه وتعالى بأنه عز وجل حافظ له إلى يوم القيامة. وفي السطور التالية نقدم الأدلة التي تُثبت صحة هذه الأمور الأربعة، وهي الدين الكامل، وهيمنة القرآن الكريم، وحفظه إلى يوم القيامة، وأن محمدا ﷺ خاتم النبيين.

الدين الكامل

لم تذهب أي صحيفة(سماوية) سوى القرآن الكريم إلى القول بأنها كاملة مكملة، وبها اكتمل الدين الإلهي من حيث كافة أصوله وفروعه(النسك والمناهج والشرائع)، ليس هذا فحسب بل ذكر كل دين من الأديان السابقة كل في زمنه بأنه سيأتي بعده نبي يكمله. قال الله تعالى لموسى عليه السلام:«أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به».

(سفر التثنية، الإصحاح ١٨، فقرة ١٨).[١]

يثبت من هذا أن الله تعالى يُرسل نبيا بعد موسى عليه السلام، يوحى الله تعالى إليه وينزل عليه كتابا. ويتضح من هذا بأنه سيكون هناك رسول الله تعالى عيسى عليه السلام صاحب شريعة. وقال عيسى عليه السلام: «وأما المعزى[٢] الروح القدس الذي سيرسله الآب (الله) باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٤، الفقرة ٢٦).

«ومتى جاء ذاك (الفارقليط أو أحمد) يُبكت العالم على خطية؛ لأنهم لا يؤمنون بي. إن لي أمورا كثيرة لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ذاك يمجدني»(إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٦، الفقرة ٨-١٤).

كما أخبر عيسى عليه السلام أيضا بأن كلامه ليس تاما، وأنبأ عن مجيء نبي آخر بعده، وهو الذي سيتم كلامه(شريعته).[٣]

---

١ - وهذا نص الفقرة:«أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به» (سفر التثنية، الإصحاح ١٨، فقرة ١٨) (يوسف عامر).

٢ - الفارقليط (أحمد). (يوسف عامر).

٣ - الحقيقة هي أن شرائع الأديان السابقة على الإسلام لم تكن معبرة في كثير من أمورها إلا عن أزمانها فقط؛ ومن ثم فهي لا تعبر عن الأزمان التالية لها تماما، ومن هنا وجب على أتباع تلك الديانات السابقة الإيمان الكامل بمحمد ﷺ ؛ إذ إن الله تعالى أرسله بشريعة تفي كل الأزمان والعصور.(يوسف عامر).

جاء محمد ﷺ ذلك النبي - الذي بشر به موسى وعيسى عليهما السلام - وأخبر بأنه أخ لبني إسرائيل مثل موسى عليه السلام، أي أنه ﷺ من بني إسماعيل عليه السلام، وجعل الله كلامه في فمه. كما أخبر بأنه ﷺ روح الحق التي تُبين عظمة المسيح عليه السلام الأصلية، وتخبر بالطريق الحق، وتتم كلام المسيح، كما أخبر بأنه ﷺ لا يقول شيئا من تلقاء نفسه وإنما يُبلغ ما أوحي إليه من ربه، وأنه خاتم النبيين. يقول الله تعالى:

﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً...﴾(المائدة:٣).

وكان من أثر هذا التكميل أن الإسلام بدّل بعض الأحكام الفقهية الصعبة الخاصة باليهود - والتي كانت قد وُضعت من أجل التشديد عليهم، ولم يكن لها أي وجود في الدين الإبراهيمي[1] أو أضافها البشر- إلى أحكام يسيرة ومناسبة لكل الأزمان والعصور، ومن ثم لم يُخْبر القرآن الكريم بنبوءة مجيء أي نبي من بعده ﷺ، ولم يُخْبر بنزول أي كتاب أو شريعة بعده ﷺ. حقا بعد هذا التكميل هل يمكن أن ينتظر أحد مجيء أي نبي آخر أو بنزول أي كتاب أو أي شريعة أخرى؟. وبناء على هذا أكد القرآن الكريم على الإيمان بما أُنزل من قبله ﷺ. يقول الله تعالى:﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾(البقرة:٤)، ولكنه لم يُشر أبدا إلى الإيمان بأي شيء ينزل بعده ﷺ. ولم يرد أي ذكر أبدًا لعبارة وما أنزل من بعدك.

القرآن مهيمن على الكتب

القرآن الكريم مصدق للكتب السابقة. يقول الله تعالى:﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(المائدة:٤٦).

القرآن الكريم مصدق لكل ما أنزله الله من كتب سابقة، ومشتمل على تعليماتها، لذا فمَن يؤمن بالقرآن الكريم، يؤمن بكافة الكتب السابقة وتعاليمها. لم تمنح هذه الحيثية والصفة لأي صحيفة سماوية أخرى غير القرآن. يقول الله

---

[1] - انظر قوله تعالى: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» (آل عمران:٩٣)

تعالى:﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾(المائدة:٤٨).

كتب المفسرون عن لفظ مهيمن الآتي:

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن هذا اللفظ يعني"شاهدا" و"أمينا"؛ فالقرآن "أمين" على كل ما سبقه من كتب وصحف سماوية.
- وقال ابن قتادة: إن القرآن الكريم "أمين" و"شاهد" على الكتب السماوية السابقة كلها.

القرآن الكريم محفوظ وسيبقى محفوظًا

إن حفظ تعاليم النبي موقوفة على حفظ صحيفته الإلهية، إذ لا توجد أي صحيفة سماوية قبل القرآن الكريم خالية تماما من التحريفات اللفظية والتصرفات (البشرية) بقصد أو بدون قصد، ولم يبق من صحف عشرات الآلاف من الأنبياء سوى بعضها، وما بقى فني وتبدلت صورته تماما، فالتوراة أحرقت وصارت ترابا، ثم حُررت ثانية على هذه الأوراق المحروقة، وفقدت أصلها نتيجة لتحريفات الترجمات المختلفة. وحُرف الإنجيل، وتجاوز المترجمون حقيقته وفصّلوها حتى أصبح مشكوكا ومشتبه فيه. وحرق الإسكندر صحيفة "زرادشت"، وما بقي منها تبعثر وتفرق. والحقيقة هي أن حال هذه الكتب وصل إلى هذا الوضع، لأن الله تعالى لم يجعلها كتبا دائمة وأخيرة،ومن ثم لم يعد سبحانه بدوام حفظها، أما القرآن الكريم فقد وعد سبحانه بأنه عز وجل سيحفظه دائما، وتكفل هو بنفسه سبحانه وتعالى بمسئولية بقاء القرآن وحفظه. يقول الله تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)

وتكرر هذا الوعد الإلهي ثانية في قوله تعالى:﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(القيامة:١٧-١٩).

ففي هذه الآية الكريمة تكفل الله تعالى بنفسه بمسئولية حفظ القرآن أي اللفظ والعبارة وحفظ بيانه. وفي الآية التالية تصريح بأن القرآن لا يأتيه الباطل من أي جهة أبدًا. يقول الله تعالى:﴿... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤١-٤٢).

توضح الآية أن القرآن الكريم كتاب غالب، أي أنه يُدحض أراء أعدائه بقوة أدلته وبراهينه، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أي لا من جهة لفظه وعبارته، ولا من جهة معناه وحقيقته، وهذا لأنه كتاب نزل من حكيم حميد، لذا فهو يبقى دائما غالبا بفضل حكمته. وهو كتاب منزه من كل باطل لأنه نزل من لدن الحكيم الحميد. وتاريخ القرآن الكريم منذ أن نزل حتى يومنا هذا شاهد على صدقه في أنه عزيز لا يأتيه الباطل.

محمد ﷺ خاتم النبيين

يتضح من المقدمات السابقة أنه ليست هناك حاجة إلى أي نبي بعد محمد ﷺ، وإلى أي صحيفة بعد القرآن، وإلى أي دين بعد الإسلام، ومع هذا أزال القرآن الكريم كل شك أو شبهة في هذا، وصرح بأن النبوة المحمدية ورسالتها آخر النبوات والرسالات، ولا حاجة إلى أي نبي بعده ﷺ؛ لأنه جاء بالدين الكامل وحُفظت صحيفته إلى الأبد، وابتعد خطر غلق باب الهداية الربانية.والتاريخ الإنساني شاهد على أن حالة العالم قد تبدلت وتغيرت بعد بعثة محمد ﷺ، فاجتمعت الأمم المتفرقة وتعارف الناس على بعضهم بعضا في شتى بقاع الأرض، وارتفع صوت التوحيد الكامل إلى السماء، وبدأ الناس يؤمنون - تدريجيا- بصدق وأمانة أنبياء ورسل الله تعالى أجمعين، حتى أن الأمم التي لم تقبل الإسلام سلمت بصدق هاتين الصفتين للأنبياء والرسل عليهم السلام.

الإسلام ووحدة الأديان

اتضح مما سبق المقصود بوحدة الأديان، أي أن الأديان التي دعا إليها جميع الأنبياء والرسل كلها واحد في الحقيقة، ولكنها تغيرت وتبدلت بسبب تحريف وتصرف أتباعها في الصحف، وجاء محمد ﷺ بهذا الدين الأزلي، أي الإسلام،وهو الدين الباقي للأبد، لأن صحيفته(القرآن) باقية ومحفوظة (من قِبَلِ الله)، ولأنه جاء لتكملة الأديان ولختم النبوة. ولو رجع أتباع كل دين من الأديان السابقة كل إلى أصل دينه الذي دعا إليه نبيه لاتضح أنه هو ذلك الدين الأزلي، والذي يُطلق عليه مسمي الإسلام، ومن ثم لا يوجد أي فرق بين أديان نوح،

وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام سوى فرق واحد وهو الإجمال والتفصيل. يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وَجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ...﴾(النساء:٤٧).

كان على أهل الكتاب إدراك هذه الحقيقة وفهمها أكثر بكثير من مشركي العرب، وما كان لهم أن يكونوا أول كافر به. يقول الله تعالى: **﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ...﴾**(البقرة:٤١).

ولكن حالهم هو أنهم:**﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ...﴾**(البقرة:٩١).

وعلى العكس من هذا فإن الدين الذي نزل على محمد رسول الله ﷺ يقوم أساسه على وجوب الإيمان الكامل بكافة الرسل والأنبياء السابقين وبكتبهم، وهذا هو السبب في أن الإسلام لا يُوجب على المسلم الإيمان بنبوة محمد ﷺ فقط؛ بل يوجب عليه أن يؤمن بكل الأنبياء والرسل السابقين وبصحفهم أيضًا. وقد شهد القرآن الكريم بنفسه على أن محمد رسول الله ما شق عليه كفر قريش بصحيفته فقط؛ بل كفرهم أيضا بالصحف السابقة. يقول الله تعالى في سورة سبأ:**﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا القُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾**(سبأ:٣١)

وعليه قال محمد رسول الله ﷺ: «مَن شهِدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسوله وكلمتهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، ... أدخلَهُ اللهُ الجنةَ على ما كانَ منَ العَمل» (صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، ذكر عيسى عليه السلام)[1]

---

[1] - وهذا نص الحديث: (٣٣٦٣) حدثنا صدقةُ بنُ الفضلِ حدثنا الوليدُ عنِ الأوزاعيِّ قال: حدَّثني عُميرُ بن هانئٍ قال: حدَّثني جُنادةُ بن أبي أُميَّةَ عن عُبادةَ رضيَ الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَن شهِدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسوله وكلمتهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجنةُ حقٌّ والنارُ حقٌّ، أدخلَهُ اللهُ الجنةَ على ما كانَ منَ العَمل».

خلاصة القول هو أن هناك دينا أزليا أبديا واحدا، دعا إليه سائر الأنبياء والرسل عليهم السلام، وعبر القرآن الكريم عن وحدة الدين في قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾**(المؤمنون: ٥١-٥٣).

وفى الحديث التالي يذكر الرسول ﷺ هذه الحقيقة بشيء من التفصيل: « **والأنبياء إِخْوة لعَلاّتٍ أمَّهاتُهم شتّى ودِينُهم واحد** » (صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، ذكر عيسى عليه السلام).[1]

قال الولِيدُ: وحدَّثني ابن جابرٍ عن عميرٍ عن جُنادةَ وزاد «من أبوابِ الجنةِ الثمانيةِ أيَّها شاء».

[1] - وهذا نص الحديث: (٣٣٧٠) حدثنا محمدُ بن سنان حدَّثنا فُلَيحُ بن سليمانَ حدَّثنا هِلالُ بن عليٍّ عن عبدِ الرحمنِ بن أبي عَمرةَ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أولى الناس بعيسى ابنِ مريمَ في الدُّنيا والآخرة، والأنبياء إِخْوة لعَلاّتٍ أمَّهاتُهم شتّى ودينُهم واحد». وقال إبراهيمُ بن طهمانَ عن موسى بن عُقبةَ عن صَفوانَ بنِ سُلَيم عن عطاءِ بنِ يَسارٍ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

الإيمان باليوم الآخر، وبالآخرة

«وَالْيَوْمِ الآخِرِ»(البقرة:٦٢)

«وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»(البقرة:٤)

الإيمان باليوم الآخر،[1] وبالآخرة هو آخر حلقة من حلقات سلسلة الإيمان في الإسلام، ويقول الله تعالى عن آخر ما يؤمن به المؤمنون والفائزون بالهداية:

«وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (البقرة:٤)

«مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ» (التوبة:١٨)

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ»(التوبة:٤٤)

إن لفظ "الآخرة" صفة، وفي اللغة العربية كثيرا ما يحذف الموصوف وتحل الصفة محله، على سبيل المثال لفظ"الدنيا" يعنى في اللغة "الأقرب"، وهو صفة، وموصوفها "الحياة" و"الدار"، لذا فالدنيا تعنى "الحياة الدنيا"، أو "الدار الدنيا". وهكذا فإن "الآخر" و "الآخرة" يعنيان "اليوم الآخر" و"الحياة الآخرة" و "الدار الآخرة"، وجاء هذا اللفظ في القرآن الكريم بهذه الدلالات في ١١٣ موضعا، وحُذف موصوفه "الحياة" في كل موضع، والآيات الكريمة الآتية تُوضح هذه الحقيقة:

﴿ ... وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ...﴾(العنكبوت:٦٤).

﴿... ولَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ...﴾(الأنعام:٣٢).

ورد في هاتين الآيتين لفظ دار. ويقول تعالى:

﴿... أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ...﴾(التوبة:٣٨)

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾(المؤمنون:٣٣)

---

[1] - حين يرد الحديث عن الإيمان في القرآن الكريم، يرد الإيمان باليوم الآخر بعد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.

يبدو من تقابل الحياة الدنيا في هاتين الآيتين أن المراد من الآخـــرة هـــو الحياة الآخرة.(١) ويندرج في عموم هذا الفظ سائر المنازل والأحوال بداية مـــن الموت إلى الحشر والنشر وما بعدهما، وثابت من الأحاديث النبوية الصحيحة أن المراد من لفظ الآخرة في قوله تعالى:﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...**﴾(إبراهيم:٢٧). "حياة البرزخ"(٢)، ويدل القرآن على هذا الأمر أيضًا، وهو أن التثبيت على القول الثابت يكون أمرا عظيما في حين أن كل شيء سيكون قد اتضح وبان في ذلك الوقت، وعليه فإن المراد بلفظ الآخـــرة هنا في هذه الآية الكريمة"حياة البرزخ" ليس إلا. وورد في حديث تـــصريح بـــأن القبر (أي البرزخ) أول منازل الآخرة.(٣)

---

١ – ورد تقابل الدنيا والآخرة في آيات كثيرة من آيات الذكر الحكيم. يقـــول الله تعـــالى عـــن عيسى: ﴿**وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾(آل عمران:٤٥) . ويقول تعالى:﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً** ﴾(البقرة:٢٠١).

وقال الله تعالى في بطلان عمل الكفار:﴿**حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾(البقرة:٢١٧)

﴿**اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ** ﴾(النحل:١٠٧)

﴿**نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾(فصلت:٣١)

وأحيانا ورد لفظ الأولى بدلا من الدنيا. يقول الله تعالى:

﴿**فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى** ﴾(النازعات:٢٥)

﴿**وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى**﴾(الليل:١٣).

٢ – ورد في صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبـــر: (١٣٤٥) حـــدَّثنا حفصُ بنُ عمرَ حدَّثنا شُعبةُ عن عَلقمةَ بنِ مَرْثدٍ عن سَعدِ بن عُبَيدةَ عن البَراءِ بنِ عـــازبٍ رضيَ اللهُ عنهما عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أُقعِدَ المؤمنُ في قبرِهِ أُتيَ ثـــمَّ شَهِدَ أن لاإلهَ إلاّ اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله، فذلكَ قولهُ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّـــذِينَ آمَنـــوا بـــالقَول الثابت} (إبراهيم: ٢٧). حدَّثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ حدَّثنا غُندَرٌ حدَّثنا شعبةُ بهذا، وزاد {يُثَبِّـــتُ اللَّهُ الذينَ آمَنوا} نَزَلَتْ في عذابِ القبرِ.(يوسف عامر).

٣ – سنن ابن ماجه، وهذا نصها: (٤٣٥٩) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ. حَدَّثَنِي يَحْيَـــى بْنُ مَعِـــينٍ. حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَحِيرٍ، عَنْ هَانِىءٍ، مَوْلَى عُثْمَانَ قَالَ: كَانَ عُثْمَـــانُ بْنُ عَفَّانَ، إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ، يَبْكِي. حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ. فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّـــةَ وَالنَّـــارَ، وَلاَ تَبْكِي. وَتَبْكِي مِنْ هٰذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ. فَـــإِنْ نَجَـــا

إن الإيمان باليوم الآخر والحياة الآخرة لأهم أمر وتعليم من تعاليم الإسلام، وقد أُكد في القرآن الكريم على الإيمان باليوم الآخر والحياة الآخرة بعد الإيمان بالله تأكيدا كبيرا، وذلك لأن أصل كافة أعمال الحياة الدنيا وأساسها ونتائجها يقوم على أساس هذه الحياة الآخرة، وإذا اهتز هذا الأساس فسوف تتطاير نتائج أعمال البشر، وعليه سلمت الأديان كافة بمصطلحات مختلفة بالحياة الآخرة.

قسم النبي ﷺ هذه الحياة الآخرة إلى مرحلتين، إحداهما: بداية من الموت وحتى يوم القيامة، وثانيهما: من يوم القيامة إلى الأبد، وفي هذه المرحلة لا موت ولا فناء. وتسمى المرحلة الأولى بالبرزخ، والثانية: بـ"البعث" أو "الحشر والنشر والقيامة". ومعنى هذه الألفاظ الحياة والجمع والوقوف، وكلها تشير إلى حقيقة واحدة، وهي الحياة الآخرة بعد نهاية الحياة الدنيا، وعليه عبر القرآن الكريم عن الحياة الآخرة بـ" الدار الآخرة" و" عقب الدار" وغيرها من المصطلحات، التي تعنى "الدار الآخرة".

لم يرد شيء في التوراة والإنجيل يُبين حياة البرزخ وحياة القيامة، ولم يرد أيضا أي شيء يُبين حالة روح الإنسان وكيفيتها في مرحلة ما بعد الموت وقبل القيامة، أما الإسلام فليس فيه غموض بهذا الشأن، بل ذكر تفصيل هذا الأمر كله، وأخبر بأن هناك حياة أخرى بعد الحياة الدنيا وهي حياة البرزخ والقيامة، وهما مقامان لثوابنا وعقابنا، وأن كل شخص بعد موته يدخل في الحياة البرزخية،

مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ» قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»..، والحاكم، نقلا عن كنز العمال، ج ٨، ص٩٥، حيدر آباد، الدكن، والترمذي، وهذا نصها: (٢٣٤٥) حَدَّثَنَا هَنَّادٌ ، أخبرنا يَحْيَى بنُ مَعِينٍ ، أخبرنا هِشَامُ بنُ يُوسفَ ، حدثني عَبْدُ الله بنُ بجيرٍ أَنَّهُ سَمِعَ هَانِئاً مَوْلَى عُثْمَانَ قَالَ ،: كَانَ عُثْمَانُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ تُذْكَرُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلاَ تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله قَالَ: إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ» قَالَ وقَالَ رَسُولُ الله مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ» .

قال هَذَا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بنِ يُوسُفَ.(يوسف عامر).

ثم بعد ذلك تنتهي الحياة الدنيا طبقا لمشيئة الله تعالى وإرادته وحكمته وتبدأ الحياة الآخرة، والتي هي مرآة لأعمالنا الصالحة والطالحة في الحياة الدنيا. وقد ورد في سورة التوبة ذكر لمراحل حياتنا الثلاث هذه. يقول الله تعـالى: ﴿... **سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾(التوبة:١٠١).

ومراحل العذاب الثلاث هي الدنيا، والبرزخ، والقيامة.

إن الفرق بين هذه الحياة الثلاث هو أن الجسم (المادة) في الحياة الدنيا ظاهر بيّن والروح مستترة، وإن السرور والألم الذي يصلها عن طريق هذه المادة(الجسم) فقط، وإلا فمحال في حقيقة الأمر أن تكون لها راحة ولذة مباشرة في هذه الحياة المادية. وفي الحياة الثانية والتي تسمي بالبرزخ ستظهر الروح، ويستتر الجسم، وإن الراحة والألم الذي سيكون في هذه الحياة سيصل إلى الروح، ويتأثر الجسم ضمنيا لتبعيته لها. أما في الحياة الثالثة أي الحياة الأبدية ستتضح الروح والجسم، وستكون مظاهر راحة وألم كلها مستقلة تماما.

البرزخ

ورد لفظ البرزخ في القرآن الكريم ثلاث مرات، ويعنى في كل مرة الحاجب، والساتر، والحاجز بين شيئين. فقد ورد ذكر "البحرين" في سورة الرحمن، أحدهما عذب، والآخر مالح، وبينهما حاجز(برزخ) يمنع اختلاط مياههما. يقول الله تعالى:﴿**بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ**﴾(الرحمن:٢٠)

كما ورد ذكر هذا المشهد العجيب للبحر في سورة الرقان، وورد فيه لفظ "برزخ". يقول الله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً**﴾ (الفرقان:٥٣)

وعليه فإن الحاجب أو الفاصل بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى يسمي "برزخ". جاء في بيان وقت الاحتضار في سورة المؤمنين: ﴿... **وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ (المؤمنون:١٠٠)

يُطلق في عُرف العرب بل وكل الساميين على هذه المرحلة الفاصلة(البرزخ) مسمي"القبر" سواء كان هذا القبر في التراب، أو في قاع البحر، أو في بطن أي حيوان متوحش، لذا قال الله تعالى:﴿**وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ**﴾(الحج:٧)

يثبت من هذه الآية أن "البعث" ليس مقصورًا على كل من دُفن في التراب، ولكن يشمل كل ميت مهما كانت طريقة دفنه، وفي أي مكان دُفن، لذا فالمقصود من القبر هو كل مقام وُضع فيه الجسم بعد الموت.

مراحل الحياة والموت

ورد في القرآن الكريم ذكر لموتتين وحياتين، فورد على لسان أهل النار:يقول الله تعالى:﴿**رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ**﴾ (غافر:١١)

وذكر الله تعالى بنفسه بيان هاتين الموتتين والحياتين في سورة البقـرة. يقول الله تعالى:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٨)

الموتة الأولى هي الموتة التي حدثت لكل إنسان قبل الخلق، حـين كـان موجودا في شكل المادة أو العنصر، ثم أحيي وجاء إلى هذه الدنيا، وهـذه هـي حياته الأولي. ثم مات وفارقته الروح. وعاد الجسم إلى صورته المادية الـسابقة، وهذه هي الموتة الثانية. ثم ينفخ الله تعالى فيه الروح ثانية ويحييه، وهـذه هـي الحياة الثانية، والتي لا موت بعدها. يقول الله تعالى مخاطبا محمدًا ﷺ :﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر:٣٠)

ويقول تعالى:﴿ثُمَّ إِنَّكُـم بَعْـدَ ذَلِـكَ لَمَيِّتُـونَ (١٥) ثُـمَّ إِنَّكُـمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ تُبْعَثُونَ﴾(المؤمنون:١٥-١٦)

والسؤال هو ما كيفية الحياة في عالم البرزخ؟ نرى أنه لابد مـن تمهيـد وجيـز يوضح هذا الأمر.

تشابه النوم والموت

أنعم الله تعالى علينا، بفضل قدرته، بنعمة النوم حتى نستطيع فهم أمـور العالم الروحاني. ترتبط الروح بالجسد مـن خـلال شـيئين: أحـدهما الإدراك والشعور، وثانيهما التغذية والتدبير، وفى عالم النوم تبتعـد كـل قـوى الإدراك والشعور عن هذه الدنيا، ونصبح نحن بعيدين تماما عن الدنيا المادية، ولكن تبقى روحنا أو نفسنا مرتبطة بجسدنا، وتقوم (ونحن نائمين) بعملية توصيل الغذاء والدم إلى القلب والدماغ وسائر الأعضاء الرئيسية، وتتولى أمور تدابير الحياة الماديـة للجسد والنمو والبقاء. ويطلق على هذا مسمي علاقة الروح التدبيريـة بالجـسد. والفرق بين النوم والموت هو أن العلاقة التدبيرية للروح أو النفس تبقى مستمرة مع الجسد في حالة النوم، ومن ثم يبقى الجسد حيا. ولكن في حالة الموت كثيرا ما تنقطع علاقة الروح التدبيرية بالجسد؛ لذا تهلك أعضاء الجسد في عدة أيام. وهذا هو تشابه النوم بالموت، وعليه يُشبه النوم بالموت في سائر لغات البشر، وتوافق لغات العالم أجمع يُنبئ عن إلهام طبيعي. وقد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة فـي

قوله الله تعالى:﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى...**﴾(الأنعام:٦٠)

وورد تفصيل هذا الأمر بوضوح في سورة الزمر:﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الزمر:٤٢)

وكان هذا هو السبب في استخدام القرآن الكريم "مرقد" في الدلالة على الحياة البرزخية، إذ جاء في القرآن الكريم أنه حين يُبعث الناس من قبورهم يوم القيامة، سيقول الآثمون:﴿**يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا...**﴾(يس:٥٢)

لم يكن يستطع من قُتل في غزوة أحد (من المنافقين) الفرار من الموت أو تأجيله حتى ولو كان من القاعدين في بيوتهم دون حرب لجاء بنفسه إلى المكان الذي قُتل فيه. وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى في قوله تعالى:﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ...﴾(آل عمران:١٥٤)

لذا استخدم القرآن الكريم لفظ"بعث" كثيرًا للدلالة على الحياة الثانية. وهو لفظ يعنى الإيقاظ والتنبيه.[1] يقول الله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ...**﴾(الأنعام:٦٠)

---

[1] – ورد في صحيح البخاري، باب التهجد، أن النبي ﷺ سأل ذات مرة عليا عن سبب عدم استيقاظه لصلاة التهجد، فقال على ﷺ يعتذر:" **يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا**" وورد لفظ "بعث" في الحديث للدلالة على الأيقاظ. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧١٨٣) حدَّثنا أبو اليمانِ أخبرَنا شعيبٌ عنِ الزُّهري ح. حدثني محمد بن سَلامٍ أخبرَنا عَتَّاب بن بَشيرٍ عن إسحاقَ عن الزُّهريِّ أخبرَني عليُّ بن حسين أنَّ حسينَ بنَ عليٍّ رضي اللَّه عنهما أخبرَه أن عليَّ بن أبي طالبٍ رضي اللَّه عنه قال: «إن رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم طَرَقَهُ وفاطمةَ عليها السلامُ بنتَ رسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم فقال لهم: ألا تصلون؟ فقال عليٌّ فقلتُ: يا رسولَ اللَّه إنما أنفسُنا بيد اللَّه فإذا شاء أن يَبعثنا بَعثَنا، فانصرفَ رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم حينَ قال له ذلكَ ولم يَرجعْ إليه شيئاً. ثم سمعَهُ وهو مُدبِرٌ يَضربُ فخذَهُ وهو يقول: {وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلاً}». قال أبو عبد اللَّه:

ويقول الله تعالى: ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج: ٧)

ورد في الأحاديث الشريفة أنه يقال للمؤمنين بعد السؤال في القبر: **نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ** الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ» [1]

يثبت من هذه الشواهد أن حياة البرزخ التي تنفصل فيها الروح عن الجسد تشبه النوم العميق والطويل[2]

اللذة والألم في الرؤيا

حين ينام الإنسان يفقد قوى إدراكه وحسه، ويبتعد عن الحياة المادية بصفة عارضة، ولكن تتشكل أمامه الحياة التخيلية والتمثيلية والفكرية لإدراكه وحسه

يقال: ما أتاك ليلاً فهو طارقٌ، ويقال الطارقُ: النجم. والثاقب، المضيء، يقال: أثقِبْ نارك للمَوقد.(يوسف عامر).

[1] – الترمذي، كتاب الجنائز، باب عذاب القبر، وهذا نص الحديث: (١٠٦٥) حدثنا أبو سَلَمَةَ يَحْيَى بنُ خَلَفٍ البَصْرِيُّ حدثنا بِشْرُ بنُ الْمُفَضَّلِ ، عَنْ عَبْدِ الرحمٰنِ بنِ إسْحَاقَ ، عَنْ سَعِيدِ بنِ أبي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ ، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ، قالَ: قالَ رسُولُ الله : «إذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ (أَوْ قَالَ أَحَدُكُمْ) أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ. يُقَالُ لإحَدِهِما الْمُنْكَرُ وَالآخَرُ النَّكِيرُ. فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ في هذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ. أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هذَا. ثمَّ يُفْسَحُ لَهُ في قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً في سَبْعِينَ. ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فيه. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ. فَيَقُولُ أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ؟ فَيَقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إلا أَحَبُّ أَهْلِهِ إلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ» .

«وَإِنْ كانَ مُنَافِقاً قالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ. لاَ أَدْرِي. فيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذلِكَ. فيُقَالُ لِلأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ. فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ. فَتَخْتَلِفُ فيها أَضْلاَعُهُ. فَلاَ يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّباً حتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذلِكَ» .

وَفي البَابِ عَنْ عَلِي وزَيْدِ بنِ ثَابِتٍ وابنِ عَبَّاسٍ والْبَرَاءِ بنِ عَازِبٍ وَأَبِي أَيُّوبَ وأَنَسٍ وجَابِرٍ وعَائِشَةَ وأبي سَعِيدٍ. كُلُّهُمْ رَوَوْا عنِ النبيِّ في عَذَابِ الْقَبْرِ.

قال أبو عيسى: حدِيثُ أبي هُرَيْرَةَ حدِيثٌ حسنٌ غريبٌ.(يوسف عامر).

[2] – كتب شاه ولى الله الدهلوي في كتابه " حجة الله البالغة"«**فهذا المبتلى في الرؤيا غير أنه رؤيا لا يقظة منها إلى يوم القيامة**»(باب اختلاف أحوال الناس في البرزخ)

مثلما تكون في الحياة المادية. ومع أن الإنسان في عالم الرؤيا يكون مستقلا عن جسمه، فإنه يرى هذا الجسم كما هو في الحياة المادية، يذهب هنا وهناك ويأتي، ويسير ويتجول، يرى ويسمع كل شيء، كما تبدو أمامه ألوان من الطعام والشراب، أضف إلى هذا أن الإنسان في هذه الحالة (الرؤيا) يرى أشكال الألم والمشقة التي يراها ويشعر بها في الحياة المادية. وحين يتألم جسمه الخيالي في عالم الرؤيا؛ فينهض هو بنفسه صارخا، وحين يتلذذ بأي شيء وهو في هذا العالم؛ فإنه يستمتع به، وتبدو على جسده المادي آثار هاتين الحالتين بعد الاستيقاظ. خلاصة القول هو أنه لا يوجد أي فرق بين حياة عالم الرؤيا الخيالية بفرحها وحزنها، وبلذتها وألمها وبين الحياة المادية بفرحها وحزنها، وبلذتها وألمها، وإن كان هناك فرق فهو أن اللذة والألم في عالم الرؤيا تنتهي بعد الاستيقاظ، أما لذة الحياة المادية وألمها فتظل قائمة طالما كان هناك إدراك وإحساس بها، ومثلما ينعدم وجود اللذة والألم الماديين في الرؤيا تنعدم لذة وألم الرؤيا في اليقظة.

حين نتدبر في المشاهد المختلفة للذة وألم الرؤيا وفي حقائقها وأسبابها وعللها من ناحية فلسفية؛ فتتضح لنا أمور عجيبة وغريبة، فأحيانا تبدو سائر الأحاسيس والمعلومات- التي كانت قد وردت من قبل في ذهن الإنسان، ونسيها بسبب مرور الزمن ومشاغل الحياة المادية- في أشكال مجسمة في الرؤيا، وتبدو له غير متصلة بسبب نسيانه إياها.ويتضح من ذلك أن الأشياء التي تُنسى لا تزول في حقيقة الأمر من ذاكرته، ولكنها تستتر وتضيع في المعلومات المختلفة في ذهنه، ثم يَتَوصل إليها فيما بعد، ومن ثم فإن أعمال الإنسان كافة الصالحة والطالحة على مدار عمره سواء نسيها اليوم نقشت في ذهنه، معدومة الوجود أو مفقودة.

هناك صور عجيبة وغريبة للرؤيا، وهي التي نطلق عليها الرؤيا التمثيلية، مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام ، التي رأى فيها أنه يوقف ابنه البكر لخدمة بيت

الله تعالى في صورة الذبح[1]، ورأى سيدنا يوسف عليه السلام أبواه في صورة الشمس والقمر وإخوانه الأحد عشر في صورة أحد عشر كوكبا[2]، ورأى رفيق يوسف عليه السلام في السجن صلب ملك مصر له في هيئته وهو يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه[3]، ورأى ملك مصر سنوات القحط السبع في شكل سبع بقرات ضعاف عجاف[4]، ورأى النبي ﷺ فتح مكة في صورة أن المسلمين يحجون البيت الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين[5]، ومسيلمة والأسود العنسي(الكذابين) في صورة سوارين[6]، ورأى شهداء أحد في صورة بقر سمان[1]، ورأى ﷺ وباء المدينة في

---

[1] - يقول الله تعالى: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥).(يوسف عامر).

[2] - يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف:٤) (يوسف عامر).

[3] - يقول الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦يوسف:) (يوسف عامر).

[4] - وردت هذه الرؤى التمثيلية في القرآن الكريم. يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف:٤٣) (يوسف عامر).

[5] - ورد في صحيح البخاري، كتاب التعبير: باب رؤيا الصالحين

وقوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً } (الفتح: ٢٧).(يوسف عامر).

[6] - وهذانص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٨٨٢) ـــ فقال ابنُ عباسٍ: ذُكِرَ لي أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَينا أنا نائمٌ رأيت أنه وُضِعَ في يَدَي سِوارانِ من ذهب ففظعتهما وكرِهتهما، فأذِنَ لي فنفختهما فطارا، فأوّلتهما كذابانِ يخرُجان».

فقال عُبيدُ الله: أحدُهما العَنْسيُّ الذي قتله فَيروزٌ في اليمن، والآخرُ مُسَيلمة. (يوسف عامر).

صورة امرأة سوداء شعثاء الشعر[٢]، ورأى الخلافة في صورة دلو[٣] وعلم عمر في شكل اللبن[٤]، ورأى ﷺ دلو عمر في شكل قميص طويل[٥]. هذا فضلا عن أن كل شخص يستطيع أن يقدم نماذج لهذه الرؤى من خلال تجاربه الشخصية.

---

١ - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣٩٩٢) ـــ حدَّثنا محمد بن العَلاء حدَّثنا أبو أُسامةَ عن بُرَيدِ بن عبد الله بن أبي بُردةَ عن جدِّهِ أبي بردة عن أبي موسى رضيَ اللّه عنه ـ أُرَى ـ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «رأيتُ في رؤيايَ أني هزَزتُ سيفاً فانقطعَ صَدرُه، فإذا هوَ ما أُصيبَ من المؤمنين يومَ أُحُد. ثم هززتهُ أخرى فعاد أحسنَ ما كان، فإذا هو ما جاء به اللّهُ منَ الفتح واجتماع المؤمنين. ورأيتُ فيها بَقراً، واللّه خيرٌ، فإذا همُ المؤمنون يومَ أحُد».(يوسف عامر).

٢ - وهذا نص الحديث: (٦٨٨٧) ـــ حدّثنا أبو بكرٍ المقدَّمي حدَّثنا فُضيل بن سليمانَ حدَّثنا موسى حدَّثنا سالمُ بن عبد الله عن عبد الله بن عمرَ رضيَ الله عنهما في رُؤيا النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المدينة: «رأيت امرأةً سوداء ثائرةَ الرأس خرجَت من المدينة حتى نزلت بمَهْيَعَةَ، فتأولتها أنَّ وباء نُقلَ إلى مَهيْعة، وهي الجحفة».(يوسف عامر).

٣ - وهذا نص الحديث: (٦٨٦٩) ـــ حدّثنا سعيدُ بن عُفير حدَّثني الليثُ قال: حدَّثني عُقَيلٌ عن ابن شهابٍ أخبرني سعيدٌ أنَّ أبا هريرَةَ أخبرَه «أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: بَينا أنا نائمٌ رأيتُني على قَليب وعليها دَلوٌ فنزَعتُ منها ما شاء الله، ثمَّ أخذَها ابنُ أبي قُحافةَ فنزَع منها ذَنوباً أو ذنوبين وفي نزْعهِ ضَعف، والله يَغفرُ له. ثم استحالت غَرباً فأخذَها عمرُ بن الخطاب، فلم أرَ عَبقرياً من الناس ينزِعُ نزْعَ عمرَ بن الخطاب حتى ضربَ الناسُ بعطَن».(يوسف عامر).

٤ - وهذا نص الحديث: (٦٨٥٥) ـــ حدّثنا عليُّ بن عبد الله حدثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ حدَّثنا أبي عن صالح عن ابن شهابٍ حدثني حمزةُ بن عبد الله بن عمرَ أنه سمعَ عبد الله بنَ عمرَ رضي الله عنهما يقول: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «بَينا أنا نائمٌ أُتيتُ بقدَح لَبن فشربت منه حتى إني لأرى الرِّيَّ يخرج من أطرافي، فأعطَيت فَضلي عمرَ بن الخطاب، فقال من حَوله: فما أوَّلت ذلك يارسولَ الله؟ قال: العلمَ».(يوسف عامر).

٥ - وهذا نص الحديث: (٦٨٥٦) ـــ حدّثنا علي بن عبدِ الله حدَّثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ حدَّثني أبي إبراهيم عن صالح عن ابن شهابٍ قال: حدَّثني أبو أُمامةَ بنُ سهل أنه سمعَ أبا سعيد الخدريَّ يقول: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «بينما أنا نائمٌ رأيتُ الناس يُعرضونَ عليَّ وعليهم قُمصٌ منها ما يبلغُ الثَّديَ، ومنها ما يبلغُ دُونَ ذلك. ومر عليَّ عمرُ بن الخطاب وعليهِ قميص يَجرُّهُ. قالوا: ما أوَّلتَهُ يارسولَ الله؟ قال: الدِّين».(يوسف عامر).

والأكثر من هذا هو أنه حين تزيد أي مادة في جسم الإنسان؛ فإنها تبدو له في الرؤيا صورًا مجسمة، فعلى سبيل المثال فإن كثرة البلغم تظهر في شكل الماء، أو النهر، أو البحر، وتبدو كثرة الربا في شكل فيل ونساء سوداوات، وهكذا تبدو الأشياء في صورة أشكال مجسمة في الرؤيا طبقا للمادة الزائدة [1].

تبدو الأعمال المنفصلة تماما عن الجسم والمادة أيضا في الرؤيا مجسمة في قالب مناسب لها، فعلى سبيل المثال لو لم يؤد أحد حقا أو واجبا لأخ؛ فسيبدو له في الرؤيا أنه يقطع رقبته،ولو أن شخصا اغتاب آخر فيبدو له أنه يأكل مَيْتًا، ولو أن هناك شخصا جمع خزائن الذهب والفضة وجعل ثعبان البخل يحرصها(فيبدو له في الرؤيا) أنه تحول إلى حية تلتف حول رقبته وتنهشها، ويُرى الذل والهوان في صورة الكلب، والحمق في صورة الحمار، والشجاعة في صورة الأسد. وفي ليلة الإسراء والمعراج بدت الفطرة للنبي ﷺ في شكل اللبن، وبدا غيرها في صورة الخمر، وتراءت له الدنيا في شكل عجوز.

وردت أمثلة لهذه الرؤى التمثيلية في القرآن الكريم. فمثلا يقول الله تعالى عن الغيبة:﴿... وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ...﴾(الحجرات:١٢)

وعبر القرآن عن أكل الربا بصورة الجنون. يقول الله تعالى:﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ...﴾(البقرة:٢٧٥)

وعبر عن أكل مال اليتيم دون وجه حق بصورة ملئ البطون نارا. يقول الله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء:١٠)

إن النرجسيين من الناس الذين لا يساعدون المحتاجين، لن يساعدهم أحد يوم القيامة، وإن من يتمتعون بالطعام غافلين عن المساكين والفقراء ولا يؤدون حقهم من الزكاة فلن يكون لهم طعام في جهنم إلا من غسلين. يقول الله تعالى:﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ (٣٣) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ

---

[1] – حجة الله البالغة، شاه ولى الله، ذكر البرزخ.

ﮐﭨيوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة:٣٣-٣٧)

عبر القرآن الكريم عن الكرم الخالص لوجه الله بالحديقة الخضراء. يقول الله تعالى:﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ...﴾(البقرة: ٢٦٥)

بشر الله تعالى من يُقتل في سبيله عز وجل بحياة جديدة، وحياة أبدية. يقول الله تعالى:﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ...﴾(البقرة:١٥٤)

ومن مثل هذا أيضا أن من يُقرض الله يقرضه الله قرضا حسنا، وأن من يعف عن الناس، يعف الله عنه، وأن من يستر الآخرين يستره الله تعالى. والقرآن الكريم والأحاديث النبوية مليئة بأمثلة كثيرة عن هذا النوع من معاوضة الشر بالخير.

يقول الله تعالى عن الذين لا ينفقون أموالهم في سبيل الله:

﴿... سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾(آل عمران:١٨٠)

﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة:٣٥)

إن الإعراض في الدنيا عن نور الله تعالى سيبدو في شكل عمى ظاهري في الآخرة، وإن من ينسى الله تعالى في الدنيا، سينساه الله تعالى في الآخرة، قال تعالى وقت خروج آدم عليه السلام من الجنة:﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى**﴾(طه:١٢٤-١٢٦)

ورد هذا المفهوم بإيجاز في قوله تعالى:﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ (الإسراء:٧٢)

ورد عن النبي ﷺ أنه أخبر بأن مال البخيل سيبدو له في شكل ثعبان يلتف حول رقبته، أي أن مال البخيل وذهبه وفضته سيكون في صورة ثعبان. قال

رسول الله ﷺ: «من آتاهُ اللّهُ مالاً، فلم يُؤَدِّ زكاتهُ مُثِّلَ له يوم القيامةِ شُجاعاً أقرعَ له زَبِيبَتَان يُطَوَّقهُ يومَ القيامةِ ثمَّ يأخذُ بِلِهْزِمَيْهِ ـ يعني شِدْقَيهِ ـ ثمَّ يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزُكَ » (البخاري، تفسير آل عمران، ج٢، ص٥٥)[١]

وهناك حديثان نبويان آخران فُسر فيهما مجيء مختلف الأعمال في صورة وأشكال عديدة، على سبيل المثال ستصبح الصلاة والصوم وغيرهما من الأعمال في القبر كوقاية من العذاب، وتبدو في كل مكان (في القبر)[٢]. وورد في الحديث أيضا «إِذَا دَخَلَ الْمَيِّتُ الْقَبْرَ مُثِّلَتِ الشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا. فَيَجْلِسُ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي» [٣]. ظاهر أن المقصود من الشمس هنا ليست هذه الشمس الدنيوية، ولكنها هنا تمثيل كما ورد في معاني الحديث الشريف أي أنها تبدو هكذا للميت وهي في الحقيقة ليست شمسا بل صورة تمثيلية للشمس.

العقوبات التمثيلية للذنوب

وضح مما سبق أن الأعمال غير المجسمة والمعاني التي ستبدو في أشكالها التمثيلية هي في الحقيقة تشابه هذه المعاني والأعمال مشابهة تمثيلية. ورد في حديث نبوي أن صحابيا رأى رؤيا بعد وفاة الصحابي الجليل عثمان بن

---

[١] – وهذا نص الحديث: (١٣٨٤) ـــ حدَّثنا عليُّ بنُ عبدِ اللّهِ حدَّثنا هاشمُ بن القاسم حدَّثنا عبدُ الرحمنِ بن عبد اللّهِ بنِ دينارٍ عن أبيهِ عن أبي صالحٍ السمَّانِ عن أبي هريرةَ رضي اللّهُ عنهُ قال: قال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم «من آتاهُ اللّهُ مالاً، فلم يُؤَدِّ زكاتهُ مُثِّلَ له يوم القيامةِ شُجاعاً أقرعَ له زَبِيبَتَان يُطَوَّقهُ يومَ القيامةِ ثمَّ يأخذُ بِلِهْزِمَيْهِ ـ يعني شِدْقَيهِ ـ ثمَّ يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزُكَ. ثمَّ تَلا: (آل عمران: ١٨٠): {ولا يَحْسَبَنَّ الذِينَ يَبخلونَ} الآية».(يوسف عامر).

[٢] – مسند أحمد بن حنبل:

[٣] – سنن ابن ماجه، ذكر القبر، ص٣٦٦. وهذا نص الحديث: (٤٣٦٤) ـــ حدّثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَفْصٍ الأُبُلِّيُّ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ الْمَيِّتُ الْقَبْرَ مُثِّلَتِ الشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا. فَيَجْلِسُ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ: دَعُونِي أُصَلِّي».(يوسف عامر).

مظعون﷛، أن هناك نهرا يجرى من أجله (عثمان﷛)، وحين أخبـر النبـي ﷺ بهذا، قال النبي ﷺ في تفسير هذه الرؤيا: ذلك عمله[1].

وبعد هذا التمهيد تدبر في رؤيا رسول الله ﷺ الصادقة والتي تصور البرزخ: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعني مما يكثرُ أن يقول لأصحابِه: هل رأى أحدٌ منكم من رُؤيا؟ قال: فيَقصُّ عليه ما شاء الله أن يَقصَّ. وإنه قال لنا ذاتَ غَداة: إنَّه أتاني الليلةَ آتيان وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي: انطلِق. وإني انطلقتُ معهما، وإنا أتينا على رجل مَضْطجع. وإذا آخرُ قائم عليهِ بصخرةٍ، وإذا هو يَهوي بالصخرةِ لرَأسِه فيَثْلغ رأسَهُ فيتدَهدَه الحجر ها هنا، فيتبعُ الحجرَ فيأخُذُه فلا يَرجع إليه حتى يَصحَّ رأسُه كما كان، ثمَّ يَعودُ عليه فيفعل به مثلَ ما فَعَلَ بَه المرَّةَ الأولى. قال قلتُ: لهما: سُبحانَ الله، ما هذانِ؟ قال قالا لي: انطلِقْ انطلِق، فانطلَقْنا فأتينا على رجل مستَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليهِ بِكلوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أَحدَ شِقي وَجهه فيُشرشِر شِدْقه إلى قَفاه، ومِنْخَره إلى قَفاه، وعَينَه إلى قفاه، قال: وربما قال: أبو رجاء فيشُقُّ. قال: ثمَّ يتحوَّل إلى الجانب الآخر فيفعَل به مثل ما فَعل بالجانب الأوَّل، فما يَفرُغ من ذلك الجانب حتى يَصحَّ ذلك الجانبُ كما كان، ثمَّ يعودُ عليه فيفعل مثلَ ما فعلَ المرَّةَ الأولى. قال قلتُ: سبحانَ الله ما هذان؟ قال قالا لي: انطلقْ انطلق، فانطلقنا فأتَينا على مثل التنُّور، قال: وأحسِبُ

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣٨٤٢) ـــ حدَّثنا موسى بن إسماعيل حدّثنا إبراهيمُ بن سعدٍ أخبرَنا ابنُ شهابٍ عن خارجةَ بن زيد بن ثابــت «أن أم العُـلاءِ ـــ امرأةٌ من نسائهم بايَعتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ـــ أخبرَتْهُ أن عثمانَ بن مَظعونٍ طــارَ لهم في السُّكنى حينَ اقترَعَتِ الأنصارُ على سُكنى المهاجرينَ، قالت: أمُّ العلاءِ: فاشــتكى عثمانُ عندَنا، فمرَّضْتُهُ حتى تُوُفيَ، وجعلناهُ في أثوابه. فدخلَ علينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقلت: رحمة اللّه عليكَ أبا السائب، شَهادتي عليك لقد أكرمَكَ اللّه. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: وما يُدريكِ أن اللّه أكرمهُ؟ قال: قلتُ: لا أدري، بأبي أنتَ وأُمي يا رسول الله، فمن؟ قال: أما هوَ فقد جاءهُ واللّهِ اليقينُ، واللّه إني لأرجوا لهُ الخيرَ، وما أدري واللّه ـــ وأنا رسولُ اللّهِ ـــ ما يُفعَلُ بي. قالت: فواللّهِ لا أُزكّي أحداً بعدَه. قالت: فأحزَنَني ذلك، فنمتُ، فرأيتُ لعُثمانَ عَيناً تجري، فجئتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرتُه، فقــال: ذلك عمله».(يوسف عامر).

أنه كان يقول: فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ. قال: فاطلعْنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساء عراةٌ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوا قال: قلتُ لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلِق انطلق. قال: فانطلَقْنا فأتَينا على نهر حسبتُ أنه كان يقولُ أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يَسبَح، وإذا على شَطِّ النهر رجلٌ قد جَمَعَ عندَه حجارةً كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحَ، ثمَّ يأتي ذلك الذي قد جمعَ عندهُ الحجارةَ فيفغرَ له فاهُ فيلقمُهُ حجراً فينطلقُ يسبَح ثمَّ يرجعُ إليه، كلما رَجَعَ إليه فغرَ له فاهُ فألقمه حجراً. قال: قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلِقْ انطلق. قال: فانطلَقْنا فأتَينا على رجل كريهِ المرآةِ كأكرهِ ما أنتَ راءٍ رجلاً مَرآةً، وإذا عندَهُ نار يَحُشُّها ويَسعى حَولها. قال قلتُ لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلِقْ، انطلِق. فانطلَقْنا فأتَينا على روضةٍ معتَمَّة فيها من كلِّ لَونِ الرَّبيع، وإذا بينَ ظهرَي الروضةِ رجلٌ طويلٌ لا أكادُ أرى رأسَه طولاً في السماء، وإذا حَولَ الرجل من أكثرِ ولدانٍ رأيتهم قطُّ. قال: قلتُ لهما: ما هذا، ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلِقْ، انطلِقْ. فانطلَقنْا فانتهينا إلى روضةٍ عظيمة لم أرَ روضةً قط أعظمَ منها ولا أحسنَ. قال: قالا لي: ارْقَ، فارتقيْتُ فيها قال: فارتقَيْنا فيها فانتهَيْنا إلى مدينة مبنيَّة بلبِنِ ذهبٍ ولبنِ فضة، فأتَينا بابَ المدينةِ فاستفتَحنا ففتحَ لنا، فدَخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شَطْرٌ من خَلْقِهم كأحسنِ ما أنتَ راءٍ وشَطرٌ كأقبح ما أنتَ راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا فقَعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهرٌ معترِض يَجري كأنَّ ماءه المحضُ من البياض فذهَبوا فوقعوا فيه، ثمَّ رجعوا إلينا قد ذَهَبَ ذلك السوءُ عنهم فصاروا في أَحسَنِ صورة. قال: قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ وهذاكَ منزلك. قال: فسمَا بصَري صُعُداً، فإذا قصرٌ مثلُ الرَّبابةِ البيضاء. قال: قالا لي هذاكَ منزِلك، قال: قلت لهما: باركَ الله فيكما. ذَراني فأدخُله، قالا: أما الآن فلا، وأنتَ داخِله. قال: قلت لهما: فإني قد رأيتُ منذ الليلةِ عَجباً، فما هذا الذي رأيت؟ قال قالا لي: أما إنا سنُخبرُك: أَما الرجلُ الأولُ الذي أتيتَ عليه يُثلَغ رأسه بالحجر فإنه الرجلُ يأخذُ القرآن فيرفضهُ وينامُ عن الصلاة المكتوبة. وأما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يشرشَرُ شِدقه إلى قفاه ومنخَرُه إلى قفاه وعَينه إلى قفاه فإنه الرجلُ يَغدو من بيتِه فيكذِبُ الكذبَةَ تبلغُ الآفاق. وأما الرجالُ والنساءُ العراةُ

الذين في مثلِ بناءِ التنور فهمُ الزُّناة والزواني. وأما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يَسبح في النهر ويُلقم الحجرَ فإنه آكلُ الرِّبا. وأما الرجلُ الكريه المرآةِ الذي عندِ النار يَحشُها ويَسعى حولها فإنه مالكٌ خازنٌ جهنم. وأما الرجلُ الطويلُ الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم. وأما الولدانُ الذين حَولهُ فكلُّ مولود ماتَ على الفِطرة. قال: فقال بعضُ المسلمين: يارسولَ الله وأولادُ المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأولاد المشركين. وأما القومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حسناً وشطرٌ قبيحاً فإنهم قومٌ خَلَطوا عملاً صالحاً وآخرَ سَيِّئاً تجاوزَ الله عنهم».[1]

---

[1] - صحيح البخاري، كتاب التعبير، وهذا نصه : ٦٨٩٥) ــــ حدثنا مُؤملُ بن هشام أبو هاشم حدثنا إسماعيل بن إبراهيمَ حدثنا عوفٌ حدثنا أبو رجاءٍ حدثنا سَمُرَة بن جندب رضيَ الله عنه قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعني مما يكثرُ أن يقول لأصحابِه: هل رأى أحدٌ منكم من رُؤيا؟ قال: فيَقصُّ عليه ما شاء الله أن يَقصَّ. وإنه قال لنا ذاتَ غداة: إنَّه أتاني الليلةَ آتيان وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي: انطلِق. وإني انطلقتُ معهما، وإنا أتينا على رجل مُضطَجع. وإذا آخرُ قائم عليه بصخرةٍ، وإذا هو يَهوي بالصخرةِ لرَأسِه فيَثلغ رأسَهُ فيتدَهدَه الحجر ها هنا، فيتبعُ الحجرَ فيأخُذُه فلا يَرجع إليه حتى يَصحَّ رأسُه كما كان، ثمَّ يَعودُ عليه فيفعل به مثلَ ما فَعَلَ به المرَّةَ الأولى. قال قلتُ: لهما: سُبحانَ الله، ما هذان؟ قال قالا لي: انطلِقْ انطلِق، فانطلَقْنا فأتينا على رجل مستَلْقٍ لِقَفاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بِكلوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أحدَ شِقَّي وَجهِه فيُشرشِر شِدقَه إلى قَفاه، ومِنْخَره إلى قَفاه، وعَينَه إلى قفاه، قال: وربما قال: أبو رجاء فيشُقُّ. قال: ثمَّ يتحوَّل إلى الجانب الآخر فيفعَل به مثل ما فَعل بالجانب الأوَّل، فما يَفرُغ من ذلك الجانب حتى يَصحَّ ذلك الجانب كما كان، ثمَّ يعودُ عليه فيفعل مثلَ ما فعلَ المرَّةَ الأولى. قال قلتَ: سبحانَ الله ما هذان؟ قال قالا لي: انطلقْ انطلَق، فانطلقنا فأتَينا على مثل التنُّور، قال: وأحسبُ أنه كان يقول: فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ. قال: فاطلعْنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساء عراةٌ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوا قال: قلتُ لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. قال: فانطلَقْنا فأتَينا على نهر حسِبتُ أنه كان يقولُ أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يَسبَح، وإذا على شَط النهر رجلٌ قد جَمَعَ عندَه حجارة كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحَ، ثمَّ يأتي ذلك الذي قد جمعَ عندهُ الحجارةَ فيفغرَ له فاهُ فيلقمُهُ حجراً فينطلقُ يسبَح ثمَّ يرجعُ إليه، كلما رَجَعَ إليه فغرَ له فاهُ فألقمه حجراً. قالَ: قلت لهما: ما هذان؟

حين نتدبر في أنواع عذاب البرزخ كلها، ندرك أن نوعها وكيفيتها مطابقة ومناسبة تماما لأعمالهم ومشابهة لها، كما أنها تصوير وتمثيل لأعمال هؤلاء الناس الدنيوية.

إن ما وصل إليه الإنسان الآن من تقدم ورقي لا يتعدى معرفة صفات وخواص أشياء الدنيا، أي الصفات والخواص التي ترتبط بمخترعات واكتشافات

قال: قالا لي: انطلِقْ انطلق. قال: فانطلَقْنا فأتَينا على رجل كريهِ المرآةِ كأكرهِ ما أنتَ راءٍ رجلاً مَرآةً، وإذا عندَهُ نار يَحُشُّها ويَسعى حَولها. قال قلتُ لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلِقْ، انطلِق. فانطلَقْنا فأتَينا على روضةٍ معتَمَّة فيها من كلِّ لَونِ الرَّبيع، وإذا بينَ ظهرَي الروضةِ رجلٌ طويلٌ لا أكادُ أرى رأسَه طولاً في السماء، وإذا حَولَ الرجل من أكثرِ ولدانٍ رأيتهم قطٌّ. قال: قلتُ لهما: ما هذا، ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلِقْ، انطلِقْ. فانطلَقْنا فانتهينا إلى روضةٍ عظيمة لم أرَ روضةً قط أعظمَ منها ولا أحسنَ. قال: قالا لي: ارْقَ، فارتقَيْت فيها قال: فارتقَيْنا فيها فانتهَيْنا إلى مدينة مبنيَّة بلبنِ ذهبٍ ولبنِ فضة، فأتَينا بابَ المدينةِ فاستفتحنا ففتِحَ لنا، فدَخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شَطرٌ من خَلْقِهم كأحسنِ ما أنتَ راءٍ وشَطرٌ كأقبح ما أنتَ راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا فقَعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهرٌ معترِض يَجري كأنَّ ماءه المحضُ من البياض فذهَبوا فوقعوا فيه، ثمَّ رجعوا إلينا قد ذَهَبَ ذلك السوءُ عنهم فصاروا في أحسَنِ صورة. قال: قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ وهذاكَ منزلك. قال: فسمَا بصَري صُعُداً، فإذا قصرٌ مثلُ الرَّبابةِ البيضاء. قال: قالا لي هذاكَ منزِلك، قال: قلت لهما: باركَ الله فيكما. ذَراني فأدخُله، قالا: أما الآن فلا، وأنتَ داخِله. قال: قلت لهما: فإني قد رأيتُ منذ الليلةِ عَجباً، فما هذا الذي رأيت؟ قال قالا لي: أما إنا سنُخبرُك: أما الرجلُ الأولُ الذي أتيتَ عليه يُثلَغ رأسه بالحجر فإنه الرجلُ يأخذُ القرآن فيرفضهُ وينامُ عن الصلاة المكتوبة. وأما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يشرشَرُ شِدقه إلى قفاه ومنخَرُه إلى قفاه وعَينه إلى قفاه فإنه الرجلُ يَغدو من بيته فيكذِبُ الكذبَةَ تبلغُ الآفاق. وأما الرجالُ والنساءُ العراةُ الذين في مثلِ بناءِ التنور فهمُ الزُّناة والزواني. وأما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يَسبحُ في النهر ويُلقم الحجرَ فإنه آكِلُ الربا. وأما الرجلُ الكريه المرآةِ الذي عند النار يَحشُّها ويَسعى حولها فإنه مالكٌ خازنٌ جهنم. وأما الرجلُ الطويلُ الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم. وأما الولدانُ الذين حَولهُ فكلُّ مولودٍ ماتَ على الفِطرة. قال: فقال بعضُ المسلمين: يارسولَ الله وأولادُ المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأولاد المشركين. وأما القومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حسناً وشطرٌ قبيحاً فإنهم قومٌ خلَطوا عملاً صالحاً وآخرَ سَيِّئاً تجاوزَ الله عنهم». (يوسف عامر).

العلم، وما زالت هناك دنيا أكبر وأوسع من هذه الدنيا بكثير كامنة بداخله (الإنسان)، والتي عبر القرآن الكريم عنها بـ "أنفس" وما عُرف عن هذه الأنفس أو الأرواح وصفاتها وخصائصها حتى الآن سوى قليل القليل، ومازال علماء "علم النفس" في مراحلهم الأولى، ومقيدين في عجائب علم الأرواح، أي لم تتضح فإن حتى الآن أسرار علم الأرواح.

على أية حال مع أن علم قوى النفس الإنسانية الداخلية ما زال في حاجة إلى تكميل وإيضاح؛ فإن من الثابت أن هنالك ارتباطا قويا بين التصور اليقيني لأي شيء وبين الوجود الخارجي. وقد كشف علم"التنويم المغناطيسي" – الذي يقوم على هذا المبدأ تماما– قدرا من هذه الحقيقة. ويتضح من هذا أن الأديان لم تؤكد على الإيمان (المسمى الثاني لليقين) بهذا القدر دون سبب.

قسم القرآن الكريم اليقين إلى قسمين: علم اليقين، وعلم عين اليقين. فحين تستمع إلى أدلة إثبات أي شيء، أو تشاهد بعض آياته وعلاماته وتقرّ بوجوده؛ فهذا هو علم اليقين. وحين يبدو هذا الشيء بنفسه واضحا أمامك وتشاهده وتحسه بطريقة لا تسمح بورود أي شك أو شبهة؛ فهذا هو عين اليقين. بين القرآن الكريم هذين القسمين من اليقين فى سورة "التكاثر". يقول الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ (٧)﴾. (التكاثر).

وعليه إذا حصل الإنسان على علم اليقين (أعلى درجات الإيمان) الذي بداخله، فيرى بعيون باطنه جحيمه هنا. يقول الله تعالى: **﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ (٦)﴾** (التكاثر).

كان الكفار يطلبون من النبي ﷺ مشاهدة عينية فورية للعذاب، لذا رد عليهم القرآن بقوله تعالى: **﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾** (العنكبوت:٥٤).

وفى الآية التالية يرد الله تعالى على المنافقين الذين اعتذروا عن عدم المشاركة فى غزوة أحد بحجة أنهم يخشون القتال. يقول الله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن**

يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾ (التوبة: ٤٩).

ولكن الفوز بعلم اليقين في الدنيا لا يناله أي شخص؛ إذا إن الإيمان وحده هو وسيلة الوصول إليه، وهناك كثيرون ينكرونه، لأنهم لا يرون الآن جحيمهم، ولكن حين يأتيهم الموت؛ فسينكشف حجاب المادة من على العيون، وتتضح لهم حينئذ بعض من أسرار عالم الغيب، وتتراءى لهم النتائج التمثيلية لأعمالهم، وبعض مناظر الجنة والنار، والثواب والعقاب. وفى ذلك الوقت سيرون بأعين يقينهم مشاهد بعض الوقائع. يقول الله تعالى:﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾(التكاثر:٧).

هذا هو الحال بعد الموت والذي يسمى "عالم البرزخ"، ثم حين تأتي القيامة فيما بعد ستتكشف الأسرار كافة. يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (الطارق: ٩)، وتظهر الجنة والنار بصورتهما الظاهرية، وحينئذ لا يبقى أي شك أو شبهة فى وجودهما، وذلك اليوم هو يوم العلم الحقيقي واليقين المؤكد. يقول الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ (سورة ق).

بعد انكشاف هذا السر، وإزالة هذا الغطاء تُعرض على الإنسان فى هذا اليوم أعماله كافة واحد تلو الآخر، وتتراءى جهنم. يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى (٣٦)﴾ (النازعات).

إدراك أحوال البرزخ

ما أحسن ما قاله الشاعر (أبو العتاهية) :

الموت باب وكل الناس يدخله   يا ليت شعري بعد الباب ما الدار

هذا العلم الذي أظهر هذا الشاعر حسرته عليه، يمكن أن يُحصّل في تلك الدار بعلم اليقين فقط. المهم أنه حين يقف على باب الدار الآخرة سيتضح له هذا الغطاء. وهذا هو عالم البرزخ. قال تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَــرْزَخٌ إِلَــى يَــوْمِ يُبْعَثُــونَ﴾ (المؤمنون:٩٩-١٠٠)

وضح أنه إن لم تتضح أو تر أي كيفية غيبية وقت الموت وبعدها، فكيف سيتبدل الشك والريب فيها إلى يقين. قال تعالى:

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (ق: ١٩)

علمنا من هذا أنه من المؤكد أن منظراً ما للحقيقة سيعرض ويظهر وقت سكرات الموت. وهذا ما فهمه المفسرون من هذه الآيــة،

فيقول ابن جرير: **بالحق من أمر الآخرة، فتبينه للإنسان حتــى تثبتــه وعرفه**[1].

ويقول الحافظ ابن كثير في تفسيره: "**يقول عــز وجــل وجــاءت أيهــا الإنسان سكرة الموت بالحق كشفته لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه**"[2].

وفي تفسير المحدث القاضي الشوكاني: "**ومعنى بالحق أنه عند المــوت يتضح له الحق، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الأخبار بالبعث والوعد والوعيد**"**(ج ٥ صــ ٧٣)**

والعبارة المذكورة في تفسير المفتي الألوسى هي:

"**والمعنى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي نطقت بــه كتــب الله تعالى ورسله عليهم السلام**"

وهذا ما ورد أيضًا في تفسير الزمخشري المعتزلي **(الكشاف ج ٢ صــ ١٤٠٢ كلكته)** وتفسير أبي حيان الأندلسي المالكي **(البحر المحــيط ج ٨ صــ ١٢٤ مصر)**.

ومع أن هؤلاء المفسرين ينتمون إلى فرق مختلفة، فإن تفسيراتهم كلهــا متفقة. والدليل الأكثر من هذا على صحة هذا التفسير ما ورد بعد ذلك في ذكــر القيامة.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري مجلد ٢٦ صــ ٩١.

(٢) تفسير ابن كثير. فتح البيان ج ٩ صــ ١٩٨.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢)

وضح من هذا أنه عند وقت الموت يكون هناك قدر معين من الانكشاف ويوم القيامة يكون هذا الانكشاف تاما. ولكن على كل حال فعند الموت ينكشف تماما ستار اليقين.

رجوع الروح إلى خالقها بعد الموت:

وكثير ما استخدم مصطلح "الرجوع إلى الله" للموت في القرآن الكريم:

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجمعة: ٨)

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦)

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٤٨)

وقد اختير هذا الأسلوب في آيات عدة. ومن البدهي أن الوصول يدخل ضمن مفهوم كل رجوع وعودة. ويستخلص من هذا أن الأرواح البشرية كلها قد جاءت من عند الله تعالى قيد هذا الجسم والقالب، ثم تعود ثانية إلى الله تعالى عند الموت بعد أن تخرج من قيدها هذا. ولن يكون هناك زاد في سفر هذا الرجوع سوى ما كسبته من هذه الدنيا في دار العمل.

بمعنى أن أعمالها الداخلية والخارجية وحياتها اللاحقة ستكون محصورة في نوعين أعمالها في الدنيا: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٦٠)**

وقال في آية أخرى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(يونس: ٢٣)

أخبر الله سبحانه وتعالى فيها أن الرجوع سيكون إليه بعد هذه الحياة الدنيا. وقد فهم المفسرون الرجوع إلى الله تعالى هذا بالموت.

والآن نقدم آيات ورد فيها تصوير كامل للموت، وأخبر فيها بعد ذلك بأن أرواح العصاة ستساق كما تساق البهائم قال تعالى:

﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ (القيامة: ٢٦: ٢٩)

أما الأرواح المطمئنة فستسمع نداءً مليئا بالمحبة وقت خروجها يقول:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٧، ٢٨)

يالروعة هذا النداء، ويالروعة هذا الرجوع.

حال ذلك الوقت

فما أصعب تلك اللحظة التي ينتهي فيها وقت إمهال هذه الروح وعملها. ففي تلك اللحظة ستظهر للإنسان حياته متجسدة في شكل أعماله السابقة. ويبدو له عمله كله متمثلا أمامه، فترى هذه الصور الغيبية متحركة ناطقة مسموعة. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام: ٩٣، ٩٤)

وضح من هذه الآيات أن الملائكة ستأتي وقت الموت، وأنه حين تخرج الروح من الجسد ستبدأ مرحلة عقوبة ذنوبها وخطاياها. وقد ذكر هذا الأمر في موضع آخر:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (الأنفال: ٥٠، ٥١)

وضح من هذا أن العقاب سيبدأ منذ الموت، وأن هذا العقاب لا يعاقبه الله تعالى، والعياذ بالله، انتقامًا من أي أحد، بل إنه يكون نتيجة قيمة لأعمال الإنسان نفسه.

أما حال الصالحين فيكون مختلفًا عن هذا الحال تمامًا، حيث إنهم سيبشرون من كل جانب، وستحفهم السعادة والنعيم من كل جانب: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ

تَبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (الواقعة: ٨٣: ٩٥)

هذه المشاهد والمناظر كلها هي مشاهد ومناظر ما بعد الموت وعالم البرزخ.

عذاب ونعيم البرزخ

ظهر جليًا من الآيات السابقة أنه بعد مفارقة الروح البدنَ تمر مناظر الرحمة وتعرض أمام الأرواح الطيبة، ومناظر العذاب أمام الأرواح الخبيثة. وفي القرآن الكريم آيات أخرى ثبت منها أن هذه المناظر لا تعرض ولا تمر من أمام الروح فحسب، بل إنها أيضًا تدخل في بعض الأحيان داخل الرحمة أو العذاب طبقا لنوعية أعمالها. فقيل في القرآن في شأن المنافقين:

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة: ١٠١)

وضح من قوله: عذاب عظيم أن المقصود هو عذاب النار. وربما مر عليهم قبل هذا العذاب مرحلتان من العذاب؛ الأول هو هذا العذاب الدنيوي، والثاني يمكن أن يكون بعد الموت. فقد ورد في القرآن الكريم في ذكر آل فرعون أن: **﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾** (غافر: ٤٥، ٤٦)

فوضح من هذا أن العصاة يذوقون بعض العذاب أيضًا في عالم البرزخ قبل القيامة، وأن شكل نعيم الجنة وراحتها يعرض على الصالحين. وكان النبي (ﷺ) قال في تفسير هذه الآية: «إنَّ أحدَكم إذا ماتَ عُرِضَ عليهِ مَقْعَدُهُ بالغَداةِ والعَشيِّ، إن كان من أهلِ الجنَّةِ فمن أهلِ الجنةِ، وإن كان مِن أهلِ النارِ فمنْ أهلِ

النارِ، فيُقالُ: هذا مَقعَدُكَ حتى يبعثَكَ اللّهُ يومَ القِيامَةِ»[١]. وأخبر ﷺ في حديث صحيح آخر أن مناظر الجنة والنار تُعرض على الميت. ويقال له لو لم تعمل صالحا لما كان هذا مقعدك. ولكن بسبب عملك الصالح أصبحت الجنة الآن مقعدك، ثم ينعم في قبره حتى يحشر الناس[٢].

وكان المشركون ومنكرو اليوم الآخر يتسألون قائلين لو كانت هذه الرسالة الإلهية صحيحة فلم لا نرى الملائكة أو الله؟ فقيل في الرد عليهم: إذا

---

[١] صحيح مسلم كتاب الجنة والنار باب عرض مقعد الميت ج ٢ مصر، وهذا نص الحديث: (٧١٦٠) حدثنا يَحْيَى بْنُ يَحْيَىٰ. قَالَ: قَرَأْتُ عَلَىٰ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ. إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ. يُقَالُ: هَـٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».(يوسف عامر). وجامع الترمذي كتاب الجنائز باب عذاب القبر، حديث حسن صحيح. وهذا نص الحديث: (١٠٦٦) حدثنا هَنَّادٌ. حدثنا عَبْدَةُ عَنْ عُبَيْدِ الله ، عَنْ نَافِعٍ ، عن ابنِ عُمَرَ ، قالَ: قالَ رَسولُ الله : «إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ. بالغداة والعشيِّ فَإِنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وإِنْ كانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: هذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ الله يَوْمَ الْقِيَامَة». قَال أبو عيسى: وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر). وصحيح البخاري كتاب الجنائز باب عذاب القبر ص ١٨٤ وسكرات الموت. وهذا نص الحديث: (١٣٥٥) حدثنا إسماعيلُ قال حدَّثني مالكٌ عن نافعٍ عن عبدِ اللّهِ بنِ عُمرَ رضيَ اللّهُ عنهما أنّ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال «إنَّ أحدكم إذا ماتَ عُرِضَ عليه مَقْعَدُهُ بالغَداةِ والعَشيِّ، إن كان من أهلِ الجنَّةِ فمن أهلِ الجنةِ، وإن كان من أهلِ النارِ فمنْ أهلِ النارِ، فيُقالُ: هذا مَقعَدُكَ حتى يبعثَكَ اللّهُ يومَ القِيامَة».(يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري كتاب الجنائز ص ٣٨٤. وورد (١٣٥٠) حدَّثنا عيّاشُ بنُ الوليدِ حدَّثنا عبدُ الأعلى حدَّثنا سعيدٌ عن قَتادةَ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه أنّهُ حدَّثَهم أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال «إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرهِ وتولَّى عنه أصحابُه ــ وإنّه ليَسمَعُ قرعَ نعالِهِم ــ أتاهُ ملَكانِ فيُقعِدانهِ فيقولانِ: ماكنتَ تقولُ في هذا الرجُلِ؟ لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم. فأمّا المؤمنُ فيقولُ أشهدُ أنهُ عبدُ اللهِ ورسولُهُ. فيقال له: انظُرْ إلى مقْعَدِك مِنَ النّارِ، قد أبدلَكَ اللهُ به مقعداً منَ الجنةِ، فيراهُما جميعاً» قال قَتادةُ: وذُكِرَ لنا أنَّهُ يُفسَحُ لهُ في قبرِهِ. ثم رَجَعَ إلى حديثِ أنسٍ قال «وأمّا المنافقُ والكافرُ فيقالُ لهُ: ماكنتَ تقولُ في هذا الرجُلِ؟ فيقول: لاأدري، كنتُ أقولُ مايقولُ الناسُ. فيقال: لادَرَيتَ ولاتَلَيتَ. ويُضرَبُ بمطارِقَ من حديدٍ ضَربةً، فيَصيحُ صيحةً يَسمعُها مَن يَليهِ غيرَ الثّقلَينِ».(يوسف عامر).

رأيتم الملائكة فكيف يكون الإيمان بالغيب عندئذ؟ وقد علم من الآيات السابقة أن الملائكة ستُرى وقت الموت أو سيرون في الآخرة. لذا قال جل من قائل:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَراً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ (الفرقان: ٢٢، ٢٦)

الأمر واضح فانشقاق السماء بالغمام ونزول الملائكة تصوير للقيامة. قبلها يكون اليوم الذي ترى فيه الملائكة والذي يكون يومًا عسيرا على الكافرين، الذين سيقولون وقتها ليت هذا المنظر المفزع لم يمر أمام أبصارنا، ويكون هذا اليوم مستقرا لأهل الجنة، ووقاية لهم من لهيب الحر. وهذه الحالة والكيفية تكون قبل قيام الساعة وبعد الموت[1].

وقد ورد في سورة محمد بيان حالة وقت الموت حين تتوفى الملائكة أرواح الكافرين ويضربون وجوههم وأدبارهم. قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾

(محمد: ٢٧، ٢٨)

سواء كان هذا الضرب يقع على هذا الجسم المادي أو على الجسم المثالي أو على الروح أو على ما يقع عليه، فإنه على كل حال يدل على أن لونا من العذاب يبدأ في الوقوع على الكافرين منذ وقت الموت.

والأكثر من ذلك ما ورد في سورة الأنعام:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمرات الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ (الأنعام: ٩٣)

---

[1] صحيح مسلم باب عرض مقعد الميت مصر.

فمعناه اليوم، واضح أن المقصود به هو هذا الزمن أو الوقت الذي تخرج فيه الملائكة الروح من البدن. فالمقصود باليوم هنا ليس اليوم الدنيوي الذي ينتهي بعد ٢٤ ساعة بل المقصود به الزمن والوقت الكامل للبرزخ (انظر فتح القدير للشوكاني وتفسير أبي السعود وتفسير روح المعاني للآلوسى).

وقد أمر بإدخال قوم نوح النار بعد أن غرقوا فقال: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً﴾ (نوح: ٢٥)

وذكر العذاب بعد موت زوجتي سيدنا لوط وسيدنا نوح عليهما السلام الكافرتين فقال:

﴿وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(التحريم: ١٠)

هذه الوقائع قبل القيامة وبعد عذاب الدنيا المهلك. وهذه الفترة تسمى البرزخ.

وذكر في سورة يس رجل صالح ظل طيلة حياته يبلغ قومه الحق ويهديهم، ثم استشهد على الأرجح في سبيل هذا الحق. وبعد الموت وحين دخل الجنة قال متحسرا: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين بسبب الإيمان:

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾(يس: ٢٦: ٢٨)

وقال عن الشهداء خاصة أنهم:

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩)

فوضح من هذا أن الشهداء يجدون في البرزخ الجنة مع الحياة الكاملة. أما باقي الصالحين فتسلم الملائكة عليهم وتبشرهم. قال تعالى:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٣٢)

مصطلح القبر

عُرضت في السطور السابقة مناظر عالم البرزخ التي وردت في آيات القرآن الكريم وفي الأحاديث الصحيحة. والتفصيلات التي وردت لأحوال هذا العالم[١] وردت بصفة عامة مع اصطلاح القبر. وليس المقصود من لفظ القبر هنا هو هذا البنيان الترابي الذي تدفن وتوضع فيه عظم الموتى بل المقصود به هو هذا العالم الذي تعرض فيه هذه المناظر، وهو عالم الأرواح والنفوس لا العالم المادي، لذا خاطب القرآن الكريم النفس والنفوس دائمًا عند الحديث عن هذا العالم. وذكر عذابها ونعيمها ورحمتها ولعنتها. فالجسم الذي يكون في ذلك العالم هو شكل تمثيلي لأعمال الموتى، ويكون صورة مطابقة تمامًا لجسمها الترابي. فمثلاً حين تكون نائمًا ويكون جسمك شبه الميت مطروحًا على الفراش، ثم ترى في المنام أن جسدك يحترق بالنار أو أنك في لذة ونعيم، فهل تشعر بهذا التعذيب أو هذه اللذة التي يمكن أن يتأثر بها جسدك المطروح على الفراش هذا في عالم اليقظة؟ والجواب في هذا هو أنه كما يبدو لك في النوم جسم آخر خيالي غير جسدك المادي ويكون مشابهًا تمامًا لجسمك المادي، فإنك أيضًا ترى لك جسدا تمثيليا في الموت يكون مشابهًا تماما في أكثر الأحوال لجسمك الترابي[٢]و ستتأثر روحك بعذاب أو نعيم جسدك التمثيلي هذا. فالروح البشرية هي المسئولة عن الأعمال لا الجسم. قال تعالى:

﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ (المدثر: ٣٨) لذا تكون الروح هي المعذبة لا الجسم، فالجسم منزلة الآلة. وقد كان للروح في الدنيا جسم ترابي وسيكون لها

---

[١] وقد أنكر بعض المعتزلة عذاب القبر واستدلوا على أنه لم يرد له ذكر في القرآن الكريم. وقد وقعوا في هذا الخطأ لأنه لم يرد في القرآن الكريم لفظ عذاب مع القبور أو القبر. لكن لو نظروا فسيتضح لهم أن ذكر عذاب الأرواح البشرية وثوابها وعقابها ورحمتها ولعنتها بعد الموت وقبل القيامة موجود في القرآن الكريم. وبهذا يزول الشك في أن جسم الميت يبدوا سليمًا وليس عليه أي أثر للعذاب. ويزول الشك أيضًا بالقول بأن البدن يتحلل في القبر فكيف له أن يشعر بالعذاب أو النعيم ؟

[٢] صحيح مسلم باب عرض مقعد الميت صـ ٤٩٠ مصر.

في البرزخ جسم آخر مجرد من المادة والماديات، لكنه سيكون مشابها للجسم الترابي. وبناء على هذا الشبه يكون اصطلاح القبر في الحديث عامة. لأننا نرى بأعيننا أموات المسلمين يشيعون في هذا القبر. وقد وردت قبل ذلك آية من القرآن الكريم تقول:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال: ٥٠)

و يثبت من هذه الآية أن العذاب يبدأ في النزول على الكافرين من بعد الموت، كما يثبت أن هذا الضرب والعذاب يصب على وجوههم وأدبارهم، لكنها ليست هذه الوجوه والأدبار التي تكون في الجسد الميت أمامنا. وقد شبهت أرواح الكافرين في هذه الآية بالبهائم فكما أن البهائم تضرب على وجوهها أحيانًا وأحيانًا أخرى على أدبارها وقت رعيها وسقيها ، فكذلك تضرب الملائكة الأرواح الكافرة وهي تسوقها وتقول لها ذوقوا العذاب. وقد وضح هذا المفهوم في ألفاظ هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق﴾ (القيامة: ١٢) ومن بين الأرواح أيضًا تكون أرواح طيبة يحررها المولى سبحانه وتعالى بفضله وكرمه في البرزخ من أسر شكل هذا الجسم الترابي وصورته ويعطيها جسمًا آخر مناسبًا. فكما ورد في الحديث أن أرواح المؤمنين تحلق وتطير في الجنة في شكل طيور[١]، وقد ورد في شأن الشهداء خاصة أنهم سيكونون في شكل طيور خضر وستكون أوكارها مصابيح عرض الرحمن، فكذلك فإن الرؤية الصادقة التي رآها النبي (ﷺ) عن الجنة والنار والتي عرضت فيها أشكال تعذيب الكافرين في شكل بدني، كلها تمثيلية. وواضح أن القالب والجسم التمثيلي للمؤمنين والشهداء وكذلك الجسم التمثيلي للكافرين لن يكون هذا القالب والجسم الذي وضع في القبر وتحلل، أو حرق بالنار وتترب، وتطاير في الهواء وتفرق أو أكله أي حيوان فتمزق.

وقد ورد في بعض الأحاديث عن النبي (ﷺ) ذكر مشاهد ومسامع العذاب في هذه القبور الترابية. وواضح أنه لن يكون عند هؤلاء الناس الذين يدفنون

---

[١] سنن ابن ماجه، كتاب الجنائز.

أمواتا لغة ولا مشاهدة مادية؛ إذ لن تبقى من الميت في هذه الدار سوى أكوام هذا التراب الذي يمكن الإشارة إليه. وقد ورد في حديث صحيح ذكر رجل صالح أوصى بسبب خوفه من الله أن يحرق جسده بعد الموت ثم ينثر في الهواء حتى لا يقف أمام الله. ولكن قدرة الله تعالى جمعته وأوقفته. ثم أنعم الله تعالى عليه برحمته[١].

السؤال والجواب

ورد في الأحاديث الصحيحة عن النبي (ﷺ) أنه أخبر بأن ملكين يأتيان القبر بعد الموت ويسألان الموتى عن التوحيد والنبوة[٢]. وقد أيدت الآيات القرآنية

---

[١] صحيح البخاري ج ٢ كتاب الرقاق باب الخوف من الله. وهذا نص الحيث: (٦٣٣٤) حدَّثنا موسى حدَّثنا معتمرٌ سمعت أبي حدثنا قَتادة عن عُقبةَ بن عبد الغافرِ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضيَ اللّه عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «ذكر رجلاً فيمن كان سلَف ــ أو قَبلكم ــ آتاهُ الله مالاً وولَداً، يعني أعطاه. قال: فلما حُضرَ قال لبنيه: أيَّ أب كنتُ لكم؟ قالوا: خيرَ أب. قال: فإنه لم يبتئرْ عندَ اللّه خيراً ــ فسَّرَها قتادة: لم يدَّخرْ ــ وإنْ يَقدَمْ على اللّه يعذبُه. فانظروا، فإذا مَتُّ فأحرِقوني، حتى إذا صرتُ فحماً فاسحَقوني ــ أو قال: فاسهكوني ــ ثم إذا كانت ريحٌ عاصف فاذْروني فيها. فأخذَ مواثيقَهم على ذلك وربّي. ففعلوا. فقال اللّه: كن. فإذا رجلٌ قائم. ثم قال: أي عبدي، ما حملكَ على ما فعلتَ؟ قال: مخافتُك. أو فرَقٌ منك. فما تَلافاهُ أن رحِمَهُ اللّه». فحدَّثت أبا عثمان فقال: سمعتُ سلمانَ، غيرَ أنه زاد «فاذروني في البحر» أو كما حدَّث. وقال مُعاذ حدثنا شعبةُ عن قتادةَ سمعتُ أبا سعيدٍ عنِ النبي صلى الله عليه وسلم.(يوسف عامر).

[٢] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٥٠) حدَّثنا عيّاشُ بنُ الوليدِ حدَّثنا عبدُ الأعلى حدَّثَنا سعيدٌ عن قَتادةَ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه أنَّهُ حدَّثَهم أنّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال «إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرهِ وتولّى عنه أصحابُه ــ وإنّه ليَسمَعُ قرعَ نعالِهم ــ أتاهُ ملَكانِ فيُقعدانِه فيقولانِ: ماكنتَ تَقولُ في هذا الرجُلِ؟ لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم. فأمّا المؤمنُ فيقولُ أشهدُ أنهُ عبدُ اللهِ ورسولهُ. فيقال له: انظرْ إلى مَقْعَدِكَ منَ النّارِ، قد أبدلَكَ اللهُ به مَقعداً منَ الجنة، فيراهُما جميعاً» قال قَتادةُ: وذُكرَ لنا أنَّهُ يُفسَحُ لهُ في قبرِه. ثم رَجَعَ إلى حديثِ أنس قال «وأمّا المنافقُ والكافرُ فيقالُ لهُ: ماكنتَ تقولُ في هذا الرجُلِ؟ فيقول: لاأدري، كنتُ أقولُ مايقولُ الناسُ. فيقال: لادَرَيتَ ولاتَلَيتَ. ويُضرَبُ بمطارقَ من حديدٍ ضَربةً، فيَصيحُ صيحةً يَسمعُها مَن يَليهِ غيرَ الثقَلَينِ». (يوسف عامر).

التالية هذا: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النساء: ٣٢)

وآية أخرى هي: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ (الأعراف: ٣٧، ٣٨)

اتضح في الآية الأولى حال المسلمين الذين اقترفوا ذنب عدم الهجرة وفي الثانية حال الكفار وإنهم سيسألون بعد الموت. على كل حال فإن هذا كان حال مقترفي ذنوب معينة، أما السؤال الذي يمكن أن يسأل لعامة الناس فقد ورد ذكره في الأحاديث؛ يعني أنهم سيسألون عن التوحيد والرسالة.

وقد ورد في آية من آيات القرآن الكريم تشبيه للكلمة الطيبة (أي كلمة التوحيد) وتشبيه للكلمة الخبيثة (أي الكفر). فشبهت الكلمة الطيبة بالشجرة التي أصلها ثابت وفروعها في السماء، وأن فيها من الثمر مالا ينقطع. وشبهت الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. ثم قال تعالى بعد ذلك:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ (إبراهيم: ٢٧)

وتفسيرها في الأحاديث الصحيحة هو أنه متعلق بسؤال وجواب البرزخ، فكما أن المؤمن قائم وراسخ على إيمانه في الدنيا، فكذلك سيكون وسيظل في البرزخ على حاله، أما الكافر والمشرك الذي لم يكن قائمًا وثابتًا على الإيمان في الدنيا فإنه سيظل على حاله.

ومع أنه لا حاجة لدليل آخر بعد تفسير رسول الله (ﷺ) فإننا نقول أن "القول الثابت" في هذه الآية بشارة للمؤمنين بالثبات على الإيمان في الآخرة أيضًا. وواضح أنه ليس المقصود من هذه الآخرة يوم الجنة أو النار لأن يوم الآخرة الحقيقي يكون يوم كشف الغطاء، يومها لن يجرأ الكافر على الحياد عن الحق. ثم إن هذا اليوم لن يكون بشارة للمؤمنين كما أنه لن يكون وقتًا مناسبًا

لإظهار وإعلان هذا المن والإحسان. فالمقصود من هذا أن إعلان وإظهار هـذه البشرى والإحسان سيكون في هذا الجزء من الآخرة الذي لا يكشف فيه الغطاء كشفًا كاملاً. وهذا الجزء هو عالم البرزخ.

ويتضح أيضًا من تفسير هذه الآية الكريمة الـذي أخـذ واسـتنبط مـن الأحاديث الصحيحة، أن البرزخ أيضًا يدخل ضمن المفهوم الواسع للآخرة.

والحقيقة أن سؤال وجواب عالم البرزخ هذا لن يكون شيئا جـديدا بـل سيكون مثل إقرار وإنكار الحالة الإيمانية للحياة الأولى. أو قل إن صورة الأمس ستظهر وتلوح في مرآة اليوم بمعنى أن الحالة التي انتهت عليها الحياة ستظهر في السؤال والجواب فيما بعد.

مسكن الأرواح في البرزخ

السؤال الأخير هو أين سيكون مستقر الأرواح ومسكنها في وقت ما بين الموت والقيامة (البرزخ) ؟ وإجابة هذا السؤال توجد في آيات عديدة من القـرآن الكريم. أول آية ذكرت أو وردت بعد الآيات السابقات، وقيل فيهـا إن الملائكـة حين تنتهي من سؤال المنكرين ستدخلهم بأمر من الله تعالى النار مـع أقـرانهم ورفقائهم. ثم قال تعالى بعد ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠)

علمنا من هذه الآية أن أرواح الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها لـن تدخل الجنة أبدًا بعد الموت، وستتيه في الأرض أو تظـل تحلـق حيـث دفنـت أجسادهم. حيث سيرون من هناك منظر النار وسيذوقون العذاب.

على النقيض منهم ستنادى الملائكة أو ينادى المولى سبحانه وتعالى نفسه أرواح المؤمنين وتقول أو يقول:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٧: ٣٠)

الأكثر من ذلك أن الأرواح الطيبة التي ضحت بأجسادها الترابية وحياتها الفانية وسعادتها المادية وراحاتها الزائلة في سبيل الله، يمنحها المولى تبارك وتعالى وقتها أجسامًا أخرى وحياة خالدة ومتعة ونعيمًا روحانيًا دائمًا. قال تعالى:

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤)

كيف ستكون هذه الحياة السعيدة ؟ هذا ما ورد في سورة أخرى من قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**(آل عمران: ١٦٩: ١٧١)

اتضح أن هذه الحياة السعيدة التي ستعطى للشهداء سيكون مكانها "عند الله" وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن أرواح هؤلاء الشهداء الأحياء حين تخرج من الجسم المادي ستطير وتتنزه في الجنة في شكل طيور خضراء وتصبح مصابيح عرش الرحمن أوكارها. بعد هذا سيسلم كل ذي عقل سليم أن الدرجات مراتب الأنبياء عليهم السلام الروحانية ستكون أعلى وأسمى بكثير من درجات ومراتب الشهداء؛ لذا سيكون مكانهم أيضًا عند المولى تبارك وتعالى. وقد رأى النبي (ﷺ) أثناء معراجه وفي رؤيته الصادقة بعض الأنبياء في السماء وفي منازل الجنة المختلفة[1].

---

[1] ورد في صحيح البخاري: ٧٣٥١) ـــ حدَّثنا عبدُ العزيز بن عبداللَّه، حدثني سليمانُ عن شريكِ بن عبداللَّه أنه قال: سمعتُ أنس بنَ مالكٍ يقول: «ليلةَ أُسْرِيَ برسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبةِ إنه جاءه ثلاثةُ نفرٍ قبل أن يوحى إليه وهو نائمٌ في المسجد الحرام فقال أولُهم: أيُّهم هوَ؟ فقال أوسطُهم: هو خيرُهم، فقال أحدُهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يَرهُم حتى أَتَوْهُ ليلةً أُخرَى فيما يَرى قلبُه وتنام عينُهُ ولا ينام قلبُه وكذلكَ الأنبياء تنامُ أعينُهم ولا تنام قلوبُهم، فلم يكلموُه حتى احتَملوه فوضعوه عند بئر زمزمَ فتولاَّه منهمُ جبريلُ فشقَّ جبريل ما بين نحرهِ إلى لبَّتِهِ حتى فرغ من صدره وجوفِهِ، فغسلَه من ماء زمزمَ بيده حتى أنقى جوفهُ ثم أُتي بطَستٍ من ذهب فيه تَورٌ من ذهب محشُوًّا إيماناً وحكمةً، فحشا به صدْرَه ولَغاديده ـــ يعني عُروق حلقه ـــ ثم أطبقَهُ ثم عرَج به إلى السماء الدُّنيا فضربَ باباً من أبوابها، فناداه

أهلُ السماء، من هذا؟ فقال: جبريلُ، قالوا: ومن معكَ؟ قال: معي محمدٌ، قال: وقد بُعثَ؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، فَيَستبشرُ به أهل السماء لا يعلمُ أهلُ السماء بما يريدُ اللَّهُ به في الأرض حتى يُعلِمهم فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريلُ: هذا أبوكَ فسلِّمْ عليه فسلَّمَ عليه وردَّ عليه آدمُ وقال: مرحباً وأهلاً يا بني نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنَهْرَين يطَّردان، فقال: ما هذان النهرانِ يا جبريل؟ قال: هذان النِّيلُ والفراتُ عُنصُرُهُما ثم مضى به في السماء فإذا بنهرٍ آخرَ عليه قصرٌ من لؤلؤ وزبرجَد فضربَ يدَه فإذا هو مسك أذفر قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثرُ الذي خَبَّأَ لك ربُّك ثم عَرَجَ إلى السماء الثانية قالت الملائكة لهُ مثلَ ما قالتْ له الأولى، من هذا؟ قال: جبريلُ، قالوا: ومن مَعك؟ قال: محمدٌ صلى الله عليه وسلم، قالوا: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً به وأهلاً. ثم عرج به إلى السماء الثالثة وقالوا له مثلَ ما قالتِ الأولى والثانية، ثم عرج به إلى الرابعةِ فقالوا له مثلَ ذلك، ثم عرجَ به إلى السماء الخامسة فقالوا مثلَ ذلكَ، ثم عرجَ به إلى السادسة فقالوا له مثل ذلكَ، ثم عرج به إلى السماء السابعةِ فقالوا له مثل ذلك كلُّ سماءٍ فيها أنبياءٌ قد سمَّاهم فَوَعَيْتُ منهم إدريسَ في الثانيةِ وهارونَ في الرابعة وآخرَ في الخامسة لم أحفظ اسمَهُ، وإبراهيمَ في السادسة وموسى في السابعةِ بفضل كلامه للَّه، فقال موسى: رب لم أظنَّ أنْ تَرْفَع عليَّ أحداً ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمهُ إلا اللَّهُ، حتى جاء سِدْرَةَ المنتهى ودنا الجبَّارُ ربُّ العزَّة فتدلَّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحَى اللَّه فيما أوحَى خمسين صلاةً على أمَّتِكَ كُلَّ يومٍ وليلةٍ ثم هبطَ حتى بلغ موسى فاحتبسَهُ موسى فقال يا مُحمد: ماذا عَهد إليكَ ربُّك قال: عَهِد إليَّ خمسين صلاةً كلَّ يومٍ وليلة، قال: إن أمَّتَكَ لا تستطيعُ ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهمْ فالتفت النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كأنه يستشيرُه في ذلك فأشار إليه جبريلُ أن نعم إن شئت فعلا به إلى الجبَّار، فقال وهو مكانُه: يا رب خَفِّف عنَّا فإنَّ أمتي لا تستطيعُ هذا فوضع عنه عشر صلوات ثمَّ رجع إلى موسى فاحتبَسه فلم يَزَل يُرددهُ موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلَواتٍ ثم احتبسهُ موسى عند الخمسِ فقال: يا محمد واللَّه لقد راوَدْتُ بَني إسرائيل قوْمي على أدنى من هذا فضعُفُوا فتركوه، فَأُمَّتُكَ أضعفُ أجساداً وقُلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فلْيُخفِّف عنكَ ربكَ، كلَّ ذلك يلْتَفتُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى جبريلَ ليُشير عليه ولا يَكْرَهُ ذلك جبريلُ، فرفعَهُ عند الخامسة فقال: يا رب إنَّ أمَّتي ضُعفاء أجسادُهُم وقُلوبهم وأسماعُهم وأبدانهم فخَفِّف عنَّا، فقال الجبَّار: يا مُحمد، قال: لبيَّك وسعديك، قال: إنه لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَيَّ كما فرضتُ عليكَ في أم الكتاب قال: فكلُّ حسنةٍ بعشْرِ أمثالها فهي خمسونَ في أم الكتاب وهي خمسٌ عليكَ، فرَجع إلى موسى فقال: كيف فَعَلْتَ؟ فقال: خفَّفَ عنا، أعطانا بكُل حسنةٍ عشرَ أمثالها. قال موسى: قد واللَّه راوَدْتُ بني إسرائيلَ على أدنى من ذلك فتركوه، ارجع إلى ربك فلْيُخفِّف عنكَ

وهناك بعض الأرواح السعيدة التي ستخرج من هنا وتدخل في صف الملائكة. كما ورد في الأحاديث الصحيحة في شأن سيدنا جعفر رضي الله عنه بأنه يطير بذراعيه بعد استشهاده مع الملائكة في عالم الملكوت[1]. هاتان الذراعان الطائرتان في عالم البرزخ تشبهان في الحقيقة الذراعين اللتين كانتا في بدنه، واللتين قطعتا في تلك الغزوة، وهما تقبضان على راية الإسلام. فلما قطعتا أمسك الراية بما تبقى من ذراعيه وبمساندة رقبته. إذًا لا عجب أن تكون هذه الآية الكريمة قد نزلت في شأن هؤلاء الناس:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (السجدة: ٣٠، ٣١)

فصوت البشارة هذا ورفقة الملائكة يمكن أن يكون منظرا جذابا لذلك البرزخ.

أيضاً، قال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: يا موسى قد واللَّه استَحْيَيْتُ من ربي مما اختلَفْتُ إليه، قال: فاهبط باسم اللَّه، قال: واستيْقَظ وهو في مسجد الحرام». (يوسف عامر).

[1] - وهذا نص الحديث: (٣٩٢٤) حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ حُجْرٍ ، أخبرنا عَبْدُ اللّهِ بنُ جَعْفَرٍ ، عَن العَلاءِ بنِ عبْدِ الرَّحمٰنِ ، عَن أَبيهِ، عَن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ : «رَأَيْتُ جَعْفَراً يَطِيرُ في الْجَنَّةِ مَعَ المَلاَئِكَةِ» .

قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَبي هُرَيْرَةَ لا نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللّهِ بنِ جَعْفَرٍ، وَقَدْ ضَعَّفَه يَحْيَى بنُ مَعينٍ وَغَيْرُهُ وَعبْدِ اللّهَ بن جَعْفَرٍ هُوَ وَالِدُ عَلِيِّ بنِ المَدِينيِّ. وَفي البابِ عَن ابنِ عبَّاسٍ.(يوسف عامر).

المرحلة الثانية الحقيقية للآخرة

القيامة والجزاء

الموت هو حال وشأن الأفراد فشخص يموت، وآخر يولد. و الشعوب هي الأخرى تدخل هذه اللعبة (لعبة الموت) فشعب ينهي لعبته فيخلي مكانه لغيره وهذا الأمر قائم منذ الأزل وما يزال قائمًا حتى الآن. فالنظام الذي خلقت الكائنات عليه ما يزال قائمًا بعينه، وما يزال حال أول يوم للحياة باقيًا كما هو حتى الآن. المهم أن: آلاف الشموع قد احترقت وما يزال الحفل مستمرًا لكن هل سيأتي يوم يطوي فيه هذا البساط، ويزول فيه محفل هذه الكائنات، وتزول فيه وتتبدل السماوات والأرض، ويعرض خلاق العالم منظرًا جديدًا لصفة خلقه وإحسانه ؟ وفي أي نظام جديد سيظهر هذا العالم بعد خلق أرض وسماوات جدد ؟

إن كل رجالات الدنيا الذين يتنبأون بالمستقل بالنظر إلى الحال يجيبون على هذا السؤال بطريقة أو بأخرى بالإثبات ويقولون: كما أن هؤلاء الأفراد يأتون ويفنون فكذلك سيأتي يوم يخيم الموت فيه على المخلوقات الدنيوية كلها. إن الفلاسفة وعلماء الطبيعة هم أكثر من يتوقع الإنكار منهم، لكن غالبية الفلاسفة يؤمنون بهذا الأمر. كما أن علماء الطبيعة لا يعتبرونه محالاً. بل إن أفكار العديد من باحثي الطبيعة قد وصلت في هذا الشأن إلى أكثر من حد التوقع، حيث وصلت إلى حد اليقين. فإنهم يواصلون الحديث بقوة علمهم عن مجيئ هذا اليوم المفزع، ويعرضون أسبابا عدة لهذا الفناء. فيقول أحدهم: إن النظام الذي تسير به عجلة الحياة هو دفء الشمس الذي يتناقص يوما بعد يوم، وسيأتي يوم في النهاية تتجمد فيه هذه الحياة وتتوقف عجلة الحياة. وقيل إن هناك سببًا آخر وهو أن نظام الكائنات كله يقوم على أساس الجاذبية التي تجتذب يومًا بعد يوم الكواكب والنجوم. وسيأتي يوم يختل فيه التوازن وتقترب فيه الكواكب والنجوم كلها من بعضها حتى تحطم بعضها بعضًا بسبب تصادمها. ويعتقد عالم آخر أن هناك

ملايين النجوم تسبح في الفضاء، ولا نعرف إلا عن القليل منها. ويمكن أن تصطدم الأرض بأي من هذه الكواكب فتباد وتفنى، ويفنى ويهلك كل سكانها.

وأيًا كانت الأسباب فإمكانية وقوع هذا الشيء غير مستبعد عند العلماء.

ونجد هذه العقيدة بشكل أو بآخر عند أهل الأديان. وقد ورد ذكرها في الكتب السماوية كلها. فتوجد إشارات لها في التوراة، وصرح بها سفر المزامير، حيث عبر عنها "بيوم المحكمة"[1]. وقد كان في اليهود أيام سيدنا المسيح عليه السلام فريقان أحدهما وهو الصدوقي كان متحرر الفكر بتأثره باليونانيين، فكان هذا الفريق ينكر القيامة. أما الثاني فكان يسمي الفريس وكان ما يزال ثابتًا على عقيدته القديمة[2]. واليهود على عهد النبي محمد (ﷺ) يقولون بالقيامة والحشر والنشر والجنة والنار، فكانوا يعتقدون أن القيامة حين تقوم سيحمل الله تعالى السماوات على إصبع والأرض على الإصبع الثاني والأشجار على الثالث والماء على الرابع وباقي المخلوقات جميعا على الإصبع الخامس ثم ينادي: أنا الملك[3].

---

[1] سفر المزامير (الإصحاح ٩ – الفقرتان ١٩، ٢٠)، وهذا نصها: "قم يا رب. لا يعتز الإنسان. لتحاكم الأمم قدامك* يارب اجعل عليهم رعبا. ليعلم الأمم أنهم بشر. سلاه"(يوسف عامر).

[2] إنجيل مرقس ١٢ – ٢٤ ، وهذا نص الفقرات من الفقرة ١٨-٢٤"وجاء إليه قوم من الصدوقيين الذين يقولون ليس قيامةوسألوه قائلين* يا معلم كتب لنا موسى إن مات لأحد أخ وترك امرأة ولم يخلف أولاد أن يأخذ أخوه امرأته ويقيم نسلا لأخيه* فكان سبعة أخوة. أخذ الأول امرأة ومات ولم يترك نسلا* فأخذها الثاني ومات ولم يترك هو أيضا نسلا. وهكذا الثالث* فأخذها السبعة ولميتركوا نسلا. وآخرا لكل ماتت المرأة. ففي القيامة متى قاموا لمن منهم تكون زوجة. لأنها كانت زوجة للسبعة* فأجاب يسوع وقال لهم أليس لهذا تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله" (يوسف عامر)وسفر أعمال الرسل ٢٣.

[3] صحيح البخاري تفسير سورة الزمر. وهذا نص الحديث: (٤٦٩٣) حدَّثنا آدَمُ حدَّثنا شَيبانُ عن مَنصورٍ عن إبراهيمَ عن عُبيدة عن عبد الله رضي الله عنه قال: «جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمدُ، إنّا نَجِدُ أنَّ اللَّهَ يجعلُ السماوات عَلَى إصْبَعٍ، والأرضين على إصبع، والشجرَ على إصبعٍ، والماءَ والثرَى على إصبعٍ، وسائرَ الخلائقِ على إصبعٍ، فيقول: أنا الملِك. فضَحِكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى بَدَتْ نواجذُهُ تصديقاً لقول الحَبر، ثمَّ قَرأَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: {وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدرِهِ،

وقد ورد التصريح بهذه العقيدة في الإنجيل. فقد قدم سيدنا عيسى دليل الحياة الأخرى للصدوقيين بآية من التوراة[1]. وقد ورد في رؤيا يوحنا تفصيل وشرح

والأرضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القيامة، والسماواتُ مَطويّاتٌ بيمينه، سبحانَهُ وتعالى عما يَشرِكون} (الزمر: ٦٧)»(يوسف عامر).

[1] إنجيل متى، الإصحاح ٢٢، الفقرات(٣٠، ٣١، ٣٢)، وهذا نصها" في ذلك اليوم جاء إليه صدوقيون الذين يقولون ليس قيامة فسألوه* قائلين يا معلم قال موسى إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقم نسلا لأخيه* فكان عندنا سبعة أخوة وتزوج الأول امرأة ومات. وإذ لم يكن له نسل. ترك امرأته لأخيه*وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة وآخر الكل ماتت المرأة أيضًا* ففي القيامة لمن من السبعة تكون زوجة. فإنها كانت للجميع* فأجاب يسوع وقال لهم تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله* لأنهم في القيامة لا يُزَوِّجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء* وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبَلِ الله القائل* أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. ليس الله إله أموات بل إله أحياء* فلما سمع الجموع بهتوا من تعليمه* أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معا" (يوسف عامر)، وإنجيل لوقا، الإصحاح٢٠،الفقرة ٢٧، وهذا نصها"وحضر قوم من الصدوقيين الذين يقاومون أمر القيامة وسألوه* قائلين يا معلم كتب لنا موسى إن مات لأحد أخ وله امرأة ومات بغير ولد يأخذ أخوه المرأة ويقيم نسلا لأخيه* فكان سبعة أخوة. وأخذ الأول امرأة ومات بغير ولد* فأخذ الثاني المرأة ومات بغير ولد* ثم أخذها الثالث وهكذا السبعة. ولم يتركوا ولدا وماتوا* وآخر الكل ماتت المرأة أيضًا* ففي القيامة لمن منهم تكون زوجة. لأنها كانت زوجة للسبعة* فأجاب وقال لهم يسوع أبناء هذا الدهر يزوِّجون ويزوَّجون*ولكن الذين حسبوا أهلا للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون* إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضًا لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة* وأما الموتى يقومون فقد دل عليه موسى أيضا في أمر العليقة كما يقول. الرب إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب* وليس هو إله أموات بل أحياء لأن الجميع عنده أحياء* فأجاب قوم من الكتبة وقالوا يا معلم حسنا قلت* ولم يتجاسروا أيضا أن يسألوه عن شيء"(يوسف عامر)، وإنجيل مرقس، الإصحاح ١٢، الفقرات ١٨-٢٦، وهذا نصهما "وجاء إليه قوم من الصدوقيين الذين يقولون ليس قيامة وسألوه قائلين* يا معلم كتب لنا موسى إن مات لأحد أخ وترك امرأة ولم يخلف أولاد أن يأخذ أخوه امرأته ويقيم نسلا لأخيه* فكان سبعة أخوة. أخذ الأول امرأة ومات ولم يترك نسلا* فأخذها الثاني ومات ولم يترك هو أيضا نسلا. وهكذا الثالث* فأخذها السبعة ولميتركوا نسلا. وآخرا لكل ماتت المرأة. ففي القيامة

كامل لأحوال وأهوال القيامة. ويؤمن الهندوس بهذه العقيدة (عقيدة الفناء). أما التوضيح التام لهذه الحقيقة فقد وصل لمنتهاه بواسطة سيد الخلق وخاتم الأنبياء وسيدنا محمد.

أسماء القيامة

إن غموض حقيقة أي شيء يتضح من شرح وتوضيح أسماء هذا الشيء. وقد ذكرت القيامة في القرآن الكريم بأسماء عديدة، كل اسم من هذه الأسماء يبرز ويظهر جانبًا معينا لها. وأول اسم لها في القرآن الكريم ورد في أول سورة هو اسم "يوم الدين" يعني يوم الجزاء. فيتضح من هذا أن هذا اليوم سيكون يوم جزاء ومحاكمة شاملة. وقد ذكرت في القرآن الكريم إضافة لهذا الاسم أسماء عديدة هي:

الساعة. يوم القيامة. اليوم الحق. يوم معلوم. الوقت المعلوم. اليوم الموعود. اليوم الآخر. يوم الآزفة. يوم عسير. يوم عصيب. يوم عظيم. يوم البعث. يوم التلاق. يوم التناد. يوم الجمع. يوم الحساب. يوم الحسرة. يوم الخروج. يوم الفصل. القارعة. الغاشية. الطامة الكبرى. النبأ العظيم. الحاقة. الوعد. الواقعة. الصافة. أمر الله.

أوصاف القيامة

هذه هي الأسماء التي وردت عن يوم القيامة إما مفردة أو مضافة أو صفة، وبالإضافة إلى هذه الأسماء وردت في القرآن الكريم أسماء عديدة للقيامة مقترنة بفقرات أو جمل تركيبية مثل: **يوم ينفخ في الصور – يوم ينفع الصادقين صدقهم – يوم لا ينفع مال ولا بنون – ويوم يعض الظالم على يديه – ويوم**

متى قاموا لمن منهم تكون زوجة. لأنها كانت زوجة للسبعة* فأجاب يسوع وقال لهم أليس لهذا تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله لأنهم متى قاموا من الأموات لا يُزَوِّجون ولا يزوَّجون بل يكونون كملائكة في السموات* وأما من جهة الأموات أنهم يقومون أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العليقة كيف كلمه الله قائلا أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب* ليس هو إله أموات بل إله أحياء. فأنتم إذا تضلون كثيرًا* فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هي أول الكل"(يوسف عامر).

تشقق السماء – ويوم يقوم الاشهاد – ليوم لا ريب فيه – ويوم نحشر من كل أمة فوجا – يوم يقوم الناس لرب العالمين – يخرجون من الأجداث – يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه – يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئا – يوم تشهد عليهم ألسنتهم – يوم لا تملك نفس لنفس شيئا – يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا.

المقصود أن هذه الأوصاف وما شابهها قد وردت لبيان هذا اليوم العصيب. وأخبر أنه لن تكون هناك فائدة في هذا اليوم العظيم لأي شيء آخر سواء تواضع الإنسان وأعماله.

سيفسد النظام في القيامة

وقد شك بعض المتكلمين فيما يتعلق بالقيامة بأن القيامة هي اسم للفناء المحض أو العدم المحض، مع أن هذا الأمر مخالف للتصريحات القرآنية. فالصور التي صورت للقيامة في العديد من آيات القرآن الكريم لا تدل على شيء سوى فناء الحياة وتوقف نظام السماء والأرض وفساده. وسيظهر هذا الأمر من تمعن الآيات القرآنية التالية:

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزلزلة: ١: ٤)

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (الانشقاق: ١: ٤)

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الإنفطار: ١: ٥)

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (التكوير: ١: ٣)

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ (المرسلات: ٧: ١٠)

﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ (٧) وَخَسَفَ القَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: ٧: ٩)

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المعارج: ٨، ٩)

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٣: ١٦)

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ (المزمل: ١٤: ١٨)

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ٤٨)

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧)

﴿إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً (٤) وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثّاً﴾ (الواقعة: ١: ٦)

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً (١٩) وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ (النبأ: ١٩، ٢٠)

المقصود أن هناك آيات عديدة من هذا القبيل توضح أن القيامة تعني نهاية نظام العالم والحياة الراهنة فقط، وخلق سماء وأرض جديدة بعد ذلك، ونفاذ قانون الدار الآخرة هذا على نتائج الدار الأولى السابقة.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ (إبراهيم: ٤٨)

حقيقة القيامة

مع أن ذكر أحوال وكيفيات هذا اليوم العصيب قد ورد في القرآن الكريم بطرق متفرقة ومختلفة، فإن في القرآن سورة خاصة بهذا الاسم (القيامة). وهي سورة رغم قصدها وإيجازها المتناهي في غاية السعة البلاغية، فقد بين المولى

سبحانه وتعالى فيها في فقرات صغيرة وبسيطة مطالب كبيرة ومهمة بطريقة تجعل العقل يطمأن ويسكن. تبدأ هذه السورة بهذه الآيات:

﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ (١) وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ (٧) وَخَسَفَ القَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لاَ وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ (القيامة: ١: ١٥)

أقسم المولى سبحانه وتعالى في الآية الأولى منها بيوم القيامة ثم النفس اللوامة. والمقصود بالنفس اللوامة الضمير الذي يكون داخل الإنسان والذي يندم ويحزن من الداخل عن كل عمل طالح، ويلوم صاحبه عليه. وقد عبر المولى سبحانه وتعالى عن حالة الضمير هذه في الآية الأخيرة بقوله: **﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾**. فتسمى هذه الكيفية وحالة الإنسان القلبية بالنفس اللوامة.

١. يعرف علماء الاجتماع جيدا أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين أحوال وظروف الفرد والمجتمع، فكما أن الإنسان يولد ويكبر ويمرض ويعافى، أو يصح ويخطئ ويتوب ويندم ويجد وتطيب سمعته وتسوء. ويستمد القوة والعافية بقوانين طبيعة معينة، ويمرض ويهزل بمخالفاتها، ثم تضمحل قواه شيئا فشيئا بعد الوصول إلى سن معين ثم يموت،فإن هذا ما يحدث تماما مع الجماعات والشعوب، تولد وتكبر وتصح ثم تمرض، وتخطئ وتتوب ثم تضمحل قواها وتضعف بعد وقت معين ثم تهلك وتفنى.

وقد ولدت في الدنيا آلاف الأقوام والشعوب ثم فنت طبقًا لهذا المبدأ. ولم نجد حتى لأسمائهم ذكرًا في التاريخ. أبعيد أن يأتي يوم طبقا لهذا المبدأ الذي تولد الجماعات والشعوب وتموت عليه فنجد فيه المخلوقات كلها نفسها وهي غير موجودة في عالم الفناء هذا ؟ إن هذا هو السبب في أن القرآن الكريم قد استدل

على دمار القيامة الشامل بدمار أقوام عاد وثمود وآل فرعون وغيرهم. وسيرد تفصيل هذا لاحقا.

على كل حال فكما أن داخل الإنسان نفسًا لوامة أو ضميرًا أو إحساسًا يلومه وقت فعل الذنب ويجرمه، وأنه وحين ينظر ويتفقد أعماله كلها ويعرف أنه مقصر ومذنب، فكذلك يكون للشعوب ضمير يندم على خطاياه وذنوبه وتقصيره ويخجل من عيوبه. وبالمثل ستندم البشرية كلها وتخجل في يوم ما على أعمال مجموع أفرادها، وسيلوموها ضميرها ونفسها اللوامة أيضًا. بل والأكثر من الكائنات البشرية هو أن الكائنات الحية كلها ستندم هي الأخرى أمام خالقها على ما بداخلها. ويطلق على عموم هذا الاعتراف بالتقصير والندم والخجل الكلي "القيامة". وبسبب هذه العلاقة والصلة جُمع القسم بالقيامة وبالنفس اللوامة مع بعضهما في السورة السابقة. والآن أقرأ آيات السورة السابقة في ضوء هذا التوضيح.

٢. بإمعان النظر في كل شيء في هذا الكون نعلم أنه عبارة عن مجموعة عناصر وقوى متناقضة متضاربة أودعت فيه البرودة والحرارة والسقم والعافية والبقاء والفناء وغير ذلك من القوى المتعارضة وطالما ظل في هذه القوى المتعارضة اعتدال ظل الشيئ حيًا، أما حين يذهب هذا الاعتدال فإن ذلك الشيئ يفنى ويهلك في لحظة واحدة. فما من زهرة قد تفتحت في شجرة إلا وأثرت عليها فصول الصيف والشتاء، وطالما كان الاعتدال موجوداً في هذه المؤثرات المتعارضة كانت الزهرة متفتحة يانعة. لكن إذا اشتد تأثير قوة ما من تلك القوى عليها فإنه سيفنيها. وهذا هو حال كل شيء في الحياة. ويسير على هذا المبدأ كل أفراد الأسرة والجماعات والشعوب بل والحيوانات والشجر والحجر وكل شيء في الدنيا.

انظر إلى كائنات الكون كلها فقد أقامها المولى سبحانه وتعالى على هذه العناصر المتضاربة المتعارضة، فيكون الليل والنهار والنور والظلام والصيف والشتاء والماء والنار والربيع والخريف والصحة والسقم. والغنى والفقر والحياة

والموت والسماء والأرض والخير والشر والصلاح والفساد. والمقصود انظر إلى ما شئت ستعلم أنه قائم على أساس العناصر الأربعة والقوى والحالات المتناقضة. وطالما ظل فيها اعتدال ستظل عجلة الحياة تمشي. وحين يختل هذا الاعتدال سيكون يوم فنائها.

لكن كما أن إمكانية الصحة والشفاء بعد المرض والمرض بعد الصحة موجودة في الأفراد والأشخاص، فكذلك توجد في نظام هذه الكائنات أيضًا إمكانيات المرض بعد الصحة والصحة بعد المرض. فكثير ما رأينا الدنيا قد امتلأت بالظلم والجور، وأغرق فيضان الدم والقتل أمنها وسلامتها، ثم فجأة تتغير ويعود إليها الأمن والسلام. فقد حل الخريف آلاف المرات على حديقة هذه الحياة ثم جاء بعده فصل الربيع. واقتربت الكرة الأرضية أكثر من مرة من التصادم مع الأجرام السماوية لكنها نجت. وأوشكت هذه الكرة أكثر من مرة على السقوط أثناء دورانها لكنها استوت. وسيظل نظام الفساد والإصلاح هذا مستمرًا طالما استمر الاعتدال قائمًا وموجودًا في هذه القوى المتضاربة وفي الكائنات. لكن حين ينتهي هذا الاعتدال سينتهي معه نظام الكرة الأرضية بأكمله. في ذلك الحين ستقف الأرض بكل تاريخها وأعمالها أمام خالقها، وستشهد بنفسها على كل تقصير وجرم ارتكب فوقها[1].

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ١: ٨)

صور القيامة

ورد في القرآن الكريم أثناء الحديث عن القيامة ذكر للصور أكثر من مرة: « **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ** ». والمعنى اللفظي للصور هو البوق. والقصة هي أن الأبواق كانت موجودة في قديم الزمان عند البابليين والكنعانيين والأراميين

---

[1] مستفاد من تفسير سورة القيامة لمولانا حميد الدين رحمه الله.

والعبرانيين وغيرهم من الأمم السالفة عند مجالس الملوك وعند الإعلان عن الحرب. لذا يعني النفخ في البوق إظهار عظمة الملك أو إعلان حالة غير عادية كالحرب. ولهذا استخدمت هذه المحاورة بكثرة في التوراة. وجاء في القرآن الكريم أنه ينادى ويقال: **لمن الملك اليوم** ثم يجيب المولى **لله الواحد القهار**. فسيكون هذا اليوم إظهار مُلك مالم السماوات والأرض والكائنات وإعلان لحساب عظيم. لهذا السبب استخدمت المحاورة القديمة وهي النفخ في البوق. ويمكن أيضًا أن يأمر المولى تبارك وتعالى فجأة بنفخ صور ملكوته، فينفد كما يدل المعنى اللفظي للصور.

إنكار العرب

يتضح من هذا التفصيل أن القيامة تحوي داخلها حقيقة عظيمة للغاية. لكن الأمر الذي كانت العرب تنكره بشدة بعد التوحيد، ولا تعتقد فيه إطلاقًا، ولم يكن لعقولهم أن تقبله هو أمر القيامة والحشر والنشر. فقد كان العرب الجاهليون على جهل تام بالحياة بعد الموت وبالمحاسبة على الأعمال أمام الله تعالى، وبالثواب والعقاب. لذا لم يكن عندهم تمييز بين حسن وقبح الأعمال. هذا التمييز الذي يقوم على أساس الأخلاق والمعاملات. فيقول أحد الشعراء العرب بعد ما سمع من النبي (ﷺ) الحديث عن هذا الأمر متعجبًا:

أموت ثم بعث ثم حشر   **حديث خرافة يا أم عمرو**

ويقول شاعر آخر من قريش[1]:

---

[1] صحيح البخاري ج ١ باب الهجرة. وهذا نص الحديث: (٣٨٣٤) ــ حدَّثنا أصبَغُ حدَّثنا ابنُ وَهبٍ عن يونسَ عنِ ابن شهابٍ عن عروةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ رضي اللهُ عنها: «أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنه تزَوَّجَ امرأةً من كلبٍ يقال لها أُمُّ بكرٍ، فلما هاجرَ أبو بكرٍ طلَّقَها فتزوَّجَها ابنُ عمِّها هٰذا الشاعرُ الذي قال هٰذه القصيدةَ يرثيْ كُفّارَ قرَيش:

وماذا بالقَليبِ قَليبِ بَدرٍ   منَ الشِّيزَى تُزَيَّنُ بالسَّنام
وماذا بالقَليبِ قليبِ بدرٍ   منَ القَيناتِ والشَّرْبِ الكرام
تحيِّينا السلامةَ أمُّ بكر   وهل لي بعدَ قَومي مِن سَلام
يُحدِّثنا الرسولُ بأنْ سنَحْيا   وكيفَ حياة أصداءٍ وهام(يوسف عامر).

يُحدِّثُنا الرسولُ بأنْ سنَحْيا وكيفَ حياةَ أصداءٍ وهام

(كانوا يعتقدون أن الإنسان بعد أن يموت يصبح طائرًا. ويطير ويصوت. فكان هذا يسمى عندهم صدا وهام).

وقد نقل كثير من أقوالهم في القرآن الكريم أيضًا: فمثلاً:

﴿أئذَا متْنَا وكُنَّا تُرَاباً ذَلكَ رَجْعٌ بَعيدٌ﴾ (ق: ٣)

﴿أئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحَافِرَةِ (١٠) أإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ (النازعات: ١٠، ١١)

﴿أئذَا كُنَّا عِظَاماً ورُفَاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ (الإسراء: ٤٩)

﴿أئذَا كُنَّا عِظَاماً ورُفَاتاً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ (الإسراء: ٩٨)

﴿ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس: ٧٨)

وكان بعضهم يعتقد كالدهرية بأن هذه الدنيا ستظل قائمة، وأن الموت والحياة سيظلان قائمين. وأنه لا حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤)

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام: ٢٩)

كانوا لا يتوقعون أنهم سيحاسبون على أعمالهم:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ (النبأ: ٢٧)

كان حباب بن الأرت ﷺ من المسلمين الأوائل، وكان يمتهن الحدادة. وكان له أجر عند أحد رؤساء قريش وهو العاص بن وائل. فذهب للمطالبة بالأجر، فقال له العاص: لا أُعطيكَ حتى تكفُرَ بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم. فقلتُ لا، حتى تموتَ ثم تُبعَث. قال: وإني لمَيتٌ ثم مبعوث؟ قلتُ: نعم. قال: إنَّ لي هناك مالاً وولَدًا فأقضيكَه "[1] نفهم من هذا مدى شدة كفر العرب في هذا الشأن.

---

[1] صحيح البخاري تفسير كهيعص صـ ٦٦١. وهذا نص الحديث: (٤٦١٤) حدَّثَنا الحُميديُّ حدَّثَنا سفيانُ عنِ الأعمش عن أبي الضحى عن مَسروقٍ قال: «سمعتُ خَبّاباً قال: جئتُ العَاصِ بن وائلِ السهميَّ أتقاضاهُ حقّاً لي عنده، فقال: لا أُعطيكَ حتى تكفُرَ بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم. فقلتُ لا، حتى تموتَ ثم تُبعَث. قال: وإني لمَيتٌ ثم مبعوث؟ قلتُ: نعم. قال: إنَّ

لذا كان أكثر شيء أكد عليه رسول الله (ﷺ) أمامهم بعد التوحيد هو أمر القيامة. وبيّن هذا الأمر بمشاهدات ودلائل واضحة يوميا أكثر من غيره في السور المكية بأساليب مختلفة وطرق معبرة، صورت فيها هيبة الله وهول القيامة وصعوبة الحشر والنشر بطريقة تجعل السامع يتأثر. وبين عجز الإنسان وقصور العقل وعظمة الله وقدرته والخلقة المحيرة للكائنات بطريقة تجعل السامع يرتعد. ثم رسم صورة للحياة الأبدية ولنعيم الجنة وراحاتها من ناحية، ومن ناحية أخرى حتمية الموت وضرورته وفناء الدنيا، وفزع النار وعذابها بطريقة تجعل النفس البشرية غير قادرة على إخفاء تأثرها.

ولم يكن أهل النظر من الصحابة على دراية بالأسباب التي لأجلها قدم الوحي الإلهي أحوال ومناظر القيامة والجنة والنار، فتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: إنما نَزَلَ أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذِكرُ الجنةِ والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الْحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوّلَ شيءٍ لا تشربوا الخَمرَ لقالوا لا نَدَعُ الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنُوا لقالوا لا نَدَعُ الزّنا أبداً، لقد نَزَلَ بمكَّةَ علَى محمد ﷺ وإنِّي لجاريةٌ ألْعبُ، بل الساعةُ موعِدُهُم والساعةُ أدهَى وأمَرُّ. ومانَزلت سورة البقرة والنساءِ إلا وأنا عندَه [1].

لي هناك مالاً وولَداً فأقضيكه، فَنَزَلَتْ هذه الآية {أفَرَأيتَ الذي كَفَرَ بآياتنا وقال: لأُوتَيَنَّ مالاً وولدا}. (مريم: ٧٧) رواه الثوريُّ وشعبة وحفصٌ وأبو معاويةَ ووكيعٌ عنِ الأعمش.(يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري ج ٢ صـ ٧٤٨ باب تأليف القرآن. وهذا نص الحديث: (٤٨٧٣) ــ حدّثنا إبراهيمُ بن موسى أخبرنا هشام بن يوسُفَ أنَّ ابن جُرَيج أخبرهم قال: وأخبرَني يوسفُ بن ماهَكٍ قال: إني عِندَ عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عِراقيّ، فقال: أي الكَفَنِ خيرٌ؟ قالت: ويحك ومايضرك، قال: ياأمَّ المؤمنين أريني مُصحفك، قالت: لِمَ؟ قال: لَعَلّي أؤلف القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلف قالت: ومايَضُرُّك أيهُ قرأتَ قبلُ إنما نَزَلَ أول مانزل منه سورة من المفصل فيها ذِكرُ الجنةِ والنار، حتى إذا ثاب الناسُ إلى الإسلام نَزَلَ الْحلالُ والحرامُ، ولو نزل أوّلَ شيءٍ لاتشربوا الخَمرَ لقالوا لاندَعُ الخمر أبداً، ولو نزل لاتزنُوا لقالوا لاندَعُ الزّنا أبداً، لقد نَزَلَ بمكَّةَ علَى محمد صلى الله عليه وسلم وإنِّي لجاريةٌ

يتضح من هذا التوضيح سبب إدخال التعليم النبوي هذه الحقيقة في أسس ومبادئ الإيمان. ولو لم يدخل هذا التعليم ضمن العقائد، لما استقرت في القلوب هيبة الثواب والعقاب وعظمتهما على الأعمال، ولما كان هناك ميل قلبي لتنفيذ أوامر الله، ولقست قلوب المؤمنين وتجردت من التأثير ولأصبح المسلمون كاليهود الذين كثر في صحائفهم التركيز على جانب الثواب والعقاب الدنيوي أكثر من غيره. لذا أوضح القرآن الكريم نفسه هذه الفلسفة:

﴿ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (النمل: ٢٢)

لذا أمر المسلمون بتلاوة سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة. تلك السورة التي قيل فيها ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. حيث يريد الإسلام أن يرسخ هذه الحقيقة في أذهان وقلوب معتنقيه.

الأدلة القرآنية على القيامة

استدل القرآن الكريم على أهمية القيامة بأمرين دون غيرهما من باقي الأدلة: الأمر الأول هو أن الإنسان لم يخلق سدى بلا هدف وغاية، ولو لم يحاسب ويثاب ويعاقب على أعماله، لأصبح الامتياز الطبيعي بين الخير والشر والصالح والطالح لغوا، ولأصبحت الحياة الإنسانية بأكملها بلا هدف و أعمالها بلا نتيجة:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)

الأمر الثاني الذي قدمه القرآن الكريم في إثبات أهمية وضرورة الثواب والعقاب، هو عدل الله تعالى وإنصافه. فلو لم يحاسب الإنسان ويثاب ويعاقب على أعماله لتساوى الفريقان، ولاختلط الخير والشر والصلاح والفساد، ولاعتبر الخالق سبحانه وتعالى، والعياذ بالله، غير عادل. ونجد في هذه الحياة المادية التي نعيشها جزاء الناس على أعمالهم. ومع ذلك نجد أن كثيرا من المذنبين والمجرمين والظالمين يعيشون عيشة راضية هانئة، وكثيرا من الصالحين

ألْعبُ، بل الساعةُ موعِدُهُم والساعةُ أدهَى وأمَرُّ. ومانَزلت سورة البقرة والنساءِ إلا وأنا عنده. قال: فأَخرجت له المصحف، فأملّت عليه آيَ السُور.(يوسف عامر).

والمتقين والطيبين يتحملون كثيرا من المصائب والشدائد. لذا فمن المؤكد أن هذه الحياة الدنيا لا يمكن أن تكون مكانًا حقيقيا للإثابة والعقاب على الأعمال. وعلى هذا يجب الاعتراف بحياة أخرى يجد فيها الإنسان نتيجة أعماله. وإذا كان الحكام في هذه الحياة الدنيا يثيبون ويعاقبون الصالح والطالح على أعمالهم طبقا لعلمهم الناقص المحدود، فما أحوج أن يجازى عالم غيب السماوات والأرض ويعاقب الناس طبقا لعملهم الكامل الصحيح، ويثبت عدله وإنصافه. وقد وردت إشارة إلى هذا الاستدلال في سورة التين:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ (التين: ٦: ٨)

لذا وضحت في آيات عديدة من القرآن الكريم حقيقة أنه لا يمكن أبدًا أن يستوي العمل الصالح والطالح. فيقول تعالى:

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (ص: ٢٨)

ويقول في موضع آخر:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١)

وكان الوهم الذي يمنع الناس من الاعتقاد بالثواب والعقاب والقيامة هو أن أحدًا لم يحيى بعد موته. إذا كيف ستكون هناك قيامة؟ وهذا في الحقيقة شك مستبعد، بمعنى أنه لأن أحدًا لم يجرب الحياة بعد الموت حتى الآن، لذا فإنه يستبعدها من خياله. وإلا فلا يوجد أي دليل عقلي على أنها محالة وغير ممكنة. وقد حل الوحي المحمدي هذه العقدة بالطريقة التالية وهي أنه استبعد وأزال استبعاد الكفار بالطرق التالية المتعددة:

١. قدم أمثلة تاريخية للحياة بعد الموت. كما ورد في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا عزير عليه السلام وفي قصة أصحاب الكهف. واستدل بها على أنه طالما أمكن لبعض الأفراد الحياة ثانية بعد الموت، فإن العالم كله أيضًا يمكن أن يحيا ثانية بعد الموت.

٢. كما أن الأرض تجف وتموت وقت الجفاف ثم تحيا ثانية بنزول المطر فجأة وتخرج النبات وتحضر الحقول، فكذلك ستخرج الأرض بقدرة الله تعالى من في بطنها (أثقالها) ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

٣. إن التعجب من الحياة مرة ثانية واستبعاده يكمن في أن سعة قدرة الله تعالى أكبر من أفهامنا. بمعنى أننا لا نستطيع أن ندركها. ولكن أليس الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء، وأخرج من الأرض الميتة نباتا وأشجارا، وخلق من قطرة الماء إنسانا، لا يقدر على إحياء الموتى ثانية ؟

٤. كانت هذه الحياة قبل ذلك معدومة، فخلقها الله تعالى وأوجدها. ثم شيئا فشيئا أفناها. أفليس الذي خلقها من العدم بقادر على أن يعيد إليها الحياة ثانية ؟ أوليس الذي خلقها من لا شيء بقادر على أن يعيدها من الفناء ؟

٥. جاءت كثير من الأقوام والشعوب إلى الدنيا واحداً تلو الآخر. وحصلوا طبقا لقوانين الله تعالى على قوة بدنية وسعة مالية وشدة اجتماعية وعظمة حضارية وبأس سياسي، وبنوا مبان عالية شاهقة، وأسسوا حضارة عظيمة، وسيطروا على الشعوب فأقاموا حكومة وسلطانا، لكن حين اغتروا وظلموا وخالفوا قوانين الله تعالى التي تكفل عظمة وبقاء الشعوب والأقوام. فنوا وهلكوا. ولم يبق لهم ذكر على وجه الأرض. وقد سُئل العرب أين وماذا جرى لعاد وثمود الذين سيطروا على بلاد بني سام من العراق والشام ومصر والجزيرة العربية؟ وماذا جرى لحكومة سبأ وتبع العظيمة ؟. وماذا حدث لملك فرعون ؟ وكيف أخرجت الأرض قوم لوط ومدين ؟

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ (غافر: ٩)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (إبراهيم: ٩)

تلك هي الأقوام التي ذكرها القرآن الكريم. ونجـد فـي تـاريخ العـالم بالإضافة لهم كثيرا من قصص رقي وازدهار وفناء ونهاية كثيـر مـن الأقـوام الأخرى. فأقوام بابل وآشور وآكد ومصر الذين كانوا يملكون الأرض أصـبحوا منذ آلاف السنين نسيًا منسيا لا أثر لهم. وماذا جرى لفاتح عظيم كنارمن ؟ وأين اليوم اليونان والروم الذين ملكوا الأرض ؟ وأين المجوس الذين كـانوا لقـرون عديدة قوة تقابل الروم أصبح عددهم الآن لا يزيد عن بضع آلاف. وأين سـكان أمريكا الأصليون؟ أوشكوا الآن على الانتهاء.

المقصود أنه كما أن الأفراد يعيشون ويموتون،. وتوجد جماعات وتزول، وتولد أقوام وتنتهي كذلك سيأتي يوم تموت فيه مخلوقات الدنيا كلها طبقا لأمـر الله.

وكما أن العوام الذين لا يقفون علـى تـاريخ الـشعوب لكـنهم يـرون الأشخاص والأفراد فقط يعيشون ويموتون، يؤمنون بموت وفناء الأفراد، لكنهم لا يستطيعون فهم مسألة فناء الشعوب والأقوام، ويشكون فيها. فإن أولئـك الـذين يجهلون تاريخ خلق الدنيا، لا يؤمنون بسبب جهلهم في فنائها التام. مع أنه سيأتي يوم تتجرد فيه الدنيا كلها من صلاحية الوجود، وسيتغير نظـام الكائنـات هـذا. وسينسخ القانون الموضوع للعالم الآخر القانون الفطري لهذا العالم. وكما يقـول العلم ويوضح القرآن أن الشمس والقمر والنجوم وباقي الأجرام الفلكية ستتحطم. وستبدل الأرض غير الأرض والسماوات بعد إقامة محاكمة للعالم كله.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّـارِ﴾ (إبراهيم: ٤٨)

وقد استدل على القيامة بهذه الأدلة من سورة ق:

﴿ق وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْـرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَـا لَهَـا مِـن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

(٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ق: ١: ١٥)

وأوضح الله ذلك في سورة القيامة أيضاً ففي آخر آيتين:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (القيامة: ٣٦: ٤٠)

﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾(الإسراء: ٩٨، ٩٩)

وقالوا في موضع آخر:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧)

﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ (الحج: ٥)

وهذا هو الجواب الذي رد على كل الشكوك والشبهات الطويلة اللامتناهية عن القيامة:

﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (يس: ٧٨، ٧٩)

المقصود أن الوحي المحمدي قد أبعد تعجب واستبعاد الكفار من كل جانب، وأكد لهم الحياة الثانية.

الحشر الجسماني

ثمة خلاف كبير حول البعث وهل الحياة الثانية ستكون مع البدن ؟ أم ستكون روحانية فقط ؟ بلا جسم أو بدن. وتقدم آيات كثيرة من القرآن الكريم جوانب عديدة تدخل فيها بطريقة الإشارة كل الأمور. لكن تأمل كل آية من الآيات

السابقة التي وردت عن القيامة، ستجد أن الكفار يعجبون من أن جسدهم هذا سيحيى ثانية بعد الموت، وأن الروح ستدب ثانية في عظامهم المتآكلة، وأنهم سيحشرون ثانية بعد أن يخرجوا من قبورهم. وثبت من هذا أنه لم يكن في اعتقادهم أي تصور أو مفهوم آخر للحياة غير الحياة البدنية. لكن الله تعالى لم يقل لهم في جوابه عليهم: لا تعجبوا، ولا تنكروا أن أجسادكم الفانية هذه لن تقوم، وأن الروح لن تدب في عظامكم المتآكلة. لأنها ستكون حياة روحانية، لأنهم إن لم يفهموا الحياة الجسدية فإن الحياة الروحانية الخالصة ستكون أعلى بكثير من تفكيرهم. لأننا نحن الذين نعرف هذه الحياة المادية نعجز تماما عن تخيل هذه الحياة الروحانية. لذا اقتضت المصلحة الإلهية أن يؤكد على الواقعة الأصلية، فكيف ولم لا يُعترض ؟

فدع صاحب الفهم يفهم هذا السر طبقا لفهمه، أما إذا أردنا أن نفهم أسلوب القرآن الكريم فعلينا أن نتمعن هذه الآيات:

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (السجدة: ١٠)

تأمل فقد رد المولى سبحانه وتعالى على تعجبهم على حياتهم المادية التي تخلف موتهم المادي، فقال إنهم يعجبون ويشكون لأنهم بلقاء ربهم كافرون. وإذا تجاوزنا الأهداف الفرعية نجد أن الهدف الأساسي هو أنهم إن اعتقدوا بقاء الله بعد الموت وفي الآخرة فسيقولون وكيف سيكون ؟ لذا قال المولى تبارك وتعالى بعد ذلك:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١)

هذا اللقاء والرجوع إلى الله هو أساس عقيدة الحشر.

القضية هي أننا نستطيع أن نعي ونفهم تلك الأمور التي تمر أمثلتها ونظائرها أمام أعيننا في هذه الحياة المادية. أما العالم المخفي البعيد عن الأنظار فلا يمكن فهم أموره بالسؤال. إن كل ما يمكن فعله لفهم الآخرة هو قياس بقاء هذه

الدار الخفية أي الآخرة على وجود هذه الدار الظاهرة أي الدنيا. وهذا ما علمنا إياه رسول الله (ﷺ).

فمن كان يؤمن بكمال قدرة الله فبها ونعمت، أما من يعتقد أن الحشر الجسماني محال لأن الناس لم تر أي جسم ميت وهو يحيى، فنقول إن إيمان مثل هذا الشخص بالحشر الروحاني فقط أصعب بكثير من إيمانه بالحشر الجسماني لأن أي إنسان حتى اليوم لم ير إنساناً آخر في قالب روحاني. بل إنه لن يستطيع أيضًا أن يتخيله. فهو حين يتصور الحياة البشرية فإنه سيتصورها بالجسم والشكل والأعضاء المجردة.

الموت هو اسم لمفارقة الروح للبدن. لذا لو صح أنه ستكون هناك حياة جديدة في القيامة. فمن البين أنها ستكون بشكل وكيفية مختلفة عن شكل وكيفية ما بعد الموت، وهذا ما يسمى الحياة الثانية. وهي أن يسلم بارتباط الروح بالبدن ثانية. وإلا فالحياة غير البدنية كانت موجودة قبل القيامة أيضا. إذن ما الذي استجد الآن في الحياة الثانية؟.

ومع أن الروح هي الفاعل لكل فعل داخل الإنسان، فإن كل فاعل يحتاج إلى أدوات وآلات كي يفعل، وكذلك تحتاج الروح لكي تتلذذ وتتألم إلى أعضاء بشرية، إذ لا يمكن لأي إحساس روحاني باللذة أو بالألم أن يتجرد من شائبة الجسمانية. وعلى هذا لا يتصور أن تتمتع الروح وحدها بنعيم الجنة أو تتألم من عذاب النار دون بدن أو جسد. وانظر في الحلم هل تصل الروح لذة أو عذاب ؟ إن الحاجة فيه أيضا إلى جسد وهيكل تكون ملحة.

الجسم والجسد

بعد الإيمان بالحشر الجسماني سيكون البحث عن الجسم الذي سيحشر ثانية أهو نفس الذي كان في الدنيا ، أم أن الروح ستنفخ في جسد آخر ، أو أن الجسم الذي سيكون هناك سيكون مماثلاً في مادته وتركيبه لهذا الجسم الدنيوي سيكون بمثابة غير ذي جدوى. وطالما أن الحقيقة التي اتفق الجميع عليها هي أن الروح هي المسئول عن الأعمال لا الجسد، وأن المعذب والمنعم الحقيقي هو الروح لا الجسد. فلايهم أن تكون في أي قالب أو شكل. لأن محاسبة الروح أو

الإحساس بنعيمها أو عذابها لن يتأثر. لكن المهم هو أن الجسد الذي سيعطى لنا في الدار الآخرة سيكون مختلفًا تماما في خصوصياته ولوازمه عن هذا الجسد الترابي. لأن البدن أو الجسد الذي نراه في تصورنا ومخيلتنا ونومنا يختلف عن الجسد المادي رغم ظهوره وانكشافه لنا. لذا ليس ضروريا أن نفهم من كلمة جسد أنه سيكون جسدًا يضم هذه الخصوصيات الجسدية كلها ويجب أن نفهم أنه لا يجوز أن نقيسه عليه.

الخلق الجديد

لأن الجسد الذي سيعطى لنا في الآخرة سيكون خلقًا جديدًا، لذا قال القرآن الكريم في الرد على المنكرين بقوله:

﴿**بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ وقال على لسانهم هم: ﴿**أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**﴾ (الإسراء: ٤٩)

وأخبر في سورة أخرى: ﴿**إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ (سبأ: ٧)

ثم قال بعدما أعطاهم مثالا: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**﴾ (الأنبياء: ١٠٤)

لهذا فإن اعتبار جسم ذلك العالم الذي سيكون في خلق جديد هو نفس هذا الجسم اعتبار خاطئ. فليس ضروريا أن توجد فيه كل خصائص هذا البدن الترابي، إذ إنه لو لم يسم جسمًا لما كان هناك لفظ آخر يصور لنا الهيكل الذي تكون فيه الروح والذي نسميه نحن الجسم أو البدن.

إن مسألة وجود اللحم والجلد بعينهما حتى يشتركا في العذاب والثواب تعد مسألة زائدة على التصريح القرآني: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾ (النساء: ٥٦)

فإذا تبدلت الجلود واحدًا تلو الآخر فأين سيبقى الجزء الأول من الجسم الذي كان قد اشترك في الذنب ؟ وكذلك صُرح بأن جوارح الإنسان وجلده ستشهد عليه. نفهم من هذا أن المجرم الحقيقي المسئول عن هذه الأعمال، والمدعي عليه في هذه القضية هو شيء آخر غير الأعضاء البشرية، وهذا الشيء هو الروح البشرية.

المسئولية مسئولية الروح

هذا هو سبب ربط الإسلام الموت والحياة والعذاب والثواب والحساب بالنفس. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦)

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ (الحشر: ١٨)

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير: ١٤)

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار: ٥)

﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ (الأنبياء: ٤٧)

وقال في شأن الجنة: ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (السجدة: ١٧)

انظر لهذه الآيات، إن البدن فيها ليس هو المسئول عن العمل، ولا الذي يتحمل نتيجة الحسنة أو السيئة، وإنما ألقي الحمل على النفس، ومن عُرِّفت بالتعذيب والمشقة، وبشرت أيضا بدخول الجنة.

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٢٩، ٣٠)

بقاء الجسم الدنيوي وإن تبدل

المقصود أن الروح هي فقط المسئولة عن الأعمال وعن نتائجها، وهي التي تشعر بلذة الجنة أو حرقة النار. أما الجسم فما هو إلا لباس أو آلة للإحساس لا أكثر. فالجسم يتغير آلاف المرات لكن لو بقيت الروح لبقي الإنسان هو نفسه، فيثاب أو يعاقب على مسئوليته.

يركز الناس على الجسم لأنه هو الشيئ الظاهر، على الرغم من أن هذا الجسم ليست له أي فائدة أو عمل إن لم توجد الروح فيه.

انظر إلى الإنسان إنه يظل كما هو منذ طفولته وحتى شيخوخته على الرغم من أن هيئته البدنية وحجمه تتغير كل حين وحين. ففي المِرض يضعف ويهزل ثم يقوى ويشتد بعد أن يعافى. وأنت تعتقد على سبيل الخطأ أن بدنه يظل كما هو في كل حال، مع أنك إذا سألت طبيبا سيخبرك أنه يفقد كثيرًا من الخلايا، وأن الطعام الذي يتناوله يصبح دما. أفبعد كل هذا نعتبر أن ذلك الذي يتغير كل وقت ويتبدل تماما بعد بضع سنين هو المسئول عن الأعمال التي تظل موجودة،

وأنه هو المستحق الحقيقي للثواب والعقاب. فالمجرم الذي اقترف جرمًا ما في الدنيا ثم هرب لا يستطيع أن يحتج ويعتذر حين يقبض عليه بعد بضع سنين بأن يده التي كانت قد سرقت وأن قدميه اللذين أخذا المال وهربا قد تغيرت أثناء فترة هربه، فهو قول مردود عليه لأن نيته التي كانت قد حثت يديه وقدميه على القيام بالعمل أو بالجرم ما تزال كما هي. ويمكن للتعذيب أن يؤثر فيها بواسطة الجسم، وأن هذا التغيير الجسماني لم يؤثر إطلاقا في شخصيتها الروحانية؛ لذا فالتأكيد على أهمية أن يكون جسم الأول موجودا لا فائدة منه. ويتضح من هذا أيضًا أن الجسم لو تغير فإن قضية شهادة الأعضاء ستكون صحيحة في مكانها، فأعضاء البدن تتغير في الدنيا، لكن المرض الذي كان قد تولد في الأجزاء الأولى يظل قائمًا أيضًا بعد فنائها. ولن يزول. بل سيظل يسري أيضًا في الأجزاء التي تخلفها بنفس الدرجة.

ماهية البدن الأخروي

إن الأبدان التي ستعطى للأرواح في الآخرة ستكون في الحقيقة صورة لأعمالها. أي كما تكون الأعمال تكون الأبدان. ففي الحياة الدنيا يكون الإنسان إما أبيض أو أسود طبقا للون بشرته أما في الآخرة فسيكون البياض أو السواد طبقًا للعمل. لذا قال تعالى:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (عبس: ٣٨: ٤١)

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٦، ١٠٧)

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن أهل الجنة سيدخلون الجنة شبابا لا أثر للهرم على أجسادهم. وسيكون قدهم كقد سيدنا آدم في الجنة[1]. وأن من أهل

---

[1] - وهذا نص الحديث: (٣٢٥٧) حدّثنا قتيبةُ بن سعيدٍ حدثَنا جريرٌ عن عُمارةَ عن أبي زُرعةَ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أوَّلُ زُمرةٍ يدخلونَ الجنةَ على صورةِ القمرِ ليلةَ البَدر، ثمَّ الذين يَلونَهم على أشدِّ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماءِ إضاءةً، لا

النار من ستكون رأسه كالجبل، ومنهم من سيكون جنبه مفلوجًا، ومنهم من ستكون شفاهه معلقة، وأن من كان قلبه أعمى سيحشر أعمى البصر. وبعد العذاب حين تذوب أجسادهم يبدلون أجسادًا أخرى صحيحة ثم تنضج وهكذا. وورد أيضا أن من يتكبر يحشر وهو في صورة نملة. وضح من هذه الشواهد كلها أن القالب الجسماني في الدار الآخرة لن يكون كالجسم الدنيوي ، بل سيكون مطابقًا لأعمالنا.

يَبولونَ ولا يَتغوَّطون ولا يَتفلون ولا يمتَخِطون، أمشاطهمُ الذَهَبُ ورشحهمُ المسكُ ومَجامِرُهُم الأُلوَّة، الألَنْجوج عودُ الطِّيبِ، وأزواجهمُ الحورُ العِين على خَلقِ رجُلٍ واحد على صورةِ أبيهم آدمَ ستونَ ذِراعاً في السماء».(يوسف عامر).

الثواب والعقاب

إن هدف الإسلام الحقيقي من الإيمان باليوم الآخر «يوم الدين» هـو أن يتأكد الناس أن هناك مقابلاً لكل أعمالهم، جزء من هذا المقابل أو الأجر يكون في الدنيا، أما المقابل التام فيكون في الدار الآخرة، وهذا ما يسمى بالثواب والعقاب. وتتفق الديانات الأخرى كذلك مع الإسلام في هذه القضية.

الثواب والعقاب في الأديان الأخرى

يرجع الانتماء الحقيقي للأديان في الحقيقة إلى الاعتقاد بأن الإنسان هـو المسئول عن أعماله، وأن العمل سواء أكان طيبًا أم خبيثا، إنما يصدر منه هـو، وأنه سيجازى بلا شك على عمله سواء أكان خيرا أم شرا. ونجد أثر هذه العقيدة عند الشعوب القديمة أيضا مثلما كان الحال عند الفراعنة والبابليين. وقد عبر عن هذه الدار الآخرة في الأديان الهندية بالتناسخ، فهم يعتقـدون أن الإنـسان حـين يموت، فإن روحه تخرج في شكل حيوان ما أو نبات أو شـجر حـسب عملهـا صالحًا كان أم طالحا، وتتحمل نتيجة عملها. ثم يؤتى بها في شكل إنسان فتعمـل أما من تزيد خطاياها أو ذنوبها بعد ذلك فتضطر إلى الذهاب إلى عـالم المـوت حيث تكون النيران، فتتحمل هناك كل أنواع العذاب، ثم تذهب بعد ذلـك بـسبب بعض أعمالها الصالحة إلى عالم القمر. والروح التي تبقى لها بعـض الأعمـال فإنها تعود ثانية إلى هذه الدنيا بواسطة الهواء والسحاب والمطر. وطبقا لعملهـا تعاقب في شكل حيوان أو نبات. ثم تحرر وتصبح إنسانًا، حتى تـصبح أعمالهـا خيرة لدرجة أنها تصبح غير مستحقة للعقاب. حينئذ تتحرر مـن قيـد القوالـب المادية وتذهب لتستريح في عالم الشمس أو القمر أو غير ذلـك مـن الأجـرام السماوية. ثم تضطر للعودة إلى هذا العالم ثانية في شكل سحاب أو هواء أو حب أو أي شيء آخر من المخلوقات الأخرى بسبب قلة علمها وعملها. ثم تبدأ نفـس السلسلة. بمعنى أنها تتحمل العقاب في حياة أو خلقة جديدة. وهكذا تظـل تائهـة متورطة في صراع الذهاب والإياب طالما ظلت تقوم بأعمال طيبة أو خبيثة. لذا

فالحالة التي تكمن فيها النجاة والراحة التامة هي أن لا يصدر من الإنسان أي فعل حسنا كان أم غير ذلك. فترك العمل أو التقاعد والتقاعس هو الذي يحرر الروح للأبد من سجن المادة. وستظل هكذا إلى ما بعد قيام القيامة على هذه الحياة الموجودة ثم تخلق من جديد وتبدأ العمل والجزاء أي تأخذ في الدوران والذهاب في نفس الدوران. ثم تنجى بنفس الطريقة ثم تخلق من جديد بعد القيام ثم تبدأ العمل. وهكذا تظل الدائرة تدور للأبد.

هذه هي الدائرة التي لن يقدر للإنسان الخروج منها إلا أن يذهب إلى القمة الهملايا أو إلى منارة ما فيقعد فيها وينجى بنفسه من وجوده. لكن لو عملت الدنيا بمبدأ النجاة هذا، فإن هذه الحياة ستصبح خرابًا في لحظة وستقترب الدنيا من الفناء بعد أن تغلق أنواع المعاملات كلها، وينتهي الخير مع الشر.

وعلى الرغم من ذلك أيضًا لن تيسر النجاة الدائمة الأبدية. لأن بعد كل قيامة سيحدث هذا الميلاد ثم يبتدأ العمل والتناسخ[١].

أما باقي أديان الدنيا فقد أنقذت الإنسان من الدوام وهذا التقاعد والتقاعس. فسلموا بدنيا أخرى بعد هذه الدنيا الراهنة. يجد فيها الناس جزاء أعمالهم الصالحة والطالحة. وقد نقلت فرق زرادشتية متعددة رغم أنهم من النسل الآرى، أفكار الديانات السامية بدلاً من التناسخ عند الهندوس. وقد أعطى اللاحقون خاصة عقائد الإسلام صبغة المشاهدات العجيبة والغريبة "لأردالى ويراف" وقبلوا كل كتابه معتبرين أنه أسبق من الإسلام.

وفي سفر التكوين إشارة إلى دخول الجنة بعد رفع محن مشقة الدنيا. (سفر التكوين، الإصحاح٢، الفقرة ١٥)[٢]. وعلى هذا ذكرت مبادئ الثواب والعقاب الأخروي في صحف سيدنا موسى. وذكر أن للصالحين مكانًا أو مستعمرة طاهرة تجري فيها أنهار اللبن والعسل. وأخبر أن للطالحين عذابًا مهلكًا

---

(١) هناك مقال في الرد على التناسخ نشر في مجلة الندوة عدد مايو يونية ١٩٠٦ فيه تفصيل كامل للزرادشتية.

٢ - وهذا نص الفقرة:"وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها".(يوسف عامر).

ومدمرًا وأليمًا. لكن أكثر المترجمين فسروه وعرضوه في كل مكان علـــى أنـــه الثواب والعقاب الدنيوي بل في معنى المملكة الظاهرية للأرض الموعودة. مع أن هذا أصبح غير مقبول في بعض المواضع. وذكرت في الاصحاح الثاني من سفر التكوين جنة عدن سيدنا آدم وأنهارها الأربعة. إضافة لذلك نجد إشارة للحياة بعد الموت في التوراة. وقد عبر عن موت سيدنا إبراهيم (ســـفرالتكوين، الإصــــحاح ٢٥، الفقرة ٨)[١] وسيدنا يعقوب (سفرالتكوين، الإصـــحاح ٤٩، الفقـــرة ٣٣)[٢] عليهما السلام بالألفاظ التالية: «وأسلم الروح وانضم إلى قومه». إضافة لذلك نجد ذكرًا للمن الدائم (سفر التثنية، الإصحاح٦، الفقرة٢٤)[٣]. وبيان لنار جهنم (سفر التثنية، الإصحاح ٣٢، الفقرة ٢٢)[٤]. وتصريح بمجازاة كل واحد على عملـــه. (سفر إرميا، الإصحاح١٧، الفقرة ١١) ويوجد في هذه الصحف أيضا تعليم لبقاء الروح وصعودها إلى السماء. (سفر الجامعة، الإصحاح ٣، الفقرة ٢١)[٣]. وكذلك ذكر العودة الروح ثانية إلى خالقها بعد الموت (سفر الجامعـــة، الإصـــحاح١٢، الفقرة ٧)[٤]. وتصريح لذهاب الإنسان إلى مكانه الأبدي. فالفرض الكلـــي علـــى الإنسان هو أن يخاف في النهاية من الله وأن يقبل أوامره. لأن الله تعالى سيحضر كل عمل من الشيء المخفي سواء أكان خيرا أم شـــرا فـــي المحاكمـــة» (ســـفر الواعظ، الإصحاح١٢، الفقرة ١٣- ١٤). وقد ورد في المزامير إشارات عديـــدة

---

[١] - وهذا نص الفقرة:" وهذه أيام سني حياة إبراهيم التي عاشـــها. مئـــة وخمـــس وســـبعون سنة"(يوسف عامر).

[٢] - وهذا نص الفقرة:"ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه ضم رجليه إلى السرير وأسلم الـــروح وانضم إلى قومه"(يوسف عامر).

[٣] - وهذا نص الفقرة:" فأمرنا الرب أن نعمل جميع هذه الفرائض ونتقي الرب إلهنا ليكون لنا خير كل الأيام ويسقينا كما في هذا اليوم"(يوسف عامر).

[٤] - وهذا نص الفقرة:"إنه قد اشتعلت نار غضبي فتتقد إلى الهاويـــة الـــسفلى وتأكـــل الأرض وغلتها وتحرق أسس الجبال"(يوسف عامر).

[٣] – وهذا نص الفقرة: من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق.

[٤] – وهذا نص الفقرة: فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها.

عن يوم الرب. وورد في أمثال سليمان أن: «لأن طرق الإنسان أمام عيني الرب وهو يزن كل سبيله. الشرير تأخذه آثامه وبجبال خطيته يمسك* إنه يموت من عدم الأدب وبفرط حمقه يتهور». (الإصحاح٥، الفقرة٢١). وورد في دانيال أن: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي» (الإصحاح١٢، الفقرة ٢). وتوجد في حزقيال (٢٨) إشارات إلى مباني الخير المبنية من الذهب والجواهر.

كانت قد نشأت في أوساط اليهود قبل مجيء سيدنا المسيح عليه السلام فرقة تسمى الصدوقيين. وكانت هذه الفرقة قد أدخلت بعضًا من كلام الحكام اليونانيين في التعليم الهيودي حتى يتقربوا منهم[1]. وكان أغلبهم ينكر القيامة والحياة الأخروية. لكن في مقابلة هذه الفرقة كانت هناك فرقة أخرى أطلقت على نفسها مسمى "الفريسيين" (أي المعتزلة). وظلت متمسكة بمعتقداتها القديمة. فكان أتباع هذه الفرقة يعتقدون بأن الجنة ستكون مادية وأن زوجات أهل الجنة سترد إليهم» (مرقس ١٢ – ٢٤). وتوجد في كتب اليهود الأولى تفصيل للثواب والعقاب؛ لذا كان اليهود العرب أيضًا عند مجيء الإسلام يؤمنون بأن اليهود العصاة سيدخلون النار بضعة أيام فقط. يقول الله تعالى:﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٨٠)

هذه الأيام المعدودات باختلاف الروايات ٣ أيام، ٤٠ يوما[2]، أو ١١ شهرا [3].

وكان هناك اختلاف شديد بين فرقتي اليهود هاتين في زمن سيدنا عيسى عليه السلام. وكان كلا الفريقين مشغولا بالرد على الفريق الآخر وإبطاله. فأنكر سيدنا عيسى عليه السلام اعتقاد الصدوقيين. وأكد على الإيمان بالقيامة واليوم الآخر. وقد صور يوحنا أحد حواري سيدنا عيسى الجنة والنار تصويرا كاملاً في مكاشفته.

---

[1] دائرة المعارف البريطانية أو مقال الصدوقية والصدوقيون.

[2] انظر تفسير هذه الآيات في كتاب السير.

[3] ترجمة معاني القرآن لسيل، حاشية الترجمة، آية البقرة حزب ٨.

ويفهم من إجابة سيدنا عيسى عليه السلام التي أجابها على أحد الصدوقيين وهي «لأنهم متى قاموا من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون بل يكونون كملائكة في السموات»[1] يفهم منها أن سيدنا عيسى قد أعطى الجنة وجودًا روحانيا فقط. مع أن هذا لم يحدث في الحقيقة، لأن سيدنا عيسى قال وهو يشرب شراب العنب بعد ما جلس مع تلامذته: «وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمةهذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي» (إنجيل متى، الإصحاح ٢٦، الفقرة ٢٩)[2] ويقول مخاطبًا علماء اليهود: أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم» (إنجيل متى، الإصحاح ٢٣، الفقرة ٣٣)[3]

ويقول في وصف منظر جهنم: «فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه* فنادى وقال يا أبي إبراهيم وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب»[4] (إنجيل لوقا، الإصحاح١٦، الفقرة ٢٣).

وقد أطلق على جهنم في رؤيا يوحنا النار والجحيم (الإصحاح١٤ ، الفقرة١٠)[5] وذكرت أبوابها أيضا في إنجيل متى (إنجيل متى، الإصحاح ١٦،

---

[1] - وهذا نص الفقرة: «لأنهم متي قاموا من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون بل يكونون كملائكة في السموات»(إنجيل مرقس، الإصحاح ١٢،الفقرة٢٥)(يوسف عامر).

[2] - وهذا نص الفقرة: «وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من ننتاج الكرمةهذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي» (يوسف عامر).

[3] - وهذا نص الفقرة:« أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم»(يوسف عامر).

[4] وهذا نص الفقرة: «فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه* فنادى وقال يا أبي إبراهيم وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب»(يوسف عامر).

[5] - وهذا نص الفقرة:«فهو أيضا سيشرب من خمر غضب الله المصبوب صرفا في كأس غضبه ويعذب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الخروف»(يوسف عامر).

الفقرة ١٨)[1]. كذلك ورد ذكر ابنية الجنة الذهبية والموشاة، وذكر نهر ماء الحياة في السفر الحادي والعشرين من الرؤيا.

وهناك بيان لشراب عنبها في إنجيل متى (الإصحاح٢٦، الفقرة ١٩).

وورد ذكر مائها البارد في الإنجيل أيضًا (إنجيل لوقا،الإصحاح ١٦،الفقرة ٢٣).

كذلك يوجد في أعمال الرسل ذكر للمحاسبة على كل كل عمل والمكافأة عليها. (مثل):

«أما الذين يصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء فبالحيوة الأبدية» (الرسالة إلى أهل رومية ٢ – ٨)

«فإذا كل واحد منا سيعطى عن نفسه حسابا لله» (الرسالة إلى أهل رومية ١٤ – ١١)

«الذين سوف يعطون حسابا للذي هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات» (رسالة بطرس الأولى، الإصحاح ٤، الفقرة ٥)[2].

أما الجانب التكميلي للإسلام في هذا الباب فهو أنه لم يوضح هذه العقيدة بالتفصيل فحسب، بل وفر كل أجزاءها الضرورية، وأتم الأبحاث التي لم تكتمل حولها أقوال المذاهب الأخرى، فأكمل نقائصها، وأوضح مبادئ الثواب والعقاب بطريقة واضحة جعلت جوانب هذه العقيدة كلها مبرأة من الشكوك والشبهات.

ولفهم المباحث التالية يجب أولاً ترسيخ بعض المبادئ في الأذهان:

فهم وإدراك عالم الآخرة

رغم أن ما سيحدث في عالم الآخرة سيكون مختلفا تماما عن عالمنا المادي المجرب المشاهد هذا فإنه قد عبر عنه بسبب عجز الفهم البشري، بلغة العالم المادي وأسلوبه، لأن هذه الألفاظ التي تستلزم الخصائص المادية أصبحت عادية بالنسبة لنا لرؤيتها وسماعها في هذه الحياة، لذا فحين نسمع هذه الألفاظ

---

[1] – وهذا نص الفقرة:« وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها»(يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الفققرة:« الذين سوف يعطون حسابا للذي هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات»(يوسف عامر).

نفهم ما نفهمه تماما من دلالات هذه الألفاظ في الحياة الراهنة. لذا يقول بعض الجهلاء حين يسمع عن الوقائع والأحداث التي ستكون في الآخرة بأنها محاولة غير ممكنة. بينما يفسرها آخرون ويأولونها بطريقة لا تبقى أدنى اشتراك بين اللفظ والمعنى. والأمران كلاهما خطيران. لذا راعى الوحي المحمدي ضعف الفطرة الإنسانية وقصورها عن بيان تلك الأسرار الدقيقة الحساسة، لذلك لم يصورها على أنها عالم مادي خالص كما فعل اليهود عند بيان وقائعه، ولم يصورها تصويرا مجردًا عن المادة تماما كما فعل بعض الجهلاء وجعلوا وجودها وهميا، بل راعى اختلاف العقول البشرية ووفر وسائل تشفي أهل النظر والبصر.

لقد راعى الوحي المحمدي مفاهيم الوقائع الأخروية وحقائقها المختلفة، واختار ألفاظا مناسبة، يستطيع أن يغوص فيها الفيلسوف. والجاهل على السواء، ويقطف الاثنان كل حسب فهمه منها حلاوة الإيمان. وقد كان ضروريا لدين كهذا يدعي أنه يخاطب الطبقات البشرية كلها أن يكون شاملاً بحيث يكون وسيلة لشفاء الجميع. والألفاظ التي بينت بها كل هذه الأحداث الأخروية واضح أنها أيضا هي الألفاظ نفسها التي تؤدي بها أحوال هذه الحياة المادية ومفاهيمها وأفكارها الجسمانية والواقعية. لذا يكون المفهوم الذي يرد إلى أذهاننا فور سماع هذا الألفاظ مفهوما يرتبط بهذه القيود واللوازم المادية. فحين نسمع لفظ النار يرد إلى أذهاننا هذا المفهوم الدنيوي للنار التي نراها في الدنيا، والتي تحرق الناس والأشجار وأي شيء آخر بداخلها.

أما نار الآخرة فلن تكون مثلها إذ ستكون فيها أشجار لا تحترق، فلن تحرق تلك النار غير العصاة، فتكوي أقدام البعض، وتصل لخصر آخرين، ولعنق آخرين وستكون حامية جدًا لدرجة أن نار الدنيا ستكون بردًا إذا قورنت بها، وكذلك فحين نسمع لفظ «الميزان» فإن كل متعلقات الميزان الموجود في الدنيا ترد في أذهاننا من كفتين وميزان وموازين وأشياء موزونة. وكذلك حين نريد أن نفهم معنى «الصحف أو صحائف الأعمال» فإن أصابع الكاتب والقلم والدواة والمداد والورق وغير ذلك من أدوات الكتابة ستحضر في أذهاننا. وعلى هذا يتضح أنه يوجد اختلاف كبير في الآراء في فهم المعاني اللغوية لهذه الألفاظ

والمعاني المجازية لها، لذا فالأصح أن يؤمن بها كماهي دون شرح أو توضيح حتى لا تضيق معانيها الواسعة، ومن ثم فنحن لا نكفر أولئك الذين يفهمون المعاني المادية التي يمكن أن تؤديها هذا الألفاظ. ومع أن المقصود الإلهي يضيق وينحصر. فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يظهر مقصدها في ألفاظ محدودة دون مبالاة باختلاف وتفاوت العقول البشرية، لكنه سبحانه لم يفعل ذلك حتى تثبت عالمية الإسلام للناس كافة على اختلاف عقولهم.

الأمر الثاني الذي يستحق الذكر هو أن الإشكالات والاعتراضات تحول دون فهم وقائع وأحوال الدار الآخرة؛ لأننا نعتبر أن الوجود و قوانين الطبيعة الموجودة عبارة عن لازم وملزوم، فحين يذكر أي شيء فإن خصائصه ولوازمه التي اعتدنا عليها تأتي معه. مع أن أرباب العقل قد قرروا أن اللزوم الذي يكون بين معلومات هذه الحياة ومسبباتها وبين عللها وأسبابها لزوم عادي محض، أي لأننا تعودنا عليه لا لأنه يجب أن يكون كذلك.

ومن ثم فلو وضعنا في أذهاننا أن قوانين الطبيعة والعلل والأسباب أو نتائجها الموجودة في هذه الحياة المادية الراهنة، هي قوانين هذه الحياة الدنيا فقط، أي لو أن الله سبحانه وتعالى خلق عالما آخر أو دنيا جديدة، فليس ضروريا أن تكون هذه القوانين نفسها موجودة فيها. بل يمكن أن يكون في هذا العالم الجديد قوانين جديدة، وأجسام ذات خصائص جديدة، وحياة من نوع جديد، ونار غير نارنا، وحدائق وفواكه جديدة، وموجودات ومخلوقات جديدة، وعلل وأسباب جديدة، وقوانين جديدة للطبيعة. وقد قال الوحي المحمدي عن هذا العالم الجديد:
﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾

والآن من يستطيع أن يقول إن قوانين هذه الأرض والسماوات الموجودة ستظل في تلك الأرض والسماوات الجديدة ؟ وعلى هذا تصبح كل الاعتراضات المادية والبدنية، وكل الإشكالات التي تتعلق بالحياة القادمة التي تتولد بسبب وجود هذه الحياة المادية وقوانينها، تصبح كلها بلا أساس وبلا حقيقة.

وبعد هذا التمهيد الضروري نتحول إلى الرؤية الإسلامية للثواب والعقاب.

مبدأ الثواب

مثلما خلق الله تعالى هذا العالم الموجود بنظام وقانون خاص به يسميه الفلاسفة قانون القدرة، ويطلق عليه أهل الدين التقدير الإلهي، فقد أقام المولى سبحانه لكل عالم نظامًا وتقديرا يقوم عليه هذا العالم. والإنسان يعتقد على سبيل الخطأ أن مبادئ الطبيعة قاصرة فقط على الماديات، على الرغم من أنها تسري على كل شيء: سواء أكانت ماديات أم روحانيات، أم ذهنيات أم أعمال. وكما أن الطبيعي أن يموت الإنسان إذا أكل سمًا فإن من الطبيعي أيضًا أن تموت روحه إذا اقترفت ذنبا. وكما أن الإنسان يمرض إذا أهمل مبادئ حفظ الصحة، فإنه كذلك يمرض إذا لم يتمسك بمبدأ تزكية النفس. وكما أنه يشفى بالحفاظ على دواء حفظ الصحة، فإنه كذلك يشفى بواسطة تدابير ووسائل العلاج الروحانية.

لوازم الأعمال ونتائجها

المقصود هو كما أن لكل شيء في هذه الحياة الدنيا خاصية، وأن هذه الخاصية حين توجد فإن خواصها وآثارها أيضًا تتولد معها. كذلك هناك أيضًا لحالات الإنسان الداخلية ولأعماله بعض الآثار واللوازم التي لا يمكن أن تنفصل عنها؛ فإن للغرور والتواضع والبخل والكرم والانتقام والعفو والشجاعة والجبن والتقوى والفسق والإيمان والكفر أثرًا ونتيجة، ولكل منهما بعض الخصائص واللوازم التي لا يمكن أن تنفصل عنه كما لا تنفصل السموم عن السم والحلاوة عن السكر والحرارة عن النار. والأشياء المعنوية والروحانية. والنفسية فيها نفس تلازم العلة والمعلول، الذي يوجد في الأشياء والجسمانية والمادية والطبيعية.

إن مبادئ صلاح الأشخاص وفسادهم وسعادتهم وشقائهم هي نفسها مبادئ صلاح الجماعات والشعوب وفسادها وسعادتها وشقائها. وكما أن مهمة العالم هي معرفة وبيان الأسس المادية الفيزيائيةالتي يطلق على تعلمها العلم، فإن مهمة الأنبياء عليهم السلام هي معرفة وبيان الأسباب والعلل والآثار والنتائج الروحانية، ويسمى تعليم هذه الأشياء بالشريعة. وطبقا لتعليم الأنبياء يجب علينا التيقن من الآثار والنتائج الروحانية بنفس الدرجة التي نتيقن بها من خصائص الأشياء

الجسمانية التي أخبرنا بها العالم. وقد ولدت سعة تحقيق علم النفس وعلم الاجتماع سهولة متناهية في فهم هذا المفهوم.

الثواب والعقاب رد فعل

المقصود أن مبدأ العلة والمعلول والفعل ورد الفعل الذي بُنيت عليه هذه الدنيا المادية الجسدية، يضم ويحوي في دائرته الواسعة كل قول وفعل يصدر من الإنسان. وهذا هو السبب في أن النتيجة الحتمية للذنب قد سميت عقابًا، وأن النتيجة الحتمية للأعمال الصالحة قد سميت ثواب. وقد استعمل القرآن الكريم هذين الاصطلاحين مرات عديدة. ولفظ عقاب مشتق من عقب الذي يعني خلف، لذا فالعقاب اسم لهذا الأثر الذي يأتي أو يعقب أي فعل. ولفظ ثواب مشتق من ثوب الذي يعني العودة، لذا يقال في معنى النتيجة والجزاء التي تعود على أي عمل صالح ثواب.

لو فهمت هذه القضية جيدا فلن تكون هناك أي صعوبة في فهم المبدأ الشرعي للثواب والعقاب. لذا قيل في القرآن الكريم في أكثر من موضع:

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٨)

علمنا من هذا أن الثواب والعقاب اسمان يطلقان على رد فعل أفعالنا. قال تعالى: **﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾** (الجاثية: ٢٢)

فهناك تصريح واضح في هذه الآيات بأن الثواب والعقاب آثار ولوازم لكل أعمالنا الدنيوية. **﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** (الزمر: ٤٨)

المقصود أن الثواب والعقاب هو اسم ثان يطلق على نتائج أعمالنا. لذا قال النبي (ﷺ) وكأنه يوضح هذا المبدأ: سينادي المولى سبحانه وتعالى يوم القيامة ويقول: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ. ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللّهَ. وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ» [1].

---

[1] صحيح الترمذي كتاب الزهد مسند ابن حنبل ج ٥ صـ ٥٤ – ١٦٠. وأدب المفرد للبخاري باب الظلم. وورد في صحيح مسلم: (٦٥٢٤) ـــ حدثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ بَهْرَامَ الدَّارِمِيُّ. حَدَّثَنَا مَرْوَانُ يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ الدِّمَشْقِيَّ. حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ

مبدأ الحصول على الراحة

يقرر القانون الفطري أننا نستطيع أن نتقي أي مشقة كبيـــرة أو عظيمـــة بتحمل مشاق صغيرة في سبيلها. ولجلب سعادة كبيرة أو عظيمة علينا أن نضحي بسعادات صغيرة. وحين نقارن العاجلة أي الدنيا والآجلة أي الآخرة، ســنرى أن أصحاب الهمم الضعيفة والعقول الناقصة يحبون الراحة العاجلة ولا يبالون براحة الآجلة، ويرون أن الراحة العاجلة رغم أنها صغيرة فإنها موجودة. أمــا الراحــة الآجلة فهي كبيرة لكنها مؤجلة. فمبدؤهم أن الموجود وإن قل فهو الأفضل. أمــا أصحاب الهمم العالية والعقول الكبيرة فعلى النقيض منهم تماما. فالفاتح والغازي يضحي باليوم حتى يتولى السلطنة غدا، والتجار والمرابون يضعون أموالهم اليوم في الأسواق حتى يستفيدوا من ثروة الغد. وكل إنسان متحــضر يتحمــل لمــدة عشرين أو خمس وعشرين سنة مشقة تربية وتعليم وتدريب أولاده حتى يصبحوا قادرين في المستقبل على قضاء حياة سهلة هانئة. والناس تتحمــل كــل أنــواع المشاق في سبيل جمع ثرواتها حتى تستطيع أن تستفيد بها في المستقبل وتتجــى بها من العسرة والضيق.

رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ . فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي. وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَــوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ. مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِــي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. قَامُوا فِي صَــعِيدٍ وَاحِــدٍ فَــسَأَلُونِي. فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ. مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ. ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللّهَ. وَمَــنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ، إِذَا حَدَّثَ بِهَــذَا الْحَدِيثِ، جَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ.(يوسف عامر).

المقصود أننا لو أمعنا في كل محاولات الإنسان سنعرف أن مبدأ تحصيل النجاح موجود داخله، إذ إنه يتحمل قليلا من التعب حتى ينجو ويسلم من النصب الأكبر، ويفسد أو يضحي بصغائر الأفراح وزائلها حتى تيسر له الأفراح الكبيرة الدائمة.

لكن طالما أن هذا أمر ممكن فمعناه أن لدينا يقينًا بالسعادة والنجاح الآجلين وبوجودهما، ولكنه لو لم يكن عندنا هذا اليقين لما تحملنا التضحية أبدا بطيب خاطر. أما الناس الذين لا يوجد عندهم هذا اليقين، فلا يمكن أن يكون عندهم هذه التضحية العظيمة. لهذا أوضح القرآن الكريم حقيقة الكفار هذه فقال: **﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾** (القيامة: ٢٠، ٢١)

ومع أن الإنسان إذا استخدم هذا المبدأ نفسه الذي يستخدمه في الدنيا في قضايا الآخرة ومعاملاتها، فإنه بلا شك سنجح. فالتفكير فيما هو آت هو سر ومفتاح النجاح. ويكمن تحت هذا المبدأ سر نجاح الدنيا والدين.

فالتضحية باللذة الموجودة الزائلة في سبيل اللذة الآجلة الدائمة، والتضحية براحة الحال البسيطة في سبيل راحة الآخرة العظيمة هي الصدق والإيمان الذي لا يمكن لأحد أن ينكره. فأنت تضحي بلذة النوم في الصباح في سبيل راحة الصحة، وتتحمل مشاق وتعب الرياضة والتمارين لأنها ستنقذك من آلام وأمراض الشيخوخة. المقصود أنك لو تحملت بعض المتاعب والمشاق الصغيرة اليوم ستنجو من متاعب ومشاق أكبر في المستقبل، ولو ضحيت باللذات الزائلة اليوم فستيسر لك في المستقبل لذات أعظم وأدوم. وهذه هي الفلسفة التي أوضحها القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة: **﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾** (الإنسان: ١٢)

ما هو هذا الصبر ؟ إنه التضحية بملذات الدنيا الزائلة للحصول على سعادة الآخرة الدائمة وملذاتها. وتحمل المشاق البسيطة في الدنيا في سبيل أداء الخير واجتناب الشر، حتى تيسر النجاة في الآخرة من المشاق الأصعب والأمر.

هذا هو السبب في أن النبي (ﷺ) قال في الحديث: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ. وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**». [1]

لكن الجهلاء يبتعدون عن قيود التقوى والصلاح البسيطة هذه ويطلبون ملذات العصيان العارضة الزائلة، لذا سيقعون في عذاب الآخرة الأشد، وسيحرمون هناك من اللذة الأبدية. أما الذين يتحملون صعاب الدين والتقوى والصلاح ويتركون ملذات الذنوب الزائلة والعصيان، فسينعمون في الآخرة بملذات لا آخر لها. وقد أوضحت الآية القرآنية التالية هذه الفلسفة:

﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى(٤٠) فإن الجنة هي المأوى(٤١)**﴾(النازعات: ٤٠/٤١)

صحائف الأعمال

إذا كنا نرى الشيء الذي يولد فجأة في الدنيا لا يزول ويفنى بدون أمر الله تعالى، فكذلك الأفعال والأعمال التي تصدر من الإنسان لا تفنى. والعلم الحديث (الذي سلم بأن أية حركة تولد في الدنيا لا تفنى، لدرجة أن أي صوت أو صدى صوت يرفع في الجو لا يزال موجودًا اليوم، وسيظل موجودا دائمًا، ولو أمسكنا به لاستطعنا سماعه) لن يجد بدًا من قبول العقيدة الإسلامية التي تقول بدوام وجود الأعمال والأفعال.

وكأن أي عمل أو فعل يصدر من الإنسان يظل محفوظًا للأبد في سجل الحياة. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر في آياته فقال:

﴿ **هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ** ﴾(يونس: ٣٠)

﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ (الطور: ٢١)

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ (المدثر: ٣٨)

﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨)

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٧٠٧٩) ـــ حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ وَ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ. وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».(يوسف عامر).

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُــوءٍ﴾ (آل عمران: ٣٠)

وقد أوضح القرآن الكريم بطرق متعددة أن كل فعل وعمــل يقــوم بــه الإنسان يظل محفوظاً إلى الأبد في صحيفة، فمثلا قد يتبس الإنسان بكلمــة فــي الخفاء، ولكن شهود الله تعالى تكون موجودة وتسمعه ثم تحفظه:

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (ق: ١٧)

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٠)

﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ (يونس: ٢١)

وأحيانا يُظهر المولى سبحانه وتعالى وجوده وعلمه وشهادته علــى كــل عمل:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (يونس: ٦١)

وقال أيضا إن صحيفة كل إنسان معلقة في عنقه، ويوم القيامة ســتخرج أمام الإنسان، ويقال له اقرأ صحيفة أعمالك بنفسك: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ (الإسراء: ١٣، ١٤)

ومعنى هذه الآية هو أنك إن لم تكن تعتقد أن صحيفة الأعمال هي فعــلاً دفتر أوراق حقيقية أو سجل يكتب فيه فعلاً فاعتقد. ويمكن القول إنه اختار هــذا الأسلوب ليوضح أن الشيء الذي يكتب في الكتاب لا يمكن أن ينــسى لأن كــل شيء يكون مكتوبا، وكذلك أعمال الإنسان لن تنــسى لأنهــا ســتظل محفوظــة كالسجل. قال تعالى:

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (الكهف: ٤٩)

وبالرغم من ذلك لو اعتقد أحد أن صحائف الأعمال هي فعلاً كـصحائف الورق تكتب فيها الأعمال، فلن يكون مخطئاً، لأن المعنـى الظـاهري للألفـاظ سيعضده. لكن من يفهم كيف سيحدث هذا ؟ لهذا سـيكون للبحـث حـول هـذا الموضوع بقية. وعلى كل حال فإن كل نقطة من أعمالنا ستظل محفوظة، وستقدم أمام الله، وهذا هو الهدف من هذه العقيدة.

شهادة الأعضاء

إن أي عمل يعمله الإنسان يترك خلفه داخل فاعله أثرًا ما حسنًا أو سـيئًا فلو وضعت مرآة القلب لرأى الإنسان وجه أعماله فيها واضحة. قال تعالى:

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَـاذِيرَهُ﴾ (القيامـة: ١٤، ١٥).

هذه هي المرآة التي تصدأ بالذنوب.

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ (المطففين: ١٤)

وقال النبي (ﷺ)في تفسير هذه الآية : «إِنّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فإِذَا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُه وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَـا حَتَّـى تَعلُو قَلْبَهُ ...»[1].

كذلك يخيم أثر العمل السيء على الأعضاء التي عمل الإنسان بها العمل، حتى تظهر نقوش أو انعكاسات هذا الأثر على الوجوه، وتقع خطوطه في العيون، وتبرز علاماته على الأيدي والأرجل. دعك من عالم الغيب. سـنجد فـي عـالم الظاهر أناسًا يعرفون ويقرأون ما بداخل الناس من خـلال وجـوههم وأيـديهم وأرجلهم. كذلك ستظهر يوم القيامة آثار أعمالهم ونتائجها على كـل عـضو. ﴿ يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ (الرحمن: ٤١)

---

[1] الترمذي. وهذا نص الحديث: (٣٤٦١) ـــ حدثنا قُتَيْبَةُ حدثنا اللّيْثُ عَن ابنِ عَجْلاَنَ عَـن القَعْقَاعِ بنِ حَكِيمٍ عَن أَبي صَالِحٍ عَن أَبي هُرَيْرَةَ ، عَن رسولِ الله قالَ: «إِنّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَـأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فإِذَا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُه وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَـا حَتَّى تَعلُو قَلْبَهُ وهُوَ الرّانُ الذي ذَكَرَ الله {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كانوا يَكْسِبُونَ}» .
قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ.(يوسف عامر).

في هذه الحالة حين يختم المولى سبحانه وتعالى على لسان العبد بعدله وجلاله جل وعلا، فتشهد يداه ورجلاه وجلده على أعماله، لن يكون ذلك أمرًا عجيبا. قال تعالى:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: ٥٩: ٦٥)

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (السجدة: ١٩: ٢١)

لذا سيكون نطق هذه الأعضاء أيضًا كنطق أي شيء في الدنيا، لكن لو فهم أي شخص أن هذا النطق سيكون باللسان فلا حرج عليه.

الميزان

إن لأكثر الناس نوعين من الأعمال صالحة وطالحة، وقد يقل نوع ويزيد النوع الآخر، أو يتساوى النوعان. ولأننا نعرف أن تقسيم الأشياء المادية وتوزيعها الدقيق يكون بالوزن أو بالعد. لذا فإن الوزن والحساب يؤديان معنى العدل والإنصاف والحق، وقد قال المولى سبحانه وتعالى عن أعمال الإنسان: إن الناس سيجزون على أعمالهم. فقال: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾ (النبأ: ٢٦)

فأدى المولى سبحانه وتعالى مفهوم الإنصاف والعدل والتساوي باستعارة ميزان العدل وكفتي الميزان: فقال:

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم ﴾ (الأعراف: ٧: ٩)

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ (القارعة: ٦: ٩)

المقصود في الآيتين من ثقل أو خفة الموازين قلة أو كثرة الأعمال. وتشير الآية الأولى إلى أن المقصود من الوزن هو الحق والعدل، وأن أي عمل للإنسان سيكون موجودا في علم الله قل أو كثر. وهذه الاستعارة التي في هذا المفهوم قد استعملت بكثرة في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ**﴾ (الشورى: ١٧)

أي أن كتاب الله قد نزل بالحق والميزان أيضا، والمقصود منه العدل (الطبري تفسير الآية المذكورة). كذلك استخدم المولى سبحانه للعدل الكامل الذي وضعه في كل الكائنات لفظ الميزان فقال:

﴿ **وَوَضَعَ المِيزَانَ**﴾ (الرحمن: ٧)

الحساب

الطريقة الثانية لمعرفة النقص والزيادة هي الحساب أو المحاسبة. وقد استعملت استعارة الحساب في القرآن الكريم كما استعملت في باقي الكتب السماوية الأخرى، فورد مراراً وتكرار بأننا سنحاسبكم على أعمالكم يوم القيامة. لكن المقصود من هذا الحساب هو نفس المقصود من الوزن. لذا ذكر هذا المفهوم بمزيد من التصريح في سورة الأنبياء التي تتضح منها حقيقة الميزان بصورة كاملة. قال تعالى:

﴿**وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ (الأنبياء: ٤٧)

يمكن أن يفهم من هذه الآية أمرين: الأول هو أن المقصود من الوزن الإنصاف والعدل، والأمر الثاني هو أن المقصود من الحساب هو أن أي وزن للعمل الإنساني لن ينسى في الأجر، ولن يغيب عن علم الله. لكن لو فهم أي إنسان المفهوم المادي للوزن والحساب فسيكون محقًا أيضًا.

الجنة والنار

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما الهدف الإلهي من تكليف ومسئولية هذه الأعمال ؟ الحقيقة أن هدف الله تبارك وتعالى هو أن تحصل الروح البشرية على السعادة الأبدية والرقي الخالد. لكن الله تعالى وضع أساس هذه

السعادة وهذا الرقي على فعل الأعمال الصالحة والبعد عن الأعمال الطالحة. لذا فمن الصواب أن تقول إن هدف خلق الإنسان هو تنفيذ أوامر الله حتى يحصل الإنسان على سعادته المقررة وعلى رقيه الموعود. ويسمى هذا العالم الذي توجد فيه هذه السعادة الأبدية والرقي الخالد «الجنة». وأما المكان الذي سيجد فيه الإنسان نتائج الأعمال السيئة التي اقترفها في حياته الماضية المنصرمة فيسمى النار. ولذا فمن الصواب أن نقول أن الجنة هي بيت الإنسان الأصلي. وسيرد تفصيل ذلك لاحقا.

الجنة ميراث الإنسان

إن قصة سيدنا آدم التي ذكرت في التوراة والقرآن الكريم ليست مجرد تاريخ لبداية الخليقة، بل إنها تفسير حقيقي وصادق للحقيقة الإنسانية إذ يُعتقد أن الجنة التي كان الله تعالى قد أسكن فيها بفضله آدم كانت قد أعطيت له ولذريته في البداية على الدوام. ولكن لأنه أذنب مصادفة، أُخرج منها وأُنزل إلى الأرض. ولكن هذا ليس صحيحًا. لأن مجيء آدم عليه السلام إلى الأرض كان قد قدر قبل مولده، وكان الله سبحانه وتعالى قد أوضح هذا الأمر للملائكة قبل أن يخلق آدم فقال: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ (البقرة: ٣٠)

فخلافة سيدنا آدم في الأرض دليل على إقامته فيها. لكن إسكانه الجنة قبل الأرض ثم إخراجه منها بعد الذنب يشير إلى أن المكان الأصلي لسيدنا آدم ولذريته في الجنة، لكن نزولهم منها سيكون بسبب ذنوبهم. وإن دخولها سيكون عن طريق طاعة الله وعمل الصالحات. لذا أعلن المولى تبارك وتعالى وقت إنزال آدم إلى الأرض وقال:

﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (البقرة: ٣٨، ٣٩)

﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** ﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤)

وورد في التوراة أنه كان في الجنة شجرتان واحدة لتمييز الخير والشر والثانية شجرة الخلد. وتذكر التوراة أن سيدنا آدم مُنع من الأكل من شجرة معرفة الخير والشر، لكنه أكل منها، ولهذا وضح له في البداية عريه. وفي النهاية أخرجه الله من الجنة لأنه أكل ثمر شجرة الحياة ولم يطع الله. وحين أخرج من الجنة قيل له (سفر التكوين ٣)

«وأكلت من هذه الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك* وشوكا وحسكا تُنبت لك وتأكل عشب الحقل* بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها».[1]

ولم يصرح في القرآن الكريم باسم الشجرة التي منع آدم من الأكل منها. لكن يتضح بطريق الإشارة من إحدى الآيات أنها كانت شجرة معرفة الخير والشر، وأن الشيطان جعله يأكل منها بعدما قال له: ﴿**هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾ لكن كانت نتيجة أكله منها أن بدت له سوأته، التي كانت نتيجة لتمييز الخير والشر. قال تعالى:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ (طه: ١٢٠، ١٢١)

والسؤال الآن هو ما المقصود من حياة الخلد وملك لا يبلى ؟ واضح أنها الجنة. وكان قصد الشيطان هو أنك الآن في الجنة، أفأدلك على شجرة الخلد ؟ وأخبره عن شجرة تمييز الخير والشر. هذه أيضا حقيقة واضحة وهي أن تمييز الخير من الشر هو أساس التكليف الشرعي وأساس محاسبة الإنسان. فأي مخلوق بل أي إنسان لا يميز لا يكلف شرعا ولا يحاسب. المقصود أن التكليف الشرعي كان النتيجة الحتمية لمعرفة الخير والشر، لذا كان كلف ثم أودع التمييز بين الخير والشر هذا في ذرية آدم. قال تعالى:

---

[1] – وهذا نص الفقرات ١٧-١٩، سفر التكوين، الإصحاح ٣: «وأكلت من هذه الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك* وشوكا وحسكا تُنبت لك وتأكل عشب الحقل* بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها»(يوسف عامر).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشمس: ٧، ٨)

ولا عجب أن تشير آيات القرآن الكريم إلى هذا المفهوم:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الأحزاب: ٧٢، ٧٣)

فقد حمل الإنسان بجهله أمانة التكليف الشرعي الذي كان نتيجة حتمية لمعرفة الخير والشر، وكان الثواب والعقاب نتيجة حتمية لهذا التكليف الشرعي. لكن رضا الله تعالى اقتضى أن يستفيد عباده جميعا من رحمته ومغفرته، إذ تقتضي رحمة الله وشفقته أن يعفو عن المذنبين وأن تنزل رحماته الخاصة على الصالحين. لكن لو لم يجعل المزارع حقوله تستفيد من مطر الرحمة، فإنه لن يستفيد من بركته. وكذلك العبد الذي لا يؤهل نفسه لهذه الرحمة بإيقاع نفسه في الشرك والنفاق، لن يستفيد أيضًا من غيث رحمة الله. والمقصود أن الحكمة الإلهية قد قضت بأن الحياة الخالدة والملك الذي لا يبلى اللذين أوقفهما قضاء الله تعالى على سعي الإنسان وعمله وكفاحه، واللذين أراد الشيطان لآدم أن يحصل عليهما دون سعي وتعب، قدر الحصول عليهما في النهاية عن طريق تقدير الله، والسعي والكفاح والعمل واتباع الشريعة. كما كان مقررا قبل ذلك. قال تعالى:

﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨)

﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٣)

وطالما أن المكان الأصلي للإنسان هو الحياة الخالدة والمملكة الأبدية، لذا يجب أن يكون الحصول على هذا المكان هو محور كل مساعي الإنسان. وأن يكون الوصول إلى هذه الحياة الخالدة والملك الذي لا يبلى نتيجة أعمال الإنسان في هذه الحياة الفانية والمملكة البالية. وحتى يجد ويحصل على هذا الملك السماوي الذي كان لأبيه والذي وصف بأنه:

﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ (طه: ١١٧: ١١٩)

حين أُخرج آدم من الجنة جاع، تعرى وعطش، وتحمل مشقة حرارة الشمس، فتحمل عبء هذه الأشياء الأربعة بعد أن جاء إلى الأرض. والأكل والشرب واللباس والعيش هي الضروريات الأربعة المختصرة للإنسان. وقد توسع الإنسان في هذه الضروريات وخلق عالما آخر من الضروريات والاحتياجات. وضحى في سبيل الحصول على هذه الاحتياجات بالجنة الحقيقية وصرف كل اهتمامه إلى حياته الراهنة. ومن هنا عاد تكليف الشريعة وأمر بتعلم طرق تحصيل المأكل الحلال والمشرب الحلال والملبس الحلال والمسكن الحلال واجتناب الطرق الغير شرعية. ومن هذا تولدت أصول و الشريعة ومعاملاتها ومسئوليات الأخلاق الإنسانية، حتى لا نقع أسرى هذه الحياة الفانية وننسى الحياة الخالدة، وعُلمت العقائد والعبادات والطاعات الإلهية التي هي الغذاء الأصلي للجنة.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠، ١١)

لكن هذا الميراث سيناله للإنسان عن طريق أعماله الصالحة. لذا سيبشر أهل الجنة عند دخول الجنة بهذه البشرى.

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الزخرف: ٧١، ٧٢)

وسيناديهم مناد

﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف: ٤٣)

وكانت إحدى فقرات دعاء المبلغ الأعظم لملة التوحيد سيدنا إبراهيم هي: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (الشعراء: ٨٥)

واضح من هذه الآيات أن الإسلام قد اعتبر المكان الأصلي للإنسان هو الذي لا جوع فيه ولا عطش ولا عريٍ ولا ضحى، حيث الملك الذي لا يبلى

والحياة التي لا تفنى. لكن طريقة الحصول على هذا المكان هي عمل الإنسان الصالح والعقيدة السليمة التي تلخص في كلمة تقوى.

﴿ تِلْكَ الجَنَّةُ التِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِياً ﴾ (مريم: ٦٣)

منازل الثواب والعقاب الإنساني الثلاثة

إن للإنسان ثلاثة بيوت: الأول هذا العالم الفاني الذي نسميه الدنيا. والثاني وهو الوسط عالم الموت أو عالم البرزخ. أما الثالث فهو بيت الحياة الخالدة والذي نسميه الدار الآخرة. وقد كان التأكيد والتركيز الأساسي لدي اليهود على ثواب وعقاب هذه الدنيا، فلم يذكر المنزل الثالث عندهم إلا قليلا، أما الثاني فلم يذكر أصلاً على الإطلاق. أما النصارى فقد ركزوا على المنزل الثالث، وسكتوا عن الأول والثاني. أما الوحي المحمدي فقد اعتبر المنازل الثلاثة مكاناً للثواب والعقاب الإنساني. فأول ثواب وعقاب للإنسان على أعماله يكون في هذه الحياة الدنيا في شكل نجاح وفشل، وكأن معيار فهم النجاح والفشل مختلف. وبعد ذلك حين تضع روح الإنسان قدمها في المنزل الثاني فإنها ترى أيضا بعضاً ألوان من الثواب والعقاب على أعمالها. ثم بعد ذلك ستنتهي هذه الحياة وتفنى كل الكائنات وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات ويحشر الموتى لحياة بلا موت. وقتها سيجدون الثواب والعقاب الكامل لأعمالهم.

أول دار جزاء للإنسان

المقصود أن أول دار جزاء للإنسان هي هذه الدنيا. فمع أن الجزاء الكامل لكل أفعاله الصالحة والطالحة سيكون في الحياة الآخرة. فإنه يجد في هذه الحياة الدنيا جزاءً يماثل فعله الصالح والطالح. فعزة الإنسان وشهرته وعزته وحبه وسكينته وطمأنينته وسعادته وراحة باله وسلطانه هذه جميعا نتائج لأعمال الخير في هذه الحياة. وعلى النقيض من ذلك نجد مذلة الإنسان وفضيحته ومهانته وهوانه واضطراب حاله وعدم استقراره وحزنه ومحكوميته كلها آثار أعماله الطالحة.

أولت التوارة أهمية أكبر لنتائج العمل في دار الدنيا، بل إن أبرز فكر في التوراة هو أن جزاء طاعة الله ومعصيته يكون في شكل الراحة والنصب في هذه

الحياة الدنيا. فقد ورد لو عملتم بالأحكام وأوامر الله فستكون النتيجة أن حقـولكم ستخضر وأولادكم ستحيا. والحيوانات ستعيش والأشجار ستثمر والأعداد ستقهر. وإن عصيتم الله فستنزل بكم الشدائد ويصيبكم القحـط، ولـن يعـيش أولادكـم، وستموت الأنعام وتخرب المدن ولا تثمر الحدائق، وسـيقهركم الأعـداء. أمـا النصارى فلم يؤكدوا على مملكة الأرض بل أكدوا على مملكة السماء. واعتبروا أن الفوز والفلاح في هذه الحياة الدنيا خارج مقصودهم. أما الدعوة التي جاء بها النبي (ﷺ) فمنزهة عن إفراط وتفريط اليهود والنصارى، فقد اعتبرت أن نتيجة الإيمان والعمل الصالح هي ملك هذه الحياة الدنيا أيضا وملك تلك الدنيا. وحكومة الأرض وجنة السماء والخضرة والنضارة في الدنيا والحـدائق والجنـات فـي الآخرة. لذا قال تعالى في ذكر المسلمين الصالحين:

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْـسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٨)

ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (الفتح: ٢٩)

ووعدهم أيضا أن:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (النور: ٥٥)

لكن مامن شك أيضا في أنه كما أن تلك الدار الخالدة سـتكون أطـول وأحكم من هذه الدار الفانية. فكذلك ستكون قيمة وقدر ثواب تلك الدار أكبر مـن ثواب هذه الدنيا. وأن حسنة وفلاح تلك الدار أيضًا يكون عن طريق محاولة حسن العمل في هذه الدنيا قال تعالى:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِـرَةِ خَيْـرٌ وَلَـنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ ﴾ (النحل: ٣٠)

وكما قال تعالى أن جزاء الكافرين في الآخرة جهنم وعذاب النـار ذكـر أيضًا أن لهم المذلة والهوان والفضيحة في هذه الدنيا أيضاً فقال:

﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ (الحج: ١١)

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٤)

﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (البقرة: ٢١٧)

وقال أيضا:

﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (آل عمران: ٥٦)

كذلك يكون العقاب في الدنيا بضيق المعيشة وضنكها:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (طه: ١٢٤)

الأكثر من ذلك أن الله تعالى أخبر أن هزيمة الصحابة في غزوة أحد كانت نتيجة لبعض أعمالهم السالفة فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ (آل عمران: ١٥٥)

وقال بصفة عامة في موضع آخر:

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠)

وقد بين القرآن الكريم هذه المسألة تماما في ذكر اليهود. فقال عن عذابهم:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٢)

في مقابل هذا قال لعامة أهل الكتاب:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (المائدة: ٦٦)

وأشار في مناسبة أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦)

لكن دار العمل هذه فانية

ثمة أمر يجب أن ينتبه له ويدركه العقلاء، وهو أنه مع أنه من المؤكد أن الإنسان يجد في هذه الحياة الدنيا ثوابا أو عقابا ما على أعماله، ولكن دار العمل هذه تسمي الدنيا الفانية: فسواء أكانت الحياة حياة شخصية أو حياة جماعية، فإن الحزن فيها فان وكذلك السعادة فيها غير دائمة، لذا لا يجب أن نجعل نجاح هذه الحياة الدنيا فقط هدفا وغايةً ومقصدًا لحياتنا. بل يجب أن نفهم أن هناك ملكًا سماويًا أوسع من هذا وسلطانًا ربانيًا لا يزول، وأن هذا الملك والسلطان لا يفنيان ولا يزولان. وأن هناك نعمًا أفضل بكثير من نعم الدنيا وأبقى. لهذا لا يجب الوقوع في ملذات الحياة. وهل سينصف أحد ذلك المسافر الذي انشغل بمناظر الطريق الساحرة العارضة وبمتع السفر الفانية عن وطنه الذي هو مكان سعادته الدائمة ومحيط الناظر الباهجة ؟!

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى: ١٦، ١٧)

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ (يوسف: ٥٧)

كذلك ستكون الآخرة أيضا مكان ذلك الأجر الباقي وتكون فيه المهانة أكبر من ذلك مهانة الدنيا:

﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٦)

ربما تحملوا ذل ومهانة هذه الدنيا. لكن من يستطع أن يتحمل العذاب هناك ؟ لأن:

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ (طه: ١٢٧)

لذا يجب على الإنسان في هذه الحياة الدنيا أن ينفق ما حصل عليه بفضل حسن عمله من قوة وجاه ومال وحكم في الحصول على نعم الآخرة الخالدة وملكها الذي لا يبلى. وحتى ييسر لهذه النعم الدنيوية أيضًا البقاء والدوام. وقد

أوضح الوحي المحمدي هذه الفلسفة في تلك الألفاظ التي وردت ضمن نصيحة قارون: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٧)

وكذلك هلك خلف اليهود لأنهم كانوا قد وقعوا في حب المال وجاه الحياة الدنيا، ونسوا الآخرة. قال تعالى:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٩)

دار الجزاء دار إصلاح أيضًا:

خلق الله سبحانه وتعالى برحمته وشفقته الإنسان، وأراه أيضا مكان الحياة الدائمة، وأخبره أن الاستحقاق الدائم والأبدي لهذا المكان يمكن أن يتحقق عن طريق أعماله، وأن هذه الحياة الدنيا قد أعطيت له حتى يستطيع فيها أن يشتري بقيمة عمله ملكية الجنة. ولكن لأن الإنسان خلق بطبعه ضعيفا ينسى الآخرة لتحقيق مطامع أخرى. لذا وفر الله تعالى له في حياته الدنيا وسائل الإصلاح والتقويم والنجاح؛ فبعث الرسل وأرسل المعلمين وعلم الشريعة، وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحدد عقوبة وتعزيرا للذنوب، وجزاء على عمل الخير، وعقابا على عمل الشر حتى ينتبه الإنسان في كل خطوة إلى عمله ويشعر بخطئه. إضافة لكل هذا حدد الله تعالى بعظيم رحمته المراتب الآتية لتنبيه وإصلاح الإنسان:

١. تكفر السيئة بالحسنة. ولأن الإنسان مهما حاول لن يستطع أن يخرج عن حد نقاط ضعفه الفطرية، وكما أن قلب الإنسان قد فُطر أو جبل على أن تكون الحسنة ثقيلة، لذا تغفر له صغائر ذنوبه. أو يصدر منه عمل صالح تمحى به ذنوبه كلها. وهذا ما يسمى بكفارة العمل. لذا علمنا القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله:﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (هود: ١١٤)

ومراد هذه الآية أيضا هو أن الزيادة التدريجية للحسنات تقلل السيئات في النهاية، حتى يصبح الإنسان إنسانا صالحا تماما. وهنا أيضًا تكمن البشارة بأن هذه الحسنات ستذهب، إن شاء الله تعالى، السيئات. وتوجد آيات أخرى في القرآن الكريم تؤكد المعنى نفسه مثل:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: ٣١)

﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (المائدة: ١٢)

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ (الأحقاف: ١٦)

٢. تكون التوبة كفارة. فالأصل في كل أعمال الإنسان هو قلبه. وبالقلب يتطهر الإنسان وبه أيضًا يتنجس. فإذا رجع قلب الإنسان في أي وقت إلى الله تعالى بإخلاص وندم على ذنوبه وتقصيره، وتخلى عن حياته السالفة ووعد الله أن يعمل صالحًا في حياته اللاحقة، فهذا يسمى توبة. هذه التوبة تجعل أكثر الناس عصياناً في رحمة الله. وإضافة إلى حادثة عصيان آدم ثم توبته ورجوع رحمة الله نجد أن الصورة المثالية لهذا الأمر هي أن رحمة الله تظل مفتوحة لرجوع الإنسان العاصي. إن هذا المشهد الواضح للرحمة الإلهية الذي نراه في الكتاب المنزل على رسول الله (ﷺ) وفي رسالته لا نجده أبدا في مذاهب الهند. كما أن التوراة قد سكتت عنه ولم يبرزه الزبور ولم يظهره الإنجيل. أما الشرح والتفصيل الذي قام به رسول الله في رسالته الربانية لكيفيات ومبادئ وشرائط التوبة فكان فيضاً ربانيا من رب العالمين. قال تعالى:

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ (مريم: ٦٠)

بل الأكثر من ذلك أن من تاب وعمل صالحا فإن ذنوبه ستبدل حسنات.

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الفرقان: ٧٠)

وهذا هو ما تقتضيه عظمة الرحمة. لدرجة أن السارق واللص إن تابا من ذنوبهما. فإن الله تعالى يبشرهم ويقول:

﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة: ٣٩، ٤٠)

وقد أظهر الله تعالى مبدأ العفو بشكل قاطع فقال تعالى:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (طه: ٨٢)

ولكن لمن تكون التوبة ؟ وبأي شرط تكون ؟

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ (النساء: ١٦، ١٧)

المقصود أن يكون في قلب العبد بعد التوبة عزم على ترك الآثام وتجنب المعاصي. وظاهر أن هذا العزم لا يمكن أن يكون وقت الموت. لكن إذا تاب الإنسان ثم مات فجأة فالمؤكد أن رحمة الله ستقبله.

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٥٣)

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (النساء: ١١٠)

٣. تنبيه المصائب وكفارتها، لا يوجد شيء في الدنيا أكثر ضررا أو إيذاء للإنسان من المصائب، لكن لا يجب أن ننسى حقيقة أن أفراداً بل جماعات وشعوب أيضا تتنبه وتفيق من المصائب فينصلح حالها، لأن نار المصائب تجلي جوهر كثير من المحاسن الأخلاقية. وينمو الصبر والاستقلال والتواضع والشكر والتراحم وغير ذلك من الفصائل الأخلاقية

في ظل هذه المصائب. فحين يصاب أي إنسان مغرور فإنه يفيق. لذا نجد في بعض الأحيان أن المصائب هي أفضل وسائل إيقاظ الغافلين والناسين. بفضلها يؤمن الإنسان الملحد فجأة.

والثروة والنعمة والنجاح هي ذلك الشراب الذي لا يزول تأثيره إلا بمرارة المصائب الفجائية. فكم ينسى الإنسان الله، ويغتر بماله وجاهه. لكن حين يصاب بمصيبة، تتفتح عينيه فجأة، فالمرض والعسر وموت الأعزاء والفشل وغير ذلك من المصائب والشدائد تجعل الإنسان الغافل يفيق فجأة، ويتضح له خطأ مسلكه. لذا توجد في هذه المصائب الصلاحية الكاملة لتكفير ذنوب وخطايا الإنسان والإحساس الذي يتولد داخل الإنسان بسبب هذه المشقة البسيطة هو إحساس غالٍ وقيم.

وقد بين القرآن الكريم هذا الأمر دوما، وقال إن الله تعالى قبل أن يهلك العصاة امتحنهم بالمصائب علهم يرجعون إلى خالقهم الذي نسوه، وينتبهون إلى خطئهم ويفكرون في الهداية والصلاح. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٠)

وقال عن بني إسرائيل:

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٨)

و بيّن في السورة نفسها هذا المبدأ في موضع آخر بصفة تامة فقيل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٤)

وقيل للمسلمين:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥: ١٥٧)

وتحت هذا المبدأ يوضح النبي (ﷺ) جزئياته العديدة. فقد روى عن السيدة عائشة أنه حين نزلت هذه الآية: ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ** ﴾ (النساء: ١٢٣) أنها سألت النبي (ﷺ) عن معناها. فقال: «هَذِهِ مُعَاتَبَةُ الله العَبْدَ فيمَا يُصِيبُهُ مِنْ الحُمَّى وَالنَّكْبَةِ حَتَّى البِضَاعَةِ يَضَعُهَا فِي يَدِ قَمِيْصِهِ فَيَفْقِدُهَا فَيَفْزَعُ لَهَا حَتَّى إِنَّ العَبْدَ لَيَخْرُجُ مِنْ ذنُوبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التِّبْرُ الأَحْمَرُ مِنْ الكِيْرِ» [١]. وورد في أحاديث أخرى أن النبي (ﷺ) قال « ما من مصيبةٍ تُصيبُ المسلم إلا كفَّرَ الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها» [٢]. وفي رواية ثالثة أن النبي (ﷺ) قال: «ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا همّ ولاَحزَن ولا أذى ولا غمّ — حتى الشَّوكةِ يُشاكها — إلا كفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه». [٣] ويشير في حديث أخر إلى أن ما يصيب المسلم من أذى من الشوكة وما فوقها إلا وأسقط الله تعالى به ذنوبه كما تتساقط أوراق

---

[١] سنن الترمذي. وهذا نص الحديث: (٣٠٨٥) حدثنا عَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ أخبرنا الحَسَنُ بنُ مُوسَى ورَوْحُ بنُ عُبَادَةَ عن حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عن عَلِيِّ بنِ زَيْدٍ عن أُمَيَّةَ ، أنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ عن قَوْلِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {إِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يحَاسِبكُمْ بِهِ الله} وَعن قَوْلِهِ: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} فَقَالَتْ: «مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ مُنْذُ سَأَلْتُ رَسُولَ الله فَقَالَ «هَذِهِ مُعَاتَبَةُ الله العَبْدَ فيمَا يُصِيبُهُ مِنْ الحُمَّى وَالنَّكْبَةِ حَتَّى البِضَاعَةِ يَضَعُهَا فِي يَدِ قَمِيْصِهِ فَيَفْقِدُهَا فَيَفْزَعُ لَهَا حَتَّى إِنَّ العَبْدَ لَيَخْرُجُ مِنْ ذنُوبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التِّبْرُ الأَحْمَرُ مِنْ الكِيْرِ».

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ لاَ نَعْرِفُهُ إلاَّ مِنْ حَدِيثِ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ.(يوسف عامر).

٢ – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٥١٣) ـــ حدّثنا أبو اليمان الحكم بن نافعٍ أخبرنا شُعَيبٌ عن الزهريِّ قال: أخبرَني عُروةُ بن الزبير أن عائشةَ رضيَ الله عنها زوجَ النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ما من مصيبةٍ تُصيبُ المسلم إلا كفَّرَ الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها».(يوسف عامر).

٣ – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٥١٤) ـــ حدّثني عبدُ الله بن محمدٍ حدثنا عبدُ الملكِ بن عمرو حدثنا زُهيرُ بن محمدٍ عن محمدِ بن عمرو بن حَلْحَلَةَ عن عطاءِ بن يسار عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ وعن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ما يُصيبُ المسلمَ من نَصبٍ ولا وَصَبٍ ولا همّ ولاَحزَن ولا أذى ولا غمّ — حتى الشَّوكةِ يُشاكها — إلا كفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه».(يوسف عامر).

الشجرة. وأشار في رواية خامسة إلى أن المسلم الذي اقترف أي ذنب في الدنيا وعوقب عليه في الدنيا، فإنه له كفارة وتطهير له من الذنب[1].

وضح من السطور السابقة أن الإنسان الذي تلوث بالذنب بعد إقراره بالتوحيد يستطيع أن يجد النجاة عن طريق التوبة والأعمال الصالحة والصبر والشكر على المصائب ويخرج من هذه الدنيا نظيفا طاهرا لا يحتاج إلى كفارة جديدة لذنوبه بعد الموت. لذا ورد في القرآن:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١)

علمنا من هذه الآية الكريمة أن عذاب الله تعالى لا يهدف إلى الانتقام أو المعاقبة بل إحضار النفس الشريرة على طريق النجاة (الطريق المستقيم). لذا قال تعالى في آية أخرى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ (النساء: ١٤٧)

---

[1] وقد ورد في سنن الترمذي: (٣١٣٦) حدثنا يَحْيَى بنُ مُوسَى وَعَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ قَالاَ: أخبرنا رَوْحُ بنُ عُبَادَةَ ، عن مُوسَى بنِ عُبَيْدَةَ: أخبرني مَوْلَى ابنِ سِبَاعٍ قالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بنَ عُمَرَ يُحَدِّثُ عن أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، قالَ: «كُنْتُ عِنْدَ النَّبيِّ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ، وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً} فَقَالَ رسولُ الله : «يَا أَبَا بَكْرٍ أَلاَ أُقْرِئُكَ آيَةً أُنْزِلَتْ عَلَيَّ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله: قالَ: فَأَقْرَأَنِيهَا فَلاَ أَعْلَمُ إِلاَّ أَني قد كنت وَجَدْتُ انقصاماً فِي ظَهْرِي فَتَمَطَّأْتُ لَهَا، فَقَالَ رَسولُ الله ««مَا شَأْنُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ » قُلْتُ يَا رَسُولَ الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَأَيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا وَإِنَّا لَمجْزِيُّونَ بِمَا عَمِلْنَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله : «أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ وَالمُؤْمِنُونَ، فَتُجْزَوْنَ بِذَلِكَ في الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقُوا الله، وَلَيْسَ لَكُمْ ذُنُوبٌ، وَأَمَّا الآخَرُونَ فَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ لَهُمْ، حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» .

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ. وَفي إِسْنَادِهِ مَقَالٌ، وَمُوسَى بنُ عُبَيْدَةَ يُضَعَّفُ فِي الْحَدِيثِ ضَعَّفَهُ، يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ وَأَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ، وَمَوْلَى ابنِ سِبَاعٍ مَجْهُولٌ. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عن أبي بَكْرٍ، وَلَيْسَ لَهُ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ أَيْضاً. وَفي البَابِ عن عَائِشَةَ.(يوسف عامر).

المقصود أن هذا العذاب يكون منجاة في الـدنيا مـن الـذنوب اللاحقـة وتطهيرا للذنوب السالفة. ولأنه لا مكان لعمل جديد في عالم البرزخ وعالم البعث، لذا لن يكون في هذين المكانين أي سؤال آخر، فينجي إنما المرء بعد إنهاء عقوبة سوء أعماله السالفة فقط. وهذا هو هدف عذاب عالم البرزخ وعالم البعث. إلا أن يتغمده الله برحمته ويعفو عنه.

عذاب البرزخ كفارة أيضًا

أما إذا زادت ذنوب الإنسان لدرجة لا تستطيع معها كفارات الحياة الدنيا كلها أن تمحوها. فإنه سيعاقب عليها في عالم البرزخ حتى يطهر، وهذا هو عذاب عالم البرزخ. يتضح من هذا أن عقوبة عالم البرزخ ستحدث لأننا لم نتحمل مشقة البعد عن أهوائنا وملذاتنا في الدنيا. لم نصبر على الصعاب البسيطة التي تصاحب العمل الصالح. لذا نتحمل في عالم البرزخ مشقة العذاب مقابل ما فعلناه في الدنيا، وحتى نصل إلى الحياة الثانية وقد تطهرنا من ذنوبنا بسبب ما ذقناه مـن عـذاب البرزخ. ونصبح مؤهلين لدخول الجنة: التي لا يدخلها إلا المتقون المتطهـرون. بمعنى أن الجنة ستكون لمن لم يرتكب ذنبا أصلاً، أو ارتكب ذنبا ثم تاب بعمـل الخير وتاب وصبر وشكر على المصائب، أو تطهر في عالم البرزخ من ذنوبـه بالعقاب.

إن مسألة تكفير عذاب البرزخ لذنوبنا تنبع من مبدأ إسلامي ينص على أن أي ضيق يصيب المؤمن يكون كفارة لذنوبه. وعلى هذا سيكون عذاب البـرزخ أيضا كفارة للذنوب. ويتضح هذا الأمر من بعض آيات القـرآن الكـريم أيـضا بطريق الكناية. إذ سيقول العصاة يوم الحشر:

﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ (الأنعام: ١٢٨)

يتضح من هذا أنهم كانوا قد أنهوا مرحلة من العذاب قبل الحشر.

ونجد في بعض الأحاديث أيضًا تصريحا لهذه الكناية. فيقول حديث فـي كنز العمال:

عن ابن عمران: «طول مقام أمتي في قبورهم تمحيص لذنوبهم»

(كنز العمال. باب عذاب القبر. المجلد ٨ صـ ٩٦)

لذا ورد في حديث آخر: «**أكثر عذاب أمتي في قبورهم**»[1].

إن هدف هذا الحديث (إن صح) هو أن أكثر أفراد الأمة المحمدية ستتقون ويطهرون من ذنوبهم بالعذاب المحدود في البرزخ، ثم يصبحون بعد ذلك مؤهلين لدخول الجنة، ولن يعذبوا بعذاب جهنم. ويقول الحافظ ابن القيم:

«**فإن وفت بالخلاص منها في هذه الدار وإلا ففي البرزخ، فإن وفى بالخلاص وإلا ففي موقف القيامة وأهوالها ما يخلصهم من تلك البقية**»[2].

والمنظر الذي عرض في حديث رؤية البرزخ؛ والذي ذُكر مفصلاً قبل ذلك، يعرض للعصاة بعد أن خرجوا من العذاب ووجدوا في نهر الحياة حياة جديدة فاستحقوا دخول الجنة[3].

والأغلب أن المشركين سيقولون حين يرون المؤمنين الناجين:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ (الأنعام: ١٢٨)

وقولهم: بلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، يعني أننا قد أنهينا مدة عذاب البرزخ المقررة، والآن يبدأ دور جديد من عذاب الحشر والنشر، لذا أنجنا من العذاب كما أنجيت بعض السعداء، لكن سيرد عليهم ويقال:

﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٢٨)

ومعنى أو هدف هذا الجواب هو أن فترة عذابكم لم تنته بعد، ولم تكتمل حتى الآن طهارتكم، لذا عليكم أن تتحملوا عذاب هذا العالم الآخر أيضا، فإن شاء الله سينجيكم منه إنه عليم حكيم، وحين تقضي حكمته وعلمه سينجيكم.

---

(١) نقل هذا الحديث شاه والى الله الرهلوى في حجة الله البالغة، باب الوقائع الحشرية. لكن لا أعرف من أين نقله.

(٢) شفاء العليل لابن القيم، مطبعة الحسيني مصر ص ٢٢٤.

(٣) حسب تفسير ابن عباس، ابن جرير الطبري ج ٨ صـ ٢٤ مصر.

عذاب جهنم كفارة للذنوب

مرت آنفا هذه الآية الكريمة:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ (النساء: ١٤٧)

والتي علمنا منها أن الله تعالى لا يفرح أبدا بتعذيب العصاة كما أنه يريد ألا يعذب عبده العاصي، لكن القوانين التي كان الله تعالى قد حددها وسنها تقضي ذلك. فحين أُخرج آدم من الجنة وهبط إلى الأرض أصبح دخول الجنة ثانية عن طريق العمل. في ذلك الوقت أُسمع آدم عليه السلام هذا القانون الذي يقول:

﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٨، ٣٩)

أخبر في هذه الآية أن هناك سببين لاستحقاق دخول جهنم: الأول الكفر والثاني التكذيب. انظر إلى الآية السالفة من سورة النساء، لقد ذكر فيها أيضا سببان أو شرطان لدخول الجنة هما الشكر والإيمان. فيتضح من هذا أن الشكر والإيمان شرطان لاستحقاق دخول الجنة، والكفر والتكذيب سببان لدخول جهنم. وسائر الأعمال الصالحة تتفرع من الشكر والإيمان، وسائر السيئات تتفرع من الكفر والتكذيب.

لم يخلق الله تعالى الإنسان ليدخله النار، بل خلقه لإظهار رحمته، لا لإظهار غيظه وغضبه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الأحزاب: ٧٢، ٧٣)

فقد وضح جليا من هذه الآية الكريمة أن الصفة الأساسية لله تعالى هي المغفرة والرحمة، فإذا ما ظلم إنسان نفسه بالذنب وأبعد نفسه عن رحمة الله، فهذا صنيع الإنسان وفعله.

﴿ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (التوبة: ٧٠)

﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٣١)

المقصود أن ما سيكون هو نتيجة لأعمالنا.

﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الجاثية: ٢٢)

لذا فإن الجنة أو النار ما هي إلا نتيجة حتمية لأعمال الإنسان، فكما أن لكل عمل في الدنيا نتيجة، فالشبع نتيجة للأكل، والارتواء نتيجة للشرب، والمشقة نتيجة للجوع، والألم نتيجة للمرض، والكسر نتيجة للوقوع، والموت نتيجة للسم، والحلاوة نتيجة للعسل. أي أن لكل فعل حسن أو قبيح نتيجة بدينة لازمة تنتج بعد أفعالنا في الدنيا، فكذلك نجد أن هناك نتيجة روحانية لأعمالنا، نتيجة واقعة لا محالة، لكنها ستكون في العالم الآخر. وكما أن مسئولية الموت عقب تناول السم تعود علينا، ولا نستطيع أن نسأل ونقول: لماذا متنا بعد أن تناولنا السم؟ أو لماذا كسرنا بعدما سقطنا؟ كذلك لا نستطيع أن نسأل ونقول: لماذا سندخل النار بسبب أعمالنا؟ لأنها أعمالنا. والنار أو الجنة تكون نتيجة حتمية لها.

ومن سعة رحمة الله تعالى أنه أطلعنا على نتائج الأعمال أولاً، وألهمنا التمييز بين الخير والشر، ومَنَّ علينا بالعقل، وخصنا بالضمير، ثم أرسل الأنبياء والرسل، وشرع الشريعة، وأنزل الكتاب، فلو لم نسر علي هديه، وقمنا بالأعمال، فمن سينقذنا من نتائج الأعمال إذن:

﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)

ثم أرسل سبحانه من واسع رحمته المظهر الكامل لرحمته في النهاية:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء: ١٠٧)

لكن الظالمين والجهلاء لم يقبلوا هذه الرحمة، ودمروا أنفسهم بمعتقدات خاطئة وأعمال فاسدة، وأعرضوا عن الغرض الذي خلقهم الله من أجله، فأهلكوا أنفسهم بأنفسهم.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١٧: ١٩)

فقد وضح من هذه الآية أن الله تعالى قد خلق الإنسان للرحمة، لا للعذاب، لكن الإنسان بعمله هو يجعل نفسه مستحقا لعذاب الله بدلاً من رحمته. يقول سيدنا ابن عباس في تفسير هذه الآية:

للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب

أما إذا لم يجعل الإنسان الظالم الجاهل نفسه مستحقًا لرحمة الله الواسعة، التي قال الرحمن الرحيم عنها:

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ١٢)

﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤)

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)

﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ (الكهف: ٥٨)

«ورحمتي سبقت غضبي» (صحيح البخاري)

فإن الله سبحانه وتعالى سيعرض عن العصاة والمجرمين للأبد، مع أن رحمته بلا حدود يقول سبحانه:﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾(الأنعام:١٣٣)

وطمأن الناس فقال:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣)

وكما ظهرت رحمته في هذه الدنيا، ستظهر أيضًا في الآخرة. وأكبر مظهر لرحمته هناك هو البعد عن مكان اللعنة (النار) والقرب من مكان الرحمة (الجنة).

﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الفَوْزُ المُبِينُ﴾(الأنعام:١٦)

وتقتضي رحمة الله الواسعة أن يدخل الظالمين في رحمته بعد أن يعاقبهم على أعمالهم، ويمن عليهم بفضله وجزيل إحسانه.

النار ليست سجنًا بل دارًا للشفاء

حين يمرض الإنسان بسبب إهماله في الحفاظ على صحته، فيعتقد غالبا أن الطبيعة تعاقبه بآلام المرض جراء ذلك لكن الأمر ليس كذلك، فالنتائج السيئة التي تولدت داخل الجسم بسبب الإهمال، يحاول الجسم أن يُبعدها. وتسمى هذه

الحرب بالمرض. ويسمى صراع هذه الحرب بآلام المرض التي نعبر عنها بألفاظ مختلفة كألم الرأس (الصداع) ،وألم البطن، وألم الأعضاء، والسهر. وهذا تماماً هو حال الأمراض الروحانية التي نسميها في الاصطلاح الشرعي ذنوبا ونطلق على نتائجها (عذابًا) تظهر هذه النتائج في شكل عذاب جهنم وآلامه. ويكون الهدف منه هو أن تنشغل الروح في السعي لإبعاد نتائج أخطائها، حتى تنجو منها، وتفوز برحمة الله وتخرج من النار وتدخل الجنة.

يتضح من هذا التمهيد أن الجنة ليست سجنا للمجرمين، بل إنها مصحة للمرضى. والمريض في المصحة يتحمل أنواعًا عديدة من المشاق، كالألم، وألم الأعضاء، وشدة العطش، وحرقة الجسم، وتناول أدوية مرة، ويتناول أطعمة لا طعم لها، وإن اقتضت الضرورة تجرى له جراحة. ويقطع له عضو، أو يكوى، ويضطر لتحمل تلك المشاق كلها، لكن هذه المشاق لا تكون من أجل إيذائه وتعذيبه أو الانتقام منه، بل لأجل حفظ جسمه وسلامته من النتائج السيئة لإهمال الصحة. والمشاق التي يتكبدها هناك، رغم أنها تكون محسوسة في المشفى، فإن المشفى ليس هو المتسبب لها، بل السبب فيها هو الإهمال. يفهم هذا المبدأ فهمًا تامًا من الآيات والأحاديث الصحيحة التي ورد فيها بيان حالة أو كيفية النجاة من عذاب النار في النهاية. وقد قدم القرآن الكريم هذا المبدأ عن الآلام والمشاق الدنيوية فقال:

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤١)

هذا المبدأ يصدق على العذاب الأخروي، والمقصود منه أيضًا تمحيص المذنبين من المؤمنين وتطهيرهم. لذا ورد في الحديث الصحيح أنهم بعد قصاص حقوق العباد **(حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة)** (صحيح البخاري باب القصاص يوم القيامة صـ ٩٦٧)[1]

---

[1] - وهذا نص الحديث: (٦٣٨٨) ـــ حدَّثنا الصلتُ بن محمد حدَّثنا يزيدُ بن زُرَيع {ونَزَعنا ما في صدورِهم من غِلّ} (الحجر: ٤٧) قال: حدَّثنا سعيد عن قَتادةَ عن أبي المتوكل الناجيِّ أنَّ أبا سعيد الخُدريَّ رضيَ اللَّهُ عنه قال: قال

في هذا الحديث لفظان يحتاجان لشرح هما "هذبوا ونقوا". هذبوا مشتقة من المصدر هذب، والمعنى اللغوي للتهذيب هو تقليل الأغصان الخربة من الأشجار حتى تخضر وتنضر، وتجد حياة جديدة. أما نقوا فمصدرها تنقية، ومعناه الأصلي هو إخراج المادة الفاسدة التي تكون داخل أي شيء حتى ينقى هذا الشيء تماما. وقد وضح جليا من هذا الشرح المانع من دخول العصاة الجنة. لذا ورد في القرآن الكريم أن أهل الجنة حين يوشكون على دخول الجنة يُنادون ويقال لهم.

﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣)

والمقصود أنه حين ينقى العصاة ويهذبون، فإنهم سيدخلون الجنة. لذا فإن لخروج العصاة من النار مدة، ومهما طالت المدة ستكون لها نهاية. قال تعالى:

﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ (النبأ: ٢٣)

لكن سيكون لهذه الأحقاب في النهاية يوم تنتهي عنده، ثم ينجيهم الله إن شاء.

ورد في حديث رؤية النار أن النبي (ﷺ)«قال: أتاني الليلة آتيانِ فابتَعَثاني، فانتهَيا بي إلى مدينةٍ مبنيةٍ بلبنِ ذَهَب ولَبن فضة، فتلقّانا رِجالٌ شطرٌ من خَلْقهم كأحسَنِ ما أنتَ راءٍ وشطرٌ كأقبح ماأنتَ راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقَعوا في ذلك النهر، فوقَعوا فيه، ثمَ رجعوا إلينا قد ذهبَ ذلك السوءُ عنهم فصاروا في أحسَنِ صورة. قالا لي: هذهِ جَنة عَدْنٍ، وهذَاك منزِلُك. قالا: أما القومُ الذين كانوا شطرٌ منهم حسنٌ وشطرٌ منهم قَبيح فإنهم خَلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً، تَجاوزَ اللهُ عنهم». [1]

رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «يَخلُصُ المؤمنونَ منَ النار، فيُحبسون على قَنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مَظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونَقوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة. فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِه لأحَدُهم أهدَى بمنزِلهِ في الجنة منه بمنزلهِ كان في الدنيا».(يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث: (٤٥٥٦) حدَّثنا مؤمّلٌ هو ابن هِشام، حدَّثنا إسماعيلُ بن إبراهيمَ، حدَّثنا عوفٌ حدثنا أبو رجاء، حدثنا سَمرةُ بن جُندب رضي الله عنه

هل النار نعمة

بعد هذا التفصيل يقال إن أهوال القيامة وعذاب النار أيضاً نعمة من الله تعالى على العصاة، كما أن وجود المستشفيات في هذه الدنيا نعمة للمرضى. فلو لم تكن النار لما تاب العصاة وأدخلوا الجنة، إذ إن رحمة الرحمن الرحيم وكرمه لم ترد أن تحرمهم على الدوام من الجنة رغم عصيانهم. ولهذا جعل غسل البرزخ في البداية لتطهيرهم، وجعل لمن لم يطهر من البرزخ عذاب جهنم، حتى ينقى من درن ووسخ ذنوبه وآثامه. ثم يدخل الجنة بعد أن يطيب في النهاية. ضع هذه النظرية في الاعتبار ثم اقرأ آيات القرآن الكريم التي عبر فيها عن أهوال وعذاب القيامة وجهنم بالنعم. قال تعالى: ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ** ﴾ (الرحمن: ٣٥: ٤٤)

فسر هذه الآيات كيف شئت. ستضطر في كل الأحوال إلى الاعتراف بأن أهوال وأحوال القيامة والنار نعمة للمجرمين، ولذلك يخشونها في الدنيا ويتركون الآثام ويهتدون، ونعمة في الآخرة أيضا لأنها ستخلصهم في النهاية من نتائج أعمالهم السيئة وتؤهلهم لدخول الجنة.

قال: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لنا: أتاني الليلة آتيانِ فابتَعَثاني، فانتهَيا بي إلى مدينة مبنيةٍ بلبنِ ذَهَب ولَبن فضة، فتلقّانا رِجالٌ شطرٌ من خَلْقهم كأحسَنِ ما أنتَ راءٍ وشطرٌ كأقبح ماأنتَ راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقَعوا في ذلك النهر، فوقَعوا فيه، ثمَ رجعوا إلينا قد ذهبَ ذلك السوءُ عنهم فصاروا في أحسَنِ صورة. قالا لي: هذهِ جَنة عَدْنٍ، وهذَاك منزِلُك. قالا: أما القومُ الذين كانوا شطرٌ منهم حسنٌ وشطرٌ منهم قَبيح فإنهم خَلطوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيئاً، تَجاوَزَ اللهُ عنهم». (يوسف عامر).

النار إظهار لرحمة الله ونجاة

إن الإنسان الذي يقول بتوحيد الله ويعترف بصدق الرسل قد يكون مقصرا أو ومذنبا، لكن صحائف أعماله ستضم بلا شك بعض الحسنات. وسيكون يوم القيامة يومًا لمعاتبة الله له. في هذا اليوم سيكون كل عاص متهما بعصيانه. لكن في النهاية ستظهر عظمة رحمة الرحيم. ستظهر هذه الرحمة طبقا لقول الله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في صورة الشفاعة. وبفضل هذه الشفاعة سيخرج العصاة من النار بعد أن يطهروا من الذنوب ويؤذن لهم بدخول الجنة. قال تعالى:

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ (التغابن: ٩)

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٢)

ولهذا العفو صورتان: الأولى أن يكون عفوا مطلقًا دون عذاب. أو عفوا بعد التعذيب بعض الوقت في جهنم. قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياً﴾ (مريم: ٧١، ٧٢)

وبهذا صرح النبي (ﷺ) في الأحاديث الصحيحة:

١. ورد فى حديث عن جابر أن النبي (ﷺ) أخبر (بما معناه) بأن الناس سيخرجون من النار بالشفاعة كالحجارة الصغيرة. (صحيح البخاري، كتاب الشفاعة).

٢. ورد عن سيدنا أنس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) أشار إلى أن بعض الناس يخرجون من النار بعد أن يكتووا بها، ويدخلون الجنة. (صحيح البخاري، كتاب الشفاعة).

٣. عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ﷺ) أنه قال: «يَدْخُلُ أَهلُ الْجَنَّة الجَنَّةَ وَأَهلُ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ اللّهُ تعالى أَخْرِجوا مَنْ كانَ في قَلبِهِ مِثْقالُ حَبَّة مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَيُخْرَجونَ منها قد اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحَيا ــ

أو الحَياةِ، شَكَّ مالكٌ ــ فيَنبتُون كما تَنْبُتُ الْحِبَّــةُ فــي جانِــبِ الــسَّيْلِ» (البخاري كتاب الشفاعة).[1]

٤. روى سيدنا أنس ابن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال وهــو يبــين أحــوال القيامة: «فإذا رأيتُهُ وقعتُ له ساجداً، فيَدَعُني ما شاءَ اللَّه، ثم يُقال لــي: ارفعْ رأسَكَ، وسَلْ تُعطَه، وقلْ يُسمَع، واشفَعْ تُشفَّع. فأرفعُ رأسي فأحمــدُ ربيٍّ بتحميدٍ يعلِّمني، ثم أشفع فيحدُّ لي حدّاً، ثمَّ أُخرجُهم من النار وأُدخِلُهم الجنة. ثم أعودُ فأقع ساجداً مثلَه في الثالثةِ أو الرابعة، حتى ما يبقى فــي النار إلا من حبسهُ القرآن» (صحيح البخاري، كتاب الشفاعة).[2]

---

[1] – وهذا نص الحديث: (٢٢) ــــ حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن عمروِ بنِ يحيى المازنيِّ عنْ أبيهِ عنْ أبي سَعيدِ الْخُدْرِيِّ رضيَ اللّهُ عنهُ عنِ النبــي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ أهلُ الْجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأهلُ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ اللّهُ تعالى أَخْرِجوا مَنْ كانَ في قَلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِــنْ خَــرْدَلٍ مِــنْ إيمــانٍ، فَيُخْرَجونَ منها قدِ اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحَيا ــ أو الحَياةِ، شَــكَّ مالــكٌ ــ فيَنبتُون كما تَنْبُتُ الْحِبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ، ألم ترَ أنَّها تَخْرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً؟» قال وُهَيبٌ: حدَّثنا عَمْرٌو «الحياةِ». وقال «خَرْدَلٍ مِنْ خَيْرٍ».(يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٤١٨) ــــ حدَّثنا مسدَّدٌ حدَّثنا أبو عَوانةَ عن قَتادةَ عن أنس رضيَ اللَّه عنه قال: قال رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «يجمع اللَّهُ الناسَ يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا على ربِّنا حتى يُريحَنا من مكاننا،. فيأتون آدمَ فيقولون أنت الذي خلقكَ اللَّهُ بيده، ونفخَ فيك من رُوحه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك، فاشفعْ لنا عندَ ربنا. فيقول: لستُ هناكم، ويذكرُ خَطيئتَه، ويقول: ائتوا نوحاً أولَ رسول بعثَهُ اللَّــه. فيأتونَــهُ، فيقول: لستُ هناكم، ويذكرُ خطيئته، ائتوا إبراهيمَ الذي اتخذَهُ اللَّــه خلــيلاً. فيأتونَهُ، فيقول: لستُ هناكم، ويذكرُ خَطيئته، ائتوا موسى الذي كلمــهُ اللَّــه. فيأتونَهُ، فيقول: لستُ هناكم، فيذكرُ خطيئتَه، ائتوا عيسى. فيأتونهُ فيقول: لستُ هناكم، ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقد غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبــهِ ومــا

تأخر. فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيتُهُ وقعتُ له ساجداً، فيَدَعُني ما شاءَ اللَّه، ثم يُقال لي: ارفعْ رأسكَ، وسَلْ تُعطَه، وقلْ يُسمَع، واشفَعْ تُشفَّع. فأرفعُ رأسي فأحمدُ ربيِّ بتحميدٍ يعلِّمني، ثم أشفع فيحدُ لي حدّاً، ثمَّ أُخرجُهم من النار وأُدخِلُهم الجنة. ثم أعودُ فأقع ساجداً مثلَه في الثالثةِ أو الرابعة، حتى ما يبقى في النار إلا من حبسهُ القرآن» وكان قتادةُ يقول عند هذا: أي وجب عليه الخلود.(يوسف عامر).كما ورد في البخاري:(٧٢٤٤) ــ حدَّثني معاذ بن فضالةَ حدَّثنا هشامٌ عن قتادةَ عن أنسٍ أنَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «يجمعُ اللهَ المؤمنين يوم القيامةِ كذلكَ فيقولون: لو استشفَعنا إلى ربنا حتى يُريحنا من مكاننا هذا، فيأتونَ آدمَ فيقولون: يا آدمُ أما ترى الناسَ؟ خلقَك اللهُ بيدِه، وأسجدَ لكَ ملائكتَه، وعلمكَ أسماء كل شيءٍ، اشفعْ لنا إلى ربِّك حتى يُريحَنَا من مكاننا هذا. فيقول: لستُ هناك ــ ويذكر لهم خَطِيئَتَهُ التي أصاب ــ ولكنِ ائتوا نوحاً فإنه أول رسولٍ بعثهُ اللهُ إلى أهل الأرض. فيأتونَ نوحاً فيقول: لستُ هُناك ــ ويذكرُ خَطيئَته التي أصاب ــ ولكنِ ائتوا إبراهيمَ خليلَ الرحمن. فيأتونَ إبراهيمَ فيقول: لستُ هُناكم ــ ويذكرُ لهم خطاياه التي أصابها ــ ولكن ائتوا موسىٰ عبداً آتاهُ الله التوراةَ وكلمهُ تكليماً. فيأتونَ موسىٰ فيقول: لستُ هُناكم ــ ويذكر لهم خطيئَتَهُ التي أصابها ــ ولكن ائتوا عيسىٰ عبدَ الله ورسولهُ وكلمتهُ ورُوحَه. فيأتونَ عيسىٰ فيقولُ: لستُ هناكم، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً غُفرَ له ما تقدَّم من ذَنبهِ وما تأخر. فيأتونَني، فأنطلِقُ، فأستأذِنُ عَلَى ربي فيؤذَنُ لي عليه، فإذا رأيتُ ربي وقعتُ له ساجداً، فَيَدَعني ماشاء اللهُ أن يَدَعني، ثم يقالُ لي: ارفعْ محمدُ، قلْ يُسمَعْ، وسَلْ تعطه، واشفَع تُشفَّعْ، فأحمدُ ربي بمحامدَ علَّمينها، ثم أشفعُ، فيحدُّ لي حدّاً، فأدخلهمُ الجنةَ، ثم أرجعُ فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدَعني ماشاء اللهُ أن يَدَعني، ثم يقال: ارفَعْ محمد وقلْ يُسمَعْ، وسَل تعطَهْ، واشفَعْ تشفع، فأحمد ربِّي بمحامد علَّمنيها، ثم أشفع فيحُدُّ لي حدّاً فأدخلهم الجنَّة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعتُ ساجداً فيدَعني ماشاء اللهُ أن يَدَعَني، ثم يُقال ارفعْ محمَّد، قل

٥. روى عن سيدنا عمران بن الحصين ﷺ أن رسول الله (ﷺ) قال: «يَخرُجُ قومٌ منَ النار بشفاعةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم فيدخلونَ الجنة، يُسمَّونَ الجهنَّميين»(البخاري)[١]

٦. وجاء فى إجابة رسول الله (ﷺ) على سؤال لأبي بكر أنه سيحظى بشفاعة الرسول ﷺ من أقر بتوحيد الله خالصًا من قلبه. (البخاري، كتاب الشفاعة).

٧. روى عن أبي هريرة أن: « حتى إذا فرغَ اللَّهُ من القضاءِ بين العباد، وأراد أن يُخرج برحمتِه من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لا يُشركُ باللَّه شيئاً ممَّن أراد اللَّه أن يرحمه ممَّن يشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ فيعرفونهم في النار بأثرِ السجودِ، تأكل النارُ ابن آدمَ إلا أثرَ السُّجودِ، حرَّم اللَّه على النار أن تأكلَ أثرَ السجودِ، فيخرجونَ من النار قد امتُحِشوا فيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياةِ فَيَنبُتُون تحتَه كما تنبُت الحِبَّةُ في حَميل السَّيْل» (البخاري، كتاب الشفاعة)[٢]

يُسمعْ، وسَلْ تُعطَه، واشْفَعْ تُشفع، فأحمدُ ربي بمحامدَ علَّمنيها، ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأدخلهم الجنةَ ثم أرجعُ فأقولُ يا ربِّ مابَقِيَ في النار إلا من حبسَهُ القرآنُ ووجَبَ عليه الخلود، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يخرجُ من النار من قال لاإلهَ إلا اللهُ، وكان في قلبه من الخير مايزن شعيرةً، ثم يخرج من النار مَن قال لاإله إلا اللهُ وكان في قَلبِهِ مِن الخيرِ مايزِنُ بُرةً، ثم يخرجُ من النار من قال لاإله إلا الله وكان في قلبهِ مايزِنُ من الخير ذَرَّةً.(يوسف عامر).

[١] - وهذا نص الحديث: (٦٤١٩) ـــ حدَّثنا مسدَّدٌ حدثنا يحيى عنِ الحسن بن ذَكوانَ حدَّثَنا أبو رَجاء حدَّثَنا عمرانُ بن حُصين رضيَ اللَّهُ عنهما عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «يَخرُجُ قومٌ منَ النار بشفاعةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم فيدخلونَ الجنة، يُسمّونَ الجهنَّميين».(يوسف عامر).

[٢] - وهذا نص الحديث: (٧٢٧١) ـــ حدَّثنا عبدُ العزيز بن عبداللَّه، حدَّثنا إبراهيمُ بن سعدٍ عن ابن شهابٍ عن عطاءِ بن يزيد الليثيِّ عن أبي هريرةَ أن

النَّاسَ قالوا: «يا رسولَ اللَّه هل نرَى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ فقال رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: هل تضارُّون في القمرِ ليلةَ البدْرِ؟ قالوا: لا يا رسولَ اللَّـه، قال: فهل تضارُّون في الشمس ليسَ دونها سحابٌ؟ قالوا: لا يا رسول اللَّـه، قال: فإنكم ترونه كذلك يجمعُ اللَّهُ الناسَ يومَ القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعهُ، فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمسَ، ويتَّبعُ من كان يعبد القمرَ القمرَ، ويتبع من كان يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ، وتبقى هذه الأمَّة فيها شافِعوها، أو منافِقوها، شكَّ إبراهيم، فيأتيهم اللَّهُ فيقول: أنا ربُّكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتيَنا ربُّنا فإذا جاء ربُّنا عرفْناه، فيأتيهم اللَّهُ في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربُّنا فيتَّبعونه، ويضربُ السرَاط بين ظَهْرَيْ جهـنمَ، فأكون أنا وأُمَّتي أوَّل مَن يُجيزُها، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسُلُ ودعوَى الرسل يومئذ: اللهمَّ سلِّم سلِّم، وفي جهنمَ كلاليب مثلُ شوكِ الـسَّعدان، هـل رأيـتم السعْدان؟ قالوا: نعم يا رسولَ اللَّه، قال: فإنها مثلُ شوكِ السعْدانِ، غير أنه لا يعلمُ قَدْرَ عِظَمِها إلا اللَّهُ تخطفُ الناسَ بأعمالهم فمنهم الموبَقُ بقِـيَ بعملـه، ومنهم المخردَل أو المجازى أو نحوُهُ، ثم يتجلى حتى إذا فرغَ اللَّهُ من القضاءِ بين العباد، وأراد أن يُخرج برحمتِه من أراد من أهل النار أمر الملائكـة أن يُخرجوا من النار من كان لا يُشركُ باللَّه شيئاً ممَّن أراد اللَّه أن يرحمه ممَّن يشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ، فيعرفونهم في النار بأثرِ السجودِ، تأكل النارُ ابن آدمَ إلا أثرَ السُّجودِ، حرَّم اللَّه على النار أن تأكلَ أثرَ السجودِ، فيخرجونَ من النار قد امتُحِشوا فيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياةِ فَيَنبُتُون تحتَه كما تنبُتُ الحِبَّةُ في حَميـل السَّيْل، ثم يَفرغ اللَّه من القضاءِ بين العبادِ، ويبقَى رجُلٌ مقبلٌ بوجهـه علـى النار هو آخرُ أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: أي ربِّ اصرف وجهـي عـن النار، فإنه قد قشبَني ريحها وأحرقني ذكاؤُها، فيدعو اللَّه ما شاء أن يـدْعوه، ثم يقول اللَّهُ: هل عَسَيْت إنْ أُعطيتَ ذلك أن تسألني غيرَه، فيقول: لا وعزَّتك لا أسألك غيرَه ويعطي ربه من عهودٍ ومواثيقَ ما شاء، فيصرفُ اللَّهُ وجهـه عن النار فإذا أقبل على الجنة ورآها سكتَ ما شاء اللَّه أن يسكتَ، ثم يقـول:

٨. روى عن أبي سعيد الخدري (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: «يَدْخُلُ أهلُ الْجَنَّةِ الجَنَّةَ وأَهلُ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ اللّهُ تعالى أَخرِجوا مَنْ كانَ في قَلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَيُخْرَجونَ منها قد اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحَيا ــ أو الحَياةِ، شَكَّ مالكٌ ــ فيَنبتُون كما تَنْبُتُ الْحِبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ» (صحيح البخاري، كتاب الإيمان)[1]

أيْ ربِّ قدِّمني إلى باب الجنة، فيقول اللّه له: ألستَ قد أعطيتَ عهودك ومواثيقكَ أن لا تسألني غيرَ الذي أُعطيتَ أبداً، ويلك يا ابن آدمَ ما أَغْدَرَك، فيقول: أي ربِّ، ويدعو اللّهَ حتى يقولَ هل عَسَيْتَ إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره، فيقول: لا وعزَّتِك لا أسألك غيرَه، ويعطي ما شاءَ من عهود ومواثيقَ فيقدمه على باب الجنَّةِ، فإذا قام إلى باب الجنَّة انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الحَبرة والسرور، فيسكُتُ ما شاءَ اللّه أن يسكُتَ، ثم يقول: أيْ ربِّ أَدخلني الجنة، فيقولُ اللّهُ ألستَ قد أعطيتَ عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غيرَ ما أُعطيت، فيقول: ويلك يا ابن آدمَ ما أغدَرك، فيقال أي ربِّ لا أكونُ أشقى خلْقك فلا يزالُ يدعو حتى يضحكَ اللّهُ منه، فإذا ضحك منه قال لـه: أُدخل الجنة، فإذا دخلها قال اللّه له: تمنَّهْ فسأل ربَّه وتمنَّى، حتى أنَّ اللّهَ ليذكِّرُه، يقول كذا وكذا حتى انقطعت به الأمانيُّ، قال اللّه: ذلك لك ومثله معه.(يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث: (٢٢) ــــ حدَّثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني مالكٌ عن عمرِو بنِ يحيى المازنيِّ عنْ أبيهِ عنْ أبي سَعيد الْخُدْرِيِّ رضيَ اللّهُ عنهُ عنِ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ أهلُ الْجَنَّةِ الجَنَّةَ وَأهلُ النَّارِ النَّارَ، ثمَّ يقولُ اللّهُ تعالى أَخْرِجوا مَنْ كانَ في قَلبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَيُخْرَجونَ منها قدِ اسْوَدّوا فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحَيا ــ أو الحَياةِ، شَكَّ مالكٌ ــ فيَنبتُون كما تَنْبُتُ الْحِبَّةُ في جانِبِ السَّيْلِ، ألم ترَ أَنَّها تَخرُجُ صَفْراءَ مُلْتَوِيَةً؟» قال وُهَيبٌ: حدَّثنا عَمْرٌو «الحياة». وقال «خَرْدَلٍ مِنْ خَيْرٍ».(يوسف عامر).

٩. ورد عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله (ﷺ) أشار إلى أن أهل النار الذين سيخلدون فيها لن يموتوا فيها ولن يحيوا. أما من يعذبون في النار بسبب بعض الذنوب، فإنهم سيموتون فيها بعض الوقت، حتى أنهم سيعذبون، ثم يشفع لهم، فيخرجون جماعات وينتشرون في أنهار الجنة، ثم يقال لأهل الجنة. صبوا عليهم ماء. فيخرجون كما تخرج الحبة من حيم السيل. (صحيح البخاري، كتاب الإيمان)

١٠. ورد عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) أخبر بأن آخر من ينجى من النار، يخرج منها باليا، وتبدو له الجنة مملوءة.

١١. روى سيدنا أبو سعيد الخدري (ﷺ) في الصحيحين أن الله تعالى سيقول: «شفعت الملائكة، وشفع الأنبياء، وشفع المؤمنون، ولم تبق إلا شفاعة أرحم الراحمين أخرجوا من النار من لم يعملوا صالحًا قط» (الصحيحين)[1]

---

[1] – وقد ورد في مسند الإمام أحمد: ١١٦٤٣) ـــ حدّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا عبد الرزاق، أنبانا معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا خلص المؤمنون من النار يوم القيامة وأمنوا، فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة له من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار، قال: يقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار قال: فيقول اذهبوا فأخرجوا من عرفتم، فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، لا تأكل النار صورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم فيقولون: ربما أخرجنا من أمرتنا، ثم يقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار، حتى يقول: من كان في قلبه مثقال ذرة، قال أبو سعيد فمن لم يصدق بهذا فليقرأ هذه الآية: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً} قال: فيقولون: ربنا قد أخرجنا من

١٢. روى سيدنا أنس بن مالك « أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ قَـالَ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله وَكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً» (الترمذي، صفة النار، حديث حسن صحيح)[1]

ويوجد في كتب الحديث أحاديث كثيرة من هذا القبيـل. لكـن لا مجـال لذكرها هنا. إذ يتضح مفهوم كل هذه الأحاديث ويبرز في قول الله تعالى في أهم آية من القرآن الكريم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَـن يَشَاءُ**﴾ (النساء: ٤٨)

أمرتنا فلم يبق في النار أحد فيه خير، قال: ثم يقول: الله شـفعت الملائكـة، وشفع الأنبياء، وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين، قال: فيقبض قبـضة من النار أو قال: قبضتين، ناس لم يعملوا لله خيراً قط، قـد احترقـوا حتـى صاروا حمماً، قال: فيؤتى بهم إلى ماء يقال له: ماء الحياة، فيـصب علـيهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ، في أعناقهم الخاتم: عتقاء الله، قال: فيقال لهم: ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم عندي أفضل من هذا، قال: فيقولون: ربنا وما أفضل مـن ذلك؟ قال فيقول: رضائي عليكم فلا أسخط عليكم أبداً».(يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث: (٢٦٥٤) ـــ حدَّثنا مَحْمُودُ بنُ غَيْلاَنَ، أخبرنا أَبُو دَاودَ، أخبرنا شُعْبَةَ وَهِشَامٌ، عن قَتَادَةَ عن أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله قَـالَ: قَـالَ هِـشَامٌ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ، وَقَالَ شُعْبَةُ: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ قَـالَ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله وكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً». وَقَالَ شُعْبةُ مَا يَزِنُ ذَرَةً مُخَفَّفَةً.

وَفِي الباب عن جَابِرٍ وأَبِي سَعِيد وَعِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ.

قال أبو عِيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.(يوسف عامر).

ففي هذه الآية تصريح بأنه يمكن أن يغفر أي ذنب غير الشرك، لأن الشرك هو هذا المرض الذي لا يمكن الخلاص من نتائجه، لأن ترك نتائجه بدون عقوبة يخالف قانون الله الأبدي.

لا مغفرة للشرك والكفر

الأحكام الإلهية الشرعية الربانية قسمان واضحان: أحدهما يتعلق بالقلب، وهو بمثابة الأصل. هذا القسم يسمى في الدين إيمان وفي الفلسفة علم، ويسمى في التصوف العرفان. أما القسم الثاني فهو فرع ونتيجة للقسم الأول، ويرتبط أو يتعلق القسم الثاني بالأعضاء والجوارح.

نطلق على هذا القسم باختصار العمل وبالتفصيل العبادات والمعاملات والأخلاق، ويرتبط الكفر والشرك بالقسم الأول، أما باقي الذنوب فترجع إلى القسم الثاني. فإن كان في القلوب شعاع من الإيمان والعمل والعرفان فيمكن توقع إضاءة هذه الكلمة أما القلب الذي يخلو تماما من الإيمان والعمل والعرفان، فلا يتوقع إضاءته أبدا. لذا تكون الأعمال بلا إيمان كالعدم، وإذا وجد الإيمان فلابد أن يكون هناك عمل صالح. حتى وإن وجدت معه أعمال صالحة. والذين يعافون أو يفوزون برحمة الله تعالى بعد عذاب جهنم هم أولئك الذين يؤمنون بالغيب، إذ إن الغيبيات ستتضح بنفسها بعدالموت أمامنا. ولن يكون هذا نتيجة لسعينا بل نتيجة لظهور الحقائق بنفسها. وعلى هذا لا يمكن تمني أو توقع مغفرة ذنب الشرك والكفر طبقًا لقانون الله، أما أي ذنب آخر فلن يكون بعيدًا عن رحمة الله تعالى.

ولكي نفهم أو نستوعب الأمر نقدم هذا المثال الواضح للأمرين فلو افترضنا أن النجاح في أي امتحان تعليمي في الدنيا يكون بحد أنى من ٣٣ درجة، فإذا كانت ورقة شخص ما خالية تمامًا ولا تستحق غير الصفر فلا يتوقع من الأستاذ أن يستعمل الرأفة معه وينجحه، أما من كتب بعض الأجوبة وترك بعضها، وكتب بعض الأجوبة خاطئة واقتربت درجاته من ٢٩ أو ٣٠ فإن الأستاذ الرؤوف يمكن أن ينجحه برفع درجاته إلى ٣٣.

والمقصود أن مجرم الإيمان والعلم والعرفان الذي يسمي مشركًا أو كافرًا لا يتوقع له بأن ينجى من عذاب النار لنتيجته السلبية؛ لأن فقدان عرفان حياتهم

الدنيوية لا تجلب لهم رحمة الله تعالى إليها، ولكن يمكن توقع نجاة المشركين والكافرين بعد قضائهم فترة عذاب الشرك والكفر، وهذا ما سنوضحه في السطور التالية.

هل للنار نهاية

هل تظل النار التي هي مكان للعقاب الإلهي، خالدة؟ إن القائلين بعموم رحمة الله تعالى يجيبون على هذا السؤال بالنفي[1]، فهم يعتقدون أن نار جهنم ستبرد بعد مدة حددها الله تعالى:

---

[1] وقد انعقدت مناظرات عديدة بين الفرق الإسلامية الأولى حول أبدية جهنم من عدمها، وتفصيل هذه الآراء في كتاب الملل والنحل. وقد اتفقت الآراء – عدا رأي أو اثنين – على أن وجود الجنة أبدي ودائم، أما دوام النار ففيه اختلاف إلى حدٍ ما؛ فيعتقد عامة أهل السنة أن وجود كل من الجنة والنار أبدي دائم، فالمؤمن العاصي سيعذب في النار بقدر ذنبه ثم يفوز برحمة الله ويدخل الجنة في النهاية، أما ذنوب المشرك والكافر فلن تعافى إطلاقًا وسيعذبون في جهنم إلى مالا نهاية. هناك فريق من الفقهاء والمحدثين يسمى المرجئة يقولون إن المؤمن أيضًا يكون مذنبًا لكنه لن يدخل النار بل سيعافى ويدخل الجنة من البداية. خلافًا لذلك يعتقد الخوارج والمعتزلة أن المؤمن إذا ارتكب كبيرة فإنه سيخلد كالكافرين في جهنم، وتختلف أراء الناس حول هذا الأمر أيضًا فتعتقد طائفة صغيرة من أهل السنة منهم بعض الصحابة والتابعين ومن أبرز المؤيدين لهم من المتأخرين الحافظ ابن القيم، أنه حين يذوق العصاة عذاب جهنم بقدر عصيانهم وينتهون من الغذاب فإن جهنم ستفنى، وقد استدل الحافظ بن القيم في كتابيه "شفاءالعليل" و"حادي الأرواح" (الكتابان مطبوعان، وكتاب حادى الأرواح طبع مع أعلام الموقعين) بكثير من الأدلة المأخوذة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة والأدلة العقلية على رأيه (انظر شفاء العليل من صـ ٢٥٢ وحتى صـ ٢٦٤ طبعة الحسين مصر. وحادي الأرواح من صـ ١٦٧ حتى ٢٣٥ المجلد الثاني الطبعة الجديدة مصر) وقد سلم العلامة بن تيمية

وقد ورد في حديث صحيح أن الله تعالى يقول: « ...الجنة رحمتي ... والنار عذابي[1]. وورد في حديث صحيح معه أنه «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» [2].

أيضًا بهذه النظرية طبقًا لمعتقد طائفة أهل السنة (انظر حادي الأرواح لابن القيم المجلد الثاني ص ١٦٧) وقد قبله أيضًا العالم الرويدى اليمني الشيخ مقيلى (العلم المشايخ في آثار الحق على الآباء والمشايخ صـ ١٢٢) ومن الصوفية يقول الشيخ محيي الدين ابن العربي وأتباعه أن الكافرين والمشركين الذين ورد في شأنهم الخلود في النار سيظلون في النار حتى يعتادوا عليها، ويجدوا فيها راحة ولذة مثل بعض الديدان التي تحب القاذورات وتعتاد عليها. وقد كتبت هذا الباب ويمتلكني الخوف من الوقوع في الخطأ. ولو كان رأي هذا خطأ فأسأل الله العفو والهداية والتوفيق.

(١) صحيح البخاري، باب رحمة الله، الجزء الثاني ص ١١١٠ وصحيح مسلم. وورد في مسند أحمد بن حنبل: (١١٤٩٩) ـــ حدّثنا عبد الله، حدَّثني أبي، حدثنا عثمان بن محمد، قال عبد الله: وسمعته أنا من عثمان، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، قال: فقضى بينهما إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكلاكما عليّ ملؤها». (يوسف عامر).

(٢) صحيح البخاري، باب ولقد سبقت كلمتنا للعبادنا المرسلين. ج ٢ صـ ١١١٠ وصحيح مسلم باب سعة رحمة الله. وهذا نص الحديث: (٦٩١٨) ـــ حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيد. حَدَّثَنَا الْمُغِيرةُ (يَعْنِي الْحِزَامِيَّ) عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي».(يوسف عامر).

فلو كانت النار التي هي مظهر لغضب الله تعالى دائمة كالجنة لسبق غضب الله رحمته أو تساوى معها، وهذا لا يمكن أن يكون في حق الرحمن الرحيم. كذلك ورد في الحديث أن الله تعالى «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ. فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً»[1]. لذا يجب الاعتراف بأنه سيأتي يوم تغلب رحمة الله على عذابه فلا يبقى غيرها، وسيكون ذلك اليوم حين يطيب ويطهر العصاة من أوساخ ذنوبهم وأدران عصيانهم بقضاء المدة المحددة في النار ثم يستحقون الفوز برحمة الله.

إن أكبر مجرم في نظر الإسلام هو المشرك والكافر الذي لن ينجى من عذاب النار طالما كانت النار. وبالرغم من ذلك فقد ورد تصريح في القرآن الكريم عن مدة عذابهم فقال:

١. ﴿ **لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً** ﴾ (النبأ: ٢٣)

أحقابًا مدة طويلة جدًا، ولكن سيأتي يوم وتنتهي. والآية الثانية صريحة في حق الكافرين والمشركين هي:

---

[1] صحيح مسلم باب سعة رحمة الله. وهذا نص الحديث: **(٦٩٢٣)** ـــ حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ. حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِنَّ للَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ. أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ. فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ. وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ. وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَىٰ وَلَدِهَا. وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً. يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (يوسف عامر).(٦٩٢١) ـــ حدّثنا حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ التُّجِيبِي. أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ. فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً. فَمِنْ ذٰلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ. حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».(يوسف عامر).

٢. ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٢٨)

يثبت من هذه الآيات أن عقوبة الشرك والكفر هي في الأصل دائمة مع دوام الجنة. لكن رحمة الله تعالى تقتضي شيئًا آخر، لأنه عليم حكيم، ويفعل كل شيء طبقا لحكمته وعلمه، ويعلم ماذا يجب أن يفعل في حق أي شخص ومتى يُفعل.

والآية الثالثة هي:

٣. ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (هود: ١٠٧)

فقد أوضح الله تعالى في الآية الثانية والثالثة أن نهاية عذابهم راجعة لمشيئته تعالى. وقد عبر عن نفسه بـ «رب» الذي يشير إلى أن نهاية عذابهم في النهاية هو ما تقتضيه ربوبية الله.

ولا يوجد في القرآن الكريم أي آية صريحة واضحة يمكن أن يستدل بها على بقاء جهنم ودوامها. مع أنه توجد آيات عديدة توضح وتبين خلود الجنة وعدم فنائها ولكي نفهم الفرق بين الاثنين جيداً ننقل الآية السابقة هنا كاملة. قال تعالى:﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هود: ١٠٦: ١٠٨)

انظر فقد قال بالخلود والدوام لكل من أهل الجنة وأهل النار، ثم استثنى هذا بعد ذلك بقوله إلا ما شاء الله. لكنه قال في ذكر دوام أهل النار إن ربك فعال لما يريد، فيتضح من هذا أنه سبحانه وتعالى إذا أراد أنهى عذاب النار وإذا شاء أدامه، لكنه قال صراحة في ذكر دوام أهل الجنة: «إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ» وهذا يوضح أن مشيئته تعالى ستكون في حق أهل الجنة خلود ودوام بلا نهاية ولا انقطاع. وقد تكلم في تفسير هذه الآية كثير من أئمة السلف فمثلا قال

ابن زيد والشعبي: إن الله تعالى قد أظهر مشيئة فيما يتعلق بأهل الجنة فقال عطاءً غير مجذوذ، لكنه لم يظهر مشيئته فيما يتعلق بأهل النار لحكمة ما[1].

وقيل في موضع آخر بعد ذكر أسماء الكفار والمشركين خاصة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (البينة٦: ٨)

تمعن فقد أكد على خلود أهل الجنة أكثر من تأكيده على خلود أهل النار، فقال أولا عدن التي تعني القيام والاستقرار، ثم قال خالدين، ثم قال بعد ذلك أيضًا «أبدا» وقال أيضًا في سورة أخرى:

﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن: ٩، ١٠)

انظر فالفرق واضح جدا بين خالدين وبين خالدين فيها أبدا وقد سكت في موضع ما تماما عن تعيين مدة عذاب الكفار، لكن صرح بالخلود في الجنة. مثل قوله تعالى:﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦، ١٠٧)

فقد سكت في الآية السابقة تماما عن التصريح بالمدة في ذكر العذاب، لكنه صرح بالخلود عند ذكر الرحمة. وقد روى في تفسير هذه الآيات عن رسول الله (ﷺ) وعن بعض صحابته بأنه سيأتي يوم تكون النار فارغة فلا يرى فيها أي أحد. لذا:

١. ورد عن سيدنا أبي أمامة ﷺ في الطبراني أن رسول الله (ﷺ) أخبر بأنه سيأتي يوم على جهنم تكون فيه مثل أوراق الخريف وستفتح أبوابها.

---

[1] الدر المنثور، السيوطي، تفسير آيات هود، حزب ٩ والأنعام حزب ١٥.

٢. ورد عن سيدنا جابر ﷺ أو صحابي آخر أن رسول الله (ﷺ) أخبر بأنه سيأتي يوم على جهنم تفتح فيه أبوابها ولا يبقى فيها أحد.
٣. ورد عن سيدنا أبي هريرة ﷺ أنه قال إنه سيأتي على جهنم يوم لا يكون فيها أحد.
٤. ورد عن سيدنا عمر ﷺ في تفسير عبد بن حميد أنه قال: لو أن أهل النار يمكثون فيها بقدر عدد حبات رمال بحر عالج، لحل عليهم يوم يخرجون منها.
٥. روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سيأتي يوم على جهنم تدق فيه أبواب جهنم خالية، ولايكون فيها أحد حين يقضى الناس فيها أحقابا.
٦. ورد في كتاب الأسماء والصفات للبيهقي وعبد الرازق وابن المنذر والطبراني أن سيدنا جابر بن عبدالله أو أبا سعيد الخدري أو صحابيًا آخر قال إن استثناء «إلا ما شاء الله» يشمل القرآن الكريم كله. يعني حيث ذكر في القرآن لفظ خالدين فيها، يقوم استثناء المشيئة الإلهية.
٧. قال سيدنا عبد الله بن مسعود سيأتي زمان على جهنم يطرق على أبوابها الخالية. (١)

دفع شبهة

وردت في القرآن الكريم بعض آيات جعلت الناس تعتقد بدوام وخلود جهنم؛ كتلك الآيات الثلاث التي أخبر المولى سبحانه فيها الكافرين بأنهم خالدون فيها أبدا.

---

(١) نقل الحافظ ابن القيم هذه الروايات في "شفاء العليل" صـ ٢٥٨ من كتب تفسير وحديث غير مطبوعة وقد ذكر بعضها في ابن جرير الطبري في تفسير الآيات المذكورة هذه وخاصة في تفسير سورة هود (المجلد ١٢ صـ ٦٦). وهذا ما ذكره الحافظ جلال الدين السيوطي في تفسير سورة هود. والرواية السادسة ذكرت في كتاب الأسماء والصفات للبيهقي صـ ١٢٣ طبعة حيدر أباد.

١. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (الأحزاب: ٦٤، ٦٥)

٢. ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (الجن: ٢٣)

٣. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (النساء: ١٦٨، ١٦٩)

والمراد من قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ في هذه الآيات الثلاث أن هؤلاء الناس الذين نزلت في حقهم هذه الآيات سيخلدون في النار إلى أن يشاء الله.

أما باقي الآيات فقد ورد فيها لفظ خالدين فقط دون لفظ "أبدا" كقوله تعالى ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وقوله ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٤)

فهنا يجب معرفة أن "خالدين" لفظة ذات معنيين: أحدهما الدوام الحقيقي، والثاني القيام والمكث الطويل. ويكون تخصيص أحد المعنيين عن طريق القرينة. وعلى أساس المعنى الثاني ورد لفظ "**خوالد**" و"**خالدات**" كصفات لحجارة الجبال والبيوت البدوية في الشعر العربي. لأنها تبقى وتمكث لزمن طويل، فوضح من هذا أن لفظ "خالدين" وحده لا يكون بمعنى الأبدية طالما لم تصاحبه قرينة أخرى تخصص وتحدد معنى الدوام، كهذه القرينة التي وردت في الآيات السابقة. وحين قال لأهل الجنة "خالدين" أوضح في عشرين آية أن معنى الخلود هو الدوام وعدم الانقطاع. لذا إذا قيل في شأن الجنة "خالدين" فقط فإن المعنى سيكون الدوام والخلود غير المنقطع، وعلى العكس من ذلك إذا قيل في شأن النار خالدين فلا يعني هذا الدوام والخلود. إذن فالمقصود من الخلود في الآيات المتعلقة بالنار هو أن المذنبين والعصاة سيظلون في النار حتى أمد بعيد. وهذا هو السبب الراجح في عدم استعمال لفظ "أبدا" مع "خالدين" عند بيان عقاب العصاة من المؤمنين، فأكبر عقاب بُيِّن للعصاة أو المذنبين من المؤمنين كان لمن قتل مؤمنا متعمدا، لكن على الرغم من ذلك لم يستخدم لفظ "أبداً" مع خالدين. قال تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ (النساء:٩٣)

وهذا هو السبب في أن كل الفرق الإسلامية - عدا المعتزلة والخوارج - ترى العفو عن قاتل المسلم بغير ذنب (أي المقتول عمداً). فوضح من هذا أن الخلود في هذه الآيات لا يراد به الدوام؛ بل الأمد البعيد؛ لأن العفو عن أهل التوحيد في النهاية تعليم يُستنبط من القرآن والسنة. لذا لا يمكن أن يدخل مفهوم الخلود والدوام في عقاب أي مؤمن. وعليه لا يكون المقصود من الخلود في هذه الآيات هو الدوام المنطقي؛ بل الدوام العرفي، أي المدة الطويلة أو الأمد البعيد. ونحن في العرف العام نستخدم المصطلح القانوني "المؤبد أو الحبس الدائم" للمجرم، ولا نقصد به الحبس طيلة الحياة ولا الحبس إلى يوم القيامة ولا حتى الحبس طيلة حياة المجرم، بل نقصد به أطول مدة قانونية للحبس والتي قدرت بعشرين عاما. وكم من المجرمين قضى هذه المدة ثم أُطلق سراحه. وكثير منهم قد عُفي عنه قبل المدة بسبب عفو ملكي أو قرار رئاسي.

وقد وردت بضع آيات ورد فيها أن العصاة والمجرمين لن يخرجوا من النار هذه الآيات بالترتيب هي:

١. ﴿إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)﴾ (الانفطار: ١٤-١٦)
٢. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٧)
٣. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٦، ٣٧)
٤. ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج: ٢٢)

٥. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (السجدة: ٢٠)

هذه هي الآيات الخمس التي بسببها اعتقد البعض أن عذاب جهنم خالد وغير منقطع. لكن انظر إلى كل آية من هذه الآيات على حدة وتمعنها، فسيتضح لك فوراً خطأ وبطلان هذا الاعتقاد. فالمقصود من الآية الأولى أن المجرم لو اعتقد أنه يمكن أن يفر ويهرب من عذاب النار بالاختباء في مكان ما، فسيكون مخطئا لأنه لا يمكن الهرب والفرار من العذاب. والمراد من الآية الثانية هو أن أهل النار سيقولون لو أخرجنا من النار ورددنا إلى الحياة الدنيا لعملنا صالحا. فيرد عليهم أنه لا مرد الآن إلى الدنيا. وقيل في الآية الثالثة إنه لا يمكن شراء النجاة في الآخرة ولا حتى بكل ثروات الأرض. ولا يمكن الهروب لأحد هناك. والمفهوم الواضح للآيتين الرابعة والخامسة هو أن الذي يكون في النار لو أراد بسبب خوفه من الجحيم أن يفر من النار، فلن يفلح وسيلقي فيها ثانية. فلم يقل في هذه الآيات سوى أن العصاة والمجرمين لن يستطيعوا الخروج بأنفسهم من النار ولن يستطيعوا الخلاص من العذاب وقت العذاب. لكن لا ينفي هذا كونهم سيجدون الخلاص والنجاة في النهاية من العذاب بأمر الله تعالى وإرادته. ولا يثبت من هذا أيضاً أن النار قد كتب لها الدوام والبقاء غير المتناهي كالجنة.

هذه هي الآيات التي يمكن أن يفهم أو يستنبط منها مفهوم دوام عذاب المذنبين والمجرمين. لكن تمعن كل آية منها، هل تجد في أي آية منها تصريح بعدم انتهاء أو عدم فناء النار ؟ على الرغم من أنك تجد مقابل هذا تصريحا ورد مرارا وتكرار ببقاء ودوام الجنة.

هناك أمر آخر جدير بالذكر وهو أنه لو سلِّم أن الله تعالى قد توعد العصاة بدوام وأبدية عذاب جهنم، فلا يجب أن ننسى أن عدم مقابلة الإحسان بالإحسان يعد إثما وعيباً مؤكدا: وهذا لا يليق تماما مع قدسية الله لأنه ﴿لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ٩) و﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِياًّ﴾ (مريم: ٦١). أما إذا لم يقابل السوء بالسوء فإن هذا لا يعتبر نقضا للعهد يستحق أو يستوجب اللوم بل يسمى مغفرة وكرما وعطاءً وعفوا. وليس هناك من هو أهل لهذه الصفات أكثر من

الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى. لذا يستطيع سبحانه وتعالى أن يفعل مع العصاة ما توعد به وقاله طبقاً لمشيئته وإرادته. لذا روي في مسند أبي يعلى عن سيدنا أنس ﷺ أنه ورد عن رسول الله (ﷺ) أنه أخبر بأن الله سبحانه وتعالى سيوفي جزاء ما وعد به على العمل الصالح، أما ما توعد به على السوء فأمره راجع إليه"[1].

ورب قائل يقول: إذا كان رحمة الله تعالى ومغفرته للذنوب واسعة لدرجة أن العصاة أيضاً يدخلون الجنة في نهاية المطاف بعد أن يطّهروا باحتراقهم في جهنم؛ فلماذا لم يصرح لهم بهذا بدلاً من الإشارة إليه بالكناية والرمز؟ وجواب ذلك هو أنه لو فُعل مثل هذا، لما كان طيبا في حق هؤلاء المجرمين والآثمين، إذ إن هذا يخلق فيهم الرغبة فى المعصية والتمرد والغرور بدلا من الندم والتوبة، كما يخلق فيهم أيضا عدم الخوف والخشية من نتائج أعمالهم السيئة. وهذا مناف تماما للهداية والإصلاح. وعليه فقد حدد الله سبحانه وتعالى عقاباً دائما لهم، ثم جعل نجاتهم في النهاية رهن مشيئته وعلمه وإرادته حتى لا ييئسهم من ناحية ويولد فيهم من ناحية أخرى حبه والخضوع له في حالتي التمني والخشية. وهذا إصلاح عظيم في هذا الشأن كفره المسيحيون من ناحية وخربته المذاهب الهندية من ناحية أخرى.

كانت النصارى تعتقد أن كل الذنوب ستغفر مرة واحدة بالإيمان بأن يحيي سيدنا عيسى عليه السلام بعد أن يصلب. وقد اعتبر هذا الاعتقاد الأعمال شيئاً غير ضروري. وعلى النقيض من هذا اعتبرت الأديان الهندية الإله بلا اختيار لدرجة أن لا يستطيع أن يغفر ويعفو عن السيئات. فلما جاء الإسلام ساوى كفتي الميزان. فقال من جهة إن: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ (المدثر: ٣٨) وقال من جهة أخرى: ﴿**يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ**﴾ (المائدة: ١٨)

أي أن كل إنسان من الناحية القانونية بما كسب مرهون. لكن رغم وجود هذا القانون فإن الله تعالى يغفر برحمته وقدرته لمن يشاء ويعذب من يشاء، كما

---

[1] نقلاً عن شفاء العليل، لابن القيم، ص ٢٢٢، مصر.

هو الحال بالنسبة لهذه الحياة. فمع أن قوانين الله تعالى ترى فيها تلك القوانين التي نطلق عليها قوانين الطبيعة، وبالرغم من وجود هذه القوانين والتسليم بها، فإن حكم الله وإرادته فوق هذه القوانين فهو يصنع ما يشاء. وقد أنقذ تعليم الإسلام هذا الأعمال من التهميش والثانوية من ناحية ومن ناحية أخرى جعل باب رحمة الله وقدرته مفتوحاً.

سبب العذاب الطويل

يعترض بعض السفهاء ويقولون: "إن ذنب الإنسان يقع في لحظة واحدة فلما يكون عقابه طويلا على هذا النحو ؟. إن معاقبة ذنب سنة أو سنتين أو حتى ذنب العمر كله بآلاف السنين والأعوام ليس مناسباً". ومع أن هؤلاء الناس لو أمعنوا النظر في أحوال الدنيا لكفتهم للإجابة على اعتراضهم، لأن أي خطأ قانوني من أي قانون من قوانين الدنيا يقع أيضاً في لحظة واحدة. فكم تستغرق السرقة أو التزوير أو القتل؟ ومع هذا نقترح أن يسجن مرتكبها في سجوننا البشرية أعواماً عديدة. لم لا نقول إن ذلك مخالفة للعقل ؟!

والمثال الأصح لهذا هو أن الإنسان يظل مريضاً لأسابيع وشهور وأعوام عديدة بسبب أخطاء عادية تخالف قواعد الصحة، ويظل فترة طويلة يداوي خطأ لحظات معدودة. وقد يظل العمر بأكمله مصاباً بهذا المرض ثم يتوفى في نهاية المطاف وهذا يوضح أنه ليس هناك مساواة بين الذنب أو الخطأ وبين عقوبته، فتكون مدة العقوبة دائماً أطول من مدة الذنب بفترات عديدة، لكن أثرها الذي يقع على النفس يختلف طبقاً لمدة تلافيه ونوعية الخطأ وصلاحية الفطرة والأخلاق. لذلك تكون النجاة من العقاب الطويل أو مدة الشفاء متفاوتة وليست متساوية لكل العصاة. والله أعلم بحقيقة الحال.

مآل المشرك والكافر

لو صَحَّ أن النار ستخمد يوماً ما في النهاية، فهل سيستحق الكفار والمشركون أيضاً الرحمة والكرم بعد أن يطهروا من ذنوبهم؟ والجواب هو أن القرآن الكريم ورد فيه ما يدل على عدم غفران الشرك والكفر وأعلن أيضاً أن

جزاء الشرك والكفر هو العذاب المقيم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ فلا تكون منه نجاة. لكن حين يريد الله سبحانه وتعالى وتنتهي فترة جهنم فلا عجب وقتها أن ينجوا هم أيضاً منها لأن الله تعالى يقول في شأن الكفار والمشركين:

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٢٨)

فالجزء الأخير من هذه الآية خاصة يحتاج إلى تمعن وتأمل. قال: إن ربك حكيم عليم. واستعمال كلمة رب لله تعالى في هذه المناسبة تعني أن عظمة ربوبيته لو أرادت واقتضت حكمته ذلك، فإنهم سينجون من النار بعد نهايتها، لكن المشكوك فيه أنهم سيدخلون الجنة بعد ذلك. لأن القرآن الكريم صرح على لسان سيدنا عيسى وقال:

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (المائدة: ٧٢)

وقال أيضاً في آية أخرى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠)

والمقصود هو أن قانون جزاء الله تعالى المعلن يقتضي أن لا يدخلوا الجنة حتى بعد نهاية النار أيضاً. إلا أن رحمة الله تعالى ومغفرته واسعة، فهو الذي قال بنفسه عن أهل النار:

﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (هود: ١٠٧)

فمن يستطيع أن يحجم أو يقلل سعة رحمة الله، وهو الذي قال عن سعة رحمته: ﴿رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)

فهل هناك زاوية أو جهة من الأرض أو السماء محرومة من سعة رحمة الله ؟ بل الأكثر من ذلك أن الله تعالى يقول لمكذبي نبيه (ﷺ):

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٧)

أي لا يستطيع أي أحد آخر أن يرد عذاب الله عن القوم المجرمين. لكن رحمته هو واسعة إن أراد هداهم في الدنيا وأدخلهم الجنة أو أن يتوب عليهم بعد

أن يعذبهم في الآخرة التي هي محل رحمته حيث لا وجود لرحمة أخرى غير رحمته. قال تعالى:

﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ (الأنعام: ١٦)

ورد في صحيح البخاري ومسلم والترمذي أن رسول الله (ﷺ) قال«لَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ فِي الْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنِطَ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ».[1]

وقد أبرز سعدي الشيرازي هذه الحقيقة في بيتيه:

لو تسل سيف الحكم بالترهيب لبقيت الملائكة صم وبكم

ولو تعطى الدر بسخاء لقال غزازيل أريد حمل نصيبي

ويقول الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته السماوات والأرض أنه يفعل ما يريد:

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة: ١٨)

لكن مشيئته سبحانه هذه كما قال هو في الحزب ١٥ [2] من سورة الأنعام مبنية على حكمته، أي يفعل ما يريد، ولكنه سبحانه يفعل ما تقتضيه حكمته.

وقول شيء آخر أكثر من ذلك في هذا الأمر هو قول لا قيمة له كما صرح بذلك رب العالمين وليس لأحد أن يتكلم فيها. لذا فسؤال مآل المشرك والكافر ليس له جواب سوى مشيئة الله كما قال سبحانه وتعالى نفسه:

---

[1] – وردت هذه الرواية في صحيح ابن حبان، باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء المسلم من ترك القنوط من رحمة الله: (٣٤٤) أخبرنا أبو خليفة ، قال: حدثنا القَعْنَبِيّ قال: حدثنا عبدُ العزيز بن محمد ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبي هريرة أن رسولَ الله ، قال : «لَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ فِي الْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنِطَ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ» (٣:٧٢) (يوسف عامر).

([2]) الركوع مصطلح خاص بأهل شبه القارة الهندية الباكستانية، وهو يدل على مقدار ما يقرأ من آيات الذكر الحكيم في الركعة من الصلاة. ويشير المؤلف هنا إلى قوله تعالى: « **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**» (الأنعام :١٢٥)».(يوسف عامر).

﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٢٨)

رأي الجمهور

إن كل ما قيل هو رأي تلك الجماعة التي تعتقد بعموم رحمة الله تعالى. أما رأي الجمهور فيختلف عنها لأنهم يرون أن النار كالجنة ستظل باقية وأن المشركين والكافرين لن ينجوا منها أبدا.

وطبقاً لهذا الاعتقاد ينقسم العصاة إلى قسمين: أولهما أولئك الذين كانوا يؤمنون بقلوبهم. هؤلاء الناس سيدخلون الجنة في النهاية بعد فوزهم بعفو الله وكرمه سواء بعد تعذيبهم أم بدون تعذيب. القسم الثاني من العصاة هم الذين ابتلوا على الدوام بالشرك والكفر ولم يتوبوا ثم ماتوا على شركهم وكفرهم. وهؤلاء لن يغفر لهم وسيدخلون جهنم خالدين فيها، لأن معصيتهم بلغت حدا لا تكون فيه رحمة الله.

والمعاني التي استنبطها القائلون بعموم رحمة الله ليست صحيحة عند الجمهور، ويعتبرون هذه المعاني تأويلات، ويرون أن رواياتهم السابقة خالية من الصحة والقوة، ويستدلون على دعواهم بالآيات القرآنية التالية:

١. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (الأحزاب: ٦٤، ٦٥)
٢. ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (الجن: ٢٣)
٣. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (النساء: ١٦٨، ١٦٩)

فالواضح من هذه الآيات أن أنهم سيخلدون في العذاب وأن النار ستظل خالدة وإضافة لهذه الآيات توجد آيات أخرى تدل على أن عذاب جهنم لن ينقطع عن الكفار:

١. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن

يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٦، ٣٧)

٢. ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٧)

وقال عن منكري القيامة:

٣. ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (الجاثية: ٣٥)

٤. ﴿أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (الشورى: ٤٥)

وقد أطلق الظلم في القرآن الكريم على الشرك. لذا وضح أن عذاب المشركين سيظل قائماً

٥. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (البقرة: ١٦١، ١٦٢)

٦. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ (فاطر: ٣٦)

ولن يغفر على أية حال للمشركين والكافرين قال تعالى:

٧. ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: ٤٨)

٨. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (محمد: ٣٤)

لن تفتح لهم أبواب الجنة أبدا:

٩. ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (المائدة: ٧٢)

١٠. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٤٠)

وتوجد من هذا القبيل آيات كثيرة، تثبت أن من ابتلي حتى الموت بالشرك والكفر، ومات ولم يتب، لن يُغفر له، ولن يدخل الجنة، وسيُخلد في النار حيث لا يخفف عنه العذاب، ولا يقضى عليه فيموت.

جزاء الجنة وعقوبة النار أيضاً أمر تمثيلي

ذكرنا بالتفصيل آنفا عند الحديث عن عالم البرزخ، أن جزاء وعقوبة الجنة والنار سيكونان تمثيليين أو تشبيهيين. ولهذا معنيان أولهما: أنه كما يكون العمل سيكون الجزاء والعقاب مشابها ومناسبا له. فمثلاً قيل في القرآن إن من لم يعط المستحقين من مال زكاته سيسقى في جهنم صديد وقيح الجرحى. أو إن من يضحي بنفسه في سبيل الله يجد في الآخرة روحاً جديدة وحياة باقية. والغني الذي أعطى في الدنيا قصرا ومكاناً يقيه من الحر وماءً باردا ورفاهية إذا لم يؤد في الدنيا حق هذه النعم، فإنه في الآخرة سيجد هذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى في القرآن إذ قال:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (الواقعة: ٤٢- ٤٥)

وفي حديث عالم البرزخ أن رسول الله (ﷺ) رأى أناساً أنصاف أبدانهم طيبة والأنصاف الثانية خبيثة. هم الذين كانت بعض أعمالهم صالحة وبعضها طالحة. لذا برز سوء العمل في صورة القبح وحسن العمل في الحسن والطيب.

وتستنبط هذه الأصول بطريقة صريحة من هذه الأحاديث:

١. روى عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: أَيَّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِناً عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وأَيُّما مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِناً عَلَى ظَمَاءٍ سَقَاهُ الله يومَ القِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ المختوم، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِناً عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ الله مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ» (الترمذي، كتاب الزهد والرقاق، ص ٤٠٤)[1]

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة: (٢٤٩٧)حَدَّثنا محمدُ بنُ حَاتِمٍ المؤدِّبُ ، أَخْبَرنَا عَمَّارُ بنُ محمَّدٍ ابنِ أُخْتِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، أَخْبَرنَا أَبُو الْجَارُودِ الأَعْمَى وَاسْمُهُ زِيَادُ بنُ المُنْذِرِ الْهَمَدَانِيُّ ، عن عطيَّةَ العَوْفِيِّ ، عن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله : «أَيَّمَا مُؤْمِنٍ أَطْعَمَ مُؤْمِناً عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وأَيُّما مُؤْمِنٍ

٢. روى سيدنا أبو هريرة عن النبي (ﷺ) أنه قال: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مسلم كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ الله في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، والله في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخِيهِ» (الترمذي، ص ٣٢٣)[١]

٣. " الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَن " (الترمذي) [٢]

سَقَى مُؤْمِناً عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ الله يومَ القِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ المختوم، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِناً عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ الله مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ» .

قال أبو عِيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا، عن عَطِيَّةَ، عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مَوْقُوف، وَهُوَ أَصَحُّ عِنْدَنَا وَأَشْبَهُ.(يوسف عامر).

[١] – وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي، باب ما جاء في الستر على المسلم، كتاب الحدود: (١٤٢٦)حدثنا قُتَيْبَةُ. حدَّثنا أَبُو عَوَانَةَ عنْ الأعْمَشِ عنْ أبي صَالِحٍ عنْ أبي هُرَيْرَةَ ، قالَ قَالَ رَسُولُ الله : «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مسلم كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ الله في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، والله في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخِيهِ» .

قال وفي الْبَابِ عنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ و ابنِ عُمَرَ.

قال أبو عيسى حَدِيثُ أبي هُرَيْرَةَ هَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ عنْ الأعْمَشِ عنْ أبي صَالِحٍ عنْ أبي هُرَيْرَةَ عن النبيِّ نَحْوَ رِوَايَةِ أبي عَوَانَةَ وروَى أَسْبَاطُ بنُ مُحَمَّدٍ عنْ الأعْمَشِ قَالَ حُدِّثْتُ عَنْ أبي صَالِحٍ عنْ أبي هُرَيْرَةَ عنْ النَّبيِّ نَحْوَهُ وكان هذا أصح من الحديث الأول.

حدثنا بِذَلِكَ عُبَيْدُ بنُ أَسْبَاطِ بنِ مُحَمَّدٍ قَالَ حدثني أبي عنْ الأعْمَشِ بِهَذَا الْحَدِيثِ.(يوسف عامر).

([٢]) وهذا نصه كاملا: (١٩٢٨)حدَّثنا ابنُ أبي عُمَر ، حدثنا سُفْيَانُ عن عَمْرِو بنِ دِينَارٍ عن أبي قَابُوسَ عن عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو ، قالَ: قال رَسُولُ الله : «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّمَاءِ. الرَّحِمُ شِجْنَةٌ مِنَ الرحمنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ الله وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ الله» .

قال أبو عِيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر). وورد فى مسند أحمد بن حنبل: (٦٤٧٨)حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا سفيان ، عن عَمرو ، عن أبي قَابوسَ ، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص، يَبْلُغُ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم، قال: «الرَّاحِمونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحمن، ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّماءِ، والرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَن، مَنْ وَصَلَها وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطعها بَتَّتْه» . (يوسف عامر). كما ورد فى سنن أبي داود: (٤٩٣٧)حدثنا مُسَدَّدٌ وَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ المَعْنَى قالاَ أخبرنا سُفْيَانُ عن عمْرٍو عن أَبِي قَابُوسَ مَوْلَى لِعَبْدِ الله بن

المعنى الثاني للتمثيل هو أن هذه الأمور المعنوية وغير المجسمة ستظهر في صورة حسية مجسمة فمثلاً:

١. قيل في القرآن الكريم: «**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً** »(الإسراء: ٧٢) انظر إن العمى المعنوي للدنيا سيظهر في الآخرة في شكل عمى ظاهري بين.

٢. ورد في الحديث «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرجال، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»[١] انظر سيكون جزاء التكبر الذل والمهانة، ولأنه لا يوجد أحقر ولا أذل من النمل لذا سيحشرون على هيئة النمل.

٣. كذلك قال النبي (ﷺ):«مَن آتاهُ الله مالاً فلم يُؤد زكاتَه مُثِّلَ له ماله شُجاعاً أقرَعَ» [٢] فقد أخذت صفة بخله شكل ثعبان يكون سبب عذابه. كذلك قال

عَمْرٍو عن عَبْدِ الله بن عَمْرٍو يَبْلُغُ بِهِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم: « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أهْلَ الأرْضِ يَرْحَمْكُم مَنْ في السَّماءِ» لَمْ يَقُلْ مُسَدَّدٌ مَوْلَى عَبْدِ الله بن عَمْرٍو، وقالَ قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم. (يوسف عامر).

[١] الترمذي، كتاب الزهد والرقاق، ص ٤١٠. وهذا نصه كما ورد في باب: في يوم القيامة: (٢٥٤١)حدّثنا سُوَيْدُ بنُ نَصْرٍ ، أخبرنا عَبْدُ الله بن المُبَارَكِ ، عَنْ مُحمَّدِ بنِ عَجْلاَنَ ، عن عَمْرِو بنِ شُعَيْبٍ ، عن أَبيهِ ، عن جَدِّهِ ، عن النبيِّ قَالَ: «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرجالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إلَى سَجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَس تَعْلُوهُمْ نَارُ الأنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ» .

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

وورد في مسند أحمد: (٦٦٥٩) حدّثنا عبد الله ، حدّثني أبي ، ثنا يحيى ، عن ابن عجلان ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولس، فتعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال، عصارة أهل النار». (يوسف عامر).

[٢] صحيح البخاري وألفاظ الحديث هي: مثل له ماله شجاعا أقرع. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب « ولا يحسبن الذين يبخلون»، كتاب التفسير: (٤٤٤٧) حدَّثني عبدُ اللَّهِ بن مُنيرٍ سمعَ أبا النَّضرِ حدَّثنا عبدُ الرحمن هو ابنُ عبدِالله بن دينارٍ عن أبيه عن أبي

النبي (ﷺ): «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ مسألةً وَهُوَ عَنْهَا غَنِيٌّ كَانَتْ شَيْنًا في وجهِهِ».[1] انظر لقد ظهر عدم الحياء والخجل في الدنيا في شكل وجه بلا لحم. وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ، يَمِيلُ مَعَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ»[2] لقد ظهر عدم أداء حق أحداهن في شكل تمثيلي وهو الجنب المفلوج.

هذه الاقتباسات التي ذكرت يجب أن تقاس عليها الجزئيات الأخرى للثواب والعقاب ويجب تمعن الآيات التالية لفهم هذه القضية جيدا:

صالحٍ عن أبي هريرةَ قال: «قال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَن آتاهُ الله مالاً فلم يُؤد زكاتَه مُثِّلَ له مالُه شُجاعاً أقرَعَ له زَبيبتان يُطوّقهُ يومَ القيامة، يأخذُ بلِهْزِمتيهِ ــ يعني بشدقَيهِ يقول: أنا مالكُ، أنا كَنزُك. ثمَّ تلا هذه الآية {ولا يَحسبنَّ الذين يَبخلون بما آتاهُمُ الله من فضلِهِ} (آل عمران: ١٨٠) إلى آخرِ الآية».(يوسف عامر).

[1] – وهذا نصه في سنن الدارمي: (١٦٥١) أخبرنا محمدُ بنُ عبدِاللَّهِ الرقاشيُّ ، ثَنَا يزيدُ هُوَ ابنُ زريعٍ، نَا سعيدٌ عنْ قتادَةَ عنْ سالمِ بنِ أبي الجعد ، عنْ معدانَ بن أبي طلحةَ ، عنْ ثوبانَ مولَى رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ مسألةً وَهُوَ عَنْهَا غَنِيٌّ كَانَتْ شَيْنًا في وجهِهِ». (يوسف عامر).

وورد في صحيح مسلم: (٢٣٥٢) حدّثنا أَبُو كُرَيْبٍ وَ وَاصِلُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَىٰ. قَالاَ حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ عَنْ عُمَارَةَ ابْنِ الْقَعْقَاعِ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّراً، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً. فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ». (يوسف عامر).

وورد في صحيح ابن حبان: (٣٣٥٩) أخبرنا أبو يعلى ، قال: حدَّثنا أبو بكر بنُ أبي شَيْبَةَ، قال: حدَّثنا ابنُ فُضَيْلٍ ، عن عُمَارَةَ بنِ القعقاعِ ، عن أبي زُرْعَةَ عن أبي هُرَيْرَةَ ، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ : «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُمْ، أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ».(٢:٦٢) (يوسف عامر).

[2] الترمذي. وقد وردت هذه الرواية في سنن ابن ماجه، باب القسمة بين النساء، كتاب النكاح: (٢٠٢٦) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ النَّضْرِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ بَشِيرِ بْنِ نَهِيكٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ، يَمِيلُ مَعَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ».(يوسف عامر).

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى» (طه: ١٢٤ – ١٢٦)

انظر لقد ظهر عمى قلوبهم الدنيوي في الآخرة في شكل عمى ظاهري وبرز نسيانهم لله ولأوامره في الدنيا في شكل نسيانهم من رحمة الله في الآخرة.

عقوبات جهنم الجسدية

توجد في جهنم عقوبات جسدية، وأخرى معنوية. والعقوبات الجسدية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي كالتالي:

١. ورد ذكر لهيب جهنم وحرقها مراراً عديدة. بل إن الاسم الثاني لجهنم هو النار ومن معانيها أيضاً السعير أي النار الحارقة. وورد قوله تعالى "عذاب الحريق" في بضع مواضع فمثلاً يقول تعالى في موضع ما:

﴿تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٤)

وسقر أحد أسماء جهنم. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٧ – ٢٩)

﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى (*) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ (المعارج: ١٥، ١٦)

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ (المرسلات: ٣٢، ٣٣)

٢. لن يكون فيها ظل بل أمران:

﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (المرسلات: ٣٠، ٣١)

٣. لا يكون فيها برد:

﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً﴾ (النبأ: ٢٤)

٤. لا يكون فيها موت حتى يريح ولا حياة حتى لا يكون فيها سعادة: قال تعالى في موضعين:

﴿لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ (طه: ٧٤ ،الأعلى: ١٣)

٥. يسقون ماء حميما تقطع منه أمعاؤهم:

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد: ١٥)

٦. ويشربون غساقا: ﴿إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً﴾ (النبأ: ٢٥)

٧. يصب من فوقهم الحميم: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ﴾ (الحج: ١٩)

٨. يأكلون من شجرة الزقوم:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الحَمِيمِ﴾ (الدخان: ٤٣ – ٤٦)

٩. لا يكون طعامهم إلا من الضريع الذي لا يفيد الجسم شيئاً: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ (الغاشية: ٦، ٧)

١٠. لا يكون الطعام إلا من غسلين (الصديد):

﴿وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ﴾ (الحاقة: ٣٦)

١١. ولا يهضم الطعام: ﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ﴾ (المزمل: ١٣)

١٢. ويكون اللباس من النار:

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ (الحج: ١٩)

١٣. تساقط مقامع من حديد:

﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (الحج: ٢١)

١٤. في الأعناق أطواق وسلاسل:

﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (غافر: ٧١)

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً﴾ (الإنسان: ٤)

﴿مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ (إبراهيم: ٤٩)

العقوبات المعنوية في جهنم

ستكون في جهنم عقوبات معنوية أيضاً إضافة لهذه العقوبات الجسدية. بل إن العقوبات المعنوية ستكون كما يرى أهل النظر أشد وأصعب من الجسدية؛ لأن نار جهنم التي مر ذكر حرها ولهيبها آنفا ستذل الأفئدة قال تعالى

﴿نَارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ (الهمزة: ٦، ٧)

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ﴾ (يونس: ٥٤)

﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦)
﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ (الحج: ٢٢)

عذاب المذلة

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ (الأحقاف: ٢٠)

والأكثر من هذا الأسى والحسرة والندامة أنهم لا يؤذن لهم حتى يعتذروا:

﴿لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ (التحريم: ٧)

ولا يحصلون على شرف مخاطبة الله عز وجل وحين يريدون الحديث يقول الله لهم:

﴿لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ (المؤمنون: ١٠٨)

والأدهى من هذا أنهم يحرمون من رؤية ربهم:

﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين: ١٥)

ومن كان منهم قد نسى الله تعالى في الحياة الدنيا يُنسى يوم القيامة من رحمة الله ولطفه قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ (طه: ١٢٦)

وسيكون أيضاً من بين أهل النار من سيحرمون من نظر الله تعالى إليهم فلا ينظر الله إليهم ولا يكلمهم ولا يزكيهم. وهذه في الحقيقة هي قمة غضب رب العالمين سبحانه وتعالى ويستطيع أن يشعر بإحساس الألم المشتاقون والمحبون لربهم. قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٧٧)

الجنة

أسماء الجنة

الجنة اسم للمستقر الدائم للصالحين. جاءت في الغالب في القرآن الكريم مفردة بلفظ الجنة، ووردت أحيانا مضافا مثل جنة النعيم وجنة الخلد وجنة عدن وجنة المأوى. وقد عبر عنها أيضاً بكلمات أخرى مثل فردوس وروضة ودار الخلد ودار المقامة ودار السلام.

دوام الجنة

تمتلئ هذه الحياة الدنيا التي نعيشها هي الأخرى بالملذات والمسرات. لكن الشيء الذي لا يوجد هنا هو الخلد. ففي هذه الحياة كل لذة عارضة وكل مسرة فانية. فلا توجد في الحياة فرحة لم يعقبها حزن وألم، فهنا مع كل وردة أشواك ومع كل ضوء ظلام، ومع كل موجود فناء فبعد كل شبع يكون جوع وبعد الارتواء يأتي عطش وبعد كل غنى احتياج. فالإنسان يشاهد بعد آلاف المشاكل والصعاب والصدمات منظرا مفرحا ورسالة مسعدة، ولكنه ما يلبث أن يفرح بهذا المنظر والرسالة إلا وتنتهي. المقصود أن كل شيء في هذه الحياة فانٍ. وهذا أكبر عيب فيها.

أما الجنة فهي تلك المملكة التي تكون فيها اللذات خالدة والمسرات غير فانية، فيها حياة بلا موت وراحة بلا تعب ولذة بلا ألم وفرحة بلا حزن وسكون بلا اضطراب وسعادة بلا حسن ولا نصب. والصورة التي كان الشيطان صورها للجنة أمام سيدنا آدم كانت صورة صحيحة تماما. لقد قال له: يا آدم:

﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ (طه: ١٢٠)

لكنه أسمعه هذا الوصف وأخبره بطريق الطرد. حيث بَيَّن له شجرة الموت وبلد الفناء وكان هذا هو الفخ الذي وقع فيه آدم. لذا كان الشيء الذي أكله للوصول لهذه الحياة الفانية بمثابة السم أي ثمرة أو شجرة المعصية. فكانت نتيجة ذلك أن أصبحت الجنة جزاء له وللصالحين من ذريته. لذا قال تعالى:

﴿جَنَّةُ الخُلْدِ التِي وُعِدَ المُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾ (الفرقان: ١٥)

جنة الخلد هذه هي المملكة غير الفانية حيث الراحة الدائمة والسلامة الخالدة واللذة إلى لا تنقضي والحياة الباقية والسرور الدائم والرفاهية التي لا تنتهي. وقد صرح بهذا بطرق مختلفة في ست عشرة آية من القرآن الكريم قال تعالى:

١. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ (النساء: ١٢٢)

انظر لهذا التأكيد وطريقة التعبير المليئة بالتأكيد. فلم يكتف بقوله ﴿خَالِدِينَ﴾ بل ذكر بعدها لفظ أبداً فأكد بذلك أن هذا الخلود غير منقطع ودائم. ولم يكتف بهذا فحسب بل قال ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً﴾ ثم أضاف تأكيدا آخر وهو قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ ويمكن أن يفهم من هذا مدى الجزم بخلود ودوام الجنة.

٢. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (النساء: ٥٧)

٣. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (المائدة: ١١٩)

٤. ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (*) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (التوبة: ٢١، ٢٢)

٥. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (التوبة: ١٠٠)

٦. ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (التغابن: ٩)

٧. ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ (الطلاق: ١١)

٨. ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ (البينة: ٨)

هذه هي الآيات التي بُشر فيها أهل الجنة بالخلود الأبدي والدائم للجنة.

وبالإضافة لهذه الآيات توجد آيات أخرى أخبر فيها أن راحة الجنة وملذاتها باقية خالدة. قال تعالى:

٩. ﴿وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ (الكهف: ٢، ٣)

وقال في سورة ص بعد ذكر أكثر نعم الجنة:

١٠. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ (سورة ص: ٥٣، ٥٤)

١١. ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (هود: ١٠٨)

أي لن يستطيع أن يخرجهم من الجنة أحد سوى مشيئة الله تعالى. لكن الله تعالى أراد أن يكون عطاؤه هذا لهم غير منقطع لذا قال عطاء غير مجذوذ.

١٢. ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة: ٢١)

١٣. ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد: ٣٥)

١٤. ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ (الواقعة: ٣٢، ٣٣)

١٥. ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: ٦)

ولفناء الراحة وانقطاع المسرة صورتان أولهما أن تنتهي وتزول أسباب الراحة والمسرة، والثانية أن تنتهي وتنقضي حياة اللذة نفسها. وقد نفيت الصورة الأولى في الآيات السابقة لأن أسباب الراحة والمسرة لا تنتهي ولا تنقضي هناك. والصورة الثانية نفاها قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ وقيل في أحد المواضع صراحة إنه لا موت في الجنة قال تعالى:

١٦. ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلاَّ المَوْتَةَ الأُولَى﴾ (الدخان: ٥٦)

لكن هناك صورة ثالثة ممكنة وهي أن تظل أسباب المسرة باقية وتظل حياة أو عمر الجنة ممدودا لكن يُخرج منها أهل الجنة بعد بضع أيام. لكن الله تعالى صرح أن هذا أيضاً ليس ممكناً، لأنه لا يمكن لأحد أن يخرج أهل الجنة من الجنة قال تعالى:

﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٨)

ويمكن أيضاً أن يمل أهل الجنة الجنة، ويخرجوا هم بأنفسهم منها، لكن الله تعالى قال إنهم هم أنفسهم لا يبغون عنها حولا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ (الكهف: ١٠٨)

ويتضح ويُستنبط من التأكيد مراراً وتكرارا على الدوام والخلود وعدم الانقطاع أن الصفة المميزة للجنة هي دوام أسباب الراحة والرفاهية وبقاء المسرة والبهجة وخلود الحياة. هذه هي الحقيقة التي أغوى بها الشيطان سيدنا آدم في الملك الخالد حين قال له ﴿وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ (طه: ١٢٠) فأخرجه بهذه الحيلة من عالم البقاء إلى عالم الفناء، لكن في النهاية سيأتي وقت يرث فيه أولاد آدم وذريته بفضل أعمالهم هذه المملكة الخالدة للأبد.

الملك الذي لا يفنى

إن أعلى وأسمى فكر للراحة والرفاهية الشخصية في الدنيا يمكن أن يترجم في لفظ ملك. فليس هناك لفظ أفضل من هذا اللفظ لتبشير الإنسان بتحقيق أحلامه وأمانيه. فكأن الملك اسم لهذه الكيفية التي لا يمكن أبداً أن لا تتحقق فيها أماني الإنسان. ولا تقل منها الفرحة والبهجة أبداً بسبب توافر أسباب الراحة والسعادة. ففيها قصور عالية، وبساتين مثمرة، وأنهار جارية وأرائك مطروحة، وحلي ذهب وفضة، وآنية من ياقوت ومرجان، وخدم وحشم، وثياب من حرير وقلائد من ياقوت، وأساور من ذهب، وكؤوس من زمرد وبلور، وحور عين، وغير ذلك من اللوازم الضرورية للجنة، وأكثر أوصاف الجنة اختصاراً وصدقاً هو الذي قاله عدو آدم عليه لعنة الله حين قال: ﴿ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ (طه: ١٢٠)

وقد استعمل الأنبياء ألفاظاً متعددة للسعادة والنعيم الخالد للحياة الآخرة، فقد استخدم سيدنا عيسى (عليه السلام) لذلك مصطلح الملك السماوي. عُبّر عن هذا المعنى في الاستعارات الحديثة بهذا اللفظ. وكما قيل مرارا إن الذي تربى وترعرع في حضن المادة والطبيعة لا يمكن أن يفهم مصطلح المعنوية والروحانية بلوازمها وما فيها، لأن هذا بعيد عن فهم الإنسان لذا لن يفهمها إلا بأفكاره الموروثة. وقد رفع سيدنا عيسى عليه السلام بقوله الملك اللفظ عن عالم المادة. لكن لا يمكن أن تكون الأفكار واللوازم المرتبطة بهذا اللفظ بعيدة، لأن سيدنا عيسى قد ذكر اللطف والمسرة المادية للملك السماوي في الليلة الأخيرة له حين أراد الحواريون أن يملئوا له كأساً بهذه الطريقة فقال:

"وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي" (إنجيل متى، إصحاح ٢٦ ،فقرة ٢٩)

فقد رأى عليه السلام أنه سيوجد في الملك السماوي لأبيه شراب العنب هذا. وحين رأى يوحنا الحواري حلم الملك السماوي تراءت له قصور الذهب والفضة وأنهار ماء الحياة وجدران الجواهر (رؤيا يوحنا باب ٢، ٢٢)

"ولا يكون ليل هناك ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس لأن الرب الإله ينير عليهم وهم سيملكون إلى أبد الآبدين"(رؤيا يوحنا، إصحاح٢٢، فقرة ٥)

إلا أن هذا الملك كان لا يزال يحتاج لتفسير في الرسالة العيسوية. فجاءت رسالة آخر النبوات وفصلت هذا الإجمال في هذه الألفاظ:

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ (الإنسان: ١١- ٢٢)

هذه صورة كاملة لهذا النعيم والسرور الذي يمكن أن يتخيل عن القصور الملكية لتلك الدار. ويؤكد هذا البيان هذا الحديث الذي رواه سيدنا مغيرة (ﷺ) في جامع الترمذي عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «إِنَّ مُوسَى عليه السلام سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ أي رَبِّ أَيُّ أَهْلِ الجَنَّةِ أَدْنَى مَنْزِلةً، قَالَ رَجُلٌ يَأْتِي بَعْدَ مَا يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجنَّةَ فيُقَالُ لَهُ ادْخلْ. فيَقولُ كَيْفَ أَدْخُلُ وقَدْ نَزَلُوا مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذاتِهِمْ؟ قَالَ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مَا كَانَ لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ قَدْ رَضِيتُ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ هَذَا ومِثْلَهُ ومِثْلَهُ وَمِثْلَهُ، فَيَقُولُ رَضِيتُ أَيْ رَبِّ،

فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ هَذَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهِ، فَيَقُولُ رَضِيتُ أَيْ رَبِّ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَعَ هَذَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ» (١).

استعارة الجنة

كثيرا ما استعمل القرآن الكريم لفظ جنة وأحياناً روضة لمكان نعيم وراحة الآخرة. ويرى بعض الجهلاء أن السبب في هذا هو أن منتهى تمني العرب الذين كانوا يسكنون الصحاري واليابس كانت جنات وحدائق خضراء يانعة، لذا استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ لذاك المكان الأخروي. لكن يجب أن نفهم أن القرآن الكريم لم يخاطب العرب فحسب بل خاطب كل العالم. لذا فإن تخصيص العرب بهذا يُعتبر لغوا، أو ليست البساتين الخضراء اليانعة محببة لسكان البلدان الخضراء ؟! الحقيقة هي أنه ليس هنا تخصيص للصحاري والبساتين، بل إن هذه هي صورة الفطرة البشرية، فالإنسان حيثما يعيش في أي مكان من الأرض يعتبر المناطق الخضراء والأنهار والشواطئ هي مكان الراحة والسعادة، لذا تسعد وتهدأ روحه من الداخل حين يراها.

الأمر أو النقطة الأخرى التي تحتاج لاهتمام أيضاً في استعمال هذه الاستعارة هي أن بيت الإنسان هو مسكنه الذي يكون فيه حزن وألم، إذ إن قلب الإنسان ينشغل بأفكار الأهل والأولاد والمال، لكن حين يذهب الإنسان للتنزه في الحديقة أو البستان فإنه ينسى غمه هذا قليلاً ويُفرغ قلبه من كل الارتباطات،

---

(١) جامع الترمذي، تفسير سورة السجدة. (حديث حسن صحيح) وهذا نص الحديث: (٣٣١٨) حدثنا ابنُ أَبِي عُمَرَ ، أخبرنا سُفْيَانُ عَنْ مُطَرِّفِ بنِ طَرِيفٍ وعَبْدِ الملكِ هُوَ ابنُ أَبْجَر سَمِعَا الشَّعْبِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ ، عَلَى المِنْبَرِ يَرْفَعُهُ إلى النبيِّ يَقُولُ: «إنَّ مُوسَى عليه السلام سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ أي رَبِّ أَيُّ أَهْلِ الجَنَّةِ أَدْنَى مَنْزِلَةً، قَالَ رَجُلٌ يَأْتي بَعْدَ مَا يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجنةَ فيُقَالُ لَهُ ادْخُلْ. فيقولُ كَيْفَ أَدْخُلُ وقَدْ نَزَلُوا مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذاتِهِمْ؟ قَالَ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مَا كَانَ لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ قَدْ رَضِيتُ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ هَذَا ومِثْلَهُ ومِثْلَهُ وَمِثْلَهُ، فَيَقُولُ رَضِيتُ أَيْ رَبِّ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ هَذَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهِ، فَيَقُولُ رَضِيتُ أَيْ رَبِّ، فَيُقَالُ لَهُ: فإنَّ لَكَ مَعَ هَذا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ» . قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. ورَوَى بَعْضُهُم هَذَا الحَدِيثَ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ المُغِيرَةِ وَلَمْ يَرْفَعْهُ، والمَرْفُوعُ أَصَحُّ.(يوسف عامر).

ويسعد ويفرح لأنه بعيد عن مظاهر الحزن والألم. لهذا استعمل الوحي المحمدي – على صاحبه أفضل الصلاة والسلام – هذا اللفظ حتى يصور بدقة النعيم والفرحة والسعادة وراحة البال الأخروية.

الأسماء الدنيوية لنعيم الجنة

ذكرتُ هذه الحقيقة وكررت مراراً، وهي أن تلك النعم الأخروية التي ذكرت بألفاظ دنيوية ليست هي النعم الدنيوية التي اعتدنا عليها، لكن سميت هذه الأشياء والنعم الأخروية بها لأنها تشابهها. مع أن النعم الأخروية أعلى وأسمى منها بمراحل. لذا قال القرآن الكريم:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة: ٢٥، ٢٦)

بالنظر إلى سياق ونظم وترتيب هذه الآيات تتداعى في ذهني هذه المعاني، وهي أن فيها تشابها بين الألفاظ الدنيوية والمفاهيم الأخروية. وإلا فالحقيقة أن النسبة بين الاثنين يمكن أن تكون كالنسبة التي بين الباعوضة وبين شيء ضخم الجثة. لهذا السبب قال القرآن الكريم عن ملذات ونعيم الجنة أيضاً **﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧)**

ولأن قرة العين هذه أي حالة، اللذة والراحة أعلى بكثير من التخيل والفكر الدنيوي لذا قيل إن لذة ونعيم الدنيا لا تعلمه نفس. وهذا ما قاله النبي (ﷺ) في قوله:

«قال اللهُ: أعدَدتُ لِعبادي الصالحينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطرَ على قلبِ بَشَر» [1].

---

[1] صحيح البخاري باب كلام الرب وتفسير سورة السجدة، صحيح مسلم كتاب الجنة والترمذي وتفسير السجدة.وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣١٧٤)حدّثني الحُميديُّ حدَّثنا سفيانُ حدّثنا أبو الزِّنادِ عنِ الأعرجِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ

فلو فهمنا حقيقة حدائق الجنة وأنهارها وثمارها وشرابها وحريرها وآنيتها بالمعنى اللغوي لهذه الألفاظ الدنيوية لما قال الله تعالى: **أعدَدتُ لِعبادي الصالحينَ ما لا عَينٌ رأتْ** ولما بلغ النبي (ﷺ) في وصفها بقوله «فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» [1]. والتأكيد الثاني في الرواية الثانية التي يقول فيها: **بَلْهِ ما أُطلِعْتُم** [2]

وقد وردت هذه الألفاظ في رواية صحيح مسلم[3]. ويمكن أن يكون لقوله هذا معنيان: أولهما أن الله لم يطلعكم عليه، والثاني أنها

صلى الله عليه وسلم: «قال اللهُ: أعدَدتُ لِعبادي الصالحينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطرَ على قلبِ بَشَر. فاقرؤوا إن شِئتم: {فلا تَعلمُ نَفس ما أخفِيَ لهم من قُرَّةِ أعيُن} (السجدة: ١٧). (يوسف عامر).

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٧٠٨٤) حدثنا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ وَ هَارُونُ بْنُ سَعِيدٍ الأَيْلِيُّ. قَالاَ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْب. حَدَّثَنِي أَبُو صَخْرٍ أَنَّ أَبَا حَازِمٍ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ ، يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللّهِ مَجْلِساً وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ. حَتَّىٰ انْتَهَىٰ. ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ: «فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» ثُمَّ اقْتَرَأَ هٰذِهِ الآيَةَ: {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٢٣السجدة الآيتان: ٦١ ، ٧١).(يوسف عامر).

[2] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين»، كتاب التفسير: (٤٦٦٢) حدَّثني إسحاقُ بن نصرٍ حدَّثنا أبو أُسامةَ عنِ الأعمشِ حدَّثَنا أبو صالح عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم «يقولُ اللّهُ تعالى: أعدَدتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلبِ بشر، ذُخراً من بَلْهِ ما أُطلِعتُم عليه. ثم قرأ {فلا تَعلمُ نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أعينٍ، جَزاءً بما كانوا يعلمون}».(يوسف عامر).

[3] - وهذا نصها: (٧٠٨٣) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ أَبُو كُرَيْبٍ قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ. ح وَحَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ وَاللَّفْظُ لَهُ. حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ

أكثر مما قاله الله وبينه، والمقصود أنها أسمى من تلك الألفـاظ التـي تفهمونها. وقد نقل أصحاب التفاسير عن ابن عباس قولـه الـذي ورد بسنده:

"وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن ابن طبيان عـن ابـن عباس لا يشبه شيئا مما في الجنة ما في الدنيا إلا فى الأسماء"[١]

ونص الرواية الثانية هو:

"ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء"[٢].

المقصود أنه يجب ألا نفهمها على أنها كالأشياء الدنيويـة بـل، إنها أعلى وأسمى منها بمراحل عديدة، ولكن لم تكن هناك وسيلة أخرى للتعبير عنها إلا بهذه الألفاظ الدنيوية. ومع ذلك لم تؤد هذه الألفاظ نفس المفهوم. وليس السبب في ذلك هو عدم قدرة أو عجز كلام الله تعـالى والعياذ بالله، بل بسبب عجز وقصر العقل البشري عن فهم هذه المفاهيم التي لم تراها العين أو تسمع عنها الآذان أو تخطر بالقلب، لذا لم تكـن هناك ألفاظ أخرى للتعبير عنها.

سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. ذُخْراً. بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللّهُ عَلَيهِ». ثُمَّ قَرَأَ: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}.(يوسف عامر).

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري، الآية المذكورة، والبيهقي في البعثة كما في الـدر المنثور للسيوطي تفسير الآية المذكورة.

نعيم الجنة يطابق الأعمال

أشرنا مرارا إلى أن عذاب النار ونعيم الجنة كليهما يطابقان ويشبهان الأعمال البشرية. لذا قال القرآن الكريم بصراحة تامة أن:

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور: ١٦)

وورد في الحديث أن الله تعالى يقول يوم القيامة «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ. ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ. وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». [١]

فالصالحون الذين كانوا في الدنيا يخشون الله تعالى، ويخافون عذابه حين يجدون في الجنة إضافة للأمن والطمأنينة وسائر أنواع الراحة يقولون:

﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (الطور: ٢٦، ٢٧)

---

[١] وهذا نصه كما ورد فى صحيح مسلم باب بر الوالدين: (٦٥٢٤) حدّثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ بَهْرَامَ الدَّارِمِيُّ. حَدَّثَنَا مَرْوَانُ يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ الدِّمَشْقِيَّ. حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ عَنْ أَبِي ذَرَ عَنْ النَّبِيِّ . فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً. فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ. فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ. فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ. فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً. فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي. وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ. مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي. فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ. مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ. ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا. فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ. وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيُّ، إِذَا حَدَّثَ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ، جَثَا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ. (يوسف عامر).

وضح تماما من هذه الآية أن الذين كانوا يخشون غضب الله في الدنيا، سيقون عذاب السموم في الآخرة، فشبه الغضب بالسموم. فانظر إلى الذين كانوا يخشون غضب الله في الدنيا، لقد بشروا بوقايتهم من نار السموم يوم القيامة.

وكان الأغنياء والأقوياء من الكفار حين يرون المسلمين الفقراء في الدنيا يسخرون منهم. لكن يوم القيامة سيختلف الوضع إذ سيُضحك عليهم هم. قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: ٢٩ – ٣٤)

فقد بدلت دموع الصالحين التي كانت في الدنيا إلى ضحك وسرور في الآخرة وبدلت ضحكات المجرمين في الآخرة إلى دموع.

والمذنبون الذين كانوا يعيشون في الدنيا متلذذين بمالهم وقوتهم سعداء مع أهلهم وعيالهم سيكونون تعساء في الآخرة. والذين كانوا في الدنيا تعساء سيكونون في الآخرة سعداء

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (١١) وَيَصْلَى سَعِيراً (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ (الانشقاق: ١١ – ١٣)

والصالحون الذين كانوا يعيشون في الدنيا مع أهلهم وهم على غير علم بالمسرة ولم يذوقوها سيكونون في الآخرة كما قال تعالى عنهم: **﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ (الانشقاق: ٨، ٩)**

وقد تكررت في القرآن الكريم هذه الآيات وآيات أخرى بنفس المعنى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (البقرة: ٢٥)

فقد قابلت الجنات وأنهارها في هذه الآيات الإيمان والعمل الصالح. ومن هنا يعتقد أن بينهما مماثلة ما معينة. وواضح أن الأشجار هي الأشياء الأصلية التي تنمو وتترعرع بالماء. هكذا الإيمان أصل تنمو فروعه بماء الأعمال

الصالحة. فإن كان هناك إيمان ولم تكن هناك أعمال صالحة كان ذلك مثل الشجرة التي لا يرجى نموها وإن وجدت الأعمال الصالحة بدون الإيمان لكان ذلك مثل جريان الماء في الصحراء. وبهذا التمثيل يرد في الذهن قول الله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٣ – ٢٥)

فهناك تمثيل في هذه الآية للجنة وشجرة الكلمة الطيبة. وفي الآية تقابل فحين قال في الأولى أنهم سيخلدون في هذه الجنات بإذن ربهم قال في الثانية أن هذه الشجرة ستظل تؤتي أكلها بإذن ربهم.

والمراد بالكلمة الطيبة هنا الإيمان[١] الذي تكون جذوره قوية ثابتة وفروعه في السماء وثمره دائم.

ورد في صحيح البخاري أن سيدنا عثمان بن مظعون ﷺ أحد صحابة رسول الله (ﷺ) لما توفي رأت إحدى جاراته في المنام أن نهرا يجري، فلما علمت أن هذا النهر هو نهر سيدنا عثمان ذهبت لرسول الله (ﷺ) وقصت عليه الرؤية فقال النبي (ﷺ): «**ذلك عمله**».[٢](البخاري، كتاب التعبير).

يتضح من هذين الاقتباسين أن الإيمان شبه بالشجرة الطيبة والعمل بالأنهار وعلى هذا فالجنات والأنهار الجارية التي يشربها أهل الجنة هي في الحقيقة شكل تمثيلي لإيمانهم وعملهم الصالح، فسيظهر إيمانهم في شكل جنة دائمة الخضرة، وتظهر أعمالهم الصالحة في صورة أنهار شفافة صافية يتلذذون ويستمتعون بها.

---

[١] تفسير ابن جرير الطبري تفسير الآية المذكورة.

[٢] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب رؤيا النساء، كتاب التعبير: (٦٨٥٢) حدثنا أبو اليمانِ أخبرَنا شعيبٌ عن الزهريِّ بهذا وقال: «ما أدري ما يفعلُ به» قالت: وأحزَنني فنمتُ، فرأيت لعثمانَ عَيناً تجري، فأخبرتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ذلك عملُه». (يوسف عامر)

وعلى هذا القياس يمكن شرح حقيقة ملذات الجنة ومسراتها الأخرى. كتب أحد كبار الواقفين بالعلوم النبوية وأبرز العارفين بأسرار الشريعة شاه ولي الله الدهلوي في كتاب "الحجة البالغة" فيقول:

"وأكثر الوقائع الحشرية من هذا القبيل وبالجملة فتشبهيات وتمثيلات لما عندها وتتشبه النعمة بمطعم هنئ ومشرب مريئ ومنكح شهي وملبس رضي ومسكن بهي" (الحجة البالغة، ص ٣٦، الهند)

أوردنا مراراً من قبل وبأدلة من القرآن والسنة، معاني هذا التمثيل والتشبيه، وكيف تجسم هذه المعاني غير المجسمة في قالب مناسب لها. وإذا استعرضنا كل أنواع الأعمال الصالحة في الدنيا لوجدناها على ضربين: الأول الإيمان بالله وإطاعته بإخلاص، وهذا ما نعبر عنه بحقوق الله. الضرب الثاني حسن معاشرة خلق الله. وحسن معاشرة خلق الله تعني احترامهم واحترام حرمتهم، وهذا ما نقول عنه عفة وعصمة، وكذلك مساعدتهم في تهيئة ضروريات حياتهم من مأكل ومشرب وملبس ومسكن، وهذا كله نسميه حسن السلوك معهم. الآن أصبحت هذه أقسام خمسة. وتتوقف على هذه الأقسام أو الأنواع الخمسة نعم وملذات الجنة، إذ سيجري الله تعالى بنفسه عن الإيمان والإخلاص والطاعة، وذلك بأن يقربهم منه وينظر إليهم. وسيكون جزاء العفة والعصمة في شكل حور عين، ويكون جزاء إطعام الآخرين أكل أنواع عديدة ومتنوعة من ثمار الجنة.

وسيكون جزاء سقى الآخرين شراباً طهورا، وجزاء إلباس الآخرين لباسا حريرا. وجزاء إسكان الآخرين مسكناً كريما طيبا.

ومن ناحية أخرى انظر إلى الوصف الذي وصف الله به الجنة لسيدنا آدم فقال:

﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾ (طه: ١١٨، ١١٩)

هذه هي الضروريات البشرية الأربعة التي اتسعت وأصبحت دنيا. وحين تنجى ذرية آدم بفضل أعمالها الصالحة، ستكون لهم هذه الجنة، والتي لا يكون فيها جوع ولا ظمأ، ولا عري ولا ضحى. ويمكن أن تتحقق هذه الحقيقة

بطريقين: الأولى هي إما أن يصبح أهل الجنة فى غنى عن كل هذه الضروريات البشرية، وعليه لن يكون هناك جائع أو ظمآن أو عـار أو متـأذ مـن حـرارة الضحى. والطريقة الثانية هي أن يجد أهل الجنة في الجنة ألوانا وضـروبا مـن الطعام حين يأكلها الإنسان لن يجوع بعدها، وأنهارا جارية من ماء وخمر حـين يشربها الإنسان فلن يعطش أبدا، ولباسا حين تلبس فلن تتسخ ولن تبلى، وجنـات وقصور للسكن لا توجد فيها حرارة أو لهيب.

وقد أشرنا من قبل إلى القاعدة القائلة بأن لذة الإنسان ومتعته في الحيـاة تكون نتيجة لبعض التعب والنصب. فالقاعدة أن يتحمل الإنسان قليلاً من المـشقة حتى يحصل على كثير من اللذة. فيضحى بمسرات وأفراح قليلة لأجل مـسرات وأفراح أكبر. وعلى هذا المبدأ ينبنى نجاح أو فشل أعماله كلها. ويضطر الإنسان أن يتحمل بعض الصعاب الصغيرة في الحياة الدنيا لأجل أعمال الخير. فيضحي لأجلها بأفراحه ولذاته العارضة الزائلة. فمؤدي صلاة الفجر يودع ويترك لذة نوم الفجر ويذهب للمسجد لصلاة الظهر في الحر الـشديد، ويظـل جائعـاً ويطعـم الآخرين ويضحي بكثير من الملذات والشهوات غير المباحات. وبهذا تُيـسر لـه سعادة الآخرة الأبدية وثروتها الخالدة.

ومن بين الأشياء التي يضطر الإنسان لأن يضحي بها في الدنيا في سبيل الأعمال الصالحة، حياته هو. والحياة البشرية هي هذه الأشياء الأربعة التي تسمى الأكل والشرب واللبس والعيش. لذا يكون جزاء تضحياته هذه ملائما ومناسباً لها، وهي الحياة الخالدة ومأكولات عديدة ومشروبات متنوعة وملابس فاخرة ومساكن عالية، لذا يقول القرآن الكريم:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى﴾ (النازعات: ٣٧ – ٤٠)

وكان جزاء أعماله الصالحة الجزئية، سيجده في الدنيا في شكل الـشهرة التدريجية والثناء والاحترام والثروة. لكن جزاء حياته كلها سـيجده فـي الـدار الآخرة.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)

معتقد اللطف والمسرة

المسرة هي اسم لحالة نفسية تعتري الإنسان حين تكتمل إحـدى أمانيـه. وعلى هذا لابد من وجود أمنية ما لإيجاد هذه المسرة. وإذا حللنـا الرغبـات أو الأماني البشرية، لوجدناها تنتهي عند هذه الأمور التي جبل الإنسان على طلبها. والآن تأمل ماذا تكون هذه الأشياء وهل يمكن إدراكها. هذه الأشياء هي الزينـة واللباس والطعام والحور والقصور والخدم والحشم والأمتعة والجـواهر. حـين نتخيل هذه الأشياء ونود معرفتها لاضطررنا لأن نرسم لها خريطـة وأن نعتـاد على البحث عنها. ونرتكب كل أنواع المحرمات والذنوب من أجـل الحـصول عليها. لهذا ستكون الأشياء التي سنأخذها في الآخرة جزاء تركنا هـذه الأشـياء، وستكون في شكل وسائل المسرة المعروفة لنا فنستمتع بها.

المعتقد الأسمى للطف والمسرة

لقد ابتلينا بمصيبة عجيبة في دنيا الفساد هذه، وهي أننا أعطينـا عالمـا واسعا غير محدود من الخيال لرغباتنا وأمانينا، لكننا نعجز عـن جعـل دنيانـا مطابقة لرغباتنا وأمانينا، فتكون النتيجة أننا إن لم نتحل بالصبر سـنتعذب مـن صعوبة التخيل والتمني في هذه الحياة. والجنة هي أسمى مراتب الـدار الآخـرة التي ستكون مطابقة لأسمى وأعلى تخيلنا وفيها كل أمانينا ورغباتنا.

﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَـا يَـشَاءُونَ كَـذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ**﴾ (النحل ٣١)

﴿**لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ**﴾ (ق: ٣١)

﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ**﴾ (الزخرف: ٧١)

﴿**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً**﴾ (الفرقان: ١٦)

﴿**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ (الزمر: ٣٤)

والمقصود أن الجنة هي ذلك المكان الذي يوجد فيه أقصى مـا نتخيلـه، فسنجد فيه من اللطف والمسرة ما لا يمكن تصوره. ولقد كان الصحابة متنوعين. وكانوا يسألون رسول الله دائما عن ملذات الجنة ونعيمها كـل حـسب رغبتـه

وأمنيته، وكان رسول الله (ﷺ) يجيبهم. [1] فقد روي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله (ﷺ) قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقاً مَا فِيهَا شِرى وَلاَ بَيْع إِلاَّ الصُّوَرَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فيها» [2] ويتمنى أحدهم أن يزرع، فتكون الحبوب والخضرة والغلال ثم تطيب كل هذا يتم في بضع دقائق.[3] وقد سأل أعرابي رسول الله (ﷺ) وقال: فَقَالَ يَا رَسُول الله هَلْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ خَيْلٍ؟ قَالَ: «إِنْ أَدْخَلَكَ الله الْجَنَّةَ فَلاَ تَشَاءُ أَنْ تُحْمَلَ فِيهَا عَلَى فَرَسٍ مِنْ يَا قُوتَةٍ حَمْرَاءَ تَطِيرُ بِكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ إِلاَّ فَعَلْتَ» . قَالَ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله هَلْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: فَلَمْ يَقُلْ لَهُ مثل مَا قَالَ لصَاحِبِهِ فَقَالَ: «إِنْ يُدْخِلْكَ الله الْجَنَّةَ، يَكَنْ لَكَ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ ولذَّتْ عَيْنُكَ» [4].

---

[1] صحيح مسلم.

[2] سنن الترمذي، انظر المشكاة، صفة الجنة. وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم: (٢٦٠٦) حدَّثنا أَحْمَدُ بنُ مَنِيعٍ وَهَنَّادٌ، قَالاَ: حدثنا أَبُو مُعَاوِيَةَ ، حدثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ إِسْحَاقَ ، عن النُّعْمَانِ بن سَعْد ، عن عَلِيٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله : «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقاً مَا فِيهَا شِرى وَلاَ بَيْع إِلاَّ الصُّوَرَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فيها» . (يوسف عامر). ولكن لا يكون البيع والشراء هنا حقيقيا، إذ لا يوجد هناك نقص أو حاجة لأي شيء؛ بل سيكون هذا فى صورة تمثيلية. (يوسف عامر).
قال أبو عِيسَى: هذَا حديثٌ غريبٌ.(يوسف عامر).

[3] صحيح البخاري.

[4] الترمذي. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي، كتاب الجنة: (٢٥٩٨) حَدَّثنا عَبْدُ الله بنُ عَبْدِ الرَحْمنِ قال: أخبرنا عَاصِمُ بنُ علي ، أخبرنا المَسْعُودِيُّ عن عَلْقَمَةَ بنِ مَرْثَد ، عن سُلَيْمَانَ بن بُرَيْدَةَ ، عن أَبِيهِ ،: «أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النبيَّ فَقَالَ يَا رَسُول الله هَلْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ خَيْلٍ؟ قَالَ: «إِنْ أَدْخَلَكَ الله الْجَنَّةَ فَلاَ تَشَاءُ أَنْ تُحْمَلَ فِيهَا عَلَى فَرَسٍ مِنْ يَا قُوتَةٍ حَمْرَاءَ تَطِيرُ بِكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ إِلاَّ فَعَلْتَ» . قَالَ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسولَ الله هَلْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: فَلَمْ يَقُلْ لَهُ مثل مَا قَالَ لصَاحِبِهِ فَقَالَ: «إِنْ يُدْخِلْكَ الله الْجَنَّةَ، يَكَنْ لَكَ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ ولذَّتْ عَيْنُكَ» .(يوسف عامر).

وسيكون أهل الجنة درجات، لذا سيعتقد الأقل مرتبة حين يرى لباس وأسباب من هو أعلى منه، مرتبة أنه أقل منه ثم يخيل إليه أن لباسه هو أفضل من لباس الآخر وذلك حتى لا يغتم أحد في الجنة[1].

الجنة حيث لا نصب ولا لغوب

قال أحد العارفين في مدح الجنة:

الجنة ليس فيها حَزَن

إن أسعد حياة في الدنيا لا تخلو أن يكون فيها بجانب الأفراح أحزان أو خوف من انتهاء وزوال السعادة أو حزن على فشل مضن، وعلى هذا فلن تكون في الدنيا سعادة كاملة تخلو من حزن من الماضي والحال أو من الخوف من المستقبل. لذا ورد عن أهل الجنة:

﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٤).

وهذه هي أكبر نعم الجنة التي يكون فيها كل أنواع النعم البدنية والروحانية.

لا يوجد في الدنيا إنسان يستطيع أن يأكل لقمة أو يلبس مخيطا إلا إذا كد وسعى، فكل مسرات الدنيا مسرات فانية لمساعينا الفانية، أما نعيم الجنة فهو نتيجة خالدة لأعمالنا الصالحة الماضية الخالدة. ومن رحمة الله تعالى أننا نجد كل أسباب الراحة التي لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونها في الدنيا والتي بسببها أصبحت الحياة جحيما، نجدها في الآخرة بدون أدنى تعب ولا نصب، لذا يقول أهل الجنة بعد أن يدخلوا الجنة ويُحلّو بلباسها وزينتها شاكرين الله تعالى حامدين إياه سبحانه.

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّه الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (فاطر: ٣٣ – ٣٥)

---

[1] الترمذي كل هذه الأحاديث أخذت من المشكاة صفة الجنة.

﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٨)

الجنة حيث لا غل ولا حسد

الدنيا الحالية مشكلة من عناصر متضادة من الخير والشر، ففيها بجانب الخير شر وبجانب الرحمة القسوة ومع الحب البغض. فهذا الشر وهذه القسوة وهذا البغض هي تلك النار التي تحرق الأمن والأمان القلبي. ففي الدنيا حين يرى الإنسان حالة أخيه السعيدة يحترق ويغلي حقداً وحسداً على الآخرين. والجنة هي تلك الدار التي لا يوجد فيها نار ولا لهيب، فلا وجود فيها للشر ولا للقسوة ولا للبغض والحسد. إذ إن بحار الحب والألفة تموج هناك. لذا قال تعالى:

﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاماً﴾ (مريم: ٦٢)

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾(الأعراف: ٤٣)

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: ٤٧)

وجاء في هذه الآيات الكريمة في الحديث الصحيح عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: « لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ. قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ » [١].

الحياة الجسدية في الجنة

أن ملذات الحياة في الجنة يمكن أن تفسر بألوان النعم وأنواع الشراب والخمور والملذات المادية الأخرى. لكنها لا تشابه الخصائص المادية في أي معنى آخر غير السعادة والسرور والاطمئنان والسكينة. ففي الحياة الدنيا يكون بعد الأكل والشراب بول وبراز وعرق وسوء هضم وغير ذلك من الأشياء التي لا يعيش الإنسان بمنأى عنها. لكن لن يكون شيء من هذا في الآخرة فقد قال

---

[١] صحيح مسلم، باب صفة الجنة.وهذا نص الحديث: (٧١٠٠) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هٰذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللّهِ . فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ، صُوَرُهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا. آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَمَجَامِرُهُمْ مِنَ الأَلُوَّةِ. وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ. يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، مِنَ الْحُسْنِ. لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ. قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ. يُسَبِّحُونَ اللّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».(يوسف عامر).

النبي (ﷺ):«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ». هناك يهضم الأكل في مضغه ويكون العرق عطرا[1].وقالﷺ: «مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ لاَ تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَىٰ شَبَابُهُ»[2].وقال ﷺ : «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَداً. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَداً. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَداً. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَداً»[3] وأخبر ﷺ بأنه ستبرق وجوه الناس هناك طبقا لأعمالهم، فمنهم من سيكون وجهه كالنجم، ومنهم من سيكون وجهه على صورة القمر ليلة البدر.[4].

---

[1] - وهذا نص الحديث: (٧١٠١) حدثنا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ و إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ــ وَاللَّفْظُ لِعُثْمَانَ ــ قَالَ عُثْمَانُ : حَدَّثَنَا. وَقَالَ إِسْحَـٰقُ : أَخْبَرَنَا جَرِيرٌ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ. يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ».(يوسف عامر)

[2] - وهذا نص الحديث: (٧١٠٥) حدثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بْـنُ مَهْـدِيَ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ لاَ تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَىٰ شَبَابُهُ».(يوسف عامر).

[3] - وهذا نص الحديث: (٧١٠٦) حدثنا إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ و عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَاللَّفْظُ لإِسْحَـٰقَ. قَالاَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. قَالَ: قَالَ الثَّوْرِيُّ : فَحَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَـٰقَ أَنَّ الأَغَرَّ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ و أَبِي هُرَيْرَةَ ،، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَداً. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَداً. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَـداً. وَإِنَّ لَكُـمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَداً» فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَـا كُنْـتُمْ تَعْمَلُونَ} (٧الأعراف الآية: ٣٤).(يوسف عامر).

[4] أخذت كل هذه الأحاديث من صحيح مسلم صفة الجنة.وهذا نص الحديث: (٧٠٩٦) حدثني عَمْرٌو النَّاقِدُ و يعقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدَّوْرَقِيُّ. جَمِيعاً عَنِ ابْنِ عُلَيَّةَ وَاللَّفْظُ لِيَعْقُـوبَ. قَـالاَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُلَيَّةَ. أَخْبَرَنَا أَيُّوبُ عَنْ مُحَمَّدٍ ، قَالَ: إِمَّا تَفَاخَرُوا وَإِمَّا تَذَاكَرُوا: الرِّجَالُ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ أَمِ النِّسَاءُ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَوَ لَمْ يَقُلْ أَبُو الْقَاسِمِ : «إِنَّ أَوَّلَ زُمْـرَةٍ تَـدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيَ فِي السَّمَاءِ. لِكُـلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ. يُرَىٰ مُـخُّ سُـوقِهِمَا مِـنْ وَرَاءِ اللَّحْـمِ. وَمَـا فِـي الْجَنَّـةِ أَعْزَبُ؟».(يوسف عامر).

تأمل كم ستكون الحياة البدنية هناك مختلفة عن حياتنا البدنية الحالية. ولا يجب أن نندهش أو نتعجب من هذا، فقد كان الإنسان حيا وهو جنين في بطن أمه وكانت حياته غذاؤه. وفضلاته وأنفاسه ومستلزمات حياته الأخرى وهو في بطن أمه، مختلفة تماما عنها بعد خروجه من بطن أمه. ومن سينكر هـذا الأمـر أو يعجب منه سيكون أحمقا. وكذلك فإن من ينكر طريقة الحياة في الآخرة ووسـيلة غذائها من المعتادين على الحياة المادية سيكون أحمق أيضا.

الجنة تطور ورقي روحاني

تبرهن قراءة وتحقيق تاريخ الخلقة والفطرة المادية والجسدية آلاف السنين أن المادة قد تطورت بعد آلاف السنين حتى وصلت لهذه الجسمانية البشرية، فقـد كانت في البداية جمادا، ثم صارت في شكل نبات، ثم في قالب حيوان، ثـم فـي صورة جسم إنساني. وهذا هو قمة رقي المادة، فقد زالـت الماديـة (الجمـاد)، وظهرت النباتية، ثم فنيت النباتية، وبرزت الحيوانية، ثـم انعـدمت الحيوانيـة، وظهرت الإنسانية، ووصل الجانب الجسماني للرقي البشري إلى الكمـال. أمـا الجانب الثاني للإنسانية والذي هو عبارة عن الروحانية فمازال في بداية طفولتـه حتى الآن. ولكن ألن يمر هو أيضا بمراحل تطور ورقي. ولم تصل المادة إلا إلى مستوى الرقي أما الدين فيوصلها إلى ما هو أبعد من هذا إذ يأخـذها مـن هنـا ويطير بها إلى السماء فتبدأ في تخطي حدود الملكوتية.

وتتضح إشارات هذه النظرية من التأمل والتمعن فـي الآيـات القرآنيـة التالية:

﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَـا النُّطْفَـةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١١ – ١٤)

لكن هذا الرقي لن يتوقف بالوصول إلى هذه المرحلة بل سيواصل تقدمه، وكما أن ضيق وظلمة بطن الأم كانت للحياة والعيش فيها قواعد وضـوابط، ثـم كانت هناك ضوابط أخرى للحياة التي وطأتها أقدامه بعد الميلاد. فكذلك سـتكون

لتلك الحياة المعنوية الواسعة قواعد أخرى وضوابط للرقي والسعادة. لـذا قـال تعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٥، ١٦)

وكما انتهت قبل آلاف السنين من الإنسانية مرحلة نوع وبدأت مرحلة نوع آخر حتى وصلت لمرحلة البشرية، فكذلك ستفنى كل المراحل والحالات البشرية بعد الموت، ويبدأ الاستعداد لحالات نوع آخر أرقى وأكثر تطورا. إذ سيظهر نوع ملكوتي آخر بعد آلاف السنين في القيامة.

وهنا يظهر مبدأ آخر لقضية الرقي، وهو المبدأ الذي نطلق عليه بقاء الأصلح، إذ سيفنى خلال مراحل الرقي تلك النوعيات التي لا تملك صلاحية الرقي والتطور، وستبقى تلك الأنواع التي تمتلك الاستعداد الكامل للبقاء الآجل. وكما يتولد الاستعداد الآجل من الاستعداد السابق، كذلك يجد هذا النوع الملكوتي الآخر الاستعداد من ذاك الاستعداد الذي كان عنده وقت حياته المادية البدنية السالفة. وتكون النار درجات لأولئك الذين بقوا دائما في مراحل المادية (الجماد) والنباتية والحيوانية. ويمكن أن يظلوا في دار الامتحان على قدر قلة استعدادهم يخلقون استعداداً ورقيا آخر حتى يصلوا لمرحلة الملكوتية.

وتكون الجنة درجات لمراحل استعداداتهم التي كانوا قد ولدوها وصنعوها في حياتهم الأولى. ولكن لن يغلق باب رقيهم الروحاني أيضاً بالوصول إلى هناك (الجنة) بل سيواصلون طي مراحل الرقي على حسب استعدادهم.

وربما قال الله تعالى بسبب هذا:

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: ٦)

ويقول في آية أخرى إن يوم القيامة سيكون النور من أمام المؤمنين ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولكنهم بالرغم من ذلك يدعون ويقولون:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم ٨)

فدعاء المؤمنين ربهم أن يتم لهم نورهم يشير إلى أن مدارج رقيهم مازالت تتواصل.

دار الأمن والسلام

يتوق الإنسان إلى الأمن والسلام، ولكنه يبحث عنهما في أكوام أسباب ووسائل الراحة ولا يجده. يبحث في الدنيا عن مكان الأمن ولا يجده لكنه في الجنة لن يجد غير بيت بل دنيا الأمن والسلام. ذلك الطائر الذي عاش حياته كلها محبوسا في قفص بين أربعة جدران سيتحرر ويطير ويقف على كل أغصان سدرة المنتهى. ومن الأسماء العديدة التي أخبرنا بها الوحي المحمدي للجنة اسم دار السلام والذي يعني بيت الأمن والأمان. يقول تعالى عن أهل الجنة:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام: ١٢٧)

والشريعة التي بعث الله تعالى بها نبينا محمد (ﷺ) هي في الحقيقة بشارة لهذا الأمن والسلام. لذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾ (يونس: ٢٥)

وحين هاجر النبي (ﷺ) إلى المدينة دعا أول ما دعا إلى بيت الأمن والسلام. وقد كان عبد الله بن سلام عالما يهوديا كان أول ما أثر في قلبه من أقوال النبي (ﷺ) قوله: «يَا أَيُّهَا الناسُ، أَفشوا السلامَ وأَطعِموا الطعامَ وصِلُوا الأرحامَ وصلُّوا والناسُ نيامٌ تدخلوا الجنةَ بسلامٍ».[1]

وقد ذكر الأمن والسلام عند الحديث عن الجنة في القرآن الكريم مرارا وتكرارا فيتضح أن أناشيد الأمن والسلام تسمع من أطراف الجنة.

﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (*) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد ٢٣، ٢٤)

فلن يسمع هناك غير الأمن والسلام.

﴿إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ (الواقعة ٢٦)

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الدرامي، باب إفشاء السلام، كتاب الاستئذان: (٢٦٣١) أخبرنا سعيدُ بنُ عامرٍ عنْ عوفٍ عنْ زرارةَ بنِ أوفَى ، عَنْ عبدِ اللَّهِ بنِ سلامٍ ،، قالَ: لما قدمَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم المدينةَ، استشرفَهُ الناسُ فقالوا قدمَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: فخرجتُ فيمَنْ خرجَ، فلما رأيتُ وجهَهُ عرفتُ أنَّ وجهَهُ ليسَ بوجهِ كذابٍ، فكانَ أولُ ما سمعتُهُ يقولُ: «يَا أَيُّهَا الناسُ، أفشوا السلامَ وأَطعِموا الطعامَ وصِلُوا الأرحامَ وصلُّوا والناسُ نيامٌ تدخلوا الجنةَ بسلامٍ».(يوسف عامر).

وتقول الملائكة لأهل الجنة:

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ﴾ (ق ٣٤)

﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إلاَّ سَلاماً﴾ (مريم ٦٢)

ومن أحد أسماء الجنة في القرآن"مقام أمين" قال تعالى:

﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (الدخان ٥١)

مقام الرحمة

متى تفتقد رحمة الله ؟ وأين تنعدم ؟ لكن تمر في الدنيا بموجب قوانين الدنيا الفطرية أحداث ووقائع نعبر عنها بدلاً من رحمة الله بغضب الله. ثم أننا أيضاً نبتلى أنفسنا بسبب أعمالنا بقهر الله وغضبه. لكن في الآخرة لن يوجد في الجنة سوى رحمة الله، فلن يكون هناك وجود لغضب أو قهره. فتكون رحمة الله في كل صوب واتجاه ولن يرى أي شيء آخر غير رحمته.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة ٢١)

وأهل الجنة الذين ستبيض وجوههم سيسمعون هذا النداء:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٧)

مكان النور

الجنة هي ذلك المكان الذي لن يكون للظلام والظلمة وجود فيه، إذ ستضيء وجوه أهل الجنة، فمنهم من سيضيء وجهه كالنجم ومنهم من يضيء كالبدر، فتكون الأنوار من كل الاتجاه. لذا قال تعالى:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ (التحريم: ٨)

في ذلك اليوم سيسعى نور المؤمنين في كل اتجاه:

﴿ يَوْمَ تَرَى المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ (الحديد: ١٢)

سيلتمس في ذلك اليوم المنافقون من المؤمنين أن ينتظروهم ليقتبسوا من نورهم: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ**﴾ (الحديد ١٣)

مكان الرضوان

إن آخر النعم التي أعدها الله لعباده في الجنة ما يسمى بمكان الرضوان، وهو أن يرضي الله سبحانه وتعالى عن عبده فلا يغضب عليه أبدا ولا يحاسبه أبدا بل يمن عليه برضاه الخالد الدائم. فمن النعم التي أعدها الله للمتقين الجنات والأنهار والأزواج المطهرات ثم سعادة قلوبهم. لكنه تعالى يمن عليهم بعد هذا كله بآخر نعمة وهي رضاه عنهم. لذا ورد ذكر الجنة في سورة التوبة بعد الرحمة والرضوان: ﴿**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ**﴾ (التوبة: ٢١)

وكذلك ورد ذكر الجنة في سورة الحديد بصفة تكميلية بعد ذكر مغفرة الله ورضوانه. قال تعالى:

﴿ **وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ** ﴾ (الحديد: ٢٠، ٢١)

وبعدما عدد في سورة آل عمران نعم الجنة كلها، ختم الآيات بالبشرى العظيمة برضوان الله فقال: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ**﴾ (آل عمران: ١٥)

وفي سورة التوبة اعتبر أن نعمة رضوان الله تعالى أكبر من كل نعم الجنة فقال:

﴿**وَعَدَ اللَّهُ المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾ (التوبة: ٧٢)

وتبشر الملائكة أرواح الجنة المطمئنة وتقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٧، ٢٨)

ومن صفات أهل الجنة أن:

﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المائدة: ١١٩)

وقد قال النبي (ﷺ) في تفسير هذه الآيات:إِنَّ اللّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ. رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي. فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً» [1].

مكان الطيب والطهر

كل أشياء الدنيا الحالية مليئة بالنجاسات والقاذورات. أما الجنة فهي مكان النظافة والطهارة والطيب، وسيدخلها الطيبون. قال تعالى:

﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣)

والحياة التي ستكون في الجنة، ستكون طاهرة طيبة مبرأة من كل الأدران البدنية والروحانية قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧)

---

[1] صحيح البخاري ومسلم صفة الجنة.وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٧٠٨٩) حدّثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ سَهْمٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ. أَخْبَرَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ. ح وَحَدَّثَنِي هَـٰرُونُ بْنُ سَعِيدٍ الأَيْلِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ وَهْبٍ. حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «إِنَّ اللّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ. رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي. فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً». (يوسف عامر).

والمساكن التي ستكون في الجنة ستكون أيضا طاهرة﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ (الصف: ١٢) والأزواج اللاتي ستكون هناك أيضاً ستكون طاهرات:

﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ (آل عمران: ١٥)

وسيكون القول في الجنة أيضا طيبا:

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (الحج: ٢٤)

والمشروبات التي ستكون هناك ستكون هي الأخرى طاهرة ﴿شَرَاباً طَهُوراً﴾ (الإنسان: ٢١) والمقصود أن كل شيء هناك سيكون طيبا طاهرا نقيا مبرأ من كل العيوب والأدران الروحانية والبدنية.

مكان التسبيح والتهليل

بعد هذه الراحة والمتعة ستكون اللذة الروحانية والبدنية لأهل الجنة في حمد الله تعالى وتسبيحه وتقديسه، فسيكون هذا غذاءهم، إذ سيكون العالم هناك محفوفا من كل مكان بالأنوار الإلهية، ولن يرى فيه غير الطهارة والنظافة. تتراءى فيه من كل صوب صور القدسية والنزاهة.

وستعلو هناك دعوات حمد الله والثناء عليه في كل جانب

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ١٠)

وأكبر نعمة ستكون في الجنة بعد هذه النعم كلها أنه ستتضح هناك طرق جديدة لتسبيح الله تعالى. لذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (الحج: ٢٣، ٢٤)

سيلتقي أهل الجنة مع الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويشكرونه على كل نعمه التي أنعمها عليهم في وقت يكون فيه حمد الله تعالى في كل مكان، قال تعالى:

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

العَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ (الزمر: ٧٣، ٧٥)

وقال القرآن الكريم في موضع آخر عن أهل الجنة: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياًّ﴾(مريم: ٦٢)

هل المقصود من رزق البكرة والعشية هذا أطعمة الجنة المتعددة ؟ لو كان هذا هو المراد فلم خصصت البكرة والعشية، مع أنه سيكون موجودًا كل وقت ؟ لذا أعتقد أن المقصود برزق البكرة والعشية تسبيح الله تعالى الذي هو الرزق الروحاني، ويفسر هذا قول رسول الله (ﷺ) الذي ورد في صحيح مسلم في شأن نعم الجنة والذي يقول فيه رسول الله (ﷺ) «يُسَبِّحُونَ اللّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» (صفة الجنة)[1]

وقال (ﷺ) في حديث آخر: " يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ ".[2] وربما كان هذا هو معنى الآية الكريمة:

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ﴾ (الحج: ٢٤)

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٧١٠٠) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللّهِ . فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ : «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ، صُوَرُهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا. آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَمَجَامِرُهُمْ مِنَ الأَلُوَّةِ. وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ. يُرَىٰ مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، مِنَ الْحُسْنِ. لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ. قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ. يُسَبِّحُونَ اللّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». (يوسف عامر).

[2] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الجنة: (٧١٠١) حدثنا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ و إِسْحَـٰقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ـــ وَاللَّفْظُ لِعُثْمَانَ ـــ قَالَ عُثْمَانُ : حَدَّثَنَا. وَقَالَ إِسْحَـٰقُ : أَخْبَرَنَا جَرِيرٌ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ. يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ». (يوسف عامر).

مكان القرب

إن كل ما سيقدر لأهل الجنة لا يكون في الدرجة كمكان القرب الخاص الذي سيتشرف فيه العباد بالقرب من ربهم. وقد وردت الإشارة لهذا في القرآن الكريم فيقول تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٤، ٥٥)

التجلي

إن تجلي المولى سبحانه وتعالى هي آخر نعم الجنة لكنها أعظمها وأجملها. لكن من يستطيع أن يتحمل رؤية مطلع الأنوار. لكن ربما ستكون هناك عيون أخرى، أو أن الله سبحانه وتعالى سيظهر في شأن آخر معين. في ذلك الوقت سيكون المولى سبحانه وتعالى هو مركز النور الذي ستتجه وتنظر إليه أعين أهل الجنة المشتاقة:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣)

يروى سيدنا جرير بن عبد الله رضي الله عنهما أحد الصحابة الكرام فيقول: قال رسول الله (ﷺ):«إنكم سترون ربكم عياناً».[1] وفي رواية أخرى أنه (ﷺ) قال:« إنكم سترونَ ربَّكم كما ترونَ هذا القمرَ»[2] وقال ﷺ أيضًا: « لا

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٧٢٦٩) حدَّثنا يوسف بن موسى حدثنا عاصم بن يوسف اليربوعيٌّ حدثنا أبو شهاب عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبدالله قال: «قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنكم سترون ربكم عياناً».(يوسف عامر).

[2] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٤٧) حدثنا الحُمَيديُّ قال: حدَّثنا مَروانُ بنُ مُعاويةَ قال: حدَّثنا إسماعيلُ عن قيس عن جَرير قال: كنَّا عِنْدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فنظرَ إلى القمر لَيلةً ــ يَعني البدرَ ــ فقال: إنكم سترونَ ربَّكم كما ترونَ هذا القمرَ، لا تُضَامُونَ في رُؤْيتِه، فإنِ استَطعتُم أن لا تُغلَبُوا على صلاةٍ قبلَ طُلُوعِ الشمسِ وقبلَ غُروبِها فافعلوا. ثم قرأ: {وسَبِّحْ بحمدِ ربِّكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ الغُرُوب} (ق: ٩٣) قال إسماعيلُ: افعَلُوا، لا تَفوتنَّكم.(يوسف عامر).

تضامون في رؤيتهِ» (١) لرسول الله (ﷺ) والمقصود من هذا التشبيه إظهار شدة اليقين في أنكم سترون ربكم كما ترون أو كرؤيتكم البدر. والمقصد الثاني هو أنكم كما ترون القمر وأنتم جمع غفير لا يزاحم بعضكم بعضا ولا يعوقه عن الرؤية كذلك لن يكون هناك عائق أو مانع عن رؤية الله. بل إن أهل الجنة سيقابلون الله تعالى في ذلك اليوم وعلى ألسنتهم السلام. لذا يقول تعالى:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ (الأحزاب: ٤٤)

بل والأكثر من ذلك أن الله تعالى بنفسه سيسلم عليهم:

﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس: ٥٨)

وورد في صحيح البخاري عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلمهُ ربهُ ليس بينهُ وبينَهُ ترجمان»(٢).

كيف تكون هذه الرؤية ؟ أهل الرواية يأخذون بظاهر اللفظ. وأهل العقل يؤولونها بزيادة الإيمان. وأهل الحقيقة يعبرون عنها بظهور الأسماء والصفات غير القابلة للبيان. لكن الحكم هو: قال الشاعر:

تعال، فإنَّ هذا هو الحكم فأحضرنا أمامه

---

(١) صحيح البخاري ج ٢ صـ ١١٠٥. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٧٢٧٠) حدَّثَنا عبدةُ بن عبدِالله حدثنا حُسينُ الجعفي عن زائدةَ حدثنا بيانُ بنُ بِشرٍ عن قيس بن أبي حازم حدثنا جريرٌ قال: «خرج علينا رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ليلة البدْر فقال: إنكم سترونْ ربكم يوم القيامةِ كما ترونْ هذا لا تضامون في رؤيتِهِ».(يوسف عامر).

(٢) صحيح البخاري ج ٢ باب كلام الرب. وهذا نص الحديث: (٧٣٤٦) حدَّثَنا عليُّ بن حُجْرٍ أخبرنا عيسى بنُ يونس عنِ الأعمش عن خيثَمة عن عدي بن حاتم قال: «قال رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلمهُ ربهُ ليس بينهُ وبينَهُ ترجمان فينظرُ أيمنَ منهُ فلا يرى إلاَّ ما قدَّمَ من عمله، وينظرُ أشْأَمَ منه فلا يَرَى إلا ما قدَّمَ، وينظرُ بين يديه فلا يرى إلاَّ النارَ تِلْقاء وجهه، فاتَّقوا النار ولو بِشقٍّ تمرةٍ».

قال الأعمشُ: وحدثني عَمرو بن مُرَّةَ عن خيثمة مثله وزاد فيه: ولو بكلمةٍ طيِّبةٍ.(يوسف عامر).

الأثر العملي لهذه التعليمات

استعرضنا الصفحات السابقة المشاهد والمناظر الكاملة للقيامة والحشر والنشر والجنة والنار. هذا الإيمان بالغيب هو الجوهر الأصلي لحقيقة الدين وفيه أيضاً تكمن الطاقة الحقيقية للدين. وقد علمنا أن العرب كانت تنكر هذه الحقائق إنكارا تاما بل إنها كانت تستبعد تماما الحياة بعد الموت، لذا اشتمل القرآن الكريم في أكثر أجزائه على تلقين الإيمان بالحياة بعد الموت والدعوة إلى الإيمان بها فكانت أكثر ما ورد في القرآن الكريم بعد إبطال الشرك وإثبات التوحيد لله. وأكثر الرسول (ﷺ) من التركيز على هذا الموضوع أيضا في أكثر خطبه الشريفة، وكان يتلو في خطب الجمعة سورة ق بصفة خاصة تلك السورة التي وردت فيها أحوال يوم القيامة. لكن انظر إلى حالهم بعد ٢٣ عاما فلم يتبدل إنكارهم بسبب تأثير القرآن الكريم وبفضل هداية رسول الله (ﷺ) إلى إقرار فحسب، بل إن هذه المناظر قد ترسخت واستقرت في قلوبهم وأذهانهم. فأحد شعراء العرب كان قد قال سخرية في بداية الإسلام:

أموت ثم بعث ثم حشر حديث خرافة يا أم عمرو

لكن بعد بضع سنين تبدلت سخريتهم وأفكارهم إلى ثقة ويقين. وأخذ أحد شعراء العرب في ذلك الوقت يقول:

" بلغنا السماء مجدنا وجدودنا * وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا "[١].

---

[١] الإصابة والاستيعاب، ذكر النابغة الجعدى. ورد فى الإصابة فى تمييز الصحابة: ٨٦٤٥ النابغة الجعدي الشاعر المشهور المعمر اختلف في اسمه فقيل هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة وقيل بدل عدس وحوح وجعدة هو بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وقيل اسم النابغة عبد الله وقيل حنان بن قيس بن عمرو بن عدس وقيل حبان بن قيس بن عبد الله بن قيس وقيل بتقديم قيس على عبد الله وبه جزم القحذمي وأبو الفرج الأصبهاني، وبالأول جزم بن الكلبي وأبو حاتم السجستاني وأبو عبيدة ومحمد بن سلام الجمحي وغيرهم وحكاه البغوي عنه، وحكى أبو الفرج الأصبهاني أنه غلط لأنه كان له أخ اسمه وحوح بن قيس قتل في الجاهلية، فرثاه النابغة قلت ويحتمل أن يكون وحوح أخاه لأمه، وقد أخرج الحسن بن سفيان في مسنده عن أبي وهب الوليد بن عبد الملك عن يعلى بن الأشدق حدثني قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة نابغة بني جعدة فذكر حديثا قال أبو

الفرج أقام مدة لا يقول الشعر ثم قال فقيل نبغ وقيل كان يقول الشعر ثم تركه في الجاهلية ثم عاد إليه بعد أن أسلم فقيل نبغ وقال القحذمي كان النابغة قديما شاعرا مغلقا طويل العمر في الجاهلية وفي الإسلام قال وكان أسن من النابغة الذبياني ومن شعره الدال على طول عمره. (يوسف عامر).

كما ورد عن النابغة الجعدي يقول أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا * وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال أين المظهر يا أبا ليلى قلت الجنة قال أجل إن شاء الله تعالى ثم قال

ولا خير في حلم إذا لم يكن له * بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له * حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضض الله فاك مرتين، وهكذا أخرجه البزار والحسن بن سفيان في مسنديهما، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان، والشيرازي في الألقاب كلهم من رواية يعلى بن الأشدق قال وهو ساقط الحديث، قال أبو نعيم رواه عن يعلى جماعة منهم هاشم بن القاسم الحراني وأبو بكر الباهلي وعروة العرقي، لكنه توبع فقد وقعت لنا قصة في غريب الحديث للخطابي. وفي كتاب العلم للمرهبي وغيرهما من طريق مهاجر بن سليم عن عبدالله بن جراد سمعت نابغة بني جعدة يقول أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم قولي علونا السماء البيت فغضب وقال أين المظهر يا أبا ليلى ؟ قلت الجنة قال أجل إن شاء الله ثم قال أنشدني من قولك، فأنشدته البيتين ولا خير في حلم فقال لي أجدت لا يفضض الله فاك فرأيت أسنانه كالبرد المنهل لما انفصمت له سن ولا انفلتت. ورويناه في المؤتلف والمختلف للدارقطني وفي الصحابة لابن الكسن وفي غيرهما من طريق الرحال بن المنذر حدثني أبي عن أبيه كرز بن أسامة وكانت له وفادة مع النابغة الجعدي فذكرها بنحوه. ورويناها في الأربعين البلدانية للسلفي من طريق أبي عمرو بن العلاء عن نصر بن عاصم الليثي عن أبيه سمعت النابغة يقول أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشدته قولي أتيت رسول الله البيت وبعده بلغنا السماء فقال إلى أين يا أبا ليلى ؟ قال إلى الجنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شاء الله فلما أنشدته ولا خير في جهل البيت ولا خير في حلم البيت فقال لي صدقت لا يفضض الله فاك فبقي عمره أحسن الناس ثغرا كلما سقطت سن عادت أخرى وكان معمرا. ورويناه في مسند الحارث بن أبي أسامة من طريق الحسن بن عبيدالله العنبري قال حدثني من سمع النابغة الجعدي يقول أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشدته

وإنا لقوم ما نعود خيلنا * إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا

وننكر يوم الروع ألوان خيلنا * من الطعن حتى نحسب الجون أشقرا

وليس بمعروف لنا أن نردها * صحاحا ولا مستنكرا أن تعقرا

بلغنا السماء البيت وبقية القصيدة نحوه ورويناها مسلسلة بالشعراء من رواية دعبل بن علي الشاعر عن أبي نواس عن والبة بن الحباب عن الفرزدق عن الطرماح عن النابغة وهي في كتاب الشعراء لأبي زرعة الرازي المتأخر وقد طولت ترجمته في كتاب من جاوز المائة مما دار بينه وبين من هاجاه من الماجريات كليلي الأخيلية صاحبة توبة وأوس المزني وغيرهما وذكر أبو نعيم في تاريخ أصبهان أنه قيس بن عبدالله وأنه مات بأصبهان قال وكان معاوية سيره إليها مع الحارث بن عبد الله بن عبد عوف بن أصرم وكان ولي أصبهان من قبل علي، ثم أسند من طريق الأصمعي عن هانئ بن عبد الله عن أبيه عن عبد الله بن صفوان قال عاش النابغة مائة وعشرين سنة قال ابن عبد البر قصيدة النابغة مطوله نحو مائتي بيت أولها:

خليلي غضا ساعة وتهجرا * ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

يقول فيها:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى * ويتلو كتاب كالمجرة نيرا

ومنها

وجاهدت حتى ما أحسن ومن معي * سهيلا إذا ما لاح ثم تحورا

أقيم على التقوى وأرضى بفعلها * وكنت من النار المخوفة أحذرا

قال وما أظنه إلا أنشدها النبي صلى الله عليه وسلم كلها. ثم أورد أبو عمر بإسناده إلى أبي الفرج الرياشي منها أربعة وعشرين بينا، وذكر عمر بن شبة عن مسلمة بن محارب أن النابغة الجعدي دخل على علي فذكر قصة وذكر أبو نعيم في تاريخ أصبهان وأخرج بن أبي خيثمة في تاريخه عن الزبير بن بكار، وحدثني أخي هارون بن أبي بكر عن يحيى بن أبي قتيلة عن سليمان بن محمد بن يحيى بن عروة عن أبيه عن عمه عبدالله بن عروة قال: ألحت السنة على نابغة بني جعدة فدخل على بن الزبير في المسجد الحرام فأنشده

حكيت لنا الصديق لما وليتنا * وعثمان والفاروق فارتاح معدم

وسويت بين الناس في الحق فاستووا * فعاد صباحا حالك الليل مظلم

أتاك أبو ليلى تجوب به الدجى * دجى الليل جواب الفلاة عرمرم

لتجبر منه جانبا دعدعت به * صروف الليالي والزمان المصمم

فقال بن الزبير هون عليك يا أبا ليلى فإن الشعر أيسر وسائلك عندنا لك في مال الله حقان حق لرؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق لشركتك أهل الإسلام في فيئهم. ثم أخذ بيده فدخل به دار النعم وأعطاه سبع قلائص وحملا وخيلا وأوقر الركاب برا وتمرا وثيابا فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صرفا، فقال ابن الزبير ويح أبي ليلى لقد بلغ به الجهد،

وقد استفسر رسول الله (ﷺ) وقال: «أين المظهر يا أبا ليلى» قلت: الجنة. قال: «أجل إن شاء الله» انظر إلى أولئك الذين كانت أنظارهم لا ترتفع عن الأرض، أصبح تصورهم يعلو عن السماء أيضا. أخذ أولئك الذين كانوا ينكرون الحياة بعد الموت، ولا يخافون من حساب الآخرة، فلا يبالون بأعمالهم ولا علم لهم مفهوم الثواب والعقاب، ولا يعرفون شيئا عن فكرة الجنة والنار، أخذوا يتحسبون للآخرة ولأعمالهم، وأخذوا يحاسبون أنفسهم على أعمالهم لخشيتهم من العقاب، وأخذ شوقهم للجنة يرضيهم على التضحية بأشياء كبيرة وغالية وأصبح الخوف من النار يحركهم ويعيش داخل قلوبهم، فأبكي أعينهم، وأفاضها بالدموع، وجعلها دوما على استعداد وقناعة لأداء الفرائض والمسئوليات بأمانة وإخلاص، وأيقظهم من أحلام الراحة والمتعة، وجاء بهم إلى ميدان العمل، وجعلهم مشغولين كلية في كل أعمال الخير والصلاح، وأبعد قلوبهم وأبدانهم عن السيئات والفواحش حتى في الوحدة والظلمة. وكانت صفائح ضمائرهم وأفئدتهم مفتوحة كل وقت أمام أعين الله تعالى.

ذات مرة حدث نزاع بين صحابيين حول أمر ما، فسمع رسول الله (ﷺ) كلام الفريقين ثم حكم لأحدهما وبعد ذلك قال «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُم أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ. فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَيْىء، فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنَّمَا أَقْطَعَ لَهُ قِطْعَةً

فقال النابغة أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما وليت قريش فعدلت، واسترحمت فرحمت، وحدثت فصدقت، ووعدت خيرا فأنجزت، فأنا والنبيون وأطر التابعين، وقد وقع لنا عاليا من حديث ابن الزبير موافقة قرأت على فاطمة بنت محمد بن المنجي بدمشق عن سليمان بن حمزة أنبأنا محمود بن إبراهيم في كتابه، أنبأنا مسعود بن الحسن، أنبأنا أبو بكر السمسار، أنبأنا أبو إسحاق بن خرشة، أنبأنا أبو الحسن المخزومي، حدثنا الزبير بن بكار به بتمامه، وأخرجه بن جرير في تاريخه عن بن أبي خيثمة، وأخرجه أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني عن بن جرير، وأخرجه بن أبي عمر في مسنده عن هارون، وأخرجه بن السكن عن محمد بن إبراهيم الأنماطي والطبراني في الصغير عن حسين بن الفهم وأبو الفرج الأصفهاني عن حرمي بن العلاء ثلاثتهم عن الزبير فوقع لنا بدلا عاليا وأخرج أبو نعيم عن الطبراني طرفا منه. (يوسف عامر).

منْ النَّارِ».[1] فلما سمع الفريقان كلام رسول الله (ﷺ) غلبهم البكاء، وأخذ كل واحد منهم يعطي نصيبه للآخر.[2]

وكان سيدنا عمر (ﷺ) مطيعا لله، ومنفذا لأوامره سبحانه، وكان عاشقا ومحبا ومتبعا لرسول الله (ﷺ)، وكانت فضائله كثيرة، فكان من المبشرين بالجنة، لكنه بالرغم من ذلك كان يخاف من حساب الآخرة لدرجة أنه قال ذات مرة ما معناه: "لو تساوت أعمالي الصالحة والسيئة بعد إسلامي، فإنني سأكون سعيداً أيضا، وإن لم أدخل الجنة، فلا أبالي، ولكني أخشى النار[3].وكان (ﷺ) حين حضرته الوفاة فزعاً قلقا، فأخذ بعض الصحابة يعدون أعماله الصالحة ويطمئنونه فقال لهم: واللَّه لو أنَّ لي طِلاعَ الأرض ذَهَباً لافتديتُ به من عذابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ قبلَ أن أراه»[4]. وورد أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت تتمنى أن تكون عشبا في غابة[1]، أو ما كنت شيئا[2].

---

[1] سنن أبي داود وكتاب الأقضية. وهذا نص الحديث: (٣٥٨٤) حدثنا مُحَمَّدُ بنُ كَثِيرٍ أنبأنَا سُفْيَانُ عن هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ عن عُرْوَةَ عن زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ ، قالَتْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّمَا أنَا بَشَرٌ وَإنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُم أنْ يَكُونَ ألْحَنَ بِحُجَّتِه مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ ممَّا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بشيء فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً فَإنَّمَا أَقْطَعَ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ». (يوسف عامر).

٢ – وهذا نص الحديث كما ورد في سنن أبي داود: (٣٥٨٥) حدثنا الربيعُ بنُ نَافِعٍ أَبُو تَوْبَةَ أخبرنا ابنُ المُبَارَكِ عنْ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ عن عَبْدِ الله بن رَافِعٍ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ عن أُمِّ سَلَمَةَ ، قالَتْ: «أَتَى رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم رجُلاَنِ يَخْتَصِمَانِ في مَوَارِيثَ لَهُمَا لَمْ تَكُنْ لَهُمَا بَيِّنَةٌ إلاَّ دَعْوَاهُمَا، فَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ مِثْلَهُ. فَبَكَى الرَّجُلاَنِ وَقَالَ كُلُّ وَاحِد مِنْهُمَا حَقِّي لَكَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: أَمَّا إذَا فَعَلْتُمَا مَا فَعَلْتُمَا فَاقْتَسِمَا وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَهِمَا ثُمَّ تَحَالاَّ».(يوسف عامر).

[3] صحيح البخاري باب الهجرة ج ١ صـ ٥٥.

[4] البخاري فضائل سيدنا عمر ج ١ صـ ٥٢١. وهذا نص الحديث: (٣٦١٠) حدَّثنا الصَّلْتُ بنُ محمدٍ حدَّثنا إسماعيلُ بن إبراهيمَ حدَّثنا أيُّوبُ عنِ ابنِ أبي مُلَيكةَ عن المِسوَرِ بن مَخرَمةَ قال: «لما طُعِنَ عمرُ جعلَ يألمُ، فقال له ابن عبَّاسٍ ــ وكأنهُ يُجَزِّعهُ ــ: يا أميرَ المؤمنين، ولئن كان ذاك، لقد صحبتَ رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم فأحسنتَ صُحْبَتَه، ثمَّ فارقتَهُ وهو عنكَ راض، ثمَّ صحبتَ أبا بكر فأحسنتَ صحبتَه، ثمَّ فارقتَه وهو عنك راض، ثمَّ

وحين نزلت هذه الآية القرآنية المباركة المؤثرة في بيان أهوال القيامة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١، ٢).

وتلاها النبي (ﷺ) على أصحابه وفسرها لهم تغير لون وجوههم[٣] وأخذت أعينهم تفيض بالدموع.[١] وذات مرة ذكر رسول الله (ﷺ) القبر وعذابه،

صحبت صَحَبَتَهم فأحسنتَ صُحبتَهم، ولئن فارقتَهم لتُفارِقَنَّهم وهم عنك راضون. قال: أمّا ما ذكرتَ من صحبةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ورضاه فإنما ذاك منٌّ منَ الله تعالى منَّ به عليّ، وأمّا ما ذكرتَ من صحبةِ أبي بكر ورضاه فإنما ذاك منٌّ منَ الله جلَّ ذِكرُه منَّ بِهِ عليّ، وأمّا ما ترَى من جزَعي فهوَ من أجلِكَ وأجلِ أصحابك. واللَّه لو أنَّ لي طِلاعَ الأرض ذَهَباً لافتدَيتُ به من عذابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ قبلَ أن أراه».

قال حمّادُ بن زيدٍ حدَّثنا أيُّوبُ عن ابنِ أبي مُليكةَ عن ابنِ عبّاس «دَخلتُ علَى عمرَ» بهذا.(يوسف عامر).

(١) ابن سعد جزء النساء ص ٥١.

(٢) صحيح البخاري مناقب عائشة وتفسير سورة النور ومستدرك الحاكم وترجمة عائشة وابن حنبل مسند عائشة.

(٣) صحيح البخاري، تفسير سورة الحج، ج ٢، صـ ٦٩٣. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٤٦٢٣) حدَّثنا عمرُ بن حفصٍ حدَّثَنا أبي حدَّثَنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي سعيدِ الخُدريِّ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «يَقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامة: يا آدم، فيقول: لَبّيك ربَّنا وَسَعدَيك. فيُنادَى بصوتٍ: إنَّ اللَّهَ يأمُرُك أن تُخرِجَ من ذرِّيتكَ بَعثاً إلى النار. قال: يا ربِّ وما بَعثُ النار؟ قال: من كلِّ ألفٍ ـ أُراهُ قال ـ تِسعَمائة وتسعةً وتِسعين. فحينئذ تَضعُ الحاملُ حَملَها، ويَشيبُ الوليدُ، وتَرى الناسَ سُكارَى وما هم بسكارى ولكنَّ عذابَ الله شديد. فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيَّرَت وجُوهُهم، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: من يأجوجَ ومأجوجَ تسعمائة وتسعةً وتسعين، ومنكم واحد. ثم أنتم في الناس كالشَّعرةِ السوداء في جَنبِ الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجنة، فكبَّرنا. ثم قال: ثُلثَ أهلِ الجنة، فكبَّرنا. ثمَّ قال: شطرَ أهل الجنة، فكبَّرنا». قال أبو أُسامةَ عنِ الأعمش «ترَى الناسَ سُكارى وما هم بسكارى». قال: «من كل ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةً وتسعين». وقال جرير وعيسى بن يونسَ وأبو معاوية: «سَكرَى وما هم بسَكرى».(يوسف عامر).

فأخذت الصحابة تصرخ وتبكي[٢]. وذات مرة أُضطر سيدنا أبو هريرة ﷺ لبيان أحد مناظر ومشاهد القيامة، فأغمى عليه أثناء الرواية وسقط ثلاث مرات. وحين تليت هذه الآية الكريمة أمام معاوية أخذ يبكي[٣].

المشهد الثاني لهذا اليقين والإيمان هو ساحة القتال يوم بدر حين زحف جيش المشركين القوي المكون من ألف مشرك فتصدى لهم المسلمين الذي لا يتعدى الثلاث مائة جندي مصطفين، فينظر الرسول (ﷺ) إلى أصحابه ويخبرهم

---

[١] الترمذي تفسير سورة الحج. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي، كتاب التفسير: (٣٢٨٤) حدثنا ابنُ أَبِي عُمَرَ حدثنا سُفيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ عَن ابنِ جُدْعَانَ عَن الحَسَنِ عَن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ ، أَنَّ النبيَّ قَالَ «لمّا نَزَلَتْ {يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ} إلى قَوْلِهِ {وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ} » قَال: أُنْزِلَتْ عَلَيه هذه الآيَةُ وَهُوَ في سَفَرٍ قَالَ: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَلكَ؟ فقَالُوا الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ ذَلكَ يَوْمَ يَقُولُ الله لآدَمَ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فقَالَ يَا رَبِّ ومَا بَعثُ النَّارِ؟ قَالَ تِسْعُمَائَةٍ وتِسْعَةٌ وتِسْعُونَ في النَّارِ وَوَاحِدٌ إلى الجَنَّةِ ، قال: فَأَنْشَأَ المُسلمُونَ يَبْكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ الله : قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فإنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطٌّ إلاَّ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهَا جاهليَّةٌ. قَالَ فَيُؤْخَذُ العَدَدُ منَ الجاهليَّةِ فَإِنْ تَمَّتْ وإلاَّ كَمُلَتْ منَ المُنَافقِينَ. وَمَا مَثَلُكُمْ والأُمَمِ إلاّ كَمَثَلِ الرَّقْمَةِ في ذِرَاعِ الدَّابَّةِ أو كالشَّامَةِ في جَنْبِ البَعيرِ ثُمَّ قَالَ: إِنِي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَكَبَّرُوا ثُمَّ قَالَ إِنِي لأَرْجُو أَنْ تَكُونوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَكَبَّرُوا، ثُمَّ قَالَ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَكَبَّرُوا، قَالَ ولاَ أَدْرِي قَالَ الثُّلُثَيْنِ أَمْ لاَ؟» .

قال أبو عيسَى: هذَا حَديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ، وقَدْ رُوِيَ منْ غَيرِ وَجْهٍ عَن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ عَن النبيِّ .(يوسف عامر).

[٢] سنن النسائي كتاب الجنائز باب التعوذ من القبر. وهذا نص الحديث كما ورد في سنن النسائي: (٢٠٦٣) أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَنِ ابْنِ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ، تَقُولُ: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ الْفِتْنَةَ الَّتِي يُفْتَنُ بِهَا الْمَرْءُ فِي قَبْرِهِ فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ ضَجَّ الْمُسْلِمُونَ ضَجَّةً حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَفْهَمَ كَلاَمَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَلَمَّا سَكَنَتْ ضَجَّتُهُمْ قُلْتُ لِرَجُلٍ قَرِيبٍ مِنِّي: أَيْ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ مَاذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي آخِرِ قَوْلِهِ؟ قَالَ: قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيباً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ».(يوسف عامر).

[٣] جامع الترمذي أبواب الزهد.

بأن هذه هي فرصة الجنة، التي عرضها السماوات والأرض قد أتتهم.[1] فسأل أحد الأنصار متعجبا: أعرضها السماوات والأرض يا رسول الله؟ فيجيبه (ﷺ) مصدقًا. فيسعد الرجل، ويتمنى أن يكون ممن يدخلون الجنة. فبشره (ﷺ) بها. فلما سمع الرجل هذه البشرى أخرج تمرة، وأخذ يأكلها بسرعة. ولكنه رأى أن الانتظار حتى الانتهاء من أكل التمرة شاق وصعب، فقال ولِمَ أنتظر؟ وألقى التمرة، واستل سيفه، وتقدم في المعركة حتى استشهد.

وقد حدث مثل هذا الموقف في غزوة أحد أيضاً. فكانت ساحة القتال تضج وتتساقط الجثث فوق بعضها، فتقدم أحد الصحابة صوب رسول الله وسأله قائلاً: أَيْنَ أَنَا، يَا رَسُولَ اللّهِ إِنْ قُتِلْتُ؟ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ». وكان السائل يأكل تمرا. فألقى التمر من يده وقاتل حتى قتل[2]. وكان أحد الصحابة وهو قيس شريكا في الجهاد قال: قال رسول الله (ﷺ):«إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ». وكان رجل من عامة المسلمين يقف بالقرب منا، فتقدم وسألني هل سمعت رسول الله (ﷺ) يقول هذا ؟ فقلت نعم. فلما سمع هذا ذهب إلى أصحابه وسلم عليهم مودعا واستل سيفه وذهب يقاتل وسط صفوف الأعداء حتى استشهد[3].

([1]) قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣). (يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٤٨٦٩) حدّثنا سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو الأَشْعَثِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ وَاللَّفْظُ لِسَعِيد. أَخْبَرَنَا سُفْيَان عَنْ عَمْرٍو سَمِعَ جَابِراً ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ: أَيْنَ أَنَا، يَا رَسُولَ اللّهِ إِنْ قُتِلْتُ؟ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ» فَأَلْقَىٰ تَمَرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ. ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّىٰ قُتِلَ. وَفِي حَدِيثِ سُوَيْدٍ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ، يَوْمَ أُحُدٍ.(يوسف عامر).

[3] وردت هذه الوقائع الثلاث في صحيح مسلم كتاب الجهاد باب ثبوت التحية للشهيد ووردت الواقعة الثانية في سنن النسائي أيضاً كتاب الجهاد باب ثواب من قتل في سبيل الله ١٢٠. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٤٨٧٢) حدّثنا يَحْيَى بْنُ يَحْيَىٰ التَّمِيمِيُّ وَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيد وَاللَّفْظُ لِيَحْيَىٰ قَالَ قُتَيْبَةُ : حَدَّثَنَا. وَقَالَ يَحْيَىٰ : أَخْبَرَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي ، وَهُوَ بِحَضْرَةِ الْعَدُوِّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ» فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ. فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَىٰ آنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ هَـٰذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَرَجَعَ

تأمل كل حدث من هذه الأحداث المؤثرة، وانظر كيف بدل تعليم رسول الله (ﷺ) شيئا فشيئا قلوب وعقول وأذهان المنكرين والكفار من العرب. وإلى أي مدى أوصل عقائدهم وأخلاقهم.

إِلَىٰ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ. ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ فَأَلْقَاهُ. ثُمَّ مَشَىٰ بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ. فَضَرَبَ بِهِ حَتَّىٰ قُتِلَ.(يوسف عامر).

القضاء والقدر

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (البقرة: ٤٩)

مع أن القضاء والقدر لم يرد ذكره في القرآن الكريم عند الحديث عن الإيمان، لكنه ورد في القرآن الكريم مراراً وتكرارا، لدرجة أن أهميته اقتضت أن يُعطى مكاناً مع الإيمانيات أيضاً. لذا اعتبر في بعض الأحاديث الصحيحة أنه آخر حلقات الإيمان.[١] والخريطة التي رسمها الإسلام في شأن التوحيد عن سعة قدرة الله ومشيئته المطلقة لابد أن يكون هذا أيضاً نتيجة حتمية لها.

وخلاصة هذا الاعتقاد أن نؤمن أن كل ما حدث في الدنيا حتى الآن وما يحدث وسيكون مطابقا لعلم الله القديم ولقضائه الأزلي. فكما أن المهندس يتفحص أولاً كل أجزاء المكان ثم يعد خارطته، ويأتي بعد ذلك البناءون والعمال ويُتمون المبنى، فذلك مهندس الخلق، سبحانه، قد حدد وعين كل الأصول والقواعد

---

[١] صحيح مسلم بروايتي ابن عمر وأبي هريرة باب الإيمان. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (٦٥) حدثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ : حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ عُمَارَةَ (وَهُوَ ابْنُ الْقَعْقَاعِ)، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «سَلُونِي» فَهَابُوهُ أَنْ يَسْأَلُوهُ. فَجَاءَ رَجُلٌ، فَجَلَسَ عِنْدَ رُكْبَتَيْهِ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «لاَ تُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ. وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَخْشَى الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا رَأَيْتَ الْمَرْأَةَ تَلِدُ رَبَّهَا، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا. وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ النَّاسِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا. وَإِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْبَهْمِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا. فِي خَمْسٍ مِنَ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ الله» ثُمَّ قَرَأَ { {إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غدا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (لقمان آية: ٣٤). قَالَ: ثُمَّ قَامَ الرَّجُلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ «رُدُّوهُ عَلَيَّ» فَالْتُمِسَ، فَلَمْ يَجِدُوهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ «هٰذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا. إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا».(يوسف عامر).

والجزئيات الأخرى المهمة لخلق الكائنات أولاً، ثم قرر وحكم وقدر بعد ذلك على كل شيء. والآن تسير هذه الكائنات وكل قضاياها وشئونها طبقا لتدبير الله تعالى ولقضائه. فالموت والحياة والفقر والغنى والنجاح والفشل والراحة والتعب فكل شيء قد حدد منذ الأزل ويسير طبقا لتقدير الله.

وهذا الاعتقاد ليس خاصاً بالإسلام فحسب، أما ما يختص فيه بالإسلام فهو تعليمه التكميلي، إذ توجد إشارات لهذه العقيدة في التوراة في قصص آدم والشيطان وهابيل وقابيل. ويوضح هذه الحقيقة حلم أو رؤيا سيدنا يوسف. لكن بغض النظر عن هذه الإشارات يوجد تعليم واضح لهذا الاعتقاد في الزبور. ففي المزمور: ١٣٨ – ١٤:

"أعمالك محيرة، فعندي يقين بالغ أنني حين كنت أخلق في الغيب وكنت أنقش في أسفل الأرض لم تكن صورة جسمي مخفية عنك. فقد رأت عينيك مادتي غير المرئية. وكتبت كل هذه الأشياء في لوحك ومتى ستخلق حين لم يكن أحد موجود" بعد ذلك يبدأ نشيد المزمور (١٤٨؛ ٥، ٦) بحمده:

"... لتسبح اسم الرب لأنه أمر فخُلقت. وثبتها إلى الدهر والأبد. وضع لها حداً فلن تتعداه".

وقد ورد القضاء والقدر في الإنجيل تحت عنوان "مشيئة أو أرادة الله" فيقول سيدنا عيسى في دعاء آخر ليالي حياته: "ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" (إنجيل متى، إصحاح ٢٦، فقرة ٣٩)[١] . وورد ذكره أيضاً في يوحنا (الإصحاح ٥، الفقرة ٣) و(الإصحاح ٦ ،الفقرة ٣٨)[٢]، وخطابات (فلپون٢–

---

[١] – وهذا نص الفقرة كما ورد في الكتاب المقدس، إنجيل متى، إصحاح ٢٦، الفقرة ٣٩: "ثم تقدم قليلا وخر على وجهه وكان يُصلى قائلا يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" (يوسف عامر).

[٢] – وهذا نص الفقرة الثامنة والثلاثين من الإصحاح السادس، إنجيل يوحنا: لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني" (يوسف عامر).

١٣)[1] وورد تفصيل كامل له في الباب التاسع للروم. لكن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) قام أولاً بتوضيح الحقيقة المجملة له، وشرح حكمته وفائدته، ثم قال إن القرآن الكريم لم يلزم الصمت فيما يتعلق بهذه الحقيقة الثابتة كالكتب الأخرى السالفة، بل أعادها وأكد عليها مرارا حتى ترسخ الاعتقاد بها في قلوب السامعين، وحفظ هذا التلقين في شكل يقين راسخ في قلوبهم. وقد فعل هذا حتى يصبح لا تعليم الصبر والشكر نظرية فحسب بل ليولد في قلوب تبعية ثبات وعزيمة وقوة تسلي وتشفي في مصائب الدنيا وحوادثها. وهكذا لم يصبح هذا المعتقد مجرد تلقين ديني أو نظرية فلسفية، كما كان من قبل، بل اختار شكل تعليم عملي مفيد.

وقد استعمل الوحي المحمدي لهذا الاصطلاح لفظين أولهما القدر أي التقدير والثاني القضاء أي الحكم. قال تعالى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر ٤٩)

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ (الأنعام ٢)

هذان اللفظان في حد ذاتهما يوضحان بطريقة كاملة الحقيقة الإسلامية لهذه العقيدة، إذ المقصود أن الله تعالى قد حدد وقدر بتقديره كل شيء للكائنات قبل أن يخلقها. وهذه الكائنات تسير طبقا لتقدير الله، فلا يمكن أن يحدث فيها مثقال ذرة من التغير بغير إذن الله تعالى، فالشمس كما خلقها، والقمر كما أضاءه، والنجوم كما حد منازلها وضوابط مغاربها ومشارقها، والموت والحياة والفناء والبقاء والمد والجزر وغير ذلك من المخلوقات كل يسير طبقا لما قدره الله تعالى له. لذا يقول الله تعالى في القرآن الكريم بعد أن بين كثيرا من أحوال الكائنات:

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس ٣٨ – ٤٠)

هذا فيما يتعلق بالسماء، أما فيما يتعلق بالأرض يقول:

[1] – وهذا نصها:" لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا أن تعملوا من أجل المسرة" (يوسف عامر).

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (فصلت ١٠)

والأكثر من ذلك أن الله تعالى قد جعل لكل شيء في الوجود قدرا:

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق ٣)

والموت والحياة أيضاً يسيران بالمنهج نفسه:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ﴾ (الواقعة ٦٠)

والتقدير الذي قدره الله تعالى لكل شيء هو ما يقول عنه النــاس قــانون القدرة، وهو الذي تسير الدنيا عليه. كذلك جعل المولى سبحانه وتعالى أحكاماً لكل جانب وكل جزء من الكائنات يجب إطاعتها. وعلى هذا فقد سنت أصول وقواعد لعروج الإنسان وزواله ولموته وحياته ولصحته وسقمه وغناه وفقــره ولراحتــه ونصبه وسعادته وشقاوته. والمقصود أن ما يعتريه من راحة أو نصب كله يكون بعلم الله تعالى وإرادته.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (التغابن ١١)

ولأنه لا يمكن لشيء أن يحيد عن التقدير، لــذا نقــول عــن المقــدرات تقديرات الله أو كتابات الله. فكما أن الكلام المكتوب لا يزول ولا ينسى، فكذلك لا تزول ولا تتبدل هذه الأمور:

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُــنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (فاطر ١١)

اشتملت هذه الآية الكريمة على فقرتين الأولى هي أن المرأة التي تحمــل في بطنها جنيناً أو تضعه إنما يكون ذلك بعلم الله تعالى. والثانية هي أن ما يعمر من معمر أو ينقص من عمره إلا وهو مكتوب في كتاب. وبمقابلة هاتين الفقرتين يتضح أن ما يكون في كتاب الله وما يكون في علم الله واحد.

وقد أظهر القرآن الكريم أيضاً أنه يركز على الأهمية الأخلاقيــة لهــذه العقيدة (عقيدة القضاء والقدر) أكثر من تركيزه على حقيقتها الفلسفية. فالإنــسان يكون فخورا مغرورا إذا نجحت محاولاته البسيطة، وييأس ويحــزن إذا فــشل. وهذان الشيئان مرضان أخلاقيان يصيبان الإنسان؛ لأن الإنسان يعتبر أن النتيجة الخيرة لأعماله أو غيرها، إنما هي ألا نتيجة حتمية لأعماله هو، لذا يغتر أحيانــا

وييأس أحياناً. وهاتان الحالتان تدمران جوهر قوة واستقلال وصبر وثبات الأفراد والشعوب. لذا كانت هناك حاجة إلى هذه العقيدة، التي تأخذ بيد الإنسان العاجز عند الغرور والفرح على النجاح والحزن والحسرة على الفشل. وهذه العقيدة هي عقيدة القضاء والقدر.

وهدف هذه العقيدة هو إبراز أن النجاح الذي يتحقق لنا ليس نتيجة مباشرة لسعينا بل إنه نتيجة فضل الله تعالى وكرمه. لذا لا يجب أن نغتر به ونفخر. كذلك الفشل الذي يعترينا إنما هو نتيجة لحكمة الله تعالى. وإن نتائج أعمالنا معلومة في علم علام الغيوب قبل أن نقوم بالأعمال، لذا يجب أن لا نيأس ونحزن، بل يجب أن ننشغل بنفس الحماس والنشاط في العمل من جديد.

وقد ورد التوضيح الكامل لقضية القضاء والقدر هذه في سورة الحديد في قوله تعالى

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد ٢٢، ٢٣)

لقد أوضحت هذه الآية الكريمة فلسفة القضاء والقدر لدرجة أنه لم تعد هناك حاجة لمزيد من التوضيح لتأييدها. وكانت نتيجة هذه العقيدة أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا يخرون سجودا للمولى عز وجل عند نصرهم وظفرهم في الفتوحات، ولم يكونوا ييأسون أو يغتموا عند الفشل والهزيمة. وكانوا يعتبرون أن نتيجة حياتهم العملية ليست لهم بل لله عز وجل لذا كانوا يلزمون الصمت. فلم ييأسوا من رحمة الله تعالى عند الحسرة، ولا المصائب السياسية ولا عند مفارقة الأعزاء والأحباب، ولا عند الهزيمة في الحرب، ولا في أي مناسبة أخرى. وكانوا يستعدون ويتأهبون لأخطر الأعمال على يقين بأن الموت لن يأتي إلا في وقته، وأن ما سيكون سيكون. فكانت قلوبهم عامرة بتيقنه بأن الجبال لن توقفهم، وأن البحار لن تغرقهم، وأن طوفان الحوادث لن يفنيهم، وأن النار المشتعلة لن تحرقهم:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُـرِدْ ثَـوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الـشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه وَمَـا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٥، ١٤٦)

أوضحت هذه الآيات أن نتيجة عقيدة القضاء والقدر لا تكون الـوهن ولا الضعف ولا الاستكانة، بل الرفعة والقوة والصبر والثبات. وهذا هو الشيء الذي يرى جليا للناظرين في أعمال رسول الله (ﷺ) وصحابته الكـرام، فقـد علمهـم صاحب الوحي أن لا يخافوا من الأعداء لأنه:

﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَـى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّـلِ المُؤْمِنُـونَ﴾ (التوبة: ٥١)

ولم يكونوا يبالون بالمخاطر ولا المشكلات، لأن من كتب عليهم المـوت سيموتون سواء في ساحة المعركة أو على فراشه، ومن لم يـأت وقـت مـوتهم سيسلمون من حد السيوف ومن طوفان البحور:

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُـمْ فِـي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران ١٥٤)

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء ٧٨)

هذه هي العقيدة التي هي سر شـجاعة المـسلمين المطلقـة وعـزيمتهم الراسخة. ويعتقد بعض الناس – بسبب سوء فهمهم – أن الإقرار بقـضية القـدر يعنى أن الإنسان مجبر، لذا يظل الإنسان متقاعداً غافلا لا عليـه إلا أن يـشكر ويصبر على تقديره. مع أن هذا الأمر لو كان صحيحا لما كان هناك داع لمبعثه (ﷺ)، ولما كانت هناك حاجة لتنزيل الكتب السماوية، ولا للتأكيد علـى التبليـغ والإرشاد، ولا للأمر بالإصلاح والهداية، ولترك خلق الله على حالهم. لكن هذا لم يحدث فقد أرسل آلاف الأنبياء والرسل، ونزلت كتب عديدة، وبعث كثيـر مـن المبلغين والمرشدين، وأكد على الهداية والإرشـاد. واعتبـرت دعـوة النـاس وإصلاحهم فريضة على كل مسلم وحُثَّ كل مسلم على السعي والكـد والكفـاح

والعمل، واعتبرت حياة رسول الله (ﷺ) المليئة بالكفاح نموذجا لنا. وصدق الخلفاء الراشدون والصحابة نجاح هذا النموذج بأعمالهم.

والآن هل تلقين الرسول (ﷺ) وعمله شيئان متضادان ؟ كلا، إن كليهما يعضد الآخر. فهكذا يصدق كل منهما الآخر. يقول النبي (ﷺ):**«اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لِمَا خُلِقَ له»(البخاري)**[1]

فالعمل فرض على الإنسان. أما نتيجة العمل فعلى الله تعالى وهذا هو التقدير. قال تعالى:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ (الليل ٤ – ١٣)

هذا هو التطبيق العملي بين القضاء والقدر والسعي والعمل. الذي كان لغزه قد أضل العالم قبل الإسلام، فالعمل وإبرازه فرض على الإنسان. أما نتيجة العمل والتي كانت قد قدرت قبل العمل فهي لله سبحانه وتعالى. ويطلق على إظهار طريق الخير للصالحين توفيق وهداية، وعدم إظهاره للأشرار إخفاق وضلال، ويكون الأمر أن الهداية أو الضلال مبنيان على السعي الأول للإنسان. لذا يقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت ٦٩)

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب فسنيسره للعسرى، كتاب التفسير: (٤٨٣٠) حدَّثنا آدمُ حدثَنا شُعبَةُ عن الأعمشِ قالَ: سَمِعتُ سعدَ بن عُبيدَةَ يُحدِّثُ عن أبي عبد الرحمن السُّلَميِّ عن علي رضي الله عنه قال: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم في جنازَةٍ، فأخذ شيئاً فجعل ينكُتُ به الأرْض، فقال: ما منكمْ مِن أحَدٍ إلا وقد كُتب مَقعدُه من النَّار، ومقعدُهُ من الجَنة. قالوا: يا رسولَ اللَّه أفَلا نتكلُ على كتابنا ونَدعُ العَمَل؟ قال: اعملوا فكلٌّ مُيسَّر لِمَا خُلِقَ له، أما من كان من أهلِ السعادة فييسَّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهلِ الشقاءِ فييسَّر لِعملِ أهل الشقاوةِ، ثم قرأ {فأَمَّا من أعْطى واتقى وصدَّق بالحسنى} الآية».(يوسف عامر).

فتكون هداية الله وتوفيقه وكذلك يكون الضلال وعدم الهداية نتيجة حتمية لعمل الإنسان الصالح أو عمله غير الصالح:

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ﴾ (البقرة ٢٦)

المقصود أن الفسق وعدم الطاعة والعصيان تكون أولاً، لذا تكون الضلالة بعد ذلك نتيجة طبيعية من الله للعبد بناءً على أعماله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾(النجم ٣٩، ٤٠)

مثال ذلك مثال الطفل. فكيف للطفل أن يتعلم المشي أو الكلام. إنه يحاول أولاً بنفسه أن يمشي أو يتكلم ثم يعلمه والداه المشي والكلام. فحين يرفع الطفل قدميه يمسك والداه يديه ويمشيانه بضع خطوات. وهكذا يتعلم المشي شيئا فشيئا. وكذلك يحرك الطفل لسانه أولاً، ويخرج أصواتٍ مبهمة فيعلمه والداه ألفاظاً ذات معنى. وهكذا يصبح بمقدوره أن الكلام. وكذلك يكون التقدير الإلهي والعمل الإنساني.

الجبر والقدر

يتطرق الناس بشكل عام إلى قضية الجبر والقدر عند الحديث عن هذا الموضوع أي هل الإنسان مجبور على أعماله أو مختار ؟ مع أن هذه هي العقدة واللغز الذي لم يستطع الدين ولا حتى العقل حله. فكما احتار أهل الدين في التوفيق بين إرادة الله وإرادة العبد، كذلك لم يستطع معلموا فلسفة الإلهيات التوفيق بين العلم الإلهي والحرية العملية للإنسان. وكذلك لم يستطع أصحاب فلسفة الأخلاق تفسير التصادم الذي يكون بين حرية عمل الإنسان وبين الآثار الموروثة له وبين المشاعر الفطرية وتأثيرات البيئة.

وقد كان هذا أيضاً هو حال عامة مذاهب الدنيا. كانت لديهم هذه العقدة وكانوا قد أوجدوا صورتين لحلها أو التزموا الصمت اتجاهها، ولم يتطرقوا للحديث عنها. فمال من اتجه للحل بوضوح إلى الجبر، لذا يوجد هذا الجبر في

المذاهب الهندية في شكل التناسخ والكرم. وفي شكل معصية آدم ومـشيئة الله[1] عند النصارى. وفي مجموعة توراة اليهود في قيادة وإرشاد صحيفة سيدنا أيوب. في الجانب الآخر كان هناك المجوس الذين بالغوا في حرية واختيـار الإنـسان لدرجة أنهم جعلوا الله تعالى نفسه عاجزاً أمام الإنسان، فليس لله تعالى عندهم أي تحكم في أعمال العباد فحسب بل في أعمال الملائكة أيضاً[2]. والمقصود أنه كان هناك هذان النوعان من الأديان قبل مبعثه (ﷺ) أي أنه كان هناك من هـم علـى جهل بهذه المشكلة، ومن عندهم دراية بالمشكلة ويعبرون عن قدرة الله المطلقـة وبمشيئة العامة بجبر الإنسان التام، وهناك من أسقطوهم فـي دوامـة التناسـخ وجعلوه رهينة أعمال حياته السالفة، وهناك من تفادوا هذا وجعلوا الإنسان مختاراً لدرجة جعلت الله تعالى نفسه مجبرا.

ومن بين كل الأنبياء كانت شخصية النبي (ﷺ) هي الشخصية التي أزاح الله تعالى بها الستار عن هذا السر. والحقيقة أن هناك حقيقتين ثابتتين وصحيحتين في حد ذاتهما: الحقيقة الأولى هي أن الله تعالى يملك القدرة المطلقة علـى كـل الدنيا وكل من وما فيها. فلا شيء في السماء والأرض والبر والبحر يتحرك دون إرادته ومشيئته، وكذلك الإنسان وأعماله كلها خاضعة لقدرة الله ومشيئته. هذه هي العقيدة التي هي أساس كل الأديان عامة والإسلام خاصة. فلو كانت قوة الدين بلا أثر، ولتحتم الإيمان بإله اختياراته محدودة وقدرته ناقصة وملكوته غير مكتمل.

٢- من ناحية أخرى هناك حقيقة أن الإنسان ليس كباقي المخلوقات بـل إنه أعطى بطريقة أو بأخرى اختيارا في القيام بأعماله أو عدم القيام بها. ولو لم يسلم بهذا وافترض أن الإنسان مجبور تماما كباقي المخلوقات الأخرى، لأصـبح التمييز بين الخير والشر والثواب والعقاب والشريعة والكتاب ومعية الأنبياء أشياء غير مجدية للإنسان، ولما بقى شيء في الظلم والإنصاف، ولأصبح مدح الإنسان

---

[1] ورد في الإنجيل أن سيدنا عيسى قال في دعاء ليلة أسره: "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت". ويمكن الوقوف على جدل وآراء فـرق الجبر والقدر المسيحية من خلال كتاب الإسلام لكانت (الترجمة العربية) صـ ٨٧.

[2] شفاء العليل في القضاء والقدر والتعليل لابن القيم.

أو ذمه على فعله لغوا، وستكون إثابة الله تعالى على الأعمال الصالحة وعقابه على الأعمال الطالحة ظلما بينا، بل لما اعتبر الإنسان مسئولا عن أي فعل من أفعاله في محكمة هذه الدنيا.

والمقصود أن هذين الأمرين صحيحان في حد ذاتهما. إذ يعني الأمر الأول أن لله تعالى قدرة تامة على مخلوقاته وأن مشيئته وإرادته تضم كل شيء. والثاني أن للإنسان اختيارا ما في أعماله يصبح به مسئولا عن عمله، ويستحق المدح والثناء على العمل الصالح، والذم والعقاب على الأعمال الطالحة، ويستحق على أساس هذا اختيار الثواب أو العقاب في الآخرة على فعله. ويكون مسئولا عن عمله في محكمة الدنيا والآخرة. ولأجله يأتيه من الله كتاب الهداية ورسل وأنبياء ليظهروا له أو ليبنوا له الطريق.

والكتاب الرباني الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ هو أول وآخر كتاب سماوي سلم بهاتين الحقيقتين بتفصيل ووضوح تامين وبلغهما فيقول من ناحية: **﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾** ومن ناحية أخرى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾** بمعنى أن الله تعالى رغم قدرته الشاملة واختياره المطلق وإرادته الواسعة قد أعطى باختياره ومشيئته وحكمته هو الإنسان إرادة وطاقة مشروطة لتحريك الأعضاء القائمة بالأعمال طاقة تتماشى مع الإرادة. هذه الإرادة وهذه القوة المحدودة لتحريك الأعضاء طبقا للإرادة هما أساس مسئولية وتكليف ومحاسبة ومؤاخذة الإنسان، وعليهما أيضاً تقوم أعماله وأخلاقه ومعاملاته. لذا لا يعتبر الإنسان مسئولاً شرعا عن العمل الذي لم يصدر عن نيته وإرادته؛ بل إنه ظل مجبوراً وبلا اختيار في فعله أو عدم فعله. (إِنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات).[1] وعليه فلا

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي: (١) حدَّثنا الحُمَيْديُّ عبدُ اللّهِ بنُ الزُّبَيرِ قال: حدَّثَنا سُفْيَانُ قال: حدَّثَنا يحيى بنُ سَعيدٍ الأنْصاريُّ قال: أخبرَني محمدُ بنُ إبراهيمَ التَّيْمِيُّ أنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بنَ وقَّاصٍ اللَّيْثيَّ يقولُ: سمعتُ عمرَ بنَ الخَطّابِ رضي اللّهُ عنه على المِنْبَرِ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يَقولُ «إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيات، وإنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إلى دُنْيَا يُصيبُها، أَوْ إلى امْرَأةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إلَيه».(يوسف عامر).

يكون هناك فرق في سعة قدرة واختيار الله تعالى، ولا يكون الإنسان مجبورا كلية. ويسلب الله تعالى إرادته وقدرته اللذين وهبها للإنسان وقتما يشاء. ولكنه لا يحرمه حتى وقت محدد من الإرادة والقدرة التي وهبهما إياه طبقا لوعده تعالى وقانونه الذي سنه. لذا قال تعالى:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف ٢٩)

لذا يجعل الإنسان نفسه في الجنة أو يهيئ لنفسه مكاناً في النار:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت ٤٦)

ولو لم يكن هذا لكن لكان وذات الله تعالى مبرأة عن الظلم ومنزهة عنه. لذا يقول لرسوله (ﷺ): ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس ٤٢ – ٤٤)

فذلك الإنسان الذي يكون أعمى وأصم ولا يسمع لرسالة الحق ولا يعمل به، فإن الله سبحانه وتعالى يخلقه أعمى وأصم ولا يكلفه الرؤية ولا السماع لأنه لو فعل هذا لكان ظلماً. وكل أوامر الله وأعماله مبرأة عن كل شوائب الظلم. وكانت الناس قد خدعت من ألفاظ الهداية والضلال في القرآن الكريم، مع أن الهداية والضلال هما فيضان من الله تعالى الذي يكون فمن الله جزاء لأعمال الإنسان الصالحة أو الطالحة. يقول تعالى في شأن الضلالة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (البقرة ٦، ٧)

انظر حين صدر الكفر من الإنسان أولاً، أضله الله، فقال بطريقة تشبيهية إن الله تعالى ختم على قلوبهم فلا يفقهون، وختم على سمعهم، فلا يسمعون، وختم

على أبصارهم فهم لا يبصرون. [١] ويقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿**بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**﴾ (النساء ١٥٥)

هنا أيضاً قدم الكفر على ختم الله. والمقصود من ذلك هو أنه حين يظل الكفر يصدر باستمرار فإن جوهر الصدق والمعرفة والتأثر يُسلب من القلوب وهذا هو ختم الله[٢]. وعلى النقيض من ذلك لو حاول الناس سماع الحق بآذانهم ورؤيته بأبصارهم وفهمه بقلوبهم، فإن الله تعالى يوفقهم ويهديهم. لذا قال تعالى:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**﴾ (يونس ٩)

﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى**﴾ (محمد ١٧)

وقد زاد خلط فلسفة الخير والشر الإيرانية هذه المسألة تعقيداً، مع أن ألفاظ الخير والشر العربية لا تقتصر على أعمال الخير والشر. فمعنى الخير المطلق في العربية المال والنعمة والراحة والمعنى المطلق للشر هو الفقر والتعب والمصيبة، وقد استعمل هذان اللفظان في القرآن الكريم في هذه المعاني، إلا أنه حين يأتي معها لفظ العمل فإنهما يستعملان في معنى عمل الخير أو عمل الشر. مثل قوله تعالى:

﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾(الزلزلة ٧، ٨)

لذا فهذان اللفظان في الحديث: "**والقدر خيره وشره من الله تعالى**"[٣] لا يعنيان أن أعمال الإنسان الخيرة والشريرة من عند الله تعالى؛ بل معناهما أن ما

---

[١] يقول تعالى: ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾(**البقرة:٧**) (يوسف عامر).

[٢] حيث ذكر في القرآن الكريم ختم الله أو عدم هدايته ذكر مسبقا سبب كفره وفسقه، لذا ليس الاستدلال بهذه الآيات على الجبر صحيحاً.

[٣] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح ابن حبان، كتاب الإخبار عن وصف الإسلام والإيمان: (١٦٧) أخبرنا الحسنُ بنُ سُفْيَان ، حدثنا محمدُ بنُ المِنْهَال الضَّرِيرُ ، حدثنا يزيدُ بنُ زُرَيْع ، حدثنا كَهْمَسُ بنُ الحسن ، عن عبدِ اللَّهِ بن بُرَيْدَة عن يحيى بن يَعْمَر قال : خرجتُ أنا وحُمَيْدُ بنُ عبد الرحمٰن الحِمْيَري حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، وقُلْنا: لَعَلَّنَا لَقِينا رجُلًا من أصحابِ محمد ، فَنَسْأَلُهُ عَنِ الْقَدَرِ، فَلَقِينَا ابنَ عُمَرَ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْنَا: يا

يصيب الإنسان من راحة وتعب ومسرة وتكليف وغنى وفقر وصحة ومرض وغير ذلك من الخير أو الشر كلها جميعا من عند الله تعالى. وليس هناك عذر في الاعتراف بهذا.

وقد اشتبه على بعض الناس فهم المفهوم الصحيح بسبب تلك الآيات التي قيل فيها "ولو شاء الله لهداهم". فهم يفهمون بطريق الخطأ أن الله تعالى هو نفسه الذي يوقف ويحجز أولئك الكفار جبرًا عن أن يهتدوا، مع أن مطلب هذه الآيات هو أن هؤلاء الناس لا يقبلون الإسلام بأنفسهم، ولو شاء الله لجعلهم مسلمين عنوة، ولكن جعل الإنسان مسلماً أو كافرًا أو خيرا أو شريرا عنوة ينافى قانون الله تعالى. وهذا هو ما قصد من هذه الآيات:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان ٣٠)

﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الأنعام ١١١)

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ (الأنعام ٣٥)

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام ١٤٩)

أبا عبدِ الرحمنِ، قد ظَهَرَ عندنا أُناسٌ يقرؤون القرآنَ يتقفَّرونَ العلم تَقَفُّراً، يزعُمُون أنْ لا قَدَرَ، وأنَّ الأمرَ أُنُفٌ. قال: فإنْ لقيتَهم، فأعلمهم أنِّي منهم بريءٌ، وهم مني بُرَآء، والذي يَحلِفُ بهِ ابنُ عُمر: لو أنَّ أحَدَهم أنفقَ مِثْلَ أُحُدٌ ذهباً، ثم لم يُؤْمِنْ بالقَدَرِ، لَم يُقْبَلُ منه. ثم قال: حدثني عمرُ بنُ الخطَّاب ، قال: بيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ذاتَ يوم جالساً، إذْ جاءَ رَجُلٌ شَدِيدُ سَوَادِ اللِّحْيَةِ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَاب، فَوَضَعَ رُكْبَتَهُ عَلَى رُكْبَةِ النَّبيِّ ، فقال: يا محمدُ، ما الإسْلَامُ؟ قال: «شَهَادَةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللَّهُ، وَإقَامُ الصَّلَاة، وإيتاءُ الزكاة، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ البَيْتِ» قالَ: صدَقْتَ. قالَ: فعَجِبْنَا مِنْ سُؤالِهِ إياهُ، وتَصديقِه إياهُ. قالَ: فَأخْبِرْنِي: ما الإيمانُ؟ قال: «أنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، والْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حُلْوِهِ وَمُرِّهِ» قال: صدَقْتَ. قال: فَعَجِبْنَا مِنْ سُؤالِهِ إياه، وتَصديقِه إياه. قال: فأخْبِرْنِي: ما الإحْسَانُ؟ قال: «أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاك» قال: فأخْبِرْنِي مَتَى السَّاعةُ؟ قال: «ما المَسْئُولُ بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قال: فما أمَارَتُهَا؟ قال: «أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَهَا، وأنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ رِعَاءَ الشَّاة يَتَطَاوَلُونَ في الْبُنْيَانِ» قال: فتولَّى وَذَهَبَ. فقال عُمَرُ: فَلَقِيَنِي النَّبيُّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ، فقال: «يا عُمر، أتَدْرِي مَنِ الرَّجُلُ؟» قُلْتُ: لَا. قالَ: «ذَاكَ جِبْرِيلُ أتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».(٣٠:٣)(يوسف عامر).

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل ٩)

ولكن الله تعالى لا يهدي العبد من نفسه دون أن يريد العبد ويسعى. لذا تتطابق هذه الآيات القرآنية التي ورد فيها اعتبار مشيئة العباد تتطابق مع هذه المشيئة الإلهية قال تعالى:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف ٢٩)

﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الإنسان ٢٩، والمزمل ١٩)

﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً﴾ (النبأ ٣٩)

﴿إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان ٥٧)

وتكون الضلالة والزيغ كذلك من الله تعالى ولكن لمن تكون ؟ صرح بذلك المولى سبحانه فقال:

١. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة ٢٦)
٢. ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف ٥)
٣. ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين ١٤)
٤. ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ (النساء ١٥٥)
٥. ﴿انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة ١٢٧)
٦. ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف ١٠١)
٧. ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ (البقرة ١٠)

تدبر فى هذه الآيات حتى يتضح لك جليا من كل آية منها أن سوء أعمال الإنسان قد جاءت أولاً وتقدمت، وأن إضلال الله لهم وطبعه على قلوبهم، وانصرافهم عنه وإعراضهم كان جوابا لأعمالهم. بمعنى أن فسق الإنسان وصده وكفره وزيغه وانصرافه ومرض قلبه يكون أولاً، ثم تكون بعد ذلك ضلالة وطبع الله علي قلوبهم. وهذا هو الوضع الطبيعي. مثال ذلك حين يسقط الإنسان فيتألم ويحزن ثم يبكي. ولو أوضح شخص ما هذا الأمر بطريقة مقلوبة لكان جهلاً بينا.

على كل حال فإن المصلحة العجيبة لمهبوط الوحي ولرسالة سيدنا محمد (ﷺ) في هذه المسألة هي أن النبي (ﷺ) قد لقن أمته أن يؤمنوا بهذه القضية لدرجة

كبيرة حتى أنه نهى عن البحث والنقاش فيها[١]. وفي الحقيقة فالسر في الاستفادة بهذه الطريقة من هذه النظرية هو أن البرعم حين يعصر يذهب عطره.

وبترك كل الجهات الواسعة والأطراف المترامية لهذه العقيدة التي ولدتها المساعي الجدلية للمتكلمين يجب أن نفهم هذه الآية القرآنية فقط: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**﴾ (الفرقان ٢)

---

[١] المشكاة باب الإيمان بالقدر.

نتائج الإيمان

وردت في الصفحات السابقة تفاصيل حقيقة الإيمان وفروعه الستة، وهي الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر (خيره وشره) وأوضحنا حقيقة كل منها، وأدلة تصديقها، والقوانين التي وضعها الشارع في تعليمها. وبحثنا في البداية أيضاً لماذا أعطى الإيمان في كل الأديان عامة وفي الإسلام خاصة أهمية أولى. كانت هذه المباحث أسسا أو أصولا وهنا في الخاتمة نكرر هذه الدعوى ثانية على أساس أنها نتائج، أي أن الإيمانيات في الحقيقة تستحق أن تعطي درجة أولى في الدين لأن النتائج التي يريد الدين أن يصل إليها لا يمكن الوصول إليها بغير الإيمان.

وقبل أن نعمل بقانون ما يجب علينا أولاً أن نتأكد من صدق وميزة هذا القانون، ولو لم يحدث هذا لما استطعنا أن نعمل به بإيمان، ولا يمكن أن يؤثر على أنفسنا وضمائرنا. وقد ثبتت هذه الحقيقة بكل الأدلة، وهي أن كل أعمالنا تابعة لقلوبنا، لذا طالما لم يتبدل القلب فلن يحدث تغيير في أعمالنا، بمعنى أن إصلاح أعمالنا يتوقف على إصلاح قلوبنا، وهدف الإيمان هو إصلاح هذا القلب، لأنه لو صلح لصلح كل شيء.

وهنا نقطة خاصة لا يجب أن نتقدم دون أن نفهمها وهي أن اليهود كانوا قد أعطوا الطقوس العملية أهمية بالغة، وعلى النقيض منهم جعل النصارى مدار النجاح والفلاح على الإيمان فحسب، لذا أُبرز هذا التعليم في رسائل وأقوال الحواريين وقيل إن وسيلة النجاة هي الإيمان فحسب لا العمل. أما الرفعة والعظمة التكميلية الأولى للإسلام في هذا الشأن فهي أنه يجمع الاثنين بعد أن يصلحهما، ويقول إن النجاة لا تتوقف على الإيمان فحسب ولا على العمل وحده بل موقوفة على اجتماع الإيمان الصحيح والعمل الصالح ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾. الأمر الثاني هو أنه لا يعطي الإيمان أهمية على أساس أنه إيمان

فحسب، بل يعطيه أهمية لأنه سبب وعلة العمل الصالح بمعنى أنه يمهد الطريق للعمل الصالح ويسوي الأرض ويساويها للزراعة.

وثمة حقيقة واضحة وهي أن الشجرة تعرف بثمرتها، لذا يمكن أن يعرف نخل الإيمان بثمرته. فلو وجدت شخصا يدعي الإيمان بلسانه ولم تجد في أفعاله ما يؤيد قوله، فيجب أن تفهم أن الإيمان نزل على لسانه ولم ينزل في أعماق قلبه. لهذا السبب يقول القرآن الكريم إن كل صلاح وخير هو وصف للإيمان وصفة لازمة للمؤمنين.

وفي كل مناسبة مهمة ينادي المسلمين ويقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ هذا النداء الذي يبين أنه يمكن أن يعمل بتلك الأحكام أولئك الذين اتصفوا بالإيمان. لذا قيل في أماكن عديدة: ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ فوضح من هذا أن هذا الكلام خاص بالمؤمنين الذين هم أهل له. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ (البقرة:١٦٥) ويتضح من هذا أن محبة الله هي أكبر علامات الإيمان. قال تعالى في سورة أخرى:

﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (النور ٥١)

فظهر منها أن إطاعة الله ورسوله والتسليم لأمر هي نتيجة الإيمان. قال تعالى في آية أخرى:

﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ (آل عمران ١٢٢).

علمنا أن التوكل والاعتماد على الله هي صفة المؤمنين. وهكذا بينت أوصاف المؤمنين في سورة النور:

﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ (المؤمنون ١ – ٩)

فقد علمت من هذه الآيات الأوصاف الأساسية للمؤمنين وهي الخشوع والخضوع في الصلاة، والإعراض عن اللهو، وإخراج الزكاة، وحفظ الفرج، والأمانة، ومراعاة العهد، والحفاظ على الصلاة. وفي هذه الآيات رمز عجيب وهو أن أوصاف المؤمنين قد بدأت بالصلاة وانتهت بها أيضاً. فتخرج من هذا إشارة إلى أن الصلاة هي أول وآخر علامة الإيمان. لذا ركز أكثر ما ركز بعد الإيمان عليها.

وقد أوردنا هنا بعض الآيات على سبيل المثال، وإلا لو استقصى أحد فسيجد في القرآن الكريم آثارا أخرى ونتائج عديدة للإيمان. والأحاديث النبوية أيضا مليئة بهذا الموضوع. فيقول رسول الله (ﷺ) في حديث صحيح:

"الإيمان بضع وسبعون شعبة"[1] وقد عدد البيهقي في كتاب شعب الإيمان شعب الإيمان السبعون شعبة شعبة وأسمى كتابه أيضاً شعب الإيمان. وأخبر في أحد الأحاديث أن حسن الخلق شعبة من الإيمان. فيقول رسول الله (ﷺ):

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً»(سنن أبي داود كتاب السنن)[2]

والمركز الأساسي لحسن الخلق هو المحبة. هذه المحبة يجب أول من تكون لهذه الذات التي هي مرجع ومركز المحبة أي الله تعالى. ثم بعد ذلك تكون هذه المحبة بالتبعية لمن عملنا بتعليماته وإرشاداته الجوهر الإيماني. فلا تساوي هذه المحبة أي محبة أخرى سواء أكانت حبا لشئ دنيوي أو لقريب: لذا قال (ﷺ):
«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». (البخاري ومسلم كتاب الإيمان)[1]

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١٧) حدثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ سُهَيْلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ».(يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث: (٤٦٧٤) حدثنا أَحْمَدُ بنُ حَنبلٍ أخبرنا يَحْيَى بنُ سَعِيدٍ عن مُحمَّد بن عَمْرٍو عن أبي سَلَمَةَ عن أبي هُرَيْرَةَ ، قالَ قالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً» .(يوسف عامر).

الأثر الثالث للإيمان هو أن يحب لبني جنسه ويخلص إليهم كما يحب هو لنفسه، لذا قال رسول الله (ﷺ):

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ (أَوْ قَالَ لأَخِيهِ) مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». (البخاري ومسلم كتاب الإيمان)[٢]

وقال رسول الله (ﷺ) لصحابته ذات مرة: «لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ «أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ» (مسلم كتاب الإيمان)[٣]

ويجب ألا تكون هذه المحبة رياء أو سمعة أو لمنفعة أو خسران، بل يجب أن تكون خالصة لله تعالى وحده. قال رسول الله (ﷺ):«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ لله، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أَنْ يُقذَفَ في النَّارِ» [٤] وذات

---

١ - وهذا نص الحديث في صحيح مسلم: (١٣٢) حدثنا مُحمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَ ابْنُ بَشَّارٍ قَالاَ: حَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».(يوسف عامر).

(٢) وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٣٤) وحدّثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ : حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ حُسَيْنٍ الْمُعَلِّمِ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عنِ النَّبِيِّ قَالَ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ (أَوْ قَالَ لأَخِيهِ) مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». وهذه رواية أخرى وردت في صحيح مسلم:(١٣٣) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَ ابْنُ بَشَّارٍ قَالاَ: حَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ. قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ (أَوْ قَالَ لِجَارِهِ) مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». (يوسف عامر).

٣ - وهذا نص الحديث: (١٥٧) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ وَ وَكِيعٌ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا. وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ «أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ».(يوسف عامر).

٤ - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١٦) حدَّثنا محمدُ بنُ المُثنَّى قال: حدثنا عبدُ الوهَّابِ الثَّقفيُّ قال: حدَّثنا أيوبُ عنْ أبي قِلابَةَ عنْ أنسٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما،

مرة سأل أحد الصحابة رسول الله (ﷺ) وقال: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الإسلام أَفضلُ؟ قال: مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ» [1] وقال (ﷺ) "الإيمان بضع وسبعون شعبة... والحياء شعبة من الإيمان[2]. وعلمنا أيضا أن: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ». [3] ويروي أحد الصحابة عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ» [4].

وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّار»(يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (١١) حدَّثنا سَعيد بن يَحيى بنِ سَعيدٍ القُرَشيُّ قال حدَّثنا أبي قال: حدثنا أبو بُرْدَةَ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي بُرْدَةَ عن أبي بُرْدَةَ عن أبي موسى رضيَ اللَّهُ عنهُ قال: «قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الإسلام أفضلُ؟ قال: مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ»(يوسف عامر).

[2] – وهذا نص الحديث: (١١٧) حدثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ سُهَيْلٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ : «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ». (يوسف عامر).

[3] – وهذا نص الحديث: (١٣٦) حدثني حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ : أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ. عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ قَالَ : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ». (يوسف عامر).

[4] وردت كل هذه الروايات في الصحيحين كتاب الإيمان.وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٤٠) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ. ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى : حَدَّثَنَا مُحمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ كِلاَهُمَا عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ. وَهٰذَا حَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ، يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلاَةِ: مَرْوَانُ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ. فَقَالَ: الصَّلاَةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ؟ فَقَالَ: قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ. فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هٰذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ».(يوسف عامر).

في المقابل نبهنا النبي (ﷺ) إلى علامات النفاق، والتي إن وجدت واحدة منهن فى أي شخص كان منافقا حتى وإن كان يصلي ويصوم. يقول ﷺ: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنافقاً خالصاً، وَمَنْ كانتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ» [1].

يتضح من هذا التفصيل أن الأعمال الصالحة والطيبات فروع لجذر واحد يسمى الإيمان، لذا فالإيمان هو أساس الدين. فإن انعدم فلن يكون هناك أساس للصالحات والطيبات الإنسانية. ولا يجب أن يشك أحد في أنه لا أهمية للعمل بعد الإيمان، لأن الإسلام أكد مرارا على أن النجاة وتتوقف على الإيمان والعمل الصالح. لذا أكد دائما عند قوله "آمنوا" على "وعملوا الصالحات". بل إن كل ما سلف ذكره يهدف إلى أن الإيمان أصل والعمل فرعه والإيمان لازم والصالحات ملازمة له بمعنى أن الاثنين يرتبطان ببعضهما ارتباط الأصل والفروع واللازم والملزوم، الذي لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر. وكما أنه لا خير في عمل بدون إيمان فكذلك الإيمان بلا عمل يكون كشجرة بلا ورق ولا ثمر، لا فائدة لها ولا منها. وعلى هذا إذا وجد الإيمان فلا بد أيضا من وجود نتائج وآثار عملية له.

لقد كتبت أربعمائة وواحد وسبعين صفحة. وربما تعبت أيدي القارئين من ثقل هذا الكم من الأوراق وأرقت عيونهم من قراءة هذه السطور. لذا فالأفضل لهم

---

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان. وهذا نص الحديث: (٣٤) حدَّثنا قَبيصةُ بنُ عُقْبَةَ قال: حدثنا سُفْيانُ عنِ الأعْمَشِ عنْ عبدِ اللّهِ بن مُرَّةَ عنْ مَسْروقٍ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ عَمْـرو أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنافقاً خالصاً، وَمَنْ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ منهنَّ كانتْ فيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النفاقِ حتى يَدَعَها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فَجَرَ». تابعه شُعبةُ عنِ الأعمش.(يوسف عامر).

أن يستريحوا أيضا من الكاتب. بالرغم من أن الشاعر يقول: ليس هناك تعب في طريق السالكين(العاشقين) فالطريق هو العشق فامنحني إياه [1]

سليمان الندوى

دار المصنفين – رمضان ١٣٥٠هـ

تمت الترجمة بحمد الله تعالى ٨ من ذي الحجة هـ

٨ يناير ٢٠٠٦م

يوسف عامر

---

[1] إن الأشعار التي أوردها المؤلف فى هذا الكتاب أغلبها من تأليفه إذ يذكر أحيانا منشد الشعر الذي يستشهد به، وأحينا لا يشير إلى المؤلف، ومن ثم فإن الأشعار التي لم يذكر مؤلفهـا فهي من تأليفه هو. (يوسف عامر).

الفهرس

تقديم (المترجم) ١
مقدمة (المؤلف) ١
مقام النبوة ١
النبي والمصلح والحكيم ٢
حقيقة وخصائص النبوة ٣
الطريقة الإجمالية لثبوت النبوة والرسالة ٥
ثلاث طرق لثبوت النبوة مفصلاً ٦
الحاجة إلى النبي ٩
عصمة النبي ١٠
حب النبي لدى كافة الناس ١١
المصلحون ١١
بعثتان للنبي ﷺ ١٣
اصطفاء أمة للبعثة ١٤
زمن البعثة ١٤
النجاح المؤكد للنبي ١٤
شبهة والرد عليها ٢٤
حكمة ٢٧
الفارق بين النبي وغير النبي ٢٨
خصائص النبوة ٣٣
الاستعداد الوهبي ٣٥
العلم الغيبى ٣٨
مصادر العلم الإنساني ٣٨
أزمنة حصول مصادر العلم ودرجاتها ٤١
العلم الغير مادي ٤٣
حكمة ٤٧

علم الغيب ٤٨
حقيقة الغيب ٤٩
الوحي وموهبة النبوة ٥٣
الكتاب والسنة ٥٥
الوحي المتلو والوحي الغير متلو ٥٦
الأحاديث بيان للقرآن الكريم ٥٩
الإلهام والاجتهاد والحكمة ٦٠
اجتهاد النبوة ٦١
استنباط الشرائع من حديث النبيﷺ ٦٣
باب بيان أقسام علوم النبي ﷺ
العصمة ٦٩
إزالة بعض الشبهات ٧٥
حكمة ٧٨
بشرية النبي ﷺ ٨٢
الخطأ فى الاجتهاد النبوي ٩٠
فى معنى هذا الخطأ ٩١
العقل البشري ١٠٥
الدليل الشرعي للموهبة النبوية أو العقل النبوي ١٠٩
الحكمة ١١٠
تعليم الكتاب والحكمة ١٢٠
العلم ١٢٢
العلم والحكم ١٢٣
شرح الصدر ١٢٥
تبيين الكتاب ١٣١
الإراءة ١٣٣
الرسول هداية بذاته ١٣٥

التزكية ١٣٦
النور ١٣٧
رؤية الآيات والملكوت ١٣٧
التبليغ والدعوة ١٣٨
نتيجة تعليم الأنبياء ١٤٤
غرض النبوة وغايتها ١٤٥
أحوال العالم الدينية والأخلاقية عند بعثة رسول الله (ﷺ) ١٥١
كيف كانت حالة العالم الدينية والثقافية عند ظهور الإسلام؟ ١٥٣
مجوسية الفرس ١٥٣
مسيحية الروم ١٥٨
الهند ١٦٨
اليهود ١٧١
أحوال العرب الدينية والأخلاقية عند ظهور الإسلام ١٨٣
الإيمان بالله ١٨٤
تأليه الملائكة ١٨٥
تأليه الجن ١٨٦
عبادة الأصنام ١٨٧
عبادة الكواكب ١٩٧
الجن والشياطين والغيلان ١٩٨
الكهانة ٢٠٠
الإيمان بالخرافات ٢٠٤
القتال ٢٠٦
شرب الخمر ٢٠٧
الميسر ٢٢١
الربا ٢٢٣
قطع الطريق ٢٢٦

السرقة	٢٢٧
الوحشية والضراوة	٢٣١
الزنا والفواحش	٢٣٢
الوقاحة والفجور	٢٣٥
اضطهاد المرأة	٢٣٧
الجهل والبداوة	٢٤٠
سمات العرب	٢٤٣
وجدارتهم بأن يكونوا خير الأمم	
الدعوة النبوية "مبادئها وأسباب نجاحها"	٢٩٧
الإسلام	٣٥٣
أو الأعمال النبوية لرسول الله محمد (ﷺ)	
العقائد	٣٦١
الإيمان بالله تعالى	٣٦٩
التوحيد وأركانه وأصوله	٤٠٩
الإيمان بالملائكة	٤٨٧
الإيمان بالرسل	٥٠٣
الإيمان بالله وكتبه	٥١٥
الإيمان باليوم الآخر والآخرة	٥٣٧
البرزخ	٥٤١
المرحلة الثانية الحقيقية للآخرة	
القيامة والجزاء	٥٧٣
الثواب والعقاب	٥٩٧
الجنة	٦٦٧
القضاء والقدر	٧٠٥
نتاج الإيمان	٧٢١